















# تاريخ الأدب العربي

في

العصر العباسي

بغير الاندلس والمغرب



بقلم

أحمد حسن

مدرس أدب بدار العلوم

الطبعة الثانية

حق الطبع للمؤلف

١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م

---

مطبعة العلوم بشارع الخليل بجنينة لاط



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## العصر العباسي

١٣٢ - ٦٥٦ هـ

### تصوير عام

للحال السياسية في هذا العصر الطويل

دالت الدولة الأموية، وآلت إلى العباسيين والعرب فريقان: ففريق  
يحن إلى الدولة الدائلة، ويود أن لو عاد الزمن بها إلى الأعقاب، وآخر يرى  
أن ما فعله العباسيون من استئثارهم بالخلافة على أبناء عمهم العلويين ذوي  
الحق الأصيل اقتراء وطغيان<sup>(١)</sup>، فكان من الطبيعي حينئذ أن يولوا  
وجهة الدولة الجديدة عن العرب، إلى غيرهم في تثبيت قواعدهم، وتصريف  
شئونهم، ولم يك هناك غير سوى الفرس، وإن كانوا في عقيدتهم علويين،

(١) يزعم العباسيون أنهم أحق بالخلافة من أبناء علي، لأنهم فوق ورائهم  
للعباس «وإرث النبي في عمومته دون أبناء علي من فاطمة ومن غير فاطمة بالأولى»  
قد تنازل لهم عن حقهم في الخلافة هؤلاء إلا أبناء، ذلك أن أبا هاشم بن محمد بن  
علي بن أبي طالب نزل مقيماً بقرية الحريمة بالشرارة من الشام لدى علي بن عبد الله  
ابن العباس، وحين دنت وفاته عنده تنازل له عن هذا الحق الذي آل بعد علي  
إلى ابنه محمد فأقام الدعاة وجعل عليهم النقباء وصرحهم إلى خراسان. ولكن  
العلويين ينكرون هذا التنازل ومن اعتمد به منهم يجعله حجة على أبناء علي من  
محمد بن الحنفية دون آبائهم من فاطمة البتول.

ذلك لأنهم انساقوا في تيار الساطن الجديد، ولو إلى حين، وبهذا تبدلت الدولة من عربية محضة، إلى عربية يشوبها سلطان الفرس مع سلطان الخلفاء؛ ثم كان أن أسست عاصمتها الجديدة «بغداد» في أحضان الفرس، فكان ثم زيادة في التجاور واختلاط، ولكن ساطن الفرس على ماصار له من نفوذ، لم يقو أن يتغلب في القرن الأول على سلطان الخلفاء، لقوة شخصيتهم، وفتوة دواتهم؛ والتاريخ لا يزال يحدثنا بما كان من فتك المنصور بأبي مسلم، وفتك الرشيد بالبرامكة، احتفاظا للخلافة بالنفوذ؛ ولذا عرف هذا القرن الأول، بعصر سيادة الدولة، واكتمال السلطان. غير أنه حدث في آخره حيث آلت الخلافة إلى المعتصم أخى المأمون أن عمد بحكم فتوته، وقوة بدنه، وانسياقه لاشباع هذا النهم الجسمى، بأعمال الرياضة والفروسية، إلى عدد من الأتراك الخدم، جعلهم في هذا النوع من اللهو مبالغ فيه ومعاونيه، وانساق في سبيل الاستكثار منهم، حتى بلغوا كما قال المؤرخون: السبعين ألفا، وصار لهم في بغداد شغب واعتداء جأر له أهلها بالشكوى منهم والاشتمزاز. وكأنه قد وجد بغداد لما فيها من جد الأمر، ومهام الشئون ملهية له وهؤلاء، أن ينساقوا في هذه السبيل الرياضية، إلى حيث يريدون، فهجروا بهم إلى مدينة أسسها لهذا الضرب من المجون، هي مدينة «سر من رأى» أو كما قد يقولون «سامراء» فابتعد بهذا أن يلي أمور الدولة عن كשב، كما ينبغي أن يكون، وبدأ نفوذ الخليفة يتراجع فيها إلى الوراء، بقدر ما عظم نفوذ الفرس المرحبين بهذا الانصراف؛ ولكن الطبيعة قضت أن يستفيد أولئك الخدم الأتراك بحكم اقترابهم من الخليفة جاها ونفوذاً، وما هو إلا

أن عملوا على مشاركة الفرس في النفوذ، ثم ما هو إلا أن استلبوه منهم، واستبدوا به عايهم؛ ولقد زاد من نفوذ هؤلاء، بقدر ما أضعف من نفوذ الفرس، بحسب المتوكل على الله سنيا متشددًا، وإيغاله في حرب الشيعة الذين كان المؤمن على مذهبهم، وجاء من بعد دغير معارض لهم، المعتصم، والواثق - والفرس كما علمت متشيعون مغرقون - نجات للمتوكل وان شئت فقل للخدم الأتراك السلاطة في بغداد، واعتبر هذا عصرًا ثانيًا هو عصر الخدم أو العصر التركي الأول، وجعل مبدؤه تولى المتوكل على الله سنة ٢٣٢.

لم يقف هؤلاء الخدم طوال القرن الثاني من الدولة في الاستبداد بأمورها عند حد، فتناول طغيانهم أكثر ما تناول أشخاص الخلفاء، وأول ما حدث من فظائعهم حدث للمتوكل على الله، فأنهم جردوه من كل سلطة، وكان قد فقد النصير من الفرس لاشتداده في محاربة التشيع، وإذا حاول الإبقاء على شيء من هيبة الخلافة، تأمر وامن ابنه المنتصر على قتله وقتلوه، فكان هذا فتحًا لطريق جديدة في التخلص من الخلفاء، وتوالت بعد هذا الحدث أحداث في التعذيب والتقتيل، والمعدن بون المقتلون بمعزل عن المعين والنصير<sup>(١)</sup>، حتى فقدت بغداد مكانتها وانصرف الناس عنها بعد انصرافهم إليها، وحدثت الأمراء والولاة نفوسهم أن يستبدوا على الخلافة بما في أيديهم من أرضين فأخذ النفوذ يتقلص عن بغداد إلى الأقاليم حتى أقفرت من كل خير وصلاح، وزخرت بكل مافي الطوق

(١) قتلوا المعتز بجره من رجله خارج الدار وضربه الضرب المفضي إلى الموت بعد إيقافه في الشمس يضع رجلا ويرفع أخرى من شدة الحر.

من شر وفساد، وحمل خوف الخلفاء من أولياء العهود، وخوف أولياء العهود من الخلفاء، أن يستكثر كل فريق من أولئك الخدم ليكونوا عليه حراساً، وله جواسيس، وفعلوا كل حتى هجرت بغداد بجيوشهم، وصار من استعان بهم ألعبوبة في أيديهم<sup>(١)</sup>؛ وامتد بهم الزمن على هذا السوء قرن ضعيف للدولة، وفتور أعقب قرنهما السالف؛ قرن الفتوة والسايطان، وما زالت الحال على هذا النسق من البوار، حتى طمعت إحدى الدويلات الناشئة من هذا الضعف بالأقاليم، وهي دولة آل بويه في تخليص بغداد منهم، فخلصتها أيام المستكفي بالله، سنة ٣٣٤هـ، وبدأ بذلك عصر عباسي ثالث، هو عصر الأوطان السياسية أو الدويلات.

مهده العصر العباسي الثاني وهو عصر الضعف والاستسلام لتفكك أوصال الخلافة، واستبداد ذوى النفوذ في الأقاليم؛ فلم يكديت نصف قرنه حتى بدت بوادر الانسلاخ عن الدولة على أيدي عدد من الأسر المختلفة الأجناس، وإن بقي معظمها لا كلها يدين بالمظهر الديني لخلفاء بني العباس. فمن الأسر الفارسية :-

السامانيون فيما وراء النهر من سنة ٢٦١ - ٣٨٩ هـ

والبويهيون بفارس والعراق من سنة ٣٢٠ - ٤٤٧ هـ

ومن التركية :-

---

(١) يؤيد ذلك ما رواه الفخرى عنهم من أنه لما تولى المعتز، أحضروا المنجمين وقالوا لهم :- انظروا كم يبقى الخليفة في الخلافة وكم يعيش؟ وكان في المجلس أحد الظرفاء، فقال: أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته، قالوا فكم تقول؟ فقال: « ما أراد الأتراك » فلم يبق في المجلس إلا من ضحك.



الأخشيديون بمصر من سنة ٣٢٣ — ٣٥٧ هـ  
والغزنويون بأفغانستان والهند من سنة ٣٥١ — ٥٨٢ هـ  
ومن العربية :-

الحمانيون بالشام من سنة ٣١٧ — ٣٩٤ هـ  
والفاطميون بمصر من سنة ٣٥٧ — ٥٦٧ هـ

وقد شاء تغلب القوى على الضعيف، أن ينمحي معظم الدويلات  
ما ذكرنا وما لم نذكر، على أيدي ثلاث منها تحولت إلى دولات، هن الغزنوية،  
وقد تغلبت على السامانية وغيرها في تلك الأصقاع، والفاطمية، وقد  
تغلبت على الحمانية بعد أخذها مصر من الأخشيديين، ثم البويهية  
وقد تغلبت على بغداد سنة ٣٣٤ فاعتبر هذا بدء العصر العباسي الثالث  
كما ذكرنا<sup>(١)</sup> وفيه خضع المسلمون لنفوذ الأتراك شرقا والغرب غربا،

---

(١) جد البويهين الأقرب بويه أبو شجاع ويرجع نسبهم إلى ملوك  
الفرس القدماء ويعرفون بالديلم لسكنائهم البلاد المعروفة بهذا الاسم من قديم  
وقد أنجب بويه هذا في ثلاثة أنجاد، هم على وحسن وأحمد، نبغوا في الفروسية  
وأعمال الجيوش وتقدموا إلى الدولة باقطاعهم الأرضين أيام الراضى بالله المتوفى  
سنة ٣٢٩ فكان على في فارس وحسن بخوارزم وأحمد بشيراز ثم اتفقوا لثلاثتهم  
على تخليص بغداد من أيدي الأتراك فساروا إليها ودخلوها أيام المستكفي بالله  
فرحب بهم ولقب عليها عاد الدولة وحسنا ركن الدولة وأحمد معز الدولة ثم كان  
أن بقي معز الدولة ببغداد بلقب أمير الأمراء واستمر هذا اللقب للقائم منهم  
بعده في بغداد إلى أن جاء عضد الدولة فأخذ لقب الملك وكذلك كان من بعده  
نبا إلى أن أخذها السلاجقة الأتراك .

والفرس وسطاء، وبقي ذلك قرناً وبعض القرن حيث دخل السلاجقة  
الأتراك بغداد سنة ٤٤٧ فبدأ العصر العباسي الأخير.

لم تكند الدولة البويهية والفاطمية والغزنوية تم القرن الأول من  
حكمها، حتى تمخض التاريخ عن دولة عظيمة هي الدولة السلجوقية، التي  
أنشأها رجلها الأول سلجوق بن بكبك بالتركستان سنة ٤٢٩  
ولما شاهد ضعف آل بويه في بغداد، طمع في اكتساح المأكة الإسلامية،  
وتقرب إلى المسلمين قبل هذا الاكتساح، بأن أسلم هو وأسرته ورجاله  
ثم تقدم إلى الغرب زاحفا حتى دخل بغداد سنة ٤٤٧ فكان هذا إيذان  
العصر العباسي الأخير، الذي مكث أكثر من قرنين، إذ بقوا بها إلى  
حيث أخذوا التتار منهم وقتلوا المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين  
سنة ٦٥٦.

ومن جسام الأحداث التاريخية في هذا العصر: اختلاط الغربيين  
بالمشاركة لقيام الحروب الصليبية وانتهائها بتأسيس عدة إمارات  
بسورية وفلسطين مكثت نحو قرن من الزمان، ثم تدفق عرب الأندلس  
إلى المغرب والمشرق بما تتابع وقوعه عليهم من اضطهاد وتعذيب.  
تلك هي الحال السياسية العامة للعصر العباسي ومنها ترى أنه أربعة  
عصور لا يستحق هذه النسبة منها إلا العصر الأول، عصر نفوذ الخلفاء.  
وهذا هو الطابع العام لكل عصر في حياة اللغة من حيث الآداب والعلوم  
وما إلى الآداب والعلوم.

## طابع كل عصر وأثره العام

في حياة اللغة من حيث الآداب والعلوم

لقد كان لتلون العصر العباسي بتلك الألوان السياسية التي حولته أربعة عصور، الأثر الظاهر في حياة اللغة من حيث الآداب والعلوم.

« العصر الأول »

في العصر الأول عصر قوة الخلافة وسلطان بغداد، كان الخلفاء مصدر أدب وعلم، كما كانوا مصدر سياسة ونفوذ.

فهم أهل كفاح وجلاد في تثبيت سلطان الدولة الجديدة، تلمح في إشراع الرماح، وإشهار السيوف، وتسمعه في الخطب تقذف الحسم وتطير الشرر، وتقرؤه فيما يصدر من رسائل دامغة الحجة مفحمة البرهان، ولذا كان عصر خطابة وكتابة وكان رجاله كتابا وخطباء.

وهم أهل حذق للأدب ومعرفة باللغة بفنونه وروون الشعر وينقدونه، ويستمعون للشعراء ويحجزون لهم العطاء، ويؤثرون بينهم نار التنافس والتسابق بما يبينون من فاضل ومفضل، ولهذا تزاوجت على أبوابهم الشعراء من عامة الأقطار، فكانت للشعر نهضة كثر فيها القصيد وجاد.

ثم هم أهل علم يخاطبون العلماء مخالطة حوار ونقاش، عارفين لقيمتهم، حافظين لمكاناتهم، حافزين لهم، مشجعين إياهم على مد الدولة الجديدة بما تتطلبه حضارتها من علوم وفنون منذ عهد خليفهم الثاني أبي جعفر المنصور، ذلكم العبد الخضم، الذي لم يأل جهدا في وضع الأساس لإنشاء العلوم المختلفة من شرعية ولسانية، وفلسفية وفقهاء من بعده خلفاؤه الأقربون وناهيك بالرشيد والمأمون حتى عد هذا العصر عن جدارة

واستحقاق عصر النهضة العلمية في متنوع العلوم والفنون، وإنه لعجب حاجب تمكن العرب فيه أن ينقلوا إلى لغتهم جل علوم الفرس واليونان والهندود بفضل ما خلفائه من تنشيط حركة الترجمة وإغداق العطايا على النقلة والمترجمين<sup>(١)</sup>.

ومما يعد مظهرا جديدا في هذا العصر، ما صار للموالى فيه من رفعة شأن، ومعرفة قدر، بحكم ما لهم من فضل تأسيس الدولة، ومعاونة خلفائها في النهوض بها، بعد الذي كانوا يلاقونه على العهد الأموي من جفوة واحتقار، بل تعذيب واضطهاد<sup>(٢)</sup>، فصاروا ينفسون عن أنفسهم

(١) كان المنصور من أحسن رواة الحديث وكان ذا ذوق في الشعر يثني على الشعراء ويعرف المنحول والمسروق ثم كانت له دفاقر علم اشتد حرصه عليها حتى أوصى عند وفاته ابنه المهدي بها.

وكان الرشيد أكثر سادقيه رغبة في العلم كما كان حفاظا للشعر نقادا للشعراء. وكلاهما كان ذا فضل على الترجمة، الأول من حيث الابتداع والايجاد والثاني من حيث التنشيط والتشجيع.

أما المأمون ففضله على الترجمة وإحياء العلوم قد غطى على فضل الجميع وإن كان في الناحية الأدبية أقل من أبيه

(٢) حوادث الأمويين في عدم التسوية بين الموالى والعرب بالرغم من تمتعهم بها في صدر الاسلام كثيرة : منها أنهم كانوا يمنعون زواج المسلم منهم بالعربية ويطلقونها عليه إن فعل ويجلدونه . روى الأغانى أن رجلا من الموالى خطب بنتا من أعراب سليم وتزوجها فركب محمد بشير إلى والى المدينة يومئذ ابراهيم بن هشام فشكا إليه فأرسل إلى المولى ففرق بينه وبين زوجته وضربه مائتي سوط وحاقي لحيته وحاجبيه وفي ذلك يقول ابن بشير:

ويجهرون إزاء العرب بما آثرهم، وقابل العرب ذلك منهم بالانكار والجدود؛ ثم طالمت الملاحاة بين الفريقين حتى أعلن أمر الشعوبية، وعظم شأنها، كل ذلك والخلفاء يتواصمون بالموالى ويطلبون لهم من أبنائهم وذوى قرباهم مثل ما كانت يطلب الخلفاء الراشدون للأنصار، فكان من ذلك أن استفادوا وأفادوا في نهضة هذا العصر والسير به قدما إلى الأمام.

نعم إن إطلاق حرية البحث لهم في التشيع منذ عهد المأمون الذى كان شيعيا، والذى أباح لنفسه عن غير تقزز أن يكون أحمد بن أبي دواد وزيره معتزليا، ويحيى بن أكرم وزيره أيضا مائيا، جعلهم يرسلون الفكر فى البحث الدينى من غير عنان، حتى تعددت البدع الدينية، وانتشرت الزندقة والاحاد، وغلبت الشهوات الجسمية على طائفة الماديين المستهترين، فأباحوا ما لم يكن مباحا ومدحوا ما كان قبل ذميا وشاع تسرى الجوارى ثم أعقبه تسرى الغلمان، فزينوا وحججوا كما كانت تزبن وتحجب النساء، غير أن هذا الضرب من المجون والاهو، كان مغلوبا على أمره إزاء جد الدولة وعلو شأنها كما هو الشأن الآن فى عواصم دول القوة والسلطان.

---

وفى المائتين للعول نكال وفى سلب الحواجب والتخدود ومنها خطبة المولاة إلى مولاها دون أبيها الذى لا ينكر ذلك ولا يتأذى منه. وحوادث الحجاج فى إيذاء الموالى جاوزت كل حد وفاقت كل معقول فقد كان يسمهم بالوشم ويحصرهم فى دوائر لا يتعدونها ويأمر ألا يؤم بالكوفة منهم أحد فلا يغير عليه الخليفة من ذلك شيئا.

## العصر الثاني

وفي العصر العباسي الثاني، أخذ كل ما ذكرنا يتراجع إلى الوراء، لأن منشأ تقدمه كما رأيت، كان قوة الخلفاء، وأنهم علماء أدباء، وأن أولياء عهدهم وأعيان دولتهم، كانوا لهم في ذلك محاكين، وبهم مقتدين، أما إذ احتبس الخلفاء وأولياء العهد في القصور بعيدين عن مهام الدولة ومخالطة الشعب، وأصبح الخدم أعياننا لأعهد لهم بالعلم والأدب، وحتى عهدهم بمعرفة العربية اليسيرة جد قريب، فقد انغمس أولئك فيما تعج به القصور من أسباب اللهو ومتع الحياة، فسكان لهم مع السراري المختلفة، والقيان المغنيات، مع ما يحف بهم من غلمان وخصيان، وما عدا جدم مخالطة الخدم المذكورين، فغاب عاينهم اللهو والترف، وانطلق هؤلاء المصرفون لأُمور الدولة في تصريف أمورهم انطلاقا بعد بهم بعامل تكوينهم عن الناحية الأدبية العلمية، وكان في الناحية السياسية عاجزا في الأقاليم، وفاسدا في بغداد، ومن أجل ذلك وقفت الدماء التي كانت جارية متدفقة في شرايين الدولة بكل أسباب الحياة، وتبدلت من حمرتها زرق سامة قاتلة أو صفرة ناعلة مضعفة، فأخذ العلم بهجر بغداد برحلة رجاله عنها بعد أن طال بهم انتظار الحيرة فيها، وأخذ الشعراء يبحثون لهم عن مرتزق غيرها، ولا يكن أنى نعود الحركة العلمية إلى دورتها، أو يجد الشعراء من يعطى - وإن طلبوا - قبل فترة من الزمن يظهر فيها الكساد والبوار وتستعد خالها حواضر جديدة لحل العلم الذي كان بأيدي بغداد، وإذن فليكن العصر الثاني، عصر الضعف والخلول والضعمة والانحطاط تموت فيه الخطابة، ويضعف الشعر، وتوقف الحركة العلمية عن الدوران

ولا يبقى فيه من المظاهر السالفة إلا الكتابة بحكم حاجة الملك والسلطان، وقد مني فوق ذلك كله بما قيد الأفكار، واحتبس الأنفاس عما كانت قد سبحت فيه من بحث حرطايق، فقد جاء التتوكل أول ما جاء ضاغطا على الشيعة، محاربا للتفكير، بعكس ما كانت عايمه حالهما منذ أيام المأمون من انطلاق بقفل النبوغ النفسى بقدر ما ضعفت آلة الكلام، ثم وقف تيار الفلسفة بقلّة النبوغ وظهر بهذا الضعف الخروج بمعانى الألفاظ عما حددت اللغة من معانٍ، وعز على رجال اللغة أن يقفوا إزاء ذلك جامدين، فأخذوا يضعون المقالات أو الكتب منتقدين ما حدث من خروج، ومحاولين إرجاعه إلى ما يريدون من اصلاح<sup>(١)</sup>، وكذلك قام رجال الأدب إزاء الكتابة والشعر جميعا<sup>(٢)</sup>؛ على أنه مما ينبغى أن يدون حسنة لهذا العصر قبل انتهاء الكلام فيه اطراد التقدم فى الخط العربى حتى استقر على القاعدة التى بين أيدينا الآن؛ وضعها وضبطها ابن مقلة الخطاط الشهير المتوفى سنة ٣٢٨ هـ.

### العصر الثالث

ظهرت النشأة الأولى للعلوم الإسلامية فى العهد الأموى بالبصرة والكوفة، ولكنها لم تكد تؤتى أكلها بالتأليف والتدوين، حتى سقطت الدولة الأموية وتأسست العباسية، متخذة بغداد عاصمتها بل عاصمة

- 
- (١) من آيات ذلك فصيح ثعلب المتوفى سنة ٢٩١ فقد اختار فيه الفصيح من كلام العرب ليعتصم به الناس مما ساد كلامهم من أخطاء.
- (٢) من ذلك فى الكتابة أدب الكاتب لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٢٦ هـ. ومنه فى الشعر نقد الشعر لقدامية بن جعفر المتوفى سنة ٣١٠ هـ.

العالم الاسلامي كله، فاتجهت نحوها الأنظار من مختلف الأقطار، وتحول إليها كل شيء من آداب وعلوم وفنون، حتى كانت في العصر العباسي الأول، على ما قدمنا من ازدهار. ثم أصابها فتور وكساد في العصر الثاني، خضوعاً لما ذكرنا من أسباب، غير أن ذلك الفتنور لم يكد يقضى على ما كان من نبوغ في العصر الأول، حتى تأسست الدويلات في العصر الثالث الذي نحن بصدد الكلام فيه الآن، وهو إن قضى فيما قضى على بغداد نفسها، فقد خالق نفوذ الدويلات عدة حواضر وصلت ما كان قد انقطع، حتى أصبحت كل منها بغداداً يؤمها الأدباء والشعراء، ويقيم فيها العلماء والمؤلفون، على أن آل بويه إذ دخلوا بغداد أطادوا لها سابق مجدها وعزها، وسالف حضارتها وسلطانها، ولكن لا على أن تكون منفردة كما كانت، بل على أنها حاضرة من حاضرات؛ نعم إن مركز الخلافة بقي لها وحدها دون الدويلات ولكن بعضها رفض هذا الخضوع كآل مروان بالأندلس منذ عهد الناصر وكالفاطميين، منذ أن كان لهم وجود، ومن دان بهذا المركز لم يعد في ذلك الناحية الدينية البحتة، أما الدنيوية فقد كان فيها تام النفوذ مطلق السلطان، ولعل هذا الانفصال بحاليه بين بغداد وحواضر الدويلات، كان عاملاً فعالاً في اشتداد التنافس بين رجالها وفي حفز الهمم إلى أن تسود كل صوابياتها فيما كان لبغداد وحدها منذ القديم، فقويت الحركة العلمية بعامل التنافس والتشجيع، وعلا نجم الأدب، وراجت سوق الفنون، كما قويت بعامل آخر هو علم ملوك الدويلات وأمرائها، ومن اختلط بهم في سياستها من ساداتها وعيونها، فهذان عاملان قويان فوق العامل الأساسي



الطبيعى عامل النشوء والارتقاء .

والى القارىء فى ذلك بضع شواهد وآيات، عن آل بويه والغزنويين والفاطميين الذين آل إليهم حكم العالم الاسلامى اذذاك .

كان آل بويه علماء أدباء، وكثير منهم شعراء . يحبون العلم والأدب، ويحثون رجالهما على التصنيف والتأليف، ويفتحون أبوابهم للشعراء ويغفرونهم بالعطايا والصلوات، وكانوا لذلك لا يستوزرون ولا يستعكتبون، كما لا يولون ولا يستقضون، إلا خيرة العلماء ونوابغ الكتاب .  
فعمز الدولة استوزر الحسن المهلبى الأديب الشاعر ، وركن الدولة استوزر ابن العميد الغنى عن التعريف ، ومؤيد الدولة ابنه استوزر الصاحب بن عباد، وكذلك استوزره فخر الدولة أخوه ؛ وكان عز الدولة بن معزها شعرا وكذلك تاج الدولة بن عضد الدولة كأبيه، وكذا أبو العباس بن ركن الدولة<sup>(١)</sup>، ثم كان عضد الدولة المذكور على شاعريته نابغا فى عدة فنون

(١) من شعر عز الدولة وكان أكثره فى الشرب والشراب قوله :-

اشرب على قطر السماء القاطر فى صحن دجلة واعص زجر الزاجر  
مشمولة أبدى المزاج بكأسها درا نثرا بين نظم جواهر  
من كف أغيد يمتبئك إذا مشى بدلال معشوق ونخوة شاطر  
والماء ما بين العصور مصفق مثل القيات رقصن حول الزامر  
ومن شعر تاج الدولة وهو آدب آل بويه وقد نكب بالحبس من جهة أخيه

أبى القوارس قوله:-

هب الدهر أَرْضائى وأعتب صرفه وأعقب بالحسنى من الحبس والأمر  
فمن لى بأيام الشباب التى مضت ومن لى بما أنفقت فى الحبس من عمرى

يستحث العلماء على التأليف ، ويغرمهم بالأموال ، ويقصده فحول الشعراء<sup>(١)</sup> ، ولا يكاد مجلسه يخلو من مباحثات ومباحثات في العلم والادب ، كما كان شغوفاً بجيد الشعر يتعشقه ويحسن نقده ، عارفاً لأساليب الكتابة ، ذا افتنان في إنشائها<sup>(٢)</sup> فهو في هذه النهضة

ومن شعر أبيه عضد الدولة قوله في خارج أرسل يطلب الامان بعد أن ضيق عليه  
أأفاق حين وطئت ضيق خناقه      يبغي الامان وكان يبغي صارما  
فلأركبن عزيمة عضدية      تاجية تدع الأنوف رواغما  
ومن شعرا أبي العباس مبدعا :-

أدر السكاس علينا      أيها الساق لنطرب  
من شمول مثل شمس      في فم الندمان تغرب  
فصكت حين تجلت      قرا يلثم كوكب  
ورد خسيديه جنى      لكن الناطور عقرب  
فاذا مالدغت فالسريق      درياق مجرب

(١) ألف له أبو علي الفارسي كتاب الايضاح والتكملة في النحو ، وأبو اسحق الصبائي كتاب التاجي في أخبار آل بويه ، ورحل إليه المتنبى رحلات ملأت فم الزمان .

(٢) من شغفه بالشعر تمنيه أن يكون المصلوب بدل ابن بقية الوزير لتقال فيه قصيدة الأنباري التي مطلعها :-

علو في الحياة وفي المهات      لحق تلك إحدى المعجزات

ومن تفننه في الكتابة ما كتب به إلى أفتكين التركي صاحب دمشق وقدغره أخذه الشام من حكومة مصر وطلب منه المدد لمحاربته نفسها فكتب إليه هذه الرسالة المتحدة الكلمات لولا النقط والشكل وهي « غرك عزك فصار قصار ذلك ذلك فاحش فاحش فعملك فعملك بهذا تهدا » .

أشهر ملوك آل بويه كما كان أشهر وزراءهم فيها الصاحب بن عباد المذكور، فقد كان عالما كاتباً شاعراً يقيم عنده العشرات من رجال العلم والأدب، ويقصده منهم ومن الشعراء المثلث، فيكرم إقامة أولئك ويحسن وفادة هؤلاء.

ولم يأل الغزنويون جهداً في نصرة العلوم والآداب - وإن كانوا أحدث فيها عهداً من آل بويه - مع اشتغالهم شرقاً بالغزو والفتوح، فقد كان مجلس سلطانهم محمود آهلاً بالشعراء والأدباء والعلماء، وهو الذي اقترح على الفردوسى إمام الشاهنامة التي بدأ نظمها الدقيق باقتراح نوح بن منصور الساماني، وكان لا يسمع بشهرة أحد من هؤلاء إلا عمل على استدعائه إليه، يدل على ذلك كتابه إلى أمير خوارزم مأمون بن مأمون وفيه يقول « علمت أن في مجلسك جماعة من العلماء المبرزين فأرسلهم إلى ليتشرفوا بمجلسي ونستفيد من علمهم » وقد تلاه عليهم مأمون فقبل بعض وامتنع بعض. غير أن هذه النصرة لم تكن ذات بال بجانب نصرة آل بويه لما قدمنا من حداثة عهد رجالها بأدب العربية وعلومها واشتغالهم عنها بما دأبوا فيه من غزو وجهاد.

وقد نشط الفاطميون العلم وأهله، ونافست قاهرتهم بغداد منافسة خلافة وملك لا منافسة ملك فحسب، ثم كانوا جديرين أن يفوزوا بالفوق والغلب لأنهم عرب أبناء عرب وذوو الغلب على بغداد في أيامهم سلاجقة أتراك، وبدا هذا التنشيط كثير الصور قوى العناصر أيام المعز والعزیز والحاكم، فقام المعز بإنشاء الأزهر المعمور وأسس العزيز

دار كتب في قصره سماها خزانة الكتب أو خزانة العزيز ، واستكثر  
 فيها من المؤلفات ، واقتدى به في إنشاء خزائن الكتب بالقصور جماعة  
 من أهله ، ثم جاء الحاكم فأنشأ دار الحكمة ونسجى دار العلم أيضا بجوار  
 قصره الغربي وحمل إليها جميع أنواع الكتب وبالع في فرشها وزخرفتها  
 ووقف عليها أملاكاً تنفق من غلتها، وأقام مشرفين ينظمون طريق  
 الانتقال بها، وأباح المناظرة بين المتردين عليها، وسهل للنقلة منها سبيل  
 النقل بما أعد فيها من أقلام ومحابر وأوراق . ولم يكن اشتغال الفاطميين  
 بالعلم وتشجيعهم على إنهاضه مقصوراً على علوم الدين واللسان ، فقد خدموا  
 علوماً كثيرة أخرى كالتاريخ والفلسفة والهندسة والنجامة ، وبقى  
 زعيم الحاكم على جبل المقطم عمدة الراصدين حتى بنى الطوسى مرصده  
 بمراغة تركستان سنة ٦٥٧ ، ثم كانت مجالس الأدب ذات ازدهار في  
 حضرات الخلفاء، وأمراء أسرهم ورجالات دولتهم، وكانت كثرتهم أدباء  
 شعراء تبصر جيد القول وتجزل بعايه العطاء .

ولم يعدم العلم والأدب نصيراً من الدويلات الكثيرة التي قامت  
 ودحا مع هذه الدولات الثلاث ، فاشتهر من أمراء السامانيين بذلك في  
 بخارى كثير ، منهم منصور بن نوح ثم ابنه نوح بن منصور ، الذي كتب  
 إلى الصاحب بن عباد يستدعيه إليه سرا حتى يفوض إليه وزراته ، والذي  
 جمع مكتبة حوت المؤلفات الكثيرة في كل فن . وآل حمدان بحلب  
 والموصل أشهر من أن يخاض في نصرتهم للعلم والأدب وهم الأدباء  
 الشعراء ، وإن في أخبار سيف الدولة مع الأدباء والشعراء لغنية وبلاغا  
 فقد قيل إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء كما اجتمع ببابه

من شيوخ الأدب ورجال الشعر، يلقون منه حوارا ويشهدون نقدا، ثم ينقلبون راجعين بشق الجواز وعظيم الهبات، وهناك غيره وإن لم يبلغوا شأوه من آل حمدان كثير. ولو امتد الزمن بالأخشيديين أكثر من ثلث القرن الذي كان لهم لوجدناهم كتبكم الأمارات في تقريب رجال العلم ونصرة الآداب، على أن أبا المسك كافورا الذي نشأ مع هذه الأمانة عبداً لأول أمراءها ثم ارتقى بعقله وشجاعته حتى صار من كبار قوادها، ثم ارتقى فوق ذلك حتى ولى إمارتها، ولم يمت إلا قبيل سقوطها، قد ترك لنا في سيرته إكرامه العلم والعلماء، وامتداح المتنبي شاعر العربية إذ ذاك إياه، وفي هذين إثبات لما أردناه.

بهذا التشجيع المصحوب بالتنافس الشديد للعلماء والأدباء في المشرق والمغرب الأقصى، وبمثلته في كل ما ذكرناه بالاندلس من الغرب، زخرت بحار التأليف واطرد تيارها حتى نمت العلوم وتم نضجها، فتكونت المعاجم اللغوية واستوت الفلسفة واستقرت قواعد الطبيعيات والطب وانتهى الانشاء الكلامي إلى أسلوب أصبح قاعدة، وظهرت الروايات والقصص، واتسع خيال الشعراء وعمق فكرهم وتفرع التاريخ وانبسط تقويم البلدان واتسعت أبواب النقد الأدبي، وحسب هذه السعة العلمية بيانا أن زادت فروع العلوم إذ ذاك لدى محصيا على ثمانية كجانب اسمتها كتب الاحصاء، وكانت من بينها علوم لم يصل إليها التمدن الحديث إلا في القرن الماضي أي بعد نحو ألف سنة من تاريخ كتابة العرب فيها علوم تدبير المنزل والسياسة والاقتصاد والعمران<sup>(١)</sup>، فلا عجب أن

---

(١) فن كتب تدبير المنزل كتب ذكرها ابن النديم لابراهيم بن المهدي

عرف هذا العصر بعصر نهضج العلوم وقد أعقب هذا النهضة وكثرة التأليف، إنشاء المكاتب العامة وانتشارها فعرف بعصر المكاتب أيضا، ولنا أن نسميه فوق ذلك عصر المذهب الشيعي لأن آل بويه شيعيون وأشد منهم تشييعا الفاطميون، أما الغزنويون فلم يكونوا فيه قد جاوزوا النظرة العامة للدين إلى نظرة تجعلهم شيعيين أو سنيين، كما لنا أن نسميه أيضا عصر توطن الآداب والعلوم، ومن ثم بدت فيه نسبة رجالها إلى مدينتها كالبيخاري والنديسا بوري والرازي وهكذا بعد أن كانت النسبة قبله إلى الأصول كالحيري والمازني أو إلى الصنائع كالزجاج والنحاس .

### العصر الرابع

جاء هذا العصر وقد تغير النظام السياسي في أرجاء الممالك الإسلامية فحكمها السلاجقة في الشرق بعد البويهيين والغزنويين ، والأيوبيون في مصر والشام والمغرب بعد الفاطميين، ثم انحلت دولة آل مروان بالأندلس إلى ملوك الطوائف المختلفين فكان أن حدث في كل من

---

ولأراهم بن العباس الصولي ولعل بن يحيى المنجم وغيرهم ولكنها ضاعت . وقد ألفت في السياسة على إجمالها أبو زيد البلخي ، وفي المدينة منها الفارابي ، ولطرنطوشي فيها سراج الملوك . ومن كتب الاقتصاد كتاب الإشارة إلى محاسن التجارة لأبي الفضل بن علي الدمشقي وكثير غيره ضاع .

ولم يخل علم العمران من كتب ظهرت في هذا العصر ولكنها جاءت إما مجملة متناولة عن بعد أو مفصلة تقصر على بعض أبحاثه ثم كانت بعد هذا العصر مقدمة ابن خلدون أول كتاب ظهر فيه مستقلا مفصلا .

الدين واللسان أمر ذو بال نجم عنه ما وجه العصر توجيها خالف به سابقه كثيرا أو قليلا في شتى الأمور .

فأما في الدين فبعد أن كان للمذهب الشيعي الغلبة على المذهب السني بنفوذ البويهيين شرقا والفاطميين غربا، ذهبت ريحه بذهابهم وجاء المذهب السني يكتسحه ويغني عاياه بصولجان السلاجقة شرقا والأيوبيين غربا، والسلاجقة سنيون بحكم نشأة جنسهم أول ما اختلط بالمسلمين مضادا للشيعية محاربا لها منذ عهد المتوكل على الله، وكذا الأيوبيون منذ جاءوا على الدولة الفاطمية فالبيين ولها مدليلين، حتى لقد حرم صلاح الدين تدريس المذهب الشيعي بأزهر الفاطميين، وكف وقف هذا التبدل في التأليف الشيعي من حركات وحارب من فكر وأبطل من عادات .

وأما في اللسان فقد كان الفاطميون بمصر عربا خالصا، والبويهيون بفارس متعربين مبرزين، فكان للأدب من كليهما مدد منشؤه حذقهم أسلوبه وتذوقهم جماله، فانقطع هذا المدد بتركية السلاجقة، وكردية الأيوبيين، وإن ابتعد الأولون عن محاربته ومخاصمة رجاله وحاول الآخرون تلمسه وتقريب ذويه . وبذلك نال صورتى الأدب كتابته وشعره ضعف قلل من مقدارها، وذهب بكثير من محاسنها، وكان أنكى بالشعراء منه بالكتاب لأن الشعر جمال يستغنى عنه فيما يستغنى إذا لم يجد المتذوقين النصراء، في حين أن الكتابة من ضرورات الملك الحضري يضطر إلى الإبقاء عليها ذويه وإن لم يفهموا مآلها من حسن وجمال .

أما الناحية العامة لحياة اللغة فقد كان هذا العصر عليها عصر بركة ونماء، ذلك بأن العلماء استمروا فيه منطلقين بعد نضج العلوم

إلى حيث أخرجوا الموسوعات الضخمة والمعاجم الجامعة فحق أن يدعى لذلك عصر الموسوعات<sup>(١)</sup> ثم كان شعور العلماء فيه باشتداد ضعف ملكة اللسان وحاجة النشء في تذكئته على الملكة الصحيحة واستيعاب ما استبحر من علوم، دافعا للقوم أن يهينوا للعالم أما كن دراسة يؤمها المتعلمون ويرتب لها العلماء المدرسون، فكان من ذلك إيجاد المدارس بالمعنى الذى نعرفه الآن ووسم هذا العصر بعصر المدارس<sup>(٢)</sup>، كما وسم بعصر الموسوعات وهذان أثران له جليلان .

ولقد وفد على مزاج اللغة فى المغرب والمشرق أدها وعلمها فى هذا العصر وافدان غريبان ، أحدهما فرنجى جاءت به الحملات الصليبية بما أسست فى المشرق من إمارات ، وبما حدث بين رجالها ومنسجى المشاركة من تصاهر وزواج ، على ما هنالك من خلاف فى الأصول

(١) لعل مما حملهم على تأليف هذه الموسوعات بعد الدافع الطبيعى لحركة التأليف ، مقاومة ماذهبت به الفتن من مؤلفات وأصانعت من جهود فكانوا يدونون الموسوعة إما جامعة لشقى العلوم مع حذف ما اعتادوا فى غيرها من أسانيد كما فعل ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ فى موسوعته المسماة «المدمش» فى القراءة والحديث واللغة والتاريخ والمواظف فى سياق المحاضرات ، ومنها نسخ بالكتابة الملكية بمصر وإما جامعة لقروع علم واحد كما فعل ياقوت المتوفى سنة ٦٢٦ فى معجميه للأدباء والبلدان .

(٢) أول من قام بإنشاء المدارس فى هذا العصر نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقى التركى فقد أسس المدرسة النظامية فى بغداد منسوبة إليه فكان لها شأن فى العالم الإسلامى كبير جعل غيره يقتدى به فى إنشاء منلها حتى امتلأ العالم الإسلامى ولماينة العصر بالمدارس المختلفة فى جميع الأنحاء .



واللغات والآداب والعادات، لا بد أن يؤثر تأثيره ويأخذ طريقه غالباً غير مغلوب . والثاني عربي هو نزوح الجماهير الأندلسية إلى المغرب والمشرق يحملون طابعاً لم يك للمشاركة في التفكير والتأليف وإنشاء الرسائل وقرض القريض حوكمي فما حلوه من يثبات<sup>(١)</sup> وبهذا ضعفت الفوارق بين أدب قرطبة وأدب القاهرة وبغداد وقويت المشابهات . تلك كلمات أرسلناها مجملات في ميزات العصر الغباسية اللغوية بعضها عن بعض رابطتين بينهما وبين ما أنتجها من أحداث السيادة وأمور الاجتماع . وفيما يلي من دراسة موضوعات المنهج ، تفصيل لما أجملنا وإيضاح، والله ولينا وهو المستعان .

---

(١) من أظهر ما كان لهذا الاختلاط في عالم الفكر اتصال الفلسفة الأندلسية بفلسفة المشرق، وفي عالم الأدب انتشار الموشحات .

## ما طرأ على العرب ولغتها

من جراء امتزاج الأعجم بها

خالطت العرب بعد تمام الفتح في العهد الأموي أشتاتنا من الأمم مختلفين في أجناسهم ودياناتهم وفي لغاتهم واجتماعياتهم، كما يحدث التاريخ العام عن طبقات الناس حين الفتح من أرض أندلس وشمال أفريقية ومصر والشام والعراق وفارس وماوراء فارس؛ فتأثروا بهم كما أثروا فيهم ولكن تأثرهم لم يبد واضحاً جلياً في ذلك العهد لقصر زمنه نسبياً ولترفع العرب فيه عن مخالطة الأعجم اقتداءً بخلفائهم وذوى الأمر فيهم، فكانت الأمة العربية ملوكاً وسوقة ذات عصبية لجنسها ونعرة لقوميتها<sup>(١)</sup>، ولكن ذهب تلك العصبية وهذه النعرة بمجيء العهد العباسي كما أسلفنا جعل هذا الاختلاط يعمل عمله ويؤثر تأثيره في كثير من نواحي الحياة ذات التأثير البين في اللغة آدابها وعالمها.

ففي العهد الأموي بقي الجنس العربي متحصناً، فكان زواج العربي من غير العربية نادراً، وزواج العربية من غير العربي منكراً، فلما جاء العصر العباسي رافعا شأن الموالي أقبل الناس على زواج الأعجميات

(١) تتضح هذه النعرة في شقيها بما روي من أن عبد الملك بن مروان حين خطب إلى عقيل بن علفة بلبته قال له عقيل جنبني هجاء أولادك يقصد مسلمة ابنه على ما عرف به مسلمة من واسم عقل وكامل خلق؛ وبما كان من أن عبد الملك حين عقد ولاية العهد لابنائه تخطى مسلمة هذا «لأن أمه غير عربية» لا بغضا له ولكن تعصبا لتلك النعرة أو خوفاً من الأمة المتعصبة لها.

مسرعين ، لما هن من فرط جمال ووافر عقل ، ولما بدا على نساكن من  
نجابة وذكاء<sup>(١)</sup> ، وتسابقوا في هذا المضمار وقد اعم فيه الخلفاء وأبناء  
الخلفاء<sup>(٢)</sup> وإذ وقف حد الدين لزوجات عند أربع انطلقوا في التسرى  
غير المحدود حتى ضاقت القصور بالقيان والأماء<sup>(٣)</sup> ، وما من شك في  
أن هذا ينتج من التأثير الجسمي وبالتالى العقلى في النشء الناشئ من  
الأعجيبات الشيء الكثير ، فأما من الناحية الجسمية فلما هو مقرر  
ثابت من أن الزوج من البعيدات نه با مؤد إلى فراعة الاجسام وقوة  
البنى فما بالناس بالبعيدات جنسا<sup>(٤)</sup> ، وأما من الناحية العقلية فلأن الأعم

(١) بقى أهل المدينة زاهدين في التسرى حتى نشأ فيهم على بن الحسين  
ومحمد بن القاسم وسالم بن عبدالله وقد فاقوهم علما وورطا فرغبوا فيه ، وعما زاد  
إقبال الناس على زواج الأماء حفة كلفته حتى قالوا في ذلك « الأمة تشتري بالعين  
وترد بالعيب » وقالوا في مزينة جملة « عجب لمن عرف الأماء كيف يقدم على الخراز » .  
(٢) لهذا كان خلفاء بنى العباس منذ الهادى أبناء سرارى ماعدا الأمين  
ابن زبيدة بلى جعفر بن المنصور فالهادى وأخوه هرون أمهم فارومية ، والمأمون  
أمه فارسية ، والمعتصم أمة تركية ، والواثق أمه رومية ، والمتوكل أمه تركية ،  
وهكذا .

(٣) بلغ عدد جوارى الرشيد ألفين وعدد جوارى المتوكل أربعة آلاف  
وعلى ذلك يقاس ما كان لغيرهما من الخلفاء وما كان لغير الخلفاء من الأمراء والأغنياء .  
(٤) لهذا يقول الحديث « اغتربوا لا تضربوا » والضوى دقة العظم وقلة  
الجسم خلقة وأنثى المرأة ولدت الولد كذلك وله يقول الراجز .

أنذر من كان بعيدا لهم تزويج أولاد بنات العم فليس ينجو من ضوى ومقيم  
ولهذا وجد في العصر العباسى من ضرب بهم المثل في الشجاعة حتى قال  
الأصمعى « ماضرب رءوس الأبطال كابن الأعجمية » .

التي غلبتها العرب على ساطعاتها كانت ذات حضارة تبدو في شتى الألوان،  
وتختص كل واحدة بلون يكون فيها دون غيرها أكثر زهواً وأشد  
لمعاناً، وهذه الميزات جميعاً كان الهجناء فيها ولها أقوى وأقبل من  
الصرحاء بعامل الأثر المؤثر والعرق الدساس. ولقد كان من هذا  
أن عجزت المرأة العربية عن مجازاة الأنجمية في الزواج فضوعف هذا  
التأثير، ثم كان أن اندس العربي بين الأعجام زارعا وصانعا بعيدا عن  
مهام الدولة وتصاريح الأمور يسوده من الموالى من كان قبل مسودا،  
فذهبت من نفسه البقية الباقية للنصرة وسلم في بنائه ومن هن تحت  
ولايته أن يكن لهذا الجنس الغالب زوجات فافترشهن الأعجام ونسلوا  
منهن نسلا مقرفا جاء أكثر من الهجناء عدداً وأشد منهم بالعجمة  
اتصالا، على أن من بقي من العرب صريح العروبة لم يقو بديار العجمة  
على صد هذا التيار الأعجمي الشديد فكان فيه من المغرقين.

وفي العهد الأموي كانت للدين الإسلامي صولاته وقوته، دخل  
فيه من دخل مؤمنا إيمانا حقا غير ملتفت إلى دينه السابق ولا عاد إياه  
بجوار الإسلام شيئا، وبقي على دينه من بقي ذميا مستأمننا يحسد نفسه  
أن أبقاه المسلمون على دينه وبعد ذلك النعمة لا تعد لها نعمة،  
فلم يتسرب إلى الدين الإسلامي من الديانات المختلفة - نصرانية ويهودية  
ومجوسية، على افتراق كل ديانة من هذه الديانات طوائف وفرقا - شيء  
يزعزع من عقائده وأبنائه ويفتح لهم في ميادين التشكيك مجالا، ولكن  
حين جاء العصر العباسي استبدل بصولة العرب صولة الفرس وكانوا  
مجومسا قد ساد مجوسيتهم آخر سلطانهم إلحاد وإباحية وزندقة، فتحت

في الأبحاث الدينية أبواب كانت مغالقة ، وجرت على السنة هؤلاء  
المجوس ولو أنهم أسلموا أقاويل لم تكن تجري ، وتخطب الأبحاث الدينية  
بالرغم من مقاومة الخلفاء للزندقة والحاد ، السياج الذي كان مضروبا ،  
ومساعد على رواج هذه الأبحاث التمكين لرجال الفرس في السلطان .  
وإذ ساء للمجوسية أن يصطبغ بأبحاثها كثير من أبحاث الفلاسفة  
والدين فقد ساء لليهودية والنصرانية أن تجريا وراءها بغير عنان ، وأن  
ينشط اليهود والنصارى في أمثال هذه البحوث متسترين وراء حاجة  
الدولة إلى علمائهم وتقريب خلفائها وخاصة منها لكثير من شخصياتهم ،  
فكان من وراء ذلك تأثير في الدين كبير ظهر أثره في اللغة من آداب  
وعلم .

وفي العهد الأموي كان للغة العربية بحكم التوسع في الفتح وبسط  
السلطان ، طغيان على لغات الأمم المفتوحة أيام طغيان ، أزال منها ما زال  
وبقي ما بقي الضعيف المقاومة مهيب الجناح ، كل هم ذويه أن يبتوا أمام  
الفتاحين آمنين على نفوسهم وأموالهم وما يؤثرون البقاء عليه من دين .  
أما لغاتهم فلم يأخذ بيدها ما صاروا إليه من ضعف ولن تجد من رجال  
الدولة الجديدة إلا الرغبة الملحة في خضوعها للعربية أتم خضوع ، ثم  
كان تنزه العرب النازلين ديار المعجمة عن مخالطة الأعجم ، وترفعهم أن  
يلوا مثل ما يلي أولئك من أعمال ، أو أن يقبلوهم معهم فيما خصوا به  
أنفسهم من مناصب الملك والسلطان ، حاجزا قويا وسدا محكما دون أن  
يتأثروا مرضين بعامل المخالطة والجوار . أما إذ جاء العصر العباسي  
وزالت بمجيئه قوة الفتح وسطوة الغلب ، وتم للعرب مخالطة الأعجم

ومشاركتهم في الأعمال فقد حُلَّ عن عنق اللغات المغاوب أهلها ما كان مضيقاً عليها من خناق ، فتنفست الصعداء وأخذت تذكر ما كان لها من كيان وما ينبغي أن يكون عليه ذورها من حفاظ ، ومن ثم وقف غزو العربية لها حيناً وانقلبت هي بعد ذلك الحين غازية كأنها تريد الانتقام ، حتى عقد لها لواء النصر في التغلب كما سيأتي على ألسنة السواد ، وتسربت بما كان من التوسع في وضع العلوم وحركة النقل إلى التأليف والتصنيف فوجد فيها دخيل معرب ودخيل خلوم من التعريب ، ثم كان أن وجدت فوق هذين سبباً لا تظهر فيه أحياناً على ألسنة الأدباء ناثرين وشاعرين هذا وكما كانت النزعة العربية في العهد الأموي غالبة فيما ذكرنا من نواحي الجنس والدين واللغة كانت كذلك غالبة في ناحية الاجتماع . فقد ظل أبناء العرب أيامه على بداوتهم محافظين على خشونة الجاهلية ، عاملين بعاداتها محيين لأدبها ، يقودهم في ذلك ويشجعهم عليه آل البيت الممالك حتى الخليفة المقيم بدمشق . وما غيروا فيه من أمور الاجتماع كان نصراً للعربية وفتحاً على أبنائها إذ جعلوا الإسلام دولة عربية بعد أن كان ديناً ، وأيدوا تلك الدولة العربية بنقل دواوين الحكومة إلى لغة رجالها ، وسكوا النقود العربية مستعينين بها عن نقود الفرس والروم وكذلك فعلوا في نقل الطراز<sup>(١)</sup> وماعداء الناس على عهدهم ، طبقة العرب

(١) الطراز هو أن يرسم الملوك أو السلاطين صورهم أو علامات تختص بهم على الأثواب المعدة للباسهم أو لباس بعض الطوائف من أتباعهم ، كما يرى الآن على ألبسة الجنود والشرطة مثلاً ، وأول من نقله إلى العربية عبد الملك بن مروان ولكنه استعاض عن الصور كتابة الأسماء وكلمات التفاضل والدعاء لورود تحريم الصور في بعض الأحاديث .

السائدين عدنانيين، وفحطانيين، وطبقة الموالي السودين مسلمين وذميين، نعم خدم الدولة وتقرب إليها بعض العرب النصاري والموالي، مسلمين وغير مسلمين، ولكن عددهم جميعا كان جد قليل<sup>(١)</sup> ثم جددت أمور لم تكن في صدر الاسلام كاتخاذ السرير والحجاب<sup>(٢)</sup> ولكنهم لم تعد أشخاص الخلفاء ومن حاكمهم من بعض الولاة في تبسيط واضح واكتفاء بالقليل أما أحوال الاجتماع في العصر العباسي حيث نضج التمدن الاسلامي متأثرا بما خلفه عليه من مدينيات، فقد جاءت مغايرة كل المغايرة لما كانت عليه في عهد الامويين.

ساق هذا التمدن الناس بعصاه إلى أن يكونوا طبقتين وتحت كل طبقات، الأولى طبقة الخاصة وهي الخليفة وأهله ورجال دولته وأرباب البيوتات، والثانية طبقة العامة وهي المزارعون أهل القرى وسكان المدن من الصناع والتجار، ثم حمل الخواص على أن يتخذوا لهم من العوام أتباعا هم الجند المحافظون والأعوان المرافقون والموالي المعتقون والخدم وهم الأرقاء والخصيان والجواري من السودان والبيضان، كما حماهم على أن يقربوا إليهم من العوام أيضا أهل الفنون

(١) من تقريب الخلافة الأموية لنصارى العرب، تقريباها الأخطى الشاعر وبخاصة في عهد عبد الملك . ومن خدم من الموالي غير المسلمين، رجال الدواوين قبل تعريبها . ومنهم مسلمين، سالم القائم على ديوان الرسائل لهشام وختنه عبد الحميد صاحب ديوان مروان .

(٢) أول من اتخذ السرير والحجاب معاوية لما رأى منهما في بلاد الروم، ولما أنبأه به صما كان لمجلس الحاكم في فارس ومصر عما له بتلك البلاد

الجميلة من المصورين والمغنين ، وأهل الادب والشعر من الأدباء  
والشعراء ، وذوى الخلق والنفاسة من نابغى الصناعات وكبار التجار .  
فبهذه الطوائف جميعاً ما عدا الزراع كانت تعيش المدن في العصر العباسي  
وتفيض ، هذا إلى من يخالطهم فيها من ذوى المفاصل أعوان الشرأ والمجون .  
وإذ كانت هذه الجموع في غالبيتها أحلاطاً من غير العرب جنساً ، وعلى  
غير ما نشأت عليه العرب استعداداً ، فأنت خبير بما تنتج في أبناء  
العربية المخالطين وفي العربية حيث لا يوجد هؤلاء الأبناء من تأثير .  
ولقد قضت هذه المدنية على كثير من مناقب العرب التي شبو عليها  
في بداوتهم وهذبها الاسلام في صدر اسلامهم ، وحاطها المؤمنين بالرعاية  
في دولتهم ، كالاستقلال والشجاعة والنجدة والألفة والعفة وغيرها  
مما جبلوا على مدحه ، والتفاني في نصرته ، وتجلت له في أدبهم صور  
رائعة باهرة ، فأصبحنا بعد هده من العصر العباسي نشاهد الضعف  
والخور ، والقعود والاسنسل ، والغدر والخداع ، وذهاب الغيرة من نفوس  
الرجال وضعف الثقة بهم في قلوب النساء ، حتى غاض معين طاهر صاف  
وفاض آخر كله رجس وأقذار<sup>(١)</sup>

---

(١) لذلك تنوسيت المرأة العربية في المدن فتنازلت عن عزتها في  
سبيل إرضاء زوجها وصارت تهدي إليه الجوارى وتحبب إليه الاقتراب منه حتى  
ذهبت غيرتها وضاعت كرامتها وعاد الرجل يظن بها الظنوف فأقل عليها  
الابواب والنوافذ وسد في وجهها الطرق والممالك ومنعها الخروج والكلام  
وأصبح الطعن في طباع المرأة شائعاً على ألسنة الناس ، حتى ألفت له القصص  
والروايات وأرسلت فيه الحكم ونظمت الاشعار .



. كما نقلت هذه المدينة العرب من التبسط في معاشهم مطعماً وملبساً ومسكناً؛ فبعد أن أخذوا بطرف يسير من الحضارة مدة العصر الأموي في هذه الأشياء انغمسوا فيها على العهد العباسي حتى الأذقان، فابتنوا القصور المتنوعة تحف بها الحدايق وتجري من تحتها الأنهار<sup>(١)</sup> ولبسوا الحرير ونحوه مختلف الألوان، والأشكال، مفرقين بين الثياب في الحياة الجلادة العامة والحياة الوادعة اللاهية<sup>(٢)</sup> ثم أكلوا كل ماله وطاب من ألوان الأطعمة؛ وشربوا كل ما شاف وراق من أنواع المشروبات<sup>(٣)</sup> فكان ذلك كله على ما صحبه من التغالى في اتخاذ الأثاث والرياش، واقتناء

---

(١) اختلفت أساليب البناء في الاسلام باختلاف البيئات فكانت في كل بلد على نمط أهله، ولكنها لم تلبث أن اتجهت كلها بذوق العرب واستخدمهم الابتكار إلى نمط خاص هو النمط العربي وإن بقي بين بعضه وبعض يسير اختلاف .

(٢) حاكت العرب الأمم المفتوحة في كثير من ملابسها وظهر التغالى في ملابس الخاصة على العهد العباسي ظهوراً بيناً وبخاصة في العراق إذ كان من الخلفاء منذ عهد المنصور حمل للناس على لباس خاص، له في كل طائفة طابع يميزها عن غيرها، وكان لابد من جبة سوداء تغطي حين الدخول على الخليفة جميع الثياب تعرف بالسواد وهو شعار العباسيين بعد أن كان شعار الأمويين البياض ثم كانت ثياب اللهو والدعة تميز بألوانها الزاهية وصقلها اللامع وتعرف بثياب المذاومة .

(٣) قد اتسعت مطابخ الخلفاء والأمراء لتعدد ألوان الأطعمة والتوسع عليها في الاتفاق حتى صار لكل لون خدام عليهم رئيس .  
وما ساعد على انتشار المسكرات أن تناولها كان شائعاً قبل الفتح في جميع البلاد وبخاصة بلاد فارس التي كان ملوكها مغرقين في اللذات والمسكرات.

الأحجار الكريمة والمجوهرات مجالا لحياة اللغة أى مجال<sup>(١)</sup>  
 وثم تعدت هذه الزينات الدور الخاصة بخلفاء الدولة وعظماؤها،  
 فظهرت متجلية في مجالسهم التي كانت تبلغ من السعة المبلغ العظيم، فترفع  
 فوقها القباب وتزين جدرانها وسقفها بصور الذهب والفضة لما في البر والبحر  
 وتفرش أرضها بالبساط الواحد من الديباج، وتسبل على نوافذها ستائر  
 الحرير المطرزة بشارات الدولة وما قد يضم إليها من مأثور الكلام<sup>(٢)</sup>.  
 ثم كان للخلفاء في المواقب حين الخروج للاحتفال من الافتنان في  
 الزينة وإظهار العظمة ما يأخذ بالألباب ويخطف الأبصار<sup>(٣)</sup>.  
 وحينما أخذت العرب في تشرب مدينيات الأهم التي غلبتها على  
 أمرها وورثت حضارتها وسلطانها كانت هذه المدينيات في أخريات

---

(١) أخذ البذخ في اقتناء المجوهرات مأخذه في بغداد، وقد احتذى  
 بهم في ذلك بقرطبة آل مروان ثم فاق الاثنين الفاطميون في القاهرة  
 ففاضت في المدن الثلاث المجوهرات حتى كانت تزين بها الخيل وسائر الحيوان  
 وإن نظرة إلى ما كانت تزين به النساء عند الزفاف ولا سيما بنات الخلفاء والخاصة  
 من الأمراء وذوى اليسار لتدل على ما بلغ إليه الترف في تلكم الأنحاء .  
 (٢) كانت تتعدد أماكن هذه المجالس بتعدد ما يدور فيها، فبعضها التصريف  
 أمور الدولة وبعضها للادب والشعر، وبعضها للمناظرات والعلم، وبعضها للغناء  
 والانس، وهكذا .

(٣) وكذلك كانت تختلف أشكال المواقب باختلاف الداعي إليها من أمر ديني  
 كالآعياد، أو دنيوي كزفاف أو ختان، أو نصر أو مالى ذلك مما هو مفصل في الكلام  
 على آيات الخلفاء .

أيامها قد سارها الشر وعمها الفساد ، فكثرت من أبنائها الاشرار  
الفاسدون ، الذين نشروا الرذائل في مدينة الاسلام ، وكان العرب معرضين  
لها بعدوى المعاشرة والاختلاط ، فلم يكادوا يخطون في مدنياتهم حتى  
كثرت الموبقات ، وتعددت المفاسد ، وغلبت الشهوات على الناس فصاروا  
لها عبيدا ثم انطلقوا في تيارها بعد عن طوعية واختيار ، وكأن أبناء  
العرب وقد فقدوا شخصياتهم ، وصاروا وأبناء الأمم المذكورة سررا  
ثم أقل من السواء ، أصبحوا بحا كونهم محكاة المخلوب للغالب  
فانغمسوا في شرورهم غير مباليين ، وتعودوا من عاداتهم ما كانوا عنه  
مباعدين (١)

ولقد ولد هذا الارتفاع الشديد في تيار الحضارة تنديسا للمادة  
في النفوس إشباعا للنهم الجشع ، وسدا للسكال الذي صار من الضرورات ،  
فأحب الناس المال حبا جما ، وانطلقوا وراء الحصول عليه انطلاقا أعمى  
لا يفرق بين حل وحرام ، فتنوعت طرق السلب والابتزاز ، وانتشرت  
حيل الغش والخداع ، وأصبحت الرشوة عاملا فعلا من عوامل نيل  
الغرض وابتداء الثروات (٢)

( ١ ) لذلك كانت عادات الجاليات العربية في كل قطر ، من عادات أهل  
وناهيك بما كان قد استقر من عادات الشر في الاقطار الاسلامية قبيل الفتح  
أثرا محتوما لمدينتين شاختا وأكل عليهما الدهر ، هما المدينة الفارسية شرقا  
والمدينة الرومانية غربا .

( ٢ ) فشا بانتشار الرشوة الآثراء السريع للوزراء ومن في حكمهم من الولاة  
والعمال وتبع ذلك إقدام ذوى الأمر على استصفاء أموال هؤلاء لاعتقادهم  
أنها جمعت من حرام كلما احتاجوا إلى سد عجز مالى أو حفزهم حافز الانتقام .

— ٣٤ —

على أن العرب على ما آذنتهم به تلك المدينيات في نواحي الاجتماع،  
قد استفادوا من وراثتها مغنم في العلم والأدب، عادت عليهم وعلى لغتهم  
بالخير والصلاح، فقد جرى أبناء أممها سلائل العرب في مضمار الأدب  
فكان منهم الكتاب والشعراء ثم بدوهم في مضمار العلم فكانوا أكثر  
منهم عددا وإنتاجا في التأليف والتصنيف، هذا إلى أن أدباءهم كانوا  
اللقاح الأدبي الجديد، كما كان علماءهم التراجمة الماهرين فيما نقل من  
علم دخیل .

ذلك مجمل ما كان للأعاجم بجنسياتهم ودياناتهم ولغاتهم  
واجتماعياتهم من تأثير في العرب ظهرت نتائجه في لغتهم أغراضا ومقصدا،  
معنى وخيالا، لفظا وأسلوبا، على ما سنبينه في هذه النواحي الثلاث  
عقب الكلام على غلبة الفرس فيه .

## غلبة الفرس في هذا التأثير

وإلى أى درجة كان فى اللغة مداه

لقد كان للفرس دون غيرهم من سائر الأمم نصيب الأسد فى هذا الموضوع

ذلك أنهم شعب آرى أسس دولة عتيقة فى التاريخ القديم ذات علوم وآداب<sup>(١)</sup>؛ وهم أهل ذكاء وتعقل، وفيهم استعداد فطرى يساعدهم على الأخذ بأسباب الحضارة، ولذلك أحرزوا منذ القديم، قسطا وافرا من الطبيعيات والرياضيات ورثوا فيه الآشوريين والبابليين، واحتكوا بالهنود واليونان المتصلين بهم لغة وجنسا، فنقلوا إلى لغتهم ما نبغت فيه هاتان الأمتان من علوم وفنون<sup>(٢)</sup>، ثم كان

«١» كانت السيادة قديما للفرس شرقا وللروم غربا ولكن سلطان فارس كان أقدم عهدا، وأكثر جندا، امتلكوا مصر على فراغتها زمنا وحاربوا اليونان قبل المسيح، فسكانوا قبل بضعة وعشرين قرنا مجردون جيشا قد يصعب اليوم على أعظم الدول حشده ونقله من أواسط آسيا إلى أفريقيا وأوربة.

«٢» كان نقل الفرس لعلوم الهند جاريا منذ القديم يؤيد ذلك ما ذكر فى فتح الاسكندر بلاد فارس من أنه عثر فى عاصمتهم إصطخر على خزان كتب، فيها ما جمعه الفرس من علوم الهند والصين إلى تلك الأيام.

وقد نشطت حركة النقل بفارس أيام سابور بن أردشير فقد بعث إلى بلاد اليونان من استجلب كتب الفلسفة وأمر بنقلها إلى القارسية وخزنها فى خزائنه وشجع الناس على نسخها ودرسها.

ولما كان ما كان من اضطهاد جوستينيان قيصر للفلاسفة الوثنيين بعد إقفاله هياكلهم ومدارسهم، فروا من وجهه إلى فارس حامية الوثنية إذ ذاك، فاستقبلهم

أبين مافضلوا غيرهم فيه النبوغ في الأدب الآرى ، ذى المكر الغواص  
والخيال المخصب البديع ؛ وماظنك بقوم هذا شأنهم قد نزل العرب  
بلادهم منذ الفتح الأول ، ثم أنشئوا أكبر دولة عرفها التاريخ في  
أحضانهم وبمعوتهم ، ولمايمض على ذهاب سلطانهم من الزمن طويل ،  
إلا أن يتشربوا مدنياتهم ، ويتحضروا بحضارتهم ، ويظهر أثر ذلك جليا  
في كلامهم ، وإن تغلبوا عليهم في اللغة والدين

أما الأتراك الذين شاطروا الفرس النفوذ في العصر العباسي عهدا  
بعده . فلم يك لهم ما للفرس ولا شيء منه في هذا الميدان لمايلي من أسباب  
اتصال الأتراك أول ما اتصلوا بالعباسيين خدما مجلوبين من أمة  
لا عهد لها بعلم ولا سابقة عندها لحضارة ، إنما هم قوم من البدو الآمين  
الذين لا يزالون يضربون في الأرض ابتغاء الرزق سايما ونهبيا ، ويذرعون  
أواسط آسيا شرقا وغربا ، متقاتلين فيما بينهم ، ومقاتلين من يصادفهم من  
غيرهم ، عمادهم قوة أبدانهم ، ومايتخذونه سلاحا بأيديهم دون أن يقيموا  
دولة أو ينشئوا حضارة ، فبقى هذا شأنهم حين صار لهم النفوذ في  
العصر العباسي الثاني على الخلفاء ، غاظة في غير رفق ، وقسوة لا تعرف  
الرحمة ولا التعقل اليها سبيلا ، وتنافر بين أحزابهم ، أيهم أكثر قوة  
وأشد في النكاية إيغالا ، فهم صورة من صور الخسف والاستبداد  
والسيخف والاستعباد ، تبقى مابقى بطشها وسلطانها ، فاذاما زيلتها القوة

---

كسرى أنو شروان ورحب بهم وأقاموا عنده ينقلون السكتب اليونانية إلى  
الفارسية حتى نقلوا منها الكثير ثم أخذوا يؤلفون في علوم الفلسفة وغيرها  
حتى شاع العلم اليوناني بفارس كماشاعت قبل علوم الهند والعين .

وتعداها النفوذ؛ ذهبت غير مخلقة من الآثار ، إلا اللعنة وسوء الدار .  
أما حضارة تؤثر في حضارة ، وأدب يؤثر في أدب ، ولغة تتدخل في لغة ،  
فلا شيء من ذلك عندهم حتى يكون ، ولا أثر له في وجودهم يبقى إذا  
أفناهم الزمان .

وحين مكن لهم الدهر في عهدهم الثاني عهد السلاجقة الذي كان  
أطول العصور ، كانوا من تلك الناحية كما كان أسلافهم في العهد السالف  
مقفرين ، فلم نجد العربية في لغتهم ما تتأثر به من علوم وآداب لأنها لم  
تلك لغة علوم وآداب ، وبقيت مصبوغة بالصبغة التي كانت لها من لغة  
فارس ، بل زادت الفارسية فيها تأثيرا عما كان لها قبل أن يكون للأتراك  
سلطان<sup>(١)</sup> وبهذا خلت العربية من كل أثر للتركية إلا بعض ألفاظ  
منها سرت إلى لغة التخاطب بدافع الاختلاط<sup>(٢)</sup> .

ومما وقف في طريق أن تتأثر العربية بالتركية في هذا العهد  
الأخير على فرض أن يكون لها تأثير ، أنه جاء وقد استوفت العربية

(١) كان أتراك المشرق إذا انتصروا لغير العربية جاء انتصارهم للفارسية  
دون لغتهم العاجزة أن تكون لغة علم وأدب ، يؤيد هذا ما سبق عن السلطان  
محمود الغزنوي من تشكيله الفردوسى إتمام نظم الشاهنامه الفارسية .

(٢) من ذلك سنجقدار لحامل الراية خلف السلطان ، ودوادار لمتولى  
الأحكام وتنفيذها ، ومردار لرئيس الجيش ، ونحوها من الكلمات المركبة من كلمتين  
ركبتين إحداها دار بمعنى ممسك والآخرى مأخوذة من المعنى المراد كسنجق  
بمعنى الرمح وهكذا .

كل ما احتاجت اليه في ترجمة العلوم والآداب ، جله من لغة فارس ، وقليله من اليونان ، والنادر من الهنود . ولعل من يقول وكيف تذكر ما تذكر عن الهندية واليونانية ، وفيض الهنود على العرب في العلم عظيم . وفيض اليونان أعظم وأوفر ، وهذا دافع إلى أن يكون تأثير العربية بلغتيهما على درجة لا تستقيم وقولك إنه نادر وقليل ، فنقول تفهما له وتبيننا ، إن التأثير من الناحية العلمية المعنوية غير التأثير من ناحية الالفاظ والاساليب ، وحقيقة كان فيض العلم اليوناني والهندي على العربية كما ذكرت ، ولكن أغلب ما نقل اليها منهما كان عن الفارسية التي نقلته قبل اليها ، فكان لها فيه الاستئثار بتأثير اللفظ والأسلوب ، ثم الاشتراك مع هاتين اللغتين في التأثير العلمي ، إذ لا تخلو الترجمة من أن يكون المترجم في معناها نصيب .

على هذا الضعف كان شأن اللغة التركية التي شارك أهلها والفرس في النفوذ . فاستقلت الفارسية بالتأثير البين في العربية في تسليم الأرجاء الشرقية المترامية الأطراف ، وبقي لها كيان شخصي أخذ ينزايد وينمو كلما تقدم بالدولة الزمن ، حتى عم آخر العهد قاصية فارس ، فكانت الفارسية فيها لغة أدب وتأليف ، ثم أخذ يزحف من الشرق إلى بغداد حتى رد أمته فارسية اللغة كما كانت أول الزمان ؛ أما وسط الدولة فكانت العربية وهي لغة غالبية منذ القديم غلبة على ما وجدته من لغات أصبحت في ذمة التاريخ ، وكذلك فعلت في لغات غربها ، وإن لم تكن لغة أهل قبل الفتح ، فلم يبق لشيء من تلك اللغات وجود ، وإذن كان للغة الفارسية بذلك وبمن نبغ فيها من أبناء العرب ونبغ في العربية من



أبنائها، الاستثناء بتأثير اللفظ والأسلوب في ميدان الآداب والعلوم (١).  
إلا ما كان من مشاركة اليونانية لها في الميدان العلمى، حينما ترجمت منها  
مباشرة إلى العربية بعض العلوم، وهذا ما سيظهر جليا فيما نحن مجالوه  
عما جدد باللغة في تلكم النواحي الثلاث، بعامل هذا التأثير مع العامل الطبيعى  
للنشوء والارتقاء إلى أن يفصل بعد بتفصيل الموضوعات .  
أولا - ناحية الأغراض والمقاصد

قد اتسعت مقاصد اللغة وأغراضها في العصر العباسى اتساعا  
كبيرا ساعد عليه امتزاج المدنية الآرية بالسامية امتزاجا تاما، وكان من  
وراء ذلك أن تناول التغيير أغراضا بالايحاء، وأخرى بالسعة والازدياد،  
كانت منها هذه الأغراض

١ - تدوين العلوم على اختلاف أنواعها من شرعية ولسانية  
وعقلية .

(١) كان الدافع للفرس إلى تعلم لغة العرب أنهم وجدوا تعلمها وسيلة  
ناجعة في الوصول إلى أعلى المناصب وآلة فعالة في جلب الغنى الواسع فحذقوها  
وعملوا على نقل محاسن لغتهم إليها ، وكانوا لا يحصون كثرة .  
أما الدافع إلى تعلم كثير من العرب لغة الفرس فهو الاستمتاع بقراءة  
آثارهم والتمس اللذة من الاطلاع على تاريخهم . ولما تغذوا بلبانها كانوا أداة  
صدق في تغذية العربية بكثير من ثمارها .

ولقد جنى الأدب العربى على أيدي من حذقوا اللغتين معا ثمارا شبيهة  
باضجة، كعبدالله بن المقفع، والبديع الهمداني من الأدباء ، والفخر الرازى من  
الفلاسفة، ومومى بن سيار من رجال الوعظ والارشاد ، وغير هؤلاء كثير .

٢ - الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية وبخاصة الفارسية ثم اليونانية .

٣ - إشاعة المذهب الشعبي والرد عليه .

٤ - نشر الزافة والالحاد ومقاومتها .

٥ - تعبيد طرق البحث والجدل والمناظرة والمحاضرة

٦ - التحريض على متع الحياة وتحسين المجانة والخلاعة وامتداح الشراب والغناء .

٧ - الوعظ والارشاد عن طريق التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة .

٨ - ضبط أمور الدولة بتنويع الكتابة في مختلف الدواوين .

٩ - وضع القصة والرواية .

١٠ - وصف جمال الطبيعة ومحاسن الحضارة، كالرياض بما فيها من ثمار وأزهار ورياحين، والقصور وما حوت من أثاث ورياض وصور ورسوم، ومجالس المنادمة والشراب، ومصايد الوحوش والسمك والطيور، وأنواع اللعب بالكرة والصولجان، إلى غير ذلك من آيات الحضارة ومباهج الحياة .

١١ - النقد الأدبي على اختلاف مناحيه .

١٢ - تدريس العلوم المختلفة في المدارس وتربية الأحداث .

ثانياً — ناحية المعاني والأخيلة

لقد فتح التوسع في المقاصد وتعدد الأغراض أمام الناس أبواباً جديدة للمعاني والتخيلات، إذ كان تدوين العلوم وترجمتها عاملاً على

نضج العلوم وسعة الأفكار ، وكانت الملاحاة الجنسية والمذهبية باعثة على قوة المباحنة والمناظرة ، وخلق الحجج الجدلية إن أعوز البرهان ، وكذلك كان باعنا عليها ما كان بين زهاد هذه الحياة والمبيحين لأنفسهم الاستمتاع ، إلى غير حد بما فيها من لذة ونعيم ، ثم كن وضع القصة وخلق الرواية فاتحاً أمام الخيال أودية بعيدة ما بين الأطراف ، كما كانت طبيعة البلاد الخصبة ومجالي الحضارة فيها مطلقة للتصوير الحسى كل عنان ، فعاد هذا وغيره على المعانى والأخيلة بأطيب الثمرات وهذا بعض ما كان ، مشفوعاً لدقته دون ما ماتكناه بالتمثيل<sup>(١)</sup>

١ - الاكثار من المعانى الدقيقة والجديدة ، التى تدل على حصافة عقل وغوص فكر وطول دراسة للعلوم العقلية وتفهم لمناحى الفلسفة من ذلك قول ابن المقفع فى الأدب الكبير :-

« إن رأيت صاحبك مع عدوك فلا يغضبك ذلك فانما هو أحد وجلين ، إن كان رجلاً من إخوان الثقة فأنفع مواطنه لك ، أقربها من عدوك ، لشر يكفه عنك وعورة يسترها منك ، وغائبة يطلع عليها لك ، فأما صديقك فما أغناك أن يحضره ذو ثقتك ، وإن كان رجلاً من غير خاصة إخوانك فبأى حق تقطعه عن الناس . وتكلفه ألا يصاحب ولا يجالس إلا من تهوى »

---

(١) سنقصر التمثيل هنا على النثر وندع التمثيل من الشعر مع تفصيل القول إلى حيث الكلام على ناحية المعانى والأخيلة فى الشعر وهى غنية بالأمثلة والشواهد على كل ما نذكر هنا .

٢ - إرسال الحكمة المقررة وضرب المثل الموضح ، لما رسيخ في  
أذهان القوم من فلسفة معينة، وتجارب مفهومة ساعدتهم أن يكثرُوا  
من النوعين مجيدين

من ذلك قول ان المنفع في كتاب كريمة ودمنة من باب عرض الكتاب  
« فالعلم لا يتم إلا بالعمل، وهو كالشجرة والعمل به كالثمرة ، وإنما  
صاحب العلم يقوم بالعمل لينتفع به ، وإن لم يستعمل ما يعلم لا يسمى  
عالماً ، ولو أن رجلاً كان عالماً بطريقتي مخوف، ثم سلكه على علم به سمى  
جاهلاً ، ولعله إن حاسب نفسه وجدها قد ركبت أهواء هجمت بها فيما  
هو أعرف بضررها فيه وأذاها من ذلك السالك في الطريق المخوف  
الذي قد جهله . ومن ركب هواه ورفض ما ينبغي أن يعمل بما جربه  
هو أو أعلمه به غيره ، كان كالمرضى العالم بردى الطعام والشراب وجيده  
وخفيفه وثقله، ثم يحمله الشره على أكل رديئه، وترك ما هو أقرب إلى  
النجاة والتخلص من علته ، وأقل الناس عذراً في اجتناب محمود الأفعال،  
وارتكاب مذمومها، من أبصر ذلك وميزه وعرف فضل بعضه على  
بعض كما أنه لو أن رجلاً أصبح بصيراً والآخر أعمى ساقهما الأجل  
إلى حفرة فوقها فيها، كانا إذا صارا في قاعها، بمنزلة واحدة ، غير أن  
البصير أقل عذراً عند الناس من الضرير إذ كانت له عينان يبصر بهما،  
وذاك بما صار إليه جاهل غير عارف »

٣ - استخدام الحجج العقلية والبراهين الفلسفية التي أصبحت  
أذهانهم الناضجة لا ترضى بغيرها ولا تقنع بسواها  
من ذلك ما كتبه أحمد بن يوسف على لسان طاهر بن الحسين

إلى المأموف بقتل الأمين وهو :

« أما بعد فإن كان المخلوع قسم أمير المؤمنين في النسب واللحمة ، فقد فرق بينهما حكم الكتاب في الولاية والخدمة بمفارقتهم عصمة الدين وخروجه من الأثر الجامع للمسلمين ، لقول الله فيما أنص علينا من نوح وابنه « إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح » ولا طاعة لأحد في معصية الله ولا قطيعة ما كانت القطيعة في ذات الله ، وكتاني إلى أمير المؤمنين وقد أنجز الله له ما كان ينتظر من سابق وعده ، والحمد لله الراجع إلى أمير المؤمنين معاوم حقه ، الكائد له فيمن ختر عهده ونقض عقده ، حتى رد به الألفة بعد فرقتها وجمع به الألفة بعد مشتاتها وأضاء به أعلام الدين بعد دروسها ، وقد بعثت إلى أمير المؤمنين بالديار وهي رأس المخلوع وبالأخرة وهي البردة والقضيب والحمد لله الأخذ لا أمير المؤمنين حقه الراجع إليه تراث آباءه الراشدين .

٤ - الابداع في التصوير والاعراب في الخيال . وقد كثرت موادها وتعددت ألوانها في أدب القصة من المنثور ، ومن خير ما تطالع فيه الأول أمثال كيلة ودمنة ، ومن خير ما تطالع فيه الثاني ، حكايات ألف ليلة وليلة ، وإنك لمصيب الاثنين معا فيما وضع بجانب هذه الكتب من مقامات ، وبخاصة للبديع والحريري وسنختار مقامة لكل بعد : ه - الاقدام دون تهيب على المبالغة والتهويل جريا على ما كان للفرس بهذا النوع من ولوح حملهم إليه التبعاد بين طبقات الناس .

من ذلك ما كتب به أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف صاحب ديوان الرسائل لعضد الدولة عن نفسه إلى مؤيد الدولة شكرا على

شكر سماه تهنئة .

« وصل كتاب مولانا جرابا عما خدمت به حضرته المحروسة مهنثا ، فحسبتي ، وقد تأملت عنوانه ، مغلوطا في أو معنيا به غيرى ، إعظاما لتلك الأيادى الغر والنعم الزهر التى أعدتها فى الشرف مناسب وإلى الأيام والليالى ذرائع » إلى آخره

٦- وهذا كله إلى محص الأفكار وترتيب عناصرها ، حتى يأخذ بعضها بحجز بعض ويقل الشذوذ والاقتضاب .

ثالثا - ناحية الألفاظ والأساليب

لقد كان تأثير اللغة فى هذه الناحية أظهر منه فى الناحيتين السابقتين ، لأنها فضلا على تأثيرها بهما ، قد تأثرت من نواح غيرهما ، وهذى بعض مظاهر التأثير نسوقها عدا كما فعلنا فى ناحية الأغراض .

١ - حدوث لغة تأليفية لتعليم العلوم وأخرى فنية لتعليم الصناعات روعى فى كليتهما مقياس المنطق والفلسفة ، لا مقياس الأدب والبلاغة ، ولم نك هناك مندوحة دون حدوثهما بعد نشاط التدوين فى شتى العلوم وصنعا وترجمة وانتشار الصناعات .

٢ - نقل كلمات عربية إلى معان جديدة بطريق التجوز أو الاشتقاق أو القياس ، لمصطلحات العلوم والفنون والصناعات وما إلى ذلك من إدارات الحكومة ودواعى العرف العام .

٣ - دخول كثير من الكلمات الأجنبية فى كل ما تقدم ، وبخاصة على أيدى المترجمين والمؤلفين فيما نقل من علوم ، وذلك بعد تغييرها إلى ما يجعلها متفقة مع العربية بخارج حروف وأبنية أوزان إن كانت فى حاجة

إلى غير. وتسمى حينئذ بالكلمات المعربة، كما يـ حتى هذا التغيير بالتعريب .  
 ٤ - الدقة في انتقاء الألفاظ السهلة الرشيقة المثلة للمعنى كل التمثيل .  
 ٥ - التأنق في صوغ العبارات المحكمة الرائعة المفهمة للغرض في  
 شدة أسر وقوة أداء

٦- التوسع في استخدام أنواع التشبيه والتمثيل والكناية والمجاز.  
 ٧- الاكثار من محسنات البديع لفظية ومعنوية مع الازدواج  
 المصحوب كثيرا بالسيجع .

٨- الشغف باستعمال ألفاظ القرآن ومحاكاة أساليبه واقتباس آياته  
 والاستشهاد بها .

٩- الانحدار إلى استعمال كثير من ألفاظ الخف والبذاء وعبارات  
 الخلاعة والمجون .

١٠- التوسع في إدخال ألقاب التعظيم على الأسماء وبث عبارات  
 الماتى والخنوع في ثنايا الكلام .

١١- التغالى في كل من الاطناب والايجاز الى درجة قد تُسوّد مع  
 الاول عشرات الاوراق في بعض الرسائل والعهود والمنشورات. وتصل  
 بالثانى في قصار الرسائل إلى حد التوفيع .

١٢- ظهور جديد في الوزن والقافية لم يكن معروفا من قبل كما  
 سيأتى بيانه في الشعر<sup>(١)</sup> .

---

(١) من ذلك في الوزن ما يسمى الممتد وهو عكس المديد كقول القائل

قد شجاني حبيبي واعتاني اذكار ليته إذ شجاني ماشجتي الديار

ومنه في القافية ما يسمى المسقط وهو أن يبتدىء الشاعر بأقسمة من قافية

ذاك أظهر ما كان من جديد في نواحي اللغة أدبها وعلمها ، وللفارسية تأثير فيه كبير ، من خير وشر في الأغراض وحسن وقبيح في المعاني والألفاظ ؛ ولقد كان لجانب الخير والحسن الغلبة في أوائل العصر ولكن لم يأت آخره حتى تغلب الشر والقبح باستكراه اللفظ والمعنى وضعف ملكة البيان .

وهناك ناحية للغة لم تك من حسابنا فيما أسلفنا من قول ، هي ناحية التخاطب العام الذي جنت عليه الأعجبيات أكبر جنانية عرفت للعجبة على لغة الضاد حتى انتشرت العامية وكان حقاً أن تنفرد في هذا العصر حيث الكلام عليها بعنوان .

---

واحدة يأتى بعدها بقسيم من قافية أخرى يلتزمها دون سابقتها كقول بعضهم  
غزال هاج لي شجنا فبت مكابدا حزنا صميد القلب مرتها  
بذكر اللهو والطرب  
سبتنى ظبية عطل كأن رضاها عمل ينوء بخصرها كفل  
ثقل روادف الحقب



## انتشار العامية

واختلافها باختلاف الاقاليم

عقدنا في كتابنا الثاني من تاريخ الأدب العربي حيث الكلام على العهد الأموي، فصلا لم نعقد مثله في عصرى الجاهلية وصدر الإسلام هو « لغة التخاطب » عللنا فيه تنزه العصرين المذكورين عن اللحن والتحريف والدخيل، وأبنا السبب في نشأة تخاطب جديد في العصر الأموي مشوب بهذه الاشياء قلنا من وصف لغته إذ ذاك :-

« فهذه اللغة الجديدة كانت خليطا من العربى المشوه بعضه باللحن والتحريف، والانهجى الذى يختلف باختلاف الأعجميات فى الامصار، من فارسية بالعراق ورومية بالشام وقبطية بمصر وهكذا ولكنها لم تتناول بلحنها وتحريفها ودخيلها جميع المتكلمين، فكانت بعيدة عن ذلك كله على السنة النازحين من العرب أنفسهم وكذلك تقريبا على السنة أبناء الخاصة من أمهات عربيات، أما أبناءهم من غير العربيات وأبناء عامتهم مطلقا فلم تخل لغتهم من شئ من هذا، وقد يكون مصحوبا بلكنة أعجمية أيضا، ولكن هؤلاء جميعا كانت محادثتهم عربية فى مجموعها بالنظر إلى محادثة الاالجم أهل البلاد الاصليين إلا من تعلموا العربية منهم ونبغوا فيها فقد كان مثلهم مثل العرب النازحين، ولذلك سابقوم فكانوا مثلهم فى ميادين الأدب والشعر، وأسبق منهم فى ميادين العلم والتأليف » إلى أن قلنا :-

« غير أن شيوع اللحن فى العصر الأموي لم يززع من عقيدة

الناس في لغتهم لأنها لغة القرآن وأساس الدين ، مع اصطباغ الدولة  
بالمصبغة العربية المحضة ، فاستمروا يتهيبون اللحن ويذمونه ويفنخرون  
بالأعراب ويمدحونه .

نريد بهذا القول وذاك أن لغة التحدث العام كانت عربية لما  
تتحول إلى عامية بعد

أما في العصر العباسي الذي نحن بصدد الكلام فيه ، فقد تحولت  
إلى عامية انتشرت بقوة العجمة على تتابع سذنيه الطوال فطارت العربية  
من هذه الوجهة بكافة الأقاليم ، وبلغت شدتها في بعضها القضاء عليها  
والعود بالمحادثة إلى لغات سكانه الأصليين . نعم إن تلك المطاردة  
اختلفت قوة وضعف باختلاف الجهات ، ولكن التحدث لم يك بالعربية  
الصحيحة في جهة ماحتى البادية فقد دخلتها العامية قبل انقضاءه بزمان  
طويل ، واليك في هذا كله البيان .

ورث العصر العباسي إذن عن العهد الأموي لغة التحدث عربية  
صحيحة في مجموعها ، وبذل خلفاؤه الأولون على بقائها صحيحة بمحاربة  
اللحن والتجريف أن يتسرب إلى السنة السواد وإن وقع من بعضهم ،  
جهودا مشكورة حاكاهم فيها الولاة والامراء العرب محاكاة المخلص  
المتعصب ، والموالي محاكاة المتزلف المتقرب سوبدت هذه الجهود في  
شتى الأتوان دفا عن لغة الدين والعلم والسلطان .

من ذلك أنهم بلغوا الذروة في تكريم اللغة بتكريم رجالها علماء  
وأدباء ورواة وشعراء ، فكانوا يفسحون صدورهم لنقاش العلماء ،  
ويوسعون مجالسهم لمناظرة الأدباء ، ويهيبون بالرواة أن يجدوا في جمع

شوارد اللغة وضبط مأثورها، ثم يقيمون المحافل لاستماع الشعراء بآذنين  
 في كل ذلك عناية تحفز الهمم، ومالا يستهوى النفوس  
 ومنه أنهم كانوا القدوة الحسنة في فصاحة العبارة وبلاغة المعنى،  
 والأسوة الطيبة في العناية بتنشئة أبنائهم على مثل ما هم عليه من بيان،  
 فلم يفت واحدا منهم أن يستحضر لتأديب بنيه، المبرزين من شيوخ  
 الأدب وأكابر الرواة، كالشرق القطامي مؤدب المهدي، والأحمر النحوي  
 والكسائي مؤدب الأمين، والزيدي مؤدب المأمون، والمفضل الضبي  
 مؤدب الواثق، ويعقوب بن السكيت مؤدب المعز، وثلعب والمبرد  
 مؤدب ابنه عبد الله بن المعز، إلى غير هؤلاء ممن كان خلفاء يأملون  
 من وراء ملازمتهم أبناءهم تثقيفا عربيا يغني عن الإرسال إلى البادية التي  
 كان يحرق خلفاء الأمويين على تثقيف أبنائهم فيها.  
 ومنها قدرهم النبوغ العربي قدره بما يظهرون من تعظيم لأهله  
 تنسى معه ضعة الأصول ولا يضمن عليه من أجلها بكبار المناصب،  
 ونظرة إلى من قلدوا أعمال الدولة إذ ذاك ترى كيف كان النبوغ الأدبي  
 أمام ذوى الهمم المتحفزة خير وسيلة للتقدم، وإلى أية غاية اتخذوه  
 معارج عليها يظهرون<sup>(١)</sup>

---

(١) من الحوادث التي تؤيد هذا وهي كثيرة ما ذكر من أن المعتصم وكان  
 أميا ورد إليه كتاب بعض العمال فقرأه عليه وزيره أحمد بن عمار فاذا فيه ذكر  
 السكلا فقال المعتصم للوزير ما السكلا؟ فلم يدر ما هو فقال المعتصم: خليفة أمي  
 ووزير أمي ثم قال: انظروا من الباب من الكتاب فوجدوا محمد بن عبد الملك الويات  
 م ٤ - أدب

غير أن هذه الجهود وغيرها مما كانوا يبذلون لم تقو على صد تيار العجمة الزاحف بجيوشه من لحن وتحريف ودخيل ، والمتخذ طلائعه الغازية السنة من لا يترفع عنه من ضعفاء العرب ، ومن لا يتطلعون إلى رقى من الأعجام ، فكان بهؤلاء وهؤلاء شديد الوطأة. قوى الزحف ، سريع الانتقال، أنبأ عن وجوده في العصر الاول على كره الخلفاء حتى على ألسنتهم ، وأعلى مكانة نفسه في العصر الثاني فلم يكن من ظهوره على السنة الخاصة خجل ولا حياء .

فأما إعلانه عن وجوده في العصر الأول فقد ظهر على ألسنة الخلفاء وخاصتهم على تهيبهم له وتقزيم منه . ذكروا أن أبا جعفر المنصور لحن في مجلس به أعرابي فصر الأعرابي أذنيه ، ثم لحن ثانية فقال الأعرابي أف لهذا ، ثم لحن الثالثة فقال أشهد لقد وليت هذا الامر بقضاء وقدر . ودخل الفراء على الرشيد فتكلم بكلام لحن فيه فقال الرشيد أتلحن يا فراء فقال يأمر المؤمنين إن طباع أهل الحضر اللحن فاذا تحفظت لم أُلحن وإذا رجعت إلى الطباع لُحنت . وكان المأمون يقول أنكم مع الناس كلهم على سجيتي إلا مع ابن الهيثم فاني أتحفظ إذا كلمته لأنه يعرف الأعراب . وسمع المأمون بعض ولده يلحن فقال « ما على أحدكم أن يتعلم العربية فيقيم بها أوده ويزين بها مشهده ويقول حجة خصمه بمسكتات حكمه ، ويملك مجلس سلطانه بظاهر نيانه ، أيسر أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده أو أمته فلا يزال الدهر أسير كلمته » إلى غير ذلك مما يدل

---

فأدخل عليه فسأله عن السكلا فقال يأمر المؤمنين هو العشب طامة فان كان رطباً فهو الخلا وإذا يبس فهو الحشيش فعرف المعتصم فضله واستوزره .

على أن اللحن في العصر الأول كان من طباع أهل الحضر لضعف  
ملكاتهم ، كما يدل على أنه كان شائعا على ألسنة السواد ، ولكنه يدل  
بازاء هذين أنه كان إذا وقع من الخاصة استهجن وقوبل من السامعين  
با كبار أمره والتشدد في المؤاخذه به . وقد بلغ من تأذى الرشيد باستماعه  
وعنايته بأصلاحه أن حاول إصلاح غناء الملاحين بدجلة ، وكان إذا ركب  
بها أعجبه غناؤهم وآلمه لحنهم فقال جلسائه : قولوا لمن معنا من الشعراء  
يعملوا لهؤلاء شعرا يغنون فيه ، فقليل له ليس أحد أقدر على هذا من  
أبي العتاهية . وكان في الحبس فوجه إليه يأمره بعمل الشعر دون أن يأمر  
باطلاقه ، فغاضه ذلك وعمل له شعرا في الوعظ والتذكير بتقارب الأيام  
لينغص به على الرشيد سروره كلما سمعه . وكان الرشيد سريع التأثر  
يبكي للموعظة إذا مرت بأذنه فكان كلما سمعه تأثر ولج في بكائه حتى يأمر  
من معه الملاحين بالسكوت <sup>(١)</sup>

(١) كان سبب حبس الرشيد له أنه لما تنسك ولبس الصوف أمره الرشيد  
أن يقول شعرا في الغزل فامتنع فضربه وحلف ليعحبس حتى يقول الشعر فقال  
أبو العتاهية « كل مملوك لي حر وامراتي طالق إن تكلمت سنة إلا بالقرآن ، أو  
بلا إله إلا الله محمد رسول الله » خزن الرشيد مما فعله وأمر أن يحبس في دار  
ويوسع عليه ولا يمنع من دخول من يريد إليه .  
أما الشعر فهو كما رواه عن نفسه

خانك الطرف الطموح أيها القلب الجروح  
لدواعي الخير والشر م دنو ونزوح  
هل المطلوب بذنب قوبة منه نصوح

وأما إعلالؤه مكانة نفسه في العصر الثاني، فكان حيث فقد الأدب النصير من الخلفاء وأولياء العهود السابقين، وخلف من بعدهم خلف نشئوا بين الامهات والخواصن الأعجميات لا يخاطبون إذا خالطوا غيرهن، سوى الخدم الأعجم، بعيدين في كل ذلك عن الرواة والمؤدبين. ثم تولوا الخلافة على هذا الضعف الشائن المعيب ففقدت الفصحى بذلك معين التشجيع والتأييد، وتعدت العامية السنة السوداء إلى السنة الخاصة فكان بها تحادتهم وخطابهم ما لم يحتفلوا بقول يذاع، ومن هنا بدأت العامية تعمل عملها في السنة الخواص حتى أفسدت عليهم فصاحتهم،

كيف إصلاح قلوب إنما من قروح  
أحسن الله بنا أن الخطايا لا تقوح  
فاذا المستور منا بين، ثوبيه نقوح  
كم رأينا من عزيز طويت عنه الكشوح  
صاح منه برحيل صائح الدهر الصدوح  
موت بعض الناس في الآر ض على قوم فتوح  
سيصير المرء يوما جسدا مافيه روح  
بين عيني كل حي عـلم الموت يلوح  
كلنا في غفلة والموت يغدو ويروح  
لبنى الدنيا من الدنيا غبوق وصبوح  
رحن في الوشى وأصبحـن عليهن المسوح  
كل نطاح من الدهر له يوما نطوح  
نح على نفسك يامسكين إن كنت تنوح  
لتموتن وإن عمم رت ماصر نوح

التي صارت لاتسعفهم حين التهيؤ لمقال إلا بالعربية الوسط ما لم يكونوا كتابا أو شعراء و بقيت على هذه الحال إلى نهاية العصر المذكور .  
 فلما جاء العصر الثالث ، جاء وقد ظهرت العامية على ألسنة الخواص ، وبالرغم من بلوغ الكتابة والشعر فيه الذروة كما أسلفنا ، وجدت تلك اللغة في التحدث العام بصرة كبيرة من هؤلاء ، لأن غالبيتهم في الأصل أعجم لا يزال في رءوسهم وان هزموا أمام العربية لغة كما هزموا ديناء ، أن يفسحوا الطريق أمام لغاتهم الأولى على ألسنة السواد كي تشقه مكتسحة العربية لتحيا بعد موت وتقوى فيما هيء لها من حياة ، فبدأت العربية تنقلص من الأطراف مخلفة مكانها للغات السكان الأصليين كالبربرية في شمال أفريقية والفارسية في خراسان .

ولقد صعب هذا التقلص ظاهرة لم يك حدوثها في الحساب ، تلك أن من عنوا بالنطق الصحيح في حديثهم العام ، أصبحوا مضغة في الأفواه يسخر منهم ويستهزأ بهم ويحلو للناس ترداد حديثهم في المجالس ترويحاً عن النفس وتفكهاً للسامعين ، ثم استمرت هذه الظاهرة تكسب أنصاراً ومؤيدين حتى كانت في العصر الرابع طليبة دعت العلماء إلى إجابتها بالتأليف والتصنيف<sup>(١)</sup>

أقبل هذا العصر الأخير شاملة عجمته جميع الأطراف وفاقدته حكمه ما كان لأمثالهم في سابقه من صلة بالآداب ، فقدّر على العربية

---

(١) كما فعل أبو الفرج النحوي المتوفى سنة ٤٩٩ حيث ألف كتاباً جمع فيه أخبار المتقربين .

جزر منتقص بعد أن كان لها مذكور ازدياد ، ولم تلبث أن ولت أمام  
الاعجيبات الأديار ، مسرعة إلى باديتها عسى أن تجدها مقرا هادئا كما  
كانت في خوالي الأيام ، ولكنها لم تكد تنعم بهذا الهدوء طويلا حتى  
غزتها العجمة في عقر دارها ، فارتدت فصيحيتها صامية قبل أن يبلغ ذلك  
العصر منتهاه ، وكان من أفعال العوامل في هذه الغارة التي قضت على  
البقية الباقية في البادية عاملان .

أحدهما ديني هو انطلاق الآلاف من عامة الأقطار الإسلامية  
كل عام إلى مكة والبيت الحرام يهرعون إليه لتأدية فريضة الحج ثم  
ينقلبون إلى المدينة لزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام ، وهم على  
اختلاف ألسنتهم يخالطون العرب خلال ذلك مخالطة جوار طويل  
وصحبة دائبة لا تنكاد تنقضى حتى تكون بوادر أمثالها من العام القابل  
على وشك الحدوث ، ولا يظن ظان القلة فيمن كانوا يختلطون بهم  
من القبائل ، فإن هذا ظن كان يكون لو أن ذهاب العرب إلى الأماكن  
المقدسة لم يكن إلا للحج ، أما موسم الحج هو الموسم التجاري للعرب  
يقدمون إليه بماشيتهم وسلعهم مبكرين ، ثم لا ينصرفون إلا حيث  
ينصرف الناس ، فإن من شأنه أن يجعل جهاهيرهم تزاحم كل غريب ،  
واختلاطهم يطول زمنه إلى أبعد ما يكون ، فهذا الاختلاط الذي كان  
يبدأ في القافلة منذ هبوط الأعجم بلاد الأعراب ولا ينتهي إلا حيث  
يسلمهم أولئك الأعراب إلى الأصار عائدين ، استمر يحمل إلى البادية  
لغات من العجمة ذات ألوان لم تزل تغزو فصيحيتها في جوفها حتى  
خرت أمامها صرعى مالها من مقليل ، قد أضر بكلماتها اللحن والتحرير ،



وصحبها ما صحبها من أعجمى دخيل . ولقد كان لهذا الا رط مدد مقيم من أولئك الذين يجتمعون بين عامين في هذه البلاد ، يحجون في عام ويوزرون في عام ، وآخر أكثر اقامة ممن وهبوا أنفسهم لجوار الرسول حتى يوافيهم في هذه الأماكن المقدسة أجملهم المحتوم ، فيفوزوا من الله بمغفرة ورضوان .

والآخر دنيوى هو انتشار الثورات في الجزيرة وأطرافها لبعدها مركز الخلافة في العصر العباسى عنها ، إما من قبائلها على قوافل الحج فيضطروا الخلفاء إلى تجهيز جيوش الاعجام لتأديبها واعادة الأمن إلى نصابه في ربوعها ، فتجوس تلك الجيوش ديار العربية الفصحى إذ غالبية هذه القبائل كانت من قيس عيلان وسكنائها هاتيك الديار على مقربة من مكة والمدينة وما إليهما من قرى الحجاز<sup>(١)</sup> وإما من أعجام يقصدون إلى أطرافها لنشر مذهب أو التهيؤ لخروج فيؤثرن في لغتها بأقامتهم ويضعف هذا التأثير ما قد يكون من بعث الخلفاء بالجند الأعاجم اليهم ، كما كان من الزط في بادية البصرة ، والزنج بشواطئ الفرات ، والقرامطة بسواد الكوفة والبحرين واليمامة والحجاز ، وغيرهم ممن كانوا منبع قلاقل واضطرابات لاتزال تدعو في إخمادها إلى جوس

---

(١) من تلك الثورات ما كان من بنى سليم وبنى هلال وفزارة وبنى كلاب في خلافة الواثق بالله سنة ٢٣٠ وقد وجه اليهم الواثق جيشا عظيما بقيادة بعا الكبير قضى قرابة السلتين في حربهم حتى انتصر عليهم وماد بكثير من ذوي الشعب فيهم الى سامراء .

الأعجام مضارب الأعراب<sup>(١)</sup>. فبهذين العاملين مع عامل الاختلاط العام، ردت لغة التخاطب الصحيحة بالبادية إلى عامية قبل انتهاء القرن

(١) فأما الزط فهم قوم من الهنود سكنوا شواطئ الخليج الفارسي قديما وعاشوا على السلب والنهب طويلا، حتى إذا كانت الفتنة بين الأميين والمأمون استولوا على طريق البصرة، وأخذوا يعيثون وينهبون، وقد استعروا على ذلك طوال خلافة المأمون. ولما ولي المعتصم كان شرهم قد استفحل وزاد، فجرد إليهم جيشا هزمهم وحاد ببقاياهم وأسراهم إلى دار الخلافة سبعة وعشرين ألفا فسرحتهم الدولة إلى شمالها ومنه نفذوا إلى أوربة حيث تعيش أناسهم الآن بربعها الوسطى تحت اسم « العنجر والنور ».

وأما الزنج فقد ظهوروا في خلافة المعتصم على الله بدعوة رجل فارسي ظهر أول مظهر بالبحرين سنة ٢٤٩ يدعو الأرقاء من العبيد إلى التحرير وقد أطاعه منهم خلق كثير خرجوا على سادتهم فتوجه بهم إلى البصرة وشواطئ الفرات فحارب الدولة وهدد بغداد وبقي كذلك مصدرا لشغب حتى قتله جيوش الخلافة سنة ٢٧٠.

أما القرامطة فقد ظهوروا أول مظهروا بسواد السكوفة على يد رجل من خوزستان في آخر خلافة المعتصم على الله سنة ٢٧٩ وكانت دعواه إلى جعل الخلافة في آل البيت فكثر أتباعه وظهر لهم نفوذ بالشام وكافة أرجاء الجزيرة العربية فأصبحوا فيها قطاع طرق ينهبون الحجاج ويعتدون على الأماكن المقدسة وساكني مدنها بالسلب والتخريب دون أن تظفر عليهم الدولة بالغلب حتى إذا مات برأ منهم القائم على دعوة آل البيت فقدوا كثيرا من الأنصار فأمكننت الدولة هزيمتهم وقد مضى على عيشهم هذا أكثر من ثلث قرن.

الرابع الهجرى فذهب آخر مدد كان لها أمام الرواة<sup>(١)</sup> على هذا النسق الذى ذكرنا تملكته العامية ألسنة السوادنى جميع الأقطار، فلم ينطقوا بغيرها ونالت ألسنة الخواص فى تحدثهم العام فلم يحيدوا فيه عنها، ولكنها كانت مع اشتراك جميع الجهات فى إفساد العربية الصحيحة باللحن والتحريف والدخيل، تختلف فى إقليم عنهما فى إقليم اختلافا يرجع إلى أثر العجمة قوة وضعفا، وإلى نوعها لفظا وأسلوبا. فمن الأول قلة الجاليات العربية أو كثرتها وبعد الإقليم عن مواطن العرب الأولى أو قربها منها، فحيث كانت الجالية قليلة والإقليم بعيدا، يكثر الدخيل ولا يكاد اللحن والتحريف يترك من الألفاظ العربية

(١) عن أهل البادية أخذ أبو عمرو بن العلاء عامة أخباره، وعليهم أصول الأصمعى فى غريب اللغة، ومنهم استمد سيويوه والكسائى مراجع أحكام النحو، وما زالوا مستمدى رواية الأدب وعلماء اللغة وأئمة النحويين إلى القرن الرابع حيث بدأ لسانهم يفسد، فكان هؤلاء يأخذون من بعضهم دون بعض كما كان يفعل ابن جنى المتوفى سنة ٣٩٢. ومنذ القرن الخامس لم يبق منهم أحد على النصيحة إلا ما ذكره ياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ عن أهل «عكا» فقد قال فى لفظ عكوتين «هو اسم جبلين منيعين مشرفين على زبيد باليمن» ثم حاد يقول بعد أن ذكر أن من مدن أحدهما الزرائب «وجبلا عكا فوق مدينه الزرائب، وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم لم تتغير لغتهم بحكم أنهم لم يختلطوا بغيرهم من الحاضرة فى منازحة وهم أهل قرار لا يظعنون عنه ولا يخرجون منه» وأيد الفيروزابادى المتوفى سنة ٨١٧ فى مادة عكد بقاءهم إلى أيامه على تلك اللغة، كما أيد شارحه الزبيدى المتوفى سنة ١٢٠٥ بقاءهم كذلك حتى أيامه أيضا.

صحيحاً، ولهذا كانت العامية في الأطراف القاصية - كخـِـ اسان شرقاً وبلاد المغرب غرباً وأرمينية شمالاً والنوبة جنوباً - شديدة الوطأة على اللسان العربي، لفظاً وأسلوباً، ولولا شدته بقوة الدين وأنه لسان القرآن والحديث، ما شق له في هذه القاصيات طريقاً؛ أما حيث تكثر العرب ويقترب الأقاليم - كما في العراق ومصر والشام - فإن الدخيل يكون حينئذ قليلاً، واللحن والتعريف لا يضحى متبغلاً، ومن ثم بقيت العامية عربية في هذه الأقطار وارتدت في تلك إلى لغات أهلها الأصليين، على أنه إذا تعارض هذان العاملان كان لحال الجالية كثرة وقلة، الغلبة على جال الأقاليم بعداً وقرباً ولهذا كانت عامية الاندلس على بعدها، خيراً من عامية بلاد المغرب وهي أقرب منها.

ومن الثانی التفاوت في نوع الكلمات الدخيلة إذا كانت في كل إقليم من لغة سكانه الأولين. ففي الشرق كانت غالبيتها فارسية وقلتها تركية، وفي الشام ومصر كان الدخيل من اليونانية والرومانية والقبطية، وفي شمال أفريقيا كان بربرياً، أما في بلاد العرب فقد كان خليطاً من كل هذه اللغات وأكثر منها ولكنه كان قليلاً.

ومنه أيضاً التفاوت في نوع الأساليب الغازية إذ كان لكل أجمية أسلوبها من حيث التقديم والتأخير، والتفنن والاثبات، والتعريف والتنكير، وهكذا مما له أثر في تكوين الأسلوب.

وكما كانت العاميات تختلف بعضها عن بعض باختلاف الأقاليم ونازليها من العرب كما ذكرنا، كانت العامية الواحدة تختلف في الإقليم الواحد، فتراها في وقت غيرها في آخر، ولو لم تطرأ عوامل سوى

مغالبتها الفصيحة ومغالبة الفصيحة إياها إذ لا بد في تلك المغالبة ، أن تنتهى بقوة إحداها وضعف الأخرى ، وبالحرى يقرب هذا الانتهاء بما قد يكون من عوامل طارئة ، كما يشاهد على كليهما في أوائل العصور وأواخرها .

وعلى الرغم مما ذكرنا للعامة من سلطان ، قدر الله عليها ألا تتعدى لغة التحدث العام إلى غيره من لغة العلم في التأليف أو لغة الأدب في الانشاء والقريض<sup>(١)</sup> ، وقدر للفصيحة أن تبقى حاملة اللواء في هذه النواحي الثلاث على أيدي العلماء والكتاب والشعراء ، فصمدوا ثلاثتهم على نصرتها يقارعون الحوادث ويغالبون الأيام حتى كانوا النبراس المهادى فيما جدد أواخر العهد العباسى من غيم ، وأطبق بعد زواله على أيدي التتار من ظلام . أما العلماء فلما رستخ في نفوسهم من الحرص على خدمتها ، خدمة للقرآن والحديث حتى يبقيا مددا مفهوما للوعظ والتشريع ، وأما السكتاب فلما كان من حاجة الملوك إليهم في ضبط أمور الدولة بمختلف الدواوين على ما هدى إليه الملوك من إبقاء الكتابة عربية كما ورثوها ، زلنى إلى الدين وتقربا من المحكومين ، وأما الشعراء فلأن الشعر مهما أبعد رجاله وضمن عليهم بالصلوات لا بد أن يغلبهم ولو بالتنفيس عنهم فيما يشكون ومنه يالمون ، على أن حراسة الله للغة دينه وقرآنه أبت إلا أن يكون لها نصراء في أشد العصور حلكة ، وأضيق الأيام حرجا ، وهكذا يأتى سبحانه إلا أن يكون .

(١) لم يظهر بها فى لغة العلم شىء هام ، ولا فى لغة الأدب إلا الرجل ، والقوما ، وكان وكان ، وبعض المواليا

— ٦٠ —

## وبعد

فان لنثر اللغة جانبا أدبيا تراه مائلا في الخطابة والكتابة الانشائية،  
وآخر علميا يظهر في الكتابة العلمية أى تدوين العلوم والفنون .  
وإننا لمتناولو الجانبين من الآن بالكلام ، بعد الذى قدمنا من مقدمات .  
وبعدهما يكون الكلام على الشعر إن شاء الله .

## الخطاب

أولا - نماذجها

١ - لما بويح السفاح <sup>(١)</sup> صعد منبر الكوفة فقال :

الحمد لله الذي اصطفى الاسلام لنفسه تكرمة ، وشرفه وعظمه ،  
واختاره لنا وأيده بنا ، وجعلنا أهله وكهفه وحصنه ، والقوام به والذابين  
عنه والناصرين له ، وألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها ، وخصنا  
برحم رسول الله ﷺ وقرابته ، وأنشأنا من آبائه وأنبتنا من شجرته  
واشتقنا من نبعته <sup>(٢)</sup> جعله من أنفسنا عزيزا عليه ما عنتنا <sup>(٣)</sup> حريصا  
علينا بالمؤمنين رءوفا رحيماء ، ووضعنا من الاسلام وأهله بالموضع الرفيع  
وأُنزل بذلك على أهل الاسلام كتابا يتلى عليهم فقال عز من قائل فيما  
أُنزل من محكم القرآن « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت  
ويطهركم تطهيرا » وقال « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى »  
وقال « وأنذر عشيرتک الاقربين » وقال « ما أفاء الله على رسوله من  
أهل القرى فله وللرسول ولذی القربى واليتامى » فأعلمهم بجل ثناؤه  
فضلنا ، وأوجب عايهم حقنا ومودتنا ، وأجزل من الفیء والغنیمۃ نصیبنا  
تكرمة لنا وفضلا علينا ، والله ذو الفضل العظيم  
وزعمت السبئية الضلال أن غیرنا <sup>(٤)</sup> أحق بالریاسة والخلافة منا ،

(١) هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس . (٢) واحدة النبع  
وهو شجر السهام . (٣) يريد عزيزا عليه عنتنا أي مشقتنا .

(٤) الحبشية أتباع عبد الله بن سبأ من الغلاة القائلين بأحقية العلويين  
على أبناء صهمم العباسيين .

فشاهت وجوههم ، بم ولم أيها الناس ؟ وبناهدى الله الناس بعد ضلالهم ،  
وبصرهم بعد جهالتهم ، وأنقذهم بعد هلاكهم ، وأظهر بنا الحق وأدحض بنا  
الباطل ، وأصلح بنا منهم ما كان فاسدا ، ورفع بنا الخسيسة وأتم بنا  
النقيصة ، وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاديف وبر  
ومواساة في دينهم ودنياهم ، وإخوانا على سرر ومتقابلين في آخرتهم ، فتح  
الله ذلك منة ومنحة لمحمد ﷺ ، فلما قبضه الله إليه قام بذلك الأمر  
من بعده أصحابه وأمرهم شورى بينهم ، فحوا موارد ث الثم فعدلوا  
فيها ووضعوها مواضعها وأعطوها أهلها وخرجوا خصاصمها ، ثم وثب  
بنو حرب ومروان فابتزوها وتداولوها بينهم فجاروا فيها واستأثروا  
بها وظلموا أهلها ، فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه ، فلما آسفوه انتقم منهم  
بأيدينا ، ورد علينا حقنا وتدارك بنا أمتنا وولى نصرنا والقيام بأمرنا  
لبن بنا على الذين استضعفوا في الأرض وختم بنا كما افتتح بنا وإني  
لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير ، ولا الفساد من حيث  
جاءكم الإصلاح ، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله .

يأهل الكوفة أنتم محل محبتنا وموئل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا  
عن ذلك ولم يثنيكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا  
وأنا كم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا وقد زدكم في  
أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المبير<sup>(١)</sup>  
٢ - قال ذلك وكان موعوكا فاشتد به الوعك<sup>(٢)</sup> فجلس على المنبر  
وصعد صه داود بن علي فقام على مرقاة دونه فقال :

(١) بهذا لقب بالسفاح ، والمبير المدمر . (٢) ألم الحصى .



الحمد لله شكرا شكرا الذي هلك عدونا وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد ﷺ . أيها الناس الآن أقشعت حنادس الدنيا<sup>(١)</sup> وانكشف غطاؤها، وأشرقت أرضها وسماؤها وطلعت الشمس من مطلعها، وبزغ القمر من مبرزه، وأخذ القوس باريها وعادت السهم إلى الزعة<sup>(٢)</sup> ورجع الحق إلى نصابه، في أهل بيت نبيكم أهل الرأفة والرحمة بكم والعطف عليكم .

أيها الناس إنا والله ماخرجنا في طلب هذا الأمر لنكثر لجيونا ولاعقيانا<sup>(٣)</sup> ولانحفز نهرا، ولانبي قصرنا، وإنما أخرجنا الأئمة من ابتزازهم حقنا والغضب لبني عمنا وما كرثنا من أموركم<sup>(٤)</sup> وبهظنا من شئونكم<sup>(٥)</sup> ولقد كانت أموركم ترمضنا<sup>(٦)</sup> ونحن على فرشنا ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم وخرقهم بكم، واستذلالهم لكم، واستئثارهم بفيكم، وصدقكم ومغائكم عليكم، لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسوله ﷺ وذمة العباس رحمه الله، أن نحكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله ﷺ تبا تبا<sup>(٧)</sup> لبني حرب بن أمية وبني مروان، آثروا في مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة، والدار الفانية على الدار الباقية فركبوا الآثام وظلموا الأئام، وانتهكوا المحارم وغشوا الجرائم، وجاروا في سيرتهم في العباد وسنتهم في البلاد، التي بها استلذوا تسربل الأثوار وتجلبب الأصار، ومرحوا في أعنة المعاصي

(١) ظلماتها جمع حنادس . (٢) جمع نازع وهم الرماة . (٣) فضة ولاذهبا .

(٤) كرثنا نزل بنا واشتد علينا (٥) بهظنا أثقلنا (٦) تمرقنا .

(٧) ضللا وخسرانا وهلاكا .

وركضوا في ميادين الغي ، جهلا باستدراج الله وأمناء المكر الله فاتام  
بأس الله بيئاتهم نائمون فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق فبعدا  
للقوم الظالمين ، وأدنا لنا الله من مروان <sup>(١)</sup> وقد غره بالله الغرور، أرسل  
لعده الله في عنانه حتى عثر في فضل خطامه فظن عدو الله أن لن نقدر  
عليه، فنادى حزبه وجمع مكابده ورمى بكتائبه ، فوجد أمامه ووراءه  
وعن يمينه وشماله من مكر الله وبأسه ونقمته ما أمات باطله ومحق  
ضلاله وجعل دائرة السوء به وأحيا شرفنا وعزنا ورد إلينا حقنا وإرثنا .  
أيها الناس إن أمير المؤمنين نصره الله نصرا عزيزا إنما عاد إلى  
المنبر بعد الصلاة، أنه كره أن يخاطب بكلام الجمعة غيره ، وإنما قطعه عن  
استتمام الكلام بعد أن اسجنفر فيه <sup>(٢)</sup> شدة الوعك، فادعوا الله لأمر المؤمنين  
بالعافية فقد أبد لكم الله بمروان عدو الرحمن وخليفة الشيطان المتبع  
للسفلة الذين أفسدوا الأرض بعد اصلاحها بإبدال الدين وانتهاك حريم  
المسامين ، الشاب <sup>(٣)</sup> التكمل المتمهل المقتدى بسلفه الأبرار الاختيار  
الذين أصابوا الأرض بعد فسادها ، بمعالم الهدى ومناهج التقوى .  
يأهل الكوفة إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى  
أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان فأحيا بهم حقنا، وأفليج بهم حجتنا،  
وأظهر بهم دولتنا، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون وإليه تتشوفون،  
فأظهر فيكم الخليفة من هاشم وبيض به وجوهكم وأدالكم على أهل  
الشام ونقل إليكم السلطان وعز الاسلام، ومن عليكم بأمام منحه العدالة

(١) يريد مروان بن محمد آخر خلفاء بني مروان . (٢) توسع وزاد .

(٣) كانت سنه عند استخلافه ثمانيا وعشرين سنة .

وأعطاه حسن الآيالة<sup>(١)</sup> فخذوا ما آتاكم الله بشكر والزمو طاعتنا ولا  
تخذعوا عن أنفسكم فإن الأمر أمركم ، فإن لكل أهل بيت مصرا  
وإنكم مصرنا ، ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ  
إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب<sup>(٢)</sup> ، وأمير المؤمنين عبد الله بن  
محمد<sup>(٣)</sup> فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى  
ابن مريم صلى الله عليه والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا .  
٣ - ولما قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، خطب أبو

العباس السفاح بالشام فقال : -

« ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار  
جهنم يصلونها وبئس القرار » فكص بكم يأهل الشام آل حرب وآل  
مروان يتسكعون بكم الظلم ويتهورون بكم مداحض الزلق ، يطئون بكم  
حُرَمَ الله وحُرَمَ رسوله ، ماذا يقول زعماءكم غدا ، يقولون « ربنا هؤلاء  
أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار » إذن يقول الله عز وجل « لكل  
ضعف ولكن لا تعلمون » ، أما أمير المؤمنين فقد ائتنف بكم التوبة  
واغتفر لكم الزلة وبسط لكم الإقامة وعاد بفضله على نقصكم وبحماله  
على جهلكم فليفرخ روعكم<sup>(٤)</sup> ولتطمئن به داركم وليقطع مصارع  
أوائلكم « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » .

(١) الآيالة السياسة من آل إليه أمر الناس ساسهم

(٢) لأن الخلفاء قبله كانوا في المدينة والامويين منكرون (٣) يعنى السفاح

(٤) أى ليخرج قلبكم مابه من خوف كما تخرج البيضة الفرخ

٤ - وخطب عمه عيسى بن علي إذ ذاك بها فقال : —

الحمد لله الذي لا يفوته من طلب، ولا يعجزه من هرب، خدعت  
والله الأشقر<sup>(١)</sup> نفسه إذ ظن أن الله ممهله « ويأبى الله إلا أن يتم نوره  
ولو كره الكافرون » حتى متى وإلى متى، أما والله لقد كرهتهم العبدان  
التي افترعوها<sup>(٢)</sup> وأمسكت السماء درها والأرض ريعها، وقحل الضرع<sup>(٣)</sup>  
وجفر الفنيق<sup>(٤)</sup>، وأسمل جلباب الدين وأبطلت الحدود وأهدرت الدماء،  
وكان ربك بالمرصاد فدمدم عليهم ربهم بذنبيهم فسواها<sup>(٥)</sup> ولا يخاف  
عقباها، وملكتنا الله أمرهم عباد الله لينظر كيف تعملون، فالشكر  
الشكر، فانه من دواعي المزيد، أعاذنا الله وإياكم من مضلات الأهواء  
وبغيات الفتن فأنا نحن به وله .

٥ - ولما حج أبو مسلم الخراساني في خلافة السفاح خطب  
بالمدينة فقال :

الحمد لله الذي حمد نفسه، واختار الاسلام ديناً لعباده، ثم أوحى إلى  
محمد رسول الله صلى الله عليه وآله من ذلك ما أوحى واختاره من خلقه،  
نفسه من أنفسهم وبيته من بيوتهم، ثم أنزل عليه في كتابه الناطق الذي  
حفظه بعلمه وأشهد ملائكته على حقه قوله « إنما يريد الله ليذهب  
عنكم الرجس أهل البيت ويطهر كم تطهروا » ثم جعل الحق بعد محمد  
صلى الله عليه وآله في أهل بيته فصبر من صبر منهم بعد وفاة رسول

(١) يعنى مروان بن محمد وكان لونه كذلك . (٢) علوها . (٣) يبس

(٤) الفنيق الفحل الكريم يتخذ للفحلة وجفر أمسك عن الضراب

(٥) طعنهم فسوى الطعنة بما هي عليه أى سحقها

الله صلى الله عليه وآله على اللاواء<sup>(١)</sup> والشدة، وأغضى من اغضى على الاستبداد والآثرة، ثم إن قوماً من أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله جاهدوا على ملة نبيه وسنته بعد عصر من الزمان، من عمل بطاعة الشيطان وعداوة الرحمن، إن رتق جور فتقوه، أو فتق حق رتقوه، بين ظهراني قوم آثروا العاجل على الآجل والفاني على الباقي أهل خور وما خور<sup>(٢)</sup>، وطنابير ومزامير<sup>(٣)</sup>، إن ذكروا لم يذكروا أو قدموا إلى إلى الحق أدبروا، وجعلوا الصدقات في الشبهات، والمغانم في المحارم، والنيء في النقي هكذا كان زمانهم وبه كان يعمل سلطانهم. وزعموا أن غير آل محمد أولى بالامر منهم؛ فلم وبهم أيها الناس؛ ألكم الفضل بالصحابة دون ذوى القرابة؛ لكاهن النسب والورثة في السلب مع ضربهم على الدين جاهلكم وإطعامهم في الجذب جائعكم، والله ما اخترتم من حيث اختار الله لنفسه ساعة قط، وما زلت بعد نبيه تختارون تيميا مرة وعدويا مرة وأمويا مرة وأسديا مرة وصفيانيا مرة ومر وانيا مرة<sup>(٤)</sup> حتى جاءكم من لا تعرفون اسمه ولا يئته<sup>(٥)</sup> يضربكم بسيفه فأعطيتموها عنوة وأنتم صاغرون. ألا إن

---

(١) الشدة فعله لى كنهرح (٢) الماخور بيت البغاء (٣) جمعا مزار وطنبار أو طنبور من أدوات الطرب .

(٤) التيمى أبو بكر والعدوى عمر والأموى عثمان والأسدى عبد الله ابن الزبير والسفياني بنو سفيان والمرواني بنو مروان.

(٥) يعنى نفسه لأنه مختلف فى اسمه أهو عبد الرحمن أم ابراهيم أم عثمان، ومختلف فى نسبه أهو عربى أم فارسى أم كردى، ومن جهل نسبه جهل بيته فهو يقصد بالبيت الاصل.

آل محمد أئمة الهدى ومنار سبيل التقوى القادة الذادة السادة، بنوع رسول الله ﷺ ومُنزّل جبريل، بالتنزيل، كم قصم الله بهم من جبار طاغ وفاسق باغ، مشيد الله بهم الهدى وجلّى بهم العمى، لم يسمع بمنزل العباس، وكيف لا تخضع له الأمم لو اجب حق الحرمة، أبو رسول ﷺ بعد أبيه وإحدى يديه وجلدة بين عينيه، أمينه يوم العقبة وناصره بمكة<sup>(١)</sup> ورسوله إلى أهلها وحاميه يوم حنين عند مائتي الفئتين<sup>(٢)</sup> لا يخالف له رسماً ولا يعصى له حكماً، الشافع يوم نيق العقاب إلى رسول الله ﷺ وآله في الأحزاب<sup>(٣)</sup> ها، إن في هذا أيها الناس لعلوة لا ولي إلا بصار. ٦ - وخطب أبو جعفر المنصور<sup>(٤)</sup> بالمداين عند قتل أبي مسلم فقال: أيها الناس لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ولا تسروا غش الأئمة فإنه لم يسر أحد قط منكراً إلا ظهرت في آثار يده وفلتات لسانه وصفحات وجهه، وأبداها الله لامامه باعزاز دينه وإعلاء جقه، إنا لن نبخسكم حقوقكم ولن نبخس الدين حقه عليكم لأنه من نازعنا عروة هذا القميص<sup>(٥)</sup> أجزرنا خبي هذا الغمد<sup>(٦)</sup>، وإن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه ثم نكث بنا فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه.

---

(١) يعنى ماكان من العباس قبل اعلان اسلامه من ارسال اخبار وأمداد لرسول الله (٢) كان أحد من حول البعثة (٣) نيق العقاب الموضع الذى شفع به العباس يوم فتح مكة فى أهلها (٤) أخو السفاح واسمه عبد الله مثله (٥) يكنى عن الخلافة (٦) كناية عن السيف

٧ - ولما أخذ المنصور عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الملقب بالنفس الزكية هو وأهل بيته من المدينة إلى العراق وألقاهم في سجن الكوفة حتى ماتوا لا متناح عبدالله المذكور أن يسلم إليه ابنيه محمدا وإبراهيم مدعيا جهله مكانيهما وكانت البيعة أواخر العهد الأموي لمحمد هذا ؛ خطب في أهل خراسان فقال بعد الحمد والثناء والصلاة :  
يا أهل خراسان ، أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا ، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا ، وإن أهل بيتي هؤلاء من ولد علي بن أبي طالب تركناهم والله الذي لا إله إلا هو والخلافة ، فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير فقام فيها علي بن أبي طالب فتلطخ بالدماء وحكم عليه الحكيم فافترقت عنه الأمة واختافت عليه الكرامة ، ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه وبطائنه وثقاته فقتلوه . ثم قام من بعده الحسن بن علي فوالله ما كان فيها برجل ، قد عرضت عليه الأموال فقبلها ففسد اليه معاوية « إني أجعلك ولي عهدي من بعدى » فخذعه فأنسلخه مما كان فيه وسلمه اليه ، فأقبل على النساء تزوج في كل يوم واحدة فيطاقها غدا فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه ، ثم قام من بعده الحسين بن علي فخذعه أهل العراق وأهل الكوفة أهل الشقاق والنفاق والاغراق في الفتن ، أهل هذه المدرة <sup>(١)</sup> السوداء . وأشار إلى الكوفة - فوالله ما همى بحرب فاحاربها ولا سلم ، فأسلمها ، فرق الله بيني وبينها فخذلوه وأسلموه حتى قتل ، ثم قام من بعده زيد بن علي فخذعه أهل الكوفة

(١) المدرة الطينة وأهل المدر سكان القرى وأهل الحجير سكان المدن

أما أهل البر فمكان قيام الشعر في البوادي

وغروه فلما أخرجوه وأظهروه أساموه . وقد كان أتى محمد بن علي فناشده في الخروج <sup>(١)</sup> وسأله ألا يقبل أقاويل أهل الكوفة وقال له إننا نجد في بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يصاب بالكوفة وأنا أخاف أن تكون ذلك المصلوب . وناشده عمي داود بن علي ، وحذره غدر أهل الكوفة فلم يقبل وتم على خروجه فقتل وصاب بالكناسة <sup>(٢)</sup> ، ثم وثب عاينا بنو أمية فأماوا شرفنا وأذهبوا عزنا ، والله ما كانت لهم عندنا ثرة يطربونها وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم عليهم فنفونا من البلاد فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالشرارة <sup>(٣)</sup> حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصارا فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان ودمغ بحكم أهل الباطل وأظهر حقنا وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا ﷺ فأقر الحق مقره وأظهر مناره وأعز أنصاره ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ، فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله فيها وحكمه العادل لنا ، وثبوا علنا ظلما وحسدا منهم لنا ، وبغيا لما فضلنا الله به عليهم ، وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم

جهلا علينا وجبنا عن عدوهم لبئست اخلتتان الجهل والجبين فإني والله يأهل خراسان ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة ، بلغني عنهم بعض السقم والتعرم <sup>(٤)</sup> وقد دست لهم رجلا فقلت قم يا فلان قم يا فلان نخذ معك من المال كذا وحذوت لهم مثالا يعملون عليه فخرجوا حتى

(١) سأله ألا يخرج وفاعل ناشده يعود على محمد (٢) موضع قرب الكوفة

(٣) أقليم بين دمشق والمدينة فيه قرية الحميعة منزل أسلاف الخلفاء العباسيين

(٤) يعني بالسقم الخلفاء في الرأي وبالتعرم التهيؤ للخروج .



أتوهم بالمدينة فدمسوا إليهم تلك الأموال فوالله ما بقي منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير إلا بايعهم بيعة استحلت بها دماءهم وأموالهم وحلت لى عند ذلك ، بنقضهم بيعتى وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج على فلا يرون أنى أتيت ذلك على غير يقين؛ ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية « وحيل بينهم وبين ما يشتمون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا فى شك مريب » .

٨ - ولما فعل المنصور فعلته تلك خرج عليه بالمدينة محمد بن عبد الله المذكور وقام على منبرها فقال بعد الحمد والثناء : —

أيها الناس إنه قد كان من أمر هذا الطاغية أبى جعفر ما كان من بنائه القبة الخضراء التى بناها معاندة لله فى ملكه ، وتصغيره الكعبة الحرام <sup>(١)</sup> وإنما أخذ الله فرعون حين قال أنا ربكم الأعلى وإن أحق الناس بالقيام فى هذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأَنْصار الموالين ثم قال - اللهم إنهم قد أحلوا حرامك، وحرّموا حلالك، وعملوا بغير كتابك، وغيروا عهد نبيك صلى الله عليه وسلم وآمنوا من أخفت، وأخافوا من آمنت، فأحصهم عددا واقتلهم بددا <sup>(٢)</sup> ولا تبق على الأرض منهم أحدا <sup>(٣)</sup> .

٩ - ولما قتل المنصور محمدا هذا وبعث برأسه إلى أبيه عبد الله

فى السجن مع الربيع حاجبه قال عبد الله  
رحمك الله أبا القاسم فقد كنت من الذين يؤمنون بعهد الله ولا

---

(١) هذا رعم بعيد التصديق عن أبى جعفر (٢) متفرقين مبدين  
(٣) انتهى خروج محمد هذا بالمدينة وخروج أخيه إبراهيم بالبصرة بأن قتل  
المنصور كليهما .

ينقضون الميثاق ، والذين يصلون مأمر الله به أن يوصل ويخشون  
ربهم ويخافون سوء الحساب ، ثم تمثل

فتي كان يحميه عن الذل سيفه ويكفيه سوءات الامور اجتنابها  
والتفت إلى الربيع . فقال « قل لصاحبك قد مضى من يؤسنا مدة ومن  
نعيمك مثلها والموعود الله تعالى » قال الربيع فما رأيت المنصور قط  
أكثر انكسارا منه حين أبلغته الرسالة .

١٠ - وخطب المنصور يوم الجمعة ، فلما قال « الحمد لله أحمدوه وأستعينه  
وأؤمن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له »  
قام رجل فقال أذكرك من ذكرتنا به يا أمير المؤمنين فقطع الخطبة ثم قال :  
« سمعنا من فهم عن الله وذكر به وأعوذ بالله أن أكون جبارا  
عنيذا ، وأن تأخذني العزة بالاثم لقد صلتك إذن وما أنا من المهتدين ، وأنت  
أيها القائل والله ما أردت بها وجه الله ولكنك حاولت أن يقال قام فقال  
فعوقب فصبر ، وأهون بها ، ويليك لو هممت <sup>(١)</sup> فاهتبلها <sup>(٢)</sup> إذا غفرت  
وإياك وإياكم معشر الناس أختها فان الحكمة عاينا نزلت ومن عندنا  
فصلت : فردوا الأمر إلى أهله توردوه موارد وتصدروه مصادره »  
فكان كأنه يقرؤها من كفه ثم صاد إلى خطبته يقول وأشهد أن محمدا  
عبد ورسوله أيها الناس اتقوا الله ....

١١ - ولما انهزم عبد الله بن علي عم المنصور بعد خروجه عليه  
بالشام <sup>(٣)</sup> وقدم عليه وفدها للاستطاف قام الحارث بن عبد الرحمن

(١) يريد بعقابك (٢) اغتنمها (٣) كان سبب خروج عبد الله على المنصور  
ما يزعمه من أن السفاح كان قال له « إن ظهرت على مروان الجعدي فأنت ولي  
العهد بعدي » وشهد له جماعة بذلك

الغفارى فقال :-

يا أمير المؤمنين إنا لسنا وقد مباهاة وإنما نحن وقد توبة وإنا ابتلينا  
بفتنة استخفت كريمنا واستفزت حليمنا . ونحن بما قدمنا معترفون  
ومما سلف منا معترفون ، فإن تعاقبنا فيما أجر منا وإن تعف عنا فبفضلك  
علينا ؛ فاصفح عنا اذ ملكمت ، وامنن اذ قدرت ، وأحسن اذ ظفرت ، فطالما  
أحسنمت إلى من أساء منا .

فقال المنصور قد فعلت ثم قال للحرسى هذا خطيبهم وأمر برد  
ضياعه عليه بالخطوة .

١٢ - وكان عبدالرحمن صمرو الأوزاعى إمام أهل الشام ، يتردد  
على المنصور كطلبه ليعظه فكان مما قال له ذات مرة .

يا أمير المؤمنين إنك قد أصبحت من هذه الخلافة بالذى أصبحت به  
والله سائلك عن صغيرها وكبيرها وفتيلها ونقيرها <sup>(١)</sup> ولقد حدثنى  
عروة بن رويم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما من راع يبيت  
غاشاً لرعيته إلا حرم الله عايمه وأتمة الجنة » فحقيق على الوالى أن يكون  
لرعيته ناظراً ، ولما استطاع من عوراتهم ساتراً ، وبالقسط فيما بينهم قائماً ،  
لا يتخوف محسنهم منه رهقاً ولا مسيئتهم عدواً ، فقد كانت يبيد رسول الله  
صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ويردع عنه المنافقين فأقاه جبريل  
فقال « يا محمد ما هذه الجريدة بيدك اقذفها لا تملاً قلوبهم رعباً » فكيف  
من سفك دماءهم وشقق أبشارهم وأنهب أموالهم . يا أمير المؤمنين  
إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه

(١) نقيير النواة قناتها والفتيل الخيط المستقر فيها .

بخدمته أعرابيا لم يتعمده وهبط جبريل فقال يا محمد إن الله لم يبعثك جباراً تكسر قرون أمتك . واعلم أن كل مافي يدك لا يعدل شربة من شراب الجنة ولا ثمرة من ثمارها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقاب قوس أحدكم <sup>(١)</sup> من الجنة خير له من الدنيا بأسرها » إن الدنيا تنقطع ويذول نعيمها ، ولو بقى الملك لمن قبلك لم يصل اليك ، ولو أن ثوبا من ثياب أهل النار علق بين السماء والارض لآذاهم فكيف من يتقمصه ، ولو أن ذنوبا من صديد أهل النار صب على ماء الارض لآجنه فكيف بمن يتجرعة ، ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب فكيف بمن سلك فيها ويرد فضلها على عاتقه ، وقد قال عمر بن الخطاب « لا يقوّم أمر الناس إلا حصيف العقدة ، بعيد الغرة ، لا يطلع الناس منه على عورة ، ولا يخنق في الحق على جرة ، ولا تأخذه في الله لومة لأثم . »  
واعلم يا أمير المؤمنين أن السلطان أربعة أمير يظلف <sup>(٢)</sup> نفسه وعماله فذلك له أجر المجاهدين في سبيل الله وصلاته سبعون ألف صلاة ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف ، وأمير رنع <sup>(٣)</sup> ورتع عماله فذلك يحمل أثقاله وأثقالا مع أثقاله ، وأمير يظلف نفسه ويرتّع عماله فذلك الذي باع آخرته بدنياه غيره ، وأمير يرتّع ويظلف عماله فذلك شر الاكياس <sup>(٤)</sup>  
واعلم يا أمير المؤمنين أنك قد ابتليت بأمر عظيم عرض على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنه وأشفقن منه وقد جاء عن جدك <sup>(٥)</sup> في تفسير قول الله عز وجل « لا يغادر ضغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها »

---

(١) قاب القوس مابين مقبضها وسيتها (٢) يكف (٣) أطلق لنفسه العنان فظلم (٤) الحزمة جمع كيس (٥) عبد الله بن عباس .

أن الصخيرة التبسم والكبيرة الضحك وقال فما ظنكم بالكلام وما عماته  
الايدي ، فأعيزك بالله أن يخيل اليك أن قرابتك برسول الله صلى الله  
عليه وسلم تنفع من المخالفة لأمره ، فقد قال « يا صفية عمة محمد ويا فاطمة  
بنت محمد استوهبا أنفسكما من الله إني لا أغني عنكما من الله شيئا » ،  
وكان جدك الأكبر<sup>(١)</sup> مأل رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة فقال  
« أي عم ، نفس تحيياها خير لك من إمارة لا تحيياها » نظراً لعمه وشفقة  
عليه أن يلي فيجور عن سنته جناح بعوضة فلا يستطيع له نفعا ولا  
عنه دفعا . ثم قال : هذه نصيحتي إن قبلتها فلنفسك عملت ، وإن رددتها  
فلفسك بخست ، والله الموفق للخير والمعين عاياه ، فقال المنصور يلي  
نقبلها ونشكر عليها وبالله نستعين .

١٣ - ولما تراجع المهدي<sup>(٢)</sup> ووزراؤه وأهل بيته ندير الرأي في  
حرب خراسان كان مما قال المهدي فيما رآه رأيا استقر عاياه ، الخطب أيسر  
مما تذهبون إليه وعلى غير ما تصفون الامر عليه ، إنه لا بد لولي عهدي أن  
يقود إلى خراسان البعوث ويتوجه نحوها بالجنود يقدم إليهم رسله  
ويعمل فيهم حيلة ثم يخرج نشيطا إليهم . حنقا عليهم ، يريد ألا يدع أحدا  
من إخوان الفتن ودواعي البدع وفرسان الضلال إلا توطأه بحر القتل ،  
وألبسهم قناع القهر ، وقلده طوق الذل ، ولا أحدا من الذين عملوا في قص  
جناح الفتنة وإخماد نار البدعة ونصرة ولادة الحق إلا أجرى عليهم ديم  
فضله وجداول نهله ، فإذا خرج مزمعا به مجمعا عليه ، لم يسر إلا قليلا حتى  
يأتيه أن قد عملت حيلة وكدحت كتيبه ، ونفذت مكايده ، فهدأت نافرة

(١) العباس (٢) هو أبو عبد الله المهدي بن المنصور

القلوب ووقعت طائفة الأهواء واجتمع عليه المختلفون بالرضا فيميل  
نظراً لهم وبرا بهم وتعطفوا عليهم ، إلى عدو قد أخاف سبيلهم ، وقطع  
طريقهم ، ومنع حجاجهم بيت الله الحرام ، وسلب تجارهم رزق الله الحلال .  
ثم كان مما قال في وصاة ولي عهده موسى الهادى حين أزمع  
الشخص إلى خراسان :

أى بنى، إنك قد أصبحت لسمت وجوه العامة نصيباً<sup>(١)</sup> ولثنى  
أعطاف الرعية غاية<sup>(٢)</sup> ، فحسبك شاملة ، وإساءتك نائية . وأمرك ظاهر .  
فعليك بتقوى الله وطاعته ، فاحتمل سخط الناس فيهما ولا تطلب رضاهم  
بخلافهما ، فإن الله عز وجل كافيك من أسخطه عليك إثارك رضاه ،  
وليس بكافيك من يسخط عليك إثارك رضا من سواه - إلى أن قال  
بعد أن أوصاه بالكرامة فى الخاصة والعدل فى العامة - ولا ينفك فى  
ظل كرامتك نازلاً وبعزى حبلك متعاقباً رجلاً ، أحدها كريمة من  
كرائم رجالات العرب وأعلام بيوتات الشرف ، له أدب فاضل وحلم  
راجح ودين صحيح ، والآخر له دين غير مغموز وموضع غير مدخول  
بصير بتقليب الكلام وتصريف الراى وأنحاء العرب ووضع الكتب  
حالم بحالات الحروب وتصاريف الخطوب يضع آداباً نافعة وآثاراً باقية  
من محاسنك وتحسين أمرك وتحلية ذكرك فتستشير فى حرك  
وتدخله فى أمرك ، فرجل أصبته كذلك فهو يأوى إلى محلى ويرعى  
فى خضرة جناتى ، ولا تدع أن تحتار لك من فقهاء البلدان وخيار الأمصار

(١) السميت القصد والنصب بفتح فسكون ويحرك العالم المنهوب والغاية

(٢) يريد تدللهم من مشى ثأنى عطفه تدللاً وكبراً

أقوا ما يكونون جيرانك وسمارك وأهل مشاورتك فيما تورد ، وأصحاب مناظرتك فيما تصدر ، فسر على بركة الله أصبحك الله من عونه وتوفيقه دليلاً بهدى إلى الصواب قلبك ، وهادياً ينطق بالخير لسانك .

١٤ - وأوصى الرشيد على بن المبارك الأحرر مؤدب ولده الأمين فقال :

يأحرر إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمره قلبه ، وصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن وعرفه الأخبار ورواه الأشعار وعلمه السنن وبصره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عاياه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ، أو تمنع في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه ، وقومه ما استطاعت بالقرب والملاينة فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة .

١٥ - ولما عقد الرشيد لجعفر بن يحيى البرمكي على الشام لهما العصبية بها فشخص إليها في عدة وعددهم ما دوقد أعاد الأمن والطمأنينة فيها دخل على الرشيد فقبل يديه ثم قال :

الحمد لله يا أمير المؤمنين الذي آنس وحشتي ، وأجاب دعوتي ، ورحم تضرعي ، وأنسأني أجلى حتى أراني وجه سيدي ، وأكرمني بقربه وامتن على بتقبيل يده وردني إلى خدمته ، فوالله إن كنت لا أذكر غيبتى عنه ومخرجى ، والمقادير التي أزعمتني فأعلم أنها كانت بمعاص لحقتني ، وخطابا أحاطت بي - إلى أن قال بعد إطالة في التزلف والتقرب - إن الله

يا أمير المؤمنين لم يزل يبيليك في خلافتك بقدر ما يعلم من نيتك : ويريك في رعيته غاية أمنيته ، فيصلح لك جماعتهم ويجمع ألفتهم ويلم شعنتهم ، حفظا لك فيهم ورحمة لهم ، وإنما هذا للتمسك بطاعتك والاعتصام بحبل مرضانك ، والله المحمود على ذلك وهو مستحقه . وفارقت يا أمير المؤمنين أهل كور الشام وهم منقادون لأمرك ، نادمون على ما فرط من معصيتهم لك ، متمسكون بحبلك ، نازلون على حكمك . طالبون لعفوك ، واثقون بحلمك ، مؤملون فضلك آمنون بأدركك ، حالمون في ائتلافهم كحالمهم كانت في اختلافهم ، وحالمون في ألفتهم كحالمهم كانت في امتناعهم ، وعفو أمير المؤمنين عنهم وتعمده لهم سابق لعذرهم ، وصلة أمير المؤمنين لهم وعطفه عليهم متقدم عنده لسألهم . وإيم الله يا أمير المؤمنين لئن كنت قد شخصت عنهم وقد أخذ الله شرارهم وأطفأ نارهم ونفى مؤرقهم وأصلح دهماءهم وأولاني الجليل فيهم ورزقني الانتصار منهم ، فما ذلك كله إلا ببركتك ويمنك وريحك ودوام دولتك السعيدة الميمونة الدائمة وتخوفهم منك ورجائهم لك - إلى أن قال بعد عد نعم الرشيد عليه وبيان عجزه عن إيفائه بعض الشكر في إطالة بأسقة هذا العجز - وأنا أسأل الله الذي رزقني ذلك منك من غير استحقاق له ، إذ كان الشكر مقصرا عن بلوغ تأدية بعضه بل دون شقص من عشر عشره <sup>(١)</sup> أن يتولى مكافأتك عني بما هو أوسع له وأقدر عليه وأن يقضى عني حقتك وجليل منتك فان ذلك بيده وهو قادر عليه .

١٦ - وخطب عبد الملك بن صالح بن علي عم الرشيد بالشام وكان



واليه عليها في نفرة أرادها منهم فتناقلوا فقال .

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » يأهل الشام إن الله وصف إخوانكم في الدين وأشباهكم في الأجسام فذرهم نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فقال « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون » فقاتلكم الله أنى تصرفون : جئت مائة وقلوب طائرة تشبون الفتن وتولون الدبر إلا عن حرم الله فانه دريئتكم <sup>(١)</sup> ، وحرم رسوله فانه مغزاكم <sup>(٢)</sup> أما وحرمة النبوة والخلافة لتنفرن خفافا وثقالا أو لا وسعنكم إرغاما ونكالا .

١٧ - ولما غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح لسهى كان به إليه بطعمه في الخلافة ، حبسه وكان يستدعيه من الحبس أحيانا يؤنبه ويسمع منه ، فلستداه يوما ليسمع احتجاجه فيما بلغه عنه : فدخل فسلم فلم يرد عليه ، فقال عبد الملك ليس هذا يوما أحتج فيه ولا أجادب منازعا وخصما ، فقال الرشيد ولم ، قال لأن أوله جرى على غير السنة فأنا أخاف آخره ، قال الرشيد وما ذاك ؟ قال لم ترد على السلام : أنصف نصفه العوام فقال الرشيد السلام عليكم اقتداء بالسنة وإيثار العدل واستعمال التحية : ثم التفت نحو سليمان بن أبي جعفر فقال وهو يخاطب بكلامه عبد الملك ،

« ١ » الدريئة هنا الخلقة يتعلم الرمي عليها وهو يرمى إلى ما فعل الحجاج

بالكعبة . « ٢ » يعنى ما فعلت جيوش يزيد بالمدينة

أريد حياته ويريد قتلى عذرك من خليلك من مراد<sup>(١)</sup>  
ثم قال أما والله لكأني أنظر إلى شؤبوها قد همع، وطارضا قد  
لمع<sup>(٢)</sup>، وكأني بالوعيد قد أوردى نارا تسطع فأقاع عن براجم بلا معاصم  
ورءوس بلاغ الاصم<sup>(٣)</sup>، فهلا مهلا في والله سهل لكم الوعر، وصفاء لكم  
الكدر، وألقت إليكم الأمور أثناء أزمتهما فنذار لكم نذار قبل حلول  
داهية خبوط باليد لبوط بالرجل - فقال عبد الملك -

اتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولاك وفي رعيته التي استرعاك . ولا  
تجعل الكفر مكان الشكر ولا العقاب موضع الثواب ، فقد نخلت لك  
النصيحة ، ومحضت لك الطاعة ، وشددت أواخي ملاكك بأثقل من ركني  
يلعلم<sup>(٤)</sup> وتركت عدوك مشتغلا ، فإله الله في ذى رحمتك أن تقطعه بعد أن  
بللته<sup>(٥)</sup> ، بظن أفصح الكتاب لي بعضه<sup>(٦)</sup> أو ببغي باغ ينهس اللحم  
ويالغ الدم<sup>(٧)</sup> فقد والله سهلت لك الوعر وذللت لك الأمور وجمعت على  
طاعتك القلوب في الصدور ، فكلم من ليل تمام فيك كابدته ومقام ضيق  
فرجته ، كنت فيه كما قال أخو بني جعفر بن كلاب

ومقام ضيق فرجته ببياني ولساني وجدل

(١) هذا البيت متمثل به وهو من أبيات قاهل عمرو بن معد يكرب الزبيدي  
في قيس بن مكشوح المرادي (٢) الشؤبوب دفعة المطر وهم هطل والعارض  
السحاب ولمع أضواء برقه (٣) البراجم جمع برجمة وهي مفصل الأصبع والغلاصم  
جمع غلصة وهي رأس الحلقوم (٤) الأواخي جمع أخية وهي العروة ويلعلم  
جبل بالمدينة معروف (٥) قويتية بالصلة (٦) بقطعه (٧) ينهس اللحم يتناوله  
بمقدم أسنانه ، ويالغ الدم يشربه بأطراف لسانه وكلاهما يتفق ورفق الواشى

لو يقوم الفيل أو فياله زل عن مثل مقاي وزحل<sup>(١)</sup>  
فقال له الرشيد أما والله لو لا أد بقاء على بني هاشم لضربت عنقك  
ثم رده إلى السجن فبقى به حتى أطاقه الأمين وعقد له على الشام.  
١٨ - ولما كتب الأمين إلى داود بن عيسى وإلى مكة والمدينة  
بأمره بخلع المأمون والبيعة لموسى بن الأمين بعد أن أخذ كتابي الرشيد  
اللذين كانا بالكعبة وكان داود أحد الشهود عليهما ، جمع داود الناس  
وخطبهم منادياً بخلع الأمين ومبايعة المأمون فقال بعد الديباجة  
أما بعد يا أهل مكة فأنتم الأصل والفرع والعشيرة والأسرة  
والثركاء في النعمة ، إلى بلدكم يفدو فدا الله وإلى قبلكم يأتى المسمون وقد  
علمتم ما أخذ عليكم الرشيد هرون رحمة الله عليه وصلاته حين بايع  
لابنيه محمد وعبد الله بين أظهركم ، من العهد والميثاق ، لتنصروا المظلوم  
منهما على الظالم ، والمبغى عليه على الباغى ، والمغذور به على الغادر . ألا  
وقد علمتم وعلمنا أن محمد بن هرون قد بدأ بالظلم والبغي والغدر وخالف  
الشروط التى أعطاه من نفسه فى بطن البيت الحرام وقد حل لنا ولكم  
خلعه من الخلافة وتصييرها إلى المظلوم المبغى عليه المغذور به . ألا  
وإنى أشهدكم أنى قد خلعت محمد بن هرون من الخلافة كما خلعت  
قلنسوتى هذه من رأسى - ثم خلعهما وقال - قد بايعت لعبد الله المأمون  
أمير المؤمنين بالخلافة ، ألا فقوموا إلى البيعة خليفتمكم - فقاموا إليه  
فبايعوه للمأمون وخلعوا الأمين .

---

(١) يريد الفيل فى قوته ، وفياله وهو سائسه فى دهائه ، وزحل نزح

١٩ - ولما تولى الأمر عن الأمين، وتسلسل عنه الانصار إلى طاهر ابن الحسين خطب من بقي معه في بغداد فكان مما قال : الحمد لله الذي يرفع ويضع ، ويعطي ويمنع ، ويقبض ويبسط ، واليه المصير ، أحمده على نوائب الزمان وخذلان الأعوان وتشتت الرجال وذهاب الاموال، وحلول النوائب وتوفد المصائب <sup>(١)</sup> احمدا يدخر لى به أجزل الجزاء ويرفدنى <sup>(٢)</sup> أحسن العزاء ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له كما شهد لنفسه وشهدت له ملائكته، وأن محمدا عبده الأمين ورسوله إلى المسلمين صلى الله عليه وسلم أمين رب العالمين : ثم أخذ يفصل ما ألع اليه في ديباجته إلى أن قال - فالحمد لله حمد من أسلم لأمره ورضى بقدره والسلام .

٢٠ - وخطب طاهر بن الحسين ببغداد يوم الجمعة بعد قتل الأمين فقال :

الحمد لله مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، لا يصلح عمل المفسدين ولا يهدى كيد الخائنين ، إن ظهور غلبتنا لم يكن من أيدينا ولا كيدنا <sup>(٣)</sup> بل اختار الله للخلافة ، إذ جعلها عماد الدين، وقواما لعباده، وضبط الأطراف وسد الثغور واعداد العدة وجمع الفيء ، وإنفاذ الحكم ونشر العدل، وإحياء السنة بعد إذ بال البطالات <sup>(٤)</sup> والتلذذ بموبق

---

(١) نزولها وفودا وجماعات (٢) يعطينى والرفد العطاء (٣) أى لم يكن من قوتنا ولا من خيلتنا (٤) البطالات جمع بطالة وهى التمداد فى الخسر والضبياع، واذبالها إذواؤها بكثرة الامعان فيها .

الشموات . والمخلد إلى الدنيا مستحسن لداعي غرورها ، محتلب درة نعمتها ، ألف لزهرة روضتها ، كلف برونق بهجتها . وقد رأيتم من وفاء وعيد الله عز وجل لمن بغى عليه ، وما أحل به من بأسه ونقمته ، لما نكب عن عهده وارتكب معصيته وخالف أمره ، وغيره ناهية وعظته مؤدبه ، فتمسكوا بدقائق عصم الطاعة <sup>(١)</sup> واسلموا مناحي سبيل الجماعة واحذروا مصارع أهل الخلاف والمعصية الذين قد حوا زناد الفتنة وصدعوا شعب الألفة <sup>(٢)</sup> فأعقبهم الله خسارة الدنيا والآخرة .

٢١ - وخطب المأمون حين بلغه بخراسان قتل الأمين وأقبل

الناس للنسليم عليه بالخلافة فقال بعد الحمد والثناء والصلاة :

أيها الناس إني جعلت لله على نفسي إن استرغاني أموركم ، أن أطيعه فيكم ، ولا أسفك دما عمدا لا تحله حدوده ونسفه كفرائضه ، ولا آخذ لاحد مالا ولا أثانا ولا نحلة تحرم على <sup>(٣)</sup> ولا أحكم بهوى في غضبي ولا رضاي إلا ما كان في الله وله ، جعلت كله لله عهدا مؤكدا وميثاقا مشددا . إني أفي رغبة في زيادته إياي في نعمتي ، ورهبة من مسألته إياي عن حقه وخلقه ، فإن غيرت أو بدلت كنت للغير مستأهلا وللنكال معرضا ، وأعوذ بالله من سخطه وأرغب إليه في المعونة على طاعته ، وأن يحول بيني وبين معصيته .

٢٢ - ولما دخل المأمون بغداد وتلقاه وجوه أهلها قال رجل منهم :

يأثير المؤمنين بارك الله لك في مقدمك ، وزاد في نعمتك ، وشكرك

(١) جمع عصام وهو رباط القرية الذي به تحمل (٢) فرقوا مجتمعيها

(٣) النحلة العطية والهيبة

عن رعيتك ، تقدمت من قبلك وأتعبت من بعدك، وآيست أن يعاين  
مثلك ، أما فيما مضى فلا نعرفه وأما فيما بقي فلا نرجوه ، فنحن جميعا  
ندعو لك ونثني عليك . خصب لنا جنابك وعذب ثوابك ، وحسنت  
نظرك وأكرمت مقدرتك ، جبرت الفقير وفككت الأسير ، فانك  
يا أمير المؤمنين كما قال الأول

مازلت في البذل والنوال وإطلاق لعانٍ بجرمه غلق<sup>(١)</sup>  
حتى تنى البراء<sup>(١)</sup> أنهم عندك أسرى في القيد والخلق

## ثانيا - حياتها

أقبل العصر العباسي والناس قريبو عهد بالبدواة ، فيهم المقدرة على  
المشاهدة والارتجال ، وفي ألسنتهم مكة الفصاحة والبيان ، فالبادية هي  
البادية لم يصيبها ما أصابها بعد من عى واستعجاب ، والأمصا رملية بجالية  
العرب الذين ارتشفوا أفابوق البلاغة ولدانا ، واستدروا أخلافها يافعين  
وشبانا ، وعلى رأس هؤلاء خاصة في الذروة مما ذكرنا ، من الخلفاء وذوى  
القراة القريبة أعماما وأبناء أعمام ، ومن العلويين أصحاب الحق الأصيل  
خارجين على أولئك العباسيين أو ناقلين ، ومن حولهم شيعة تشد أزهم  
وتعمل على إنالتهم حقهم ، ثم من الولاة والقواد عربا خلصا أو موالى  
متعربين . وهؤلاء جميعا قضوا قبل إقبال العهد فترة كانت الدعوة فيها  
سرية ضد الأمويين ، لم يسروا عن أنفسهم فيها بقول ، ولم ينفسوا عن  
خناقهم بكلام هائمين في البوادي أو متخفين في الامصار ، فما إن حان

---

(١) العاني الأسير والغلق المحبوس (٢) جمع برى ككريم وكرام

حين بنى مروان حتى كانوا في حطابتهم كالقدر أخذ ماؤها في الغليان  
فاضطرب وفار وصار حميا يصهر به مافي بطونهم والجلود .  
وهذا بيان ما تناولت الخطابة في ذلك وفي غيره من أغراض بعد التمهيد له :  
كان بنو العباس على جانب رفيع من قوة البيان وذراية اللسان ،  
وحضور البديهة ومتانة الارتجال ، يدل ذلك على ذلك ماسلف من أبي جعفر  
المنصور . إذ قطع عليه خطبة الجمعة بعض الحاضرين فقد قال ما قال  
كأنه يقرؤه من كفه ، ثم عاد إلى الخطبة بعد ، يصل ما كان بما يكون ،  
ويدلك عليه أيضا ما تقدم عن داود بن علي في تلك الخطبة القوية  
الضافية التي كانت منه إذ قطع الوعك على أبي العباس خطبته ، وهذا  
داود المذكور يقول محسا عن أنفسهم أنهم أمراء الكلام « ألا وإنا  
لا نتطق بطرا ، ولا نسكت حصرا ، بل نسكت معتبرين وننطق  
مرشدين ، ونحن بعد أمراء القول ، فينا ، وشجيت أعراقه ، وعلينا عطف  
أغصانه ولنا تهدلت ثمراته ، فنتخير منه ما احلولى وعذب ، ونطرح منه  
ما املوح وخبث » ثم هم بعد كثرة كثيرة ملأت الأقسام واحتلت  
المنابر والأعواد <sup>(١)</sup> .

---

(١) منهم الخليفةتان الأخوان أبو العباس وأبو جعفر ومن بعدها سائر  
الخلفاء إلى ما بعد العصر العباسي الأول ، ومنهم عبد الله وداود صالح وسليمان  
وعيسى من أمم الخليفتين الأولين ، ومنهم من أبناء هؤلاء الأمم عبد الملك  
واسماعيل وعبد الله أبناء صالح ، وداود بن عيسى وجعفر ومحمد أبناء سليمان ، ومن أبناء  
جعفر هذا سليمان وداود وأيوب إلى غير هؤلاء ممن قل الجاحظ فيهم :  
« لم يكن لهم نظراء في أصالة الرأي وفي الكمال والجلال وفي العلم بقرش والدولة

١- بهذه الكثرة في العدد وتلك القوة في العدد ، كان بنو العباس نقمة ولعنة على الدولة الدائلة لا يزالون يذكرون اجترأها على الدين ، واحتجائها الفء ، وعدوانها على آل الرسول ، ويذكرون كيف كان جورها يقض منهم المضاجع ويرمض العيون ، ثم يذكرون كيف كان غضبهم عليها لله حتى آتاهم من نصره ما أزال دولة الظلم وقضى على رجال الطغيان ، فأبدل الأئمة بهم دولة العدل ورجال الصلاح والاصلاح ، إلى غير ذلك من المعاني التي أكثروا فيها تعفية لآثار بني مروان وتنبينا لهذا الملك الجديد ، وهأت ذارها مائلة في كثير من خطبهم أول العهد ، وقد تقدم منها خطبة السفاح وخطبة عمه داود بالكوفة وكذا خطبته وخطبة عمه عيسى بالشام ثم خطبة أبي مسلم بالمدينة عقب حجه .

٢- وما كاد داعي إلى استخدام الخطابة في التعفية على الدولة الدائلة ينقضي بانقضاء عهد السفاح الذي أفنأهم قتلا وتشريدا ، ويؤكل بعده عهد المنصور ، حتى نبت لها داع جديد هو استخداما في مقاومة العلويين ، فقد خرجوا على المنصور يطلبون الحق لأنفسهم لأنهم أبناء على الذي يقربهم إلى رسول الله كما يقرب العباسيين العباس ، ثم هم بعداً ببناء فاطمة البتول بنت رسول الله ، وللعمامة إلى أبنائها هوى متغلغل في السواد . وقد هال ذلك أبا جعفر حتى حرمه الرقاد ففعل ما ذكرنا من القبض على عبد الله بن الحسن وآله

وبرجال الدعوة مع البيان العجيب والغور البعيد والنفوس الشريفة والآفاد الرفيعة ، وكانوا فوق الخطباء وفوق أصحاب الأخبار وكانوا يحملون عن هذه الأسماء إلا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك .



وإيداعهم السجن، ووجه بالجيوش إلى ولديه محمد بالمدينة و إبراهيم بالبصرة  
للقضاء على خروجهما بالقضاء عليهما وقد كان . وفي خلال ذلك كانت  
تستخدم الخطابة من العلويين تسويغا للخروج وأداة لجمع الأنصار ،  
كما كانت تستخدم من المنصور تبيننا لعدم شرعية هذا الخروج وتبريرا  
للموقف الذي وقفه إزاءهم من قتال ؛ مطيلا في ذلك ومكثرا من الأدلة  
والبراهين . على أن ذلك لم يكن لينزع محبتهم من القلوب حتى قلوب  
قواده وعظماء دولته كأبي مسلم الخراساني الذي قتله ليلته إلى هؤلاء ثم  
استغل الخطابة كما تقدم بعد هذا الحدث الخطير في تفهيم الناس أنه لم  
يك فيه من المعتدين .

٣- هذا الوادي وذلك كانا أزخر الأودية بتيار الخطابة ، فجرى فيهما  
عظيم اللجة قوى الاندفاع ، ثم كان كذلك في واد ثالث اطردها وإياها ،  
هو استخدامهما في الثورات لتحميمس الجيوش والنهوض بها إلى ميادين  
القتال ، أولئك يطمحهم ماؤا للعود بها حتى عن نصرته من يكون له في نصرتها  
أمل ورجاء . وإليك في هذا مثلين مما كان أيام الفتنة بين الأميين والمأمون .

أثنى رجل طاهر بن الحسين وهو ناهض بجيشه إلى جيش علي بن  
عيسى بن ماهان فقال « أيها الأمير إن جندك قد هابوا هذا الجيش ،  
وامتلأت قلوبهم منه خوفا ورعبا . فلو أقمت بمكانك ودافعت » فلم يسمع له  
طاهر الأريثما خطب جيشه يقول « يا أولياء الله وأهل الوفاء والشكر إنكم  
لستم كهؤلاء الذين ترون من أهل النكث والغدر ، إن هؤلاء ضيعوا  
ما حفظتم ، وصغروا ما عظمت ، ونكثوا الأيمان التي رعيتم ، وإنما يطلبون  
الباطل ، ويقااتلون على الغدر والجهل ، أصحاب سلب ونهب ، فلو قد

غضضتم الأبصار وأثبتتم الأقدام ، قد آنحز الله وعده وفتح عليكم أبواب عزه ونصره ، جالدوا طواغيت الفتنة ويعاسيب النار عن دينكم ، ودافعوا بحكم باطلهم ، فأنما هي ساعة واحدة حتى يحكم الله بينكم وهو خير الحاكمين » ثم نهض به فدارت الدائرة على جيش ابن ماهان وقتل .

وذهب عبد الملك بن صالح إلى الشام فجمع أجنادها على نصرة الأمانين ليده عليه في إطلاقه من سجن أبيه وتوليته ، ثم سار بهم إلى الجزيرة فجمع رءوسها ووجوهها ، ولكن ما إن تأهب بهما للمسير حتى قام رجل من أهل حمص فقال « يا أهل حمص ، الهرب أهون من العطب ، والموت أهون من الذل ، إنكم بعدتم عن بلادكم ، وخرجتم من أقاليمكم ، ترجون الكثرة بعد القلة والعزة بعد الذلة ، ألا وفي الشر وقعتم ، وإلى حومة الموت أنتم ، إن المتأيا في شوارب المسودة وقلانسهم ، النفير النفير قبل أن ينقطع السبيل وينزل الأمر الجليل ، ويفوت المطلب ويعسر المذهب ويبعد العمل ويقرب الأجل » وقام آخر من كلب فقال « يا معشر كلب إنها الراية السوداء والله ما ولت ولا عدلت ولا ذل نصرها ولا ضعف وليها ، وإنكم لتعرفون مواقع سيوف أهل خراسان في رقابكم ، وآثار أسنتهم في صدوركم ، اعتزلوا الشر قبل أن يعظم ونخطوه قبل أن يضطرم ، شامكم شامكم داركم داركم ، الموت الفلسطى خير من العيش الجزرى ، ألا وإنى راجع فن أراد الانصراف فليصرف معي » ثم سار هو والحمصى فسار معهما عامة أهل الشام ، وحدث أن مات عبد الملك بن صالح ، فأقفل الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان وكان معه جند الجزيرة إلى بغداد . وإنه لما يذكر من تلاعب الخطابة

يعقول الناس ما كان من الحسين هذا، فانه ما كاد يصل بغداد بهذا الجند المؤلب لنصرة الأمين حتى قام فيهم مناديا بخاعه يقول « يا معشر الأبناء إن خلافة الله لا تجاوز بالبطل ونعمه لا تستعجب بالتعجب والتكبر، وإز محمد يريد أن يوتغ أديانكم<sup>(١)</sup> وينكث بيعتكم، ويفرق جمعكم، وينقل عزكم إلى غيركم، وبالله إن طالبت به مدة وراجعته من أمره قوة ليرجعن وبأل ذلك عليكم وليعرفن ضرره ومكره وهه في دولتكم ودعوتكم، فاقطعوا أثره قبل أن يقطع آثاركم، وضعوا عزه قبل أن يضع عزكم، فو الله لا ينصره منكم ناصر الاخذل، ولا يمنع ما منع الا قتل، وما عند الله لا أحد هواده ولا يراقب على الاستخفاف بعهوده والحنث بأيمانه » قال ذلك فاذا السامعون يمكنون له في خلع الأمين وحبسها والبيعة للمأمون . وإنالذا كرون هنا وفي هذا الموضوع عينه ما هو أغرب من ذلك في نلاعب الخطباء بالعقول ؛ فقد حدث بعد هذا الخلع والحبس أن قام أمد الحربى<sup>(٢)</sup> فقال « يا معشر الحرية هذا يوم له ما بعده، إنكم قد نتم وطال نومكم وتأخرتم فقدم عليكم غيركم ، وقد ذهب أقوام بذكر خلع محمد وأسرهم فاذهبوا بذكر إطلاقه وفكه » وإذا شيخ أقبل على فرس فصاح بالناس اسكتوا فاسكتوا فقال « أيها الناس هل تعتدون على محمد بقطع منه لا رزقكم ؟ قالوا لا ؛ قال فهل قصر بأحد منكم أو من رؤسائكم وكبرائكم ؟ قالوا ما علمنا ؛ قال فهل عزل أحدا من قوادكم ؟ قالوا معاذ الله أن يكون فعل ذلك ؛ قال فما بالكم خذلتوه وأعنتم عدوه على اضطهاده

---

(١) يقسدها (٢) نسبة الى حربية محلة ببغداد بناها حرب بن عبد الله

وأسرهم، أما والله ما قتل قوم خليفتهم قط إلا ساط الله عليهم السيف  
القاتل والختف الجارف، انهضوا إلى خليفتكم وادفعوا عنه وقاتلوا  
من أراد خلعهم والفتك به «فنهضوا معه وقاتلوا الحسين فهزموا أصحابه  
وأسرود، ثم دخل أسد الحربى على محمد فكسر قيوده وأقعدته فى مجلس  
الخلافة. ولولا أن خلع الأمين كان قد أعلن بالأمة أن وخاصة مكة كما  
تقدم فى خطبة داود بن عيسى واليها، وهجمت جيوش طاهر على بغداد  
وليس لأهلها نظام، لما بعد أن يدوم انتفاعه بهذا الاتصاف.

وللخطابة أغراض غير التى تقدمنا بها فى تلك النواحي الثلاث،  
كانت فى العصر العباسى الأول ذات شأن واعتبار.

١- منها أن يتخذها المستعطف المترضى أداة يستل بها ما يحنى من  
سخائم القلوب وغضبات النفوس، فلا يكاد يمتطيها فى هذا الميدان حتى  
تبلغ به الذى أراد وفوق الذى أراد طالما حدثنا التاريخ إذ ذاك أنه كان  
يدخل بالمغضوب عليه على الغاضب، وقلب الثانى على الاول حليم آن، فيأخذ  
فى الترضى والاستعطاف فإذا هذا الحليم بزد وسلام، وإذا هو قد انتقل  
بنفسه لدى صاحبه من وهدة العقاب الى دروة المكافأة والثواب؛ وقد  
سبق ما كان من أنى جعفر المنصور للحارث الغفارى إذ استعطفه بعد  
خروجه عليه مع عمه عبد الله، فشفع رضاه عنه برد ضياعه غايه.  
وهذه امرأة النفس الزكية تدخل على المنصور ومعها صبيان فتقول  
«يا أمير المؤمنين أبنا امرأة محمد بن عبد الله وهذان ابناه أيتهم ماسيفك،  
وأضرعها خوفك، فناشدتك الله يا أمير المؤمنين أن تصبر لهما خدك،  
فينأى عنهما رفقك. أولتعطفك عليهما شوابك الذنب وأواصر الرحم»

فلا يتمالك أن يلتفت إلى الربيع فيقول اردد عليهما ضياع أبيهما ثم يقول  
 كذا والله أحب أن تكون نساء بنى هاشم . بل هذا جعفر الصادق  
 يدخل به عليه إذ مر بالمدينة من حجه وقد طلبه ليقتله فيسلم فيرد عليه  
 « لا سلم الله عليك يا عذر الله تعمل على الغوائل في ماسكى » فيقول  
 جعفر « يا أمير المؤمنين إن سليمان أعطي فشكر، وإن أيوب ابتلى فصبر،  
 وإن يوسف ظلم فغفر، وأنت على إرث منهم وأحق من تأسى بهم »  
 فينكس أبو جعفر رأسه ملياً ثم يرفعه قائلاً « إلى أبا عبد الله فأنتم  
 القريب القرابة، ذو الرحم الواشجة، السليم الناحية، القليل الغائلة » ثم  
 يصافحه بيمينه ويعانقه بشماله ويجلسه معه على فراشه منحرفاً له عن  
 بعضه، ويقبل عليه بوجهه يحادثه ويسأله، ثم يقول يا ربيع عجل لأبي  
 عبد الله كسوته وجأزته وإذنه . ومن بعد أبي جعفر طالما استعطف  
 الخطباء الخلفاء فقالوا بقولهم غفران عظام الذنوب، وتخطوا ذلك إلى  
 الخطوة برد ما صودر من أموالهم زائداً أسنى العطايا وأجزل الصلات  
 كما فعل المأمون مع عمه إبراهيم<sup>(١)</sup> وكما فعل المعتصم مع تميم بن جميل<sup>(٢)</sup>  
 وغير هذين وهذين كثير .

(١) لما عهد المأمون من بعده إلى علي بن موسى الرضا من العلويين وسمع  
 العباسيون ذلك أنكروه وخلصوه وبايعوا عمه إبراهيم هذا فطلبه المأمون فهرب  
 وتوارى فجد في طلبه حتى قبض عليه . ولم نذكر استعطافه لطوله .

(٢) كان تميم قد خرج على المعتصم بشاطئ الفرات وعظم أمره، فوجه إليه  
 المعتصم مالك بن طوق فظفر به وحمله موثقاً إلى المعتصم . ولم نذكر استعطافه  
 لطوله أيضاً .

٢ - ومنها أن يتخذها المتوعد المتهدد أداة مسخطة وعقاب، وسوط نعمة وعذاب، حتى لترتعد فرائص من أمامه خوفاً وفرقا، ويطير لبه مما يسمع رعباً وجزعاً، استمع إلى داود بن علي يقول وقد بلغه أن قوماً أظهروا شكاً أبي العباس السفاح فقال «أغدرا يا أهل الختر والتبديل. ألم يردكم الفتح المبين عن الخوض في ذم أمير المؤمنين، كلا والله حتى تحملوا أوزاركم وأوزار الذين كانوا من قبلكم، كيف قامت شفاهكم بالشكوى من أمير المؤمنين بعد أن حانت آجالكم فأرجأها وانبعثت دماؤكم فحقنتم، الآن يا منابت الدمن مشيتم الضراء وديتم الخمر<sup>(١)</sup> أما ومحمد والعباس إن عدتم لمثل ما بدأنتم لا حصصناكم بظلمات السيوف ثم يغني ربنا عنكم ونستبدل غيركم» ثم لا يكونوا أمثالكم» وفي مثل هذا المعرض يقول أبو جعفر المنصور «أحرز لسان رأسه، تنبه امرؤ لحظه، نظر امرؤ في يومه لغده، فشى القصد وقال الفصل وجانب الهجر - ثم يقول وقد أخذ بقائم سيفه - أيها الناس إن بكم داء هذا دواؤه وأنا زعيم لكم بشفائه، فليعتبر عبد قبل أن يعتبر به، فانما بعد الوعيد الايقاع و«إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله»

٣ - وبين حالي الترضى والتوعد كان ذو المكانة والسلطان، يستخدم الخطابة في معاتبة من ارتكب معه عسيانا فقد عاينه، وأعقب هذه القدرة بصفح منه وغفران، لمنزلة سائلة وخدمة مرجوة، فإن لسانه حينئذ يعمد إلى منطق الشدة والتجبر، ولكن قلبه يأبى الاشوب الكلام

---

(١) الضراء الشجر الملتف والخمر كل ما وارى وستر وكلاهما كناية عن التخفي في تدبير المكاييد لئلا وجبنا .

بعامل الرحمة والحنان، فيأتى قوله لذلك بين الشدة واللين كالذى كان  
 من الامين للحسين بن على بن عيسى إذ قال « يا حسين ألم أقدم أباك  
 على الناس وأوله أعنة الخيل وأملاً يده من الأموال وأثرف  
 أقداركم فى أهل خراسان وأرفع منازلكم على غيركم من القواد، قال  
 بلى، قال فما الذى استحققت به منك أن تجماع طاعتى وتؤلب الناس على،  
 وتندبهم إلى قتلى، قال الثقة بعفو أمير المؤمنين وحسن الظن بصفحه  
 وتفضله؛ قال فان أمير المؤمنين قد فعل ذلك بك وولاك الطلأ بئارك  
 ومن قتل من أهل بيتك <sup>(١)</sup> ثم دعا له بخلعة نخلعها عليه وحمله على  
 مراكب وأمره بالمسير إلى حلوان ولكنه إذ خرج هرب فى نفر من  
 خدمه ومواليه فنادى الأئمين فى الناس - إذ لم يعد هناك موضع لعفو -  
 فركبوا فى طابجه فأدركوه وقتلوه. وكذا كان من المأمون للفضل  
 ابن الربيع <sup>(٢)</sup> إذ ظفر به فقد قال له « يا فضل أكن من حقى عليك وحق  
 أبائى ونعمهم عند أبيك وعندك أن تنابى وتسبى وتحرض على دى،  
 أحب أن أفعل بك ما فعلته بى » فقال يا أمير المؤمنين إن عذرى  
 يحق لك إذا كان واضحا جميلا فكيف إذا حفته العيوب وقبحته  
 الذنوب، فلا يضيق عنى من عفوك ماوسع غيرى منك فأنت كما قال  
 الشاعر فيك

صفوح عن الأجرام حتى كأنه من العفول يعرف من الناس مجرما

(١) يعنى أخذه بئار أبيه من طاهر بن الحسين فانه قتله وبعض أهل بيته كما تقدم.

(٢) كان أول المناصرين للأئمين لأنه من أبناء العرب وكانت ضلع الامين

معهم لعربية أمه وضلع المأمون عليهم مع الفرس لفارسية أمه

وليس يبالي أن يكون به الأذى إذا ما الأذى لم يغش بالكره مسلما  
 ٤ - ثم منها أن تكون أداة الحوار بين الخصماء الألداء والمتعابين  
 الأصفياء أو الراغبين في التفاصح من البلغاء . فترى فيها حيث الخصام  
 نارا وجحيا، وحيث التعجب جنة ونعيا، وحيث الرغبة في التفاصح علوا  
 في البلاغة كبيرا . فأما حوار الخصومة فقد سمعت منه فيما سبق بين  
 الرشيد وعمه عبد الملك ، السؤال المفهم والرد المقتنع . وأما حوار التعجب  
 والتواد فاليك منه ما حدث به سعيد بن مسلم بن قتيبة قال ، دعا المنصور  
 بالربيع فقال له ياربيع سئني ما تريد فقد سكمت حتى أنطقت ، وخففت  
 حتى أنقلت ، وقللت حتى أكثرت ، فقال والله يا أمير المؤمنين ما أُرهب  
 بخلك ولا أستقص عمرك ولا أستصغر فضلك ولا أغتتم مالك ، وإن  
 يومى بفضلك على أحسن من أمسى ، وغدك فى تأميلي أحسن من يومى ،  
 ولو جاز أن يشكرك منلى بغير الخدمة والمناصحة لما سبقنى لذلك أحد ، قال  
 صدقت علمى بهذا منك أحلك هذا المحل فسئني ما شئت ، قال أسألك  
 أن تقرب عبدك الفضل وتؤثره وتحبه ، قال ياربيع إن الحب ليس بمال  
 يوهب ولا رتبة تبذل وإنما تؤكده الأسباب . قال فاجعل لى طريقا  
 إليه بالفضل عليه ، قال صدقت وقد وصلتته بألف درهم ولم أصل بها  
 أحدا غير عمومى لتعلم ماله عندى فيكون منه ما يستدعى به محبتي ،  
 ثم قال وكيف سألت له المحبة ياربيع ؟ قال لأنها مفتاح كل خير ، ومغلاق  
 كل شر ، تستر بها عندك عيوبه ، وتصير حسنات ذنوبه ، قال صدقت .  
 أما حوار التفاصح فنخذ منه ما روى من أن خالد بن صفوان دخل على



السفاح وعنده أخواله من بنى الحارث بنى كعب<sup>(١)</sup> فقال «انقول في أخوالى فقال ، هم هامة الشرف وعرائن الكرم وغرس الجود ، إن فيهم خصالا ما اجتمعت في غيرهم من قومهم لأنهم أطولهم لما ، واكرمهم شيئا ، وأطيبهم طعما ، وأوفاهم ذمما وأبعدهم همما ، الجرة في الحرب والرفد في الجذب والرأس في كل خطب وغيرهم بمنزلة العجب ، فقال وصفت أبا صفوان فأحسننت فزاد أخواله في الفخر حتى غضب لأعمامه فقال : انخر يا خالد على أخوال أمير المؤمنين وأنت من أعمامه فقال « وكيف أفاخر قوما بين ناسج برد ودابغ جلد وسائس قرد وراكب عرد<sup>(٢)</sup> ، دل عليهم هدهد وغرقهم جرذ وملكتهم امرأة » فأشرق وجه أبي العباس .

هـ - ولقد كانت الخطابة مر كباذلول في التعازى والتهانى ، يبلغ به المعزون أرفع مراتب الصبر ويصل به المهنئون أبهى درجات البشر ، ذكر الطهرى أنه لما ماتت الباقوة بنت المهدي جزع عليها جزع عالم يسمع بمثله فجلس للناس يعزونه وأمر ألا يحجب عنه أحد ، فأكثر الناس في التعازى فأجمع من حضر على أنهم لم يسمعوا تعزية أوجز ولا أبلغ من تعزية شبيب بن شذبة<sup>(٣)</sup> له إذ قال : « أعطاك الله يا أمير المؤمنين على ما رزئت أجرا وأعقبك صبورا ، ولا أجهد الله بلاءك بنقمة ولا نزع منك نعمة ، ثواب الله خير لك منها ورحمته خير لها منك ، وأحق ما صبر عليه مالا سبيل إلى رده » . وقد ذكرنا فيما سلف من نماذج تهنئة أحد وجوه بغداد للمأمون

(١) أم السفاح ربيعة بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد الممدان بن الديان الحارثي ولذا يقال له ابن الحارثية .

(٢) العرد الحمار (٣) هو ابن عم خالد بن صفوان المنقري

حين دخلها بعد قتل الأمين . وكثيرا ما كان يجمع بين التعزية والتهنئة في الخلافة وفي غير الخلافة . فن الاول ماذكر في صبح الاعشى من أن أعرابية تعرضت للمنصور عقب وفاة السفاح فقالت « يا أمير المؤمنين احتسب الصبر وقدم الشكر فقد أجزل الله لك الثواب في الحالين وأعظم عليك المنة في الحادئين ، سلبك خليفة الله وأفادك خلافة الله فسلم فيما سلبك ، واشكر فيما منحك ، تجاوز الله عنك يا أمير المؤمنين وخار لك فيما ملكك من أمر الدنيا والدين » . ومن الثانی ماذكر من أن عبد الملك بن صالح دخل دار الرشيد - قبل غضبه عليه - فقال له الحاجب إن أمير المؤمنين قد أصيب الليلة بآبن له وولد له آخر فلما دخل عليه قال « سرك الله يا أمير المؤمنين فيما ساءك ، ولا ساءك فيما سرك ، وجعل هذه بهذه مثوبة على الصبر ، وجزاء على الشكر » .

٦ - ولقد اتخذ ذوو الاسن الخطابة رقى سحرية يتزلفون بها إلى أولى الامر والنهى يغزون منهم القلوب ويحتلون السويداء بما يرتلون من آيات مدح وينظمون من عقود ثناء ، قال الحسن بن سهل للمأمون يوما ، « الحمد لله يا أمير المؤمنين على جزيل ما آتاك وسنى ما عطاك ، إذ قسم لك الخلافة ووهب لك معها الحجة : ومكنك بالسلطان وحلاه لك بالعدل ، وأيدك بالظفر وشفعه لك بالعفو ، وأوجب لك السعادة وقرنها بالسيادة ، فمن فسح له في مثل عطية الله لك ؟ أم من ألبسه الله من زينة المواهب ما لبسك ، أم من ترادفت نعمة الله عليه ترادفها عليك ؟ أم هل حاولها أحد وارتبطها بمنزل محاولتك ؟ أم أى حاجة بقيت لرعتك لم يجدوها عندك ؟ أم أى قيم للاسلام انتهى إلى عنايتك ودرجتك ؟

تعالى الله تعالى ما أعظم ما خص القرن الذى أنت ناصره ، وسبحان  
الله أى نعمة طبقت الأرض بك . إن الله تعالى خلق السماء فى فلكها  
ضياء يستنير بها جميع الخلائق ، فكل جوهر زها حسنه ونوره ، فهل  
لبسته زينته إلا بما اتصل به من نورك ، وكذلك كل ولى من أوليائك  
سعد بأفعاله فى دولتك ، وحسنت صنائعه عند رعيتك ، فانما نالها بما  
أيدته من رأيك وتديرك ، وأسعدته من حسك وتقديرك .

ولقد صار الحسن بهذا وزيرا للمأمون وتزوج المأمون من ابنته بوران .  
وقيل للمهدى عن شبيب بن شيبه اللإقاع به ، إن شيبه يستعمل  
الكلام ويستعد له ، فلو أمرته أن يصعد المنبر فجأة لرجوت أن يفتضح  
فأمر رسولا فأخذ بيده حتى أصعد المنبر وقال خذ فى مدح أمير  
المؤمنين فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه حق الصلاة عليه ثم قال :  
« أيها الناس ألا إن لأمر المؤمنين أشباه أربعة الأسد الخادر ، والبحر  
الزاهر ، والقمر الباهر ، والربيع الناضر . فأما الأسد الخادر فأشبهه منه  
بأسه ومضاءه ، وأما البحر الزاهر فأشبهه منه جوده وأعطاه ، وأما القمر  
الباهر فأشبهه منه نوره وضياءه وأما الربيع الناضر فأشبهه منه حسنه  
وبهائه ، ثم نزل وهو يقول : -

وموقف مثل حد السيف قت به أحى الذمار وترمى به الحدق  
فما زلقت وما ألقيت كاذبة إذا الرجال على أمثاله زلقوا  
فكان بعد هذا أعز على أمير المؤمنين قبله .

٧ - وكثيرا ما كانت إحالة الرأى فى مهام الامور على السنة ذوى

م - ٧ أدب

البعثاء والعقول : تلبس اد سلوب الخطابي فيقف كل مدل برأيه موقف الخطيب يجود لفظه كما يحص معناه ويعمل على التأثير بالقول كما يؤثر بالفكر، وإن كان الموقف موقف مشاورة لا يعدو الرغبة في الوصول إلى أحزم الآراء . وعندك في هذا ما صدر عن المهدي وأهل بيته ورجالات دولته من تدبير الرأى في حرب خراسان وهو كثير . وقد سبق منه بعض ما كان من المهدي في إبداء رأيه ووصايته لولى عهده موسى الهادي ، واليك بعض ما كان من موسى هذا في الموضوع ، وهو وحده من لم يسبق لنا عنه دون سائر الخلفاء إلى المأمون اختيار . قال « أيها المهدي لا نسكن إلى حلالة ما يجري من القول على ألسنتهم وأنت ترى الدماء تسيل من خلل فعلهم ، الحال من القوم ينادى بمضرة شر وخفية حقد ، قد جعلوا المعاذير عليهم استرا ، واتخذوا العلل من دونها حجابا ، رجاء أن يدافعوا الأيام بالتأخير والأشور بالتطويل ، فيكسروا حيل المهدي فيهم ويفنوا جنوده عنهم حتى يتلاحم أمرهم وتلاحق ما دهم ، وتستفحل حربهم وتستمر الأشور بهم ، والمهدي من قولهم في حال غرة ولباس أمانة قد فتر لها وأنس بها وسكن إليها » إلى أن قال « والرأى للمهدي وفقه الله ألا يقبل عثرتهم ولا يقبل معذرتهم حتى تطأهم الجيوش وتأخذهم السيوف ، ويستحرمهم القتل ويحرقهم الموت ، ويحيط بهم البلاء ويطبق عليهم الذل ، فإن فعل بهم ذلك ، كان مقطعة لكل عادة سوء فيهم ، وهزيمة لكل بادرة شر منهم ، واحتمال المهدي في مثوثة غزوتهم هذه يضع عنه غزوات كثيرة ونفقات عظيمة » .

٨ - ولم تقف الخطابه إبان ازدهارها في هذا العصر أن تكون ذات باع بطول وقوة تجول في نواحي الوصايا والنصائح والعظات ، وهذه كلمات ثلاث تسكاد تكون متحدة المدلول ولكننا غطفنا بعضها على بعض عطف تغاير على أمل التفرقة بينها في المراد .

فأما الوصايا فأنا نقصد بها ما جاوز ناحية التزهيد وكان من كبير بشأن صغير تربطهما لجة نسب وقرابة ، وإنما أقحمنا كلمة شأن لتشمل ماوجه الخطاب فيه لغير الموصى به ولكنه من أجله يكون ، كوصية الرشيد السابقة للأحمر مؤدب ولده الأمين ، وكوصية السيدة زبيدة على بن عيسى حين الذهاب لقتال المأمون من قبل ابنها الأمين إذ تقول : « يا علي إن أمير المؤمنين وإن كان ولدي ، إليه تناهت شفقتي وعاليه تكامل حذري ، فإني على عبد الله منعطفة مشفقة ، لما يحدث عليه من مكروه وأذى ، وإنما ابني ملك نافس أخاه في سلطانه وغاراه »<sup>(١)</sup> على ما في يده ، فاعرف لعبد الله حق والده وإخوته ، ولا تجبه بالكلام فانك لست نظيره ، ولا تقتسره اقتسار العبيد ولا ترهقه بقيد ولا غل ، ولا تمنع منه جارية ولا خادما ، ولا تعنف عليه في السير ولا تساور في السير<sup>(٢)</sup> ولا تركب قبله ولا تستقل على دابتك حتى تأخذ بركابه ، وإن شتمك فاحتمل منه ، وإن سفه عليك فلا تراده » وطوال الوصايا في هذا العصر كثيرات كوصايا أبي جعفر المنصور لولي عهده المهدي وكوصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله إذ ولّاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما .

وأما النصائح فهي كالوصايا في مجاوزتها ناحية التزهيد ولكنها

(١) لوجه وخاصته (٢) أي لا تحتد فيه .

تخلو من قيد الرابطة في القراية والسن ، ومثلها في هذا العهد ما حدث  
من يزيد بن عمر بن هبيرة<sup>(١)</sup> ، إذ دخل يوما على أمير المؤمنين المنصور  
فقال له حدثنا فقال « يا أمير المؤمنين إن ساطانكم حديث ، وإمارتكم  
جديدة ، فأذيقوا الناس حلاوة عدلها ، وجنبوهم مرارة جورها ، فوالله  
يا أمير المؤمنين لقد محصت لك النصيحة » . وكذلك قوله له أيضا  
« يا أمير المؤمنين توسع توسعا قرشيا ، ولا تضق ضيقا حجازيا » :  
« وكثيرا ما وجهت النصائح في هذا العصر توجيهها عاما لفشو الحكمة  
فيه كقول مسلم بن قتيبة « لا تطلبن حاجتك إلى واحد من ثلاثة ،  
لا تطلبها إلى الكذاب فإنه يقربها وهي بعيدة ويبعدا وهي قريبة ،  
ولا تطلبها إلى الأحمق فإنه يريد أن ينفحك وهو يضرك ، ولا تطلبها  
إلى رجل له عند قوم مأكلة فإنه يجعل حاجتك وقاء لحاجته » والنصائح  
على العكس من الوصايا يغلب فيها الإيجاز .

أما العظات فهي خلو من القيد من السالفين ، وإنما قيدها أن ترى  
إلى التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة بمختلف الطرق وشتى  
الأساليب ، كالذي رأيته فيما اخترنا بالنماذج من عظة الأوزاعي للمنصور  
وهي من العظات الطوال ، ومن قصارها ما كان من ابن السماك<sup>(٢)</sup> إذ دخل  
على الرشيد يوما ، وبينما هو عنده إذ استسقى الرشيد ماء فأتى بقلعة فلما  
أهوى بها إلى فيه ليشرّب ، قال له ابن السماك « يا أمير المؤمنين ، بقرابتك  
من رسول الله صلى الله عليه وسلم لو منعت هذه الشرية بكم كنت .

(١) كان والي العراقين مروان بن محمد (٢) هو محمد بن صبيح الزاهد العابد

الكوفي قدم بغداد زمن الرشيد ثم عاد إلى الكوفة فمات بها سنة ١٨٣ .

تشتريها؟ قال بنصف ملكي، قال اشرب هناك الله، فلما شربها قال له أسألك بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتريها؟ قال بجميع ملكي، قال فما غترارك بملك قيمته بولة؟ فبكى هرون وانصرف ابن السماك.

تلك أم النواحي التي توضح ما كان للخطابة في العصر العباسي الأول من أغراض يرمى إليها الخلفاء وغير الخلفاء سوى ما كان من الخطب الدينية في الجمع والمواسم يلونها بأنفسهم فيحفون بها ويطيّلون، وقاما تصدر منهم في هذه الناحية القصار، وهذا نموذج من قصارها يوم جمعة عن محمد بن سليمان بن علي عامل البصرة في خلافة المنصور إذ لا يتسع المقام لطوالها قال.

الحمد لله أحمد وأستعينه، وأستغفره وأؤمن به، وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. من يعتصم بالله ورسوله فقد اعتصم بالعروة الوثقى وسعد في الآخرة والأولى، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضللا بعيدا وخسر خسرا نارا مبيدنا. أسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن يطيعه ويطيع رسوله، ويتتبع رضوانه ويتجنب سخطه، فإنا نحن له وبه. أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعة الله وأرضى لكم ما عند الله، فإن تقوى الله أفضل ما تحاث الناس عليه وتداعوا إليه وتواصوا به، «فاتقوا الله ما استطعتم ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون».

هذا وإن فما قدمنا من نماذج خالصة وأخرى شبنها السكلام

على الأغراض ، لمراءة قريننا أن الخطابة في العصر العباسي الأول قد ارتفعت إلى درجة من البيان لا تقبل إن لم يزيد عما كان لها فيه عهد الأمويين ، ذلك بأن رجالها به كانوا كرجال العصر المذكور من حيث السليقة العربية في بيانهم ، وتوافر الدواعي إلى الكلام أمامهم ، ثم هم على ذلك يغلب فيهم العنصر الهاشمي ولبنى هاشم في ميادين القول سبق لا ينال . وأهم الطوائع التي تميز بها خطابة هذا العصر بعد شمول أغراضها كما ساف هو مانسوفة الآن على مسيل الاجمال .

١ — طبعها بطابع ديني لا تزال تعتر به وتستمد منه وهذا أمر ماكان لرجالها عنه فكأنك ماداموا يعتقدون أنهم جند الله المؤزرون للقضاء على دولة الظلم وإقامة معالم الدين ، ولذلك امتلأ كلامهم بجور بني أمية واجترأهم على الحرمات والتحدث عن أنفسهم حديث الحاكين العادلين ، ومن هنا عادوا إلى التعهد للسامعين بمثل ما كان يتعهد به الخلفاء الراشدون كما رأيت في خطب السفاح والمنصور وأعمامهما وكما هو ثابت في خطب من بعدهم من الخلفاء وقد تقدمت منها واحدة للمأمون .

٢ — كثرة الاستعانة فيها بالقرآن الكريم اقتباسا واستشهادا ، ومن أقدر من بني هاشم في دينهم وعدالتهم وقوة عارضتهم وفصاحتهم أن يكونوا آليه مستغلين في شن الغارة على بني أمية ومن كانوا لهم أنصارا ومشايخين ، وقد كانت الآيات تواترهم كما يواتي الذلول عن طواعية واختيار ، حتى تسنى لكثير منهم في بعض مواقفه أن يجعل جل خطبته من القرآن . خطب المنصور بمكة بعد بناء بغداد فقال



« ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ؛ أمر مبرم وقول عدل وقضاء فصل ، والحمد لله الذي أفلج حجته وبعثنا للقوم الظالمين الذين اتخذوا الكعبة غرضا والفيء إرثا وجعلوا القرآن عضين <sup>(١)</sup> » ؛ لقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، فكم ترى من بثر معطلة وقصر مشيد ، أمهلهم الله حتى بدلوا السنة واضطهدوا العترة <sup>(٢)</sup> وعندوا واعتدوا واستكبروا وخاب كل جبار عنيد ، ثم أخذهم فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا . وعلى وثيرتها كانت خطبة عبد الملك بن صالح في أهل الشام وقد ذكرت بالتماذج .

٣- وكذلك كثرة الاستشهاد بالشعر وإن لم تفضل فيه خطابة الأُمويين ، خطب داود بن علي فقال « أيها الناس حتام يهتف بكم صريخكم <sup>(٣)</sup> » أما أن لراقدم أن يهب من نومه ، كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، أغركم الأمهال حتى حسبتهموه الأهال ، هيهات منكم وكيف بكم والسوط كنى <sup>(٤)</sup> والسيف مشهر :

حتى تبديد قبيلة فقييلة وبعض كل مثقف بالهام <sup>(٥)</sup>  
وتقوم ربات الحدود حواسرا يسحن عرض ذوائب الإيتام  
وخطب صالح أخوه فقال « يا أعضاء النفاق وعبد الضلالة ، أغركم لين أساسي وطول إيناسي حتى ظن جاهداكم أن ذلك لفلول حدو فتور جد وخور قنائة ، كذبت الظنون إنها العترة بعضها من بعض فأما

(١) جمع عضه ، أي فرقا من سحر وكهانة وشعر (٢) العشرة الأقربين

(٣) الصريخ هنا المغيث (٤) كثير الكفاية (٥) المثقف هنا المنقهر

إذا قد استوبلتم العافية<sup>(١)</sup> فعندى فطام وفكك وسيف يقدا لهما م وإنى أقول:  
أغرکم أنى بأكرم شيمة رفيق وأنى بالفواحش أخرج  
ومثلى إذا لم يحز أحسن سعيه تبكلم نعماء بفيها فتنتطق  
لعمري لقد فاحشتنى فغلبتنى هنيئا مريئا أنت بالفحش أرفق

٤ — السهولة البادية في وضوح مفرداتها وسلاسة تراكيبها مع  
بقائها جزلة المثلوب قوية الأداء، نتيجة للحضارة التي صقلت اللغة  
كما صقلت كل شيء، فأصبحت الكلمات الغريبة فيها قليلة الوجود.  
والتراكيب المسيرة بها نادرة الاستعمال، ثم خطت نحو مزاجية الجمل  
وتساوى الفقرات خطوات كانت الأساس لما بنى بعد من محسنات،  
وإن فيما قرأت لها الشواهد على ما ذكرنا كثيرة كخطبة شبيب في المديح،  
على أنى أزيد هنا شاهدا مما كان آخر هذا العصر الأول يؤذن بما كان  
مقدورا للنثر بعده من صناعات. دخل رجل على المأمون يتظلم  
من عامل له فقال: «يا أمير المؤمنين، ما ترك لي فضة إلا فضها، ولا ذهبا  
إلا ذهب به، ولا غلة إلا غلها»<sup>(٢)</sup>، ولا ضيعة إلا أضاعها، ولا علقا إلا علقه،  
ولا عرضا إلا عرض له، ولا ماشية إلا امتشها»<sup>(٣)</sup>، ولا جليلا إلا أجلاه»<sup>(٤)</sup>  
ولا دقيقا إلا دقه»<sup>(٥)</sup>.

٥ — ظهورها على السنة الموالي بجانب ظهورها على السنة العرب  
وذلك لما صار إليه الفرس من نياحة الشأن وتولى كثير منهم أزمة الحكم  
مع إجادتهم العربية وحذقهم آدابها كما رأيت فيما اخترنا لأبى مسلم

(١) عددتموها وديلة وخيمة (٢) حازها واحتبسها (٣) أخذ كل ماى ضرعها

(٤) فعه (٥) كسره .

وطاهر بن الحسين وجعفر البرمكى والحسن بن سهل وغيرهم ممن عهد اليهم بكبار الشئون . على أنه لا يفوتنا التنبيه هنا عما ظهر في خطب هؤلاء وأمثالهم من العمل اليبادى فى الصياغة ، والخنوع الممعن فى الضراعة تأثرا منهم بما هو من طابع الفارسية وطباع أهلها ، ولذا يبدو على تراكيبهم فى بعض العبارات سقم أو استكراه لاتكاد تجد له من من مثيل فى هذا العصر على ألسنة العرب الخالصين .

كان هذا شأن الخطابة فى العصر العباسى الأول ، حتى إذا ما أقبل العصر الثانى كانت قد ماتت الحاجة إلى الدعاية ضد الأمويين بما عفا من آثارهم وتثبت من أقدام العباسيين ، ومن كان فى نفسه هوى أموى توجه به إلى الأندلس حيث أسست الدولة الثانية لبني مروان ، وبذلك أقفر الوادى الأول للخطابة وذهب داعيه ، ثم أعقبه إقفار الوادى الثانى وهو مقاومة العلويين - لما قاموا به من هجرة المشرق إلى المغرب الأقصى بعد أن أخفقوا فى خروجهم على أبى جعفر وخروجهم على الرشيد وبعد أن أخفق المأمون فى عقد ولاية العهد من بعده لعلى بن موسى الرضا منهم ، ثم جاء المتوكل معلنا على شيعتهم سيف البطش والجبروت ، وكذلك كان الخدم الأتراك ، فبقوا فى المغرب الأقصى بين بني مروان فى الأندلس والغالبة فى أفريقيا ( تونس ) - وكلاهما يود لهم البقاء - إلى أن ضعف أمر بني العباس فزحفوا شرقا إلى أن امتلكت الدولة الفاطمية مصر والشام . وبموت هذين الداعيين أقفر الوادى الثالث ونضب للخطابة أكبر معين . أما العيون الأخرى التى كانت تمتد سائر الأغراض فقد جفت بعاملين جديدين ، أحدهما تجريد الخلفاء

على أيدي الخدم الأتراك من السلاطة الدينيوية التي كانت تجعلهم مرغوبين مرهوبين ، وإذا ماتت الرغبة إلى شخص والرهبة منه ، تقطعت بينه وبين الناس أواصر الكلام ، وثانيهما ضعف أولئك الخدم في المقدرة على الكلام وفي فهم ما يلقى إليهم من بيان ، ضعفا حال بينهم وبين أن يسدوا ذلك الفراغ للخلفاء ومن كان على شاكلتهم من أعوانهم موالى الفرس المتعربين ، وبذلك تم القضاء تقريبا على كل ما كانت تتناول الخطابة في غير الناحية الدينية من أغراض .

أما الناحية الدينية فقد استمر أولئك الخدم يسمعون للخلفاء فيها بكل ما يودون ، فبقوا يزاولون الخطب في الجمع والأعياد ، ويخرجون إلى هذه المواسم كما كان أسلافهم في مواكب الأبهة والجلال<sup>(١)</sup> فبقى للخطب الدينية في هذا العصر على أسنتهم وألسنة محاكيهم من فصحاء الولاة والعمال شبه ما كان لها في سابقه من شأن واعتبار ، وبما ساعد على هذا أن ذيل العفاء لم يك قد تم سحبه على مالمعربة من مكانة في التخاطب العام ، ولذلك يذكر المؤرخون عن الراضى بالله المتوفى سنة ٣٢٩ هـ أي قبيل انقضاء هذا العصر بسنوات أنه آخر خليفة له خطب كثيرة

---

(١) كانت هذه المواكب تسترعى أنظار الشعراء فيبدعون في تصويرها

ماشاء لهم البيان كما حدث من البحترى في رأيته التي يقول فيها :

بالر صمت وأنت أفضل صائم وبسنة الله الرضية تفطر

فقد أجاد فيها وصف موكب المتوكل في خروجه إلى المسجد ليصلي بالناس

أحد أعياد الفطر كما أجاد وصف خطبته الواعظة في هذا العيد وستأتى في نماذج

الشعر بعد .

وأنه كان كاسلافه الأول يجالس في بيته العلماء والأدباء .

ولما أقبل العصر الثالث بسط آل بويه سلطانهم على بغداد ، بسطا لم يبق معه للخليفة إلا صورة الخلافة جوفاء ، فقد سلبوا خلفاءه ما كان قد بقي لهم في سابقه من نفوذ ديني فحالوا بينهم وبين الظهور في المواكب للناس حتى ما كان للخليفة في الدولة إلا مرتب يتسلمه كاتبه لنفقته جملة معز الدولة المستكفي بالله خمسة آلاف درهم كل يوم<sup>(١)</sup> فقطع بذلك ، المدد الروحي الذي كان للخطابة من كلام الخلفاء . ثم أخذ ضعف اللسان العام يتناول الخاصة وأهل البادية بعد أن تناول السواد ، ففضى بذلك على المقدرة الخطابية العامة أتم قضاء ، وأصبحت الخطابة حرفة تسند في بغداد بعد الخلفاء ، وفي سائر الحواضر بعد الولاة والعمال ، إلى علماء يختارون على سبيل التعيين ويلقب كل منهم بالخطيب .

ثم جاء العصر الرابع فجري الأمر فيه على ما كان في الثالث من بقاء الحजर على الخلفاء وتعيين الخطباء من العلماء ، ولقد اشتمر من خطباء الحواضر في العصرين رجال كانوا ذوي مقدرة على البيان وامتلاك لنواصيه ، فأغنوا في هذه الناحية غناء عظيما وصاروا ممددا لمن هم دونهم ممن يلون الخطابة في غير حواضرهم وفي سائر المدن . وأمهات

---

(١) بدأ اضطهاد آل بويه للخلفاء منذ وجودهم ببغداد فان المستكفي الذي لقب أحمد بن بويه إذ دخلها بلقب معز الدولة ولقب أخويه كاتقدم وأمر أن تضرب ألقابهم على الدراهم والدنانير ، لم يبقه معز الدولة بعد ذلك إلا أربعين يوما ثم خلعه أشنع خلعة يجعل رجلين من أتباعه يجذبانه عن سريره ويجعلان صمامته في عنقه إلى حيث اعتقل ، على زعم أنه يدس عليه ويكيد له .

القرى، حتى دونت خطب بعضهم في دواوين<sup>(١)</sup> غير أن هؤلاء لقلتهم .  
 وللضعف الذي أخذ يحل بالعربية في العصر الأخير ، لم يضربوا عن  
 الخطابة الدينية ما اعتورها من خمول ، فقد سار القائمون بها في طريق  
 الاضمحلال مسرعين ، وكان أول ما بدا عليهم من ضعف ، محزهم جملة عن  
 الارتجال ، ثم محزهم عن المشافهة بعد إعداد ، فكانوا يدونون خطبهم ثم  
 يلقونها على المنابر من أوراق ، ولشد ما كان الخطب فادحاحينها محزوا  
 عن تحضيرها بأنفسهم ، وأخذوا يكتبون خطب غيرهم ، فيلقونها غير  
 ملائمة للبيئة ولا مطابقة لمقتضيات الأحوال ، حتى كان من وراء ذلك أن  
 هبت جماعات تضع خطبا لسكل جمعة من جمع العام يملئونها بما ساد  
 الكلام آخر العصر من أسجاع ، ولا يلمون فيها من نواحي الأمر  
 بالمعروف والنهي عن المنكر بشيء ذي بال ، على نحو ما كنا نسمع من  
 جميع خطباء المساجد بمصر منذ فترة من تاريخنا الحديث ، وما نسمع  
 الآن من مجموعهم في هذا الوقت المقيم الذي حاد فيه بعض الخطباء  
 الحديثين عما كان عاياه إجماع سابقهم حيدة نقابلها بالغبطة متمنين لها  
 دوام التقدم وسرعة الذيوع والانتشار .

---

(١) من هؤلاء على حسب سني وفاتهم في العصرين أبو يحيى بن نباتة خطيب  
 سيف الدولة بحلب المتوفى سنة ٣٧٤ وله ديوان خطب مشهور طبع ببغروت .  
 والخطيب البغدادي الحافظ أبو بكر أحمد بن علي صاحب تاريخ بغداد المتوفى  
 سنة ٤٦٣ . والخطيب التبريزي يحيى بن علي الشيباني المتوفى سنة ٥٠٢ .  
 والخطيب الرازي عمر بن الحسين والد الفخر صاحب التفسير المتوفى سنة ٥١٢  
 وزكي الدين الدمشقي خطيب أول جمعة صليت ببيت المقدس بعد استعادته من  
 الصليبين سنة ٥٦٤ . ثم خطيب النمسطا طبراهيم بن منصور العراقي المتوفى سنة ٦١٣

## الكتابة

فلما إن لنثر اللغة جانبا أدبيا هو الخطابة والكتابة الانشائية، وآخر عاميا هو لغة التدوين والتصنيف ؛ وإننا سنسوق الكلام على هذا الترتيب وبعده يكون الكلام على الشعر ، وقد فرغنا من الكلام على الخطابة ؛ وأن أن نشرع في الكلام على الكتابة جريا على ما رسمنا من نظام، غير أننا مضطرون فيها إلى تصدير لم نضطر إلى مثله في الخطابة هو سوق كلمة عن أنواعها في هذا العصر الطويل، فقد لبست فيه أثوابا عدة ذات تغاير في الاشكال والألوان، دفع إليها نظام العصر وأتم نسجها طول مداه .

فكانت منها الكتابة الديوانية وهي التي يتولاها رجال الدواوين على النحو الفني الذي نراه من كتبة الوزارات الآن . منها ديوان الرسائل والتوقيعات، وديوان الخراج والنفقات، وديوان الضياع والاقطاعات، وديوان الجيش وديوان الشرطة وغيرها إلى ما يشمل عدد المصالح العامة في تصريف الأمور ، وهي مع اشتراكها جميعا في ضم عدد من الكتبة يتولى عملا فنيا، مختلفة بعضها عن بعض في نوع الكتابة تبعالا لاختلاف المهمة الملقاة على كل ديوان ، والنظام الكتابي الذي يقتضى إنجازها فيه ، حتى إن نقل كاتب من أحدها إلى غيره، كثيرا ما تأباه طبيعة العمل الجديد، لأن لكل ديوان صبغة فنية وتعاليم يحذفها كتبه ولا يلزمها الكاتب الجديد إلا بعد تمرين . غير أن الكتابة فيها جميعا ماعدا ديوان الرسائل والتوقيعات لا تحتاج بعد معرفة فنيتها إلى روية وإجهد، إذ

لا تعدو القيد في الدفاتر أو التحرير من غير مشقة في الانشاء فهي خلو من المسحة الأدبية للغة كما هي الآن . أما في الديوان المذكور ، فكانت ذات صبغة أدبية تتطلب من الكاتب تجويد العبارة والتحليق بالأسلوب إلى مستوى من البيان رفيع ، تنسأى إليه طوائف الكتاب .

وكان منها خارج الدواوين ما ينشئه الكتاب من رسائل على نمط ما في ديوان الرسائل وإن كانت إخوانيات ، وما يصورونه من القصص والمقامات ، ثم ما يدونه العلماء في التأليف والتصنيف ، ومع ما للغة العلمية من فنية خاضعة للطابع العلمي وإن كانت مختلفة باختلاف العلوم والفنون ، جاءت بعيدة عن الصبغة الأدبية بخلاف الرسائل الإخوانية ، وكتابة القصص والمقامات فإنها ذات جانب أدبي رفيع ، جعلها نظيرة ما في ديوان الرسائل كما جاءت الكتابة العلمية نظيرة ما في غيره من سائر الدواوين ولما كان الأدب وحياته ينظران إلى الناحية الأدبية دون غيرها ، صارت الكتابة الانشائية في ديوان الرسائل والتوقيعات ، وخارجه في الرسائل الإخوانية والقصص والمقامات من أبحاثهما في الصميم ، دون كتابة الدواوين الأخرى لبعدها عن البعد كله ، أما الكتابة العلمية فإنها يدان بها الالمام اليسير لما هو معروف من صلتها بكثير من العلوم والفنون . وعلى هذا الذي يقتضيه الأدب وحياته سيقع منا الكلام مع عدم التوسع الكثير في التدوين والتصنيف . وبعده يكون الكلام بإفاضة في الشعر إن شاء الله .



## الكتابة الانشائية

### أولا - نماذجها

#### أ - في الرسائل والتوقيعات

١ - لما خرج محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية على المنصور كتب إليه المنصور .

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله ،  
أما بعد فإنا جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا  
أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا  
من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ، إلا  
الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم ، ولك  
عهد الله وذمته وميثاقه ، وحق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، إن تبنت من  
قبل أن أقدر عليك ، أن تؤمنك على نفسك وولدك وإخوانك ، ومن  
بايعك ومن تابعك وجميع شيعتك ، وأن أعطيك ألف ألف درهم  
وأزلك من البلاد حيث شئت واقضى لك ما شئت من الحاجات ، وأن  
أطلق من في سجن من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك ، ثم لا أتتبع  
أحدا منكم بمكروه ، فأنت شئت أن تتوثق لنفسك فوجه إلى من  
يأخذ لك من الميثاق والعهد والأمان ما أحببت والسلام .

٢ - فكتب إليه محمد بن عبد الله . بسم الله الرحمن الرحيم من  
عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين إلى عبد الله بن محمد أما بعد « طسم

تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم  
يؤمنون، إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة  
منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين، ونريد أن  
نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ونمكن  
لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون»  
وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي أعطيتني، وقد تعلم أن الحق  
حقنا وأنكم إنما طلبتموه بنا، ونهضتم فيه بشيعتنا وخبطتموه بفضلتنا،  
وأن أبانا عليا عليه السلام كان الوصي والأمام، فكيف ورثتموه دوننا  
ونحن أحياء؟ وقد علمت أنه ليس أحد من بني هاشم يمت بمثل فضلنا  
ولا يفخر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا وسببنا، وأنا بنو أم رسول الله صلى  
الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو في الجاهلية دونكم<sup>(١)</sup> وبنو ابنته فاطمة  
في الاسلام من بينكم، فأنا أوسط بني هاشم نسباً وخيرهم أم وأباً، لم تلدني  
العجيم ولم تعرق في أمهات الأولاد، وأن الله تبارك وتعالى لم يزل يختار  
لنا، فولدني من النبيين أفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم، ومن أصحابه  
أقدمهم إماماً وأوسعهم علماً وأكثرهم جهاداً على بن أبي طالب، ومن  
نساءه أفضلهن خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله وصلى القبلة، ومن  
بناته أفضلهن وسيدة نساء أهل الجنة، ومن المولودين في الاسلام الحسن

---

(١) ينتهي نسبها إلى كعب بن لؤي وكانت زوجاً لعبد المطلب بن هاشم  
فأولدها عبد الله أباً رسول الله وأباً طالب أبا العلويين واسمه عبد مناف  
ثم الزبير وعبد الكعبة

والحسين سيدا شباب أهل الجنة<sup>(١)</sup>، ثم قد علمت أن هاشما ولد عليا مرتين وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدني مرتين من قبل جدي الحسن والحسين<sup>(٢)</sup>، فما زال الله يختار لي حتى اختار لي في النار، فولدني أرفع الناس درجة في الجنة وأهون أهل النار عذابا؛ فأنا ابن خير الأخيار وابن خير الأشرار وابن خير أهل الجنة وابن خير أهل النار، ولك عهد الله إن دخلت في بيعتي أن آؤمناك على نفسك وولدك وكل ما أصبته إلا حدا من حدود الله أو حقا لمسلم أو معاهدا، فقد علمت ما يلزمك في ذلك، فأنا أوفى بالعهد منك وأحرى بقبول الأمان، فأما أمانك الذي عرضت علي، فأى الأمانات هو أمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله بن علي أم أمان أبي مسلم والسلام<sup>(٣)</sup>.

٣ - فكتب إليه المنصور - بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله

١ (أ) أبوه عبد الله بن حسن بن حسن بن علي، وأمه فاطمة بنت الحسين ابن علي، فهو يرجع إلى رسول الله من الجهتين.

٢ (ب) يرجع علي إلى هاشم من قبل أبيه أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ومن قبل أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، ويرجع الحسن إلى عبد المطلب من قبل أبيه علي بن أبي طالب ومن قبل أمه فاطمة بنت رسول الله، ويرجع محمد هذا إلى رسول الله من الجهتين كما تقدم.

(٣) هؤلاء الثلاثة آمنهم المنصور ثم غدر بهم، وابن هبيرة هذا هو يزيد ابن عمر بن هبيرة والى العراقيين مروان بن محمد

أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله ، أما بعد فقد أتاني كتابك وبلغني كلامك ، فإذا جل نفرك بالنساء لتفضل به الجفاة والقوغاء ، ولم يجعل الله النساء كالعنومة ، ولا الآباء كالعصبة والأولياء ، ولقد جعل العم أبا وبدأ به على الوالد الأدنى فقال جل ثناؤه . عن نبيه عليه السلام « واتبعت ملة آباءي إبراهيم وإسحاق ويعقوب » . ولقد علمت أن الله تبارك وتعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم وعمومته أربعة ، فأجابه اثنان أحدهما أبي وكفر اثنان أحدهما أبوك <sup>(١)</sup> فأما ما ذكرت من النساء وقرابتهن ، فلو أعطين على قرب الانساب وحق الانحساب ، لكدن الخير كله لآمنة بنت وهب ، ولكن الله يختار لدينه من يشاء من خلقه . فأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب ، فإن الله لم يهد أحدا من ولدها للإسلام ، ولو فعل ، لكان عبد الله بن عبد المطلب أولاهم بكل خير في الآخرة والأولى ، وأسعدهم بدخول الجنة غدا ، ولكن الله أبي ذلك فقال « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » فأما ما ذكرت من فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب وفاطمة أم الحسن وأن هاشما ولد عليا مرتين ، وأن عبد المطاب ولد الحسن مرتين ، فخير الأولين والآخرين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلد هاشم إلا مرة واحدة ولم يلد عبد المطلب إلا مرة واحدة ، وأما ما ذكرت من أنك ابن رسول الله ، فإن الله عز وجل أبي ذلك فقال « ما كان محمداً أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » ولكنكم بنو ابنته وانها

---

(١) المجيمان حمزة والعباس ، والكافران أبو لهب وأبو طالب ، والثاني أهون

لقرابة قريبة. غير أنها المرأة لا تحوز الميراث ولا يجوز أن تؤم، فكيف تورث الامامة من قبلها؟ وافد طلب بها أبوك بكل وجه فأخرجها تخاصم ومرضها سرا ودفنها ليلا، فأبى الناس إلا تقديم الشيخين، ولقد حضر أبوك وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمر بالضلالة غيره، ثم أخذ الناس رجلا رجلا فلم يأخذوا أباك فيهم، ثم كان من أصحاب الشورى فكل دفعه عنها وبايع عبدالرحمن عثمان وقبلها عثمان، وحارب أبوك طلحة والزبير، ودعا سعدا إلى بيعته فأغلق بابه دونه ثم بايع معاوية بعد، وأفضى أمر جدك إلى أبيك الحسن فسلمه إلى معاوية بخرق ودرهم وأسلم في يديه شيعة وخرج إلى المدينة، فدفع الأمر إلى غير أهله وأخذ مالا من غير حله فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه. فأما قولك ان الله اختار لك في الكفر فجعل أباك أهون أهل النار عذابا فليس في الشر خيار ولا من عذاب الله هين، ولا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يفخر بالنار، وسترد فتعلم وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. وأما قولك انك لم تلدك العجم ولم تعرق فيك أمهات الأولاد، وأنتك أوسط بني هاشم نسبا وخير أما وأبا فقد رأيتك نفرت على بني هاشم طرا وقد مت نفسك على من هو خير منك أولا وآخرا وأصلا وفصلا، نفرت على إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى والد ولده. فانظر ويحك أين تكون من الله غدا، وما ولد فيكم مولود بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم افضل من علي بن الحسين وهو لائم ولد ولقد كان خيرا من جدك حسن بن حسن، ثم ابنه محمد بن علي خير من أبيك وجدته أم ولد، ثم ابنه جعفر، وهو خير منك، ولقد علمت ان جدك عليا حكم حاكمين

وأعطاهما عهداً وميثاقه على الرضا بما حكما به فاجتمعوا على حله، ثم خرج  
عمر بن الخطاب بن علي، على ابن مرجانة<sup>(١)</sup>، فكان الناس الذين معه عاينوه  
حتى قتلوه ثم أتوا بهم على الأفتاب بغير أوطئة كالسبي المجلوب إلى  
الشام<sup>(٢)</sup>، ثم خرج منكم غير واحد فقتلهم بنو أمية وحرقوكم بالنار وصلبوكم  
على جذوع النخل حتى خرجنا عليهم فأدركنا بنأركم إذ لم تدركوهم،  
ورفعنا أقدراكم وأورثناكم أرضهم وديارهم بعد أن كانوا يلعنون أباك  
في أدبار الصلاة المكتوبة كما تلعن الكفرة، فعنفناهم وكفرناهم، وبيننا  
فضله وأشدنا بذكره فاتخذت ذلك علينا حجة، وظننت أنا لما ذكرنا  
من فضل عليّ أنا قدمناه على حمزة والعباس وجعفر، كل أولئك مضوا  
سالمين مسامحينهم وابتلى أبوك بالدماء، ولقد علمت أن ما نرنا في الجاهلية  
سقاية الحجيج الأعظم وولاية زمزم، وكانت للعباس دوزاخوته فنزعنا  
فيها أبوك إلى مصر ففقدنا لناعمر عليه، وتوفي رسول الله ﷺ وليس  
من مومته أحد حيا إلا العباس فكان وارثه دون بني عبد المطالب،  
وطالب الخلافة غير واحد من بني هاشم، فلم ينام إلا ولده، فاجتمع للعباس  
أنه أبو رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء، وبنوه القادة الخلفاء، فقد ذهب  
بفضل القديم والحديث: ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرها لمات  
صماك طالب وعقيل جوعا، أو يلحسا جفان عتبة وشيبة<sup>(٣)</sup> فأذهب

(١) هو عبيد الله بن زياد بن أبيه ومرجانة أمه (٢) الأفتاب جمع قتب

هو الرجل على قدر العناب، والأوطئة جمع وطاء وهو ما يقابل الغطاء.

(٣) يؤيد الكره قول رسول الله ﷺ يوم بدر « من لقي منكم العباس

فلا يقتله فإنه أخرج كارها » وطالب وعقيل ابنا أبي طالب أمرا يوم بدر،

عنهما العار والشنار ، ولقد جاء الاسلام والعباس بمون أبا دالماب للآزمة التي أصابتهم ، ثم فدى عقيلايوم بدر<sup>(١)</sup> فقد مناكم في الكفر وفديناكم من الأسر ، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء وحزننا شرف الآباء ، وأدركنا من ثأركم ما عجزتم عنه ، ووضعناكم بحيث لم تضعوا أنفسكم والسلام .

٤ - وكتب عبد الله بن المقفع « المتوفى سنة ١٤٣ » إمام الطريقة الكتابية في العصر العباسي الأول « طريقة الترسيل » في التعريف بكتاب كيلة ودمنة ، فكان مما كتب في أول باب عرض الكتاب :

هذا كتاب كيلة ودمنة وهو مما وضعه علماء الهند من الأمثال والأحاديث التي ألهموا أن يدخلوا فيها أبلغ ما وجدوا من القول في النحو الذي أرادوا ، ولم تزل العلماء من أهل كل ملة يلتمسون أن يعقل عنهم ، ويحتالون في ذلك بصنوف الحيل ، ويبتغون إخراج ما عندهم من العلل ، حتى كان من تلك العلل وضع هذا الكتاب على أفواء البهائم والطير فاجتمع لهم بذلك خلال ، أما هم فوجدوا متصرفا في القول وشعابا يأخذون منها ، وأما الكتاب فجمع حكمة وهوا . فاختره الحكماء لحكمته ، والسفهاء للهو ، والمتعلم من الأحداث ناشط في حفظ ما صار إليه من أمر يربط في صدره ولا يدري ما هو بل عرف أنه قد ظفر من ذلك بمكتوب مرقوم ، وكان كالرجل الذي لما استكمل الرجولية وجد أبويه قد كنزا له كنوزا وعقدا له عقودا استغنى بها عن الكدح فيما يعمل من أمر

---

فكانا من الأكليين على جفان العباس وكان يطعم يوم بدر ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة كانا من المطعمين لقريش يوم بدر أيضا .

(١) كما فدى نوفل بن الحارث أيضا ، أما طالب ففدى نفسه .

معيشتته فأغناه ما أشرف عليه من الحكمة عن الحاجة إلى غيرها من وجوه الأدب .

٥ - ومما كتب في الدرة اليتيمة وهي رسالة دونها للخليفة المنصور في وجوب طاعة الناس لبني هاشم وبسميها الجاحظ الهاشمية ، قوله على ما ذكر أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور المتوفى سنة ٢٨٠ في كتابه المنشور والمنظوم <sup>(١)</sup> .

فتفكروا فيما جمع الله لأمر المؤمنين في معدنه وفي سيرته ، وفيما ظاهر عليكم من النعمة والحق والحجة بذلك ، وفيما عسى لقائل أن يبتغي فيه الغمز والمقال ، فلعمرى إن للشيطان من أهواء الناس وألسنتهم في الأمر لنصيباً ، وإن له لمستراحاً حين يستوفيه من أمنيته ويصدق عليهم ظنه ويوحى إليهم بمكايده ، فجعل الله كيده ضعيفاً وحزبه مغلوباً ، وجعله وإياهم نصيباً لهم من أجزاء المقسومة لأبوابها وحطوبها ووقودها وحصبها ليعدل لها . فمن كان سائلاً عن حق أمير المؤمنين في معدنه ، فإن أعظم حقوق الناس منزلة ، وأكرمها نسبة ، وأولاها بالفضل ، حق رسول الله صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة وإمام الهدى ووارث الكتاب والنبوة والمؤمنين عليهم ما خاتم النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، بعثه الله

---

(١) الدرة اليتيمة مفقودة الآن ، ولم تعرف إلا بالتبنييه عنها أو النقل منها في بعض الكتب ، وأما الرسالة المطبوعة باسمها في بيروت فهي الأدب الكبير ، أخذ اسم الدرة اليتيمة خطأ ، لأن مشتملاتها لا تتفق وما تذكر تلك الكتب عن مشتملات الدرة بل تتفق مع مشتملات الأدب الكبير المنوه عنها في كثير من الكتب وهي السلطان ثم الصديق .



بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بأذنه وسراجاً منيراً، ثم هو باعته يوم القيامة مقاماً محموداً، شرع الله له دينه وأتم به نوره، ومحق به رءوس الضلالة وجبابرة الكفر، وخوله الشفاعة وجعله في الرفيق الأعلى ﷺ

٦ - ومما كتب في رسالة الصحابة وهي رسالة. دونها للخليفة المنصور أيضاً، لتكون دستوراً فيما يجب على كل ذي مصاحبة للسلطان في عمل نحو هذا العمل حتى يحسن القيام به، قوله من أولها :  
أما بعد، أصلى الله أمير المؤمنين، وأنتم عليه النعمة وألبسه المعافاة والرحمة، فإن أمير المؤمنين حفظه الله يجمع مع عامه، المسألة والاستماع، كما كان ولاية الشر يجمعون مع جهلهم العجب والاستغناء، ويستوثق لنفسه بالحجة، ويتخذها على رعيته فيما يلائم له من الفحص على أمورهم كما كان أولئك يكتفون بالدعة، ويرضون بدحوض الحجة وانقطاع العذر، في الامتناع أن يجترأ عليهم أحد برأي أو خبر مع تسليط الذئاب؛ وقد عصم الله أمير المؤمنين حين أهلك عدوه وشفى غليله، وممكن له في الأرض وآتاه ملكها وخزائنها، من أن يشغل نفسه بالتمتع والتفيش<sup>(١)</sup> والتأمل والأخلاء، وأن يرضى ممن آوى منهم بالمتاع به وقضاء حاجة النفس منه، وأكرم الله أمير المؤمنين باستهانة ذلك واستصغارها إياه، وذلك من أبين علامات السعادة وأبجح العوامل على الخير. وقد قص الله عز وجل علينا من نبأ يوسف بن يعقوب أنه لما تمت نعمة الله عليه وآتاه الملك وعامه من تأويل الأحاديث، وجمع له شمله وأقر عينه بأبويه وإخوته، أننى على الله عز وجل بنعمته، ثم سلاصما كان فيه، وعرف أن الموت وما بعده

---

(١) التفيش هو ادعاء المفاخر باطلا

هو أولى فقال «توفني مساماً وألحقني بالصالحين». وفي الذي قد عرفنا من طريقة أمير المؤمنين ما يشجع ذا الرأي على تناوله بالخبر فيما ظن أنه لم يبلغه إياه غيره، وبالتذكير بما قد انتهى إليه، ولا يزيد صاحب الرأي على أن يكون مخبراً أو مذكراً، وكل عند أمير المؤمنين مقبول إن شاء الله. ٨٠٧ - ومما كتب في الأدب الكبير وقد جعل باباً الأول في السلطان والثاني في الصديق، وهو الكتاب المطبوع باسم الدرة اليتيمة خطأ كما تقدم، قوله في أول الباب الأول بعد الديباجة.

إن ابتليت بالامارة فتعوذ بالعلماء، واعلم أن من العجب أن يبتلى الرجل بها، فيريد أن ينتقص من ساعات نصبه وعمله فيزيدها في ساعات دعوته وشهوته، وإنما الرأي له والحق عايمه أن يأخذ لعماله من جميع شغله، فيأخذ من طعامه وشرابه ونومه وحديثه وهواه ونسائه. فإذا تقلدت شيئاً من الأعمال، فكن فيه أحد رجلين، إما رجلاً مغتبطاً به محافظاً عليه مخافة أن يزول عنه، وإما رجلاً كارهها قال كاره عامل في سخرة إما المملوك إن كانوا هم سبطوه، وإما لله إن كان ليس فوقه غيره. وإياك إذا كنت والياً أن يكون من شأنك حب المدح والتزكية، وأن يعرف الناس ذلك منك فتكون ثمة من الثلم يتقحمون عليك منها، وبأبائيت تحونك منه وغيبة يغتابونك بها ويضحكون منها، واعلم أن قابل المدح كما دح نفسه، والمرء جدير أن يكون حبه المدح هو الذي يحمله على رده فإن الراد له محمود والقابل له معيب

ثم قوله في آخر الباب الثاني يصف صاحباً له:

إنى مخبرك عن صاحب كان أعظم الناس في عيني، وكان رأس

مأعظمه عندى صغر الدنيا فى عينه . كان خارجا من سلطان بطنه ، فلا يشتهى مالا يحد ولا يكثر إذا وجد ، وكان خارجا من سلطان فرجه ، فلا يدعوه إلى مثونة ولا يستخف له رأيا ولا بدنا ، وكان خارجا من سلطان الجهالة ، فلا يقدم إلا على ثقة أو منفعة ، وكان أكثر دهره صامتا فإذا قال بذ القائلين ، وكان يرى متضاعفا مستضعفا ، فإذا جاء الجدهو واليئ حاديا ، وكان لا يدخل فى دعوى ولا يشترك فى مرء ولا يدلى بمحبة حتى يجد قاضيا عدلا وشهودا عدولا ، وكان لا يلوم أحدا على ما قد يكون العذر فى مثله حتى يعلم ما اعتذاره ، وكان لا يشكو وجعا إلا إلى من يرجو عنده البرء ، ولا يصحب إلا من يرجو عنده النصيحة لهما جميعا ، وكان لا يتبرم ولا يتسخط ، ولا يتشهى ولا يتشكى ، ولا ينتقم من المولى ولا يغفل عن العدو ، ولا يخلص نفسه دون اخوانه بشيء من اهتمامه بحياته وقوته . فعليك بهذه الاخلاق إن أطقمت ولن تطيق ، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع .

٩- ومما كتب فى الأدب الصغير وهو آداب منشورة فى غير موضوع قوله عن صناعة الكتابة :

ومن أخذ كلاما حسنا عن غيره فتكلم به فى موضعه وعلى وجهه فلا ترين عليه فى ذلك ضئولة ، فانه من أعين على حفظ كلام المصبيين وهدى للاقتداء بالصالحين ، ووفق للاخذ عن الحكماء ولا عليه أن يزداد ، فقد بلغ الغاية وليس بناقصه فى رأيه ولا غامطه من حقه ألا يكون هو امستحدث ذلك وسبق اليه ، فانما إحياء العقل الذى يتم به ويستحكم ، خصال سبع . الايثار بالمحبة ، والمبالغة فى الطلب ، والتثبت فى الاختيار ،

والاعتقاد للخير، وحسن الوعى، والتعهد لما اختير واعتقد، ووضع ذلك موضعه قولاً وعملاً .

١٠ - وكتب إلى بعض إخوانه يستقضيه حاجة .

أما بعد فإن من قضى الحوائج لآخوانه ، واستوجب بذلك الشكر عليهم فلنفسه عمل لاهم ، والمعروف إذا وضع عند من لا يشكره فهو زرع لا بد لزارعه من حصاده أو لعقبه من بعده ، وكتبت إليك ولحالتنا التي نحن بها فيما نذكر لك حاجة: أول ما فيهم معروف تستوجب به الشكر علينا، وتدخر به الأيادي قبلنا.

١١ - وكتب إلى بعض أصدقائه وقد تفارقا يخبره ويستخيره .

كان من خبري بعدك أنى قدمت بلد كذا فتنبأ لى بعض ماشخصت له، والمحمود على ذلك الله عز وجل، وأنا إلى أن يأتينى خبرك محتاج، فأما جملة خبري في فراقك، فقلبي مكة كل ماسواك حرام فيها .

١٢ - وكتب إلى صديق ولدت له جارية .

بارك الله لىكم فى الابنة المستفادة وجعلها لكم زينة وأجرى لكم بها خيراً . فلا تكرهها فانهن الأمهات والأخوات والعلمات ومنهن الباقيات الصالحات ، ورب غلام ساء أهله بعد مسرتهم ، ورب جارية فرحت أهلها بعد مساءتهم

١٣ - وكتب يعزى صديقاً عن بنت له

جدد الله لك من هبته ما يكون خلفاك مما رزقته ، وعوضاً من المصيبة به ، ورزقك من الثواب عليها أضعاف ما رزأك منها فما أقل كثير الدنيا في قليل الآخرة مع فناء هذه ودوام تلك .

١٤ - وكتب يعزى من ولد .

إنما يستوجب على الله وعده من صبر لله بحقه فلا تجمعن إلى ما فجعت به من ولدك الفجيرة بالأجر عليه والعوض منه فأنها أعظم المصيبتين عليك وأنكى المرزئتين لك ، أخلف الله عليك بخبر وذخر لك جزيل الثواب .

١٥ - وكتب أحمد بن يوسف وزير المأمون يهنيء بمولود .

أما بعد فإنه ليس من أمر يجعل الله لك فيه سرورا إلا كنت به بهجا أعتد فيه بالنعمة من الله الذى أوجب على من حقتك وعرفنى من جميل رأيك ، فزادك الله خيرا وأدام إحسانه إليك . وقد بلغنى أن الله وهب لك غلاما سرى أجمل صورته وأتم خلقه وأحسن فيه البلاء عندك فاشتد سرورى بذلك وأكثرت حمد الله عليه فبارك الله فيه وجعله بارا تقيا يشتد عضدك ويكثر عددك ويقر عينك .

١٦ - وكتب عمرو بن مسعدة وزير المأمون عن لسانه إلى الحسن

ابن سهل يهنئه بمولود

أما بعد فإن هبة الله لك هبة لا مير المؤمنين ، وزيادته إليك فى عددك زيادة له فى عدده ، لحالك عنده ومكانك من دولته وقد بلغ أمير المؤمنين أن الله وهب لك غلاما سرى فبارك الله لك فيه وجعله بارا تقيا مباركا سيدا زكيا .

١٧ - وكتب طاهر بن الحسين عن المأمون إلى نصر بن شبيب

حين قويت شوكته وهزم جيوش الخلافة

أما بعد فإنك يا نصر بن شبيب قد عرفت الطاعة وعزها وبر دظلمها

وطيب مرتعها، وما في خلافتها من الندم والخسارة . وإن طالبت مدة الله بك، فانه إنما يعلى لمن يلتبس مظاهره الججة عليه لتقع غيره بأهلها على قدر إصرارهم واستحقاقهم . وقد رأيت إذ كارك وتبصيرك لما رجوت أن يكون لما أكتب به اليك موقع منك ، فان الصدق صدق والباطل باطل، وإنما القول بمخارجه وأهله الذين يعنون به . ولم يعاملك من عمال أمير المؤمنين أحد أنفع لك منى في مالك ودينك ونفسك، ولا أحرص على انقاذك والانتياش لك<sup>(١)</sup> من خطئك منى ، فبأى أول أو آخر أو سلطة أو امرأة إقدامك يا نصر على أمير المؤمنين، تأخذ أمواله وتتولى دونه ما ولاه الله، وتريد أن تبني آمنا مطمئنا أو وادعا ما كنا أو هادئا، فو عالم السر والجهر، لأن لم تكن للطاعة مراجعا وبها خانعا لتستوبلن وخم العاقبة<sup>(٢)</sup>؛ ثم لا بد أن بك قبل كل عمل؛ فان قرون الشيطان إذا لم تقطع كانت فتنة في الأرض وفسادا كبيرا، أما لا طاب من معى من أنصار الدولة كواهل رعاع أصحابك ومن تأشب اليك<sup>(٣)</sup> من أدانى البلدان وأقاصيها وأوباشها، ومن انضوى إلى حوزتك من خراب الناس، ومن لفظه بلده ونفته وعشيرته لسوء موضعه فيهم، وقد أعذر من أنذر والسلام .

١٨ - وكتب محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والوائق

عن لسان الخليفة إلى أحد العمال

أما بعد فقد انتهى إلى أمير المؤمنين كذا فأنكره ، ولا تخلو من إحدى منزلتين ليس في واحدة منهما عذر يوجب حجة ولا يزيل لائمة ،

(١) انتباهه أنقذه (٢) لتجدن العاقبة وبيلة وخيمة (٣) التف بك

إما تقصير في عملك دطاك للأخلال بالحزم والتفريط في الواجب ،  
وإما مظاهره لأهل الفساد ومداهنة لأهل الريب ، وأية هاتين كانت  
منك محلة الذكر بك وموجبة العقوبة عايك ؛ لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين  
من الأناة والنظرة والأخذ بالحجة ، والتقدم في الاعتذار والانداز ، وعلى  
حسب ما أقلت من عظيم العثرة يجب اجتهادك في تلافى التقصير  
والإضاعة والسلام .

١٩ - وكتب إلى إبراهيم بن العباس الصولي أيام مقامه بالأهواز  
في تقصيره بنفسه يقول :

قلة نظرك لنفسك حرمتك سناء المنزلة ، وإغفالك حظك حظك  
عن الدرجة ، وجهك بقدر النعمة أحل بك اليأس والنقمة ، حتى صرت  
من قوة الأمل معتاضا شدة الوجمل ، ومن رجاء الغد متعوضا يأس  
الأبد ، وركبت مطية الخافة بعد مجلس الامن والكرامة ، وصرت  
معرضا للرحمة بعد ما اكتنفتك الغبطة ، وقد قال الشاعر :

إذا ما بدأت امرأ جاهلا      ير فقصر عن حمله  
ولم تره قابلا للجميل      ولا عرف الفضل من أهله  
فسمه الهوان فان الهوان      دواء لذى الجهل من جهله

وقد فهمت كتابك وإغراقك وإطنا بك ، وإضافة ما أضفت بتزويق  
الكتب بالأقلام ، وفي كفاية الله غنى عنك يا إبراهيم وعوض منك وهو  
حسبنا ونعم الوكيل .

٢٠ - وكتب إبراهيم بن العباس الصولي الى ذى نعمة يتوصل :  
لا أزال « أبقاك الله » أسأل الكتاب اليك ، مرة أتوقف توقف

المخفف عنك من المثونة، ومرة أكتب بكتاب الراجع منك الى الثقة والمعتمد منك على المقييل ، لا أعدمنا الله دوام عزك ولا سلب الدنيا بهجتها بك ولا أخلانا من الصنع لك ، فانا لانعرف الانعمتك ولا نجد للحياة طعما إلا في ظلك ، ولئن كانت الرغبة الى بشر من الناس خماسة وذلا، لقد جعل الله الرغبة اليك كرامة وعزا لأنك لاتعرف حرا قعد به دهره إلا مسبقت مسأله بالعطية ، وصنت وجهه عن الطلب والذلة .

٢١ . وكتب أبو عثمان عمر والجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ إمام الطريقة الكتابية في العصر العباسي الثاني «طريقة الازدواج» من رسالة في مدح التجار وذم عمل السلطان، بعد أن ذكر احتجاج حشوة الأتباع يقول: وهذا الكلام لا يزال ينجم من حشوة أتباع السلطان<sup>(١)</sup> فأما عليهم ومصاصهم<sup>(٢)</sup> وذوو البصائر والتميز منهم، ومن فيقته الفطنة وأرهقه التأديب وأرهفه طول التفكير، ويجرى فيه الحياء، وأحكمته التجارب فعرف العواقب، وأحكم التفصيل وأنطق غوامض التحصيل، فأنهم يعترفون بفضيلة التجار ويتمنون حالهم ويحكمون لهم بسلامة الدين وطيب الطعمة، ويعلمون أنهم أروع الناس أبداً وأهنؤهم عيشاً وآمنهم سرباً، لأنهم في أفئدتهم كالمملوك على أسرته، يرغب اليهم أهل الحاجات وينزع اليهم ملتصقاً بالبياعات<sup>(٣)</sup>، لاتلحقهم الذلة في مكاسيهم، ولا يستعبد لهم الضرع لمعاملتهم، وليس هكذا من لابس السلطان بنفسه وقاربه بخدمته، فإن أولئك لباصهم الذلة، وشعارهم الملق، وقلوبهم بمن هم لهم خول

(١) توابع البطانة (٢) مضاص كل شيء خالصه (٣) الملع



مملوءة قد لبسها الرعب وألفها الذل ، وصحبها ترقب الاحتياج فهم من هذا في تكدير وتنغيص خوفا من سطوة الرئيس وتنكيل الصاحب وتغيير الدول واعتراض حلول المحن فان هي حلت بهم وكثيرا ماتحل فناهيك بهم مرحومين يرق لهم الاعداء فضلا عن الأولياء ، فكيف لا يميز بين من هذا ثمرة اختياره وغاية تحصيله وبين من قد نال الوفاء عنه والدعة وسلم من البوائق مع كثرة الاثراء وقضاء اللذات من غير منة لاحد ولا منة يعتديها ، وكم بين من هو من نعم المفضلين خلى وبين من قد استرقه المعروف واستعبده الطمع ولزمه ثقل الصنيعة وطوق عنقه الامتتان واسترهن بتحمل الشكر .

٢٢ - ومن كلامه يصف الكتاب

الكتاب - نعم الذخر والعقدة ونعم الجليس والعمدة ونعم النشرة والنزهة ونعم المشتغل والحرفة ونعم الانيس ساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلاد الغربه ونعم القرين والدخيل والزميل ونعم الوزير والنزيل . والكتاب وعاء مليء علماء وظرف حشى ظرفاؤه شجن مزاجا ، إن شئت كان أعيان من باقل وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل وإن شئت مررتك نواذره وشجتك مواعظه . ومن لك بواءظ مله وبناسك فانتك وناطق آخرس : ومن لك بطبيب أعرابي ورومي هندي وفارسي يوناني ونديم مولد ونجيب ممتع ومن لك بشيء يجمع الأول والآخر والناقص والوافر والشاهد والغائب والرفيع والوضيع والبغث والسمين والشكل وخلافه والجناس وضده . وبعد فمأرايت بستانا يحمل في ردن وروضة تنقل في حجر وناطقا ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء ، ومن لك

بمؤنس لاينام الابنومك ولا ينطق إلا بنا تهوى ، آمن من فى الأرض  
وأكتم للسّر من صاحب السّر، وأحفظ للوديعه من أرباب الوديعه .  
ولا أعلم جاراً آمن، ولا خليطاً أنصف ، ولا رفيقاً أطوع ، ولا معلماً  
أخضع، ولا صاحباً أظهر كفاية وعناية، ولا أقل إملالاً ولا إبراماً، ولا أبعد  
من مرأى ولا أترك لشغب، ولا أزهد فى جدال ولا أكف عن قتال  
من كتاب ، ولا أعم بياناً ولا أحسن مواناة، ولا أعجل مكافأة، ولا شجرة  
أطول عمراً ولا أطيب ثمراً، ولا أقرب مجتنى ولا أسرع إدراكاً، ولا أوجد  
فى كل إبان من كتاب ، ولا أعلم تتاجافى حداثة سنه وقرب ميلاده ورخص  
ثمنه وامكان وجوده ، يجمع من السير العجيبة والعلوم الغريبة وآثار  
العقول الصحيحة ومحمود الأذهان اللطيفة، ومن الحكم الرفيعة والمذاهب  
القديمة والتجارب الحكيمه والأخبار عن القرون الماضيه والبلاد النازحه  
والامثال السائرة والأهم البائدة ما يجمعه كتاب . ومن لك بزائر إن  
شئت كانت زيارته غبا، وورد، خمسا، وإن شئت لزمك لزوم ظلك وكان  
منك كبعضك . والكتاب هو الجليس الذى لا يطريك والصديق الذى  
لا يقلبك، والرفيق الذى لا يملك والمستمتع الذى لا يستزيدك والجار  
الذى لا يستبطنك والصاحب الذى لا يريد استخراج ما عندك بالمق  
ولا يعاملك بالمكر ولا يخدعك بالنفاق ، والكتاب هو الذى إن نظرت  
فيه أطل إمتاعك وشحذ طباعك وبسط لسانك وجود بيانك ونغم  
ألفاظك وبحب نفسك وعمر صدرك ومنحك تعظيم العوام وصداقة  
الملوك ، يطيعك بالليل طاعته بالنهار وفى السفر طاعته فى الحضر، وهو  
المعلم إن افتقرت اليه لم يحقرك، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة،

وإن عزات لم يدع طاعتك وإن هبت ريح أعدائك لم ينقلب عليك ومتى كنت متعلقاً منه بأدنى حبل لم تضطرب معه وحشة الوحدة إلى جليس السوء، وإن أمثل ما يقطع به الفراغ نهارهم وأصحاب الكفايات ساعات ليملهم نظر في كتاب لا يزال لهم فيه ازدياد في تجربة، وعقل ومروءة وصون عرض وإصلاح دين وتمير مال ورب صنيعة<sup>(١)</sup> وابتداء إنعام، ولو لم يكن من فضله عليك وإحسانه إليك إلا منعه لك من الجلوس على بابك والنظر إلى المارة بك<sup>(٢)</sup> مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم، ومن فضول النظر وملابسة صغار الناس، ومن حضور ألقاظهم الساقطة ومعانيهم الفاسدة وأخلاقهم الرديئة وجهالتهم المذهومة لكان في ذلك السلامة والغنيمة، وإحراز الأصل مع استفادة الفرع، ولو لم يكن في ذلك إلا أنه يشغلك عن مسخف المني واعتياد الراحة وعن اللعب وكل ما تشتهيه، لقد كان له في ذلك على صاحبه أسبغ النعم وأعظم المنن، وجلة الكتاب وإن كثرت ورقه فليس مما يمل لأنه وإن كان كتاباً واحداً فإنه كتب كثيرة في خطابه والعلم بالشرعية والأحكام والمعرفة بالسياسة والتدبير.

٢٣ - ومن كلامه في محاسن الضحك ومنافعه وقد ساقه إليه الاستطراد في مقدمة كتابه البخلاء.

وإذا كان البكاء مادام صاحبه فيه فإنه في بلاء، وربما أعمى البصر وأفسد الدماغ، ودل على السخف وقضى على صاحبه بالهلع، وشبه بالآفة

---

(١) رب الصنيعة تربيتها. (٢) المارة جماعة المارين

اللكمء<sup>(١)</sup> وبالحدث الضرع<sup>(٢)</sup> كذلك ؛ فذاظنك بالضحك الذى لا يزال صاحبه فى غاية السرور إلى أن ينقطع عنه سببه ؛ ولو كان الضحك قبيحا من الضاحك وقبيحا من المضحك لما قيل للزهرة والحبرة والحلى والقصر كأنه يضحك ضحكا ، وقد قال الله جل ذكره « وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا » فوضع الضحك بمجاء الحياة ووضع البكاء بمجاء الموت ، وإنه لا يضيف إلى نفسه القبيح ولا يمن على خلقه بالنقص ، وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيما ومن مصلحة الطباع كيرا وهو شيء فى أصل الطباع وفى أساس التركيب ؛ لأن الضحك أول خير يظهر من الصبي وقد تطيب به نفسه وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه الذى هو علة سروره ومادة قوته ، ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمى أولادها بالضحاك وببسام وبطاق وبطليق . وقد ضحك النبي صلى الله عليه وسلم وفرح وضحك الصالحون وفرحوا ، وإذا مدحوا قالوا هو ضحكوك السن وبسام العشيات وهش إلى الضيف وذو أريحية واهتزاز ، وإذا ذموا قالوا هو عبوس وهو كالح وهو قطوب وهو مشتيم الحيا<sup>(٣)</sup> وهو مكفهر أبدا وهو كرية الوجه ومقبض الوجه وحامض الوجه وكأنما وجهه بالخل منضوح . وللضحك موضع وله مقدار والمزح موضع وله مقدار ، متى جازها أحد أو قصر عنهما أحد ، صار الفاضل خطأ والتقصير نقصا ، فالناس لم يعيبوا الضحك إلا بقدر ، ولم يعيبوا المزح إلا بقدر ، ومتى أريد بالمزح النفع وبالضحك الشيء الذى جعل له الضحك ، صار المزح جدا والضحك وقارا .

---

(١) اللثيمة الجمعاء (٢) المستكين (٣) كرية الوجه .

٢٤ - وكتب إلى الفتح بن خاقان في يوم عيد مهنثا:  
أخترتني العلة عن الوزير «أعزه الله»، فحضرت بالدعاء في كتابي لينور  
عني ويعمر ما أخلته العوائق مني ، وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا العهد  
أعظم الأعياد السالفة بركة على الوزير ، ودون الأعياد المستقبلية فيما يجب  
ويجب له، ويقبل ما توسل به إلى مرضاته، ويضاعف الاحسان اليه على  
الاحسان منه ، ويمتعه بصحبة النعمة ولباس العافية ، ولا يره في مسرة  
نقصا ولا يقطع عنه مزيدا ، ويجعلني من كل سوء فداءه، ويصرف عيون  
الغير عنه وعن حظي منه .

٢٥ - وكتب إلى قليب المغربي معاتبا:  
والله يا قليب لولا أن كبدي في هواك مقروحة ، وروحي بك  
مجروحة ، لسا جللتك هذه القطيعة وما ددتك جبل المصارمة، وأرجو الله  
تعالى أن يديل صبري من جفائك، فيردك إلى مودتي وأنف القلي راغم،  
فقد طال العهد بالاجتماع حتى كدنا نننا كر عند اللقاء.

٢٦ - وكتب مستنجزا عدة طال مطالها  
أما بعد فقد رسمنا في قيود مواعيدك ، وطال مقامنا في سجون  
مطلق ، فأطلقنا أبقاك الله من ضيقها وشديد غمها ، بنعم منك مثمرة  
أو لا مريحه .

٢٧ - وكتب الحسن بن وهب المتوفى سنة ٢٦٥ في الشكر :  
من شكرك على درجة رفعته اليها أو ثروة أفدته إليها ، فان شكري  
لك على مهجة أحبيتها وحشاشة أبقيتها ورمق أمسكت به وقت بين  
التلف وبينه ، فلكل نعمة من نعم الدنيا حد تنتهي اليه ، ومدى يوقف

عنده، وغاية من الشكر يسمو اليها الطرف ، خلا هذه النعمة التي قد فافت الوصف وأطالت الشكر وتجاوزت قدره وأنت من وراء كل غاية ، رددت عنا كيد العدو وأرغمت أنف الحسود ، فنحن نلجأ منك إلى ظل ظليل وكنف كريم ، فكيف يشكر الشاكر ، وأين يبالغ جهم المجتهد .  
٢٨ - وكتب أبو الحسن علي بن العباس الرومي المتوفى سنة ٢٨٢ مستعظفا ترفع عن ظلمي إن كنت بريئا ، وتفضل بالعفو إن كنت مسيئا ، ووالله إنى لأطاب عفو ذنب لم أجته ، وألتمس لإقالة بما لا أعرفه ، تزداد تطولا وأزداد تذلا ، وأنا أعيد حالى عندك بكرمك من واش يكيدها وأحرسها بوفائك من باغ يحاول إفسادها ، وأسأل الله تعالى أن يجعل حظى منك بقدر ودى لك ، ويحلى من رجائك بحيت أستحق منك .

٢٩ - وكتب عبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ إلى عايل يرجو شفاءه :  
أذن الله فى شفائك ، وتلقى داءك بدوائك ، ومسح بيد العافية عليك ووجه وفد السلامة إليك ، وجعل علتك ماحية لذنوبك مضاعفة لتوابعك .  
٣٠ - وله يذكر كيف يكون اكتساب المحامد واستيجاب الشرف :  
لن تكسب « أعزك الله » المحامد وتستوجب الشرف إلا بالجل على النفس والحال ، والنهوض بحمل الأثقال ، وبذل الجاه والمال . ولو كانت المكارم تنال بغير مثونة لا شراك فيها السفلى والأحرار ، وتساهمها الوضعاء من ذوى الأخطار ، ولكن الله تعالى خص بها الكرماء الذين جعلهم أهلها خفف عليهم حملها وسوغهم فضلها ، وحظرها على السفلة لصغر أقدارهم عنها وبعد طباعهم منها ونفورها عنهم واقشعرارها منهم .

٣١ - وكتب أبو الفضل محمد بن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ إمام الطريقة

الكتابية في العصر العباسي الثالث «السبع» إلى عضد الدولة في انقراض العلوم بتملك الجبهة الظالمين ونماؤها بتملك العلماء العادلين ، رسالة كان من فصولها قوله

وقد يعد أهل التحصيل في أسباب انقراض العلوم وانقباض مددها وانتقاض مررها <sup>(١)</sup> والأحوال الداعية إلى ارتفاع جل الموجود منها وعدم الزيادة فيها ؛ الطوفان بالنار والماء ، والموتان العارض من عموم الأوباء ، وتسليط المخالفين في المذاهب والآراء ، فإن كل ذلك يخترم العلوم اختراما وينتهكها انتهاكا ويبحث أصولها اجتثاثا ، وليس عندى الخطب في جميع ذلك يقارب ما يولده لسلط ملك جاهل تطول مدته وتوسع قدرته ، فإن البلاء به لا يعد له بلاء . وبحسب عظم المحنة بمن هذه صفته ، والبلوى بمن هذه صورته ، تعظم النعمة في تملك سلطان عالم عادل كالأمير الجليل الذي أحله الله من الفضائل بملتقى طرفها ومجتمع فرقها ، وهي نور <sup>(٢)</sup> نوافر ممن لاقت حتى تصير إليه . وشرذ نوازع حيث حات حتى تقع عليه ، تلتفت إليه تلتفت الوامق ، وتتشوف نحو تشوف الصب العاشق ، وقد ملكتها وحشة المضاع وحيرة المرتاع .

فان تغش قوما بعده أو تزرهم فكالوحش يدنيها من الأنس المحل ٣٢ — وكتب عن ركن الدولة إلى بلكا بن ونداد خورشيد ، عند استعصائه عليه ، رسالة قامت في رد غوايته مقام الكتاب يقول فيها على ما ذكر الثعالبي في اليتيمه :

كتابي وأنا مترجح بين طمع فيك ويأس منك وإقبال عليك

(١) جم مرة وهي قوة الجبل وانتقاضها فكها (٢) جمع نوار وهي البقرة الوحشية

وإعراض عنك، فأنك تدلى بسابق حرمة، وتمت بسالف خدمة، أيسرهما  
يوجب رعاية، ويقتضى محافظة وعناية، ثم تشفعها بحادث غلول<sup>(١)</sup>  
وخيانة، وتتبعهما بأنف خلاف ومعصية، وأدنى ذلك يحبط أعمالك  
ويحق كل مايرعى لك، لاجرم أنى وقفت بين ميل إليك وميل عاك،  
أقدم رجلا لصندمك وأؤخر أخرى عن قصدك، وأبسطيدا لاصطلامك  
واجتياحك، وأثنى ثانية لاستبقائك واستصلاحك، وأتوقف عن امتثال  
بعض الأمور فيك ضنابا بالنعمة عندك، ومنافسة فى الصنعة لديك وتأميلا  
لفيئتك وانصرافك، ورجاء لمراجعتك وانعطافك. فقد يغرب العقل ثم  
يثوب، ويعزب اللب ثم يثوب وينذهب الحزم ثم يعود ويفسد العزم ثم  
يصلح، ويضاع الرأى ثم يستدرك، ويسكر المرء ثم يصحو، ويكدر الماء  
ثم يصفو، وكل ضيقة إلى رخاء وكل غمرة فالى انجلاء. وكما أتيت من  
إساءتك بآلم يحتسبه أولياؤك، فلا بدع أن تأتى من إحسانك بمالاتر يقبه  
أعداؤك، وكما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ما ركبت واخترت  
ما اخترت، فلا عجب أن تتنبه اتياهة تبصر، فيها قبح ما صنعت وسوء  
ما آثرت، وسأقيم على رسمى فى الإبطاء والمأطاة ما صاح وعلى الاستيناء<sup>(٢)</sup>  
والمظالوة ما أمكن، طمعا فى إنابتك وتحكما لحسن الظن فيك، فلمست  
أعدم فيما أظاھرہ من إعدار وأرادفه من إنذار، احتجاجا عليك  
واسمدراجا لك، فان يشأ الله يرشدك ويأخذ بك إلى حظك ويسددك،  
فانه على كل شىء قدير وبالإجابة جدير  
وزعمت أنك فى طرف من الطاعة بعد أن كنت متوسطا، وإذا



كنت كذلك فقد عرفت حالها وحلبت شطريها ، فشدت لك الله الماصدقت  
 عما سألتك . كيف وجدت ما نزلت عنه؟ وكيف تجد ما صرت إليه ؟  
 ألم تكن من الأول ، في ظل ظليل ونسيم عليل وريح بليل وهواء ندى  
 وماء روى ومهاد وطى وكن كنين ومكان مكين وحصن حصين ، يقيمك  
 المتالف ويؤمنك المخاوف ، ويكنفك من نوائب الزمان ، ويحفظك من  
 طوارق الحدثن ، عززت به بعد الذلة وكثرت بعد القلة وارتفعت بعد  
 الضعة وأيسرت بعد العسرة وأثريت بعد المتربة واتسعت بعد الضيقة ،  
 وظفرت بالولايات وخفقت فوقك الرايات ووطىء عقبك الرجال وتعلقت  
 بك الآمال وصرت تكاثر ويكثر بك وتشير ويشار إليك وبذكر على  
 المنابر اسمك وفي المحاضر ذكرك ، ففيم الآن أنت من الأمر وما العوض  
 عما عدوت والخلف مما وصفت ، وما استفدت حين أخرجت من الطاعة  
 نفسك ونفست منها كفك وغمست في خلافتها يدك ؟ وما الذى أظلك  
 بعد انحسار ظلمها عنك ؟ أظل ذو ثلاث شعب لا ظليل ولا يغنى من  
 الذهب ؟ قل نعم كذلك فهو والله أكتف ظلالك فى العاجلة وأروحها فى  
 الآجلة إن أقمت على المحايدة والعنود ووقفت على المشاقة والجحود .  
 تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابي إليك فستذكرها ، والمس  
 جسدي وانظر هل يحس ، واجسس عرقك هل ينبض ، وفش ما انحنت  
 عليه أضلاعك هل تجد فيه قلبك ؟ وهل حلا بصدرك أن تظفر بفوت  
 سريح أو موت مريح ثم قس غائب أمرك بشاهده وآخر شأنك بأوله .

٣٣ - وكتب الى أبي عبد الله الطهرى فى الشوق

كتابي إليك وأنا بحال لو لم ينغصمها الشوق إليك ولم يرنق صفوها

النزوع نحوك ، لعدتها من الأحوال الجميلة؛ وأعددت حظي منها في  
 النعم الجميلة . فقد جمعت فيها بين سلامة طامة ونعمة تامة ، وحظيت منها  
 في جسمي بضالاح وفي سعيي بنجاح . لكن ما بقي أن يصفو لي عيش مع  
 بعدى عنك ، ويخلو ذرعى مع خلوى منك ، ويسوغ لي مطعم ومشرب  
 مع انفرادى دونك ، وكيف أطمع في ذلك وأنت جزء من نفسى وناظم  
 لشمل أنسى وقد حرمت رؤيتك وهدمت مشاهدتك ، وهل تسكن  
 نفس متشعبة ذات انقسام ، وينفع أنس بيت بلا نظام . وقد قرأت  
 كتابك جعلني الله فداءك فامتلات سرورا بملاحظة خطك ، وتأمل  
 تصرفك في لفظك . وما أقرظهما فكل خصالان مقرظ عندى وما أمدحهما  
 فكل أمرك ممدوح في ضميرى وعقدى ، وأرجو أن تكون حقيقة  
 أمرك موافقة لتقديرى فيك فان كان كذلك وإلا فقد « غطى هواك  
 وبألقى على بصرى »

٣٥ - وكتب إليه أبو القاسم اسماعيل بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥  
 الملقب بالصاحب لطول ماصاحبه ، جوابا عن كتابه إليه في وصف  
 البحر يقول .

وصل كتاب الأستاذ الرئيس صادرا عن شط البحر بوصف  
 مشاهد من عجائبه وطين من مراكيبه ، ورأى من طاعة آلاته للرياح  
 كيف أدارتها واستجابة أدواتها لها متى نادتها . وركوب الناس أشباحها  
 والخوف برأى ومسمع والمنون بمرقب ومطلع ، والدهر بين أخذ وترك  
 والأرواح بين نجاة وهلك ، إذا فكروا في المكاسب الخطيرة هان عليهم  
 الخطر وإذا لاحت لهم غبر المطالب الكثيرة حجب إليهم الغرر ، وعرفت

ما قاله من تمنيه كوني عند ذلك بحضرة وحصولي على مساعدته ، ومن رأى بحر الاستاذ كيف يزخر بالفضل وتلاطم فيه أمواج الأدب والعلم لم يعتب على الدهر فيما يفите من منظر البحر ، ولا فضيلة له عند أعظم من إكبار الاستاذ لأحواله واستعظامه لأهواله ، كما لاشيء أبلغ في مناخره وأنفس في جواهره من وصف الاستاذ له ، فاني قرأت منه الماء السلسال لا الزلال<sup>(١)</sup> والسحر الحرام لا الحلال ، وقد علمت أنه كتب ولما يخطر بفكر سعة صدره ، ولو فعل ذلك لرأى البحر وشلا لا يفضل عن التبرض وثمد الايكثر عن الترشف<sup>(٢)</sup>

وكم من جبال جبت تشهد أنك الجبال وبحر شاهد أنك البحر ٣٥ - وكتب الى صديق أهدي إليه مصحفا فأجاد . نعت القرآن والخط .

البر «أدام الله الشيخ» أنواع تطول به أبواع ، فان يكن فيهما هو أكرم منصبا وأشرف منسبا ، فتجفة الشيخ ، إذ أهدي ما لا يشا كله النعم ولا تعادله القبح ، كتاب الله وبيانه وكلامه وفرقانه ووحيه وتنزيله وهداه وسبيله ومعجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودليله طبع دون معارضته على الشفاء وختم على الخواطر والافواه فقصر عنه الثقلان وبقي ما بقي الملوان . لا تحس سراجيه واضمح منهاجه منير دليله عميق تأويله

(١) الزلال الصافي السهل الاسافة ، والسلسال الصافي الذي لا ينقطع فهو يريد أنه قرأ السلسال لا الزلال وحده (٢) الوشل الماء القليل ، ولا يفضل عن التبرض لا يزيد عن أن ينقطع بعد قليل أخذ ، والحمد الماء القليل غير المتصل ، ولا يكثر عن الترشف لا يزيد عن أن يتناول بالافواه .

يقصم كل شيطان مريد، ويذل كل جبار عنيد، وفضائل القرآن لا تحصى  
 في ألف قرآن . فأصف الخط الذي بهر الطرف وفاق الوصف ، وجمع  
 صحة الاقسام وزاد في نخوة الاقلام،<sup>(١)</sup> بل أصفه بترك الوصف، فأخباره  
 آثاره وعينه قراره<sup>(٢)</sup> وحقاً أقول إنى لا أحسب أحداً ما خلا الملوك جمع  
 من المصاحف ما جمعت، وابتدع في استكتابها ما ابتدعت ، وإن هذا  
 المصحف لزائد على جميعها زيادة الفرعة على الغرة<sup>(٣)</sup> ، بل زيادة الحج  
 على العمره

لقد أهديته علقاً نفيساً وما يهدي النفيس سوى النفيس

٣١ - وكتب إبراهيم بن هلال بن هرون الصابي المتوفى سنة ٣٨٤

إلى صاحب يعتذر له عن تأخر كتبه عنه، ويثني عليه فقال :

أنا أعتذر إلى سيدي «أطال الله بقاءه» من تأخر كتبي عن حضرته  
 الجليلة ، بعذر إذا تأمله حق تأمله، وعرضه على نقده وتمييزه، وعرف صدق  
 منطقته وخلوص مصدره ، علم أننى مواصل بباطن مرادى وإن صرمت  
 بظاهر فعلى ، وملازم بخافى مقصدي وإن أخللت ببادى مسلكي، وهو  
 أنى جربت مكاتبته «أيده الله» مواظباً عليها مكيباً، ومر اخيا بين أوقاتها  
 مغنياً، لا تبع أحب الامرين اليه وأوقعهما لديه . فلما لاح لي أن الاجام  
 أنفق والترفيه أرفق ، ووثقت بأن رأيه على في الحالين محروس النواحي  
 والجوانب محمى الشرائع والمشارب ، اقتصرت على أن أتعرف أخباره  
 وأسر باستقامتها وانتظامها ، وأنسى أحواله وأسكن إلى اطرادها

(١) في غرها (٢) أي ومعاونته قرار له بما أقول (٣) يريد زيادة الذؤابة

والتأملها واتبع بما يصير اليه «أيده الله» من ذروة مرتبة يعتليها وغارب  
مرقبة يمتطيها ، وأنا أول المتحدثين عنهما والسامعين بهما على أنه  
لم يستوف بعد حظه ، ولم يستوعب قسطه فإن للدينامو اعيد فيه لا بد  
أن ينتجزها بمساعيه .

٣٧- ومن كتاب له عن عضد الدولة الى أخيه مؤيد الدولة إذ  
قبض على ذى الكفايتين على بن محمد بن العميد وكان أبوه صدر وزراء  
أبيهما ركن الدولة يستشفع له :

وهذا غلام أفسدت له سجيته ركن الدولة الشريفة في شدة الاحتمال  
والصبر على الأدال ، واجتمع له الى ذلك ، التقلب في نعمة حازها حياز  
وارث لها ، لم يكدر في تأثيلها ولا مسه النصيب في تثيرها ولا اهتدى  
إلى طريق استيفائها ولا تحزن من طرق دواعي انتقالها ، ومن ألزم  
اللوازم في حكم الرأية ، أن نحفظه من سكر نعمة نحن سقيناه بكأسها  
وأن نعوذره عن هفوة قد شاركناه في إيجاد أسبابها ، وأن تكون نفسه  
محروسة ، والبقية من ماله بعد أخذ فضلها المفسد له متروكة وأن يتحدث  
الناس بأن سيدى الأمير أصاب غرض الحزم في القبض عليه ثم طبق  
مفصل الكرم في التجاوز عنه.

٣٨- وكتب رسالة عن لسان صديق له بعث بها مع رسول إلى  
عظيم يخطب اليه كريمة جاء فيها:

ولو لم يكن للخاطب إلى المخطوب سبب غير ابتدائه إياه بالثقة  
والتماس المشابكة ورضاه به شريكا مفوضا في الولد والاحمة والمال والنعمة ،  
لكفاه وأجزاه وأغنائه عن كل ما سواه ، حتى إنه لو خطب الى زاهد

لوجب عليه أن يرغب أو الى معتاص<sup>(١)</sup> للزمه أن ينقاد ، لأن هذا المطلب إذا صدر عن الأحرار إلى الأحرار استهجن عنه الرد والمقابلة له بضد فكيف وقد انتظمت بيننا دواعي الأجابة وارتفعت دواعي المدافعة؟ وبالله جهد المقسم، إن والديّ «أيدها الله» تعالى يسوماني التأهل منذ - نين كثيرة ، فأحمل نفسي على التقاعس عما آتراه مع ما افترض على من طاعتها. اشتطاطا مني في شرائط أحببت أن تجتمع لي في الخبيثة<sup>(٢)</sup> التي أوصلها، وقبلما تتكامل إلا فيمن طهر الله أصله وجعل أمره وأظهر فضله . وقد دعاني بالدعاء الى ذلك كثير من الرؤساء الأ' كابر وذوى الأخطار الأفاضل ، بفارس والبصرة وبغداد ، فامتنعت من أجل شذوذ بعض شرائط عليهم . حتى إذا أوجدنيها الله في جهتك الجليلة وجمعها إلى في منازل المصونة ، بعثتني البواعث وحفزتني الحوافز إلى أن يتألف بيننا الشمل ويتصل بنا الحبل فكتبت اليك هذه الرقعة خاطبا كريمتك فلانة ، علي أن أكون لها كالجنف الواقى لمقلته والصدر الحاوى لمهجته ، ولك كالولد المطيع لأبيه ، ولأخيها كالأخ العاصد لأخيه ، فان رأيت يامسدي أن تتأمل ما كتبت به من هذه الجملة ونسمع من موصلها ما تحمله عني من تفصيلها وتوخي بأجابتي إلى ما سألت تحقيق ظني وتصديق أملي ، فعلت إن شاء الله

٣٩ - وكتب أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣ بعد إبلاله<sup>(٣)</sup> من مرض ، يعاتب صديقا لم يعده في مرضه ولم يهنئه بشفاؤه كتابي وقد خرجت من البلاء خروج السيف من الجلاء وبرز

---

(١) حاص ممتنع (٢) الخبوة (٣) شفاؤه

البدر من الظالماء ، وقد فارقتني المحنة وهى مفارق لا يشتاقي اليه وودعتني وهى مودع لا يبكي عليه ، والحمد لله تعالى على محنة بجليها ونعمة ينيها ويوليها . كنت أتوقع أمس كتاب سيدي بالتسليية واليوم بالتهنئة . فلم يكتبني في أيام البرحاء بأنها غمته ولا في أيام الرخاء بأنها سرته ، وقد اعتذرت عنه إلى نفسى وجادلت عنه قلبى ، فقامت : أما إخلاله بالأولى فلا أنه شغله الاهتمام بها عن الكلام فيها ، وأما تغافله عن الأخرى فلا أنه أحب أن يوفر على مرتبة السابق إلى الابتداء ويقتصر بنفسه على محل الاقتداء ، لتكون نعم الله تعالى موقوفة من كل جهة عليه ومحفوظة من كل بيثة به ، فإن كنت أحسنت الاعتذار عن سيدي فليعرف لى حق الاحسان وليكتب إلى بالاستحسان ، وإن كنت أسأت فايخبرنى بعذره فانه أعرف منى بسرره وليرض منى بأنى حاربت عنه قلبى واعتذرت عن ذنبه حتى كأنه ذنبى ، وقلت يأنفس اعذرى أخاك وخذى منه ما أعطاك ، ففع اليوم غد والعود أحمد

٤٠ - وكتب إلى تلهيذ له قطع زيارته بعد أن أتم تخريجها :

إن كنت « أعزك الله » لاترانا موضعاً للزيارة فنحن فى موضع الاستزارة ؛ وإن كنت تعتقد أنك قد استوفيت ما كان لدينا فسقط حقنا عنك وبقي حقك علينا ، فقد يزور الصحيح الطبيب بعد خروجه من دائه واستغنائه عن دوائه ، وقد تمتاز الرعية على باب الأمير المعزول فتتجمل له ولا تعيره عزله ، ولو لم تزرنا إلا لترينار جحانك كما طالمارأينا نقصانك ، لكان ذلك فعلاً صائباً وفى القياس واجباً .

٤١ - وكتب بديع الزمان أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمداني

المتوفى سنة ٣٩٨ هـ إمام القصص « مع اجادة الرسائل » في العصر الثالث إلى صديق هنأه بمرض الخوارزمي الذي عاداه بعد مناظرته إياه يقول:-  
 الحر «أطال الله بقاءه» ولا سيما إذا عرف الدهر معرفتي ووصف أحواله صفتي ، إذا نظر علم أن نعم الدهر مادامت معدومة فهي أماني فأن وجدت فهي عواري ، وأن محن الزمان وإن طالست فستنفد وإن لم تصب فكان قد ، فكيف يشمت بالحنة من لا يأمنها في نفسه ولا يعدمها في جنسه ، والشامت إن أفلت فليس يفوت وإن لم يمت فسوف يموت ، وما أقبح الشجاعة بمن أمن الامانة فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة وعقب كل لفظة ، والدهر غرثان طعمه الأختيار وظمان شربه الأحرار<sup>(١)</sup> وهل يشمت المرء بأنياب آكله أو يسر القاتل بسلاح قاتله وهذا الفاضل «شفاه الله» وإن ظاهرنا بالعداوة قليلا فقد باطننا ودا جميلا ، والحر عند الحمية لا يصطاد ولكنه عند الكرم ينتقاد وعند الشدائد تذهب الأحقاد ، فلا تتصور حالي إلا بصورتها من التوجع لعلته والتحزن لمرصنته ، وقاه الله المكر وه بحوله ووقاني بسماع السوء فيه بلطفه ، والسلام عليك ورحمة الله .

٤٢ - وكتب إلى بعض إخوانه . وقد أخبره بموت أبيه يعزبه ويحذره التبذير والتقتير .

وصلت رقعتك ياسيدي والمصاب لعمر الله كبير وأنت بالجزع جدير ولكنك بالعزاء أجدر ، والصبر عن الأحبة رشد كأنه الغي وقد مات الميت فايحي الحى ، والآن فاشدد على مالك بالخنس فأنت اليوم

(١) الطعم بالكسر ما يطعم ، والشرب كذلك ما يشرب .



غيرك بالأُمس، قد كان ذلك الشيخ «رحمه الله» وكيفك تضحك ويبكي لك،  
وقد مولك بما ألف في سراه ومسيره، وخلفك فقيرا إلى الله غنيا عن غيره.  
وسيعجم الشيطان عودك فإن استلانه رماك يقوم يقولون خير  
المال ما أتلف بين الشراب والشباب وأنفق بين الحباب والأحباب<sup>(١)</sup>  
والعيش بين الاقداح والقдах<sup>(٢)</sup>، ولولا الاستعمال لما أريد المال، فإن  
أطعمهم فالיום في الشراب وغدا في الخراب، واليوم واظربا للسكس  
وغدا واحربا من الافلاس. يامولاي، ذلك الخارج من العود يسميه  
الجاهل نقرا والعاقل فقرا وذلك المسموع في الناي هو الآن في الأذان  
زمر وغدا في الأ'بواب سمر<sup>(٣)</sup> والعمر مع هذه الآلات ساعة والقنطار  
في هذا العمل بضاعة. فإن لم يجد الشيطان مغمزا في عودك من هذا  
الوجه رماك بأخرين يمثلون الفقر حذاء عينيك، فتجاهد قلبك وتحاسب  
بطنك وتناقش عرسك وتمنع نفسك وتبوء في دنياك بوزرك وتراه  
في الآخرة في ميزان غيرك لا. ولكن قصدا بين الطريقتين وميلا عن  
الفرقتين لا منع ولا اسراف فالبخل فقر حاضر وصير عاجل وإنما يبخل  
المرء خيفة ما هو فيه فليكن لله في مالك قسط وللمروءة قسم. صل  
الرحم ماستطعت، وقدر اذا قطعت، فلأن تكون في جانب التقدير  
خير لك من أن تكون في جانب التبذير.

٤٣ — وكتب أبو منصور عبد الملك المتوفى سنة ٤٢٩

---

(١) الحباب بالفتح فقايع الخمر، والأحباب الأصحاب (٢) الاقداح جمع  
قدح بالتحريك وهي السكاس، والقдах جمع قدح بكسر فسكون وهو السهم  
الميسر والعبيد والاول المراد (٣) للمصادرة استيفاء للديون

يهنيء بقـدوم من سفر :

أهنيء سيدي ونفسي تطيب بما يسر الله من قدومه سالما ، وأشكر  
الله على ذلك شكر ا دائما . جعل الله قدومك مقرونا بالخيرة التامة العامة ،  
والكفاية الشاملة الكاملة ، غيبة المكارم مقرنه بغيبتك وأوبة النعم موصولة  
بأوبتك ، فوصل الله قدومك من الكرامة بأضعاف ، باقرنه به سفرك  
من السلامة ، وهنأك بايابك وبلغك غاية محابك . مازلت بالنبا معك  
مسافرا وبانحصال الذكر والفكر ملاقيا . إلى أن جمع شمل سروري  
بأوبتك وسكن فرند قلبي بعودتك .

٤٤ - وكتب أبو محمد القاسم بن علي الحريري المتوفى سنة ٥١٦ هـ  
إمام الطريقة الكتانية في العصر العباسي الرابع « استخدا المبدع »  
إلى الرئيس أبي الفتح هبة الله بن الفضل بن صاعد بن التلميذ الكاتب  
في التعارف قبل اللقاء : -

جزى الله خيرا والجزاء بكفه بنى صاعد أهل السيادة والمجد  
هم ذكروني والمـامة بيننا كما ارفض غيث في تهامة في نجد  
لو أخذت في وصف شغفي بمناقب سيدنا أطال الله بقاءه ، وأدام  
علاءه ، وحرس نعماءه ، وكتب حساده وأعداءه ، وما أنا بصدده من  
مدح سودده ، وشرح تطوله وتودده ، لكننت بمنابة المغترين في محاولة  
عذر مل يبرين . لكنني راج أن أحظى من ألعيتة الثاقبة وبصيرته الصائبة .  
بما يمثل له بعقيدتي ويطلعه على نخيله مودتي ، وما أملك في مقابلة مفاخرته  
التي أخلصت له بإحباب الحق وفضيلة السبق إلا الثناء الذي أتلو صحائفه  
والثناء الذي أقيم في كل وقت وظائفه والله سبحانه يحسن توفيقى لما

يشيد مباني المودة التي أعتدها أفضل مقاني العدة . ثم إنى لفرط اللهب  
باستملاء فضائله النيرة، واستطلاع محاسنه المسيرة، أسائل عن خصائصه  
الركبان وأطرب بسماعها ولا طرب النشوان . ولما حضر الشيخ  
الأديب الرئيس أبو القاسم بن الموز «أدام الله تمكينه» ألفيته مواليا  
مغاليا وداعية إليه وداعيا فازدت كفا بما وعيته منه وشغفا بما استوضحته  
عنه، واستدللت على كمال سيدنا باستخلاص شكر مثله وتحققت وفور  
أفضاله وفضله ، فافتتحت المكتبة بتأدية هذه الشهادة، واستمداد سنة  
المواصلات المعتادة والتكرمة التي تقتضيها بواعث السيادة ، ولرايه في  
الوقوف على ما كتبته والتطول فيه بما توجبه أريحته علوه ، إن شاء  
الله تعالى .

٤٥ - وكتب رشيد الدين الوطواط المتوفى سنة ٥٧٣ في التهنية  
بالقدوم من سفر .

بلغنى إياب سيدى زانه الله بصنوف المعالي وصانه من صروف  
الليالي، من سفرته الميمونة التي أسفرت عن نيل المراد وتسهيل البغية  
إلى دار إقامته ومستقر كرامته ، لم يؤثر فيه نصب السير وعناؤه وكلال  
السفر ووعثاؤه ، فبلغ سرورى بذلك مبلغا يضاهاى ما كنت بصده  
من الجزع لغيبته، فحمدت الله تعالى على ما يسر له من الرجوع إلى مغايبه  
والطلوع على بلدة جر فيها ذبول أمانيه ، وسألته جلّت قدرته أن يجعل  
ما أنعم به عليه من قرب الدار ودنو المزار، موصولا بطول العمر والبقاء  
مقرونا بدوام العز والعلاء، إنه سميع الدعاء .

٤٦ - وكتب القاضى الفاضل أبو على عبد الرحيم بن على المتوفى سنة ٥٩٦ وهو الذى أفرط فى استخدام البديع فرسم طريقة التكلف المنسوبة إليه ، عن العاصد آخر خلفاء الفاطميين إلى أحد الملوك فى شأن كتاب أنفذه إليه فلم يجب عنه .

كتابتنا «أطال الله بقاء الملك» عن مودة طاهرة الأسباب، متظاهرة الأنساب، صافية جلاب الشباب ، وعوائد عوارف لا يتنكر معروفها ووفود فوائد لا يتصدع تأليفها ومساعى مساعد لا ينقص معروفها ، ولا ينفض مسوفها <sup>(١)</sup>، وسعادة بالخلافة التى عدق إليها أمرها <sup>(٢)</sup> وأوضح سرها وملأ سرائرها وسريرها، وأطلع شمسها وقمرها . بمولانا وسيدنا أمير المؤمنين تتوالى ميامنها وتتلالا محاسنها <sup>(٣)</sup> وتشرف درجاتها وتتضاعف سعادتها، والكلمة قائمة على أصولها وأمور الخلق جارية على مأهولها ، ونظام الاسلام بسياستها لايهي ، وسياقة الدوام فى سعادتها لا تنتهى ، والله الموزع شكر هذه المنن ، المستول فى الانهاض المناهضت فيه النية وقصرت عنه المنن <sup>(٤)</sup> . ولم نزل «أدام الله إقبال الملك المعظم» معظمين لأمره، عارفين نبيل قدره وجليل نخره مشيدين بحجيم ذكره وجزيل نصره ، معيدين لما تتهادى اللسن من مستطاب نشره، قارئين من صفحات الأيام ما أمدها به من بشره غير مستيمين لذكر اسمه الكريم إلا بصيامه وشكره ، موردين مما هو يبلغه من بارع ضرائبه <sup>(٥)</sup> بالمقامات الشريفة من آثار سلفه وما آثرهم ، وما ثور مكارمهم ومفاخرهم،

(١) لا ينثر مشومها (٢) عدق جمع من باب ضرب (٣) مخفف تتلألا

(٤) المنن الأولى بالكسر النعم والمنن بالضم القوى (٥) مناقبه

واستناد المكرمات إلى أولهم وآخرهم ، ومشهور ذبهم عن الملة ودفاعهم عن أهل القبلة ، وسدادهم في الأمور وسدادهم الثغور <sup>(١)</sup> وسيادتهم الجمهور ، واستقلالهم بالمسقات المتقدمة ، وإخماهم نيران الخطوب المضطربة ، وكفهم سيول السيوف العرمة ، وموالاتهم أمور الدولة العلوية التي اشتهر بها منهم الأكابر ، وورثها كابر عن كابر ، وحافظوا منها على سيرة معروف لا ينسخ ، وعقد صفاء لا يفسخ ، وسريرة صدق تستقر في الضمائر وترسخ ، وتوضح بها غرة في جباه السبق وتشدخ <sup>(٢)</sup> ، وتستمدى عند إيراد هذا الذكر العطر والثناء المشتهر ، من الدعوات الشريفة العاصدية المعصودة بالنجح ، المتوضحة عن مثل فلق الضبح ، ما يتهلل لمساعيه بالميامن المستهلة ، ولراميه بالاصابة المتصلة ؛ بينه وبين هذه الدولة العالية ، والخلافة الحالية ، بكتاب منه نهجنا فيه طريقها اللاجب <sup>(٣)</sup> واستدعيناه به إجابته التي تتلق بالمراحب ، وأعلامناه أن تهادى الأيام دون المراسلة وتطاولها ، وتنقل الأحوال والدول وتناقها ، لا يزيد مودته إلا استحكام معاقده وانتظام عقائده ، ووفاء مواعده وصفاء موارد ، وأنه لا تباعد بين القلوب بغرض المرمى المتباعد ، ولا تفرق المسافات القواصي ما بين النيات القواصد ، فلما تأخرت الإجابة تقدمت الاستجابة ، وتناجت الظنون المعتلجة <sup>(٤)</sup> وتراجعت الآراء المختلجة <sup>(٥)</sup> بأن الرسول صافته دون المقصد عوائق ، وتقسمت من الأحداث دون الطريق طرائق ، فلم ترد المكاتبة إلى جنابه ، ولا أسعد السعي بطروق جنابه ، الذي تذل

(١) السداد بالفتح الاصابة وبالكسر الكفاية (٢) تنتشر سفلا (٣) الواضح

(٤) المضطربة (٥) المضطربة

السعادة ونجني به . وإلا فلو أنه أم له ، بلغ ماأمله ، ولو وصله لأجاب عما أوصله ، لأن مكارم خلأئقه تبعث على التبرع بالمسنون فكيف بقضاء المفروض ، وشرائف طرائقه تأتي للحقوق الواجبة أن تقف لديه وقف المطروح المرفوض ، فجددنا هذه المكاتبة مشتملة على ذلك المراد ، وفاوضناه بمايعيره الاصغاء ويجنبه الالغاء ، ويحسن له الانصات ولا يحتاج فيه إلى الوصاة ، ورسمن أن يكتبه حتى عن لسانه ، وأن يطويه حتى عن جنانه ، وأن يتمسك بالأمر النبوى فى استعانتة على أمره بكتامه ، فمن حسن الحزم سوء الظن ، وهل لأرباب الأسرار فرج إلا مادامت فى السجن ، وقد استلزمنا المرتين لما استعظمنا الرهن ، وفوضنا إلى من لا يعترينا فيه الوم ولا منه الوم ، ونحن تحببنا بما يعلم به حسن موقع رسالة الاسترسال ، وبما يبين به عن دلالة الادلال ؛ وبما يرحب بمودته مجال الجمال ، والله سبحانه يؤيد الملك بنصر تستخدم له الاقدار ، وسعادة لاتصرف فى تصرفها أحكام الفلك المدار ، وإقبال يقابل آراءه وآدابه فى فاتحة الورد وعاقبة الاصدار ، وعز لا يزال منه متوقلا<sup>(١)</sup> فى درجات الاقتدار ، إن شاء الله تعالى .

٤٧ - وكتب ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن الاثير الموصلى المتوفى سنة ٦٣٧ إلى عراقى حديث العهد بصادقته يستهديه رطباً فقال هذه المكاتبة ناطقة بلسان الشوق الذى ترف كلمة زفيف الأوراق<sup>(٢)</sup> وتسجع سجع ذوات الاطواق . وتهتف وهى مقيمة بالموصل فتسمع من هو مقيم بالعراق ، وأبرح الشوق ماكان عن فراق غير بعيد ، وود

(١) صاعدا (٢) تسرع فى صوت

استجدت حلته واللذة مقترنه بكل شيء جديد، وأرجو ألا يبلى قدم الأيام لهذه الجدة لباسا، وأن يعاذ من نظرة الجن والانس حتى لا يخشى جنة ولا ناسا، وقد قيل إن للموده طعما كما أن لها وسما، وإن ذا اللب يصادق نفسا قبل أن يصادق جسما. وإنى لأجد لموده سيدنا حلاوة يستلذ دوامها ولا يمل استطاعها. وقد أذكرني الآن بحلاوة الرطب الذى هو من أرضها، وغير عجيب لمناسبة الاشياء أن يذكر بعضها ببعضها، إلا أن هذه الحلاوة تنال بالأفواه وتلك تنال بالاسرار، وفرق بين ما يغترس بالأرض وما يغترس بالقلب فى شرف الثمار، فلا ينظر سيدنا على فى هذا التمثيل، فربما كان ذلك تعريضا ينوب مناب التطفيل.

ب — فى القصص والمقامات<sup>(١)</sup>

سنكتفى فى هذا النوع من الانشاء بنموذج من كل عصر لا مام الكسابة فيه.

١ — قال ابن المقفع فى باب عرضه كتاب كيلة ودمنة وهو من إنشائه :

ويجب على العاقل أن يصدق بالقضاء والقدر، ويأخذ بالحزم ويجب للناس ما يجب لنفسه، ولا يلتمس صلاح نفسه بفساد غيره فانه من فعل ذلك، كان خليقا أن يصيبه ما أصاب التاجر من رفيقه فانه يقال:

إنه كان رجلا تاجرا وكان له شريك فاستأجرا حانوتا وجعلا متاعهما فيه، وكان أحدهما قريب المنزل من الحانوت، فأضمر فى

---

(١) إننا انتقلنا إلى نماذج القصص والمقامات دون تمثيل للترقيعات، لأن إيجاز

نماذجها حسن إلينا تركها إلى حيث الكلام عليها :

نفسه أن يسرق عدلا من أعدل رفيقه، ومكر الحيلة في ذلك، وقال إن أتيت ليلا لم آمن أن أحمل عدلا من أعدل أو رزمة من رزمي ولا أعرفها فيذهب عنائي وتعبي باطلا، فأخذ رداءه وألقاه على العدل الذي أضمر أخذه ثم انصرف إلى منزله، وجاء رفيقه بعد ذلك ليصلح أعداله فوجد رداء شريكه على بعض أعداله فقال والله هذا رداء صاحبي، ولا أحسبه إلا قد نسبه، وما الرأي أن أدعه هاهنا ولكن أجعله على رزمة فلعله يسبقني إلى الخانوت فيجده حيث يحب، ثم أخذ الرداء فألقاه على عدل من أعدل رفيقه وأقفل الخانوت ومضى إلى منزله، فلما جاء الليل أتى رفيقه ومعه رجل قد واطأه على ماعزم عليه، وضمن له جعلاً على حمله، فصار إلى الخانوت فالتمس الأزار في الظلمة فوجده على العدل فاختل ذلك العدل وأخرجه هو والرجل وجعلاً يتراوحان على حمله حتى أتى منزله ورمى نفسه تعباً، فلما أصبح افتقده فاذا هو بعض أعداله فندم أشد الندامة، ثم انطلق نحو الخانوت فوجد شريكه قد سبقه إليه ففتح الخانوت ووجد العدل مفقوداً، فاعتم لذلك غماً شديداً وقال واسوأتاه من رفيق صالح قد ائتمنتني على ماله وخلفني فيه، ماذا يكون حاله عنده ولست أشك في تهمة إياي، ولكني قد وطنت نفسي على غرامته ثم أتى صاحبه فوجده صاحبه مغتافسأله عن حاله فقال: إني قد افتقدت الأعدال وفقدت عدلا من أعدل ولا أعلم بسببه وإني لأشك في تهمة إياي وإني قد وطنت نفسي على غرامته. فقال له يا أخي لا تغتم فإن الخيانة شر ما عمله الإنسان والمكر والخديعة لا يؤديان إلى خير وصاحبهما مغرور أبداً وما جاد وبال البغي إلا على صاحبه، وأنا أأخذ من مكر وخدع واحتال،



فُقال له صاحبه وكيف كان ذلك؟ فأخبره بخبره وقص عليه قصته. فقال له رفيقه: مامثلك إلا مثل اللص والتاجر، فقال له وكيف كان ذلك؟ قال: زعموا أن تاجرا كان له في منزله خابيتان إحداهما مملوءة حنطة والأخرى مملوءة ذهباً، فترقبه بعض اللصوص زماناً حتى إذا كان بعض الأيام تشاغل التاجر عن المنزل فتغفله اللص ودخل المنزل وكمن في بعض نواحيه، فلما هم بأخذ الخابية التي فيها الدنانير أخذ التي فيها الحنطة وظنها التي فيها الذهب، ولم يزل في كد وتعب حتى أتى بها منزله، فلما فتحها وعلم ما فيها ندم. فقال له الخائن: ما أبعدت المثل ولا تجاوزت القياس، وقد اعترفت بذنبي وخطئي عليك، وعزيز على أن يكون هذا كهذا، غير أن النفس الرديئة تأمر بالفحشاء، فقبل الرجل معذرتة وأضرب عن توبيخه وعن الثقة به. وندم هو عندما عاين من سوء فعله وتقديم جهله

٢- وقال الجاحظ من قصة أهل البصرة عن المسجدين في كتابه البخلاء:

قال أصحابنا من المسجدين: اجتمع ناس في المسجد ممن ينتحل الاقتصاد في النفقة والتنمية للمال من أصحاب الجمع والمنع، وقد كان هذا المذهب صار عندهم كالنسب الذي يجمع على التحاب، وكالحلف الذي يجمع على التناصر وكانوا إذا التقوا في حلقهم تذاكروا هذا الباب وتطارحوه وتدارسوه التماساً للفائدة واستماتاً بذكره.

فقال شيخ منهم: ماء بئرنا كما قد علمتم ملح أجاج لا يقربه الحمار ولا تسيفه الابل وتموت عليه النخل، والنهر منا بعيد وفي تكلف العذب علينا مثونة، فكنا نمزج منه للحمار فاعتل منه وانتفض علينا من أجله،

فصرنا بعد ذلك نسقيه العذب صرفا وكنت أنا والنعجة<sup>(١)</sup> كثيرا ما نغتسل بالعذب مخافة أن يعترى جلودنا من الملح مثل ما عترى جوف الحمار، فكان ذلك الماء العذب الصافي يذهب باطلا، ثم انفتح لي فيه باب من الإصلاح، فعمدت إلى المتوضأ فجعلت في ناحية منه حفرة وصهرجتها<sup>(٢)</sup> ولمستها حتى صارت كأنها صخرة منقورة، وصوبت إليها السيل، فنحن الآن إذا اغتسلنا صار الماء إليها صافيا لم يخالطه شيء والحمار لا تقر له من ماء الجنابة، وليس علينا حرج في سقيه منه، وما علمنا أن كتابا حرمه ولا سنة نهت عنه، فربحنا هذه منذ أيام وأسقطنا مئونة عن النفس والمال وهذا بتوفيق الله ومنه .

فأقبل عليهم شيخ فقال: اشتكيت أياما صدرى من سعال كان أصابى، فأمرنى قوم بالفانيد السكرى<sup>(٣)</sup>، وأشار على آخرون بالحريرة تتخذ من الشاهنج والسكر ودهن اللوز<sup>(٤)</sup> وأشباه ذلك، فاستثقلت المئونة وكرهت الكلفة، فبينما أنا أدافع الأيام إذ قال لي بعض الموفقين: عليك بماء النخالة فاحسه حارا، فحسوت فاذا هو طيب جدا وإذا هو يعصم فما جمعت ولا اشتبهت الغداء في ذلك اليوم إلى الظهر ثم ما فرغت من غدائي وغسل يدي حتى قاربت العصر، فلما قرب وقت غدائي من وقت عشائي طويبت العشاء وعرفت قصدي، فقلت للعجوز لم لا تطبخين لعيالنا في كل غداة نخالة فإن ماءها جلاء للصدور، وقوتها غذاء وعصمة

(١) يعنى زوجته (٢) كصرجتها طليتها بالصاروج وهو النورة وأخلطها

(٣) حرب بانيد لضرب من الحلوى (٤) الحريرة دقيق يطبخ بلبن أو دسم وبحلى، والشاهنج دقيق البر.

ثم تجففين بعد النخالة فتعود كما كانت فتبديعينيها بمثل الثمن الاول ونكون قد ربحنا فضل ما بين الحالين . قالت أرجو أن يكون الله قد جمع بهذا السعال مصالح كثيرة لما فتح الله لك بهذه النخالة التي فيها صلاح بدنك وصلاح معاشك وما أشك أن تلك المشورة كانت من التوفيق .

ثم اندفع شيخ منهم فقال . لم أرفى وضع الامور مواضعها وفي توفيتها غاية حقوقها كمعاذة العنبرية : قالوا وما شأن معاذه هذه ؟ قال أهدي إليها العام ابن عم لها أضحية <sup>(١)</sup> فرأيتها كثيبة حزينة مفكرة مطرقة فقلت لها مالك يا معاذه ؟ قالت أنا امرأة أرملة وليس لي قيم ولا عهد لي بتدبير لحم الأضاحي وقد ذهب الذين كانوا يدبرونه ويقومون بحقه وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاة ولست أعرف وضع جميع أجزائها في أما كنها وقد عامت أن الله لم يخلق فيها ولا في غيرها شيئاً لا منفعة فيه ، ولكن المرء يعجز لا محالة ، ولست أخاف من تضييع القليل إلا أنه يجر تضييع الكثير . أما القمن فالوجه فيه معروف وهو أن يجعل كالخطاف ويسمر في جذع من جذوع السقف فيتملق عليه الزبل والكيران وكل ما خيف عليه من الفأر والتمل والسنانير وبنات وردان والحيات وغير ذلك . وأما المصران فأنه لا وتار المندفة <sup>(٢)</sup> وبن إلى ذلك أعظم الحاجة . وأما قحف الرأس واللاحيان ومائر العظام فسميله أن يكسر بعد أن يعرق <sup>(٣)</sup> ثم يطبخ فما ارتفع من اللحم كان المصباح

---

(١) شاه للتضحية (٢) الزبل ككتب جمع زبل وهو القفة أو الجراب أو الوعاء والكيران جمع كبير وهو زق ينفخ فيه الحداد (٣) المصران جمع مصير وهو المعى والمندفة آلة تدف القطن (٤) يؤكل ما عليه من اللحم

والأدّام والعصيدة وغير ذلك، ثم تؤخذ تلك العظام فيوقد بها فلم ير  
الناس وقوداً قط أصفى ولا أحسن لها منه وإذا كانت كذلك فهي  
أسرع في القدر لقلّة ما يخالطها من الدخان . وأما الأهاب فالجلد نفسه  
جراب وللصوف وجوه لا تدفع . وأما الفرث والبعر فخطب إذا جفف .  
عجيب . ثم قالت بقي الآن الانتفاع بالدم وقد علمت أن الله عز وجل  
لم يحرم من الدم المسفوح إلا أكله وشربه وأن له مواضع يجوز فيها  
ولا يمنع منها ، وإن أنا لم أقع على علم ذلك حتى يوضع موضع الانتفاع  
به صاركية في قلبي وقذى في عيني وهما لا يزالان يعاودني « قال الشيخ »  
ثم لم ألبث أن رأيتهما قد تطلعت وتبسمت فقلت ينبغى أن يكون قد  
انفتح لك باب الرأى في الدم قالت أجل ذكرت أن عندي قدورا  
شامية جددا وقد زعموا أنه ليس شيء أدبغ لها ولا أزيد في قوتها من  
التلطّيح بالدم الحار الدسم ، وقد استرحمت الآن إذ وقع كل شيء بموقعه ،  
قال ثم لقيتها بعد ستة أشهر فقلت لها كيف كان قديدهم تلك الشاة <sup>(١)</sup>  
قالت بأبى أنت لم يحىء وقت القديد بعد ، لنا في الشحم والألية <sup>(٢)</sup> والعظم  
المعرق وغير ذلك معاش ولكل شيء إبان . فقبض صاحب الحمار والماء  
العذب قبضة من حصا ثم ضرب بها الأرض وقال ، لا تعلم أنك من  
المسرفين حتى تسمع بأخبار الصالحين

٣ — المقامة الأسدية للبديع .

حدثنا عيسى بن هشام قال كان يبلغني من مقامات الاسكندري  
ومقالاته ما يصغى إليه النفور وينتفض له العصفور ، ويروى لنا من شعره

(١) لهما المجفف (٢) ماركب العجز من شحم ولحم

ما يترج بأجزاء النفس رقة ويغمض عن أوهام الكهنة دقة ، وأننا سأل  
الله بقاءه حتى أرزق لقاءه وأتعجب من قعوده بمجته بحالته مع حسن آله<sup>(١)</sup>  
وقد ضرب الدهر شثونه بأسداد دونه وهلم جرا إلى أن اتفقت لي  
حاجة بمحصر فشجذت إليها الحرص في صحبه أفراد كنجوم الليل  
أحلاس لظهور الخيل<sup>(٢)</sup> ، وأخذنا الطريق ننتهب مسافته ونستأصل  
شأفته ولم نزل نفرى أسنمة النجاد بتلك الجياد حتى صرن كالعصى ورجعن  
كالقسي وتاح لنا واد في سفح جبل ذي آلاء وأثل<sup>(٣)</sup> كالعداري يسرحن  
الصفائر وينشرن الغدائر ومالت المهاجرة بنا إليها ونزلنا نغور ونغور<sup>(٤)</sup>  
وربطنا الأفراس بالأمراس وملنا مع النعاس فما راعنا إلا صهيل الخيل  
ونظرت إلى فرسى وقد أرهف أذنيه وطمح بعينه يجذ قوى الحبل  
بمشافره ويخذ خد الأرض بحوافره ، ثم اضطربت الخيل فأرسلت  
الأبوال وقطعت الجبال وأخذت نحو الجبال وطار كل واحد منا إلى  
سلاحه فاذا السبع في فروة الموت قد طلع من غابه منتفخا في إهابه  
كاشرا عن أنيابه بطرف قد ملء صلفا وأنف قد حشى أنفا وصدر  
لا يبرحه القلب ولا يسكنه الرعب وقلنا خطب ملم وحادث مهم وتبادر  
إليه من سرعان الرفقة فتى

أخضر الجلد في بيت العرب يملأ الدلو إلى عقد الكرب  
بقلب ساقه قدر وسيف كله أثر<sup>(٥)</sup> وملكته سورة الأسد نخائته

---

(١) استعداده فيما يزاول (٢) جمع حلس بالكسر وهو الملازم (٣) شجران  
فالألاء الصفصاف والآثل الطرفاء (٤) نغور بالتضعيف نهبط ونغور ننام في  
الغور (٥) قدر الرجل مكانته وأثر السيف على وزنه فرنده وجوهره

أرض قدمه حتى سقط ليدته وفه وتجاوز الأسد مصرعه إلى من كان معه ودعا الحين أخاه بمنزل مادعا فصار إليه وعقل الرعب يديه فأخذ أرضه واقترب الليث صدره ولكنى رميته بهامتي وشغلت فيه حتى حقت دمته وقام الفتى فوجأ بطنه<sup>(١)</sup> وقد هلك الفتى من خوفه والأسد للوجأ في جوفه ونهضنا في أثر الخيل فتألفنا منها ما ثبت وتركنامها ما أفلت وعدنا إلى الرفيق لنجهزه

فلما حثونا التراب<sup>(٢)</sup> فوق رفيقنا جزعنا ولكن أى ساعة مجزع وعمدنا إلى الفلاة وهبطنا أرضها وسرنا حتى إذا ضمرت المزاد ونفذ الزاد أو كاد يدركه النفاد ولم نملك الذهاب ولا الرجوع وخفنا القائلين الظمأ والجوع ، عن لنا فارس فصعدنا صمده وقصدنا قصده ولما بلغنا نزل عن حماره ينقش الأرض بشفتيه وياقئ اتراب يديه وعمدنى من بين الجماعة فقبل ركابى وتحرم بجنابى ونظرت فإذا هو وجه يهرق برق العارض المتهلل وقوام متى ترق العين فيه تسهل وطارض قد اخضر وشارب قد طر وساعد ملائ وقضيب ريان ونجار<sup>(٣)</sup> تركى وزى ملكى ، فقلنا مالك لأبالك فقال أنا عبد بعض الملوك هم من قتلى بهم فهمت على وجهى حيث ترأى ، وشهدت شواهد حاله على صدق مقاله ثم قال أنا اليوم عبدك ومالى مالك فقلت بشرى لك وبك أذاك سيرك إلى فناء رحب وعيش رطب، وهنأتنى الجماعة وجعل ينظر فتقتلنا ألاحظه وينطق فتفتعننا ألاحظه ، فقال ياسادة إن فى سفح الجبل عينا وقد ركبت فلاة عوراء نخذوا من هنالك الماء فلوينا الأعنة إلى حيث أشار وبلغناه

---

(١) وجأ شق (٢) آهلناه (٣) أصل

وقد صهرت الهاجرة الأبدان وركبت الجنادب العيدان<sup>(١)</sup> فقال ألا  
تقيلون في هذا الظل الرحب على هذا الماء العذب فقلنا أنت وذاك فنزل  
عن فرسه وجلى منطقته<sup>(٢)</sup> ونحى قرطقته<sup>(٣)</sup> فما استتر عنا إلا بغلالة  
ثم على بدنه فما شككنا أنه خاصم الولدان ففارق الجنان وهرب من  
رضوان ، وعمد إلى السروج فخطها وإلى الأفراس فحشها<sup>(٤)</sup> وإلى الأمكنة  
فرشها وقد حارت البصائر فيه ووقفت الأبصار عليه ، فقلت يا فتى  
ما أطفك في الخدمة وأحسنك في الجملة فالويل لمن فارقت وطوبى لمن  
رافقت فكيف شكر الله على النعمة بك ، فقال ماسترونه منى أكثر  
أتعجبكم خفتي في الخدمة وحسني في الجملة فكيف لو رأيتموني في الرفقة  
أريكم من حذق طرفا لتزدادوا بي شغفا فقلنا هات فعمد إلى قوس أحدنا  
فأوتره وفوق سهمها<sup>(٥)</sup> فرماه في السماء وأتبعه بآخر فشقه في الهواء ،  
وقال سأريكم نوما آخر ثم عمدا إلى كنانتي فأخذها وإلى فرسى فعلاه  
وزمى أحدنا بسهم أثبتته في صدره وآخر طيره من ظهره فقلت ويحك  
ما تصنع قال امسكت يالكع والله ليشدن كل منكم يد رفيقه أو لأغصنه  
بريقه فلم ندر ما نصنع وأفراسنا مربوطة وسروجنا محطوطة وأسلحتنا  
بعيدة وهو راكب ونحن رجاله والقوس في يده يرشق بها الظهور<sup>(٦)</sup>  
ويعشق بها البطون والصدور<sup>(٧)</sup> وحين رأينا الجد أخذنا القد<sup>(٨)</sup> فشد  
بعضنا بعضا وبقيت وحدي لأجد من يشد يدي فقال اخرج باهاباك

(١) الجنادب جمع جندب وهو نوع من الجراد يفرح للحر ولكن الرمضاء

قد تشد عليه فيصعد منها العيدان (٢) حزامه (٣) قباهه (٤) ربطها

(٥) وضعه في الفوق ليرميه (٦) ينبت فيها (٧) يمزقها (٨) الجلد والسمير

عن ثيابك فخرجت ثم نزل عن فرسه وجعل يصنع الواحد منا بعد الآخر وينزع ثيابه وصار إلى وعلى خنثان جديدان فقال اخلعهما لأأم لك فقلت هذا خف لبسته رطباً فليس يمكنني نزعها فقال على خلعها ثم دنا إلى لينزع الخلف ومددت يدي إلى سكين كان معي وهو في شغله فأثبتته في بطنه وأثبتته من متنه فما زاد على فم فغره وألقمه حجره وقت إلى أصحابي فخلت أيديهم وتوزعنا سلب التتيلين وأدركنا الرفيق وقد جاد بنفسه وصار لرمسه وصرنا إلى الطريق ووردنا حص بعد ليال خمس فلما انتهينا إلى فرصة من سوقها<sup>(١)</sup> رأينا رجلاً قد قام على رأس ابن وبنية بجراب وعصية وهو يقول :

رحم الله من حشا في جراحي مكارمه  
رحم الله من رنا لسعيد وفاطمه  
إنه خادم لكم وهى لاشك خادمه

قال عيسى بن هشام فقلت إن هذا الرجل هو الاسكندري الذي سمعت به وسألت عنه فإذا هو وقد لفت اليه<sup>(٢)</sup> وقلت احتكم حكيمك فقال درهم فقلت لك درهم في مثله مادام يسعدني النفس<sup>(٣)</sup>

فاحسب حسابك والتمس كيما أنيل الملتمس

وقلت له، درهم في اثنين في ثلاثة في أربعة في خمسة حتى انتهيت إلى العشرين ، ثم قلت لغلامي كم معك قال عشرون رغيفاً فأمرت له بها وقلت ، لا نصر مع الخذلان ولا حيلة مع الحرمان .

---

(١) طريق منه (٢) أضرعت (٣) أى حتى ينتهي النفس الواحد



#### ٤ - المقامة السنجارية للحريري<sup>(١)</sup>

حدث الحارث بن همام قال . فقلت ذات مرة من الشام أنحو مدينة السلام ، في ركب من بني نمير ورفقة أولى خير ومير ، ومعنا أبو زيد السروجي<sup>(٢)</sup> عقلة العجلان<sup>(٣)</sup> وسلوة الشكران وأهجوكة الزمان والمشار اليه بالبنان في البيان ، فصادف نزولنا سنجاراً ولم بها أحد التجار فدعا إلى مأدبته الجفلى<sup>(٤)</sup> من أهل الحضارة والفلا ، حتى سرت دعوته إلى القافلة وجمع فيها بين الفريضة والنافلة فلما أجبنا مناديه وحللتنا ديه أحضر من أطعمة اليد واليدين<sup>(٥)</sup> ماحلاً بالقلم وحلى بالعين ثم قدم جاماً<sup>(٦)</sup> كأنما جمد من الهواء أو جمع من الهباء أو صيغ من نور الفضاء أو قشر من الدرة البيضاء ، وقد أودع لفائف<sup>(٧)</sup> النعيم وضخخ بالطيب العميم وسيق اليه شرب من تسنيم<sup>(٨)</sup> وصفر عن مرأى ومسيم وأرج نسيم . فلما اضطرممت بمحضره الشهوات وقرمت<sup>(٩)</sup> إلى خبزه اللهاوات وشارف أن تشن على سربه الغارات وينادى عند نهبه بالثارات ، نشز أبو زيد كالجنون وتباعد عنه تباعد الضب من النون<sup>(١٠)</sup> ، فراودناه على أن يعود وألا يكون كقदार<sup>(١١)</sup> في ثمود ، فقال والذي ينشر الاموات من الرجام لاعدت دون رفع الجمام فلم نجد بدا من تألفه وإمرار حلفه ،

(١) سنجار بلدة مشهورة بعراق العجم (٢) سروج بلدة قرب حران

(٣) محبس المتعجل (٤) الدعوة العامة (٥) أى عمايقطع بيد ومما لا يقطع الايدين

(٦) ظرفاً من زجاج (٧) جمع لقيقه مالف من الحلوى (٨) عين بالجنة (٩) نهمت

(١٠) النون الحوت والضب أشد الحيوان تبدياً (١١) طاقرة ناقة صالح

فأشلهناه<sup>(١)</sup> والعقول معه شائلة والدموع عليه سائلة ، فلما فاء إلى مجتمه  
وخاص من مأثمه سأله لم قام ولاى معنى استرفع الجاه؟ فقال إن الزجاج  
تمام وإنى آليت مذ أعوام ألا يضمنى ونموما مقام فقلنا له وما يمينك  
الصرى<sup>(٢)</sup> وأليتك الحرى؟ فقال :

إنه كان لى جار لسانه يتقرب وقلبه عقرب ، ولفظه شهد ينقع  
وخبؤه سم منقع ، فلت لمجاورته إلى محاورته واغتررت بمكاشرته<sup>(٣)</sup> فى  
معاشرته واستهوتنى خضرة دمنته لمنادته وأغرتنى سمته بمناسمته<sup>(٤)</sup> ،  
فمازجته وعندى أنه جار مكسر<sup>(٥)</sup> فبان أنه عقاب كاسرو أنسته على أنه  
حب مواس فظهر أنه حباب<sup>(٦)</sup> مواس ، وما لحته ولا أعلم أنه عند نقده  
ممن يفرح بفقده ، وطافه ولم أدر أنه بعد فره ممن يطرب لفره ، وكانت  
عندى جارية لا يوجد لها فى الجمال مجارية ، إن سفرت خجل النيران  
وصليت القلوب بالنيران وإن بسمت أذرت بالجمان<sup>(٧)</sup> وبيع المرجان بالجمان ،  
وإن رنت هيجب البلبال<sup>(٨)</sup> وحققت سحر بابل وإن نطق عقلت لب  
العافل واستنزلت العصم من المعافل وإن قرأت شفت المقتود<sup>(٩)</sup> وأحيت  
الموود وخلتها أوتيت من مزامير آل داود ، وإن غنت ظل معبد لها عبدا  
وقبل سحقا لا سحق وبعدا وإن زمرت أضحى زنام<sup>(١٠)</sup> عندها زنيما بعد  
أن كان لجياها زعيما وبالاطراب زعيما ، وإن رقصت أمالت العائم عن الروس  
وأنستك رقص الحبيب فى الكئوس ، فكنت أزدري بمعها حمر النعيم وأحلى

(١) رفعناه (٢) المصر عليها بعزم (٣) بعذب تبسمه (٤) بمحادثته

(٥) ملازم لكسر البيت (٦) تعبات (٧) اللؤلؤ (٨) الوسوس والهموم

(٩) المصاب فى فواده (١٠) زامر المتوكل

بتعليمها جيد النعم، وأحجب مرآها عن الشمس والقمر وأذود ذكرها عن  
شرائع<sup>(١)</sup> السمير، وأنا مع ذلك أليح<sup>(٢)</sup> من أن تسرى برياها ريح  
أو يكمن بها سطيح أو ينم عنها برق مليح، فاتفق لوشك الحظ المبخوس  
ونكد الطالع المنحوس، أن أنطقتنى بوصفها حميا المدام عند الجار النمام،  
ثم ثاب الفهم بعد أن صرد السهم<sup>(٣)</sup> فأحسست الخبال والوبال وضيعة  
ما أودع ذلك الغربال، بيد أنى عاهدته على عكم ما لفظته وأن يحفظ السر  
ولو أحفظته، فزعم أنه يحزن الأسرار كما يحزن اللثيم الدينار وأنه لا يهتمك  
الاستار ولو عرض لأن يلج النار، فما إن غبر على ذلك الزمان إلا يوم  
أو يومان حتى بدا لا مبر تلك المدرة، وواليها ذى المقدرة أن يقصم دباب  
قبيله مجددا عرض خيله ومستمطرا عارض نيله، وارتاد أن تصحبه تحفة  
تلائم هواه ليقدّمها بين يدي نجواه، وجعل يبذل الجعائل لرواده ويسنى  
المرائب لمن يظفره بمراده، فأسف ذلك الجار اختار إلى بذوله وعصى في  
أدراع العار عدل عدوله، فأثى الوالى ناشر أذنيه وأبشه ما كنت أسررت  
إليه، فمراغني إلا النسياب صاغيته<sup>(٤)</sup> إلى وانثيال حفدته<sup>(٥)</sup> على تسومنى  
ليشاره بالدرة اليتيمة على أن أتحمك عليه فى القيمة، فغشيتنى من الهم  
ماغشى فرعون وجنوده من اليم، ولم أزل أدافع عنها ولا يغنى الدفاع  
وأستشفع إليه ولا يجدى الاستشفاع، وكلما رأى منى ازديادا لاعتياص<sup>(٦)</sup>  
وارتياد المناص تجرم وتغمرم وحرقت على الأرم<sup>(٧)</sup>، ونفسى مع ذلك

(١) موارد (٢) أشفق (٣) خرج من القوس (٤) حاشيته (٥) الحفدة

هنا الخدم والاتباع (٦) الامتناع (٧) الاضرار

لا تسمع بمفارقة بدرى، ولا بأن نزع قلبي من صدرى؛ حتى آل الوعيد  
إيقاعاً والتقرير قراحاً. فقادنى الاشفاق من الحين إلى أن قضته سواد  
العين بصفرة العين<sup>(١)</sup> ولم يحظ الواشى بغير الاثم والشين، فعاهدت  
الله تعالى منذ ذلك العهد؛ ألا أحاضر تماماً من بعد، والزجاج مخصوص  
بهذه الطباع الذميمة؛ وبه يضرب المثل في النسيمة، فقد جرى عليه سيل  
يمنى ولذلك السبب لم تمتد اليه يمى

فلا تعذلونى بعد ما قد شرحتة على أن حرمتهم في اقتطاف القطائف<sup>(٢)</sup>  
فقد بان عذرى في صنيعى وإمنى سأرتق فتقى من تليدى وطارفى  
على أن ما زودكم من فكاهة ألد من الحلوى لدى كل طارف  
قال الحارث بن همام فقبلنا اعتذاره، وقبلنا عذاره، وقلنا له قدما وقذت  
النسيمة<sup>(٣)</sup> خير البشر حتى انتشر عن جمالة الخطب ما انتشر، ثم سألتناه  
عما أحدث جاره القنات ودخله المفتات<sup>(٤)</sup> بعد أن راش له نبل السعاية  
وجذم حبل الرماية، فقال أخذ فى الاستخذاء والاستكانة والاستشفاع إلى  
بذوى المكانة، وكنت حرجت على نفسى ألا يسترجعه أنسى أو يرجع  
إلى أمسى، فلم يكن له منى سوى الرد والاصرار على الصد وهو لا يكتئب  
من النجى<sup>(٥)</sup> ولا يتئب<sup>(٦)</sup> من وقاحة الوجه، بل يلط<sup>(٧)</sup> بالوسائل ويلج  
فى المسائل، فما أنقذنى من إبرامه ولا أبعد عليه نيل مرامه إلا أبيات  
نفث بها الصدر الموتور، والخاطر المبتور، فانها كانت مدحرة لشيطانة

(١) قضته بادلته والعين الأولى الباصرة والثانية الذهب (٢) تناول الفطائر

(٣) آلمت وآذت (٤) مخالطه الكذاب (٥) الردع والزجر (٦) لا يستعنى

(٧) يلتصق

ومسجنة له في أوطانه، وعند انتشارها بت طلاق الحبور ودعا بالويل  
والشبور ويش من نشر وصلى المقبور كما يثس الكفار من أصحاب  
القبور، فنادى أنه ينشدنا إياها وينشقتنارياها؛ فقال أجل خلق الانسان  
من عجل ثم أنشد لا يزويه<sup>(١)</sup> خجل ولا يثنيه وجل .

ونديم محضته صدق ودي إذ توهمته صديقا حيا  
ثم أوليته قطيعة قال حين ألفتته صديدا حيا  
خلقة قبل أن يجرب إلها ذا ذمام فبات جلفا ذميا  
وتخبرته كليا<sup>(٢)</sup> فأمسي . منه قلبى بما جناه كليا<sup>(٣)</sup>  
وتظنيته معينا رحيا فتبينته لعينا رحيا  
وتراءيته مريدا<sup>(٤)</sup> فجلى عنه سبكي له مريدا<sup>(٥)</sup> لثيا  
وتوهمت أن يهب نسيا فأبى أن يهب إلا سموما  
بت من لسعه الذى أعجز الرا قى سليما<sup>(٦)</sup> وبات منى سليما<sup>(٧)</sup>  
وبدا نهجه غداة اقترقنا مستقيا والجسم منى سقيا  
لم يكن رائعا<sup>(٨)</sup> خصيبا ولكن كان بالشعر رائعا<sup>(٩)</sup> لى خصيا  
قلت لما بلوته ليته كا ن عديما ولم يكن لى نديما  
بغض الصبح حين تم إلى قلبى لأن الصباح يلنى نموما  
ودعاني إلى هوى الليل إذ كا ن سواد الدجى رقبيا كتوما  
وكفى من يشى ولو فاه بالصد ق أثاما فيما أتاه ولو ما<sup>(١٠)</sup>

(١) لا يصرفه (٢) متكلما (٣) مكلوما (٤) بضم الميم محبا (٥) بفتح

الميم متمردا (٦) ملدوغا (٧) صحيحا (٨) جميلا معجبا (٩) مخيفا

(١٠) مخفف لؤم

قال فلما سمع رب البيت قريضه وسجعه واستملح تقريظه وسببه<sup>(١)</sup>  
 بوأه مهاد كرامته وصدره على تكرمته<sup>(٢)</sup> ثم استحضر عشر صحاف من  
 الغرب<sup>(٣)</sup> فيها حلواء القند والضرب<sup>(٤)</sup> وقال له لا يستوى أصحاب النار  
 وأصحاب الجنة ولا يسمع أن يجعل البريء كذى الظنة، وهذه الآنية  
 تنزل منزلة الأبرار في صون الأسرار، فلانولها الأبعاد ولا تلحق هودا  
 بعاد، ثم أمر خادمه بنقلها إلى منواه ليحكم فيها بما يهواه فأقبل علينا  
 أبو زيد وقال اقرءوا سورة الفتح وأبشروا باندمال القرع، فقد جبر الله  
 ثلكم ومنى ألكم وجمع في ظل الخلواء شمالكم وعسى أن تكرهوا  
 شيئاً وهو خير لكم، ولما هم بالانصراف مال إلى استهداء الصحاف فقال  
 للآدب إن من دلائل الظرف، سماحة المهدي بالظرف: فقال كلاهما لك  
 والغلام فاحذف الكلام وانفض بسلام، فوثب في الجواب وشكر مشكر  
 الروض للصحاب، ثم اقتادنا أبو زيد إلى حوائه وحكمنا في حلوائه، وجعل  
 يقلب الاواني بيده وينض عددها على عدده<sup>(٥)</sup> ثم قال لست أدري  
 أشكو ذلك المنام أم أشكر، وأتناسى فعلته التي فعلها أم أذكر، فانه وإن كان  
 أسلف الجريمة ونعم النعمة فمن غيمه انهلث هذه الديمة وبسيفه انحازت  
 لي هذه الغنيمة، وقد خطر ببالي أن ارجع إلى أشبالي وأقنع بما تنسى لي وألا  
 أتعب نفسي ولا أجمالي، وأنا أودعكم وداع محافظ وأستودعكم خير حافظ  
 ثم استوى على راحلته راجعاً في حافرتة<sup>(٦)</sup> ولأويا إلى زافرتة<sup>(٧)</sup> فغادرنا  
 بعد أن وخذت عنسه وزايلنا أنسه، كدست غاب صدره أو ليل أفل بدره.

(١) مدحه وذمه (٢) وسادته (٣) الفضة (٤) السكر والشهد

(٥) يفرقها على صحبه (٦) طريقه التي جاء منها (٧) ناكها إلى عشيرته

## ثانيا - حياتها

### ١ - الرسائل

أساليبها ومميزاتها وطبقات رجالها

١ - في العصر الاول - ما كاد العصر الأموي يشارف منتهاه حتى تحولت كتابة الرسائل من ترسل طبيعي لا أثر للصناعة فيه الى ترسل صناعي أرسى أسسه سالم كاتب هشام بن عبد الملك وأعلى بناءه عبد الحميد صاحب ديوان مروان آخر خلفاء الأمويين ، وقد عرفت حيث وقع الكلام منا على الانشاء اذ ذاك أن عبد الحميد أظهر تلك الصناعة أكثر ما أظهر، في رسوم رسمها للمبادئ والخواصم، وفي جولات بعيدة الاطراف بين طرفي القلة والاكثر، ثم تنويع الرسائل الاخوانية الى أنواع، وفي طرق أبواب لم تكن معروفة قبله للناس . غير أن صناعته هذه وقد جاءت آخر العصر لم تقض القضاء كله على الترسيل الطبيعي لدى جمهرة الناس فكان للكتابة حينئذ كطابعان ورثهما العباسيون فيما ورثوا عن الأمويين. وإذ كان صدر العصر العباسي الاول إن هو إلا دفعة لطريقة عبد الحميد فان لنا أن نتوقع فيه تراجع الترسيل الطبيعي الى الوراء واطراد الانشاء الصناعي الى الأمام حتى يعظم هذا ويقنى ذاك وهذا ما كان ، فلم نكد نلمح الاسلوب الفطري في كلام الخليفةتين الأولىين وأضربهما كما رأيت في الرسائل التي سقناها بين المنصور ومحمد بن عبد الله بجوار ما كان يصدر عن جماعة الكتاب حتى توارى بعدها واحتضنه التاريخ ولذا نصدف عنه ونعتبر الكتابة مذجاء العصر العباسي

صناعة حل لواءها بعد عبد الحميد صديقه المخالط عبد الله بن المقفع واتبعه فيما رسم الجميع ، وحق لذلك أن نخصه بكلمة لاغنى عنها في الموضوع .

نشأ ابن المقفع بالبصرة حيث كان والده يتولى خراج فارس خلال ابن عبد الله القسري وإلى العراق ، وهي حينئذ حلبة العربية ومجتمع الرواة وقرارة المربد - كما ظ الاسلام والحاضرة التي يفد إليها فصحاء الأعراب ، والدولة إذ ذاك عربية محضة لا تستكتب فارسياً في الدواوين العربية إلا إذا أجاد العربية كأهلها ، فدفع به أبوه وهو خير من يعرف ذلك إلى تعلم العربية في هذه البيئة الغنية بها الصالحة لتثقيف الأحداث عليها ، فخذق فنونها وتخرج في آدابها . وكان من حسن حظه وحظ العربية معاً أن كان ولاؤه وولاء أبيه في بيت خطابة ومعدن فصاحة هو بيت الأهم المنقري فكان في نشأته قرين خالد بن صفوان وابن عمه شبيب ابن شيبنة وناهيك بهما فصاحة منطق وذراية لسان . ولما تمت آتاه في العربية تمامها في الفارسية لغة آبائه وأجداده تطلع إلى التخرج في صناعة الكتابة وكان عبد الحميد المذكور كاتباً مروان بن محمد وإلى الجزيرة إذ ذاك ، فتقرب عبد الله إليه تقرب الصديق الملازم وأخذ يتأثر كتابته ذات الديباجة العربية والعقلية اليونانية ويحتذى فيه ذا النواحي المبتدعة والطرائق المستحدثة ، ضاماً إلى ذلك ما أفاضته عليه لغته الفارسية حتى صار كاتباً يجمع إلى بلاغة العرب حكمة اليونان وصناعة فارس فاستكتبه في عصر بني أمية داود بن يزيد بن عمر بن هبيرة أيام ولاية أبيه العراق .

ولما دالت دولتهم استكتبه في زمن بني العباس عيسى بن علي وإلى كرمان وعلي يدبه أسلم وتسمى عبد الله وكان اسمه روزبة ، ومن بعد عيسى كتب



لأخيه سليمان أيام ولايته على البصرة وكان أبو جعفر المنصور لا يزال بالأنبار فاتصل به وترجم له كتاب كليله ودمنة ونقل إلى العربية كثيراً من آداب الفرس وسيامستها كما نقل إليها بعض كتب اليونان التي كان كسرى أنوشروان قد أمر بترجمتها إلى الفارسية فكانت صلة ثانية له بالعقلية اليونانية بعد تلك التي كانت له من عبد الحميد الذي عرف الكثير منها عن أستاذه سالم كاتب الخليفة هشام .

بهذا البيان المعتمد على قلب ناضج التفكير ولسان حسن التعبير زاول ابن المقفع الكتابة بأسلوب التبريل الذي كان لعبد الحميد ، وقصصاه التعبير عن المعنى الجيد بالعبارة الواضحة الجزلة دون نظري مزاج أو مسجع إلا ما جاء عفواً غير متعمد ولا مقصود والذي يبدو لنا من إبقاء ابن المقفع على هذا الأسلوب مع أنه فارسي الجنس واللغة ، ولغة فارس ذات عنايه بزخرفة الألفاظ وحبك الأساليب ، أنه فعل ذلك صباراً عن أمرين . أحدهما دينه أن البلاغة كل البلاغة في شرف المعاني وسهولة الألفاظ مع رصانة القول ورشاقة الأسلوب ولذا كان يقول « عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة » ويقول « إياك والتتبع لوحشى الكلام طمعاً في نيل البلاغة فإن ذلك هو العبي الأكر » ثم يقول وقد قيل له ما البلاغة ؟ « هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » يقصد أنها السهل الممتنع . وثانيهما توجيه همه في تغذية العربية بالفارسية إلى ناحية المعاني لا الألفاظ وللفرس في المعاني مجال ، فهم ذوو فلسفة أصيلة عرفت لهم كما عرفت للهنود وقد غنوها منذ القديم بالفلسفة الهندية التي ترجوها إلى لغتهم كما فعلوا في

كتاب كليلة ودمنة ، وقبل أن ينقرض ملكهم نقلوا كثيرا من فلسفة اليونان . ولهذا كثر فيهم الحكماء الذين ينطقون الحكم عن علم وثقيف لآعن غريزة وفطرة كما كانت تنطق العرب ، ولم تكن للعرب غنية عن ترجمة كثير من هذه الحكم في هذا الطور العباسي الذي حصلوا فيه على قسط وافر من التعليم . ولعل أول من نقل هذا الحكم وتلك الفلسفة إلى العربية عن أمثال يزدجرد وقباز وبهرام وسابور وأنوشروان وأزدشير وغيرهم في السياسة والاجتماع ومسائر أحوال الناس ، رجلنا الذي نتكلم عنه ، وما كان له وهو الفيلسوف أن يصدف عن هذا الجانب المعنوي إلى الجانب اللفظي بحال

هذا وكما يمثل ما نقلناه من نماذج ، أسلوب الترسل السهل الممتنع كما قلنا ، يمثل كذلك ما أشرنا إليه في ناحية المعاني أتم تمثيل ، فـ كل ما كتب ابن المقفع كان ظرفا يسكب فيه عقلا وحكمة وفلسفة وعبرة ، وعلى هذا الذي رسم ، سار من ورائه كتاب عصره كيجي بن زياد وعمار بن حمزة والقاسم بن صبيح وغيرهم ممن أدر كوا الدولتين وكتبوا للمنصور وهم رجال الطبقة الأولى . وكذلك رجال الطبقة الثانية أمثال أبي عبيد الله معاوية بن يسار وأبي عبد الله يعقوب بن داود ويوسف بن القاسم ويحيى ابن خالد وغيرهم ممن كتبوا للمهدي والهادي والرشيد ، ثم رجال الطبقة الثالثة أمثال الفضل وجعفر ابني يحيى والفضل والحسن ابني سهل وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة وغيرهم ممن كتبوا للرشيد والأمين والمأمون وأمثال محمد بن عبد الملك الزيات وإبراهيم بن العباس الصولي ونحوهما ممن تربوا في عصر المأمون وأدر كوا العصر الثاني فاعتبروا رجال

طبقة الاولى كما سيأتى بعد . فهذه الطبقات الثلاث حذت حذوا بن المقفع في الالفاظ السهلة الممتعة البعيدة عن المزاجية والسجع إلا ما جاء عفواً ، وفي المعانى الشريفة النبيلة المشهورة بسعة العقل وقوة المنطق ؛ ولذلك نقول إن استفادة العربية من الفارسية في العصر العباسى الأول في ناحية المعانى كانت أظهر وأوضح منها في ناحية الالفاظ ولسنناقول ذلك عن غير دليل نتقدم به ، فقد كتب أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور في كتاب بغداد يقول « حدثني أبو الحسن أحمد بن محمد المهابي قال حدثني يحيى بن الحسن بن على بن معاذ بن مسلم قال . إني بالرقعة بين يدي محمد بن طاهر بن الحسين على بركة إذ دعوت بسلام لى فكلمته بالفارسية فتدخل العتابة<sup>(١)</sup> وكان حاضرا فى كلامنا فتكلم معى بالفارسية فقلت له أبا عمرو مالك وهذه الرطانة فقال لى قدمت بلىدكم هذه ثلاث قدمات وكتبت كتب العجم التى فى الخزانة بمرور وكانت الكتب سقطت إلى ما هنالك مع يزدجرد فهى قائمة إلى الساعة فكتبت منها حاجتى ثم قدمت نيسابور وجزتها بعشرة فراسخ فذكرت كتابا لم أقض حاجتى منه فرجعت إلى مرور فأقمت أشهراً - قال فقلت - أبا عمرو ولم كتبت كتب العجم فقال لى « وهل المعانى إلا فى كتب العجم ، البلاغة

---

« ١ » هو أبو عمرو كلثوم بن عمرو العتابة ينتهى نسبه الى عمرو بن كلثوم التغلبي ، وهو شاعر رقيق مطبوع وكاتب مترسل بليغ قال الجاحظ « كان العتابة ممن اجتمع له الخطابة والبيان والشعر الجيد والرسائل الفاخرة » وقال يحيى البرمكي لولده وكان العتابة منقطعا اليهم « إن قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم ابن عمرو العتابة فضلا عن رسائله وشعره فافعلوا فلن تروا أبدا مثله » ،

فى اللغة لنا والمعانى لهم» قال ثم كان يذاكرنى ويحادثنى بالفارسية كثيرةا .  
ولهذا الذى كان من الكتاب فى هذا العصر من العناية بالمعانى  
لبست الكتابة فيه ثوب الایجاز أكثر مما جررت ذیول الاطناب  
وكان الكتاب یجدون لذلك حسن وقع فى نفوس الخلفاء ؛ حدث أحمد بن  
یوسف وزیر المأمون قل دخلت على المأمون وهو یمسك كتابا بیده  
وقد أطال النظر فيه زمانا وأنا ملتفت الیه فقال یا أحمد أراك منكرا  
منى متفكرا فيما تراه فقلت نعم وقى الله أمر المؤمنین من المکاره وأعاذه  
من المخاوف ؛ قال فانه لا مکروه فیه ولكنى قرأت كلاما وجدته نظیر  
ما سمعته من الرشید یقوله فى البلاغة فانه كان یقول «البلاغة التباعد عن  
الاطالة وانتقرب من معنی البغیة والدلالة بالقلیل من اللفظ على الكثير من  
المعنى وما كنت أتوهم أن أحدا یقدر على المبالغة فى هذا المعنى حتى  
قرأت هذا الكتاب - ورمى به إلى وقال - هذا كتاب من عمرو بن مسعدة إلى ،  
قال فقرأته فاذا فیه « کتابى إلى أمیر المؤمنین ، ومن قبلی من قواده  
وسائر أجناده فى الانقیاد والطاعة على أحسن ما تكون علیه طاعة  
جند تأخرت أرزاقهم ، وانقیاد کفاة تراخت أعطیاتهم واختلت  
لذلك أحوالهم والثالث معه أمورهم » فلما قرأته قال إن استحسنانى  
إیاه بعثنى أن أمرت للجند قبله بعطائهم لسبعة أشهر وأنا على مجازاة  
الکاتب بما يستحقه من حل محله فى صناعته . هذا وإنک لتجد الایجاز بادیا  
فما تقدم لابن المقفع من إخوانیات بل فیا تقدم له من رسائل أخذت  
اسم الکتاب وإن طالت لأن العبرة فى الایجاز لیست فى طول ما یکتب  
لنفس الطویل ، وإنما هی فى طول ما یکتب بالنظر إلى ما بهر عنه من معانٍ ،

ولذلك قد يوجد الطول مع الإيجاز كما هي حال تلك الرسائل، وقد يوجد  
الاطناب مع قلة كم الكتاب إذا كان معناه أقل من لفظه . ثم إنك لتجده  
كذلك في كتاب العصر الأول طرا ، وهذان اللذان جاء ذكرهما في الكتاب  
السابق كانا من أعلام الموحدين . كتب أحمد إلى إبراهيم بن المهدي وقد  
استقل هدية أطفه بها « بلغني استقلالك لما ألفتك ، والذي نحن عليه  
من الأنس سهل علينا قلة الحشد لك في البر ، فأهدينا هدية من لا يحتشم  
إلى من لا يغتنم » وكتب في التهنئة بأفراق من مرض « قد أذهب الله وصب  
العلة ونصبها ووفر أجرها وثوابها وجعل فيها من إرغام العدو بعقبها أضعاف  
ما كان عنده من السرور بفتح أولها » . وكتب عمرو موصيا بشخص  
« كتابي إليك كتاب واثق بمن كتب إليه معني بمن كتب له ولن يضيع  
حامله بين الثقة والعناية » وكتب إلى المأمون يستشفع في رجل بالزيادة له  
في منزلته ويعترض لنفسه « أما بعد فقد استشفع بي فلان يا أمير المؤمنين  
لتطو لك على ، في إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون ، فأعلمته أن  
أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين وفي ابتدأه بذلك تعدى  
طاعته والسلام » فوقع إليه المأمون « قد عرفنا نصريحك بصاحبك  
وتعريضك لنفسك وأجبتك إليهما ووقفناك عاميهما » وقال الرشيد يوما  
ليحيى بن خالد قد أحببت أن أنقل ديوان الخاتم من الفضل إلى جعفر  
وقد استحييت من مكاتبتك في هذا المعنى فاكتمت أنت إليه فكتب  
يحيى إلى الفضل « أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره أن تحول الخاتم  
من يمينك إلى شمالك » فأجابه الفضل « قد سمعت ما أمر به أمير  
المؤمنين في أخي وما انتقلت عن نعمة صارت إليه ولا غربت عن رتبة

طلعت عليه . ولما قتل طاهر بن الحسين على بن عيسى بن ماهان كتب الى الفضل بن سهل كاتب المأمون « أطل الله بقاءك وكبت أعداءك وجعل من شنؤك فداءك ، كتبت اليك ورأس على بن عيسى في حجرى وخاتمه فى يدى والحمد لله رب العالمين » .

ب - فى العصر الثانى - منذ عهد الرشيد ، قد استبحر العمران وعم الرخاء ونشرت الرفاهية أجنحتها على ذوى اليسار فنعموا بنعيم الحياة وذاقوا حلاوة الوجود وصار فى متناول الجميع التمتع بما كان للفرس من متعات ، وأصبح كل إنسان لا يرضى مما هو فيه بغير الكثير فكان من الطبيعى وقد فاضت الفارسية على العربية اذذاك بكل ما هو معروف عنها من بسط وإطناب ، أن يشب الكتاب الناشئون فى آخر هذا العصر نشأة طفولة ، على غير ما عليه كتابه من ترسل وإيجاز فهم لا بد مطنبون فيما يكتبون يجعل أبواب المعانى فضفاضة ذات ذيول ولن يكون هذا بغير الاكثار من المفردات والجل ، على سبيل الترادف والازدواج . وقد شاءت الاقدار أن تحبو هذه الفترة بطفل موهوب ينشأ فيها نشأة الكتاب فلا يكاد هذا العصر الأول ينقضى حتى يستوى فى العصر الثانى حامل لواء هذه الطريقة الجديدة أمام الكتاب ذلكم هو أبو عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب الذى يقتضينا مقامه كلمة عنه فى هذا المقام .

ولد الجاحظ بالبصرة سنة ستين ومائة وهى على ما علمت عنها فيما ذكرنا عن ابن المقفع ، عش الادب . فأدرك طبقة الاصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد وأخذ عنهم ما خصوا به من أدب وفكاهة وغريب ، ولازم أبا إسحاق

ابراهيم بن سيار النظام المتكلم المعتزلى المعروف فتخرج عليه فى علم الكلام، ثم خالط أعلام الكتابة والترجمة فقرأ جميع ما ترجم أيام المنصور والرشيد والبرامكة والمأمون فخرج بذلك كله أديبا فكها عالما فيلسوفا، وأقام بالبصرة إقامة مغرم بالكتب لا يدع كتابا حتى يستوعبه قراءة وفهما، وكثيرا ما كان يكثرى دكا كين الوراقين فيقيم فيها ينظر ويتمت، وإن فيما أودعه وصف الكتاب آنفا لا نصم دليل على ما للكتب فى نفسه من منزلة وعلى تنوع ما جنه منها من فائدة، وكان محبوبا من كل من فى البصرة من الولاة والأعيان عربا وفرسا، لا يزال محبوبهم بما يصنف من كتب ورسائل فى شتى العلوم والفنون ولا يزالون بحبونه بجزيل العطايا وسنى الدلات وبعد قليل ذاع صيته ببغداد وسر من رأى، فكان يندفع اليهما الخلفاء والوزراء والعظماء حتى استخدمه محمد بن عبد الملك الزيات فى كتابة الديوان، ولما قتل ابن الزيات عاد الى البصرة فأقام بها كما كان طالما مصنفًا وأديبا كاتبًا الى أن فليج وبقي بالفالج طويلا ومع هذا لم ينفطع عما نصب نفسه له وطالما حمل مفلوجا الى بغداد يستمتع به، وفى إحدى هذه الحملات مات بها سنة خمس وخمسين ومائتين.

بهذه الكفاية الممتعة فى العلم والفلسفة والأدب والكتابة، زاول الجاحظ تدبيج الكتب والرسائل فكان أمحوبة الزمان وينبوع الافتنان، إن ذكر أدب العلماء فهو آدهم وإن ذكر علم الأدياء فهو أعلمهم، وقد استخلص مما قرأ علومًا حجة شارك بها أهل كل علم، وآدابًا تمتعة ضرب فيها بكل سهم، فكان واسع الاطلاع لطيف البحث طيب الفكاهة مخترا لدقيق المعانى صواغا لبليغ العبارات، إذا ألف ألف بين الاشتات وإذا

كتب استنزل العصم من العبارات صادرا عن نفس جامعة بين المتناقضات.  
فكان راوية متكلم وفيلسوف مسامرا وأديباً مؤرخاً وشاعراً طالما تدارسا  
أحوال الحيوان والنبات والجمادات والجمادات، وهو في  
كل ذلك الكاتب المكثّر الذي لا يدرك له شأو ولا يشق له غبار حتى  
لأنه المعنى بقول أبي نواس :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد  
لذلك عد أحد الأفاضل وإحدى حجج اللسان. قال يصف كتبه ابن العميد  
« كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والادب ثانيا » وقال يصفها السعدي أيضا  
على تشييعه وعثمانية الجاحظ « وكتب الجاحظ مع انحرافه - أي عن  
التشيع - تجلو صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان . لأنه نظمها  
أحسن نظم ورصفها أحسن رصف وكساها من كلامه أجزل لفظ .  
وكان إذا تخوف ملل القارئ وسامة السامع خرج من جد إلى هزل  
ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة . وله كتب حسان منها كتاب  
البيان والتبيين وهو أشرفها لأنه جمع فيه من المنثور والمنظوم وغرر  
الاشعار ومستحسن الأخبار وبلغ الخطب ما لو اقتصر عليه مقتصر  
لا كتفى ، وكتاب الحيوان وكتاب الطفيليين والبغلاء ، وسائر كتبه في  
نهاية الكمال ما لم يقصد منها إلى تعصب أو إلى دفع حق ، ولا يعلم من  
سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه . »

فلا جرم وهذه حال الجاحظ أن يكون إمام الكتاب في هذا  
العصر العباسي الثاني ، وكما قامت ميز العصر الأول على الترسل والايجاز  
تقوم ميزة الثاني بما من الجاحظ على الازدواج والاطناب . وإن عوده



إلى ما اخترنا له في مدح التجار وذم عمل السلطان وفي وصف الكتاب وفي محاسن الضحك لتريك بأجلى وضوح قدرته على المزاوجة والترادف وإتباع الشيء بمثله والقربى بقرنه في فقرات يغلب أن تكون قصيرات حتى ليسلخ في المعنى الواحد عبارات كثيرة في ابتداء مستحدث وابتكار ليس له فيما سبق مثيل ، وهانحن أولاء ناقلون هنا شيئا مما قال في الحسد مسبقا بما قال ابن المقفع إمام العصر الأول فيه ، حتى تكون الموازنة متحدة الموضوع .

قال ابن المقفع في الحسد من الأدب الكبير « ليكن مما تصرف به الأذى والعذاب عن نفسك ألا تكون حسودا ، فإن الحسد خلق لئيم ومن لؤمه أنه يوكل بالأذى فالأذى من الأقارب والاكفاء الخلفاء . فليكن ما تقابل به الحسد أن تعلم أن خير ما تكون ، حين تكون مع من هو خير منك وأن غمالك أن يكون عشيرك وخليطك أفضل منك في العلم فتقبس من علمه ، وأفضل منك في الجاه فتصيب حاجتك بجأه ، وأفضل منك في الدين فيزداد صلاحك بصلاحه . وليكن ما تنظر فيه من أمر عدوك وحاسدك أن تعلم أنه لا ينفعك أن تحب عدوك أنك له عدو ، فتندره نفسك وتؤذنه بحربك ، قبل الاعداد والفرصة فتحمله على التسليح لك وتوقد ناره عليك » .

وقال الجاحظ مما قال في رسالة الحسد « وهب الله لك السلامة وأدام لك الكرامة ورزقك الاستقامة ورفع عنك الندامة . كتبت إلى أكرمك الله تسألني عن الحسد ماهو ومن أين هو وما دلائله وأفعاله وكيف تفرقت أموره وأحواله وبم يعرف ظاهره ومكتومه ولم صار في العلماء

أكثر منه في الجهلاء ولم كثر في الأقرباء وقل في البعداء وكيف دب في الصالحين أكثر منه في الفاسقين وكيف خص به الجيران من جميع الأوطان؟ الحسد أبغاله الله داء ينهك الجسد ويفسد الأود علاجه عسر وصاحبه ضجر وهو باب غامض وأمر متعذر فما ظهر منه فلا يداوى وما بطن منه فداويه في عناء ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « دب إليكم داء الأمم قبلكم ، الحسد والبغضاء » وقال بعض الناس لجلسائه أي الناس أقل غفله فقال بعضهم صاحب ليل إنما هم أن يصبح فقال إنه لكذا وليس كذلك وقال بعضهم المسافر إنما هم أن يقطع سفره فقال إنه لكذا وليس كذلك فقالوا له فأخبرنا بأقل الناس غفله فقال الحاسد ، إنما هم أن ينزع الله منك النعمة التي أعطاكها فلا يغفل أبدا . ويروى عن الحسن أنه قال « الحسد أسرع في الدين من النار في الخطاب اليابس » وما أتى المحسود من حاسد إلا من قبل فضل الله تعالى إليه ونعمته عليه قال الله تبارك وتعالى « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما » . والحسد عقيد الكفر وحليف الباطل وضد الحق وحرب البيان وقد ذم الله تعالى أهل الكتاب فقال « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا ، حسدا من عند أنفسهم من بعدما تبين لهم الحق » فمنه تتولد العداوة وهو سبب كل قطيعة ومنتج كل وحشة ومفرق كل جماعة وقاطع كل رحم بين الأقرباء ومحدث التفرق بين القرناء وملقح الشر بين الخلطاء ، يكمن في الصدر كمن النار في الحجر ، ولو لم يدخل رحمك الله على الحاسد بعد تراكم الهموم على قلبه واستمكن الحزن في

جوفه وكثرة مضضيه ووسواس ضميره وتنغيص عمره وكدر نفسه ونكد  
لذاذة عيشه الاستصغاره لنعمة الله تعالى عنده وسخطه على سيده بما  
أفاده عبده، وتمنيه عليه أن يرجع في هيبته إياه ولا يرزق أحدا سواه ،  
لكان عند ذوى العقول مرحوما وكان عندهم في القياس مظلوما وقد  
قال بعض الاعراب « مارأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد نفس دأثم  
وقلب هأثم وحزن لازم » فالحاسد مخذول ومأزور والمحسود محبوب  
ومنصور ، والحاسد مهموم ومهجور ، والمحسود مغشى ومزور - إلى أن  
قال في آخر الرسالة وهي اثنتا عشرة صفحة - وما أرى السلامة إلا في  
قطع الحاسد ولا السرور إلا في افتقاد وجهه ولا الراحة إلا في صرم  
مداراته ولا الربح إلا في ترك مصافاته . فإذا فعلت ذلك فكل هنيئا  
واشرب مريثا ونم رضيا وعش في السرور مليا ، ونحن نسأل الله  
الجليل أن يصني كدر قلوبنا وبجنبنا وإياك دناءة الاخلاق، ويرزقنا وإياك  
حسن الألفة والاتفاق ، أحسن الله توفيقك والسلام .

وعلى هذا النحو من المزاجية الكثيرة الفقرات مع تقصيرها غالبا  
للملاءمة القصر للزواج ، كان الجاحظ يكتب عن ذهن صفي وطبع رخي  
فيطنب ماشاء له الاطناب ، كما يتضح ذلك حتى في قصار رسائله مالم  
يتعمد فيها مساواة ، كما في تهنئته الفتح بن خاقان ومعاتبته قليبا المغربي  
أو إيجازا كما في كتابه السابق معهما يستنجز بماطلا ، فان القلة كما قلنا لاتأبى  
الاطناب ، كما لاتأبى الكثرة الإيجاز ، وهذه رسالة له في ثلاثة سطور  
ولكنها من الاطناب قال « أما بعد فما أقبح الاحذوثة من مستمنح حرمة

وطالب حاجة رددته، ومثابر حجبتة ، ومنبسط إليك قبضته، ومقبل عليك بعنايته لويت عنه ، فتثبت في ذلك، ولا تطلع كل حلاف ممين هماز مشاء بنميم » ولم يكن موضوع الكتاب مهما تجافى عن الادب والفن ولج في السيرة والعلم، ليقف بالملاحظ دون تلك الطريقة الفذة، أو يصرفه عن تناولها ، انظر إليه وهو يقول من تأريخه قريش « قد علم الناس كيف كرم قريش وسخاؤها ، وكيف عقوقها وذاؤها وكيف رأيها وذاؤها، وكيف سياستها وتديرها، وكيف إيجازها وتحسيرها، وكيف رجاجة أحلامها إذا خف الحليم، وحدة أذهانها إذا كل الحديد، وكيف صبرها عند اللقاء وثباتها في اللاواء، وكيف وفاؤها إذا استحسن الغدر وكيف جودها إذا حب المال وكيف ذكرها لا حاديت غدوالة صدورها عن جهة القصد وكيف إقرارها بالحق وصبرها عليه وكيف وصفها له ودعاؤها اليه، وكيف سماحة أخلاقها وصونها لأعراضها، وكيف وصلوا قديمهم بحديثهم وطريفهم بتليدهم، وكيف أشبهه علانيتهم سرهم وقولهم فعاهم وهل سلامة صدر أحدهم إلا على قدر بعد غديره وهل غفلته إلا في صدق ظنه وهل ظنه إلا كيقين غيره » وانظر اليه يرسم الخطبة المثلث لمن يقرأ الكتب فيما يجب أن يكون منه إزاء المعاني والالفاظ ، لتستفيد وتعرف كيف استفاد قال « ومن قرأ كتب البلغاء وتصفح دواوين الحكماء ليستفيد المعاني فهو على سبيل الصواب ، ومن نظر فيها ليستفيد الالفاظ فهو على سبيل الخطأ ، والخسران هاهنا في وزن الربح هناك ، لأن من كانت غايته انتزاع الالفاظ ، حمله الخرص عليها والاستئثار بها إلى أن يستعملها قبل وقتها، وبضعها في غير مكانها ، ولذلك قال بعض الشعراء

لصاحبه: أنا أشعر منك فلما قال له ولم ذاك؟ قال: لاني أقول البيت وأخاد، وأنت تقول البيت وابن عمه، وإنما هي رياضة وسياحة وسماح الألفاظ صار ونافع، فالوجه النافع أن تدور في مسامعه وتغيب في قلبه وتخيم في صدره، فإذا طال مكثها تناحكت ثم تلاقحت، وكانت نتيجةها أكرم نتيجة وثمرتها أطيب ثمرة لأنها حينئذ تخرج غير مسترفة ولا مختلسة ولا مغتصبة ولادالة على فقر، إذ لم يكن التصدد إلى شيء بعينه والاعتماد عليه دون غيره، وبين اللفظ إذا عشت في الصدر ثم باض ثم فرخ ثم نهض وبين أن يكون اعتسافا واعتصافا بفرق بين. ومتى اتكل صاحب البلاغة على الهويني والوكال، وعلى السرقة والاحتتيال. لم ينل طائلا وشق عليه النزوع واستولى عليه الهوان، واستهملته سوء العادة. والوجه الضار أن يحفظ ألفاظا بأعيانها من كتاب بعينه، أو من لفظ رجل ثم يريد أن يعد لتلك الألفاظ قسمها من المعاني، فهذا لا يكون إلا بخيلا فقيرا وحائفا سروقا ولا يكون إلا مستكرها لألفاظه متكلفا لمعانيه، مضطرب التأليف منقطع النظام، فإذا مر كلامه بنقاد الألفاظ وجها بذة المعاني، استخفوا عقله وبهرجوا علمه .

وقد اقتدى بالجاحظ في هذا الأسلوب كتاب عصره الذين قلنا إنهم تربوا في عصر المأمون، نقصد بذلك أنهم جمعوا إلى الآداب العربية، الآداب الدخيلة تامة الآن والاسْتواء بما استبحر من آداب الفرس والهنود وبما أعيد نقله وفقهه على أصله من فلسفة اليونان، وقد ذكرنا منهم الصولي وابن الزيات، ونضم إليهم الآن الحسن وسليمان ابني وهب وسعيد بن حميد، وأحمد بن إسرائيل وغيرهم ممن كتبوا للمعتصم

والوائق والمتوكل وجاوزوهم إلى المنتصر والمستعين والمعز والمهتدى  
 والمعتبد وهم رجال الطبقة الأولى في العصر الثاني ، وقد أعقبتهم طبقة  
 ثانية أمثال عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وأبي العباس بن ثوابه ، وأبي  
 الحسن علي بن الفرات ، وعلي بن الجراح وغيرهم ممن كتب بعد المعتمد  
 للمعتضد والمكتفي والمقتدر . وأعقبت هذه طبقة ثالثة منها الحسين بن  
 عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وأبو الفضل جعفر بن الفرات ، وأبو علي  
 ابن مقلة وغيرهم ممن كتبوا بعد المقتدر للقاهر والراضي والمتقي  
 والمستكفي الذي انتهى على أيامه العصر الثاني بدخول بني بويه بغداد .  
 فكل هؤلاء كانوا للجاحظ في طريقته محبذين ، ولأسلوبه مترسمين ، كما  
 نرى فيما اخترنا لبعضهم من إخوانيات . وكذلك كانوا في غيرها مما  
 يكتبون من الرسائل المطولة أو المصنفات ، فهذا حمزة الاصفهاني جامع  
 ديوان أبي نواس يقول في مقدمة هذا الديوان « سألتني أباك الله وأعلى  
 قدرك ، وبلغك أقصى أملاك ، وزادك من أفضل ما خولك وأحسن ما منحك  
 ولا أعدمك جميل ما عودك ، أن أصرف لك عنايتي إلى عمل مجموع من شعر  
 أبي نواس مشتمل على كل أشعاره وجل أخباره ، وقد أسعفتك أيديك الله  
 بطلبتك ، وأجبتك إلى ملتمسك » إلى آخر ما قال على هذا النمط الذي ابتدأه  
 بالدعاء كما كان يبتدئ الجاحظ ، وطديكر والدعاء في ثانيا ما يقول بعد الابتداء  
 كما كان يكرر . وهذا أبو محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة تأثر  
 الجاحظ فيما خاف من مصنفات جاءت في الأسلوب والاطناب على  
 نحو ما كان للجاحظ من مؤلفات ، وستقرأ نبذة منها بعد قليل .  
 وكما أوحى العصر الأول إلى كتابه أن يحمداو ويحمدهم الايجاز ،

فقد أوحى هذا العصر الثاني إلى رجاله أن يكرروا ويطنبوا اعتقاداً منهم أن في التكرار على أيامهم قوة بلاغ للمعنى، وشدة تأثير في النفس، ثم غلوا في هذا الاعتقاد حتى أوصوا به وحادوا عما كان شائعاً في العصور قبلهم من إيجاز؛ قال ابن قتيبة في أدب الكاتب « ولو كتب كاتب إلى أهل بلد في الدعاء إلى الطاعة والتحذير من المعصية، كتب يزيد بن الوليد إلى مروان حين بلغه عنده تلكه في بيعته - أما بعد فاني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فاعتمد على أيهما شئت - لم يعمل هذا الكلام في أنفسها عمله في نفس مروان، ولكن الصواب أن يطيل ويكرر، ويعيد ويبدى، ويحذر وينذر » ونحن نقول: ولهذا لم تعد استفادتهم من الفارسية واقفة عند حدود المعاني كما كانت لدى أولئك الأسلاف بل صارت في ناحية اللفظ والمعنى سواء.

على أننا لا ننكر أن ما حدث بهذا العصر من حيدة ذوى الامر لجهلهم، عن التشجيع، وانصراف الناس إلى العلوم العقلية أكثر من علوم اللسان؛ ثم نصرة الشعوية الداعية إلى احتقار الغرب وتهوين ما لهم من كفايات، قد أصاب الأدب والأدباء، فأثر ذلك في صناعة الكتابة فيه بعض التأثير وظهر الضعف في كتابات الكتاب. ومن أجل هذا وضع ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ كتاب أدب الكاتب. فاسمع إليه يقول في مقدمته: « أما بعد فاني رأيت أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين، ومن اسمه متطيرين، ولا أهله كارهين. أما البناشيء منهم فراغب عن التعليم، والشاؤى تارك للزيادة، والمتأدب في عنفوان الشباب ناس أو متناس ليدخل في جملة المجذوبين ويخرج عن جملة المحدودين. فالعلماء

مغمورون وبكثرة الجهل مقموعون، حين هوى نجم الخير وكسدت  
سوق البر، وبارت بضائع أهله وصار العلم عاراً على صاحبه، والفضل نقصاً  
وأموال الملوك وفقاً على النفوس؛ والجاء الذي هو زكاة الشرف يباع ببيع  
الخلق، وأضحت المروءات في زخارف النجد وتشديد البنيان، ولذات  
النفوس في اصطفاف المزاهر ومماطاة الندمان، ونبذت الصنائع وجهل  
قدر المعروف وماتت الخواطر، وسقطت همم النفوس وزهد في لسان  
الصدق وعقد الملكوت. فأبعد غايات كاتبنا في كتابته أن يكون حسن  
الخط قويم الحروف، وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتاً في  
مدح قينة أو وصف كأس - إلى أن قال - فاني رأيت كثيراً من كتاب  
أهل زماننا كسائر أهله قد استطابو الدعة واستوطئوا مركب العجز  
وأعفوا أنفسهم من كد النظر، وقلوبهم من تعب التفكير حين قالوا  
الدرك بغير سبب؛ وبلغوا البغية بغير آلة.

ج . في العصر الثالث - كانت الثروة على ما علمت في العصر  
الثنائي ممدودة الرواق، وكانت الحضارة وارفة الظلال، وكان  
الأثرياء منغمسين في المتع غارقين في النعيم. غير أن جهل القائمين بالأمر  
على الدولة فيه، جعل الأدب كما نقدم تركد ربحه، وتفتت حر كته، وجعل  
الكتاب وهم قطب الأدب الذي عليه يدور رحاه بعيدين في جمهورتهم  
أن يشركوا أولئك القائمين في سعة النفوذ وبالتالي في الاستمتاع  
بمباهج الحياة. ولكن ما كاد هذا العصر الثالث يقضي على سابقه برفع  
نفوذ الخدم الأتراك عن بغداد وجعله في أيدي آل بويه الذين وإن شلوا  
نفوذ الخلافة كانوا من العلماء الأدباء، حتى علا نجم الأدب وارتفع شأن



الكتابة ونافست بغداد في ذلك حواضر كثيرة إن نقص عنها بعض فقد أوفى عليها آخر ، وكانت هذه المنافسة أشد ما تكون بين رجال الكتابة الحاليين إذ ذاك من الملوك محل السمع والبصر ، وكان قد مهد لذلك بالدويلات التي انسلخت عن الخلافة قبيل حلول العصر الذي نتكلم فيه . فكانت منها دولة السامانيين ببخارى التي زهت بنفوذهم وصارت منتدى العلم والأدب على أيامهم ، وشارك ملوكها في سعة النفوذ وعراصة الجاه ووداعة العيش ورفاهة الحضارة ، عدد من الكتاب كانوا يلقبون بالشيوخ ، منهم أبو محمد عبد الله بن الحسين الذي لقب فوق الشيخ بلقب العميد زيادة في التعميم أيام نوح بن نصر ، فكان بيته بيت غنى ونعمة وثروة وجاه . وقد نشأ في هذا البيت ابنه أبو الفضل محمد بن العميد نشأة محوطة بكل هذا النعيم ، فأحسن أبوه في هذه البيئة تربيته ، ورشحه لصناعته وهياه منزله ، وكان ذا ذهن صاف وطبع موات ، فعرف علوم العرب والعجم ونبغ في العربية والفارسية وتضلّع في آدابهما حتى لقب بالامتاز والرئيس . ثم نبه شأنه وضافت الدولة السامانية عن قدره ، فاجتذبتة دولة آل بويه فوزر لركن الدولة سنة ٣٢٨ وامتد به العمر في هذا السلطان ثلث قرن كان فيه محط الرسل وكعبة الآمال والممدوح من الكتاب والشعراء بكل لسان ، حتى توفي سنة ٣٦٠ .

ذاك ما أردناه التنويه به عن بيت ابن العميد وشخصه ونعمة عصره وخفض عيشه ، لنخرج منه إلى أن الكتابة لا بد ظافرة لهذين الأمرين بأسلوب تخطه روح العصر وتقويم دعائه يد ابن العميد ، فإن الزخرف تناول كل مظاهر الحياة من المسكن والملبس والمطعم

والمشرب ، وحمل ذوى الترف واليسار أن يتأثقوا فى كل ذلك ما وسعهم  
التأثق ، ففعلوا فيما حملوا عليه ، وتنافسوا فيه حتى ظهرت آثار ذلك فيما  
ذكرنا وفيما لم نذكر واضحة للعيان تبهر الأبصار . ومن أولى من  
ابن العميد ، واللغة كائن يتأثر كما تتأثر الكائنات ، وهو الناشئ يحوطه  
الترف ويحدوه النعيم ، أن يحكى فى كتابته ما يشهد فى عيشه ويعكس  
على أسلوبه ما يشع من ضوء نفسه ؛ اللهم لا غيره يصلح لأن يكون  
صاحب الأسلوب الجديد . فبأى شئ يأتى يحدث الزخرف ويحصل  
التنميق ؟ لا شك أن الخطوة الطبيعية بعد الزواج تكون السجع فانه  
أول ما يدل فى صاحبه على ذلك ، وهو إذا جودت صياغته أكسب المعنى  
قوة فوق تحليلته الألفاظ ، وبعد السجع يكون الالمام بأجمل الحلى اللفظية  
من جناس ، وأجمل الحلى المعنوية من طباق ، على أن تبقى الصورة الظاهرة  
للأسجاع .

رسم ابن العميد هذا الأسلوب الجديد صادرا فيه عن فنان صناع ،  
قد امتلأت نفسه بشتى الصور والألوان ، وأرهف حسه حتى أصبح  
يشعر بما يدق عن الكهان ، فجاء ممثلا فى السجع ملزوما بصحبه الجناس  
قليلا والطباق نادرا ، مع الالمام بما كان للطريقة الجاحظية من إطالة  
وإكثار وترادف وإطناب ، ولكن فى عدول غالبا عما كان لها من تقصير  
الفقرات إلى إطالتها التى أصبحت لا تتنافى والسجع كما كانت تتنافى مع  
الزواج ، فتبها إلى العصر الأول ، وجمع بذلك كله بين ماسن العصور .  
على أن العناية بالألفاظ لم تكن لتشغل ابن العميد عن العناية  
بالمعنى وهو الحكيم الفيلسوف ، الجامع بين سعة المنقول وغور المعقول ،

فما كان لفارس والهند والعرب ويونان فكانت معانيه كالفاظه ذات  
 حظ فيما لكلامه من بهاء وكتاهما لصاحبها زين وجمال كما قيل :  
 تزين معانيه ألفاظه وألفاظه زائنات المعاني  
 وحسبه أن يظفر في وصف بلاغته بأبيات من المتنبي قد طلعت على  
 إلا كوان شمسا ، وسارت في الآفاق مثلا ، فهو القائل فيه :  
 إذا سمع الناس ألفاظه خلقن له في القلوب الحسد  
 وهو القائل فيه :

عربي لسانه ، فلسفي رأيه ، فارسية أعياده  
 خاق الله أفصح الناس طرا في مكان أعرا به أكراده

بل حسبه أن يكون المقول عنه « بدئت الكتابة بعبد الحميد  
 وختمت بابن العميد » فإن الحسن الذي وصلته على يده لم يزد على يد  
 أحد وإن ماثله من بعده ، ولذا اطمأن الناس إلى طريقته حتى لكأنها  
 كانت أمل رجال العصر يريدونه ولا يدركونه ، وطابع كتابه يودون  
 رسمه ولا يعرفونه ، فإإن عبد لهم طريقها حتى سلكوه ثم تسابقوا فيه  
 تسابق الجياد في الميدان ، فكانت الطبقة التي لم يعد الدهر يسمح لها  
 بمثال ، ويكفي أن يكون فيها صاحبه أبو القاسم اسماعيل بن عباد المتوفى  
 سنة ٣٧٥ وأبو اسحق الصباني ابراهيم بن هلال المتوفى سنة ٣٨٤  
 وأبو بكر الخوارزمي محمد بن العباس المتوفى سنة ٣٨٣ وأبو الفضل بديع  
 الزمان أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٣٩٨ وأبو منصور الشعاني  
 عبد الملك بن محمد المتوفى سنة ٤٢٩ ، وغير هؤلاء ممن عطروا الوجود  
 بأريج أنفاسهم ، وجعلوا للكتابة مضاء السيوف بأسنة أقلامهم ، فكان

لها على أيديهم من مزايا الابتكار أو فضل الزيادة والاكتثار، ما نشير الآن إلى أهمه في ناحية الأسلوب .

١ - جعلوا الطابع المميز لها في هذا العصر السجع مع الاطناب يصحبه الجناس على قلة والطباق نادرا، على أن تكون الصورة الظاهرة للأسلوب هي السجع دون غيره، ولهذا أغرم القوم به اغراما و التزموه التزاما في تمكن وقوة، فجاء عفووا صفوا كسجع الحماهم حسن وقع وجمال انسجام وقد بلغ من التزامهم إياه أن انتقل ببعضهم من ميدان الادب إلى ميدان التأليف كما فعل أبو نصر العتبي محمد بن عبد الجبار المتوفى سنة ٤٢٧ في تاريخه المسمى اليميني نسبة إلى يمين الدولة السلطان محمود الغزنوي، فقد ترجم فيه حياته وحياته أيه سبكتكين ، وكان كاتبها، في أسلوب كله مسجوع بعيد عن التكلف والاستكراه وكما فعل الشعالي المذكور في يتيمة الدهر وإن لم يبلغ مداه، ثم كجاء سجع الكتاب في هذا العصر على ما قدمنا لا تكلف فيه جاء كذلك ما قد يلمون به مع السجع من جناس وطباق ، انظر الى الخوارزمي يقول مستخدما لها في كتاب منه إلى نائب الوزير ابن عباد هو دا « كتبت إلى الأستاذ معاتبا مره ومستعتبا كره، فواجدت للعتاب إعتابا ، ولاقرأت عن الكتاب جوابا ، وليت شعري ما الذي منعه عن صلة لا تضره وتنفعي ، وعن تواضع لا يضعه ويرفعني »

٢ - أكثروا تضمين رسائلهم الحكم والجوامع والأمثال والأشعار والأشارات التاريخية والعلمية، والنكت الأدبية والملح الفكاهية وبخاصة إذا كان التراسل بين أخوين توثقت بينهما عرى المحبة وارتفعت رسوم

الكلفة كالذى كان من ابن العميد إلى أبي العلاء السروى فى رسالة يشكو فيها رمضان سنة شديدة الحر فانها من أجمع الرسائل<sup>١</sup> لما ذكرنا تقريرا ولذا أثرتنا الاستشهاد بها عليه قال .

كتابى جعلنى الله فداك، وأنا فى كد وتعب منذ فارقت شعبان، وفى جهد ونصب من شهر رمضان ، وفى العذاب الأدنى دون العذاب الاكبر من ألم الجوع ووقع الصوم ، ومرتهن بتضاعيف .

حرور لو أن اللحم يصلى ببعضها غريضا أتى أصحابه وهو منضج<sup>(١)</sup> وممتحن به واجر يكاد أوارها يذيب دماغ الضب ويصرف وجه الحرياء عن التحنف ويزويه عن التنصر<sup>(٢)</sup> ويقبض يدها عن إمساك ساق وإرسال ساق ،

ويترك الجأب فى شغل عن الحقب<sup>(٣)</sup> ويقده النار بين الجلد والعصب وينغادر الوحش وقد مالت هواديها<sup>(٤)</sup>

مسجود الذى الأرضى كأن روءسها علاها صدادع أو فواق بصورها<sup>(٥)</sup> وكما قال الفرزدق

ليوم أتى دون الظلام شموسه تظل لها صورا جماجمها تغلى وكما قال مسكين الدارمى

وهاجرة ظلمت كأن ظيائها اذا ما اتقتها بالقرون مسجود

---

(١) حرور جمع حر ، والغريض الطرىء ، والمنضج التام الطبخ (٢) يريد يصرف الحرياء عن عاداتها فى استقبال الشمس كأنها تعبدها (٣) الجأب حمار الوحش والحقب أثنه جمع حقباء (٤) رءوسها (٥) الأرضى نبات مستعلقى يتمسح فيه الوحش اذا اشتد الحر تبردا

قلود بشو بوب من الشمس فوقها كما لا ذل من وخز السنان طويد  
وممنو بأيام تما كي ظل الرمح طولاً وليال كاهام القطا قصرأ ، ونوم كلا  
ولاقله<sup>(١)</sup> وكحسو الطائر من ماء التمداد دقة وكتصفيفة الطائر المستحرجة  
كما أبرقت قوما عطاشا غمامة فلما رأوها أقشعت وتجلت

ومثل

نقر العصافير وهي خائفة من النواطير يانع العنب  
وأحمد الله على كل حال وأسأله أن يعرفني فضل بركته وياقيني الخير  
في باقي أيامه وخاتمته ، وأدغب اليه في أن يقرب على القمردوره ويقصر  
سيره ، ويخفف حركته ويمجل نهضته ، وينقص مسافة فلكه ودأثرته  
ويزيل بركة الطول من ساعاته ، ويرد على غرة شوال فهي أسرار الغرر عندي  
وأقرها لعيني ، ويسمعي النعرة في قفا شهر رمضان ويعرض على هلاله  
أخفى من السر وأظلم من الكفر ، وأنحف من مجنون بنى عامر وأضنى من  
قيس بن ذريح وأبلى من أسير الهجر ، ويسلط عليه الحور بعد الكور<sup>(٢)</sup>  
ويرسل على رقاقتة التي يغشى العيون ضوءها ويحط من الأجسام نوءها  
كلها يغمرها وكسوفاً يسترها ويرينيه مغمور الظهور مغمور النور ، قد  
جمعه والشمس برج واحد ودرجة مشتركة ، وينقص من أطرافه كما  
تنقص النيران من أطراف الزند ويبعث عليه الأرضة ويهدي اليه  
السوس ويغري به الدود ويبلية بالفأر ويخترمه بالجراد ويبيده بالنمل  
ويحتجفه بالذر ويجعله من نجوم الرجم ويرمى به مسترق السمع ويخلصنا  
من معاودته ويريحنا من دوره ويعذبه كما عذب عباده وخلقه ويفعل به

(١) أي كثر من بين هذا الحرف مكرراً في الإجابة (٢) النقصان بعد الزيادة

فعله بالكتمان ويصنع به صنعه بالالوان، ويقابله بما تقتضيه دعوة السارق  
إذا افتضح بضوئه وتهتك بطلوعه « ويرحم الله عبدا قال آمينا » وأستغفر  
الله جل وجهه مما قلته إن كرهه وأستغفیه من توفيتي لما يذمه وأسأله  
صفحا يفيضه وعفوا يسبغه . وحالى بعد ما شكوته صالحة وعلى ما تحب  
وتهوى جارية، والله الحمد تقدست أسماؤه والشكر

٣ - أغرموا بالخيال الشعرى إغراما شديدا فهموا في أوديته  
كما يهيم الشعراء واستخدموا صورهم كما يستخدمون ، حتى صار كلامهم  
والشعر سواء ، لولا أنه غير موزون . ولذلك بالغوا في الاستشهاد به  
حتى كان يصل أحيانا قدر النثر كما يقول المصاحب بن عباد في كتاب  
يصف به فصلا من كتب العميد

فصل رأيته فصيح الإشارة لطيف العبارة

إذا اختصر المعنى فشربة حاتم وإن رام إسهابا أتى الفيض بالمد  
فصل قد نظرته فرأيت جسما معتدلا وفهما مشتعلا  
ونفسا تفيض كفيض الغمام وظرفا يناسب صفو المدام  
فصل قد عمهم بنعمه وغمهم بشيمه

وغزاهم بسوابغ من فضله جعلت جماجمهم بطائن نعله  
وهكذا - ثم جاوزوا هذه المبالغة في الاستشهاد إلى ترصيع الكتاب  
بالشعر كل فقرة بشطر كأول ما كان من البديع إلى الخوارزمي في  
الشوق قبيل رحلته إليه إذ يقول

أنا تقرب دار الأستاذ كما طرب النشوان مالت به الخمر  
ومن الارتياح للقاءه كما انتفض العصفور بالله القطر

ومن الامتزاج بولائه كما التقت الصبء والبارد العذب  
ومن الابتهاج بمزاره كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب  
ولقد ساعد كتاب هذا العصر - على ذلك ، أن جمهرة كبيرة منهم -  
وهذا ميزة له - كانوا شعراء كما كانوا كتابا وإن غلبت إحدى الموهبتين  
على صاحبها<sup>(١)</sup> ومن هذا تسنى لكثير منهم أن يضمن كتابته  
أشعاره ويذيل رسائله بأبياته . كتب الصبائي إلى قاضي القضاة أبي محمد  
ابن معروف وكان قد زاره في معتقله أيام عضد الدولة وواساه يقول .  
لقد قوى دخول سيدنا قاضي القضاة إلى نفسي وجددا نسي وأغرب  
نحسى ووسع حبسى فدعوت الله تعالى بما قد ارتفع اليه وسمعه له ، فإن  
لم أكن أهلا لأن يستجاب مني فهو أيده الله أهل لأن يستجاب  
فيه وأقول مع ذلك .

دخلت حاكم حكام الزمان على صنيعة لك رهن الحبس ممتحن  
أخنت عليه خطوط جارجرها حتى توفاه طول المهمل والحزن  
فعاش من كلمات منك كن له كالروح جائدة منه إلى البدن  
ولنصوع الجمال الذي فاض على الكتابة بما تقدم من هذه الميزات الثلاث كثر  
وصفها في العصر بمثل ما كان يوصف به الشعر قبله وفيه ، من حسن  
وبهجة ورواء كما توصف سائر المحاسن في مجالى الطبيعة ومبدعات

---

«١» من هؤلاء من ذكرنا آنفا من الكتاب ومنهم أبو الطيب المتوفى  
سنة ٣٥٤ وأبو الفتح كهاجم محمد بن الحسين المتوفى سنة ٣٦٠ ، والقاضي  
الجرجاني على بن عبد العزيز المتوفى سنة ٣٦٦ والشريف الرضى أبو الحسن  
محمد بن الظاهر المتوفى سنة ٤٠٦ وأبو العلاء المعرى المتوفى سنة ٤٤٩



الخضارة على ألسنة الشعراء وأقلام الكتاب .

قال بعض معاصري الصابي يصف رسائله نظماً .

أصبحت مشتاقاً حليف صباية برسائل الصابي أبي إسحاق  
صوب البلاغة والحلاوة والحجى ذوب البراعة سلوة العشاق  
طوراً كما رق النسيم وتارة يحكى لنا الأطواق في الأعناق  
لا يبلغ البلغاء شأو مبرز كتبت بدائعه على الأحداق  
وكتب ابن العميد إلى القاضي أبي محمد الحسن بن عبد الرحمن بن  
خلاد الرامهرمزي يصف كتاباً وصله منه بهدية « وصل كتابك الذي  
وصلت جناحه بفنون صلاتك وتفقدك وضروب برك وتعمدك ، فارتحت  
لكل ما أوايت وابتهمت بكل ما أهديت ، وأضفت إحسانك في كل  
فصل إلى نظائره التي وكلت بها ذكرى ووقفت عليها شكرى ، وتأملت  
النظم فلكني العجب به وبهرني التعجب منه ، وقد رمت أن أجرى على  
العادة في تشبيهه بمستحسن من زهرجنى وحال وحلى ، وشذور الفرائد  
في محور الخرائد .

بالعذارى غدون في الحبل البيض وقد رحن في الخطوط السود  
فلم أره لشيء عدلاً ولا أرضى ماعدته له مثلاً ، والله يزيدك من فضله  
ولا يخليك من إحسانه وطوله ، ويلهمك من بر إخوانك ما ننعم به  
صنيعك اليهم ، وترب معه إحسانك عليهم .

٤- أغرقوا في عبارات التعظيم والتفخيم للملوك والأمراء تهويلاً  
بشأنهم وأقدارهم وإنما كان ذلك لأن أغلب كتاب الدول الشرقية فرس مثلها ،  
والفرس أميل الناس إلى الغلو في عبارات التمجيد والتكبير جرياً على

طاداتهم وإجابة لطبائعهم، فهم قد جبلوا على تعلق ذوى الألبان بهذا التعظيم وبالاطناب لهم في جل الدماء والتفخيم، ثم اشتهر ذلك عنهم فحاكم فيه أبناء العرب من كتاب الدول الغربية ولكن جاء فيها أقل حدة منه في الشرقية لما ذكر من عريبتها وعريية كتابها، وهذا الصابي يقول في فصل له من كتاب الى عضد الدولة يهنئه بغرة سنه

« أسأل الله تعالى مبتلياً لديه ماذا يبدى اليه، أن يحيل على مولانا هذه السنة وما يتلوها من أخواتها بالصالحات الباقيات وبالزائدات الغامرات ؛ ليكون كل دهر يستقبله وأمد يستأنفه موفياً على المتقدم له قاصراً عن المتأخر عنه ، ويوفيه من العمر أطوله وأبعده ومن العيش أعذبه وأرغده ، عزيزاً منصوراً محبباً موفوراً ، باسطاً يده فلا يقبضها إلا على نواصي أعداء وحساد سامياً طرفه فلا يغمضه إلا على لذة ورقاد ، مستريحاً ركابه فلا يعملها إلا لاستضافة عزيز وملك فائزة قداحه فلا يحيلها إلا لحيازة مال وملك حتى ينال أقصى ما تتوجه إليه أمنيته جامعاً والسمو له همتها طامحاً اهـ . ثم لم يبق ذلك مقصوراً على ذوى السلطان والنفوذ بل تعدى إلى ما كان بين الإخوان كما قرأت سابقاً في كتاب ابن عباد الى الطبرى، وكتاب الصاحب الى ابن العميد ، وكتاب الثعالبي في التهنئة بالقدوم، وغيرها في هذا المعنى كثير .

هـ - ولقد كان من نتيجة هذه الظاهرة أن حاد الكتاب عن التصريح بأسماء الخليفة والرؤساء وألقابهم الى الكناية عنها تنزيها لها وتصونا عن ذكرها فصاروا يكتنون عن الخليفة بالحضرة المقدسة النبوية أو السدة النبوية أو الخدمة الشريفة أو الديوان الشريف يعنون

ديوان الانشاء ، كما يكونون عن الوزراء بالخضرة الوزيرية وهكذا حتى صار لكل طبقة من رجال الدولة والأعيان نعوت خاصة لا يخاطبون إلا بها تبعاً لاختلافهم في مقادير النفوذ ودرجات المنازل . وقد نال الكتاب من ذلك ما نال غيرهم ، فأخذوا ألقاب الشيخ والرئيس والاستاذ والصاحب . على أنهم تعدوا في هذا ، الألقاب إلى الدعاء فتوعوا في في جملة مراعاة لمكانة المکتوب إليه ، كأن يقولوا للخليفة أطال الله بقاء مولانا . ولولى العهد أطال الله بقاء الامير وللوزير أطال الله بقاءك وهكذا . ٦ - اتخذوا للرسائل نمطا خاصا هو أن يبدأوها بمخاطبة المرسل اليه بلقبه أو نعتيه بعد الإشارة إلى كتابه إن كان ثم منه كتاب ، وبعقبوا ذلك بالدعاء الملائم له بصيغة الغائب أيضا ، ثم ينتقلوا إلى المقصود بنفس هذه الصيغة غالبا وبصيغة الخطاب في بعض الأحيان ، وهذا ظاهر فيما أسلفنا من نماذج فلا داعي هنا إلى تمثيل .

وأخيرا بهذا النمط وما تقدمه من ميزات صار الانشاء في العصر العباسي الثالث فنا قائما له شخصية وحدود واضحتان في الأسلوب وأصبحت الكتابة حرفة ذات مصطلحات كمصطلحات العلوم والفنون فلنتركه إلى العصر الأخير لنرى ماذا كانت حال الأسلوب فيه .

د - في العصر الرابع - ورث العصر العباسي الرابع أسلوب الكتابة عن سلفه قوى النسيج جميل الرواق ، قد حالفه السجع في غير تكلف ، وظهر به الجنس والطباق من غير إكثار ، فبهر القارئ بأشراق معانيه ، كما رافقه بحلى ألفاظه ، وشهد للكتاب بسعة الاطلاع في فنون الأدب

وقوة العتاد في صناعة القلم . وقد دعت سنة الرق المطردة ورغبة النفس الدائبة في الزيادة ، أن يأخذ الكتاب منذ أواخره في الاكثار من الجنس والطباق ، وأن يضموا اليهما ما وسعهما من سائر البديعيات ، وكان البديع إذذاك قد كثرت فنونه وتعددت محاسنه ، واتفق أن ولد في آخر العصر الثالث رجل قدر له أن يكون حامل لواء الكتاب في هذا العصر الذي يليه ، هو أبو محمد القاسم بن علي المعروف بالحريري .

ولد الحريري بقرية مشان القريبة من البصرة مدينة ابن المقفع والجاحظ سنة ٤٤٦هـ ، ولما كان قد خلق مفطورا على الأدب مهياً لما ذكرنا ، غادر قريته إلى البصرة فأقام منها في محلة بني حرام ، وتعلم بها علوم العربية حتى برع فيها وعنى عناية خاصة بمفردات اللغة وفنون البلاغة ، حتى صار في كليهما إماما ودعت شهرته الناس إلى الاخذ عنه فيهما ، واتصل بالثقات العباسيين والأمراء السلاجوقيين ، وما زال عالما من أعلام العلم والأدب والكتابة والشعر حتى توفي بالبصرة سنة ٥١٦هـ . خلفا من الكتب ، درة الغواص في أوهام الخواص ، وملحة الاعراب وهي أرجوزة في النحو ، وشرح ملحة الاعراب ، ومجموعة رسائله وديوان شعره ، ثم المقامات التي شخصته شاعرا ، ونصبت في الكتابة إماما .

أبدع رحمه الله في كتاباتها الابداع كله . وتلاعب بالألفاظ تلاعب «صوالجة بالأكبر» ، فلم يدع فنا من البديع إلا استخدمه في قدرة عليه وتمكن منه ، مكثرا الألفاظ اللغوية والحكم المختارة ، والأمثال السائرة والفكاهات المستملحة ، والاقتباس من القرآن والحديث ، والالمام بكثير من دقائق العلوم ، ومتناولات الجدل وغرائب الحيل ، إلى غير ذلك مما

جعله فذا في ابتكاره، وجعل الناس بعده عاجزين عن الجرى في مضماره لشدة ما تكلفه حتى صار له طبعاً وعلى غيره عبثاً، فأخذت ألفاظهم تكتم أنفاس المعاني حتى خفيت، واستكهرت المحسنات حتى سمجت وقبحت ثم نضب معين الأجداد من الكاتبيين والفهم من القارئين بما أنسخ على الأدب، وعصف بذويه من تسلط الأتراك شرقاً والاكراذ غرباً على الفاطميين العرب، والبويهيين المتعربين، وظهرت آثار ذلك من تكلف واستكراه، منذ أواسط العصر ظهوراً حاد بأسلوب الكتابة في نصفه الثاني عما كان عليه في النصف الأول، وخلع على طريقة فيها اسم الطريقة الفاضلية نسبة إلى القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي المتوفى سنة ٥٩٦ فقد أغرق في استغرام البديع، وغالى في التأنيق حتى تجاوز الحد، فانقلب الحسن بهذا الغلو كما يقولون إلى الضد، وقد تقدمت له رسالة فارجع اليها تجد التكلف بادياً والمعنى خافياً. ولقد كان هذا الخفاء أبدي في الكتب العلمية التي تكلفوا فيها البديع اذ ذاك، منه في رسائل الانشاء كما هي الحال في كتاب «الفتح القسي في الفتح القدسي» الذي أرخ فيه عماد الدين الاصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ فتح صلاح الدين لبيت المقدس. فان من عباراته مالا يفهم إلا بالتأمل، ومن ألفاظه مالا غنية عن المعاجم في معرفة معناه على عكس ما ذكرنا عن كتاب اليميني آنفاً.

وقد هالت هذه الغاية للالفاظ على المعاني بعض أدباء العصر اذ ذاك. فعملوا على مقاومتها وحضوا على مراعاة حرمة المعنى مع عدم الاجحاف بحق الالفاظ، وذلك بما ألفوا ورسموا كأبي الفتح ضياء الدين بن الاثير المتوفى سنة ٦٣٧ صاحب كتاب «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر»

فتد بين فيه مايتطلبه الأدب من كليهما في المعنى واللفظ على السواء ،  
وله رسالة استهداء سابقة ليس فيها ماكان لعصره من تكلف الالفاظ  
واخفاء المعاني .

هذا ولا يفوتنا وقد انتهينا من وصف الاسلوب الكتابي في كل  
عصر من العصور الأربعة العباسية وصفا مميزا أن نقول إن ذلك  
واقع على اعتبار مجموع كتاب كل عصر لا كل كاتب فيه . فقد يحدث في  
عصر متقدم أن ينشأ كاتب سابق لزمانه يلبس أسلوبه ثوب عصر بعده  
كالزهرة تتفتح مبكرة في بستان ، ولما يتفتح بعد شيء من الأزهار .  
واليك في هذا رسالة إبراهيم بن سيابة إلى يحيى بن خالد البرمكي التي  
يقول فيها مستعظفا : - للأصميد الجواد الواري الزنادي الماجد الاجداد ،  
الوزير الفاضل الأثم الباذل اللباب الحلاحل ، من المستكين المستجير  
البائس الضرير ، فاني أحمد اليك الله ذا العزة التقدير ولي الصغير والكبير  
بالرحمة العامة والبركة التامة . أما بعد فاعلم واسلم واعلم إن كنت لاتعلم  
أنه من يرحم يرحم ، ومن يحرم يحرم ، ومن يحسن يغم ومن يصنع  
المعروف لا يعدم . وقد سبق إلى تغضبك على واطراحك لي وغفلتك  
عني بما لا أقوم به ولا أقعد ، ولا أتنبه ولا أرقد . فلست بحى صحيح ولا  
بميت مستريح . فررت بعد الله منك اليك ، وتحملت بك عليك ولذلك قلت  
أسرعت بي حثا اليك خطائي<sup>(١)</sup> فأناخت بمذهب ذي رجا  
راغب راهب اليك يرجي منك عفوانه وفضل عطاء  
ولعمرى ما من أصر ومن تا ب مقرا من ذنبه بسواء

---

(١) جمع خطيئة من غير اعلال معاملا .

فان رأيت أراك الله ماتحب وأبقاك في خير ، ألا تزهد فيما ترى  
من تضرعى وتخشمى وتذلى وتضعى . فان ذلك ليس لى بنجيزة ولا  
طبيعة ولا على وجه تصنع ولا تخدع ، ولكنه تذلل وتخشم وتضرع  
من غير ضارح ولا مهين ولا خاشع لمن لا يستحق ذلك إلا لمن  
التضرع له عز ورفعة وشرف . ومثله من يجيد فى عصر ضعيف وتأخر  
كصاحب المثل السائر المذكور . وقد يحدث أن يكتب كاتب فى عصر  
لاحق متأثراً بأسلوب كاتب سابق نشأ يتعشقه ويحتذى رسمه ، فتجىء  
كتابه على غير طريقة عصره كأنها بقلم سلفه ، عن محاكاة أو معارضة ، على أنه  
فى جميع هذه الاحوال لابد أن يكون هناك خضوع من الجميع  
لمؤثرات العصر العامة وظروفه الشاملة

#### دواعى الرسائل وأغراضها ومكانة رجالها

مامن داعية دعت إلى الخطابة فى العصر العباسى الأول إلا دعت  
إلى الكتابة فيه ، وما من غرض قصد إليه الخطيب ثم إلا قصد إلى  
مثله الكاتب إذ ذاك ، ولهذا نرانا فى حل من العودة إلى تفصيل  
الدواعى والأغراض هنا اتكالا على ما فصلنا هناك ، وإن هى إلا كرة  
منا تذكروا فيها بما كان وتشير إلى موطن الشاهد فى النماذج ، أو نأتى  
بجديد إذا دعت الحاجة إلى جديد ، ثم نخلص بعدها إلى ما انفردت به  
الكتابة دون الخطابة فى ذلك العصر وفيما أعقبه من عصور

١ - فالكتابة قد استخدمت فى تثبيت قواعد الملك الجديد ضد  
الطامعين فيه من العلويين والخارجين عليه من غيرهم ، وهأت ذاك قد  
قرأت ما صدرنا به نماذجها من الرسائل القوية الطويلة الممتعة بين أنى

جعفر المنصور والنفس الزكية محمد بن عبد الله ، والآل فاقراً ما كان بين أبي جعفر هذا وبين أبي مسلم الخراساني إذ بعث إليه من يحصى عليه المغنم عقب انتصاره على عمه عبد الله بن علي ، فغضب وقال « أكون آميناً على الدماء غير أمين على الأموال » وحدثته فله بالخروج وهم أن يعود إلى خراسان فكتب إليه المنصور « إني قد وليتك مصر والشام فهي خير لك من خراسان ، فوجه إلى مصر من أحببت ، وأقم بالشام حتى تكون بقرب أمير المؤمنين ، فإن أحب لقاءك أئنته من قريب » - فكتب إليه أبو مسلم وقد فهم أنه يريد بقاءه قريباً منه لقتله - كما حدث بعد - « إنه لم يبق لأمر المؤمنين أكرمه الله عدواً إذا أمكنه الله منه ، وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون من الوزراء إذا سكنت الدهماء . فنحن نأفرون من قربك ، حريصون على الوفاء لك بعهدك ما وفيت ، حربون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد . حيث تقارنها السلامة . فإن أرضاك ذلك كنناك حسن عبيدك ، وإن أبيت إلا أن تعطى نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسى » فكتب إليه المنصور - « قد فهمت كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغشاة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم ، فإن راجتهم في انتشار نظام الجماعة . فلم سويت نفسك بهم وأنت في طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به ، وقد حمل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالته لتسكن إليها إن أصغيت إليها ، وأسأل الله أن يحول بين الشيطان وزغانه وبينك ، فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك . أو كد



وأقرب من طبه من الباب الذى فتحه عليك» . فأثرفيه ذلك على ما فهم  
آثفا، وقدم عليه فلقى حتفه .

٢ - والكتابة قد استخدمت فى الاستعطاف والوعيد والعتاب  
المصحوب بالعفو مما يدور حول الملك، وتعدته دون الخطابة إلى ما يدور حوله  
فن الاول فى الاستعطاف : كتاب الصابى عن عضد الدولة إلى  
أخيه مؤيد الدولة بشأن ذى الكفائتين على بن محمد بن العميد ، ومنه  
فى الوعيد كتاب طاهر بن الحسين عن المأمون إلى نصر بن شيبث وكتاب  
ابن العميد عن ركن الدولة إلى ابن ونداد ، ومنه فى العتاب المصحوب  
بالعفو كتاب ابن الزيات عن الخليفة إلى بعض العمال .

ومن الثانى فى الاستعطاف كتاب ابن الرومى السابق ، ومنه فى  
الوعيد كتاب ابن الزيات إلى الصولى ، ومنه فى العتاب كتاب الخوارزمى  
إلى صديقه الذى لم يعده فى مرضه ولم يهنئه بإبلاله وكتابه إلى تلميذه  
الذى لم يزره بعد أن تخرج عليه .

٣ - والكتابة قد استخدمت فى الحوار بين الخصماء وفيه بين  
الأحباء وفيه بين المتفاحين . فن الأول الرسائل المذكورة بين المنصور  
والنفس الزكية ، ومن الثانى كتاب يحيى بن خالد إلى ابنه الفضل فى  
تنازله عن الخاتم لجعفر ، ورد الفضل عليه . أما الثالث فاليك منه رسالتين  
مما كان بين الخوارزمى والبديع ، فان الخوارزمى لما لم يحسن مقابلة البديع  
على ما كتب له قبل لقائه فى رسالة الشوق الماضية كتب اليه البديع -  
الأستاذ والله يطبل بقاء ، ويدم تأييده ونعماءه ، أزدى بضيفه أن وجده  
يضرب آباط القلة فى أطهار العرب ، فأعمل فى ترتيبه أنواع المصادفة وفى

الاهتزاز له أصناف المضايقة ، من إيماء بنصف الطرف وإشارة بشطر الكف ، ودفع في صدر القيام عن التمام ، ومضغ الكلام وتكاف لرد السلام ، وقد قبأت هذا الترتيب صغرا واحتملته وزرا واحتضنته نكرا وتأتأت بطمته شرا ولم آله عذرا ، فأن المرء بالمال وثياب الجمل ، وأنامع هذه الحال وفي هذه الاسمال لا أتقزز من صف النعال . ولو حاملته العقاب وناقشته الحساب وصدقته المتاع ، لقلت إن بوادينا ثاغية صباح ، وراغية رواح وقوما يجرون المطارف ولا يمنعون المعارف .

وفيههم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل على مكثريهم حق من يعتريهم وعند المقلين السباحة والبذل ولوطوحت بالاستاذ أيدي الغربية إليهم لوجد منال البشر قريبا ومحط الرحل رحيبا ووجه المضيف خصيبا ، ورأيه أيده الله في أن يملأ من هذا الضيف أجفان عينه ويوسع أعطاف ظنه بموقع هذا العتاب الذي معناه ود ، والمر الذي يتلوه شهد ، موفق إن شاء الله تعالى .

فكتب إليه الخوارزمي -

إنك إن كلفتني مالم أطق ساء لك ما سرك مني من خلق

فهمت ما تناوله سيدي من حسن خطابه ، ومؤلم عتبه وعتابه ، وصرفت ذلك منه إلى الضجر الذي لا يخلو منه من نياه دهر ، ومسه من الأيام ضر ، والحمد لله الذي جعلني موضع أنسه ومظنة مشتكي ماني نفسه ، أما ما شكاه سيدي من مضايقتي إياه زعم في القيام وتكافى لرد السلام ، فقد وفيت له حقه كلاما وسلاما وقياماً على قدر ما قدرت عليه ووصلت إليه ، ولم أرفع عليه غير السيد أبي القاسم ، وما كنت لأرفع أحدا على من أبوه الرسول وأمه

البتول وشاهداه التوراة والانجيل، وناصره التأويل والتنزيل، والبشير به جبريل ومكائيل . وأما عدم الجمال ورثانة الحال، فبايضعان عندى قدرا ولا يضران نجرا، وإنما اللباس جلدة والزى حاية بل قشرة، وإنما يشغل بالجل من لا يعرف قيمة الخيل، ونحن بحمد الله نعرف الخيل طارية من جلالها، ونعرف الرجال بأقوالها وأفعالها لآلاتها وأحوالها، وأما القوم الذين صدر سيدي عنهم وانتمى اليهم، ففيهم لعمري فوق ما وصف حسن عشرة وسداد طريقة وجمال تفصيل وجملة، ولقد جاورتهم فقلت المرتاد وأحمدت المراد .

فان أك قد فارقت نجدا وأهله فما عهد نجد عندنا بذيهم والله يعلم نيتي للاحرار عامة ولسيدي من بينهم خاصة . فان أعاننى على مرادى له ونيق فيه بحسن العشرة، باغت له بعض مافى النية وجاوزت مسافة القدرة، وإن نطع على طريق عزى بالمعارضة وسوء المؤاخدة . صرفت عنائى عن طريق الاختيار بيد الاضطرار

فما النفس الانطفة بقرارة اذالم تكدر كان صفوا غديرها وعلى هذا فبذا عتاب سيدي إذا صادف ذنبا وبما تتوجب عتبا . فأما أن يسلفنا العريضة ويستكثر المعتبة والموجدة، فتلك حال نصونه عنها ونصون أنفسنا عن احتمال متلها . فايرجع بنا إلى ما هو أشبه به وأجل له ولست أسومه أن يقول « لاتثريب عليكم اليوم يعفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » .

٤ - والكتابة قد استخدمت فى التعازى والتهانى وقد سافى فى النماذج تهنئة ابن المقفع مولودة وتعزيتة عن بنت، ثم عن ابن، وتهنئة أحمد بن

يوسف بمولود ، وتهنئة عمرو بن معدة عن المأمون صهره الحسن بن  
سهل بمولود أيضاً، وتهنئة الجاحظ الفتح بن خاقان في يوم عيد، وتهنئة الثعالبي  
بالقدوم من سفر، وكذا تهنئة رشيد الدين الوطواط وغيرهما بما جاء بعدها.  
وباب التمزية والتهنئة من أحفل أبواب التراسل وأكثرها مقولاً  
لاتصاله بنعماء الأيام وبأسائها. ويتصل به ما يكتب إلى المكاروبين  
بمرض أو غيره تصبيراً لهم وتغنياً لزوالة عنهم، كما كتب ابن المعتز سابقاً.  
٥ - والكتابة قد استخدمت في التزلف والتقرب عن طريق المدح  
والثناء، كما فعل ابن العميد في كتابه إلى ركن الدولة عن نماء العلوم به ،  
وكما كتب الصاحب إلى ابن العميد وقد وصف له البحر ، وكما كتب  
عبد الله بن طاهر من خراسان إلى المأمون يقول

« بعدت داري عن أمير المؤمنين وعن ظل جناحه وعن خدمته، وإن كنت  
حيث تصرفت لا أتقياً إلا به . وقد اشتد شوقي إلى النظر إلى رؤيته المباركة  
والذين بحضور مجلسه وتلقيح عقلي بحسن رأيه ، فلا شيء عندي آثر من قربه  
وإن كنت في سعة من عيش وهبة الله جل ذكره لي به . فإن رأى أمير المؤمنين  
أن يأذن لي في المصير إلى دار السلام لأحدث عمداً بالنعم علي ، وأنهنأ  
بالنعمة التي أقرها لذي ، فعل - فكان جواب المأمون إليه - قربك إلى  
يأبأ العباس حبيب وأنا إليك مشتاق وإنما بعدت دارك عن أمير  
المؤمنين بالنظر لك والتخير لحسن العاقبة فيك ، فالزم مكانك واتبع  
قول الشاعر

رأيت دنو الدار ليس بنافعي إذا كان ما بين القلوب بعيداً  
٦ - والكتابة قد استخدمت في بيان وجه الرأي لمن طلبه مستشيراً

كما كتب ابن المعتز أنفا مجيبا من يسأل كيف يكون كسب المحامد ، وكما كتب البديع لمن تحدثه نفسه بصحبة الملوك يقول « إن الملوك إذا خدمتهم ملوك ، وان لم تخدمهم أذلوك ، وإنهم يستعظمون في الثواب رد الجواب ويستقلون في العقاب ضرب الرقاب ، وإنهم ليعثرون على عثرة من خدمهم فيبنون لها منارا ، ثم يوقدون لها نارا ، ويعتقدونها نارا ، فكن من الملوك مكانك من الشمس ، إنها لتؤذيك والسماء لها مدار والأرض لك دار ، فكيف لو أسفت قليلا وتدانت يسيرا ، وإن العاقل ليطلب منها مزيد بعد ، فيتخذ سربا لو اذا وهربا ، ويدتغى في الأرض نفقا فرارا وفرقا » . ومما يتصل بهذا ما يصدر في كتب الترفع عما لا ينبغي أن يكون إلى ما يجب أن يكون ، كما تقدم في كتاب البديع إلى من هنأه بمرض الخوارزمي ، وكما كتب محمد بن يحيى إلى أرمينية للرشيد إلى بعض عماله وقد وشى إليه برجل ليأخذ ماله يقول « قرأت هذه الرقعة المذمومة وفهمتها ، وسوق السعاية بحمد الله في أيامنا كاسدة وألسنة السعاة كليلة خاسئة . فاذا قرأت كتابي هذا فاحمل الناس على قانونك ، وخذهم بما في ديوانك ، فانا لم نولك الناحية لتتبع الرسوم العافية ، ولا لأحياء الأعلام الدائرة . وجنبني وتجنب قول جرير يخاطب الفرزدق :

وكنيت إذا حللت بدار قوم رحلت بخزية وترك عارا  
وأجر أمورك على ما يكسب الدعاء لنا لأعلينا ، واعلم أنها مدة  
تنتهي وأيام تنقضي ، فاما ذكر جميل ، ولما خزي طويل «  
٧ - والكتابة قد استخدمت في النصائح والوصايا وفي العظات أيضا

على النهج الذي أوضحناه فيها، وإن كثرت استعمالها في الأوليين وكان في الأخرى قليلا . فمنها في الوصية ما كان يكتب به الخلفاء ولياء عهودهم، وذوو الأقدار لنابهي أبنائهم، كما كتب المنصور لولي عهده المهدي ، وطاهر بن الحسين لابنه عبد الله ، ثم ما كان يكتب به كل رجل لمن يهتم بأمره من ذوي قرباه ، كما فعل البديع مع ابن أخته إذ كتب إليه يقول : « أنت ولدي مادمت والعلم شأنك ، والمدرسة مكانك ، والدفترا ليلفك والمحبرة حليفك . فان قصرت ولا إخالاك فغيري خالك » . ومنها في النصيحة ما كتب البديع إلى صديقه الذي مات أبوه يحذره التبذير والتقتير وما كتب ابن المقفع في أدبه الصغير من شتى النصائح والارشاد . أما العظة فمنها ما كان من سفهيان الثوري إلى الرشيد إذ كتب يدعوهُ إلى زيارته ويذكر له أن العلماء زاروه حين استخلافه وهنتوه ، وأنه فتح لهم بيوت المال وأجزل لهم الصلوات . فانه حين وصل إليه الرسول بالكتاب وهو بمسجد الكوفة يعظ أصحابه ، وقرأ ما فيه كتب إلى الرشيد على ظهره يقول : - بسم الله الرحمن الرحيم من العبد المذنب سفهيان بن سعيد بن المنذر الثوري إلى العبد المغرور هرون الرشيد الذي سلب حلاوة الايمان . أما بعد فاني قد كتبت اليك أعرفك أني قد صرمت حبلك ، وقطعت ودك وقليت موضعك ، فانك قد جعلتني شاهدا عليك بأفراك على نفسك في كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين فأنفقته في غير حقه ، وأنفدته في غير حكمه ، ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناء عني ، حتى كتبت لي تشهدني على ذلك . أما إنني قد شهدت عليك أنا وإخواني الذين شهدوا قراءة كتابك ، وسنوؤدي الشهادة عليك

غدا بين يدي الله تعالى . ياهرون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم . هل رضى بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليهم في أرض الله تعالى والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل؟ أم هل رضى بذلك حملة القرآن وأهل العلم والأراذل والأيتام؟ أم هل رضى بذلك خلق من رعيتك؟ فشد ياهرون مئزره وأعد للمسألة جوابا وللبلاء جلبابا، واعلم أنك مستغف بين يدي الحكم العدل، فقد رزئت في نفسك إذ سلبت حلاوة العلم والزهد، ولذيق القرآن ومجالسة الأخيار، ورضيت لنفسك أن تكون ظالما وللظالمين إماما . ياهرون قعدت على السرير وأسبلت سترا دون بابك وتشبهت بالحجة رب العالمين، ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وستره، يظلمون الناس ولا ينصفون؛ ويشربون الخمر ويضربون من شربها، ويزنون ويحدون الزاني، ويسرقون ويقطعون يد السارق، أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها الناس؟ فكيف بك ياهرون غدا إذا نادى المنادى من قبل الله تعالى «احشروا الذين ظلموا وأزواجهم» أين الظلمة وأعوان الظلمة؟ فقدمت بين يدي الله تعالى ويداك مغلولتان إلى عنقك، لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك، والظالمون حولك وأنت لهم سابق وإمام إلى النار . كافي بك ياهرون وقد أخذت بضيق الخناق ووردت المساق، وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك، وسيئات غيرك في ميزانك زيادة في سيئاتك، بلاء على بلاء وظلمة فوق ظلمة . فاحتفظ بوصيتي واتعظ بموعظتي التي وعظتك بها، واعلم أنني قد نصحتك وما أبقيت لك في النصيح غاية فاتق الله ياهرون في رعيتك، واحفظ محمد صلى الله عليه وسلم في أمته

وأحسن الخلافة عليهم، واعلم أن هذا الأمر لو بقي لغيرك لم يصل اليك وهو صائر إلى غيرك، وكذا الدنيا تنتقل بأهلها واحدا بعد واحد، فمنهم من تزود زادا نفعه، ومنهم من خسر دنياه وآخرته، وإنى أحسبك ياهرون من خسر دنياه وآخرته فإياك إياك أن تكتب لى كتابا بعد هذا فلا أجيبك عنه والسلام<sup>(١)</sup>

هذا على أنه قد بقيت من النماذج السالفة بقية تمثل أغراضا أخرى للكتابة لم تتناولها الخطب بل لم يتناول بعضها الشعر .  
وهاهى ذى مصحوبة بما يتصل بها، وبما لا يتصل من سائر الأغراض التى لم يسبق لها فى النماذج شئ.

١ - الأخبار والاستخبار - كما كتب ابن المقفع فيما سلف وكما كتب ابراهيم بن المهدي إلى صديق له يقول « كتابى اليك كتاب مخبر وسائل ، فأما الأخبار فعن تصرف الخطوب على ما يوجب العذر عند صديق العزيز على فى إبطائى بالتعاهد له ، وأما السؤال فعن إمساك هذا الأخ الودود المودود عن مثل هذا ، فإن السؤال كاشف ما سلف مصالح لما استؤنف »

٢ - الاستمناج والتوصل - كما كتب ابن المقفع والصولى آنفا

(١) قيل إن هرون لما وصله هذا الكتاب جعل يقرؤه ودموعه تتحدر فقال له بعض الحاضرين: قد اجترأ عليك يا أمير المؤمنين سفيان ، فلو أثقلت به بالحديد، وضبقت عليه السجى فقال لهم « اتركونا يا عبيد الدنيا فالمرور من غررتموه، والشقى من أهلكتموه، إن سفيان أمة وحده » ثم أبى الكتاب إلى جنبه يقرؤه رحمه الله عند كل صلاة حتى توفى



ومن أجمل ما وقع في هذا الباب، ما كتب العتاني إلى أحد أصدقائه وهو :  
 « أما بعد أطل الله بقاءك وجعله يمتد بك إلى رضوانه والجنة ، فإنك كنت  
 عندنا روضة من رياض الكرم ، تبهج النفوس بها وتستريح القلوب  
 اليها ، وكنا نعيشها من النجعة استئمانا لزهرتها وشفقة على خضرتها  
 وادخارا لثمرتها ، حتى أصابتنا سنة كانت عندى قطعة من سنى يوسف  
 اشتد علينا كابها واثق فحطها ، وكذبنا غيومها وأخلفتنا بروقها ، وفقدنا  
 صالح الأخوان فيها ، فانتجعتك وأنا بانتجاعى إياك شديد الشفقة عايك  
 عظيم المقة لك والثقة بك ، مع علمى بأنك موضع الرائد وأنك تغطى  
 عين الحاسد ، وأنك غاية أمل القصاد وأعذب مناهل الورد ، والله يعلم  
 أنى ما أعدك إلا فى حومة الأهل ، واعلم أن الكريم إذا استحييا من  
 إعطاء القليل ولم يمكنه الكثير ، لم يعرف جوده ولم تظهر همته « فشاطر ،  
 ذلك الصديق ماله ومرافقه .

ومن أدق أنواع التوصل ما كان فى طلب المصاهرة : ولعل من  
 أوقع الرسائل فيه رسالة الصابى السابقة عن صديقه .

٣ - الاستنجاز - وقد تقدم للجاحظ نموذج منه ، وهو مثل  
 ما كتب العتاني قبله يقول « أما بعد فقد تركتني منتظرا لوعدك متنجزا  
 لرعدك ، وطالب الحاجة محتاج إلى نعم هنيئة أولا مريحة ، والعذر الجميل  
 أحسن من المظل الطويل وقد قلت

بسطت لسانى ثم أوثقت نصفه فنضف لسانى بامتداحك مطلق  
 فان أنت لم تنجز عداى تركتني وباقى لسان الشكر بالياس موثق  
 وأرفق منهما ما كتب به يحيى بن أكرم الى المأمون « أنت يا أمير

المؤمنين أكرم من أن نعرض لك بالاستنجاز، ونقابلك بالآذكار، وأنت شاهد على وعدك، لانا أمر بشيء لم تتقدم أيامه ولم يقدر زمانه، ونحن أضعف من أن يستولى علينا صبر انتظار نعمتك، وأنت الذي لا يؤوده إحسان ولا يعجزه كرم، فعجل لنا يا أمير المؤمنين ما يزيدك كرما وتزداد به نعماء، وتلقاه بالشكر الدائم »

٤ - الاعتذار - كما كتب الصولي سابقا يعتذر من تأخر كتبه، وكما كتب البديع يقول « يعز على أيد الله الشيخ أن ينوب في خدمته قلبي عن قدي، ويسعد برؤيته رسول قبل وصولي، ويردم شرح الانس به كتابي قبل ركابي، ولكن ما الحيلة والعوائق حجة

وعلى أن أسعى وليد س على إدراك النجاح

وقد حضرت داره وقبيلت جداره، وما بي حب للحيطان ولكن شغف بالقطان، ولا عشق للجدران ولكن شوق الى السكان

٥ - الشكر - كما كتب الحسن بن وهب سابقا، وكما كتب العتافي الى بعض الرؤساء « كتب اليك ونفسي دائماً القيام بشكرك ولسانى لهج بالثناء عليك، والغالب على ضميري لأتمة نفسي واستقلال جهدي في مكافأتك، وأنت أعزك الله في عز الغني عني، وأنا تحت ذل الفاقة إلى عطفك، وليس من أخلاقك أن تولى جانب النبوة منك، من هو عان في الضراعة إليك ». ومن لطيفه وغريبه ما كتب به عبيد الله بن عبد الله بن طاهر إلى أحد الرؤساء وقد عاده « ما أعرف أحدا جزى العلة خيرا غيري، فاني جزيتها الخير وشكرت نعمتها على، إذ كانت إلى رؤيتك مؤدية، فأنا كالأعرابي الذي جزى يوم البين خيرا فقال

جزى الله يوم الدين خيرافانه أرانا على علاته أم حارث

أرانا ريديات الحدود ولم نكن نراهن الا بانبعث الحوادث

٦ - الاستهداء - كما كتب ابن الاثير الموصلى فيما سبق يستهدى صديقه العراقى تمرا ، وكما كتب ذو الكفائتين حفيد العميد يستهدى شرابا فقال « قد اغتنمت الليلة أطال الله بقاء سيدى ومولاى رقدة من عين الدهر ، وانتهزت فيها فرصة من فرص العمر ، وانتظمت مع أصحابى فى سمط الثرى ، فان لم تحفظ علينا النظام باهداء المدام ، عدنا كبنات نعش والسلام »

٧ - الاهداء - كما كتب عبد الله بن طاهر إلى المأمون وقد أهدى اليه فرسا « قد بعثت إلى أمير المؤمنين بفرس يالحق الأرانب فى الصعداء ، ويجاوز الظباء فى الاستواء ، ويسبق فى الحدود جرى الماء فهو كما قال تأبطشرا :

ويسبق وفد الريح من حيث تنتحى بمنخرق من شدة المتدارك  
وكتبت جارية من جوارى المأمون له وقد أهدت اليه تفاحة ،  
« لى لما رأيت تنافس الرعية فى الهدايا إليك ، وتواتر ألطافهم عليك ، فكرت فى هدية تخف مئونتها وتهون كلفتها ، ويعظم خطرهما ويكمل موقعها ، فلم أجد ما يجتمع فيه هذا النعمت ويكمل فيه هذا الوصف الا التفاح ، فأهديت إليك منه واحدة فى العذد كثيرة فى التقرب ، وأحببت يا أمير المؤمنين أن أعرب لك عن فضلها ، وأكشف لك عن محاسنها . وأشرح لك لطيف معانيها ، وما قالت الأطباء فيها ، وتفنن الشعراء فى أوصافها ، حتى ترمقها م - ١٤ أدب

بعين الجلالة، وتلحظها بمقلدة الصيانة، ولكن أقول كما قال أبوك الرشيد  
رضي الله عنه: أحسن ألفاظه التفاح اجتمع فيه الصفرة الدرية، والحمرة  
الخرية، والشقرة لذهبية، وبياض الفضة ولون التبر، يلذ بها من الحواس العين  
بدهجتها، والأنف بريحها، والفم بطعمها»

٨ - الشوق - كما تقدم للجاحظ إلى قلب ولا بن العميد إلى الطبري.  
وكتب الغتاني «لواءتصم شوق إليك بمنزل ملوك عنى لم أبذل وجه الرغبة  
إليك ولم أتجشم مرارة تماديك . ولكن استخففتنا صبا بتنا فاحتملنا  
قسوتك لعظيم قدر مودتك : وأنت أحق من اقتصص لصلتنا من جفائه  
ولشوقنا من إبطائه » . وكتب عبد الله بن العباس العلوي إلى إبراهيم بن  
المهدي « ما أدري كيف أصنع ، أغيب فأشتاق ونلتقي فلا أشتقي ، ثم يجدد  
لى اللقاء الذى طلبت به الشفاء نوحا من تجديد الحرقه بلوعة الفرقة »  
فكتب إليه إبراهيم « أنا الذى علمتك الشوق لأنى شكوت ذلك اليك  
فهيبت مثله منك » . ومما يتصل بالشوق الكتابة فى التعرف قبل اللقاء  
كما كتب البديع إلى الامير أبى نصر الميكالى يقول « كتابى أطال الله  
بقائه الأمير وبودى أن أكونه فاسعد دونه ، ولكن الحريص محروم ،  
لو بلغ الرزق فاه لولاه قفاه . وبعد فانى فى مفاتيحه فى ثقة تعد ، ويد ترتعد ،  
ولم ذاك والبحر وإن لم أره فقد سمعت خبره ، ومن رأى من السيف أثره  
فقد رأى أكثره ، والليث وإن لم ألقه فلم أجعل خلقه . وما وراء ذلك  
من تالد أصل ونسب ، وطارف فضل وأدب ، فعلوم تشهد به الدفاتر والخبر  
المتواتر ، وتنطق به الأشعار كما تحلف عليه الآثار ، والعين أقل الحواس  
إدراكا ، والأذن أكثر استمساكا »

٩ - الاستزارة - كما سبق من الخوارزمي إلى تلميذه ، وكما كتب بعضهم إلى صديق يقول « ليس من قدرى أدام الله سعادتك أن أقول لك جعلت فداك ، لأنني أراك فوق كل قيمة نضيرة وثمن معجز ، ولأن نفسي لا تساوي نفسك فتقبل في فديتك ، وعلى كل حال جعلني الله فداء ساعة من أيامك . واعلم أيها السيد العلي المنزلة ، أنه لو كان لعبدك من شدة الخطب أمر يقف عند حده النعت . لاجتهدت أن يصف من ذلك ماعسى أن يعطف به زمام قلبك ، ويخنو على الرقة والتحنى أثناء جوارحك ، ولكن ما أمسيت وأصبحت ممتحننا به فيك ، منع كل بيان ونزح عن كل لسان ، والود أيها الصديق لم يشبه قذى ريبة ، ولم يختلط به ثاب معاب ، فلا ينهني لمن كرمته أخلاقه أن يعاف قرابة صاحبه المدل بحسن نيته والذي أتمناه أيها المولى الحبيب محاسن أقف فيه أمامك ثم أبوح بما أضنى جسدي وفقت كبدي ، فإن خف ذلك عليك ، ورأيت نشاطا من نفسك إليه ، كنت كمن فك أسيرا وأبرأ عبيلا ، رسلك من الخير سبيلا ، يتوعد سلوكها على من كان قبله ويكون بعده ، ثم أضاف إلى ذلك منة لا يطيقها جبل راس ولا فلك دائر ، فز أليك أيها السيد المعتمد في الاسعاف قبل أن يبدرنى الموت فيحول يلني وبين ما نزعته إليه النفس ، مواصلا برا إن شاء الله <sup>(١)</sup> .

(١) كان جواب هذه الرسالة الممعة في الضراعة والتزلف رسالة مثلها في ذلك وهي « تولى الله تعالى ماجرى به لسانك بالمزيد ، ولا أوحش ما بيننا بطائر فرقة ولا حافر تشققت ، وضمننا وإياك في أوثق حبال الانس وأوكد أسباب الآلفة . وقفت على ما غصته من العجز عن بلوغ ما خامر قلبك وانطوى في ضميرك من

ومما جرت العادة بالاستزارة فيه مجالس الأئمة والمنادمة، كما كتب  
إسحق بن إبراهيم الموصلي لبعض الكبراء «يومنا يوم لين الخواشي وطيء  
النواحي، وسماؤنا قد أقبلت ورعدت بالخير وبرقت، وأنت قطب السرور  
ونظام الأمور، فلا تقردنا فنقل ولا تنفرد عنا فنذل». وكما كتب  
الحسن بن سهل إلى الحسن بن وهب وقد اصطبح في يوم دجن لم  
يمطر «أما ترى تكافؤ هذا الطمع واليأس في يومنا هذا بقرب المطر  
وبعده كأنه قول كثير عزة:

وإن وتهمي بعزة بعدما تخلت مما بيننا وتخلت  
لكل مرتجي ظل الغمامة كلما تبوأ منها للمقبل اصمحت

وما أصبحت أمنيته إلا في لقائك، فليت حجابا هتك بيني وبينك،  
ورفعت هذه وقد دارت زجاجات أوقعت بعقلي ولم تتخيفه، وبعثت في  
نشاطا حركني للكتابة إليك، فرأيتك في إمطارى سرورا بسار خبرك  
إذ حرمت السرور بمطر هذا اليوم، موقفا ان شاء الله<sup>(١)</sup>. وكتب

الشغف المقلق والهوى المضرع. ولعمري لو كشف لك عن معشار ما اشتمل  
عليه مضمهر صدرى، لأيقنت أن الذي عندك إذا نسبته إلى ما عندي كالميتلاشي  
الزائل، ولكنك بفضل الانعام سبقتنا إلى كشف ما في الضمير. وأما طاعتي  
لك وزمائي إليك، فطاعة العبد المقتنى الطائع لما يحكم به وعليه مولاه وهالكه،  
وأنا صائر إليك وقت كذا فتأهب لذلك بأجهد طافية وأتم طاقبة وأسعد نجم  
جري بألفة إن شاء الله تعالى»

(١) كانت إجابة ابن وهب له «وصل كتاب الأمير أيده الله وفي طاعم  
ويدي حاملة، ولذا تأخر الجواب قليلا. وقد رأيت تكافؤ إحسان هذا اليوم

الحسن بن سهل أيضا في مثل ذلك إلى صديق « نحن في مأدبة لنا تشرف على روضة تضاحك الشمس حسنا وقد بان السماء تعلها ، فهي مشرقة بماؤها حالية بنوارها . فأليك فينا لنكون سواء في استمتاع بعضنا ببعض » . فكان الجواب « هذه صفة لو كانت في أقاصى الاطراف لوجب انتجاعها وحث المطى في ابتغائها ، فكيف في موضع أنت تسكنه ، وتجمع إلى أنيق منظره حسن وجهك ، وطيب شمائلك وأنا الجواب » . وقد رقت المكاتبات في هذا الباب وما تقدمه حتى أصبحت غزلا منشورا لا يفرقه عن غزل الشعر إلا القافية والوزن كما قرأت فيما مر .

١٠ - شكوى الدهر - كتب الصولى إلى بعض إخوانه « يا أخى أشكو إلى الله وإليك تحامل الايام على ، وسوء أثر الدهر عندي ، وأنى معلق في حبال من لا يعرف موضعي ولا يحلو عنده موقعي . أطلب منه الخلاص فيزيدنى كلفا ، وأرتجى منه الحق فيزداد به ضنا ، فالتواء ثواء مقيم ، والنية نية ظاعن وبزمام الرأى مرتحل . ما أذهب إلى ناحية في الحيلة إلا وجدت من دونها مانعا من العوائق ، وأحمل الذنب على الدهر فأرجع إلى الله بالشكر ، وأسأله جميل العقبي وحسن الصبر » . وكتب ابن العميد في مثل ذلك « إنما أشكو إليك جعلي الله فداك دهرا خثونا غدورا ، وزمانا خدوطا غورا ، لا يمنح ما تمنح إلا ريثما ينزع ،

---

وإساءته ، وما استوجب ذنبا يستحق به عتبا . لأنه إذا أشمس حتى حسنك وضياهك ، وإن أمطر حتى جودك وسخاءك ، وإن غام أشبه ظلك وفناءك ، وسؤالى الآن عن نعمة من نعم الله عز وجل ، على أغنى بها آثار الزمان العسى عندي ، وأنا كما يحب الأمير ، صرف الله الحوادث عنه وعني حظي منه » .

ولا يبقى فيما يهب إلا ريثما يرتجع : يبدو خيره لمعاً ثم ينقطع ويحلو ماؤه  
جرعاً ثم يمتنع . وكانت منه شيمة مألوفة وسجية معروفة أن يشفع  
ما يبرمه بقرب انتقاض ، ويهدي لما يبسطه وشك انقباض . وكنا نلبسه  
على ما شرط وإن حاف فيه وقسط ، ونرضى على الرغم بحكمه ، ونسلم  
ونستثم بقصده وظلمه ، ونعتد من أسباب المسرة ألا يجيء محذوره  
مصمتاً بلا انفراج ، ولا يأتى مكر وهه صر فبالا زاج ، وتعملل بما تختلسه  
من غفلاته ونسترقه من ساعاته . ونأستحدث غير ما عرفناه سنة مبتدعة  
وشريعة متبعة ، وأعد لكل صالحة من الفساد حالا وقرن بكل خلة  
من المكروه خلالاته .

١١ - الموازنة والمناقضة - فأما الموازنة فهي المفاضلة بين شيئين  
بذكر محاسن كل ومقايجه أو منافعهم ومضارهم ، وقد راجت سوقها حتى  
ألفت فيها كتب في العصرين الثالث والرابع كما سيأتى في تدوين الأدب  
بعد . وأما المناقضة ، فهي أن يعمد الكاتب إلى الشيء يكون ذا فضل  
على غيره فيسلبه ماله من فضل ، ويثبت لهذا المفضل ما يجعله فاضلاً ، كما  
فعل سهل بن هرون في تفضيل الزجاج على الذهب من رسالة يقول فيها .  
« الزجاج مجلو نوري والذهب متاع سائر ، والشراب في الزجاج أحسن  
منه في كل معدن ، ولا يفقد معه وجه النديم ولا يثقل اليد ولا يرتفع في  
السوم . واسم الذهب يتطير منه ، ومن لؤمه سرعته إلى اللثام ، وهو فاتن  
رفاتك لمن صانه . وهو أيضاً من مصايد ابليس ، ولذلك قالوا أهلك الرجال  
الاحمران ، والزجاج لا يحتمل الوضر ولا يداخله الغمر ، ومتى غسل بالماء  
وحده عاد جديداً ، وهو أشبه شيء بالماء ، وصفته عجيبه وصناعاته أعجب »



١٢ - التفكه والتندر - كما كتب الجاحظ إلى صديق له يوصيه  
 برجل لا يعرفه يقول « هذا كتابي مع من لا أعرفه وقد كلنى فيه من  
 لأوجب حرمة، فإن قضيت حاجته لم أحرك، وإن رددته لم أذمك ».   
 وكما كتب أبو هرون العبدى إلى السيدة زبيدة وقد هلك لها فرد  
 مستأنس « أيتها السيدة الخطيرة إن موقع الخطب بذهاب الصغير  
 المعجب كموقع السرور بنيل الكثير المفرح . ومن جهل قدر التعزية عن  
 التافه الخفى، عمن عن التهنئة بالليل السنن، فلا نقضك الله الزائد فى سرورك  
 ولا حرمك أجزر الذهاب من صغيرك ». وكتب البديع الى رجل ألح  
 عليه فى طلب العطاء وقال له « لم لا تدبم الجود بالذهب كمدبمه بالأدب ».   
 « صافاك الله ، مثل الانسان فى الاحسان كمثل الأشجار فى الثمار، سبيله  
 إذا أتى بالحسنة أن يرفه إلى السنه ، وأنا لا أملك عضوين من جسدى  
 وهما فؤادى ويدي . أما الفؤاد فيعلق بالوفود، وأما اليد فتولع بالجود ،  
 لكن هذا الخلق النفيس ليس يساعده الكيس ، وهذا الطبع الكريم  
 ليس يحتمله الغريم . ولا قرابة بين الذهب والأدب فلم جمعت بينهما ؟  
 والأدب لا يمكن ثرده فى قصعة، ولا صرفه فى ثمن سلعة ، ولى من  
 الأدب نادرة . جهدت فى هذه الأيام بالطباخ أن يطبخ لى من جيمية  
 الشماخ لونا فلم يفعل، وبالقصا ب أن يبتاع أدب الكاتب فلم يقبل، وأنشدت  
 فى الحما ذبوان أبى تمام فلم ينفذ ، ودفعت إلى الحجام مقطعات اللحم<sup>(١)</sup>  
 فلم يأخذ ، واحتيج فى البيت إلى شئ من الزيت فأنشدت من شعر الكهيت  
 ألفى ومائتى بيت فلم تغن، ولو وقعت أرجوزة العجاج فى توابل السكباج<sup>(٢)</sup>

(١) شاعر نعلبي (٢) لحم يطبخ بالخل طعام فارسي

ما عدمتها عندي ، ولـكنها ليست تقع فـأصنع . فان كنت  
تـحسب اختلافك إلى إفضـالا على ، فـراحتي في ألا تطرق راحتي ،  
وفرجي في ألا تجي . ولعل من هذه الناحية ما يـكتب به في  
المواطن التي لا تحسن فيها الكتابة كما فعل ابن العميد إذ كتب إلى  
شخص تزوجت أمه يقول : « الحمد لله الذي كشف عنا ستر الحيرة  
وهذا لنا لستر العورة ، وجدع بما شرع من الحلال أنف الغيرة ، ومنع من  
عضل الامهات كما منع من وأد البنات ، استنزالا للنفوس الأبية عن  
الحمية حمية الجاهلية ، ثم عرض للجزيل من الأجر من استسلم لواقع  
قضائه ، وعوض جزيل الثواب والذخر من صبر على نازل بلوائه ، وهناك  
الله الذي شرح للتقوى صدرك ووسع في البلوى صبرك ، ما ألهمك من  
التسليم لمشيئته والرضا بقضيته ، وما وفقك له من قضاء الواجب في  
أحد أبويك وفي عظم حقه عليك . وجعل الله تعالى جده ، ما تجرأته  
من أنف وكظمته من أسف ، معدودا فيما يعظم عليه أجرك ويجزل به  
ذخرك ، وقرن بالحاضر من امتعاضك لفعليها ، المنتظر من ارتماضك لدفنها ،  
فتستوفي بها المصيبة وتستكمل عنها المنوبة ، ووصل الله سيدي من الصبر  
على عروسها ، بما يستكسبه من الصبر على نفسها ، وعوضه من أسرة  
فرشها أعواد نعشها ، وجعل تعالى جده ، ما ينعم به عليه من نعمة ، معرى  
من نقمة ، وما يولييه بعد قبضها من منحة مبرأ من محنه . فأحكام الله تعالى  
جده ، وتقدمت أسماؤه جارية على غير مراد المخلوقين لكنه تعالى يختار لعباده  
المتقين ما هو خير لهم في العاجلة ، وأبقى لهم في الآجلة ، اختار الله لك في قبضها  
إليه وقدمها عليه ، ما هو أنفع لها وأولى بها وجعل القبر كقفا لها والسلام .

١٣ - الذم والتهميم - وهو باب حافل في الكتابة بكثير من أنواع المذام حفل الشعر به - كتب أحمد بن يوسف يهجو بني سعيد بن سلم « لولا أن الله ختم نبوته بمحمد وكتبه بالقرآن، أنزل فيكم نبي نقمة وأنزل فيكم قرآن غدر، وما عسيت أن أقول في قوم محاسنهم مساوى السفلى، ومساوىهم فضائح الاثم، وألسنتهم معقولة بالعى، وأيديهم مغلوطة بالبخل، وهم كما قال الشاعر :

لا يكبرون وإن طالت حياتهم ولا تبديد مخازيهم وإن بادوا  
وكتب أبو العتاهية إلى الفضل بن معن بن زائدة «أما بعد فاني توصلت اليك في طلب نائلك بأسباب الامل وذرائع الحمد، فرارا من الفقر ورجاء للغنى، فازددت بهما بعدا مما إليه تقربت وقر بها معانده تباعدت. وقد قسمت اللأمة بيني وبينك لأنى أخطأت في سؤالك وأخطأت في منعى، وأمرت بالياس من أهل البخل فسألتهم ونهيت عن منع أهل الرغبة فمنعتهم». وكتب ابراهيم بن المهدي «أما بعد فانك لو عرفت فضل الحسن لتجنبيت شين القبيح. وقد رأيتك وآثر القول عندك ما يضرك، فكنت فيما كان منك ومنا، كما قال زهير بن أبي سلمى

وذى خطل في القول يحسب أنه مصيب فما يعلم به فهو قائله  
عبأت له حملا وأكرمت غيره وأعرضت عنه وهو باد مقاتله  
وكتب بشر بن أبي كبار البلوى إلى ابراهيم بن عبد الله الحجي والى صنعاء لهرون الرشيد حين هم بتوليته بعض النواحي فمنعه هشام بن يوسف الأبنائى «أما بعد فان رأى الامير أمتع الله به ألا يعلم هشام ما يريد من صلاتي فعل، فانه لم يردنى وآلى قط بخير، ولم يفتح لى الأمير باب صلة

فتكون منه خالصة لا يريد بها إلا وجه الله وحده ، ولا يرجو بها إلا ثوابه ؛ إلا عرض هشام من دونها فتعلمها وكرهها ، وأدار القياس عليها وضرب لها الأمثال ، وألقى الحيلة فيها إلى الكاتب والحاجب وقاسمها بالله إنى الحكام الناصحين ، ومدحني بما لم يسمع به من أخلاقى ، وانتقصنى فيما لا يطمع بغيره منى ، ليكون ما أظهر من المدحة مصدقا لما أسر من العيبة ، ثم زخر ف ذلك بالموعظة ، وزينه بالنصيحة وقاربه بالمودة وأغراه من ناحية الشفقة ، وشهد عليه أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، فإذا الحـاجب يزلقتى ببصره ، وإذا الكاتب يسلفتى بلسانه ، وإذا الخادم يعرض عني بجانبه ، وإذا الوالى ينظرني نظر المغشى عليه من الموت . فصارت وجوه النفع مردودة وأبواب الطمع مسدودة ، وأصبح الخير الذى كنت أرجوه هشيما تذروه الرياح والهالة التى كنت أشرفت عليها صعيدا زلقا وأصبح ماؤها غورا فلن أستطيع له طابا ، فأسأل الله الذى جعل لكل نبي عدوا من المجرمين أن يكفيني شره ويصرف عني كيده فإنه يرانى هو وقبيله من حيث لا أراهم والسلام »

١٤ - الوصف - وكما أن هذا الباب جاء فى الشعر أحفل أبوابه كذلك جاء فى الكتابة ، وقد تقدم منه ووصف ابن المقفع لكتاب كريمة ودمنة ، ووصف الجاحظ للكتب ووصفه للضحك ، ووصف الصاحب لمصحف ، قرآنا وخطا . وهالك منه بعضا منوطا - كتب عبد الله بن طاهر وهو بخراسان إلى اسحق بن ابراهيم ببغداد يسأله أن يوجه اليه بأقلام : « أما بعد فأننا على طول الممارسة لهذه الصناعة التى غلبت على الاسم

ولزمت لزوم الرسم فخلت محل الانساب وجرت مجرى الانساب؛ وجدنا  
 الاقلام القصصية أسرع في الكواغد وأمر في الجلود، كما أن البحرية منها  
 أملس في القراطيس وألين في المعاطف، وأكل عن تمزيقها والتعاقب بما  
 ينبو عن مشظاياها، ونحن في بلاد قليلة القصب ردىء ما يوجد بها منه،  
 فأحببت أن تتقدم باختيار أقلام قصصية، وتتأق في انتقائها قبلك، وطلبها  
 في منابتها من شطوط الأنهار وأرجاء الكروم، وأن تقيم باختيارك  
 منها، الشديدة المحس، الصلبة المعص، الغليظة الشحوم، المكتنزة الجوانب  
 الضيقة الأجواف الرزينة الوزن، فانها أبقى في الكتابة وأبعد من الحفاء،  
 وأن تقصد بالتقاءك منها الرقاق القصبان، اللطاف المنظر المقومات الأود،  
 الملس العقد، ولا يكون فيها التواء عوج ولا أمت وضم، الصافية القشور  
 الخفية الأبر، الحسنة الاستدارة الطويلة الأنابيب البعيدة ما بين الكعوب  
 الكريمة الجواهر المعتدلة القوام، تكاد أسافلها تهتز من أعاليها لاستواء  
 أصولها برءوسها، المستكلمة يابس القائمة على سوقها. قد تشرب الماء في  
 لحائها، وانتهت في النضج منتهاها، لم تعجل عن تمام مصلحتها وإبان  
 ينعمها، ولم تؤخر في الأيام المخوفة عاهاتها من خصر الشتاء وعفن الندى.  
 فإذا استجمعت عندك، أمرت بقطعها ذراعا ذراعا قطعاً رقيقاً تتحرز  
 معه أن تشعب رءوسها وتنشق أطرافها. ثم عبأت منها حزماً فيما  
 يصونها من الأوعية وعليها الخيوط الوثيقة ووجهتها مع من تحتاطها في  
 حراستها وحفظها وإيصالها إذ كان مثلها يتوانى فيها لقلّة خطرهما عند  
 من لا يعرف فضل جوهرها». وكتب الخوارزمي يصف رمداً أصابه:  
 «صادف ورود الكتاب رمداً في عيني حصرني في الظلمة، وعجسني في

الغم والنقمة ، وتركنى أدرك بيدي ما كنت أدرك بعيني ، كليل سلاح  
البصر: قسير خطوط النظر ، قد ثكأت مصباح وجهي وعدمت بعضي  
الذى هو آثر عندي من كلى ، فالأبيض عندي أسود والقريب منى مبعده ،  
قد خا ط الوجد أجفانى ، وقبض عن التصرف بنانى ، ففراغى شغل ونهارى  
ليل وطوال ألاحظى قصار ، وأنا ضرير وإن عدت فى البصرء ، وأمى وإن  
كنت فى جملة الكتاب والقراء ، قصرت العلة خطوة قلبي وبنانى ، وقامت  
بين يدي ولسانى . - وكتب القاضى الفاضل يصف حمام الرسائل -  
تحمل من البطائق أجنحة ، وتجهز جيوش المقاصد والأقلام أسلحة . وتحمل  
من الأخبار ما تحمله الضمائر ، وتطوى الأرض إذا نشرت الجناح الطائر ،  
تكون مراكب الأغراض والأجنحة قلوفا ، وتركب الجوبجرا بصفق  
فيه هبوب الرياح موجا مرفوعا ، ومن بلاغات البطائق استفادت ماهى  
مشهورة به من السجع ، ومن رياض كتبها ألفت الرياض فهى إليها دائمة  
الرجع ، وقد سكنت النجوم فهى أنجم وأعدت فى كنهاتها فهى أسهم ،  
وكادت تكون ملائكة لأنها رسل نيطت بها الرقاع فصارت أولى  
أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، وقد باعد الله ما بين أسفارها وقربها ، وجعلها  
طيف خيال اليقظة الذى صدق العين وما كذبها ، ترغم أنف النوى  
بتقريب العمود ، وتكاد العيون بملاحظتها تلاحظ نجم السعود ، وهى  
أنبياء الطيور لكثرة ما أنبأ به من الأنباء ، وخطباؤها لأنها تقوم على  
منابر الأغصان مقام الخطباء . - وكتب الموصلى يصف روضة -  
« جنة علت أرضها أن تمسك ماء ، وغنيت بينبوعها أن تستجدى سماء ، وهى  
ذات ثمار مختلفة الغرابة وتربة منجبة وما كل تربة توصف بالنجابة ،

ففيها الشمس الذى يسبق غيره بقدمه ، ويقذف أيدي الجانين بنجومه ،  
فهو يسمو بطيب الفرع والتجار ، ولو نظم في جيد الحسنة لا شتبه بقلادة  
من نضار ، وله زمن الربيع الذى هو أعدل الأزمان ، وقد شبه بسن الصبا  
في الاسنان . وفيها التفاح الذى رق جلده وعظم قدمه وتورد دخده وطابت  
أنفاسه فلا بان الوادى ولا رنده ، وإذا نظر إليه وجد منه حظ النعم  
والنظر ، ونسبته من سرر الغزلان أولى من نسبته إلى منابت الشجر .  
وفيها العنب الذى هو أكرم الثمار طينة ، وأكثرها ألوان زينة وأول  
غرس اغترسه نوح عليه السلام عند خروجه من السفينة ، يميل  
بكف قاطفه ، ويغرى بالوصف لسان واصفه . وفيها الرمان الذى هو  
طعام وشراب وبه شبهت نهود الكعاب . ومن فضله أنه لا نوى له  
فيرمى نواه ولا يخرج الأولؤ والمرجان من فاكهة سواء ، وفيها التين  
الذى أقسم الله به تنويعها بذكره ، واستتر آدم عايه السلام بورقه إذ  
كشفت المعصية من ستره ، وخص بطول الاغناق فما يرى بها من ميل  
فهو نشوة من سكره ، وفد وصف بأنه راق طعما ونعم جسما ، وقيل هذا  
إنه ملء شهدا لا إناء ملء علما . وفيها من ثمرات النخيل ما يزهى بلونه  
وشكله ويشغل بلذة منظره عن لذة أكله وهو الذى فضل ذوات الافنان  
يعرجونه ، ولا تماثل بينه وبين الحلواء « هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق  
الذين من دونه » وفيها غير ذلك من أشكال الفاكهة وأصنافها وكلها معدود  
من أوساطها لا من أطرافها ولقد دخلتها فاستهوتنى حسدا ولم ألم  
صاحبها على قوله « لن تبعد هذه أبدا » . هذا وقد ضربوا بالوصف في ناحية  
المعنى كما ضربوا في ناحية الحس ، كتب الحسن بن سهل إلى محمد بن سماعة

القاضي يطلب إليه رجلا يستعين به في أموره: «أما بعد فاني احتجت لبعض أموري إلى رجل جامع لخصال الخير، ذى عفة ونزاهة طعمه، قد هذبته الآداب وأحكمته التجارب، ليس بظنين في رأيه، ولا بطعون في حسبه إن أوثمن على الأسرار قام بها، وإن قلد مهما من الأمور أجزأ فيه له سن مع أدب ولسان، تقمده الرزانة ويسكنه الحلم، قد فر عن ذكاء وفطنة، وعض على قارحة من السبكال، تكفيه اللحظة وترشده السكته. وقد أبصر خدمة الملوك وأحكمتها، وقام في أمورهم فمد فيها، له أناة الوزراء وصولة الأمراء وتواضع العلماء وفهم الفقهاء وجواب الحكماء، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده، يكاد يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه وحسن بيانه، دلائل الفضل عليه لأثمة وأمارات العلم له شهادة، مضطلع بما استنهض مستقل بما حمل، وقد آثرتك بطلبه وحبوتك بارتياحه، ثقة بفضيل اختيارك ومعرفة بحسن تأتيك»<sup>(١)</sup>

١٥ - البيعة بالخلافة: وولاية العهد، والعهد، والمنشورات وكل ذلك كان يكتب بالاسهاب والأطناب. فالبيعة كان يفصل فيها ما يجب للخليفة على الأمة وما يجب للأمة على الخليفة وكانت تملأ بالآيمان المخرجة على الوفاء لما فيها والاخلاص في الطاعة لصاحبها. وكذلك كانت الصفة في ولاية العهد. وكلتاها كانت تتلى على الناس ويشهد عليها أولو الحل والعقد،

(١) كان جواب ابن سماعه أن كتب إليه «إني حازم أن أرغب إلى الله عز وجل حولا كاملا في ارتياد مثل هذه الصفة، وأفرق الرسل والثقات في الآفاق لالتماسه، وأرجو أن يمن الله بالاجابة قافوز لديك بقضاء حاجتك والسلام»



ثم تسجل في الديوان لتكون حجة على الخارجين والمدعين. ولقد غالوا في التشديد فيهما لما بدا على الناس من النكث والغدر فضمنوها أيمان الطلاق حتى من الزوجات المستقبلات وإعتاق الرقيق كذلك ، وعلقوها على الكعبة تحت نظر سدنتها مبالغة في الحرمة والاشهار، ومع هذا كله كان يوجد الحنث بها في كثير من الأحيان

والعهود كانت تختلف باختلاف عمل المعهود إليه، ففي العهد بالامارة كانت تفصل الصفات اللازمة للولاية من حزم وعدل ونزاهة واستمسك بالدين ورعاية للصالح العام ، وتذكر البلاد التي تتناولها الولاية ثم تختم بتوثيق المعهود على المولى أن يخلص فيما ولى وأن يكون عند ظن الخليفة به . وفي العهد بامارة الجيش كانت تعد الصفات الملائمة من شجاعة وحسن كيد وقوة وصرامة ، وتبين ضرورة القوة للمحافظة على الدولة وحماية الثغور ، كما تبين ضرورة المحافظة على الجند مما تسوء عاقبته في أجسامهم وعقائدهم ، ثم يختم بالتوكيد كذلك . وفي العهد بالقضاء كانت توضح الصفات الواجبة في القاضي من علم وأمانة وتقوى ونزاهة ، وتبين الأمور التي يجب أن يعنى بها من توزيع الموارث وحفظ أموال اليتامى وحسن القيام على الأوقاف والحبوس ، كما تطلب إليه الدقة في اختيار كتبه وشهوده ، وفي مناقشة الشهود لاستخلاص الحقيقة ، وفي تجنب الهوى الحائف أو المحابي ، وينتهي بمثل ما انتهى به العهدان السابقان من توكيد . وهكذا كان التنويع في العهود لاخرى من دينوية كالعهد بالخراج والشرطة والأمان ، أو دينية كالعهد بامامة الصلاة وتحصيل الزكاة والقيام على الحاج ، وغير ذلك مما كان في سائر العهود .

أما المنشورات فكانت الوسيلة لإعلان الخطير من الأمور الدينية والسياسية وخاصة أيام الفتن ، بقراءتها على العامة في الولايات ليقفوا على رأى الخلافة فيسيروا كما تريد ، وكانت الوسيلة كذلك في إعلان الابتهاج بما يسر من فتح وانتصار ، وتهوين ما يسوء من هزيمة وانكسار.

وأمثلة هذه الأنواع الأربعة مستفيضة في كتب التاريخ لاتصالها بسياسة الدولة ، وفي كتب الأدب لرسوخها في بلاغة الاطناب، وليس يتسع المقام للآتيان بنماذج منها لاسهامها فليرجع إليها فيما ذكرنا

١٦ - وأخيرا استخدمت الكتابة في إنشاء الرسائل المطولة لغير الاخوانيات ، كالسياسة والاخلاق والعلم والاجتماع، وما إلى ذلك مما لم يكن للناس عهد بالكتابة فيه، ومما يشبهه في زماننا الحاضر، ما نقرؤه لولاة الأمور وكبار الكتاب في خطيرات المسائل بالصحف والمجلات. وليس من شك وقد نشأ ذلك أول ما نشأ في العصر العباسي على يد ابن المقفع وبأنشائه ، أنه قد سرى إليه مما قرأ في لغة فارس منه، فعكس صورته على لغة العرب في كثير مما أنشأ، وقد سبق التعريف في منشأته بالدرة اليتيمة ورسالة الصحابة وهما في السياسة، وبالأدب الصغير وهو في الأخلاق، وبالأدب الكبير وهو فيهما معا، واختيرت نماذج منها جميعا. ثم جاء بعده الجاحظ فأكثر من هذه الرسائل فيما سمينا وفيما لم نسم من موضوعات، وقد طبعت له مجموعة تشمل إحدى عشرة رسالة، أولاها منفصلة الرقم في الحاسد والحسود وسبق اختيار شيء منها، والعشر الباقيات متصلات الأرقام وهي على الترتيب، في مناقب الترك وطامة

جند اخلافة، وفي نحر السودان على البيضان، وفي التريبع والتدوير، وفي تفضيل النطق على الصمت، وفي مدح التجار ودم عمل السلطان، وفي العشق والنساء، وفي الوكلاء، وفي استنجاز الوعد، وفي بيان مذاهب الشيعة، ثم في طبقات المغنين. ومن الرسائل المطولة الممتعة لغير هذين الامامين الراسمين، الرسالة العذراء لابراهيم بن المدير في صناعة الكتابة، ورسالة سهل بن هرون في مدح البخل، ورسالة الصابر في الصيد، ورسالة البصاحب في الطب، وغيرها مما تفقتت عنه أذهان هؤلاء وأمثالهم من الكتاب العلماء، فكان إيذا نابأقبال القوم على التأليف والتصنيف إذ كان النواة له، وقد أخذ بعض الرسائل اسم الكتاب كالأدبين الكبير والصغير لابن المقفع مثلاً، وليس المقام وقد ضاق بنماذج البيعات وأخواتها، بالمتسع لهذه الرسائل التي تفضلها سعة وطولا. وكثير منها مطبوع وحده أو مع أشباه، وسائرهما معلوم المواطن في الكتب فليرجع إليها حيث هي.

### وبعد

فقد بقيت للوفاء بحق العنوان المعقود آففا، كلمة في مكانة الكتابة ومنزلة رجالها نجمها هنا قبل الانتقال الى سائر الأقسام فنقول :  
أدركت الدولة الأموية - وقد عظمت - نفع الكتابة والحاجة إلى الكتاب، فأنشأت منذ عهد عبد الملك ديوان الأنشاء، وأخذ شأن هذا الديوان يعظم حتى كان القائم عليه يد الخليفة، كما كان من سالم على أيام هشام. ثم ازداد عظمة وسعة على يد عبد الحميد أيام مروان بن محمد، فكان الكتاب من الخلفاء كما يقول عبد الحميد هذا من وصيته لهم (بكم تنتظم للخلافة

محاسنها وتستقيم أمورها، وبمنصاتها يحكم يصلح الله لخلق ساطعهم، وتعمر بلدانهم، لا يستغنى الملك عنكم ولا يوجد كاف إلا منكم . فوقعكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون، وأبصارهم التي بها يبصرون، وألسنتهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبطشون . غير أن تلك الدولة قد دالت ولم يتجاوز صاحب الانشاء لقب الكاتب إلى غيره . فلما جاءت الدولة العباسية واستقامت الأمور لآبى العباس السفاح لقب كاتبه أبا مسلمة الخلال حفص بن ساجان مولى أخواله بنى الحارث بن كعب ، بلقب الوزارة ، فكان أول وزير في الاسلام ، وثبت بذلك هذا اللقب لكل من ولى أمر الكتابة بعده من الكتاب ، فعظم شأنهم ، وامتد نفوذهم ، وبلغ أقصى ما يمكن أن يبلغ في يحيى بن خالد وزير الرشيد ، لأنه صاحب اليد عليه في بقاء العهد له ، ولأنه كان خاصته وملازمه قبل خلافته ، ولأنه كان بمنزلة والده اذ ارتضع لبن زوجته على ابنه الفضل ، ولهذا قلده الوزارة تقليد تفويض ، ثم كان كذلك وأكثر منه مع ابنه جعفر . فأصبح ديوان الانشاء بهذه السنة التي استمرت مرعية يتولاها وزير بنفسه أو بكتاب يندبه هو ليصرفه بأمره . ومن هنا وصل الكتاب إلى أرفع المنازل بعد الخلافة ، وألقيت اليهم الأمانة في سياسة الدولة ، وأحس الخلفاء بشدة الحاجة اليهم ، فاعتصموا بهم في النوازل وتركوا يتصرفون عنهم في الوعد والوعيد والنقض والابرام ، ونظر الناس إلى هذه المكانة نظرة التقديس والاجلال ، فصاروا يسمعون من الكتاب من يقول:

ولى فقر تضجى الملوك فقيرة إليها لدى أحداثها حين تطرق  
أرد بها رأس الجروح فينثى وأجعلها سوط الحرون فيعنق

إذا حاولت اطفأ فناء مروق وإن حاولت عنفا فنار تألق  
وصار الكتاب يسمعون من الناس من ينشد :

قوم إذا أخذوا الأقلام عن غضب ثم استمدوا بهاماء المنيات  
نالوا بها من أعاديهم وإن بعدوا مالا ينال بحمد المشرفيات  
ونشأ من ذلك ما نشأ من مزاحمة القلم السيف في تصريف الشئون  
وحسم الامور ، فوجدت المفازات التي شبت بينهما نظما ونثرا .  
قال علي بن العباس النوبختي مفضلا القلم :

إن يخدم القلم السيف الذي خضعت له الرقاب ودانت خوفه الأمام  
فالموت والموت لا شيء يغالبه مازال يتبع ما يجري به السقم  
بذا قضى الله للأقلام مذهبيت ان السيوف لها مذ أرفقت خدم  
وقال أبو تمام مفضلا السيف :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب  
بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب  
وفاخر صاحب سيف صاحب قلم فقال صاحب القلم : أنا قتل بلا غرر  
وأنت تقتل على خطر ، فقال صاحب السيف : القلم خادم السيف إن تم  
مراده والا فالى السيف معاده .

لهذا عني الخلفاء وذوو الأمر باختيار الكتاب ممن عرفوا برجاحة  
العقل وغزارة الأدب حتى يكونوا أهلا لما يلقى عليهم من أعباء الملك  
ومياسة الدولة غير ناظرين إلى شرف من يختارون في اختياره لا الكتابة  
كل التشريف إذا كان ممن أخطأه شرف الأصول وفي الكتابة تسويد  
له إذا لم يكن من السودين . هذا ابن الزيات سميت به الكتابة إلى منازل

الأشراف وقد كان كأبيه تاجر زيت . وكان بذلك جد فخور . قال له  
 العلامة بن أيوب يوما وهو ينظره « ليس هذا كيل الزيت ولا عد  
 الجوز » فقال له « أبا التجارة تعيرني وقد كنت تاجرا ومتأخرا فقدمني  
 الله بالادب ، وأصارني بعد التجارة إلى الوزارة ، ليس المعيب من كان  
 خسيسا فارتفع ، وإنما هو من كان شريفا فأتضع » . وهؤلاء آل سهل  
 كانوا ضباطا وتجارا فيهم صانع الخمر وبائعها فارتقت بهم الكتابة إلى  
 الوزارة ، وصاهر المأمون الحسن منهم في ابنته بوران . ولما كتب إلى  
 المأمون بعد زفافها إليه يقول « قد تولى أمير المؤمنين من تعظيم عبده في  
 قبول أمته شيئا لا يتسع له الشكر عنه إلا بمعونة المن منه أدام الله عزه  
 في إخراج توقيعه بتزيين حالي في العامة والخاصة بما يراه فيه صوابا  
 إن شاء الله » خرج توقيع المأمون « الحسن بن سهل زمام على ما جمع  
 أمور الخاصة وكنف أسباب العامة ، وأحاط بالنفقات ونفذ بالولايات ،  
 وإليه الخراج والبريد واختيار القضاة ، جزاء بمعرفته بالحال التي قربته  
 منا وإثابة لشكره إيانا على ما أولينا » . وهذا الصابي على صابئيته تولى  
 ديوان الرسائل خلفاء بني العباس وملوك بني بويه ، وحين مات رثاه  
 الشريف الرضي ، ولما لامه بعض الناس على رثائه صابئيا كان جوابه  
 « إنما رثيت فضله » وغيرهم كثير فأغلب الكتاب سادوا بالكتابة عن  
 صنعة وخمول .

ولعظم مهمة الكتاب عنوا بالتبحر في الأدب والتفقه في كل ما يتعسل به  
 من علم ، حتى يكونوا كفاءة لما يندبون له ، وحتى يقبوا من الخلفاء والملوك  
 الموقع المرضي عنه وبخاصة إذا كان أولئك ممن يعرفون القول وينقدونه ،

ويؤثرون الفاضل ويرفعونه؛ كما عنوا أن يجمعوا إلى دماثة الخلق وكرم السجاياء رقة الطباع ولطف الخدمة، حتى ضربت الأمثال بجمال خلقهم وكمال علمهم. قال بعض آل المهلب لبنيه «تزيوا بزي الكتاب فانهم جمعوا أدب الملوك وتواضع السوقة» وقال الشاعر يصف رقة الخمر بأنها من رقة الكتاب :-

وشمول كأنما اعتصروها من معاني شمائل الكتاب  
وغير هذين في الناحية الخلقية كثير. أما الناحية العلمية فجماع ما قيل عنها فيهم قول الجاحظ «طلبت علم الشعر عند الأصمعي، فوجدته لا يعرف إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا عرابه، فمطفت على أبي عبيدة، فرأيت أنه لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار. وتعلق بالأيام، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك وغيرهما».

هذا وإنه لما يرينا اتساع أفق الثقافة أمام من يهيئ نفسه للكتابة منذ أوائل العصر العباسي قصيدة أبان بن عبد الحميد اللاحق التي قدمها إلى يحيى البرمكي، رغبة في الاتصال بخدمته في هذه الصناعة؛ وانا الخاتمون بها هذا الموضوع لما لها من الجدوى فيه قال:

أنا من بغية الأمير وكنت من كنوز الأمير ذو أرباح  
كاتب حاسب خطيب أريب ناصح زائد على النصاح  
شاعر مفلح أخف من الريشة مما يكون تحت الجناح  
لى في النحو فطنة واتقاد أنا فيه قلادة بوشاح  
ثم أروى من ابن سيرين للعلم بقول منور الإفصاح

- ٢٣٠ -

وظريف الحديث في كل فن      ونصبر بترهات الملاح  
كم وكمد خبأت عندي حديثا      هو عند الملوك كالتفاح  
فبمثلي تحلو الملوك وتلهو      وتناجي في المشكل الفداح  
أيمن الناس طائرا يوم صيد      لغدو دعيت أو لرواح  
أبصر الناس بالجواهر والخيل      وبالخرد الحسان الصباح  
كل ذا قد جمعت والحمد لله      على أنني ظريف المزاح  
لست بالناسك المشمر ثوبيه      ولا الماغن الخليم الوقاح  
لورمي بي الأمير أصلحه الله      رماحا ثامت حد الرماح  
ما أنا واهن ولا مستكين      لسوى أمر سيدي ذى السماح  
لست بالضخم يا أميري ولا القز      م ولا بالجحدر الدحاح<sup>(١)</sup>  
لحية جمعة ووجه صبيح      واتقاد كشعلة المصباح  
إن دعاني الأمير طين منى      شمريا كالبلبل الصдах

## ٢ - التوقيعات

استعملت العرب قبل الاسلام كلمة التوقيع - ما أخذت منه  
وما أخذ منها - في معان كثيرة . فقالت وقع الصيقل السيف إذا أقبل  
عليه بميقعته أى مطرفته يجلوه ويحدده ليكون ماضيا نافذا . وقالت  
وقع القتب ظهر الراحلة إذا أثر فيه تأثيرا خفيفا ، فإذا ترك ذلك التأثير  
دبرة أى فرحة ، ثم برئت وبقيت بموضعها شامة بيضاء ، قالت ظهر موقع  
تريد أن به بقعة صغيرة ذات لون يخالف سائر اللون ، ومن ذلك وقع  
المطر الأرض إذا أصاب منها بعضا وترك بعضا يخالف بين ألوانها .

(١) الجحدر العظيم البطن ، والدحاح البطيء الخطو



وقالت وقعت الدواب ربضت، ووقعت الابل بركت، أى اطمأنت إلى الارض بعد الشبع والرى . وقالت وقع السارون إذا عرسوا أى نزلوا آخر الليل. ولعل هذا من موقعة الطائر وهى الموقع الذى يعتاد نزوله. غير أن هذا مكان وذاك زمان . وقالت وقع الرامى إذا رمى من قريب فلم يخطئ، تريد أنه أصاب من أقرب الطرق . وقالت وقع فلان ظنه على الشئ، إذا قدره وأنزله موضعه . كما قالت وقع الامر إذا لزم وحق، ومنه قوله تعالى « ووقع القول عليهم بما ظلموا » . فهذه معان سبعة مما عرفت العرب للتوقيع وليس منها ما نطلقه عليه الآن من الامضاء .

ولما جاء الاسلام وأسس ملكا عظمت دولته على أيام عمر بن الخطاب، رأينا رحمه الله يستعمل التوقيع فيما يكتب به على حواشى الرقاع المرفوعة اليه لبيان وجه الفصل فيها، وهذا معنى جديد، ولكنه يمت الى المعانى السابقة بالذات . فهو يحلو اللبس فى القصة ويمضيها، وهو وجيز اللفظ ومخالف اللون بالنسبة للفظها ولون مدادها، وهو يجعل صاحب الأمر يطمئن فى تصريف ما رفع اليه، وهو يتحرى فى إثباته آخر الوقعة وموقعا معيننا من حاشيتها، وهو يفصل فى الأمر من أقرب طرقه، وهو نتيجة تقدير وتفكير، ثم هو يحق نفاذه ويلزم .

فتوقيعات عمر رضى الله عنه هى أول توقيع فى الاسلام وهذا بعض منها . كتب اليه سعد بن أبى وقاص حامله على العراق يستأذنه فى بناء دار، فوقع فى أسفل الكتاب « ابن ما يكتنك من الهواجر وأذى المطر » ووقع لعمر بن العاص حامله على مصر فى كتاب « كن لرعيك كما تحب أن يكون لك أميرك » . وقد اقتدي به فى ذلك الخليفةتان بعده .

وقع عثمان رحمه الله في شكاة قوم من حامله مروان بن الحكم « فان  
عصوك فقل إني برىء مما تعملون » ووقع في قصة رجل شكا اليه فقرا  
« قد أمرنا لك بما يقيمك وليس في مال الله فضل للسرف » . ووقع  
على كرم الله وجهه في كتاب لابنه الحسن « رأى الشيخ خير من جلد  
الغلام » ووقع في كتاب لسلمان الفارسي يسأله فيه كيف يحاسب الناس  
يوم القيامة « يحاسبون كما برزقون »

وجاءت الدولة الأموية فزاول خلفاؤها التوقيع بأنفسهم كما كان  
يفعل عمر وتابعاه وهذا بعضها . وقع معاوية لزياد وقد كتب يخبره أن  
عبد الله بن العباس يطعن في خلافته « إن أبا سفيان وأبا الفضل كانا في  
الجاهلية في مسالخ واحد، وذلك حلف لا يحله سوء رأيك » وكتب اليه  
عبد الله بن عامر يعاتبه فوق « بيت أمية في الجاهلية أشرف من بيت  
حييب في الاسلام وأنت تراه » وكتب اليه يسأله أن يقطعه مالا في  
الطائف فوق « عش رجبا تر عجبنا » وكتب اليه ربيعة بن عسل  
اليربوعي يسأله أن يعينه بأثنى عشر ألف جذع في بناء داره ! لبصرة  
فوق « أدارك في البصرة أم البصرة في دارك » . ووقع يزيد ابنه إلى  
عبد الرحمن بن زياد طاماه على خراسان « القرابة واشجة والأفعال  
متباينة، فخذ لرحمك من فعلك » ووقع عبد الملك للحجاج وقد كتب  
يخبره بسوء طاعة أهل العراق، ويستأذنه في قتل أشراهم « إن من  
يمن السائس أن يتألف به المختلفون، ومن شؤمه أن يختلف به المؤتلفون »  
ووقع في ذيل كتاب من ابن الأشعث وهو نائر عليه بهذا البيت :

ما بال من أسمى لأجبر عظمه      حفاظا فينبوي من سفاهته كسرى

ووقع الوليد ابنه للحجاج وقد كتب اليه يسأله الاقتصاد « لا جمع المال جمع من يعيش أبداً ، ولا فرقته تفريق من يموت غدا » ووقع لعمر بن عبد العزيز « قد رأب الله بك الداء وأوْذم بك السقاء » ووقع سليمان بن عبد الملك وقد كتب اليه قتيبة بن مسلم يهدده « وإن تصبروا وتنتقوا لا يضر كم كيدهم شيئا » ووقع له وقد هدده بالخلع :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا      أبشر بطول سلامة يا مربع  
وقد كان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كثير التوقيعات . كتب اليه صاحب العراق يخبره بسوء طاعة أهله فوق « ارض لهم ما رضى لنفسك ، وخذ بجرائمهم بعد ذلك » وكتب اليه عامل الكوفة أنه فعل فى أمر كما فعل عمر بن الخطاب فوق له « أولئك الذين هدام الله فيهدام اقتده » وكتب اليه عامل يستأذنه فى رم مدينة فوق له « حصنها بالعدل ونق طرقها من الظلم » ووقع لرجل ولاه الصدقات فعدل وكان دميما « ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا » . ووقع يزيد ابن عبد الملك على رقعة رجل يتظلم من عامل له « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » . ووقع هشام أخوه لعامله بالمدينة وقد أخبره بوثوب أبناء الأنصار « احفظ فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبهم له » ووقع فى قصة متظلم « أتاك الغوث إن كنت صادقا ، وحل بك النكال إن كنت كاذبا ، فتقدم أو تأخر » ووقع فى قصة رجل شكأ إليه الحاجة وكثرة العيال ؛ وذكر أن له حرمة « لعيالك فى بيت مال المسلمين سهم ، ولك بحرمتك منامتلاه » . ووقع يزيد بن الوليد لمروان ابن محمد إذ تلكا فى بيعته « إني أراك تقدم رجلا وتؤخرى أخرى ، فإذا

أناك كتابي فاعتمد على أبيهما شئت . ووقع مروان هذا إلى ابن هبيرة أمير خراسان « الامر مضطرب وأنت نائم وأنا ساهر » . ولقد كان ولاية بني أمية يحاكون خلفاءهم في التوقيع على ما يرفع إليهم من رقاع . وقع زياد بن أبيه في رقعة لمحبوس يرجو الاطلاق لتوبته « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » وفي رقعة شاكي حاجة « لك في مال الله نصيب أنت آخذه » وفي رقعة متظلم « الحق يسعك » وفي رقعة متنصح « مهلا فقد أبلغت أسماعي » وفي رقعة رجل شكى عقوق ولده « ربما كان عقوق الولد من سوء تأديب الوالد » . ووقع الحجاج إلى قتيبة بن مسلم وقد أخبره بعزمه على عبور نهر ومحاربة الترك « لا تخاطر بالاسلمين حتى تعرف موضع قدمك ومرى سهامك » ووقع له أيضا « خذ عسكرك بتلاوة القرآن فإنه أمنع من حصونك » .

ثم جاءت الدولة العباسية فتولى خلفاؤها وولاتهم أول ما جاءت ، التوقيعات مثل ما كان يلي خلفاء بني أمية وولاتهم . وقع أبو العباس السفاح لعامل تظلم منه الناس « وما كنت متخذ المضلين عضدا » ، ولجماعة من الأنبار ذكروا أن منازلهم أخذت في بناء أمر به ولم يعطوا أثمائها « هذا بناء أسس على غير تقوى » وأمر بدفع قيمتها ، ولجماعة من البطانة شكوا احتباس أرزاقهم « من صبر في الشدة شورك في النعمة » ووقع المنصور في رقعة قوم تظلموا من طامهم « لا ينال عهدى الظالمين » ولأهل الكوفة وقد شكوا عاملهم « كما تكونون يؤمر عليكم » ولعامل شكاه رجل « إن آثرت العدل صحبتك السلامة ، وإن آثرت الجور فما أقربك من الندامة ، فأنصف هذا المتظلم من الظلامة » ولعامله بمصر .

وقد ذكر له نقصان النيل « طهر عسكرك من الفساد يعطك النيل  
القياد » ولعامله على حصص وقد أخطأ كاتبه في كتاب « استبدل بكاتبك  
والا استبدل بك » ولعمه عبد الله بن علي « لا تجعل للأيام في وفيك  
نصيبا من حوادثها » ولرجل شكا عيلة (سل الله من رزقه ) ولرجل شكا  
دينا « إن كان دينك في مرضاة الله قضاءه » ولآخر قطعت عنه أرزاقه  
« ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له  
من بعده وهو العزيز الحكيم » . ولعامل أرمينية وقد أخبره أن الجند  
شغبوا عليه ونهبوا بيت المال « اعتزل عملنا مذموم ما مدحورا فلو عدلت  
لم يشغبوا ولو قويت لم ينهبوا » . ووقع المهدي لعامل أرمينية وقد شكا  
إليه سوء طاعة أهلها أيضا « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن  
الجاهلين » ولعامل خراسان وقد أخبره بغلاء الأسمعار ( خذهم بالعدل  
في المكيال والميزان ) وفي قصة رجل حبس في دم « ولكم في القصص  
حياة يا أُولِي الْأَلْبَاب » وفي قصة آخر من بطائنه يطلب صلة أبطأت  
« ليت إسراعنا إليك يقوم بابطائنا عنك » ولشاعر أسرف في مديحه  
« أسرفت في مديحك فقصرنا في حباؤك » . ووقع وزيره أبو عبيد الله  
لرجل كتب إليه يتعجل استمناحه ويقول - والنفس - ولعه بحب العاجل -  
« لكن العقل الذي جعله الله للشهوة زماما وللهوى رباطا ، موكل  
بحب الآجل ، مستصغر لكل كثير زائل » . ولآخر مبطل « الحق  
يعقب صلاحا وظفرا ، والباطل يورث كذبا وندما » .

ولما آلت الخلافة إلى الرشيد وكان ليحيى بن خالد البرمكي عليه  
في ذلك الفضل وله حق الأبوة من قبل : عهد إليه بما كان لا يتركه الخلفاء

لغير أنفسهم فشاركه في التوقيعات وبذلك تحول التوقيع إلى منصب ووجدت في الكتابة خطة جديدة يقول في التعريف بها ابن خلدون « ومن خطط الكتابة التوقيع، وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله، ويوقع على القصص المرفوعة إليه، أحكامها والفصل فيها، متلقاة من السلطان بأوجز لفظ وأبلغه، فاما أن تصدر كذلك وإما أن يحذو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصة » وقد صدر عن الرشيد ويحيى وكانا في البلاغة على أرفع ما تكون، توقيعات منسوبة إلى الرشيد جاوزت ما كان. وقع لعامله بخراسان « داو جرحك لا يتسع » وفي قصة محبوب « من لجأ إلى الله نجا » وفي قصة متظلم « لا يجاوز بك العدل ولا يقصر بك دون الانصاف » وفي قصة رجل يعرف كفايته تظلم من عامله على الاهواز « قد وليناك موضعه فتنكسب سيرته » وفي رقعة شيخ سمى اليه بنميعة « السعاية قبيحة وإن كانت صحيحة، فإن كنت أردت بها النصيح فخرانك فيها أكثر من الربح، وأنا لا أسعى في محظور ولا أسمع قولة مهتوك في مستور، ولولا أنك في خفارة شيبك لعاقبتك على جريرتك معاقبة تشبه أفعالك » ولما نقل الرشيد ديوان الخاتم من الفضل بن يحيى إلى جعفر أخيه وترك له كل شيء يتصرف فيه كما يشاء، تولى جعفر التوقيع بنفسه بين يدي الرشيد. فكانت توقيعاته يتنافس البلاء في تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها. حتى قيل إنها كانت تباع كل قصة منها بدينار كما قال ابن خلدون. وقع لعامل كثير التظلم منه « قد أكثر شاكروك وقل شاكروك، فاما عدلت واما اعتزلت » ولعامل مثله

ظالم « أنصف من وليت أمره وإلا أنصفه منك من ولي أمرك »  
ولعامل آخر « اجعل وسيلتك إلينا ما يزيدك عندنا » ولعامل مصر  
فى رجل من بطانته بوصيه به « إنه رغب إلى شعبك فارغب فى اصطناعه »  
ولقوم تظلموا « عين الخليفة تكلوكم ونظره يعمكم » ولرجل اعتذر  
من ذنب « قد قدمت طاعتك وظهرت توبتك ولا تغلب سيئة حسنيتين »  
وفى قصة مجبوس يطلب العفو « العدل أو ثقه والتوبة تطلقه » وفى  
قصة متنصح « بعض الصديق قبيح » وفى قصة مستمنح وصله مرارا  
« دع الضرر يدر لغيرك كما در لك » وفى كتاب رجل قرأ فاستحسن  
خطه « الخط خيط الحكمة ينظم فيه منشورها وتفصل فيه شذورها » .  
ومن توقيعات أخيه الفضل فى قصة متعدد « بئس الزاد إلى المعاد  
التعدى على العباد » . ولكن الرشيد عاد إلى التوقيع بنفسه بعد قتله جعفر  
وحبسه أباه . وقع فى قتل جعفر « أنبتته الطاعة وحصدته المعصية »  
ورفع إليه يحيى رقعة من الحبس يستعطفه فيها فوقع عليها « عظيم  
ذنبك أمت خواطر العفو عنك » ولما كتب إليه وقد أحس بالموت  
يقول — قد تقدم الخصم إلى موقف الفصل وأنت بالأثر والله الحكيم  
العدل وستقدم فتعلم — وقع على الكتاب « الحكيم الذى رضيته فى  
الآخرة لك هو أعدى الخصوم عليك وهو من لا يرد حكمه ولا  
يصرف قضاؤه » .

وهكذا كان التوقيع على عهد المأمون ورجاله وبخاصة الفضل  
والحسن ابنا سهل . فمن توقيعات المأمون لأخيه فى قصة متظلم منه  
« فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » وفى

قصة متظلم من عمرو بن مسعدة « يا عمرو عمر نعمتك بالعدل فان الجور يهدمها » وفي قصة متظلم من حميد الطوسي « يا أبا غانم لا تغتر بموضعك من إمامك فانك وأخس عبيده في الحق سيان » ولما كتب إليه عمره ابراهيم - إن غفرت فبفضلك وإن أخذت فبحقك - كان توقيعه « القدرة تذهب الحفيظة والندم جزء من التوبة وبينهما عفو الله » . وكتب إليه عامل الرقة يصف خروج الاعراب بسنجار وعبتهم بها فوقع له :

أسمعت غير كهام السمع والبصر لا يقطع السيف إلا في يد الحذر  
 ميصيح القوم من سيفي وضاربه مثل المهشم ذرته الريح بالمطر  
 ومن توقيعات الفضل بن سهل لعامل متسرع « إن أسرع النار  
 التهابا أسرعها خمودا فتان في أمرك » ولصاحب الشرطة « ترفق فوق »  
 وإلى رجل مثلك اليه الدين « الدين سوء يهيبض الأعناق وقد أمرنا  
 بقضائه » وفي رقعة قاتل شهد عليه العدول ولكن شفع فيه « كتاب  
 الله أحق أن يتبع » وفي قصة متظلم « كفى بالله لَمَظْلوم ناصرا » وفي قصة  
 قاطعي طريق « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض  
 فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو  
 ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب  
 عظيم » ووقع الحسن بن سهل في قصة قوم تظلموا من واليهم « الحق  
 أولى بنا والعدل بغيتنا فان صح ما ادعيتم عليه صرفناه وعاقبناه » ومدحه  
 على ابن عبيدة الريماني ووقف ببابه ينتظر عطاءه فطال وقوفه فبعث  
 إليه رقعة يشكو الأبطاء فوقع عليها « باب السلطان يحتاج إلى ثلاث



خلال : عقل وصبر ومال .

هذه طائفة من التوقيعات منذ أن عرفت على يد عمر بن الخطاب إلى أواخر العصر العباسي الأول تقريبا على عهد المأمون ورجاله. ومنها يرى أن التوقيع مبنى على إيداع اللفظ القصير المعنى الكثير ولذلك غلب أن يكون آية قرآنية أو حديثا نبويا أو مثلا سائرا أو حكمة متوارثة، فان تعدى هذه الأنواع فلا أقل من أن يكون جامعة كلم للموقع أو لغيره ممن سلف. كما لازم العصور التي ساد فيها الإيجاز الاطناب وآخرها العصر العباسي المذكور حيث كانت السليقة العربية متمكنة والبدائة حاضرة فيمن يتولونه وفي كثير ممن كان يكتب به اليهم. قال العلامة ابن خلدون يصف حال صاحبه « واعلم أن صاحب هذه الخطبة - يعنى خطبة التوقيع - لابد أن يتخير من أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة فانه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك ، مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل ومع ما يضطر اليه في الترسييل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها » اهـ

وقد بدأ الطول منذ عهد المأمون ووزرائه يظهر في التوقيعات وهذه ظاهرة لم تكن معروفة فيها ولسناتهم هؤلاء بالعجز أن يوجزوا، فاز، لهم في ذلك الآيات البيّنات ولكننا لانحليلهم من أن روح العصر المتنقلة حينذاك من الإيجاز إلى الاطناب أخذت تؤثر فيهم من حيث لا يشعرون. رفع الواقدي رقعة إلى المأمون يشكو فيها الدين فوقع

عليها ( فيك خلتان السخاء والحياء فأما السخاء فهو الذى أطلق يديك  
بما ملكت وأما الحياء فهو الذى حملك على ذكر بعض دينك وقد  
أمرنا لك بضعف ما ذكرت فإن قصرنا عن بلوغ حاجتك فبجنايتك  
على نفسك وإن بلغنا بغيتك فزد في بسط يدك فإن خزانة الله مفتوحة  
ويده بالخير منسوطه ) . وكتب إليه أحمد بن يوسف يستجدي لطلاب  
الصلوات وقد كثروا على بابه فوقع على كتابه ( الخير متبع وأبواب  
الملوك مغان لطالبي الحاجات ومواطن لهم ولذلك قال الشاعر  
يسقط الطير حيث ياتقط الحب وتغشى منازل الكرماء  
فاكتب أسماء من بيابنا منهم وبين مراتبهم ليصل إلى كل رجل  
قدر استحقاقه ولا تكدرن معروفنا عندهم بطول الحجاب وتأخير  
الثواب فقد قال الشاعر :

وإنك لن ترى طردا لحر كالصاق به طوق الهوان  
ولم تجلب مودة ذى وفاء بمثل البشر أو بذل اللسان )  
وكتب رجل إلى أحمد بن يوسف يستتم الصنيعة عنده فوقع  
على كتابه « مستتم الصنيعة : من عدل زائفها وأقام أودها . صيانة لمعرفه  
ونصرة لرأيه ، فإن أول المعروف مستخف وآخره مستثقل يكاد أول  
الصنيعة يكون للهوى وآخرها للرأى ولذلك قيل تشيم الصنيعة أشد من  
ابتدائها » . ورفع بعض الولاة إلى الفضل بن سهل رقعة حامل عنده  
بسعاية فوقع عليها « نحن نرى قبول السعاية شرا منها ، لأن السعاية  
دلالة والقبول إجازة وليس من دل على قبيل وأخبر به كمن قبله وأجازه  
فاطرد هذا الساعى عن صملك وأقصه عن بابك فانه لو لم يكن فى سعائته

كاذبا لكان في صدقه لثيما إنما إذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة .  
ولما انقضى العصر الأول وفقدت بانقضائه القدرة على الإيجاز ؛  
وتولى شئون الدولة في العصر الثاني من لا يفهمون البلاغة من الخدم  
الأتراك لم يجهد الكتاب أنفسهم في التوقيعات وإنما بقيت خطة  
صاحبها ، فأصبحت غير كفيلة وحدها بالافادة كما كانت قبل ، وصارت بمنزلة  
ما نعرفه الآن بالتأثيرات من حيث بناء الردود عليها لا إرسالها نفسها  
لعدم غنائها في تمام الاستفادة منها ، نعم إن بعضها كان صالحا لذلك في نظر  
واضعه وأمام من يبنى الرد عليه ، ولكنه ما كان صالحا بحال عند من  
يبحث به إليه لتقلص القدرة على فهم بلاغة الإيجاز إذ ذاك كما هي الحال  
في الإشارة الآن .

وقد استمر التوقيع في العصر الثالث - على رقى الكتابة فيه -  
فأقدا روعة البلاغة بلاغة الإيجاز ، فهيّطت منزلته وتناساه الناس إذ  
لم يعودوا يرون عليه ما كانوا يرون قبل من رونق وبهاء ، وبذلك زال  
ما كان له من حسن وقع في الصدور ورفعة قدر في النفوس .  
على أنه قد وجد من كبار الكتاب في هذا العصر من جهد نفسه في التوقيع  
فكان له منه ما لا يقل عن توقيعات المتقدمين . ولعل خير هؤلاء الصاحب  
ابن عباد وهذا شيء مما خلف فيه . وقع في رقعة استحسناها « أفسح  
هذا أم أنتم لا تبصرون » ورفع إليه بعضهم رقعة أعار فيها على بعض مآثوره  
من معان وألفاظ فوق عليها « هذه بضاعتنا ردت إلينا » ووقع في كتاب  
لبعض مخالفيه « فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون »  
وكتب رجل يخبر أن أحد من ينطوى له على غير جميل يدخل داره  
م - ١٦ أدب

في غمار الناس ثم يتنوم لاستراق السمع فوقع إليه « دارنا هذه خان يدخلها من وفي ومن خان » ورفع إليه رجل رقعة يحطّب فيها عملاً فوقع عليها « التصرف لا يلتبس بالتكفف ، من احتجنا إليه صرفناه وإلا صرفناه » ووقع إلى أنى محمد الخازن وكان قد انصرف عنه مغاضباً ثم كتب إليه يستأذن معاوداً « ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك منين » . أما في العصر الرابع فقد توارت التوقيعات عن الأنظار لاستيلاء العجبة واستحكامها، ولم يظهر للقوم فيه من ناحية الإيجاز السكتاني إلا ما خرج بالإيجاز عن وضعه الاصيل إلى الرمز المشير الذي بدأ يظهر من أواخر العصر الثالث قبله. وإليك في هذا مثليين: بعث السلطان محمود الغزنوى في أواخر القرن الرابع وقد استقل بالسلطنة عن بغداد يطلب إلى الخليفة ذكر اسمه في الخطبة ونقش اسمه على النقود، فامتنع الخليفة فبعث إليه كتاب تهديد جاء فيه « لو أردت نقل حجارة بغداد على ظهور الفيلة إلى غزنة لفعلت » فكان الجواب كتاباً ليس فيه إلا البسملة وبعدها ألف فلام فميم ثم الصلاة على النبي والحمد لله . فامافتحه تحير هو وأهل مجلسه في فهمها حتى دخل عليه أبو بكر القمستانى من كبار العلماء فسئل فيه فقال: إنكم بعثتم تنهدون الخليفة بالفيلة فبعث إليكم هذا الكتاب وفيه « ألف ولا ميم » إشارة إلى قوله تعالى « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » السورة فارتاع السلطان وعاد مطيعاً . وحدث في أواسط القرن الخامس أن خاف سيد الملك صاحب قلعة شيزر بالقرب من حماة تاج الملوك صاحب حلب فخرج إلى جلال الملك بن عمار صاحب طرابلس وأقام عنده ، فأراد تاج الملوك أن يحتل في

استقدامه ليفتك به، وأوعز إلى كاتبه أبي النصر محمد بن الحسين أن يكتب إليه في ذلك وكان له صديقاً فكتب كما أمر، ولكن حين بلغ قوله « إن شاء الله تعالى » شدد النون وفتحها؛ فلما وصل الكتاب إلى سيد الملك استحسنته الحاضرون فقال لهم وكان فطنا « إنى أرى في الكتاب مالا ترون » وأجابه بكتاب كان من جملته « أنا الخادم المقر بالانعام » غير أنه كسر همزة أنا وشدد نونها، فلما قرأ أبو النصر الكتاب علم أنه فهم ما أراد، إذ كان أبو النصر يقصد بما تقدم قوله تعالى، « إن الملائكة يأتون بك ليقتلوك » وكان سيد الملك يقصد « إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها » .

هذا وإنا قبل الفراغ من الكلام على التوقيعات، لا يسعنا إلا الحكم بأنها أثر من آثار العرب لا محاكاة منقولة عن الفرس كما يقال، لأن الإيجاز من سمات العربية، وسائر الساميات عن الآريات، كما هو ظاهر في أمثال العرب الجاهليين وحكمهم وجوامع كلمهم، ولأن عمر حينما بدأ التوقيع لم تكن الفارسية معروفة في الجزيرة حتى يكون هناك محل للمحاكاة، إنما هي نوع من أنواع التفكير دفع إليه ملك العرب الجديد، في أسلوب من الأساليب القصيرة وسعته لغتهم ذات الإيجاز، فأخذ ينمو شيئاً فشيئاً أيام الدولة الأموية دون أن يكون للفارسية على أيامها انتشار، ثم استبحر الملك أول العهد العباسي وبقيت بلاغة الإيجاز، فكان له ما كان حتى إذا ماضت تقلص مع بقاء الفارسية صاربة الجران .

### ٣- القصص

نشأ الانسان الأول محوطاً بالوحوش التى تناصبه العداء صباح مساء، وبنوا ميس الطبيعة التى تنكى به وهو يجمل ما لها من أسرار، فكانت هذه الحرب المشبوبة عليه من الجانبين حافزة لخياله أن يتصور الخوف فى كل شىء، ولعقله أن يفكر بقدر استعدادة لاذك فيما يدفع هذه الغوائل عنه، وقد سبغ به خياله أن يرى وراء هذه الظواهر المجهولة الأسباب قوى خفية يرهب جانبها ويخشى سطوتها، وهواه عقله أن يتملقها ويتقرب اليها فكان من ذلك الدين الذى يتحقق بين معبود مخوف مرجو، وظاهد خائف راجع، ولعل مما قوى فى نفسه وجود هذا العالم غير المنظور ما كان يطرقة فى نومه من أحلام يرى فيها من ماتوا أحياء يقولون ويفعلون كما كانوا فى هذا العالم المنظور، وكان من نتائج ذلك أن حاك لنفسه أساطير خرافية تغذى نهمه فى الخوف والرجاء كانت النواة لما جدد بعد من قصص وروايات . غير أن هذا التراث القديم لم يجد عوامل النمو فى كل البيئات سواء ، فحيث تكون البلاد كثيرة الجبال والكهوف والأنهار والغابات وضواى الوحوش وجوارح الطيور يعظم الخوف ويقوى التخيل والاختراع ، وحيث تكون منبسطة الأرض سافرة السماء تقل الرهبة ويضعف الخيال ، وكلما قوى الخوف بالانسان جددى التأليه وأكثر من المعبودات؛ وعلى العكس إذا ضعف الخوف تبسطت عبادته وقلت آلهته . ومن ثم كانت الحالة الاولى ممثلة قديما فى مثل بلاد اليونان ، وكانت الثانية واضحة فى سكان البوادر كالعرب الجاهليين . وليس يطعن فيما نقول عن العرب الآن ما كان لديهم من تعدد الديانات

لأننا نعني بالتعدد أن يكون في معتقدات الشخص الواحد كما هي الحال في الأمة التي ذكرنا، لا أن يكون في مجموع أمة تقف كل طائفة منها عند عبادة واحدة كما كانت العرب في القديم .

ذكرنا ذلك لنخرج منه إلى أن الأمم كانت إزاء القصص مختلفة الدرجة على حسب اختلاف البيئة التي هي الأساس. وإذ كان تنازع البقاء في القديم ممثلاً أولاً بين الإنسان وغير الإنسان، وممثلاً ثانياً في الحروب التي كانت لا ينتفع لها مدد بين الجماعات، فقد وقعت الأساطير الخرافية على ذلك التنازع، وجاءت القصص القديمة في تلك الحروب بتغني فيها المنتصر بأبطال الانتصار، ويتخيل فيها المهزم بطلا منتظراً يكون على يديه الخلاص . وأعقب ذلك وجود أناس من القصاصين يرتقون بالقصص على حساب الطبقات . فعند الخاصة يفيض القاص في نبل الأمراء ومالهم على العامة من سطوة وإفضال، ولدى العامة يسخر من الأمراء ويذكر ما يشينهم من فتنائح ومخاز . ولم يكن أولئك القصاصون بالوافين عند الحقائق التي كانت تبني القصة عليها أول وضعها، بل كانوا يعطون لأنفسهم حق الزيادة فيها والتهويل بها وإضافة حقائق أخرى إليها، وقد ساعدتهم على هذا الوضع والاختلاق في القصص الموضوعية بعد الهوة بين طبقتي الأمة إلى ما يشبه الانعزال، وفي غير الموضوعية انقطاع الصلات بين بعض الأمم وبعض انقطاعاً أوجده اكتفاء كل أمة ببلادها وأحكامه سوء حال المواصلات وقلة وسائل الانتقال . فكثرت بذلك القصص على أيدي هؤلاء القصاصين حتى صار لكل أمة مستعدة لها تراث منها عظيم، وبخاصة وقائع الملاحم المنشأة في الحروب، وسير

الأبطال ممزوجة بذكر الآلهة المساعدين إذ كان تمجيد الأبطال واستنجاد الآلهة أمرين جوهريين في القصص القديم<sup>(١)</sup>.

جاء الاسلام والعرب خلو من القصص للأسباب التي ذكرنا ، ومع احتكاكهم بالأمم منذ الصدر الأول ، واطراد هذا الاحتكاك في العهد الأموي ، استمروا بعبيدين عن أن يكون لهم قصص في العصرين المذكورين على النهج الذي أوضحناه لأسباب زائدة على خلو قديمهم من الأساطير أهمها عدم عنايتهم بأداب غيرهم اعتقاداً منهم أن أدبهم لا يعلوه أدب وأنهم وصلوا في الناحية الأدبية إلى القمة ، وأن الامم الاخرى في الخضيض . على أن امتلاء القصص القديمة لغيرهم بتعدد الآلهة قد يكون من أسباب انصرافهم عنها لمنافاتها الاسلام ، وبذلك انسلخ هذان العهدان بعد العهد الجاهلي ، وتدوين القصة عندهم في حكم المعدوم على ماله عند بعض الأمم من شأن عظيم .

غير أن دخول كثير من الفرس الاسلام ، وجذقهم العربية والفارسية معا حبيب إليهم أول العصر العباسي أن يغذوا العربية عن طريق الترجمة بما يرونه في القصة الفارسية من جمال ، وكان أول عهد العرب بالقصص المترجمة كتاب كليله ودمنة المنقول في القرن الثاني وتلته كتب كثيرة

---

(١) من أشهر الملاحم القديمة الاللياذة والاوليذسة لهوميروس شاعر الاغريق ، والانيادلفرجيل شاعر الرومان . فاللياذة قصة حرب طروادة التي دامت عشرين سنة بينها وبين اليونان . والاوليذسة قصة ضلال يوليسيس طريق البحر وهو حائد برجاله من تلك الحروب إلى بلاد اليونان ، أما الانياد فقد نظمها فرجيل تمجيذا لأميرة أغسطس قيصر أحد أباطرة الرومان .



أشهرها كتاب ألف ليلة وليلة في القرن الثالث . ومنذ تذوقوا جمال هذا الفن نشطوا في وضع القصص بعد نشاطهم في ترجمتها فكانت لهم في كلا النوعين آثار كما سترى في هذا البيان .

### ١ - القصص المنقولة

عرفت أن أول كتاب عرفته العرب في القصص المنقولة في القرن الثاني كتاب كليله ودمنة ذو الحكمة الخالدة والشهرة الذائعة<sup>(١)</sup>، وهو كتاب وضعه بيدبا الفيلسوف الهندي من البراهمة بالهندية السنسكريتية لدبشايم أحد ملوك الهند بعد عصر الاسكندر، في صورة أقاصيص على أسنة الحيوان تتضمن الأدب والحكمة مما يحتاج إليه الملوك في سياساتهم، والناس في معاملاتهم، وذلك في خمسة عشر بابا هي :

(١) باب الأسد والثور، وفيه قصة المتحابين يقطع بينهما الكذب المحتمل، حتى يحملهما على العداوة والبغضاء (٢) باب الفحص عن أمر دمنة، وفيه قصة الواشى الماهر المحتمل وكيف ينتهى أمره إلى وبال (٣) باب الحمامة المطوقة، وفيه قصة إخوان الصفاء كيف يتواصلون ويستمتعون (٤) باب اليوم والغربان، وفيه قصة العدو الذى لا ينبغي أن يغتر به، وإن أظهر نضرعا وملقا (٥) باب القرد والغليم<sup>(٢)</sup>، وفيه قصة الرجل الذى يطلب الحاجة، فاذا ظفر بها أضاعها (٦) باب الناسك وابن عرس، وفيه قصة الرجل العجلان في أمره من غير روية ولا نظر

---

(١) أخذ الكتاب هذا الاسم من اسم أول حيوانين من بنات آوى دار الحديث بينهما في باب الأسد والثور أول أبواب الكتاب وأضخمها .

(٢) الغليم هو السلحفاة الذكري

في العواقب (٧) باب الجرذ والسنور ، وفيه قصة الرجل تكثر أعداؤه  
فيلتمس النجاة بموالة بعضهم ويفي له (٨) باب ابن الملك والطائر فئزة<sup>(١)</sup>  
وفيه قصة أهل التراث الذين لا بد لبعضهم من اتقاء بعض (٩) باب  
الأسد والشغبر<sup>(٢)</sup> الناسك، وفيه قصة الملك الذي يراجع من أصابته  
منه عقوبة من غير جرم (١٠) باب إبلاذ وبيلاذ وإراخت<sup>(٣)</sup>، وفيه ذكر  
الاشياء التي يجب أن يجعلها الملك رأس أمره وملاكه (١١) باب اللبوة  
والأسوار<sup>(٤)</sup> والشغبر، وفيه مثل الرجل يدع ضر غيره ويتعظ بما  
ينزل به (١٢) باب الناسك والضيف. وفيه مثل الرجل الذي يدع ما يشاكله  
ويطلب غيره فلا يدركه (١٣) باب السائح والصائغ، وفيه مثل الذي  
يضع المعروف في غير موضعه ويرجو الشكر عليه (١٤) باب ابن الملك  
وأصحابه، وفيه مثل الجاهل يصيب الخير، والعاقل يقع في الضر  
(١٥) باب الحمامة والتعلب ومالك الحزين<sup>(٥)</sup> وهو باب من يرى الرأي  
لغيره ولا يراه لنفسه .

وبعد نحو ثمانية قرون من وضعه سمع بمكاته كسرى أنوشروان  
فبعث برزويه رأس أطباء مملكته إلى الهند لترجمته ، فترجمه من خزانه  
كتبها سرا إلى الفارسية الفهلوية . وطلب إلى الملك أن تكون مكافأته  
أن يأمر وزيره بزرجمهر بعمل ترجمة له في باب يوضع أول الكتاب  
قبل باب الأسد والثور فعملها . ثم عملت مقدمة للكتاب بقلم بهنود  
ابن سحوان في باب ذكر فيه السبب الذي من أجله وضع بيد بالكتاب

(١) اسم بيناء (٢) ابن آوى (٣) أسماء لوزير فلك فلانة (٤) بكسر

الهمزة وفتحها الجيد الرى بالسهم (٥) الطائر المعروف بأبي قردان .

لدبشليم، وأعقبها بباب ثان ذكر فيه بعثة برزويه إلى بلاد الهند لترجمته. وبعد نحو مائتي سنة من هذه الترجمة نقله عبد الله بن المقفع إلى العربية وزاد عليه مقدمة بين فيها أغراضه في باب دطاه باب عرض الكتاب وجعله بين ما كتب بزرجمهر وما كتب بهنود، فكانت الأبواب الزائدة على الابواب الهندية أربعة، وبذلك صار الكتاب تسعة عشر بابا، ثم فقد الأصولان الهندى والفارسى ولم يبق غير الاصل العربى الذى طبع مرارا منذ أواخر القرن الثامن عشر إلى الآن، ومن هذا الاصل نقل إلى معظم اللغات الشرقية والغربية قديما وحديثا<sup>(١)</sup> وقد شغل هذا الكتاب مكانة عظيمة في عالم القصص الحيوانى، وفتح أمام الكتاب مجالا للأخيلات شرقا وغربا، ولذلك عنى الناس به.

---

(١) ما ذكرناه عن أبواب الكتاب هو الوضع الذى تنطق به النسخة العربية المتداولة في مصر الآن. ويرى فقيد التاريخ والأدب « جورجى زيدان » في كتابه آداب اللغة العربية، أن أبواب الكتاب واحد وعشرون فقد منها اثنان في النسخ المطبوعة عن الترجمة العربية، هما باب ملك الجرذان من وضع الفرس، وباب مالك الحزين والبطّة، من وضع ابن المقفع، كما يرى أن باب الفحص عن أمر دمنة، وباب الناسك والضيف، وباب الحمامة والثعلب ومالك الحزين، وكذا أول البابين المنسوبين إلى بهنود من وضعه كذلك مع باب عرض الكتاب، وعلى رأيه تكون الأبواب الهندية اثني عشر، والفارسية ثلاثة، والعربية ستة، ولكنه لم يذكر مستنده في هذا الخلاف مع اعترافه بفقد الأصولين الهندى والفارسى، كما لم يشر إلى أية نسخة عربية غير المطبوعة يوجد فيها هذان البابين الناقصان.

عناية كبيرة فوق ترجمته إلى أغلب اللغات . فنظمه أبان بن عبد الحميد  
اللاحق ليحيى البرمكي وأولاده ، وقيل إن سهل بن نوبخت نظمهم لهم  
أيضا ، ونظمه كذلك على بن داود كاتب السيدة زبيدة ، كما نظم بعضه  
بشر بن المعتد ، وكل هذه ضاعت ولم يبق منها إلا أبيات منقولة من  
نظم أبان <sup>(١)</sup> ثم نظمه أبو يعلى محمد العباسي المنوفي سنة ٥٠٩ المعروف بابن  
الهبارية في كتاب سماه نتائج الفطنة في نظم كليله ودمنة . كما نظم  
القاضي الأسعد بن مماتي المصري المتوفى سنة ٦٠٦ لصالح الدين  
الأيوبي ، وكلاهما موجود . وقد عورض الكتاب بكتب ألفت على منواله  
نظما ونثرا . فن المنظومة كتاب الصادح والباغم لابن الهبارية المذكور وقد  
رفعه إلى الأمير صدقة بن منصور بن ديس أمير الحلة <sup>(٢)</sup> وكتاب درر

#### (١) أول هذه المنظومة

هذا كتاب أدب ومحنة وهو الذي يدعى كليله دمنه  
فيه احتيالات وفيه رشد وهو كتاب وضعته الهند  
ومنها في معنى أن الرجل الرشيد إما أن يكون مع الملوك مكرما ، أو مع  
الزناك متعبدا ، كالقيل يكون وحشيا أو مركبا للموك

وقيل أيضا إنه قد ينبغي للرجل الفاضل فيما ينبغي  
ألا يرى إلا مع الأملاك أو يعبد الله مع الزناك  
كالقيل لا يصلح الأمر كبا للملك أو راعيا مسيبا  
(٢) هذا الكتاب أبدع فيه صاحبه اختراع الحكايات والأمثال في أسلوب

رقيق حسن الانسجام وأوله :

الحمد لله الذي حباني بالاصغرين القلب واللسان

الحكم في أمثال الهنود والعجم لعبد المؤمن بن الحسن في القرن السابع. وثالث لجلال الدين النقاش في القرن التاسع. ومن المتنورة كتاب ثعلث وعشرة لسهل بن هرون صاحب بيت الحكمة للمأمون<sup>(١)</sup>. وسالوان المطاع في عدوان الاتباع لابن عبد الله محمد القرشي المعروف بابن ظفر في القرن السادس. وثالث لاجند بن محمد الحنفي المعروف بابن عربشاه في القرن التاسع. ومع وجود هذه الكتب الستة مع نظومه الستة التي قلنا بوجود بعضها إلى الآن مطبوعا أو مخطوطا لم تقو على معارضة الكتاب، فقد صرعا جميعا كما صرع ترجمة له ثانية من الفارسية كان قد قام بها عبد الله بن هلال الأهوازي ليحيى بن خالد في خلافة المهدي فبادت مع ما باد.

والكتاب فوق اشتماله على القصص الجميلة المختصرة ذات الخيال الرائع، وعلى التشبيهات المركبة والاستعارات التمثيلية التي تنسجم معها في هذا الخيال، قد اشتمل في ثنايا ذلك على أمور عدة زادت من قيمته ورفعت من شأنه. كاشتماله على الحكم والأمثال في السياسة والاجتماع، وعلى التحليلات الدقيقة لظواهر النفس من إرادة وتفكير وشعور، وعلى تصوير النظم في الحكومات المطلقة وتبيين طبائع الاستبداد، وعلى وصف الطبائع الكثيرة لكثير من البهائم والسباع والطيور

---

(١) مما نقل عن هذا الكتاب قبل فقده قوله « اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدما قبل الذي تجودون به من تفضلكم . فان تقديم النافلة مع الإبطاء في أداء الفريضة شاهد على وهن العقيدة ونقصير الروية ، ومضر بالتدبير ومخل بالاختيار ، وليس في دفع تمحمد به ، عوض من فساد المروءة ولزوم النقيصه »

والحشرات، وما يتعلق بأحوال معيشتها وحياتها، وكل ذلك في ضروب محكمة من التعبيرات المتوفية شرائط البلاغة فيما يتوخاه. ولولا أن الكتاب مشهور وما فيه من ذلك معروف لضربنا منه لكل تلك الأشياء الكثير من الأمثال. هذا وقد رأيت فيما نقلنا عن ابن المقفع في أسباب وضعه على السنة الحيوان، أنه وضع كذلك ليلائم الأحداث كما يلائم الكبار فظاهرة فهو ممتع وقصص لذيذ، وباطنه محكمة مقنعة وعظة بالغة، ولذا نشط له هؤلاء كما نشط له هؤلاء وعمر هذه القرون العديدة مثلاً طالبا وأستاذا مريباً للشرق والغرب على السواء. وكلما مرت الأيام ازداد جدة وزاده الناس إقبالا ومحبة.

أما كتاب ألف ليلة وليلة الذي عرفته العرب عن القصص في القرن الثالث، فهو مجموعة قصص تقع في أربع مجلدات تبلغ صفحاتها نحو ألفي صفحة منها نحو مائة قصة اعتبرت أصولاً ثم وردت في ثناياها مئات القصص على سبيل الاستطراد، وتعزى هذه القصص على ما يزعمون في أصلها إلى قاصدة تدعى شهرزاد كانت بنتاً لوزير ملك من ملوك ساسان خاتمه زوجة، فاعتاد أن يقتل كل زوجة بعد الليلة الأولى من دخوله بها، وعز هذا القتل على تلك البنت فطلبت إلى أبيها أن يزوجه منها لتحمله على ترك هذه العادة لإبقاء على بنات جنسها ففعل، وفي ليلة بنائه بها بدأت له في قصة جعلت الصباح يدرهما قبل تمامها، وقطعت الحديث عند نقطة يشتاقي السامع إلى ما بعدها. وفي الليلة الثانية استأنفت الحديث ثم قطعت كما قطعت في الليلة الأولى وهكذا حتى أتمت معه ألف ليلة رزق فيها ثلاثة أبناء منها. فاستشفعت إليه في الليلة الأولى

بعد الألف أن يقيمها من أجل أبنائها وأطلعتته على ما كانت تبغى من وراء هذه القصص، فأكبر عقلها وقبل رجاءها وأقام معها فى حبور ووفاق والمطلع على ما قيل عن هذا الملك بمقدمة الكتاب من أنه كان من ملوك ساسان الذين حكموا جزائر الهند والصين، يدرك حتماً أن هذه القصص كما تتناول قصصاً فارسية تتناول معها قصصاً هندية وأخرى صينية، وأنها وقد وضعت بالفارسية قبل الإسلام لا يمكن عقلاً أن يكون من قصصها الأصلية شئ وقع بعده فى جهة ما. ومن ثم يحكم بداهة أن جميع القصص التى تناولت فترة من تاريخ العباسيين ببغداد، وأخرى من تاريخ الفاطميين ومن بعدهم بمصر، دخيلة على الكتاب وموضوعة بمعرفة العرب فى هذه العمود. هذا وقد كان الأصل الفارسى يدعى « هزار أفسانه » ومعنى ذلك ألف خرافة، فلما توجه العرب فى القرن الرابع دعوه ألف ليلة وليلة على ما جاء فى سبب وضعه من أن الليالى كانت ألفاً وأن كل ليلة كانت عامرة بخرافة أو أكثر أو جزء من خرافة غير عربية حتماً، وأن العرب حينما زادوا على الكتاب أكثر من نصفه لم يغيروا من وضعه هذا، فأبقوا لياليه كما ذكر عنها ألفاً وجعلوا حكاياتهم المزیدة فى ثنایاتلك الليالى. غير أن الفاحص عن الكتاب يجزم حتماً أنهم نقلوا بعض الخرافات من لياليها إلى ليال غيرها، فإن هناك ليالى كاملة نغمها حكايات لا يعقل أن تكون من وضع الفرس لأنها عربية خالصة، كما لا يتفق أن تكون الليالى المحكى فيها أصلاً أقل من ألف لأن سبب وضع الكتاب ناطق بهذا العدد صريحاً. وقد استمرت هذه الزيادة وهذا التحوير فى الكتاب منذ أن ترجم إلى القرن العاشر الهجرى

حيث دولة المماليك بمصر، وساعد عليهم ما عدم حمل الكتاب اسم المترجم من الفارسية ولا أسماء من تعاقبوا عليه بعد .  
فالكتاب من حيث مأخذ حكاياته وقصصه يمثل ثلاث نواح مختلفة لأحوال الناس وأمور الاجتماع .

الناحية الاولى فارسية بما فيها من دخیل هندي وصيني، وهى تصور عقليات هذه الامم الثلاث واتساع الخيال فيها، ولذلك تكثر فيها عجائب الخلق وغرائب الحوادث كالأسماء الكبيرة الحجم المختلفة الاشكال، والأودية المملوءة بالماس، والأقاصى وطير الرخ الذى يشبع فرخه عشرات الناس، وغيرها مما يماثل طبيعة تلك المصور كما يماثل عقائد الفرس والهنود والصين .

والثانية عربية إسلامية تمثل الحياة العربية في بغداد، بعيدة عن ذلك الخيال القديم، وهى تكثر من ذكر الرشيد والبرامكة والجواري والقيان وأحوال الاجتماع إذذاك، ويتخلل ذلك قصص لا أبطال العرب في الفضائل كالجود والحلم والوفاء، وأخرى ترمى إلى الصبر والتعقل والنظر في العواقب. وكثير من حكايات هذا القسم يطابق الواقع ويتفق وسياق التاريخ .

والثالثة مصرية، إسلامية أو إسرائيلية . فالإسلامية تمثل حياة القاهرة ويعتمد الكاتب فيها على ما تحسه نفسه من أثر الحوادث، وهى على ما فيها أحيانا من إغراب يستهوى القارى، إليها ، بعيدة عن الخيال الصرف الجسم في القصص الفارسية، وبعيدة كذلك عن نيل السعادة بالمصادفة والحظ، ولذا يكثر فيها الاعتماد على النفس والاحتراف بالهن، ثم يغلب عليها هدم الطول مع الامتلاء بأثر المزاج المصرى من الفكاهة العذبة



والنقد المقبول . والاسرائيلية مثل الاسلامية في مصريتها لأن أغلب كاتبها ممن اعتنقوا الاسلام كما يفهم منها ، ولكنها تمتاز بالزوع إلى تقديس سليمان وداود ومالا يخالف الاسلام من مجد اليهود وبخاصة ما كان معدن الغريب كأحوال الجن مع سليمان ، وسحر هاروت وماروت ، ونحو ذلك من الاساطير الاسرائيلية المليء بها تاريخ بني اسرائيل . ولها تين الناحيتين في الكتاب يعتبر من وضع العرب إلى حد ما وأسلوبه في مجموعه مقبول ، غير أنه أكثر قبولاً في القسم الفارسي والعربي لأن اللغة على عهد ترجمة الأول ووضع الثاني في بغداد كان خيراً منها في مصر حيث وضع القسم الأخير ، ولذلك اعتبر كتاب أدب وان كانت النظرة الاولى إليه من ناحية القصص والاساطير ، وقد طبع مراراً ونقل من العربية إلى معظم لغات أوربة وكان له من الفضل على كتابها القصصيين ما ليعلم الاستاذ على طلبته الناشئين .

هذا وقد ترجمت العرب من الكتب القصصية عن الفارسية والهندية غير كليله ودمنة وألف ليلة وليلة كثيراً ذكر أسماءها ابن النديم ولكنها ضاعت وما بقي تغير عن أصله حتى تقطعت بينهما الصلات<sup>(١)</sup>

#### ب - القصص الموضوعة

كانت ترجمة ألف ليلة وليلة بعد كليله ودمنة فاتحة أبواب القصص بمعناه الحق أمام القرائح العربية ، فلم تعد ترضى بما لا يتسع فيه الخيال

(١) فما نقل عن الفارسية رستم واسفنديار ، وشهر زاد مع أبرويز ، والسكرمانج في سيرة أنو شروان ، ودارا والصنم الذهب ، وبهرام ونرمي .  
ومما نقل عن الهندية السندباد الكبير والصغير ، وجوداسف ، وأدب الهند .

كقصص ابن المقفع في كتابه هذا ، ولا بما يضرب إلى السيرة أكثر من القصة كقصص الجاحظ في بعض كتبه وأخصها البخلاء ، وبدأت تشارك الفرس في مثل ما وضعوا بما زادت في ذلك الكتاب ثم طفت تنشئ على غرارها كتباً في القرنين الثالث والرابع تحدث ابن النديم عنها طويلاً فكان مما قال: «وابتداً أبو عبدالله محمد بن عبدوس الجهشيارى صاحب كتاب الوزراء ، بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر من أسماء العرب والعجم والروم وغيرهم ، كل جزء قائم بذاته لا يعلق بغيره ، وأحضر المسامرين فأخذ عنهم أحسن ما يعرفون ويحسبون ، واختار من الكتب المصنفة في الأسماء والخرافات ما تحلى بنفسه ، وكان فاضلاً فاجتمع له من ذلك أربع مائة ليلة وثمانون ليلة ، كل ليلة سمر تام محتوى على خمسين ورقة ، ورأيت من ذلك عدة أجزاء بخط أبي الطيب أخى الشافعى . وكان قبل ذلك ممن يعمل الأسماء والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم جماعة منهم عبد الله بن المقفع وسهل بن هرون وعلى ابن داود كاتب زبيدة وغيرهم » اهـ وهذا الكتاب الذى تحدث عنه ابن النديم هنا قد صناع كما صناع معظم ما ألف في القرنين المذكورين من القصص الخرافية والنكت المجونية مما يتحدث عنه أيضاً <sup>(١)</sup> على أن العرب لم يرضوا أن يكونوا فى محاكاتهم للفرس بعيدين عن تاريخ آبائهم وأجدادهم فتلفتموا اليه يبحثون عن مواطن تصلح لأن يصاغ فيها قصص يكون منهم واليهام فاهتموا إلى مواطنين عظيمين ،

---

(١) مثل كتاب حوشب الأسدى وكتاب جحا ونوادر أبى ضمضم ونوادر ابن الموصلى . وقد ضاعت ولم يبق إلا ما نقل عنها وهو قليل .

أحدها حماسى جاهلى، والثانى غرامى إسلامى ، فكان لهم فى كليهما على العصر العباسى أثر جليل .

فأما عن الأول، فقد عمدوا إلى بعض أيام العرب فوسعوا أخبارها وبالغوا فيها وضموا إليها كثيرا من مناقب الجاهلية المتعلقة بها كالنار والعصبية والجوار والوفاء مسندين تلك الاخبار لتوثيقها إلى مشهورى الرواة كأبى عبيدة والأصمعى وغيرهما ، ومتناقلين ذلك فيما بينهم تناقل زيادة وتنمية، حتى انتهى إلى أن صار قصصا تنلى فى المنازل والأندية للأسمر والتسليمية، كما كانت الحال فى القصص القديمة لليونان. غير أن بعض هذه القصص لم يتم نضجها وقيل لها جاء كاملا ناضجا .

فمن الأولى، قصة البراق المأخوذة من كتاب لعمر ابن شبة المتوفى سنة ٢٦٢ سماه الجهرة، وهو فى أخبار العرب القدماء وبعض أيامهم وأشعارهم وحروبهم، ويوجد مخطوطا به دار الكتب المصرية، وهذه القصة فى حروب وقعت بين ربيعة وغيرهم ، والبراق شاعر قديم من أقرباء الملمهل وكليب، ذو تاريخ فيه حماسة ونفر، وقد ساق ابن شبة قصته على أنه بطل فى خمس حروب، الأولى بين ربيعة والطائيين أخواله بسبب قتل الحارث بن عباد البكرى للفضيل بن عمران الطائى ، والثانية بين ربيعة ومضر لتحامل مضر عليها ، والثالثة بين ربيعة والفرس لأنهم ليلى العفيفة ، والرابعة بين ربيعة واليمن لقتل كليب أسيرا كان عنده منهم ، والخامسة حرب البسوس المعروفة، وقد استغرقت وحدها أكثر من مائة صفحة .

ومن الثانية: قصة عنتر وهى أكبر القصص الممثلة للحماسة العربية

التي يخاطبها الحب والغرام. بل الممثلة لأداب الجاهلية وأخلاق أهلها وعقائدهم وعاداتهم . والواضع لها هو العالم الراوية الشيخ يوسف بن اسماعيل، وكان من المتصلين لفضله بالعزير بالله الفاطمي في القرن الرابع، وحدث أن لهج الناس بريبة في قصر العزيز، فساءه ذلك وطلب إلى الشيخ يوسف أن يشغل الناس بقصة طريفة تصرفهم عن ريبة القصر وكان واسع الرواية في تاريخ العرب وأيامهم عن أبي عبيدة وابن هشام والأصمعي وغيرهم . وكأنه قد راقه ما كان من قصة البراق في حروب لبيعة أهمها البسوس، فأراد أن يضع قصة لبطل يفوقه هو عندرة في حرب تفوقها لقيس هي حرب داحس والغبراء فأخذ في كتابتها، ولكى يسارع بالهاء الناس بها عن تلك الريبة أخرجهما في أجزاء بلغ عددها ٧٢ جزءاً، وتعهد أن يقطع الكلام في آخر كل جزء فيها قبل نهاية أمر يشتاق السامع إلى تمامه كما كانت تفعل شهر زاد في لياليها، فتمكن بذلك من مشغل الناس بها في أسماهم على أيامه، كما اشتغلوا بها من بعده إلى عهد ليس بالبعيد. وبالنظر إلى سعة رواية هذا الرجل قد أودعها من أخبار العرب وأشعارها في النواحي التي ذكرنا ما لم يأت مجموعاً في غيرها، فجاءت أحسن القصص العربية الموضوعة وأفيدها وقد طبعت مراراً وعنى الغربيون بنقلها إلى شتى لغاتهم . وهناك قصص غير هاتين .<sup>(١)</sup>

---

(١) من القصص الموضوعة في هذا العصر أيضاً : قصة بكر وتغلب ابني وائل في أخبار كليب وجساس المنسوبة الرواية إلى محمد بن اسحاق : وقصة شيبان مع كسرى أنو شروان المندوبة إلى بشر بن مروان الاسدي عن ابن نافع التميمي، ولكنهما أقرب إلى التاريخ منهما إلى القصص على العكس من البراق وعندرة فلهما

وأما عن الثاني، فقد عمدوا إلى الهوى العذرى الذى ذاع أمره  
 ببوادر الحجاز أيام الامويين. إزاء الهوى الاباحى بمدنه الثلاث- المدينة  
 ومكة والطائف- على ما فاصلاه بكتابتنا الثانى عن الغزل فى العهد الاموى،  
 فرأوا أبطاله يمعنون فى العفة وراء إمامهم جميل؛ كلما معن رجال الاباحى  
 وراء إمامهم عمر فى الجرى وراء النساء، وراهم ما لا أولئك الأبطال  
 من شجاعة فى مقاومة الهوى والتضحية بالنفس على مذهب الحب،  
 وشاهدوا فى هذا الميدان ما لم يشاهدوا فى ميدان الحرب، فوضعوا فيه  
 قصصاً تمثل طائفة الحب فى أروع مظاهره. محب ملك عليه الهوى  
 زمام قلبه وأخلص للعفة قبل إخلاصه ليله، وأقيمت العقبات فى طريق  
 زواجه ممن يهوى، وطال عليه الزمن فى هذا الألم ثم انتهى الامر بالتفريق  
 الدائم مصحوباً بالحكم على من يهوى أن يكون لغيره. وقد وجد قصاصو  
 هذا النوع تلك العناصر مجسمة بارزة فى سير جميل بن عبد الله بن معمر  
 عاشق بثينة، وقيس بن ذريح عاشق لبنى، وقيس بن الملوح عاشق ليلي  
 المعروف بالمجنون - والأولان مقطوع بوجودهما بغض النظر عما  
 دخل سيرتيهما من مغالاة. أما المجنون فالرواية فى أنه شخص حقيقى أو  
 خيالى على خلاف لم يقطع التاريخ فيه ببيان.. فكان أن وضعوا لكل  
 منهم قصة تمثل الحب الباكى آتم تمثيل. ولم يعد الحب اللاهى قصاصين  
 يؤلفون فيه فوضعت قصة لأمامه صمر بن عبد الله بن أبي ربيعة

---

قصصيتان والثانية أقص من الأولى وإن كانت الأولى أحق وقائع وأصح لغة  
 لتقدم زمنها عن الثانية أكثر من قرن.

المذكور وتلتها مثيلات . ثم كان أن ألفت قصص في مغرمات النساء لتقابل القصص الموضوعة لمغرمي الرجال، بل ألفت قصص للغرام بين الانس والجن كان الحب فيها الرجل أو المرأة من هؤلاء تارة ومن هؤلاء أخرى<sup>(١)</sup>

أما وقد ذكرنا مجمل ما ينبغي أن يقال عن القصة العربية في العصر العباسي منقولة وموضوعة فإن علينا أن نبين كذلك ما يراد بالقصة في هذه الايام لنحاكم إليه ما ذكرنا فنعلم الفرق بين ما كان وما هو كائن الآن. يراد بالقصة في العصر الحاضر كل كتابة أدبية فنية تصدر عن كاتب واحد بقصد تصوير حالة معينة في التاريخ أو الادب أو الاخلاق أو الاجتماع أو غيرها تصويرا ينزع فيه الكاتب عن شعوره الخاص وتفكيره الناشئ عن هذا الشعور والوجه الذي يتجه إليه رأيه على حسب ما شعر وفكر بحيث تتمثل شخصيته في هذا التصوير تمثلا يفرق بينه وبين غيره ممن كتبوا فيما كتب، لأن هذه الاشياء التي ذكرنا واحدة في ذاتها، ولكن الذي يختلف إنما هو نظر الناس اليها وكيفية تصويرها، وكلما اتسعت مسافة الخلف بين النظرات تباعد البون بين التصويرات، ولبست تلك الأشياء أثوابا تبعدها عن مرآها الثابت الاصيل إلى مرأى يخلع عليها ثوب القصص أو الأساطير . وهذا ما يطلق عليه الغربيون كلمة « رومان » أي حكاية أو خرافة وما نطلق

(١) ذكر صاحب الفهرست أسماء عشرات من القصص الغرامية المختلفة

كأبي العتاهية وعتب ، وابن قتيبة وبانوحه ، وريحانة وقرنفل ، وغيرها مما ضاع أو تضمنه ألف ليلة وليلة .

عليه نحن كلمة « قصة » هذا على أن بعضه قد يصدره الكاتب بشكل يجعله صالحاً للتمثيل على المسارح فتراه يعتمد فيه الاكثار من الأشخاص المختلفين في الأخلاق والصفات، ويجعلهم يتحدثون في حوار حديثاً يظهر المستور من طبائع النفوس وخفايا الصدور، مع الاحتفاظ بشخصية البطل أن تغطي عليها تلك الشخصيات، ومع المفاجأة بالعقد التي تعرض متطلباته الحل والمهارة في إيراد الحلول. وهذا ما يسميه الغربيون باسم « درام » أي قصة تشخيصية ونسبته نحن عرفاً باسم الرواية لأننا اعتدنا أن نلاحظ فيما أخذ هذه التسمية من القصص، التشخيص (١)

تلك شروط القصة الحديثة وأنواعها، وهي شروط لو دققنا في تطبيقها على ما ذكرنا للعرب عن القصص في العصر العباسي استعصى علينا التطبيق؛ لأن قصصه سير تاريخية لا تصوير شخصية، أو هي مكتوبة بقلم أشخاص عدة لا شخص واحد، أو هي مسفة العبارة كثيرة الأخطاء، ولكننا لو تساهلنا في التطبيق من غير تدقيق ساغ لنا أن نقول إن العرب خلفت في العصر العباسي مثلاً للقصة في عموم إطلاقها وشبه مثل لها في الروايات منها. وإنما جعلنا ما خلفت في هذا شبه مثل لا مثلاً للضعف البادئ فيه عن نظيره الغربي، ولعل من أسباب هذا الضعف عدم استعداد العرب منذ قديمهم للشعر القصصي والتمثيلي كما يناه مفصلاً في كتابنا الأول حيث الكلام على نوع الشعر الجاهلي ثم عدم سماحهم

---

(١) يأخذ هذا النوع اسم « تراجيدى » إذا غلب عليه عنصر الفجيعة والحزن، وبأخذ اسم « كوميدي » إذا غلب عليه عنصر الضحك والهزل.

للمرأة بالتشخيص والتمثيل مع أن وجودها مع الرجل شرط أساسي فيه. هذا وقد طالع العرب نوعا من القصص غير ما أسلفنا رموا فيه إلى عرض نظرية علمية أو فكرة فلسفية فعرف لذلك بالقصص العلمي أو الفلسفي، وهو وإن ضم إلى سمو الفكرة جودة العبارة إذ كتب لخاصة الناس؛ ليس جديرا أن يحمل اسم القصص؛ لأن الغرض الأول للقصص مغمور بالعلم والفلسفة المقصودين فيه. ومن أمثاله في القرن الرابع كتاب «الإنسان والحيوان» لـ «خوان الصفا» أصحاب الرسائل المشهورة المنسوبة إليهم، فأنهم وإن جعلوه مناظرات بين الحيوان والإنسان كما في كيلة ودمنة قد حشوه كثيرا من الحوار العلمي في الطبيعة ومميزات الإنسان والحيوان. ومنها في القرن السادس رسالة «حى بن يقظان» لأبي بكر محمد بن عبد الملك بن الطيفيل المتوفى سنة ٥٨١ التي شرح فيها بأسلوب قصصي، إنسان الفطرة أو ابن الطبيعة، ووفق إلى نظريات علمية في تطورات هذا الإنسان، وقد طبعت في مصر وفي غيرها مرارا وترجمت إلى كثير من اللغات الأجنبية. على أن من هذه القصص العلمية ما تمكن صاحبها من تغليب الصبغة القصصية فيها على الصبغة العلمية كرسالة الغفران من مخلفات القرن الخامس لأبي العلاء التي كتبها في عزلة وضمها انتقاد شعراء الجاهلية والأسلام والأدباء والرواة والنحاة فأنها علمية فلسفية، يتضمن بعضها لغة وأدبا وشعرا ونقدا، وبعضها نوادر اجتماعية عن الزنادقة والمتنبئين وشاذى الأفكار في عصور الإسلام؛ ولكنه ساقها في أسلوب قصصي خيالي أبعد فيه. فقد تصور رجلا صعد إلى السماء وشاهد الجنة والنار، وقابل كثيرا من



أهليهما وحاورهم وحادثهم فيما ذكرنا . وإذ كان يسأل دائماً من كان يعتقد أنهم أبناء جهنم وأبصرهم في الجنة عما من أجله غفر الله لهم فكانوا يجيبونه بما لا يخرج عن النوعين الذين أوضحنا في مشتملات الرسالة دعاها رسالة الغفران ، وهي ذات شأن هام ومقام كبير ؛ لأنها وإن لم يقصد تمثيلها ، تمثل القصص الشخصية إلى حد ما ، فقد جاءت فوق ما رأيت من مشتملاتها ؛ خصيبة الخيال في تصوير الجنة والنار ، وما فيها من نعيم وعذاب ، ولاذعة السخرية في كثير من حوارها . ومن هنا وقعت لدى الغربيين الوقع العظيم ، فما كاد الغرب يتصل بالشرق في الحروب الصليبية حتى عرف الطليان مكائدها إذ كانوا أسبق المسارعين إلى هذه الحروب ، فذبح شاعرهم دانتى على منوالها « الرواية الإلهية » وفيها نفس الخيال الذي سبقه إليه المعري بثلاثة قرون ، وكذلك فعل ملتن الأنجليزي في روايته « ضياع الفردوس » بعده بأكثر من ستة قرون . فهي قد غدت الغرب من الناحية التمثيلية « درام » كما غدا في القصص العربي قبلها كليله ودمنة والف ليلة وليلة في الناحية القصصية « رومان » . ولكن حال الشرق ساءت فوقف عند هذا الحد وتقدم العرب الذي أخذ عنه فوصل إلى ماري الآن من رقي باهر في فنون الأقاصيص والروايات .

هذا وكما انحازت طائفة من القصص إلى الناحية العلمية الفلسفية التي غطت على الروح القصصية كما تقدم ، انحازت طائفة أخرى إلى ناحية لغوية صناعية نزعته بهجة القصص منها ، تلك هي المقامات التي سنتكلم عنها الآن .

## ٢ - المقامات

لقد نفخ إنشاء الدويلات في المشرق منذ أواخر العصر العباسي الثاني، وتحكم آل بويه على الخلافة في بغداد بعد هذا الانشاء، في اللغة الفارسية وآدابها، نفخة حركتها من الأجداث ووهبتها روحاً أنهضتها من الرجام. فرأينا رجال هذه الدويلات يحضون أدباء الفرس على النظم بها في مجدهم وسالف تاريخهم، كما فعل نوح بن منصور الساماني في اقتراحه على الدقيق نظم الشاهنامه، وحتى من كان يحكم هذه الأقاليم من غير الفرس، كان يجاريهم في النهوض بلغتهم تقرباً إلى شعوبه من أهلها، كما فعل السلطان محمود الغزنوي التركي في اقتراحه على الفردوسي إتمام الشاهنامه التي بدأها الدقيق ولم يتمها. وكان هذا الانتصار لأدب الفرس في وقت يزدهر فيه الأدب العربي. قد حرك أدباء العرب المشاهدين له عن كسب في أجواء فارسية، وخلق فيهم روح انتصار للعربية يقابل ذلك الانتصار الفارسي، وكان لابد لهذا الروح أن يظهر في معارضات أدبية كما ظهر الانتصار الفارسي، واتفق أن رحل إلى نواحي فارس العلامة اللغوي والرواية الأديب، والشاعر العظيم أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدی في النصف الأول من القرن الثالث. وأقام هناك مع ابني ميكال<sup>(١)</sup> وهما يومئذ على عمالة تلك البلاد<sup>(٢)</sup> فقلداه رياسة الديوان، فابتكر نوعاً من الأدب اشتقه من الحياة الفارسية ليعارض به أدبها في أربعين حديثاً

(١) هما عبد الله بن محمد بن ميكال وولده اسماعيل، فهما للشاه بن ميكال ولد وحفيد، ولكن شاعت لقبتهما اليه نسبة الأبناء (٢) من قبل المقتدر الخليفة العباسي.

تحدث عنها الحصري في زهر الآداب صفحة ٢٧٨ هامش العقد الفرید  
جزء أول بما يدل على ما قدمنا، قال نحت هذا العنوان جملة من كلام  
أبي الفضل أحمد بن الحسين الهمداني بديع الزمان - « وهذا اسم وافق  
مسماه ولفظ طابق معناه وكلام غرض المكسر أنيق الجواهر يكاد  
الهُواء يسرقه لطفاً، والهوى يعشقه ظرفاً، ولما رأى أبا بكر محمد بن  
الحسن بن دريد الأزدی أغرب بأربعين حديثاً وذكر أنه استنبطها من  
ينابيع صدره واستنخبها من معادن فكره وأبداها للآبصار والبصائر  
وأهداها للأفكار والضمائر في معارض عجمية وألفاظ حوشية، فجاء  
أكثر ما ظهر تنبؤ عن قبوله الطباع ولا ترفع له - جيبها الأسماع وتوضع  
فيها إذ صرف ألفاظها ومعانيها في وجوه مختلفة وضروب متصرفة،  
عارضها بأربعائة مقامة في الكدية تذوب ظرفاً وتقطر حسناً، ولا مناسبة  
بين المقامتين ألفاظاً ولا معني، وعطف مساجاتها ووقف مناقلتها بين  
رجلين سمى أحدهما عيسى بن هشام والآخر أبا الفتح الاسكندردي  
وجعلهما يتهاديان الدرويتنافتان الهجر في معان تضحك الحزين وتحرك  
الرصين، يتطلع منها كل طريفة ويوقف منها على كل لطيفة، وربما أفرد  
أحدهما بالحكاية وخص أحدهما بالرواية، وسأذكر منها ما لا يحل طوله  
بالشرط المعقود ولا ينافي حصوله الغرض المقصود». وهذا كلام نخرج  
منه إلى أن ابن دريد أنشأ أحاديثه في بيئة فارسية ومعارض عجمية،  
وأنه كان فيها أميل إلى اللغة والغريب بحكم لغويته التي كانت أغلب شيء  
عليه، وأن البديع حين عارضه سمى أحاديثه مقامات<sup>(١)</sup> ولكننا نذكر

(١) أصل المقامة في اللغة بالمقام موضع القيام كمكانة ومكان وقد استعملت

أن الذى احتذاه أولاً إنما هو أستاذ البديع أبو الحسن أحمد بن فارس العلامة اللغوى المتوفى سنة ٣٩٠ لا البديع. فقد وضع مقامات اتبع العلماء نسقه فيها ، وكان أولهم اتباعاً تلميذه البديع المتوفى سنة ٣٩٨ فى مقاماته التى وصفها الحصرى آنفاً، وكلاهما عاش فى بيئة فارسية كما عاش ابن دريد. ولعل من حظ البديع ضياع مقامات هذين الاستاذين وبقاء مقاماته ممثلة فى الثمن الباقى منها وهو خمسون مقامةً فاعتبرت لذلك أولى المقامات بنى البديع مقاماته على الكدية<sup>(١)</sup> وجعل الحديث فيها بين

---

فى المجلس استعمال الاضداد كما قال المسيب بن علس:  
وكالمسك ترب مقاماتهم وترب قبورهم أطيب  
وكما قال نهشل الدارى:

إنا نظرنا فى المقامة مالمسكا نظر المسافر أين ضوء الفرقد  
وانتقلت منه إلى الجماعة الجالسين كما قال ليبيد العامرى :  
ومقامة غلب الرقاب كأنهم جن لدى باب الحصير قيام  
وكما قال زهير بن أبى سلمى:

وفيه مقامات حسان وحوهم وأندبة ينتابها القول والفعل  
وقد سبق المجلس المقامة فى هذا الاستعمال كما قال مهلهل  
نبئت أن النار بعدك أوقدت واستب بعدك يا كليب المجلس  
ثم أطلق المحدثون المقامة على الحديث يقال فى مجلس يستمع له، وبعدئذ قصره  
على هذا الضرب المعروف من الكلام

(١) لعل سبب اختيار البديع للكدية فى بناء المقامات يرجع إلى انتشارها أيامه بأواسط آسيا فى صور شتى تألفت منها الطائفة المعروفة إذ ذلك بالساسانية

شخصين خياليين هما عيسى بن هشام راوية، وأبو الفتح الاسكندري شحاذا. فكانت جمعة فصاحة وبلاغة، ولكنها وقد تركزت على الكدية وحدها، جاءت بعيدة عن الروح القصصى غير خليقة أن تسمى قصصا على الوضع الذى شرعناه، ويكفى أن تعلم أن خمس عشرة منها لم يك فيها مع الكدية غيرها وهى الأثاذية<sup>(١)</sup> والبلخية والسجستانية والكوفية والأثريجانية والجرجانية والأصفهانية والبصرية والفزارية والمكوفية<sup>(٢)</sup> والبخارية والقزوينية والساسانية والقردية والناجمية<sup>(٣)</sup> ولذا جاءت أقصر المقامات وأقلها روعة؛ أما الباقيات فقد تضمنت مع انتهائها بالكدية غالبا، أشياء أكسبتها جمالا وإن لم تنقلها عن الناحية اللغوية إلى القصصية، أهمها الوصف وقد وقع في عشرين مقامة انحدرت خمس منها إلى هوة الكدية أيضا بوصفها ألوان الأظعمة والأشربة وهى البغدادية والمضيرية<sup>(٤)</sup> والمجاعية والنهيدية<sup>(٥)</sup> والخرية، وتناول سائرهما وصف أشياء أخرى متباينة كالأسد والفاتك فى الأسدية والفرس فى الحمدانية<sup>(٦)</sup> وأنواع اللصوص وطرقهم فى الرصافية والمغزل فى المغزلية وكهل رث فى الشيرازية وحمامى وحجام فى الحلوانية والرجل يكون

من أعراب وأبناء سبيل وذوى طاهات وحواة وقرادة وسجرة ومشعوذين وغيرهم ممن كانوا يتحلبون فى جلب الرزق ولكن من طريق الامتاع بقص الاخبار ورواية الاشعار والمناظرة والتهاجى والمدح ونحو ذلك مما جعل بين الأدب والكدية نمبا

- (١) الأثاذنوع من التمر (٢) ادعى فيها الاسكندري كف بصره (٣) تسمى فيها الاسكندري بالناجم (٤) المضيرة لحم يطبخ باللبن المضيراي الحامض كالخل (٥) النهيدة الزبدة (٦) أهدي فيها فرس الى عظيم من بني حمدان

خشن الجانب أو لينه في الخلفية<sup>(١)</sup>، واللص يتخذ ثوب الناسك في  
النيسابورية، والعلم في العلمية وإخوان الدهر ما يفعلون وما يجب أن  
يفعل بهم في الصميمية<sup>(٢)</sup>، والملوك في الملوكية، والدينار إلغازا في  
الصفرية، والرجل يخدع مظهره ويؤذى مخبره في السارية<sup>(٣)</sup> وهي قريبة  
الشبه بالنيسابورية، والوضعاء يعلون في التميمية<sup>(٤)</sup> ثم المال والدعوة  
إلى فتح المطالب في المطابية. ويلى الوصف في العناية المطارحات  
الأدبية وقد شغلت تسع مقامات، مستا في الشعر وهي: القريضية في  
التفاضل بين الشعراء، والغيلانية في غيلان بن عقبة وهو ذو الرمة،  
والاسودية<sup>(٥)</sup> في إنشاد شعر مرتجل، والابليسية في شياطين الشعراء،  
والعراقية والشعرية وكلتاها في إلغاز عن أبيات من الشعر، ثم ثلاثا  
في محاورات أخرى وهي الجاحظية في مدح الجاحظ وذمه، والمارستانية  
في دحض مذاهب المعتزلة، والدينارية في التساب بين متشائمين.  
أما الست الباقيات فقد جاءت ثلاث منها في الوعظ والايضاء وهي:  
الاهوازية في الحياة والموت، والوعظية في الدنيا والآخرة، والوصية في  
الاقتصاد والتجارة؛ وثلاث في التويه والتدجيل وهي الموصلية في  
محاولة إحياء ميت ورد سيل، والحرزية في عمل حرز يضمن النجاة من  
الغرق ثم الارمينية في التحيل لجلب الخبز والأدم.

وقد أبدع البديع في مقاماته مع أنه أملاها ارتجالا أو في حكم الارتجال.

(١) نسبه الى حلف بن أحمد أحد الأجواد (٢) بلد قرب دينور

(٣) بلد بطبرستان (٤) نسبه الى ابن الندى التميمي. (٥) نسبه الى الأسود

ابن قنانه.

بنيسابور الابدع كله، ولهذا بعد فيها عن تكاف صناعات البديع فجاءت  
 قليلة الغريب سهلة المتناول ، يتعشق أول الكلام فيها آخره ويرتبط  
 بعضه ببعض ارتباطا يؤذن بصفاء قريحة وطول باع، فأنت إذ بدأت في  
 قراءة واحدة منها تخيلت نفسك قد حملت روضا ممتعا ينسيك كل  
 شيء غيره وكلما سرحت نظرك في خميلة من خمائله أو زهرة من أزهاره  
 تضللتك أجل منها حتى لا تشعر إلا وقد انتهيت إلى مسابجه. وقد أجاد  
 فيها الوصف والتشبيه ، والمقامات العشرون التي تناولت الوصف كما  
 ذكرنا مليئة بأوصاف تنطق بالحقيقة وتمثل الصورة، وتشبيهات تستخف  
 القارئ عجبا وتأخذ بابه حيرة ودهشا، فارجع إليها أو إلى المقامة الأسدية  
 التي اخترناها نموذجا منها، تجد المثل العليا لما ذكرنا، كما قد أحسن فيها  
 الكناية وأحكم الالغاز، فن كسناياته قوله في شدة الروعة من أسد خرج  
 عليه « فاذا السبع في فروة الموت قد طلع من غابه » وفي الخوف من  
 فأنك لقيه فجأة « فراعني منه ما يروع الوحيد من مثله وأخذني ما يأخذ  
 الأزل من شاكي السلاح » وفي بلدة نزلها ولم يقيم إلا قايلا « خللتها  
 حلول النىء » وفي تمثيل فرقة من صاحب « فاصطحبنا ثلاثة أيام حتى  
 جذبنى نجد والتقمه وهد » وفي بحاس صفاء ليس فيه نوم « فأخذنا  
 نتحدث وما فينا الامنا . ومن أغازه وكان كثيرا الالغاز في أبيات  
 الشعر قوله : « بيت نصفه يغضب ونصفه يلعب » يعنى قول عمرو  
 ابن كلثوم .

كأن سيوفنا منا ومنهم مخاريق بأيدي لاعبيننا

وقوله : « بيت كاد يسقط فعاد » يعنى قول المتنبي .

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام  
وقوله : « بيت هو مهين بحرف ورهين بحذف » يعنى قول أبى نواس  
لقد ضاع شعرى على بابكم كما ضاع عقد على خالصه  
إلى غير ذلك من الالغاز التى أكثر منها دون أن يحمل اللفظ مالا يحتمل  
أو يكاف المعنى مالا يطيق، وليس هذا وغيره بغيره على رجل كان  
له من صفاء الخاطر وجودة القريحة وسعة الرواية وكثرة الحفظ ما لم  
يكن لغيره من كاتب أو شاعر. قال عنه النبى عليه السلام « إنه كان  
ينشد القصيدة التى لم يسمعها قط، وهى أكثر من خمسين بيتا فيعيدنها  
كلها دون أن يترك حرفا، وكان ينظر فى أربع الورقات والخمس نظرة  
خفيفة ثم يسردها سردها، وكان يقترح عليه عمل قصيدة فى معنى بديع  
أو إنشاء رسالة فى باب غريب فيفرغ منها فى الوقت والساعة، وكان ربما بدأ  
الكتاب المقترح عليه من آخره وانتهى بأوله فيخرج الكتاب جيذا  
فى نوعه فريدا فى بابه ». ولهذا القول شأنه لأنه قول معاصر أدركه  
لا يحدث سمع عنه .

وقد زاول إنشاء المقامات بعد البديع أبو نصر عبد العزيز بن عمر  
المشهور بابن نباتة السعدى المتوفى سنة ٤٠٥ هـ وأبو القاسم عبد الله  
ابن محمد المشهور بابن ناقي المتوفى سنة ٤٨٥ هـ ولكن مقاماتيهما لم تشهرا،  
ثم جاء بعدها فارس ميدان المقامات والحلى فى حلبته الحريرى المتوفى  
سنة ٥١٦ هـ فأنشأ مقاماته الخمسين التى جاز فى فيها البديع فبذه فى صناعة  
الكلام وإن اعترف له بفضل السبق فى هذا الفن، وهذى كلمة فى  
التعريف بها .



بنى الحريرى مقاماته على الكدية كما فعل البديع، وجعلها خمسين مقامة  
 جاءت وفق العدد الذى بقى لنا من مقامات سلفه المذكور . وقد جاءت  
 فيها خمس عشرة فى الكدية وحدها ، ثمان خالصة لها وهى الكوفية  
 والبرقعيدية<sup>(١)</sup> والبغدادية والمكية والصورية والتفليسية والمروية  
 والسامانية، وسبع فى التحليل لها وهى الدمشقية التى ادعى فيها خفر  
 القافلة بدعوى لقنها فى المنام، والفارقيه<sup>(٢)</sup> التى ادعى فيها حاجته إلى تكفين  
 ميت، والوبرية التى طلب فيها ناقة ادعى ضللها ، والواسطية التى ختل  
 فيها أهل الخان باطعامهم حلواء مخدرة، والزبيدية التى باع فيها ولده على  
 أنه غلام، والعمانية التى علق فيها عزيمة الطلق على حامل لتضع، والحرامية<sup>(٣)</sup>  
 التى ادعى فيها أن ابنته فى الاسر وطلب فداءها. وجاءت فيها ست للوعظ  
 هى الصنعانية والساوية<sup>(٤)</sup> والرازية والرميلية الأولى والتنيسية والبصرية.  
 وأربع فى الوصف الخالص الصريح هى الدينارية فى الدينار والسنجارية  
 فى المنام، والتكرجية فى الشتاء ، والبكرية فى البكر والثيب، ولا تخلو  
 هذه المقامات الاربع من وصف أشياء غير التى بنيت عليها كما لا تخلو  
 مقامة غيرها من أن يكون فيها وصف، ولولم يكن للحريرى من أوصاف  
 غير افتنانه فى وصف أبى زيد بما يلائم شخصيته فى كل مقامة لكفاء  
 ذلك فى تقلد زعامة الوصف أمام الواصفين . وجاءت فيها عشر فى الحوار  
 والمخاصمة هى الحلوانية فى محاسن التشبيهات، والدمياطية فى المواصلة

(١) برقعيد قسبة فى ديار بكر (٢) نسبة إلى مياfarقين مدينة بالشام

(٣) نسبة الى بنى حرام بالبصرة وهى أولى المقامات انشاء (٤) نسبة إلى

ساوه مدينة بين الرى وهمذان

والقطيعة، والاسكندراية في أثاث زوجته وحليها إذباعه، والرحبية<sup>(١)</sup> في دعوى القتل على برىء والفراتية في صناعات الانشاء والحساب والشعرية في دعوى سرقة شعر والصعدية<sup>(٢)</sup> في عقوق الابن والتبريزية في نشوز الزوجة والرملية الثانية في عصيانها والحجرية<sup>(٣)</sup> في الحجامه. وجاءت فيها تسع في التكنية والالغاز، فقامات التكنية أربع هي المعربة في السكناية عن الابرة والميل والنصيبية في السكناية عن بعض ألوان الطعام وما يتعلق به والشيرازية في السكناية عن الخمر بيمكر ربها والنجرانية في السكناية عن أشياء عشرة هي المروحة والحابل<sup>(٤)</sup> والقام والميل والدولاب والمزملة<sup>(٥)</sup> والظفر وطاقة الكبريت وخمر العنب ومعيار الذهب. ومقامات الالغاز خمس، هي الفرضية في مسألة توريت والنحوية في مائة لغز نحوى والطيبية<sup>(٦)</sup> في مائة لغز فقهي والملطية<sup>(٧)</sup> في عشرين مقايضة كلامية<sup>(٨)</sup> والشتوية في خمسين تورية ملغزة ضمنها قصيدة بائية في كل بيت لغز سوى بيت المطلع وثلاثة أبيات ختمها بها معجبا بنفسه وكم فيما أتى به حقاً من عجب. على أن الأعب منه ما جاء في المقامات الست الباقية من التلاعب بالصناعات اللفظية التي ابتكرها لا التي أتى بها علم البديع وهي المقامة المغربية للعبارات التي تقرأ رداً وطرذاً

---

(١) نسبه إلى رحية مالك بن طوق (٢) نسبه إلى صعدة باليمن (٣) نسبه إلى حجر باليمامة (٤) هو حباله الصائد (٥) جرة يركب في ثقب بها قصبة للشرب منها (٦) نسبه إلى طيبة مدينة الرسول (٧) ملطية من بلاد الجزيرة (٨) المقايضة هي الأحاجي وتكون بطلب كلمة واحدة تؤدي معنى كلام كطوامير في معنى «جوع أمد يزداد» والفاشية في معنى «أهمل حلية» وهكذا.

والقهرية لرسالة التي تقرأ من أولها بوجه ومن آخرها بوجه. والخيفاء  
للمرسلة التي إحدى كلماتها معجمة والأخرى مهملة؛ والرقطاء لرسالة التي أحد  
حروف كلماتها معجم والآخر مهمل، والسمرقندية للخطبة العارية من  
النقط، ثم الحلبية لعشرمة قطعات من الأبيات، وأولها عواطل من النقط،  
والثانية حوال به، والثالثة أخيف أي كلمة مهملة وأخرى معجمة، والرابعة  
متائم أي كل كلمتين مجنستان جناسا خطيا، والخامسة مطرفات أي بطرفي  
كل بيت جناس بين كلمة وكلمتين، والسادسة لما أشكل من ذوات السين،  
والسابعة لما أشكل من ذوات الصاد، والثامنة لما يجري عليه هذان  
الحرفان، والتاسعة لعقد هاء الأفعل الناقصة، والعاشرة وهي طويلة لما ورد  
من الكلمات فيه ظاء.

هذا ما نحا إليه الحريري في مقاماته من الفن المعجز الذي غطى على  
كل فن قبله وقطع الطريق على كل فن بعده. وهو مع هذا بعيد عن التكلف  
المعقوت، ولذلك كان منصفاً للحقيقة بل غير موفيهما حقها حين قال من وصفها  
في مقدمتها ( وأنشأت على ما أعانيه من قريحة جامدة وفطنة خامدة وروية  
ناضبة وهموم ناصبة، خمسين مقامة تحتوى على جد القول وهزله، ورقيق  
اللفظ وجزله، وغرر البيان ودرره، وملح الأدب ونوادره، إلى ما وشحتها  
به من الآيات ومحاسن الكنايات، ورصعته فيها من الأمثال العربية  
واللطائف الأدبية، والأحاجي النحوية والفتاوى اللغوية، والرسائل  
المبتكرة والخطب المحبرة، والمواعظ البكية والاضاحيك المليية، مما  
أملت جميعه على لسان أبي زيد السروجي وأسندت روايته إلى الحارث

ابن همام البصري<sup>(١)</sup> وما قصدت بالأحماض<sup>(٢)</sup> فيه إلا تنشيط قارئيه وتكثير سواد طالبيه، ولم أودعه من الأشعار الأجنبية إلا بيتين فذين أسست عليهما بنية المقامة الحلوانية، وآخرين توأما بين ضمنتهما خواتم المقامة الكرجية، وما عدا ذلك فخطري أبو عذرة ومقتضب حلاوه ومره<sup>(٣)</sup> هذا مع اعترافي بأن البديع رحمه الله سباق غايات وصاحب آيات وأن المتصدي بعده لإنشاء مقامة ولو أوتي بلاغة قدامة لا يغترف إلا من فضالته ولا يسرى ذلك المسرى إلا بدلالته ولله در القائل<sup>(٤)</sup> .

فلو قبل مبكها بكيت صباية بسعدى شقيت النفس قبل التندم  
ولكن بكت قبلى فبيج لى البكا بكها فقلت الفضل له تقدم  
فمقامات الحريرى بالنسبة إلى مقامات البديع - وإن كانت هذه أكثر انطباعات  
وأشد انسجاما، وأبعد عن زخرف الصنعة وغريب اللغة - أبدع فنونا  
وأبرع خيالا وألطف فيكاهة وأكثر أمثالا، ولذلك جذبت إليها طلاب  
اللغة للاستفادة منها، وأعلام الأدب للعمل فيها، فخطبت بمثل ما حظى  
به شعر المتنبي وشرحها كثير . منهم الشريشى المتوفى سنة ٦١٩ والمطرزى  
والعكبرى والطرائفى والزبيدى والطبلى والناصرى والباجى وغيرهم ،

(١) أبو زيد السروجى هو المطهر بن سلام البصرى النحوى لزم الحريرى وتأدب عليه وتخرج به فأملى مقاماته على لسانه . أما الحارث بن همام فيعنى به نفسه لقوله عليه الصلاة والسلام (كلم حارث وكلم همام) . فبطلا مقاماته ليسا خياليين كبطلى البديع (٢) التلوين والتنويع (٣) بالمقامات من الشعر ما يزيد على ما لكثير من الشعراء ولذلك عد الحريرى من الشعراء المكثرين على أن له ديوان شعر (٤) قيل هو عدى بن الرقاع وقيل غيره

وأشهرهم الشريشي، وقد طبع شرحه أكثر من مرة بمصر وبغير مصر أما شروح غيره فبين معدوم ومخطوط ببعض مكاتب أوربة. وقد نشر أصلها العربي بالغرب في القرن التاسع عشر ثم ترجمت فيه إلى بعض لغاته وإلى بعض اللغات الشرقية كالفارسية والتركية وغيرهما. ولم يك العجب بها في القديم بأقل منه في الحديث فهذا علي بن الحسن المعروف بشميم الحلبي المتوفى بالموصل سنة ٦٠١ وكان معجبا بنفسه لا يكاد يرى لأحد من المتقدمين عليه فضلا يقول « لا أعلم أحدا من المتقدمين جاء بما يرضى إلا أن يكون المتنبي في مديحه، وابن نباتة في خطبة، والحريري في مقاماته، فمؤلا لم يقصروا » وقال له بعض إخوانه قد عجزت أن لم تصنف مقامات تدحض بها مقامات الحريري فقال « إن الرجوع إلى الحق خير من التبادي في الباطل، قد عملت مقامات مرتين فلم ترصني، فأعرضت عنها وأهملتها، وما أعلم أن الله خلقني إلا لأظهر فضل الحريري » وقال جاز الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ صاحب الكشف وهو من هو بلاغة، في الحريري ومقاماته .

أقسم بالله وآياته ومشعر الحج وميقانه  
أن الحريري حرى بأن نكتب بالتبر مقاماته  
معجزة تعجز كل الوري ولو سروا في ضوء مشكاته

وللزخشري هذا مقامات خمسون أيضا، ألفها قبل مقامات الحلبي المذكور، وكذا لأبي منصور أحمد بن جميل البغدادي المتوفى سنة ٥٧٧، والأولى هي الباقية دون النائية، وكلها في الوعظ والارشاد بأسلوب وعلى طريقة غير ما عرف فيهما للحريري والبديع، فأسلوبها ليس فيه محدث

ومحدث عنه وطريقتهما خلو كل الخلو من القصة . وقد جاء بعد هذين من تصدى لعمل المقامات في العصر العباسي، ولكن لم يشهر مع مقامات الحريري والبيديع فقهر أوضاع، كأحمد بن الأعظم الرازي المتوفى سنة ٦٣٠ .

ثم تعدى عمل المقامات رجال العصر المذكور إلى رجال العصور بعده حتى العصر الحديث، كزين الدين بن صقيل الجزري المتوفى سنة ٧٠١، وعمر بن الوردي المتوفى سنة ٧٤٩، وجلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١، والشهاب الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩، والشيخ ناصيف اليازجي المتوفى سنة ١٢٨٧، ثم المنشئ الأديب محمد بك المويلحي في كتابه حديث عيسى بن هشام الذي حذا فيه حذو البيديع، واختار له اسم راويته المذكور فأعاد إلى الأذهان ذكره، وأشهد لقد فاقه في أن جاء حديثه هذا أدخل في باب القصة من المقامات، لما طالجه من تصوير الحوادث وتحليل الشخصيات، فهو بطل المقامة في الحديث كما كان البيديع والحريري بطلها في القديم.



## تدوين العلوم والكتابة العلمية

علمت من خلاصة التي أثبتناها عن تدوين العلوم في العصر الأموي، أن ذلك العصر انقضى ولم يدون فيه شيء من العلوم الشرعية إلا التفسير الذي نسبته مجاهد إلى ابن عباس ، وحديث رسول الله الذي دونه محمد بن عمرو بن حزم، وأذاعه عمر بن عبد العزيز في الأمصار ، والأول باق والثاني غير معروف ، أما الفقه فلم يدون فيه شيء ومثله القراءات . كما علمت أنه لم يدون من العلوم اللسانية إلا بعض كتب في النحو ليس لها الآن وجود . وكذلك كان الشأن في العلوم الأخرى من تاريخ وكيماويات وفلك وطب ، فلم يصل إلينا مما ألف فيها إلا ترجمة ماسويه لكتاب أهرن السرياني في الطب الذي أذاعه أيضا عمر بن عبد العزيز ، ولذلك يحكم المؤرخون على ذلك العصر بأنه لم يكن عصر تدوين للعلوم، ويعتبرون العصر العباسي هو العصر الحق للتدوين .

ذلك بأن الحال السياسية لم تكد تستقر أول العصر العباسي بعد خلافة السفاح وقليل من خلافة أخيه المنصور، حتى أحس هذا الخليفة العظيم بشدة الحاجة إلى تدوين العلوم ، فعمل علماء الدين واللغة على جمع العلوم الشرعية واللسانية ، وأوعز إلى المترجمين من السريان والفرس أن ينقلوا من اليونانية والفارسية ما تحتاج إليه الدولة من علوم أخرى كالطب والفلك وغيرها ، وبذل في ذلك على جمود كفه المال الكثير . وتبعه في هذا أولاده وأحفاده حتى زخر تيار العلوم والفنون على أيدي طبقة واضحة انتهى مجردها بعصر الرشيد . ثم جاء المأمون ففضل

آبائه وأجداده في تشجيع حركة التأليف والترجمة؛ فنشأت طبقة ثانية يصح أن تسمى طبقة التهذيب والتفصيل ، لما أنتجته طبقة الوضع ، فأتمت العصر الأول وسلخت نصف الثاني . وبعدها نشأت طبقة ثالثة تم فيها استواء الملكات ، وصح لذلك تسميتها طبقة التصنيف ، لأنه صار عندها صناعة أخرجت البسيط والوسيط والوجيز في شتى العلوم والفنون ، وبها انتهى العصر الثاني .

ولما جاء العصر الثالث نشطت حركة التأليف بعامل المنافسة بين رجال الدويلات ، واشتدت المنافسة بين القاهرة وبغداد ، فنمت العلوم وتعددت فروعها حتى تجاوزت الثلاثمائة ، ووجدت علوم لم تكن موجودة ، ومن ثم سمي عصر نضج العلوم ثم سمي عصر المكاتب لأنها كثرت فيه ، كما سمي عصر توطن العلوم لأنها صمت جميع الحواضر ولم تعد وقفا على بغداد ، وفيه انتشرت المؤلفات الشيعية بمظاهرة الفاطميين غربا والفرس شرقا فسمي لذلك عصر المذهب الشيعي . ثم جاء العصر الرابع فاستمرت العلوم مسائرة به في طريق النماء حتى اتسعت الأبحاث وأخرجت المؤلفات الضخمة والمصنفات الجامعة ، فعرف بعصر الموسوعات . ثم انتشرت فيه حركة التعليم وأنشئت المدارس المنتظمة فعرف بعصر المدارس أيضا ، غير أنه قد حدث فيه انقلاب كبير ضد المذهب الشيعي الذي كان سائدا في سلفه كما تقدم ، قضى على قوته وأحل المذهب السني محله بعون السلاجقة شرقا والأيوبيين غربا ، بعد ذهاب آل بويه والفاطميين ، ثم كانت العلوم الأدبية فيه في المرتبة الثالثة بعد العلوم الأخرى من شرعية وكونية ، وقد سبق ذاك كله مفعلا في صدر الكتاب . ولا يفوتنا



أن ننهب هنا إلى أن الحركة العلمية في الممالك الشرقية ونظيرتها في الممالك الغربية كانتا في العصر الثالث سواء ، أما في العصر الرابع فـ كانت في الشرق خيرا منها في الغرب ، غير أنها اضمحلّت في الأول قبل اضمحلالها في الثاني .

هذا والعلوم التي خلفها المسلمون في العصر العباسي من وضعهم أو ترجمتهم نوعان . إسلامية من شرعية كال تفسير والقراءات والحديث والفقه والاصول والكلام والمنطق وغيرها ، ولسانية كالنحو والصرف واللغة والبلاغة بأقسامها ، والادب ويلحق به التاريخ<sup>(١)</sup> وغيرها . ثم كونية من طبيعية ورياضية وإلهية وسياسية . وإليك كلمة موجزة عما ذكر من علوم النوع الاول بقسميه ، وأخرى مجملة عن النوع الثاني بأقسامه الاربعة .

## العلوم الشرعية

### ١ - التفسير والقراءات

كان أول تفسير وضع ، التفسير المنسوب إلى ابن عباس برواية مجاهد من التابعين الذين كانوا يتلقون ذلك عن الصحابة في العهد الاموي ثم مجاهد هذا وسعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس وطاووس بن كيسان وعطاء بن أبي رباح وغيرهم من أصحاب ابن عباس بمكة والمدينة ، وكابراهيم النخعي والشعبي من أصحاب عبد الله بن مسعود بالكوفة ، وكمالك بن أنس والحسن البصري من أصحاب زيد بن أسلم بالبصرة .

---

(١) من مباحث الادب أيضا العروض والقافية وسيأتي القول عنهما بما فيه الغناء حيث الكلام على ألفاظ الشعر وأساليبه .

وقد أدرك بعض التابعين العصر العباسي على عهد المنصور، فدونوا مع تابعي التابعين أمثال سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح وشعبة بن الحجاج ويزيد بن هرون وآدم بن أبي إياس وإسحق بن راهويه ومحمد بن إسحاق ومقاتل بن سليمان وغيرهم، تفاسير للقرآن، كما كتب بعضهم في غريبه وبعضهم في تأويل آياته وبعضهم في مجازه، ولكن تفاسيرهم جاءت حاوية لبعض التأويل الباطلة التي أخذوها من غير تحقيق عن أسلم من اليهود، كوهب بن منبه وعبد الله بن سلام وكعب الأحبار. ثم جاءت في العصر الثاني طبقة حققت ذلك كان منها المفسر العظيم أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ صاحب «جامع البيان في تفسير القرآن» الذي يعد أول كتاب صحيح للتفسير المنقول، واقتدى به في ذلك جماعة، ومنهم استعمل الناس. ثم جاء العصر الثالث فنشأت طبقة رغبت في تجريد الروايات من الأسانيد وإضافة كثير من مباحث العلوم المختلفة التي كانت قد نضجت إذ ذاك إلى التفسير، كالنقاش الموصلي صاحب «شفاء الصدور» وإبراهيم الثعلبي صاحب «الكشف والبيان» والحوافي المصري صاحب «البرهان». ولما جاء العصر الرابع بقيت هذه الطريقة ودحا كما في البسيط لأحمد الواحدي تلميذ الثعلبي المذكور، ثم لم تلبث الزيادات العلمية أن أخذت اتجاها يمثل روح المفسر كالبلاغة والاحتجاج للمعزلة في كشف الزخشرى، والكلام والأصول في مفاتيح العلوم للرازي، كما ظهرت التفاسير بالرأى والقياس دون تقييد بآراء السلف.

أما القراءات فقد تعددت وجوهها في أوائل العصر العباسي، ولكن الناس في جمهورهم كانوا يرجعون في قراءتهم إلى سبعة، هم أبو عمرو بن

العلاء وأبو محمد يعقوب بن إسحاق وحمزة بن حبيب وطاصم بن أبي النجود  
وعبد الله بن طامر وعبد الله بن كثير ونافع بن أبي نعيم . وقبيل الثلاثمائة  
أحلوا في هذا الاقتداء على بن حمزة الكسائي محل يعقوب ، فأجهد  
يعقوب نفسه في الحصول على جديد في رواية القراءات فنال ونال معه  
يزيد بن القعقاع وخلف بن هشام ، وعرفوا بالقراء الثلاثة بعد السبعة  
المذكورين . ثم عرفت قراءات أربع قبل انقضاء العصر منسوبة إلى  
قراء أربعة آخرين هم ابن محيصن المكي والأعمش الكوفي والحسن  
البصري ويحيى اليزيدي . وعلى هذا بقيت القراءات <sup>(١)</sup>

## ٢ - الحديث

كان أول تدوين للحديث ما قام به ابن حزم بأمر عمر بن عبدالعزيز ،  
ولكنه ضاع كما تقدم فجاء العصر العباسي وليس هناك تدوين .  
ولما كان الاقتداء على رسول الله قد ازداد بعمل الزنادقة والضلال ، أمر  
المنصور مالك بن أنس بجمع كتابه الموطأ الذي أثبت فيه الحديث  
مرتباعاً على أبواب الفقه ، فكان أول كتاب فيها معاً . وقد حمل تمييز  
الصحيح من الموضوع أئمة العصر الثاني على اقتفاء آثار الرواة بالجرح  
والتعديل ، فكان من ذلك وضع مصطلح الحديث على يد كثير : أشهرهم  
إسحاق بن راهويه المتوفى سنة ٢٣٨ . ثم عمدوا إلى تدوين الأحاديث  
الصحيحة مجردة من الموضوع وكانوا قبل ذلك يدونونها معاً اكتفاء  
بالتنبيه ، فوجدت كتب شتى أصحها ، جامع الصحيح للبخاري والجامع

---

(١) قد فصلنا القول في القراءات حيث الكلام على جمع القرآن ورواياته

الصحيح للنيسابورى والسنن لابن ماجه القزوينى والسنن كذلك لأبى داود  
السجستانى، والجامع لأبى عيسى الترمذى والسنن أيضا لأبى عبد الرحمن  
النسائى، وبعده هذه الكتب الستة لم تزد رواية الحديث فى العصر الثالث واتجه  
اهتمام أئمتة إلى ترتيب شيوخة وتبيين مراتبه والتوسع فى مصطلحه. ومن  
كبار المحدثين فيه، الحاكم النيسابورى وأبو الفتح الرازى وتلميذه أبو بكر  
البيهقى وكان كل جهم خدمه الكتب المذكورة فلم تعرف لهم مؤلفات مستقلة  
أما فى العصر الرابع فقد وجد من المحدثين ذوى التأليف كثير منهم ابغوى  
صاحب مصابيح السنة، والجزرى صاحب جامع الاصول فى أحاديث  
الرسول، والنهاية فى غريب الحديث

### ٣ - الفقه وأصوله

عرفت أن أول كتاب دون فى الفقه موطأ مالك بن أنس إمام  
الحجازيين الذين غلب عليهم التشدد وعدم إعمال الرأى لوقوفهم عند  
الرواية وكانت كثيرة عندهم، أما أهل العراق البعيدون عن الرواية فقد عملوا  
بالقياس والرأى فيما لا يخالف الكتاب والسنة وراء إمامهم الأعظم  
أبى حنيفة النعمان، ولكن لما انتقل المحدثون اليه بالعراق مزجوا بالرواية  
الرأى وظهر ذلك جليا فى صاحبيه أبى يوسف ومحمد. واتفقت أن رحل  
الشافعى إلى العراق فأخذ عن محمد وغيره ووضع مذهبا وسطا بين مذهب  
مالك وأبى حنيفة. ثم رحل إلى مصر فرجع عن بعض ما رأى ووضع  
مذهبا آخر فكان له مذهبان قديم وجديد. ثم جاء أحمد بن حنبل فأخذ  
من بعض أصحاب الحديث عن الشافعى، ومن بعض أئمة القياس والرأى  
عن أبى حنيفة، فكان مذهبه المعروف. وبذلك تمت فى العصر العباسى

الأول المذاهب الأربعة . المالكي بالحجاز ، والحنفي بالعراق ، والشافعي بمصر ، والحنبلي في نجد والبحرين وبعض الشام . ولكل إمام من هؤلاء بقية من كتبه أهمها الموطأ لمالك ، والفقهاء الأربعة لا في حنيفة ، والأئم للشافعي ، والمسند لابن حنبل . وفي العصر الثاني تغير كثير من الآراء في مسائل الفقه لانتشار العلوم المختلفة وبخاصة الفلسفة فتولدت مذاهب لم تكن موجودة كذهب الطبري القريب من الشافعي ، ومذهب داود بن علي الظاهري القريب من المالكي . ولكنها تضاءلت أمام المذاهب الأربعة التي لم يستجد بجوار أصولها في العصر الثالث أيضاً غير التلخيص والشرح والتعليق ، ومن خيار الفقهاء في هذا العصر أبو الحسن الماوردي صاحب كتاب الحاوي الكبير في الفروع في فقه الشافعي وهو مطبوع ، وكذلك كانت الحال في العصر الرابع ، ومن فقهاء أبو حامد الغزالي وله تأليف كثيرة في الفقه منها البسيط في الفروع ، والبسيط المحيط بأقطار البسيط ، والوجيز في فقه الشافعي ، ثم الأحياء ونحو نصفه في الفقه .

أما الأصول فقد حمل على نشأته رسوخ ملكة الفقه في الأئمة رسوخاً جعلهم يحصرون مسائله في أصول خمسة هي : الكتاب والسنة والاجماع والقياس ثم الاستحسان على خلاف يسير في الأخيرين ، ويسمون الكلام فيها أصول الفقه . وأول من ألف فيه الشافعي رحمه الله ، ومن بعده انتشر لدى الحنفية بالعراق وفي مقدمتهم أبو زيد الدبوسي . ومن اشتداد الجدل فيه بين المذهبين نشأ علم الجدل والخلاف . وقد سارت هذه العلوم الفقه في سائر العصور لأنها متفرعة عنه

## ٤ - الكلام والمنطق

نشأ علم الكلام في العصر العباسي على أثر تنكب بعض المتأخرين طريق السلف في التوقف عن البحث في المتشابه وما يوم التشبيه . فانهم حين تناولوا البحث في الأمرين ضل كثير منهم في التأويل ووقع في التجسيم المنافي للتنزيه ، فهب الآخذون برأى السلف إلى مقاومتهم ولكنهم لم يقنعوا الداخلين في الاسلام ممن امتلأت دياناتهم القديمة بالشبه والاهام ، فدخل الدين كثير من العقائد الفاسدة ، واضطر العلماء المحافظون أن يخرجوا عن التوقف الى الجدل والمعارضة بكثرة القول فكان هذا مبدأ علم الكلام . وظهر الخلاف أول ما ظهر من واصل بن عطاء الذي اعتزل حلقة الحسن البصري واتبعه في ذلك أناس عرفوا باسم المعتزلة لهذا الاعتزال . وقد نمي هذا العلم ما كان عليه الخلفاء من اختلاف ، فبعضهم كان ينصر أهل السنة ، كالهدى وبعضهم ينصر المعتزلة كالأمون . ثم زاد الاعتزال نموا في العصر الثاني وفرة الفلسفة ، لما كثر من ترجمة كتبها ولم يقف تياره إلا ظهور أبي الحسن بن إسماعيل الأشعري الذي استعمل أدلة العقل مع النقل وأتم مباحث هذا العلم ، كما ألحق به مباحث الإمامة فكان له مذهب خاص اتبعه فيه جماعة عرفوا بالأشعريين . وقد أيدته في العصر الثالث أبو بكر الباقلاني فنسخ كل مذهب إلا مذهب الشيعة الذي بقي عليه كثير من الاتباع . ثم لقي مثل هذا التأييد في العصر الرابع على يد كثير أشهرهم الرازي وحجة الله الغزالي صاحب التأليف الكثيرة الواسعة في هذا الباب ، ومنها كتاب الاحياء . وفيه كثير من مباحث الكلام

هذا وقد حملتهم الحاجة إلى البرهنة والاحتجاج في علم الكلام، على شق الطريق إلى علم المنطق فنبغوا فيه وساء لهم على هذا النبوغ ما تلوه عن اليونان في جميع مباحثه من فصول : ولعله لهذا السبب استمر طوال العصور العباسية خاضعا للنظام اليونانية بل بقى عليها من بعدها إلى الآن .

## العلوم اللسانية

### ١ — النحو والصرف

وضع أبو الاسود الدؤلى النحو بالبصرة فى العصر الاموى كما عرفت فى كتابنا الثانى، فاختلاف إليه عدد من رجالها يتعلمونه عليه ، كان منهم عنبة الفيل وعبد الرحمن بن هرون الاعرج ونصر بن عاصم ويحيى بن يعمر وميمون الاقرن وغيرهم ممن عرفوا بالطبقة الأولى . وعندهم أخذت طبقة ثانية منها عبد الله بن أبى اسحق ، وأسماء الحضرمى وأبو الخطاب الاخفش الأ كبر وأبو عمرو بن العلاء ، وعيسى بن عمر الثقفى وعن هذه الطبقة الثانية انتقل النحو إلى الكوفة فكون بها طبقة أولى منها أبو مسلم معاذ الهراء وابن أخيه أبو جعفر الرؤاسى ، وقد تبارت فى التأليف مع الطبقة البصرية الثانية ولم يك للطبقة البصرية الاولى فيه سوى أوراق ، فكان لعيسى بن عمر كتابا الجامع والاكمل ، وهما أول ما ألف فى النحو البصرى ، وكان لأبى جعفر الرؤاسى كتاب الفيصل أول ما ألف فى نحو الكوفيين ، وقد أدركت هاتان الطبقتان العصر العباسى فتثقت عليهما الطبقة التى وضعت أساس التأليف فى النحو وسائر علوم اللغة ، وكان

رأسها الخليل بن أحمد مستخرج مسائل النحو ومصحيح قياسه ومخترع العروض ومدون اللغة . وعن طبقة الخليل نشأت بالبصرة طبقة سيبويه صاحب الكتاب ، وبالكوفة طبقة الكسائي ، ودب بين الطائفتين الخلاف واشتد الجدل حتى كانت تعقديدهما المناظرات . وكان منشأ الخلاف أن البصريين يقدمون السماع على القياس الذي لا يأخذون به إلا لضرورة ، وقد ساعدتهم على الاكتفاء بالسماع كثرة فصحاء العرب بالبصرة لقربها من البادية ، في حين أن الكوفيين يعتمدون في أكثر مسائلهم على القياس لقلة جالية العرب بالكوفة وقربها من الأعجم . ثم نشأت بالبصرة طبقة الاخفش الأوسط<sup>(١)</sup> شارح كتاب سيبويه ، وبالكوفة طبقة الفراء صاحب كتاب الحدود ، وعنه انتشر المذهب الكوفي ببغداد قبل أن يعرف بها المذهب البصري . وبعدهما كانت في البصرة طبقة التوزي والجرماني والجرمي والمازني والسجستاني ، وفي الكوفة طبقة ابن السكيت وابن سلام ثم ختمت طبقات البصريين بطبقة المبرد وطبقات الكوفيين بطبقة ثعلب وإليهما انتهى علم هؤلاء وعلم هؤلاء . وعلى هذا انقضى العصران الاول والثاني . ولما توالى فتن الزنوج والقرامطة على المصريين جلا علماءهما إلى بغداد ، ومن اختلاطهما نشأت طريقة البغداديين وهي خليط من المذهبين ولكن مع جعل مذهب البصريين الأساس . ولم يجد في العصر الثالث جديد إذ كان أكثر مادون شروحا وتعليقات على المذهبين .

(١) هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة تلميذ سيبويه ، أما لا كبر المذکور آنفا فهو أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد الحميد أستاذ سيبويه ، والاصغر هو أبو الحسن علي بن سليمان تلميذ المبرد .



من غير تعصب ولا خلاف ، ومن علماء النحو وفيه ابن خالويه صاحب كتاب « ليس في كلام العرب » وصاحب رسالة في إعراب ثلاثين سورة من القرآن ، وابن جني صاحب الخصائص في أصول النحو ، وسر الصناعة في النحو ، وشرح تصريف المازني واللمع في النحو ، والمحاسب في إعراب الشواذ وعلل التثنية ، ثم ابن درستويه والسيرافي والرماني ولكل هؤلاء مؤلفات . وفي العصر الخامس وضعتم أهم كتب النحو والصرف التي عليها معول العلماء الآن كالسكافية في النحو ، والشافية في الصرف وهما لابن الحاجب ، وتصريف العزى لعز الدين الزنجاني في الصرف ، ومفتاح العلوم للسكاكي وغيرها

## ٢ - متن اللغة

كان المرجع في معرفة معاني المفردات طوال العهد الأموي ، مشافهة الأعراب أو سؤال الأُدباء . ولما جاء العصر العباسي فكر بعض الأئمة في تدوين رسائل صغيرة في فئات من الالفاظ كالتي تجمع أعضاء الانسان أو بعض الحيوان أو النبات أو الجماد . ثم جاء الخليل بن أحمد ففكر في اختراع طريقة جامعة سهلة تحصى بها كلمات العربية وتكتب معها معانيها ، فوضع كتابه العين الذي رتبته على حسب مخارج الحروف من الحلق إلى الشفة مبتدئاً بإياه بحرف العين ، ولكن يظهر أنه لم يتمه وبقيت طريقة الرسائل جارية حتى آتته جماعة بعد وفاته ، أشهرهم الليث بن المظفر فكان أول كتاب منظم في متن اللغة . وفي العصر الثالث ألف ابن دريد كتابه الجهرة منه ومن الرسائل المذكورة ومن كتب أخرى الأصمعي وأبي عبيدة وغيرهما ، ورتبه على حروف الهجاء من المهمزة إلى

الياء، وألف أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر كتابه التهذيب على ترتيب الخليل في عشر مجلدات ، كما ألف الصاحب بن عباد المحيط في سبع مجلدات ، وأحمد بن فارس المجلد حاذفا للشواهد ، والجوهري الصحاح الذي جمع فيه أربعين ألف مادة . ثم حل العصر الرابع فألف الفيروز آبادي القاموس المحيط ، والنخشي أساس البلاغة ، وبعدهما ألف الصغاني المتوفى سنة ٦٥٠ كتابيه تكملة الصحاح والعياب ، ثم جمع بينهما في مجمع البحرين . على أن التأليف لم ينقطع بالانكباب على المعاجم عن أن يتناول نواحي أخرى من اللغة كالاجناس في فقه اللغة للثعالبي ، وشرح غريب الحديث للجزري وغيرهما .

### ٣ — البلاغة

تطلق البلاغة في عرف العلماء على علوم ثلاثة هي المعاني والبيان والبديع ، ولكل مباحث خاصة به كما هو معروف . وقد كان الدافع إلى نشأتها الدفاع عن إعجاز القرآن الذي خاض فيه كثير من الزنادقة والفلاسفة بانكاره أو بالحيدة عن أن سببه التناهي في البلاغة . وقد تقدمت هذه العلوم مباحث منها قبل أن تكتمل كأنها إرهاب لها قبل هذا الكمال ، دعت اليها أسباب طارئة كتأليف أبي عبيدة المتوفى سنة ٢٠٦ كتابه « مجاز القرآن » على أثر سؤال وجه اليه في معنى قوله تعالى « طلعبها كأنه رؤوس الشياطين » وإجابته السائل بأن ذلك على حد قول الشاعر :  
أيقنتني والمشرقي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال<sup>(١)</sup>

(١) استعمل أبو عبيدة في تلك التسمية كلمة مجاز بمعنى طريق التعبير لا

بالمعنى الذي اصطلح عليه بعد ولذلك جاءت أبحاث كتابه خليطاً من النحو

وكالذى كان من الجاحظ في تأليف كتابه « إعجاز القرآن » الذى بقيت  
منه أبحاث كثيرة منقولة في كتاب الفصول المختارة من كتبه لعبيد الله  
ابن حسان، وفي كثير من كتابه البيان والتبيين، وكالذى كان من المبرد  
حين قال له الكندى الفيلسوف « أرانى أجد في كلام العرب حشوا  
إذ أجدهم يقولون عبد الله قائم، ثم يقولون إن عبد الله قائم، ثم يقولون  
إن عبد الله لفاطم، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد، فقال له أبو العباس  
« بل المعانى مختلفة، فالأول إخبار عن قيام والثاني جواب عن سؤال  
سائل والثالث جواب عن إنكار منكر وقد تكررت الألفاظ لتكرار  
المعانى » إلى غير ذلك من متعلق البيان والمعانى. ثم جاء ابن المعتز فراقه  
ما كان يقع للشعراء من محسنات دون أن تعرف لها أسماء، فخصر منها  
سبعة عشر نوعا سمي كلا منها وسماها في مجموعها البديع، وإن كان فيها  
عض ما هو الآن من البيان كالاستعارة والكناية. ولهذا كله يمكن أن  
يقال إن البديع وضع قبل انتهاء العصر الثانى، وإنه وضعت أبحاث  
كثيرة خلاله وخلال الأول للمعانى والبيان. وقبيل انتهائه عقب  
قدامة بن جعفر على بديع ابن المعتز في كتابه « نقد قدامه » الذى أتى فيه  
عشرين محسنا وافق ابن المعتز في سبعة منها، واختص بثلاثة عشر  
كما اختص ابن المعتز بعشرة، فتمت المحسنات ثلاثين. وفي العصر الثالث  
ألف ابن هلال العسكري كتابه الصناعات في معظم أبحاث هذه العلوم  
الثلاثة فكان أول كتاب جامع لها وإن لم يميز بعضها عن بعض. وفي الرابع

---

والبلاغة وإن كان للثانية الكثرة وبخاصة البيان لأن السبب الحافز لوضع الكتاب  
كان منه كما رأيت.

ألف إمام البلاغة عبدالقاهر الجرجاني كتابه « دلائل الاعجاز »، وكتاباه « أسرار البلاغة » مغابا على الاول أبحاث المعاني، وعلى الثاني أبحاث البيان، فعد هذا أول تفرقة بينهما، وكان البديع قد تميز كما مر آنفا؛ وبهذا تكاملت هذه العلوم وتميزت تقريبا. ثم حدث بعد عبد القاهر أن زاول البلاغة كثير من الأعجام متأثرين بالعجمة من جهة؛ وبالفلسفة والمنطق من أخرى. فكتبوا فيها بأساليب مثلت الناحيتين المذكورتين فكانت عثرة في طريق الفصاحة والبلاغة، ومن هؤلاء السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ صاحب مفتاح العلوم في النحو والصرف والبلاغة والعروض. وقد لخص قسم البلاغة منه الخطيب القزويني في كتابه « تلخيص المفتاح » ذى الشهرة الذائعة والشروح المتعددة، وعنده وقف نمو هذه العلوم قبل أن يتم نضجها وهى فى حاجة إلى الانضاج الذى كان منظورا لها لولا ما دها العرب والعربية من أحداث<sup>(١)</sup>

#### ٤ - الأدب والتاريخ

طالجنا فى أول موضوع من كتابنا عن العصر الجاهلى، التعريف بالأدب وتاريخه علاجا طويلا فهم منه أن أول معنى عرفته العرب لكلمة الأدب صنع طعام يحتفل بالدعوة إليه فى مأدبة، وأنها قبيل

---

(١) مما ذكر عن علوم البلاغة هنا ترى أنها من صنع علماء المشاركة، أما علماء الممالك الغربية فقد نادى ينحصر علمهم فيها فى كتابى « المثل السائر » للموصلى وهو خير كتبهما وبخاصة فى البيان والمعاني و « تحرير التحبير » لعبد العظيم بن أبى الاصمير المصرى المتوفى سنة ٦٥٤ فقد أوصل فيه محسنات البديع إلى التمهين.

الاسلام أخذت تستخدم في التهذيب والتثقيف ، وأن الاسلام أذاع هذا المعنى ونشره لكثرة تعاليمه الداعية إلى مكارم الأخلاق ، وأن الناس توسعوا عقب ذلك فأطلقوا الأدب على كل ماله أثر في التهذيب ، وبذلك تناول مأثور اللغة من كل نثر وشعر يحض على المحامد ويكره في المذام . وعرف من يروى ذلك بالأديب ، ومن هنا جاء تعريف الأديب منذ صدر الاسلام بأنه « معرفة كلام العرب نثرًا وشعرًا وكل ماله صلة به من أيام وأنساب وأخبار وغيرها » وعلى هذا كان التأديب في عصر الراشدين ، ثم أخذ ينمو ويتسع مدة بنى أمية شاملا معه ما وضع من قواعد النحو إذ ذاك . وقد عظمت رواية الأدب بهذا المعنى لما كان من تشجيع الخلفاء عليها ، فنشأت الطبقة الأولى للرواة كما ذكرنا ذلك تفصيلا بكتابنا الثاني . والذي يزيد أن نقوله الآن ، إن ما روى في العصر الأموي بقي غير مقيد في كتاب حتى إذا ما جاء العباسي ودخل الاسلام كثير من الأتاجم الذين تعلموا لغة العرب ، وجدت الحاجة إلى التوسع في قواعد النحو ولتحرز من الأخطاء ، وإلى الاكثار من الرواية للشواهد والمراتة ، وقد دفع الحرص على هذين الأمرين معا إلى تقييدهما بالتدوين ، كما حبيب بعد مواطن العباسيين عن البوادي ، إلى طائفة من فصحاء الأعراب ، التردد على حواضر العراق لمداواة والمتعلمين لقاء ما كانوا ينالون من رزق ومال فكان من أشهرهم بالبصرة أبو البيداء الرياحي ، وأبو مالك بن كركرة ، وأبو الجاموس بن يزيد ، وأبو عدنان بن عبد الأعلى ، وشبيل بن عرعة الضبعي . وكان من أشهرهم بالكوفة والحيرة أبو خيرة بن زيد ، وأبو محم الشيباني . ثم تعدى سيلهم المصريين إلى بغداد فكان منهم فيها أبو زياد وأبو ضمير السكلايين

وأبو شبل العقيلي والفقعي السدي . بن تجاوزها إلى خراسان كأبي  
العيسل مؤدب الطاهريين . ولكن كثير من هؤلاء كتب لم يصل منها شيء  
لضياعها ، ولكن معظم أدبهم وأدب غيرهم ممن لم يرحلوا عن البادية  
وإنما كان الرواة يرحلون إليهم ؛ قد دونه الرواة في العصر العباسي الأول فكان  
مرجع الناس . وأهم هؤلاء الرواة إذ ذاك أبو عمرو بن العلاء ، وعنه أخذ  
أكثر النحاة والأدباء ، وأبو عبيدة معمر بن المنثري صاحب نقائص جرير  
والفرزدق والشعر الشعراء ، والاصمعي عبد الله بن قريب صاحب  
الاصمعيات ورجز العجاج وعشرة كتب أخرى في الإنسان وكثير من  
الحيوان والنبات والجماد ، وأبو زيد الأنصاري صاحب النوادر في اللغة  
وكتابي المطر والابن ، والقاسم بن سلام صاحب كتب غريب الحديث وغريب  
المصنف والأمثال وفضائل القرآن والمواظ . على أن هناك طائفة من  
الرواة غلبت عليهم رواية الشعر ، أشهرهم حماد جامع المعلقة ، والضبي  
صاحب المفضليات ، وخلف صاحب كتاب العرب وما قيل فيها من الشعر ،  
والشيباني جامع أشعار القبائل . وقبيل أن ينتهي العصر الأول العباسي  
نشأت طبقة ثانية كانوا يجمعون بين الروايات ويفاضلون بينها ، منهم  
محمد بن سلام صاحب طبقات الشعراء ، وأبو زيد بن أبي الخطاب  
صاحب جهرة أشعار العرب ، وله في صدرها مقدمة تبلغ نحو الأربعين  
صفحة ، تكلم فيها عن الشعر واللغة كلاماً انتقادياً له في عالم الأدب مكان ،  
ثم كانوا يحمدون في كلامهم عن الأكتار من اللغة التي بدأت تتميز عن  
الأدب ، كإحاد أسلافهم أوله عن الأكتار من النحو ، فتميز منذ أول العصر .  
ولما حل العصر الثاني أخذ الأدب يستقل عن هذين

العلمين إلا لما ، وبغني بالمأثور وبالكلام عليه شرحا وتعليقا وبالأخبار التي تتعاق برجاله ، ثم جلا الأديب في أوله عن المصريين للأحداث النازلة بهما إلى بغداد التي استبحر فيها العمران ، وكانت الكتب المترجمة في الأدب الفارسي وغيره ، قد أنارت للناس سبل التأليف فتغيرت بذلك كله وجهة الأدب وظهر هذا التغيير في أمور ، منها في المأثور تجاوز الرواية إلى التدبر في المروى بما يحلل معناه تحليلا ينتهي بحكمة أو عظة ، ومنها في الخبر جمع أشتات الأخبار العربية على اختلافها مع ترتيبها أبوابا في كل باب طائفة ، ومنها غيرهما الميل إلى تدوين الحكم وأخبار الحكماء ومنافع العدل وسير العادلين والحث على الاقتداء بهم ، ولعل الدافع إلى هذا الميل ما ظهر في ذلك العصر من فساد الحكم وتوالي الظلم حتى على الخلفاء ، إلى غير ذلك مما اضطبغت به كتب الأدب وتوخاه في التصنيف الأديب ، كالجامع لإمامهم وفتح الفتوح في التأليف ، فله كتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان وكتاب البخلاء وكتاب المحاسن والاضداد على خلاف ، وأخلاق الملوك وتنبية الملوك ، وسحر البيان وفضائل الأتراك ، وسلوة الحريف والعرافة ، والزجر والفراسة عند الفرس ، وطبقات المعننين والتاج وغيرها ، سوى الرسائل الكثيرة المتنوعة ، وكان قتيبة المقي للجامع في هذا الباب وصاحب هذه المؤلفات . عيون الأخبار في عشرة كتب ، والمعارف في التاريخ العام والشعر والشعراء وأدب الكاتب والإمامة والسياسة والشراب والاشربة والتسوية بين العرب والعجم وتفضيل العرب وغيرها ، وكتامة بن جعفر صاحب كتاب نقد الشعر وكتاب نقد النثر وغيرها ، محمد بن أحمد الوشاء صاحب الموشى ، وهو كتاب فريد في باب فيه

غير المواعظ الكثيرة ، وصف الازياء والفاظ المكاتبات وما يكتب من  
الأشعار على الثياب والأدوات ، وقد طبع باسم الظرف والظرفاء وغيره .  
إلى سائر أدباء هذا العصر وهم كثير وكتبهم أكثر .

ولما جاء العصر الثالث كان أكبر ظواهر الادب فيه .

أولاً :- انتشار الروح القصصية التي أحيها في العصر الأول  
ابن المقفع ، ونماها في الثاني من اقتفوا أثره فيها كالجاحظ ، وقد قدمنا القول  
على ذلك مبسوطاً في الكتابة حيث الكلام على القصص والمقامات .

ثانياً :- انتشار روح النقد وتعدد موضوعاته بعد أن فتحه في  
العصر الثاني بالمعنى الذي نريد ، فدامة بكتابه المذكورين فكان في أدبائه من  
انتقد الرواية والإخبار ، كآبي الفرج في كتابه الأثافي أضخم كتب  
الأدب وأحفلها بمواده وأجمعها لتراجم الشعراء والمغنين . ومن انتقد  
الشعراء كحسين بن بشر الأمدى المتوفى سنة ٣٧١ في كتابه «الموازنة  
بين أبي تمام والبحتري» فإنه لم يترك لكليهما شيئاً مما يقوله متعصب  
له أو عليه ، إلا أورد في أسلوب جدلي ممتع وفتاش حصيف . وكالصاحب  
ابن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ في كتابه « مساوى المتنبي » الذي كان شديد  
التحامل عليه فيه لعدم مدحه إياه مع عرضه عليه مشاطرته ماله ،  
وكعبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة ٣٩٢ في كتابه « الوساطة بين  
المتنبي وخصومه » الذي تصدى فيه لدحض ما ذكره الصاحب وغيره  
من سائر الخصوم ، فانتصف للمتنبي انتصافاً مؤيداً بالحجة والبرهان .  
كما كان فيهم من انتقد الكلام انتقاداً مبنياً على قوانين البلاغة التي وضع



بعض قواعدها في العصر الأول وتمت في الثاني واطرد نموها في الثالث،  
 كأبي هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ في « كتاب الصناعتين الكتابة  
 والشعر » فقد ملأه نقدا مؤنساً على ضوابط الفصاحة والبلاغة في  
 الأساليب والمعاني؛ بل كن فيهم من طبق ذلك كله على نوابع الشعراء  
 وكبار الكتاب، كالشماعلي المتوفى سنة ٤٢٩ في كتابه « يتيمة الدهر »  
 الذي سبق القول عنه، وفي كثير من كتبه المعروف منها نحو الأربعين  
 كالأعجاز والإيجاز، وخاص الخالص، ونثر النظم، وحل العقد، وثمس  
 الأدب في استعمال العرب، والكناية والتعريض، وأجناس التجنيس،  
 وسحر البلاغة، وغرر البلاغة، والنهاية في الكناية، ولا ننس من نقادهذا  
 العصر خاتمة شعرائه وكبير فلاسفته أبا العلاء المعري الذي جاءت  
 « رسالة الغفران » له مبنية عليه لجمة وسدى .

ثالثاً — نضج نوع من الأدب هو المحاضرة، وغايتها اقتدار الأديب  
 على إيراد كلام غيره المناسب لما يطراً في محضره، وعماده كثرة الحفظ  
 وجودة البديهة، ومن المؤلفات فيه « المحاضرات والمناظرات » للتوحيدى  
 المتوفى سنة ٤٠٠ و « التمثل والمحاضرة » للشماعلي و « الدرر والغرر »  
 للشرىف المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦ .

ولما جاء العصر الرابع طرد رقى هذه الظواهر الثلاث . فأما القصة  
 فقد علمت ذلك عنها، وأما النقد فكان من أصححه وأتممه ما وقع من  
 عبد القاهر في كتابيه « دلائل الإعجاز وأسرار البيان » وما وقع للموصلى  
 في كتابه « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » فقد أجاد فيه نقد

الألفاظ والمعاني<sup>(١)</sup>؛ أما المحاضرة فقد جاءت فيها «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» لأبي القاسم الراغب الاصفهاني المتوفى سنة ٥٠٢هـ، خزانة أدب لكل ما يقال عن الشيء وضده في خمسة وعشرين باباً - سمى كلا منها حداً - في العلوم والصناعات والاخلاق والاجتماع والصفات وغيرها من أنواع البحوث .

هذا وإنما عددنا التاريخ من الأدب، لأن كل من تعرض للعرب فيه تعرض لأدبهم . وقد عني بتدوينه منذ العصر العباسي الأول في الانساب والسير والطبقات والفتوح . فكان من مؤرخي الانساب أبو المنذر هشام بن محمد الكلابي صاحب جمهرة الانساب؛ ومن مؤرخي السير أبو محمد عبد الملك بن هشام راوى السيرة النبوية لأبي بكر محمد ابن اسحق ، ومن مؤرخي الطبقات أى التراجم؛ أبو عبد الله محمد بن سعد صاحب طبقات الصحابة والتابعين ، ومن مؤرخي الفتوح أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي صاحب المغازي وغيرها في الفتوح .

وفي العصر الثاني توسع المؤرخون فخرجوا في الانواع المذكورة إلى أنواع كثيرة ، من تاريخ عام شامل لأخبار القدماء والمحدثين كأبي جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ المشهور ، وأخص بالناس أو البلدان كأبي الفضل أحمد بن طيفور صاحب تاريخ بغداد ويوسف بن الداية صاحب سيرة ابن طولون وابنه خماريه؛ وأغريها من تاريخ العرب

---

(١) ثم ما وقع بالمغرب لأبي العباس الحسن بن رشيق القيرواني المتوفى سنة ٤٥٦هـ في كتابه «العمدة» الذي جاء أجل كتاب في صناعة الشعر وتقدمه، وفي كتابه «قراضة الذهب في نقد أشعار العرب» .

المتصل بأدبهم كمحمد بن حبيب صاحب كتاب القبائل والايام في أكثر من أربعين جزءا . أو تاريخ الفتوح كأبي جعفر أحمد بن يحيى البلاذري - خاتمة مؤرخي الفتح - صاحب فتوح البلدان .

وفي العصر الثالث ساد التاريخ العام شيء من الرحلة لكثرة ما كان فيه من رحلات ، ومن كبار الرحالة فيه ، علي بن الحسين المعروف بالمعروف . كما تكاثرت التواريخ الخاصة للأمم أو الأشخاص أو المدن ، فمن رجالها في تاريخ الأمم . أبو عمر محمد بن يوسف الكندي صاحب تاريخ مصر ، ومنهم في تاريخ الأشخاص ، أبو النصر محمد بن عبد الجبار العتبي صاحب اليميني في تاريخ عيين الدولة الساطان محمود الغزنوي وأبيه ، ومنهم في تاريخ المدن أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي صاحب تاريخ بغداد « غير السالف لابن طيفور » .

أما في العصر الرابع فقد تعددت الموضوعات لتعدد الخلفاء والسلاطين ، وتنوعت الكتب وتبارى المؤرخون في تدوين المعاجم والمطولات . فكان منهم ، مؤرخو الدول كلوزير جمال الدين علي بن خافر الأزدي المصري صاحب الدول المنقطعة - يعني عن العباسية - ، وأصحاب السير كمؤيد الدولة مجد الدين أبي المظفر أسامة بن مرشد المنقذ صاحب كتاب الاعتبار في سيرة حياته ووصف رحلاته ، و مترجمو الجماعات كأبي عمر يوسف بن عبد الله المعروف بابن عبد البر صاحب الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، وفيه أكثر من ثلاثة آلاف ترجمة للصحابة ورواة الحديث ، ومؤرخو البلاد والمدن في مختلف الاقطار كابن القاسم علي بن الحسن المعروف بابن عساكر الدمشقي صاحب

تاريخ دمشق ، ثم المؤرخون العامون كأبى الحسن على بن محمد المعروف  
بعز الدين ابن الاثير صاحب السكامل أشهر كتب التاريخ ومن أوثقها  
وأوضحها وأوسعها. وهو منذ الخليفة إلى سنة ٦٢٨ فى اثني عشر جزءا

## العلوم الكونية

عرفت أن العلوم الكونية أربعة أقسام ، طبيعية ورياضية وإلهية  
وسياسية . فن الطبيعية الكيمياء والطبيعة والطب والصيدلة والفلاحة  
والمواليد الثلاثة « الحيوان والنبات والجماد » ، ومن الرياضية الجبر والحساب  
والهندسة والحيل « الميكانيكا » والفلك والجغرافية النظرية ، ومن الإلهية  
صفات الاله والسمعيات وقوى النفس وكل ما وراء الطبيعة ، ومن  
السياسية تنظيم الملك وتدير المنزل وتدير المال والاخلاق . وإليك كلمة  
مجملة عنها مجموعة كما وعدنا ، لأنها ليست ذات صلة مباشرة بالأدب  
تنحوج إلى إفرادها كما أفردنا مواد العلوم الإسلامية من شرعية ولسانية قبل .  
ذكرنا فى صدر الكتاب حيث الكلام على غلبة الفرس فيما طرأ  
على العرب ولغتها من جراء امتزاج الاعجام بها ، أن الفرس أحرزوا  
منذ القديم قسما وافرا من العلوم أوجدوا بعضه ، ثم ورثوا بعضا عن  
الآشوريين والبابليين ، وترجموا بعضا منذ القديم عن الهند والصين ، كما  
ترجموا بعضا آخر عن اليونان على يد بعثة أرسلها ساسان بن أزدشير إلى  
بلاد اليونان ، وعلى أيدي العلماء الوثنيين الذين رحلوا من اضطهاد  
جوستيان قيصر إلى بلاد الفرس أيام كسرى أنوشروان . وبذلك كان  
العلم القديم كله تقريبا مستقرا فى بلاد الفرس فلما اختلط العرب بهم

على العهد العباسي اختلاطا كبيرا؛ ورأى أبو جعفر المنصور حاجة الدولة الجديدة إلى هذه العلوم ، عمل على ترجمتها كما تقدم وتبعه في ذلك خلفاؤه إلى أن جاء المأمون فوجه إلى الترجمة اهتماما ليس فرقه اهتمام؛ حتى أعاد ترجمة كثير من الكتب اليونانية والهندية عن لغتيها الأصليتين لأن اللغة الفارسية كما حدث قبله، وبذلك تم للعرب على عهده جل ما كان من علوم عند أمم الحضارة القديمة ولا سيما الفرس واليونان والهنود على أيدي ترجمة ماهرين .

وقد كان خلفاء الدولة يتخبرون من علوم كل أمة ما نبغت فيه، فكانوا يعتمدون في السير والحكم والتاريخ والموسيقى والآداب على الفرس ، وفي الفلسفة والمنطق والهندسة والطب على اليونان ، وفي الحساب والنجوم والعقاقير والأقاصيص على الهنود؛ على أنهم نقلوا علوما أخرى عن أمم غير هذه الثلاث كانت فيها ذات نبوغ، كالزراعة والصيد والتنجم والسحر والطلاسم عن الانباط والسككديان ، وكالكيمياء والتشريح عن المصريين . ثم مزجوا ذلك كله ببعضه ببعض وأخرجوه في طابع عرفوا به ونسب إليهم في العصر العباسي الأول ، فكانوا في ذلك مثار الدهش والاعجاب . ومما ينبغي أن ينبه إليه هنا أن اعتزازهم بأدبهم جعلهم لا يعنون بنقل آداب غيرهم من تلك الأمم إلا ما تسرب إليهم من آداب الفرس بعمل أبناء فارس أنفسهم حين شاركهم النفوذ وأرادوا إظهار ما أثر أسلافهم فيها كما ظهرت في سائر العلوم ، ولو كان لا بناء الأمم الأخرى مثل ما لا بناء للفرس في هذه المشاركة لنقلوا آداب أممهم كما فعل هؤلاء .

وقد كان معظم العقلة من أهل العراق والشام وفارس والهند غير المسلمين الذين استحضروهم الخلفاء وأغدقوا عليهم المال . فكان أشهر المترجمين من اليونانية . آل بختيشوع طبيب المنصور، وآل حنين ابن إسحق وابن أخته حبيش الأعسم، وآل سرجويه، وآل ثابت الحراني وأفراد غيرهم كقسطا بن لوقا، والحجاج بن يوسف بن مطر، ويوحنا البطريق واسطفان بن باسيل، وموسى بن خالد وأبو عثمان الدمشقي وأبو بشر بن بونس ويحيى بن عدى . وكان أشهرهم من الفارسية ابن المقفع وآل نوبخت وخاصة الفضل ، وموسى ويوسف ابنا خالد وأبو الحسن على بن زياد التميمي، والحسن بن سهل وأحمد بن يحيى البلاذري، وإسحق ابن يزيد، ومحمد بن الجهم، وهشام بن القاسم، وموسى بن عيسى، وعمر بن الفرخان، وجبلة بن سالم . وكان أشهرهم من الهندية منكه وابن دهن الهنديان . وكل هؤلاء نقلوا للخلفاء ومشاركيهم في النفوذ . وكان ممن نقل للعلم ولنفسه بنو موسى بن شاكر محمد وأحمد والحسن وأبناؤهم من بعدهم . هذا والكتب التي نقلت تعد بالآلاف ولكن الباقي منها لا يتجاوز العشرات ، وأشهره المجسطي لأبطليموس ترجمة الحجاج بن يوسف بن مطر، والسياسة في تدبير الرياسة ترجمة يوحنا الطريق، ورسائل في الطب ترجمة قسطا بن لوقا، والمدخل في الطب ورسائل أخرى فيه، والنواميس لحنين بن إسحق، ومنطق أرسطو لابنه إسحق . وقبل أن ينتهي هذا العصر الأول اشتغل المسلمون أنفسهم بهذه العلوم الدخيلة فنبغ فيها من فلاسفتهم أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندي الملقب فيلسوف العرب ، وامتد زمنه من المأمون إلى المتوكل، فهو قد أدرك

العصر الثانى وله تأليف كثيرة فى معظم العلوم الدخيلة ، عد منها ابن النديم فى الفهرست ٢٣١ كتابا موزعة على ١٧ علما ومعدودة فى كل علم ولكن الباقي منها إلى الآن لا يبلغ العشرين ، منها إلهيات أرسطو والمد والجزر واللون اللازوردى فى السماء وذات الشعبتين « آلة فلكية » واختبارات الأيام ورسالة فى الموسيقى ، ومقالة فى تحويل السنين . وفى العصر الثانى زاد اشتغال المسلمين بهذه العلوم . ومن نبغاهم فيها أبو نصر الفارابى الذى يلى الكندى فى الحكمة ، ومن كتبه الباقية ١٢ كتابا فى المنطق و ٨ فى السياسة والأدب و ٢٧ فى الرياضيات والنجوم والكيمياء والموسيقى وأبحاث أرسطو وموضوعات أخرى . وأبو بكر محمد بن زكريا الرازى وله كثير من المؤلفات والمخترعات . فمؤلفاته تزيد عن المائتين ولكن الباقي منها بضع وعشرون أغلبها فى الطب الذى يفال فيه « كان معدوما فأحياه جالينوس ، وكان متفرقا فجعله الرازى ، وكان ناقصا فكماله ابن سينا » ومنها كتاب الحاوى فى الامراض ومداواتها ، والطب المنصورى ألفه للأمير منصور السامانى ، والطب الموكى ألفه لصاحب طهرستان ، والمرشد والكافى وبرء الساعة فى الطب أيضا والجدرى والحصبة وهو أول كتاب أجاد تشخيص هذين الداءين ووصف الدواء لهما

ومن مكشوفاته الكيمائية زيت الزاج « حامض الكبريتيك » ولا تزال طريقة استحضاره له باستقطار كبريتات الحديد مستعملة إلى الآن ، والكحول وقد استخرجه باستقطار مواد نشوية وسكرية مختمرة . وله فى الكيمياء مؤلفات .

ولما جاء العصر الثالث زاد المشتغلون بهذه العلوم من المسلمين فيه، فنبتغ كثير أشهرهم أبو على الحسين بن سينا الملقب بالشيخ الرئيس المتوفى سنة ٤٢٨ هـ فقد انفرد بقوة العقل وسعة العلم وألف في كل فن حتى زادت مؤلفاته على المائة، وقد نقل الباقي منها إلى اللغات الأوروبية فأثر في نهضتها الحاضرة تأثيراً بيناً. منها في الطب القانون في ١٤ جزءاً والشفاء في ١٨ جزءاً « بعض أجزائه في علوم أخرى » وفيها في الفلسفة الاشارات والنجاة وفي الالهيات النفس الالهيات وقصيدة النفس، وفي المنطق الاشارة والعروس، غير كتب أخرى في الطبيعة والرياضة والسياسة والموسيقى وغيرها، ومن المبرزين فيه أيضاً جماعة إخوان الصفا ولا تزال رسائلهم إلى اليوم مرجعاً في كثير من مباحث هذه العلوم وخاصة الفلسفة. وقد تقدمت في هذا العصر الكيمياء فأنشئت حوانيت الصيدلة وعرف كثير من المركبات كما تقدم علم النبات، فولدت أنواعه واستخرجت منه الأدوية المختلفة، وكذا النجوم فبنيت المراصد وأبطلت صناعة التنجيم ثم الرياضيات والفنون الجميلة ثم استمر تقدم هذه العلوم سائراً إلى الامام بالمشرق في هذا العصر حتى نقل إلى الأندلس وبخاصة رسائل إخوان الصفا فاهم الأندلسيون بها.

وفي العصر الرابع اطرء نمو هذه العلوم كذلك بالشرق والغرب ولكن الأندلس في أواخره فاقت المشرق الذي كان له السبق في أوائله فكان معظم الفلاسفة منها، ويكفي أن تعلم منهم أبا الوليد بن رشد المتوفى سنة ٥٩٥ هـ صاحب الكتب الكثيرة التي كان فضلها على نهضة أوربة كفضل كتب ابن سينا المذكور.



وإن المقام يضيق عن عدد علماء هذه العلوم من المسلمين شرقا وغربا خلال العصرين الثالث والرابع ؛ فلذلك كتب بالعلمين المذكورين «ابن سينا وابن رشد» اللذين جاء أولهما فجر المشرق في العصر الرابع؛ وجاء ثانيهما فجر المغرب في الخامس :

هذا - وقد خالق تدوين العلوم بنوعيتها كتابية علمية هي لغة التأليف . كما حمل تقدمها على إحياء مجالس العلم والمناظرة التي انتهت بإنشاء المدارس في العصر الأخير بالمعنى الذي نعرفه الآن ، وهذه كلمة عن كليهما تلائم المقام .

### الكتابة العلمية أو لغة التأليف

جاءت كتابة التأليف مختلفة باختلاف نوع العلوم من إسلامية وكونية . فكانت في العلوم الإسلامية من شرعية ولسانية في العصر الأول العباسي ، عبارة عن جمع الروايات وتصنيفها طوائف تقع كل منها تحت بحث خاص . وقليل ما كان يزيد المصنف على هذا الجمع ما يربط بعض الروايات ببعض أو يشرح الغريب . وقد كانت هذه الزيادات أظهر في اللسانية منها في الشرعية ، كما كانت ذات فصاحة وبلاغة لرسوخ المصنفين إذ ذاك إلا في الفقه والكلام ، فقد كانت فيهما أقل درجات في البيان . ولما جاء العصر الثاني نمت هذه الزيادات على ما رأيت آنفا في تاريخ العلوم واطرد نموها في الثالث لنمو العقاية واتساع الأبحاث ؛ فظهرت شخصيات المؤلفين وازدادت ظهورا باغفال الأسانيد في الرواية وبخاصة في عاوم اللسان مع بقائها ذات قوة في التعبير وجمال في الأداء ؛ حتى إذا ما جاء العصر الرابع فسد هذا الجمال في أوله بالصناعة اللفظية التي أضرت

بالتعابير ، وفي آخره بالصناعة المنطقية التي أصابته بالتعقيد .  
 وكانت في العلوم الكونية المترجمة منذ العصر الاول - ماعدا الادبية  
 التي كانت آية في البيان - لاتعدو العبارة الأعجمية الأصلية في ثوب  
 ترجمتها العربية دون تصرف كبير . ولكن حينما نهضت الترجمة في آخره  
 على عهد المأمون بما أغدق من ذهب على المترجمين ، وجد فيهم الخذاق  
 الذين أعادوا ما ترجم من قبل بعبارة صحيحة ترافق صحتها الجودة في  
 معظم الاحيان . وعلى هذا كانت العبارة في العصر الثاني . أما في الثالث  
 حيث هضم المسلمون هذه العلوم وعمدوا إلى التأليف فيها بعد أن  
 اختمرت معانيها في نفوسهم . فقد اقتربت لغة التأليف في العلوم المترجمة ،  
 من لغته في العلوم الاسلامية الشرعية ، بل في بعض اللسانية لأن  
 التأليف حينذاك كان وضعا لا ترجمة ، ولهذا ظهر فيه تصحيح كثير من  
 الاغلاط ، غير أن النهوض لم يستمر طويلا في العصر الأخير الذي  
 تسرب فيه من الفساد مثل ما تسرب إلى العلوم الاسلامية ، ولكنه  
 كان في تعقيد المعاني شراً منه في تكلف اللفاظ .

هذا ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى ما امتحدثته تدوين العلوم بنوعها  
 وخاصة الكونية في اللغة من تأثير في اللفاظ . فقد خرج كثير منها  
 عن معانيه الأصلية إلى معان اصطلاحية جديدة تراها منبثة في جميع  
 العلوم ، وهأنذا تعرف طوائف منها في العلوم الاسلامية شرعية  
 ولسانية ، وهالك بعضها في الكونية وخاصة الطب والفلسفة .

فن الطبية ، الكحالة والعيدلة ، والتشريح والجراحة والتوليد ، في  
 فنون الطب ، والرطوبات والامزجة والاخلاط كالحر والبارد والجاف

واليابس والسوداء والصفراء في مصطلحات هذه الفنون : والسخن والمبرد والمرطب والمخفف والمسهل والمخدر ومائز مشتقاتها في الأدوية ، والقسخ والرض والخاع والفتق والجبر في الجراحة ، والصداع والصرع والسرطان وغيرها كثير في الامراض ، ومثلها ما جاء في وصفها كالمزمنة والحادة والغيب والربع وغيرها في أوصاف الحمى مثلا .

ومن الملاحظة القدم والحدوث والحركة والسكون وغيرها في الكلام ، والمريد والسالك والأنس والمشاهدة في التصوف . وقد نقلت ألفاظاً أعجمية كثيرة بالتعريب أو على حالها في أسماء العقاقير والامراض والأدوات والفلسفة . كلبقيدونس والمصطكى من العقاقير اليونانية ، والبابونج والزرنيخ من الفارسية ، وكالقولنج والملنخوليا من الامراض اليونانية ، والرسام والمارستان من الفارسية ، وكالاصطراب والانيق من الادوات اليونانية ، والبركار والاسطوانة من الفارسية . وكالهيولى والطلسم في الفلسفة . إلى غير ذلك مما زخر تياره حتى ألفت فيه كتب : كالعرب من الكلام الأعجمي لأبي منصور الجواليقي المتوفى سنة ٥٣٩ .

وقد جاوز التأثر بالعجمة الألفاظ إلى الأساليب لتأثر المترجمين بلغاتهم الاصاوية . فكثرت استخدام فعل الكون ، وأدخلت أل المعرفة على لا النافية ، وزيدت الألف والنون قبل ياء المتكلم ، كما زيد ضمير الغائب بين المبتدأ وخبره ، وصيغت كلمات من الاسم أو الضمير أو منهما معا كالكمية والهوية والماهية . وكثرت استعمال الجمل المعترضة والفعل المبني للجهول والألقاب وهكذا

م - ٢٠ أدب

## مجالس العلم والمناظرة وإنشاء المدارس

قد عرفت ما كان من عناية خلفاء المسلمين منذ الصدر الاول إلى آخر العصر الأموي بالأدب والشعر، وما كان على عهدهم من علم، فيما ذكرناه وسقنا الشواهد عليه بكتابنا الثاني، كما عرفت أن دوره فيهما كانت المساجد، ولتعرف الآن أنها بقيت في العصر العباسي كما كانت في سابقه، ولكن ضم فيه إلى الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى والمسجد الأموي، وجامعي البصرة والكوفة والمسجد العتيق بالفسطاط وسواها، ومساجد بغداد ومسجد أحمد بن طولون والازهر وجامع الحاكم وغيرها.

ولكن لما زخر الأدب وفاض العلم منذ العصر العباسي الاول وولع خلفاؤه بهما ولعاشديدا، أكثروا استقدام العلماء إلى مجالسهم وحاكمهم في ذلك الامراء والوزراء، فصارت تعقد تلك المجالس للمناظرات في العلوم اللسانية والشرعية وتغدق العطايا على المتناظرين، وكان هذا أكبر حث للأدباء والعلماء على أن يهيئوا أنفسهم لتغذية هذه المجالس طمعا في المال. قال أسامة بن معقل « كان السفاح راغبا في الخطب والرسائل يصطنع أهلهم وينتبههم عايبا فحفظت ألف رسالة وألف خطبة طلبا للحظوة عنده فنلتها، وكان المنصور بعده معنيا بالاسمار والاخبار وأيام العرب، يدني أهلها ويحيزهم عليها، فلم يبق شيء منها الا حفظته، طلبا للقرب منه، وكان الهادي مغرما بالشعر يستخلص أهله فأتزكت بيتنا نادرا ولا شعرا فاخرا ولا نسيبا سائرا إلا حفظته، ولم أر شيئا أدعى إلى تعلم الآداب غير رغبة الملوك في أهلها وصلاتهم عليها » ولو نحن نقول بلغت حياة أسامة

الرشيده لتحدث عنه أضعاف ماتحدث عن هؤلاء .

ولما فاضت العلوم الكونية على عهد المأمون امتلأت مجالسه  
ومجالس غيره بالمناظرات وبخاصة الفلسفة؛ ولكن لم تكن المناظرة في  
هذه العلوم الفلسفية على هدوء نظيرتها الادبية ، فقد احتدم فيها النقاش  
واستد الخلاف كما احتدم فيما يتصل بالفلسفة من علوم الدين كال كلام  
وبعض مسائل الفقه . وقد أشعل جذوة هذا الاحتدام إطلاق المأمون  
لحرية البحث وانغمسه في أعقد مسائله كخلق القرآن إلى الهامة ، وتشده  
في ذلك تشددا أوقع الناس في الفتن والحزن طوال عهده وعهد المعتصم  
والوائق من بعده ، ولم ينجم منها إلا المتوكل الذي قضى على ما كان  
يخالطها من أذى يستبيح الدماء . على أنه قد بقيت في العصر الثاني  
الذي بدأه المتوكل بهذا التسكين ، خلافاً كانت تثار حيناً وتهدأ حيناً  
بين الحنابلة المتشددين وأبناء المذاهب الأخرى المعتدلين ، فكانت  
المناظرات الدينية حية إزاء الادبية فيه . ثم جاء العصر الثالث فخاق  
خلفاً صاحبه من المناظرات الدينية بين الشيعة وغيرهم شيء كثير كاد  
يقضى على الادبية لولا شغف رجال الدويلات بالأدب . وقد أدالت  
الايام في العصر الرابع للسنة من الشيعة بما كان من قيام السلاجقة  
والايوبيين؛ فخي للسنة فيه مثل ما كان للشيعة في سابقه ، ولكن مع  
خمول المناظرات في الادب وسائر العلوم .

وإليك مناظرتين قصيرتين من النوعين الأدبي والعلمي ، أما النوعان  
المذهبي والفلسفي فبناظراتهما طويلة يمكن الرجوع في منلهما فيهما إلى  
ماكان من المأمون في علويته وفي قوله بخلق القرآن .

١- حضر عند الرشيد الأصمعي والك... أنى فسأل الرشيد عن بيت الراعي:  
 قتلوا ابن عفان الخليفة محرما ودعا فلم أر مثله مخذولا  
 فقال الكسائي كان قد أحرم بالحج فضحك الأصمعي وتهانف ، فقال  
 الرشيد ما عندك؟ فقال والله ما أحرم بالحج ولا أراد أيضا أنه دخل في  
 شهر حرام كما يقال أشهر وأعام إذا دخل في شهر أو عام، فقال الكسائي  
 ماهو إلا هذا وإلا فما المعنى للاحرام ، قال الاصمعي نخبرني عن قول  
 عدى بن زيد :

قتلوا كسرى بليل محرما فتولى لم يتمتع بكفن  
 أى إحرام لكسرى فقال الرشيد فما المعنى؟ قال يريد أن عثمان لم يأت شيئا  
 محرما يوجب تحاميل دمه، فقال الرشيد أنت يا أصمعي ما نطاق في الشعر .  
 ٢- جاء عيسى بن عمر الثقفي مجلس أبي عمرو بن العلاء فقال  
 ما شئ بلغني عنك أنك تجيزه قال وماهو؟ قال بلغني أنك تجيز « ليس  
 الطيب إلا المسك » بالرفع فقال له أبو عمرو هيهات نمت وأدج الناس  
 ثم قال ليحيى بن المبارك وخلف الاحمر امضيا إلى أبي مبدية فلقنناه الرفع  
 فإنه يأبى وامضيا إلى المنتجع بن نيهان فلقنناه النصب فإنه يأبى ، فمضيا إلى  
 أبي مبدية فقال ما خطبك قال جئناك لنسألك عن شئ من كلام العرب  
 قال هاتياه، فقالا كيف تقول « ليس الطيب إلا المسك » فقال أنا أمراني  
 بالكذب على كبر منى فأين الزعفران وأين الجاوى قال خلف « ليس الشراب  
 إلا العسل » قال فما تفعل سودان هجر ما لهم غير التمر؟ قال يحيى « ليس  
 ملاك الامر إلا طاعة الله » فقال هذا كلام لا دخل فيه ليس ملاك الامر  
 إلا طاعة الله، والعمل بها ونصب فلقنناه الرفع فأبى . ثم جاء إلى المنتجع

فقال له كيف تقول « ليس الطيب إلا المسك » ونصبا فقال ليس الطيب إلا المسك ورفع، فجهدا به أن ينصب فلم ينصب فرجعا إلى أبي عمرو وعنده عيسى فأخبرهما بما سمعا، فأخرج عيسى خاتمه من يده فدفعه إلى أبي عمرو وقال بهذا سدت الناس يا أبا عمرو .

إنشاء المدارس - انقضى العصر الاول ثم مضى الثاني والثالث كذلك ومتلقى العلم المساجد والمجتمعات العامة في مثل المربد، ثم المجالس الخاصة في دور الخلفاء والعظماء، وفيها جميعا كانت تدور المناظرات دون أن يكون للعلماء أو الطلاب دور خاصة أو أرزاق مفروضة، إنما كانت نفقة الطلاب على أهلهم ونفقة العلماء مما يحترفونه مع العلم، أو يمنحونه من صلة نظير تأليف كتاب أو استفتاء في موضوع، مع غلبة التقشف في المعيشة والزهد في الدنيا على الجميع . ولكن ذلك لم يلبث أن أحدث في الدروس اضطرابا وفي النفوس قلقا لكثرة من أصبحوا في حاجة إلى التعلم وقلة من بقوا يزاولون التعليم، فما كاد يحل العصر الرابع حتى هال هذا الامر نظام الملك وزير السلطان ألب أرسلان السلجوقي ووزير ابنه ملكشاه وكان فيه ميل إلى العلم وأرخت له الايام في الوزاره نحو ثلث قرن فشرع سنة ٤٥٧ في تأسيس المدرسة النظامية نسبة إليه ببغداد فأنشأها بعد سنتين وافتتحها في حفل حافل بجميع الطبقات وولى أبا إسحق الشيرازي رئاسة التدريس بها، وفرض لاساتذتها وطلابها المرتبات فكانت أول مدرسة بالمعنى المعروف الآن في الاسلام <sup>(١)</sup> ثم بنى أخرى باسمها

<sup>(١)</sup> أنكر الحافظ الذهبي في كتابه تاريخ الاسلام هذه الاولوية لنظام الملك وذكر بعض مدارس في نيسابور، منها البيهقية نسبة إلى البيهقي المتوفى سنة ٤٥٠ ، والعميدية التي أسسها فيها الأمير نصر أخى محمود الغزنوي واليه بها ،

في نيسابور وعهد بها إلى إمام الحرمين ، فكان عمله هذا سنة حسنة اتبعه فيها ذوو الامر بجميع الاقاليم ، فأنشأ السلطان نور الدين صاحب دمشق المتوفى سنة ٥٧٧ مدارس في معظم بلاد الشام ، والسلطان صلاح الدين المتوفى سنة ٥٨٩ مثلها في القدس والاسكندرية والقاهرة . وبما كان يحب في هذا الانشاء ، رغبة الخلفاء والولاة اكتساب قلوب العامة بتقريب العلماء وتعليم الفقراء ، ثم رغبة كثير من ذوى اليسار ببلاط السلاطين في وقف أموالهم على سبيل الخير وأهمها التعليم مع الابقاء على شيء من غلتها لأسرهم ليكسبوا بذلك الثواب على ما فعلوا من الله ، ويضمنوا لبنيتهم بقاء هذا الشيء بعيدا عما كان يحدث كثيرا من الاغتصاب ، ثم التحزب لنصرة مذهب على آخر كما فعل صلاح الدين المذكور بأنشائه حين أبطل المذهب الشيعي من الازهر ، مدرسة لكل مذهب من المذاهب الثلاثة الشافعي والمالكي والحنفي . وقد استمر عدد المدارس يتزايد كلما تعددت أسباب الانشاء حتى غصت بها المدن الكبرى قبل انتهاء القرن السادس - ذكر ابن جبير في رحلته أنه شاهد عشرين مدرسة في دمشق وثلاثين في بغداد - فكانت هذه الكثرة ماطقة للأحداث الخطيرة التي نزلت بالمسلمين منذ أواخر العصر العباسي وتعدته إلى ما بعده من العصور .

---

على أن تاج الدين السبكي قد وفق بين الأمرين بقوله في طبقاته « قد أدت فكرى وغلب على ظنى أن نظام الملك أول من رتب فيها - أى في المدارس - المعاليم للطلبة ، فإنه لم يصح لى أكان للمدارس قبله معاليم أم لا ، والظاهر أنه لا يكن لهم - أى للطلبة - معلوم »



## الشعر

### أولاً - نماذج

- ١ - قال بشار المتوفى سنة ١٦٧ ينسب وهو من مخضرمى الدولتين<sup>(١)</sup>
- ياليلة نزداد نسكرا من حب من أحببت بكرا  
 حوراء إن نظرت إليك سقتك بالعينين خمر  
 تفسى التقى معاده وتكون للحكام ذكرا  
 وكان رجع حديثها قطع الرياض كسين زهرا  
 وكان تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا  
 وتخال ما جمعت عليه ثيابها ذهباً وعطرا<sup>(٢)</sup>  
 وكأنها برد الشرا ب صفاووافق منك فطرا  
 جنية إنسية أو بين ذاك أجل أمرا  
 وكفأك أنى لم أحط بشكاة من أحببت ذهرا  
 إلا مقالة زائر نثرت لى الأحزان نثرا  
 متخشعا تحت الهوى عشر او تحت الموت عشرا<sup>(٣)</sup>

(١) هو بشار بن برد الفارمى أصلاً ، العقيلي ولاء ، الضرير الشاعر المتصرف  
 فى فنون الشعر الذى أجمع الرواة على تقدمه طبقات المحدثين المجيدين . وهو  
 من مخضرمى الدولتين ، وقد عمر نيفا وتسعين سنة (٢) نقاء لون وطيب رائحة  
 (٣) لبس هذا العدد مراداً لذاته إنما يريد أن يسوى بين ألمه لهواها وألمه لخوف  
 موتها من شكاتها .

٢ - وقال العباس بن الأحنف المتوفى سنة ١٩٢ ينسب أيضا<sup>(١)</sup>

أزين نساء العالمين أجيبني	دعاء مشوق بالعراق غريب
كتبت كتابي ما أقيم حروفه	لشدة إغوالى وطول نحبي
أخط وأحوما خططت بعبرة	تسح على القرطاس مسح غروب
أيا فوز لو أبصرتنى ماعرفتني	لطول نحولى بعدكم وشحوبى
وأنت من الدنيا نصيبى فان أمت	فليتك من حور الجنان نصيبى
وإني لا أستمدى الرياح سلامكم	إذا أقبلت من نحوكم بهبوب
وأسألها حمل السلام اليكم	فان هى يوما بلغت فأجيبى
أرى البين يشكوه المحبون كلمهم	فيارب قرب دار كل حبيب
أقول ودارى بالعراق ودارها	حجازية فى حرة ومهوب <sup>(٢)</sup>
وكل قريب الدار لا بد مرة	سيصبح يوما وهو غير قريب
سقى منزلا بين العقيق وواقم	إلى كل أطم بالحجاز ولوب <sup>(٣)</sup>
أجش مديم الرعد دان ربابه	بجود نهيمى شمال وجنوب
أزوار بيت الله مروا ييثرب	لحاجة متبول الفؤاد كئيب
وقولوا لهم يا أهل يثرب أسعدوا	على جانب للحادثات جايب
فانا تركنا بالعراق أخا هوى	تنشب رهنا فى حبال شعوب

(١) هو الفضل أبو العباس بن الأحنف الحنفى الشاعر الرقيق الحاشية

اللطيف الطباع الغزل الخاص للغزل . لجميع ديوانه فيه وكله جيد .

(٢) الحرة الارض الصابة السوداء الحجارة ، والسهبوب جمع سهب بالضم

وهو الارض المستوية السهلة (٣) العقيق وواقم موضعان بالمدينة ، والاطم القصر

أو الحصن أو كل بيت من حجارة ، والوب جمع لوبة كالألاب جمع لابة وهى الحرة

به سقم أعيا المداوين علمه      سوى ظنهم من مخطيء وصيب  
إذا ما عصرنا الماء في فيه مجه      وإن نحن نادينا فغير عجيب  
خذوا لي منها جرعة في زجاجة      ألا إنهم لو تعلمون طيبي  
وسيروا فإن أدركتم بي حشاشة

لها في نواحي الصدر وجس ديب<sup>(١)</sup>

فرشوا على وجهي أفق من بليتي      يثيبكم ذو العرش خير مثيب  
فإن قال أهلي ما الذي جئتم به      وقد يحسن التعليل كل أريب  
فقولوا لهم جئنا من ماء زمزم      لنشفيه من دأبه بذنوب  
وإن أنتم جئتم وقد حيل بينكم      ويبنى يوم المنون عصيب  
وصرت من الدنيا إلى قعر حفرة      حايض صفيح مطبق وكثيب  
فرشوا على قبري من الماء وانذبوا      قتيل كعاب لا قتيل حروب

٣ - وقال أبو نواس المتوفى سنة ١٩٨ يصف سلاف الشهد ونحوه<sup>(٢)</sup>

لا يصرفنك عن قصف وإصابة      بمجوع رأى ولا تشمتيت أهواء  
واشرب سلافا كعين الديك مذهبة      من كف ساقية كالريم حوراء  
لها ذبول من العقبان تتبعها      في الشرق والغرب في نور وظلماء  
ليست إلى النخل والاعناب نسبتها      لكن إلى العسل الماذي<sup>(٣)</sup> والماء  
نشاج نحن خالاي غير مقفرة      خصت بأطيب مصطاف ومشتهاء

(١) صوت خفي لنفس يدب

(٢) هو أبو علي الحسن بن هانيء الفارسي أصلاً الحكيم ولأهـ، أرق الشعراء  
حاشية، وأجودهم بديهة، وأفتحهم لأبواب الحديث من المعاني الرقيقة، وثنائي  
الشعراء المحدثين بعد بشار عند الجاحظ (٣) الأبيض

ترعى أزاهير غيطان وأودية  
فطس الأنوف مقاريف مشمرة  
من مقرب عشراء ذات زمزمة  
تغدو وترجع ليلا عن مسارها  
كل بمقله يمضى حـكمـومته  
حتى إذا اصطاك من بنيانها قرص  
وآن من شهدها وقت الشيار<sup>(٢)</sup> فلم  
وصفقهوها بماء النيل إذ برزت  
حتى إذا نزع الرواد رغوها  
استودعوها رواقيدا<sup>(٤)</sup> مزفنة  
وكم أفواهما زهر على ورق  
وعمرت حقبيا في الدن لم يرها  
حتى إذا سكنت في دنها وهدت<sup>(٦)</sup>  
جاءت كشمس ضحى في يوم أسعدتها  
كانها ولسان الماء يقرعها  
لهما من المزج في كاساتها حلق  
كان مازجها بالماء طوقها  
فاشرب هديت وغن القوم مبتدئا  
وتشرب الصفو من غروا أحساء  
خوص العيون بريئات من الداء  
وطائد متبع منها وعسنداء  
إلى ملوك ذوي غز وأحياء  
في حزبه بجميل القول والراء<sup>(١)</sup>  
أروينها عسلا من بعد اصداء  
تلبث بأن شيرت في يوم أضواء  
في قدر قس كجوف الجب وروحاء<sup>(٣)</sup>  
وأقصت النار عنها كل ضراء  
من أغبر قاتم منها وغبراء  
من حر طينة أرض غير ميثاء<sup>(٥)</sup>  
حي من الناس في صبيح وامساء  
من بعد زمزمة منها وضوضاء  
من برج لهو إلى آفاق سراء  
نار تأجج في آجام قصباء  
ترنو إلى شربها من بعد إغضاء  
منزوع جلدة ثعبان وأفعاء<sup>(٧)</sup>  
على مساعدة العيدان والناء<sup>(٨)</sup>

(١) مقلوب رأى (٢) جنى العسل (٣) واسعة (٤) جمع راقود أو راقودة،  
الدن والحبابية (٥) غير سهلة مفككة (٦) من هدأت سهل وحذف (٧) ممدود أفعى  
(٨) مهموز ناي .

٤ - وقال مسلم المتوفى سنة ٣٠٨ يمدح يزيد الشيباني في قتله الوليد  
ابن طريف<sup>(١)</sup>

لولا يزيد وأيام لنا سلفت	عاش الوليد مع الغارين أعواما
كالدهر لا ينتنى عما بهم به	قد أوسغ الناس إنعاما وإرغاما
ترى العفاة عكوفاً ولحجرته	يرجون أدوع رحب الباع بساما
منية في يدي هارون يبعثها	على أعاديه إن سأمى وإن حامى
خير البرية آباء إذا ذكروا	وأكرم الناس أخوالاً وأهلاما
تظلم المال والأعداء من يده	لا زال للمال والأعداء ظلاما
لا يستطيع يزيد من طميعته	عن المنية والمعروف إحجاما
أذكرت سيف رسول الله سنته	وبأس أول من صلى ومن صاما

إن يشكر الناس ما أوليت من حسن

فقد وسعت بنى حواء إنعاما	فقد وسعت بنى حواء إنعاما
إذا الخلافة عدت كنت أنت لها	عزا وكان بنو العباس حكاما
يصيب منك مع الآمال صاحبها	حاموا وعلموا ومعروفا وإسلاما
كم بلدة بك حل الركب جانبها	وما يلم بها الركبان الماما
إذا علوا مهمها كان النجاء لهم	إنشاد مدحك إفصاحا وترناما

(١) هو صريع الغواني مسلم بن الوليد الأنصارى الشاعر المشهور، البالغ المدح، الجيد القول في الشراب، كأبي نواس وهو على ما قيل أول من أكثر البديع، واخترع له هذا الاسم فاتبه في ذلك الشعراء وبخاصة أبو تمام، وقد مات وهو على يزيد جرجان للأموين، وجل مدائحهم في البرامكة والمهالبة ويزيد ابن يزيد الشيباني.

لو كان يفقه رجع القول طائرهما غني بمدحك فيها بومها الهاما  
لو لم تكونوا بنى شيدبان من بشر كنتم رواسى أطواد وأعلاما  
٥ - وقال أبو العتاهية المتوفى سنة ٢١١ فى الحكمة<sup>(١)</sup>

الحرص داء قد أضر م بمن ترى إلا قايلا  
كم من عزيز قد رأيت الحرص صبحه ذليلا  
فتجنب الشهوات واحذر أن تكون لهاقتيلا  
فلرب شهوة ساعة قد أورثت حزنا طويلا  
من لم يكن لك منصفنا فى الود فابغ به بديلا  
وعليك نفسك فارها واكسب لها فعلا بخيلا  
ولقما تلقى اللثيم عليك إلا مستطيلا  
والمرء إن عرف الجميل وجدته يبغي الجميلا  
اضرب بطرفك حيث شئت فان ترى إلا بخيلا

٦ - وقال أبو تمام المتوفى سنة ٢٣١ يرثى محمد بن حميد الطوسي<sup>(٢)</sup>  
كذا فليجل الخطب وليفدح الامر فليس لعين لم يفرض مأوها عذر  
توفيت الآمال بعد محمد وأصبح فى شغل عن السفر السفر  
وما كان إلا مال من قل ماله وذخرا لمن أمسى وليس له ذخ  
وما كان يدري مجتدى جود كفه إذا ما استهلته أنه خالق العسر

(١) هو ابو اسحاق اسماعيل بن القاسم الفارسي أصلا، العنزي ولاء شاعر  
سهل الالفاظ حكيم المعاني، أ كبر الشعراء زهدا وحكمة .

(٢) هو حبيب بن أوس الطائي واحد عصره فى دياجة اللفظ وصناعة الشعر  
وكثرة الحفظ وإجادة الرثاء وقد لاقى شعره شبه مالا لاقى شعر المتنبي من عنايه

ألا في سبيل الله من عطلت له فجاج سبيل الله وانثغر الثغر  
فتى كلما فاضت عيون قبيلة

دما ضحككت عنه الاما ديت والذكر  
فتى دهره شطران فيما ينويه ففى بأسه شطر وفى جوده شطر  
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة تقوم مقام النصر إن فاته النصر  
وما مات حتى مات مضرب سيفه

من الضرب واعتلت عليه القنا السمر  
وقد كان فوت الموت سهلا فرده  
الى الحفاظ المر والخلق والوعر  
ونفس تعاف العار حتى كأنما  
هو الكفر يوم الروح أودونه الكفر  
فأثبت فى مستنقع الموت رجلاه  
وقال لها من تحت أخمصك الحشر<sup>(١)</sup>  
فدا غدوة والحمد نسج ردائه  
فلم ينصرف إلا وأ كفاته الأجر  
ترى ثياب الموت حمرا فما دجا  
لها الليل إلا وهى من سندس خضر  
كأن نبي نهان<sup>(٢)</sup> يوم وفاته  
نجوم سماء خر من بينها البدر  
يعزون عن ثاو تعزى به العلا  
ويبكى عليه البأس والجود والشعر  
وأنى لهم صبر عليه وقد مضى  
الى الموت حتى استشهد اهو والصبر  
فتى كان عذب الروح لا من غضاضة  
ولكن كبرا أن يقال به كبر  
فتى سلبته الخيل وهو حمى لها  
وبزته نار الحرب وهو لها جبر  
وقد كانت البيض المآثير فى الوغى  
بواتر فى الآن من بعده بتر  
أمن بعد طى الحادثات محمدا  
يكون لا ثواب الندى أبدا نشر  
إذا شجرات العرف جذت أصولها  
ففى أى فرع يوجد الورق النضر

(١) الأخص كصبر مالم يعيب الأرض من باطن القدم (٢) عشيرته من طيء

لئن أبغض الدهر الخئون لفقده      لعهدي به ممن يحب له الدهر  
لئن غدرت في الروح أيامه به      فما زالت الأيام شيمتها الغدر  
لئن ألبست فيه المصيبة طيء      فاعريت منها تحميم ولا بكر  
كذلك ما تنفك نفقد هالكا      يشاركنا في فقده البدو والحضر  
سقى الغيث غيثا وارت الأرض شخصه

وإن لم يكن فيه سحب ولا قطر      وكيف احتمالى للغيوث صنيعة  
باسقائها قبرا وفي لحده البحر      مضى طاهر الأثواب لم تبق روضه  
غداة ثوى إلا اشتهت أنها قبر      ثوى في الثرى من كان يحيا به الثرى  
ويغمر صرف الدهر نائله الغمر      عليك سلام الله وقفا فاني  
رأيت الكريم الحر ليس له عمر      ٧ - وقال ابن الزيات المتوفى سنة ٢٣٣ آخر شعراء العصر الاول وكتابه  
يرثي أم ابنه عمر وقد تركته ابن ثمان<sup>(١)</sup>

ألا من رأى الطفل المفارق أمه      بعيد الكرى عيناها تنسكبان  
رأى كل أم وابنها غير أمه      يبيتان تحت الليل ينتجيان  
وبات وحيدا في الفراش تجنه      بلابل قلب دائم الخفقان  
فلا تلحيانى أن بكيت فأثما      أداوى بهذا الدمع ماتريان  
فهذى عزمت الصبر عنها لأنى      جليد فن الصبر لابن ثمان  
ضعيف القوى لا يطلب الأجر حسبة

ولا يأتسى بالناس في الحدثنان

(١) هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان الزيات الكاتب البليغ والشاعر



فلم أر كلاً قد ار كيف نصبتني ولا مثل هذا الدهر كيف رماني  
أعيني إن لم تسعدا اليوم عبرتي فبئس إذن ما في غده تعداني  
٨ — وقال البحترى المتوفى سنة ٢٨٤ يمدح الخليفة جعفراً المتوكل  
ويصف خروجه في عيد فطر<sup>(١)</sup>

الله مسكن للخليفة جعفر	ما سكا يحسنه الخليفة جعفر
نعمى من الله اصطفاه بفضالها	والله يرزق من يشاء ويقدر
فالم أمير المؤمنين ولا تزل	تعطى الزيادة فى البقاء وتشكر
عمت فواضلك البرية فالتقى	فيها المقل على الغنى والمسكر
بالبرصمت وأنت أفضل صائم	وبسنة الله الرضية تفطر
فانعم بيوم الفطر عيننا إنه	يوم أغر من الزمان مشهر
أظهرت عز الملك فيه بحجفل	لجب يحاط الدين فيه وينصر
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت	عددا يسير بها العديداً لا كثر
والخيل تصهل والفوارس تدعى	والبيض تلمع والأسننة تزهى
والارض خاشعة تميد بثقلها	والجو معتكر الجوانب أغبر
والشمس مائعة <sup>(٢)</sup> توقد بالضجى	طورا ويطفئها العجاج الأكر

حتى طلعت بضوء وجهك فأنجلت  
تلك الدجى وأنجاب ذاك العثير

(١) هو أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائى شاعر مطبوع متصرف فى فنون الشعر وخاصة المدح إلا الهجاء وهو نقي الكلام ذو بدائع فى غير تكلف يمدحه أبو العلاء المعرى، الشاعر ويعد أباً تمام وأباً الطيب حكيمين .  
(٢) يقال تمتعت الشمس إذا بلغت غاية ضوئها قبل الزوال

واقفن فيك الناظرون فاصبع  
يجدون رؤيتك التي فازوا بها  
ذكروا بطلعتك النبي فهللوا  
حتى انتهيت إلى المصلى لا بسا  
ومشيت مشية خاشع متواضع  
فلو ان مشتاقا نكلف فوق ما  
أيدت من فصل الخطاب بحكمة  
ووقفت في برد النبي مذكرا  
ومواعظ شفت الصدور من الذي  
حتى لقد علم الجحول وأخلصت  
صلوا وراءك آخذين بعصمة  
الله أعطاك المحبة في الوري  
فلأنت أملا للعيون لديهم  
٩ - وقال ابن الرومي المتوفي سنة ٢٨٤ أو ٢٨٣ يهجو إبراهيم بن  
المدبر<sup>(٢)</sup>

يا بن المدبر غرني الرواد  
أدعو على الشعراء أخبت دعوة  
قل لي بآية حيلة أعملتها  
هتفوا بأنك «لاحفظت» جواد

(١) المفكر (٢) هو أبو الحسن علي بن العباس بن جريج الرومي ، شاعر  
فياض ذو نظم عجيب وتوليد غريب ، يقع على المعاني النادرة فيستخرجها ثم  
يوفيها ويحسن عرضها ، أجاد في كل فنون الشعر ولا سيما الوصف والهجاء

مأنت والمعروف أو مفتاحه  
 لكن إخال معاشر خيبتهم  
 أثنوا عليك ليستميدك غيرهم  
 أرويت بالأصدار عنك حوائمي<sup>(١)</sup>  
 وسأوت ذكراك التي من مثلها  
 خيبتني ثقة بلؤمك إنه  
 عن مثله نكص الهجاء مقهقرا  
 لا أن لؤمك جنة لـكـنه  
 فاهرب وأين بهارب من طالب  
 خذها إليك من اللابس ملبسا  
 ضنكا إذا زرت عليك زورده<sup>(٢)</sup>  
 ولئن شقيت بابس برد مثاها  
 شنعاء تضرب فيك نار شناعة  
 تحبوك بدأتها بذكر نابها  
 ولقلما يجدى على متبجح  
 ما ينفع الخطب المحرق في الصلي  
 ١٠ - وقال ابن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ يصف العقار وساقها ومجلسها  
 والصيد لشواها<sup>(٣)</sup>

(١) جمع حائمة وهي العاطشة (٢) تحرق (٣) جمع زر أخى العروة  
 (٤) أضواؤها (٥) هو الخليفة العباسي عبد الله بن المعتز بن المتوكل، العالم

وحلو الدلال مليح الغضب يشوب مواعيده بالكذب  
سقاني وقدمل سيف الصبا ح والليل من خوفه قد هرب  
عقارا إذا ما جلتها السقا ة ألبسها الماء تاج الحبيب  
فأصلح بيني وبين الزما ن وأبدلي بالهموم الطرب  
وما العيش إلا لمستهر نطل عواذله في شغب  
يهم إلى كل ما يشتهي وإن رده العذل لم ينجذب  
ويستخو بما قد حوت كفه ولا يتبع المن ما قد وهب  
فكم فضة فضها في سرو ريوم وكم ذهب قد ذهب  
ولا صيد إلا بوثابة<sup>(١)</sup> تطير على أربع كالعذب  
وإن أطاقت من قلاذاتها وطار الغبار وجد الطلب  
فزوبعة من بنات الريا ح تريك على الأرض شدا عجب  
تضم الطريد إلى نحرها كضم الحب لمن قد أحب  
لها مجلس في مكان الرديف كتركبة قد سبتها العرب  
فظلت لحوم ظباء الفلا ة على الحجر معجالة تنتهب  
وظافت سقاتهم يمزجو ن بماء الغدير بنات العنب  
وختوا الندامى بمشمولة إذا شارب عب فيها قطب  
فراحوا نشاوى بأيدي المدا م قد نشطوا من عقال التعب  
إلى مجلس أرضه نرجس وأوتار عيـدانه تصطنخب

الأديب والكاتب البليغ والشاعر المتصرف التقدير ذو التشبيهات الفائقة  
والنخيلات الرائعة في شتى الأوصاف بعبارات مطبوعة كأنها مصنوعة .  
(١) يريد كلبة سلوقية نسبة إلى سلوق بلدة باليمن مشهورة بهذا النوع .

وحيطانه خرط كافورة وأعلاه من ذهب يلتهب  
١١ - وقال المتنبي المتوفى سنة ٣٥٤ قاحة شعراء العصر الثالث يمدح  
سيف الدولة ويصف نصرته على الروم ويذكر مركزه من الخلافة  
سائفا المثل والحكمة في ثنايا ما يقول<sup>(١)</sup>

هنيئاً لأهل الثغر <sup>(٢)</sup> رأيك فيهم	وأنتك حزب الله صرت لهم حزبا
وأنتك رعت الدهر فيها وريبه	فإن شك فليحدث بساحتها خطبا
فيوماً بخيل تطرد الروم عنهم	ويوماً بجود يطرد الفقر والجدا
سراياك تترى والدمستق <sup>(٣)</sup> هارب	وأصحابه قنلى وأمواله نهى
أنى مرعشا <sup>(٤)</sup> يستقرب البعد مقبلا	وأدبر إذ أقبلت يستبعد القربا
كذا يترك الاعداء من يكره القنا	ويقفل من كانت غنيمته رعبا
وهل زد عنه باللقان <sup>(٥)</sup> وقوفه	صدور العوالى والمطهمة القبا
مضى بعد ما التفت الرماحان ساعة	كما يتلقى الهدب فى الرقدة الهدبا
ولكنه ولى وللطعن سورة	إذا ذكرتها نفسه لمس الجنبيا
أرى كذا - ينبغى الحياة بسعيه	حريصا عليها نمستها بها صبا
نخب الجبان النفس أوردته التقى	وحب الشجاع النفس أوردته الحربا
ويختلف الرزقان والفعل واحد	إلى أن يرى إحسان هذا لذا ذنيا

(١) هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفى البغدى شاعر أشهر من أن  
يعرف به ، نشأ بالكوفة ولكنه ملا بطوافه أرجاء المملكة العربية وبشعره  
العالم بأثره (٢) يعنى مدينة بالثغر حلب (٣) قائد الروم (٤) مدينة بالشام  
قرب أنطاكية (٥) بلد بالروم

- ٣٣٤ -

وما الفرق ما بين الأنام وبينه<sup>(١)</sup>

إذا حذر المحذور واستصعب الصعبا  
لأمر أعدته الخلافة للعبد وسمته دون العالم الصارم العضبا  
إذا الدولة استكفت به في ملة

كفها فكان السيف والكف والقلبا  
هباب سيوف الهند وهى حداد فكيك إذا كانت نزارية عربا  
ويرهب ناب الليث والليث وحده فكيك إذا كان الليث له صحبا  
ويخشى عباب البحر وهو مكانه فكيك بمن يغشى البلاد إذا عبا  
ومن تكن الأمد الضواري حدوده

يسكن ليله صباحا ومطعمه غصبا  
فيوركت من غيث كأنك جلودنا به تنبت الديباج والوشى والعصبا  
١٢ - وقال أبو فراس الحمداني المتوفى سنة ٣٥٢ يفتخر ويعتذر عن  
أسر الروم له<sup>(٢)</sup>

سيدكرنى قومي إذا جد جدم وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر

---

(١) الضمير لميف الدولة . (٢) هو الحارث بن أبى سعيد بن حمدان بن  
حمدون فارس مغوار وشاعر عظيم يجمع بين السهولة والجزالة والظرف والعزة،  
وهو ابن عم سيف الدولة وملك الشعر الثانى فى قول صاحب بن عباد  
« بدىء الشعر بملك وختم بملك » والاول امرؤ القيس ، ويغلب على شعره الحماسة  
والفخر وقد أمر بالروم أربع سنين قال فيها كثيرا من الشعر عرفت قصائده  
بالروميات .

ولو سد غيرى ماسدت اكتفوا به  
وما كان يغلو التبر لو نفق الصفر<sup>(١)</sup>  
وإني لجرار لكل كتيبة معودة ألا يخل بها النصر  
فأصدي إلى أن تروى البيض والقنا  
وأسغب حتى يشبع الذئب والنسر  
ولا أصبح الحى الخلوف بغارة أو الجيش ما لم تأته قبلى النذر  
ويارب دار لم تخفى منيعة طلعت عليها بالردى أنا والفجر  
وساحبة الأذيال تحوى لقيتها فلم يلقها جافى اللقاء ولا وعر  
وهبت لها ما حازه الجيش كله  
ورحت ولم يكشف لآياتها ستر  
ولا راح يطغىنى بأثوابه الغنى ولا بات يثنىنى عن الكرم الفقر  
أسرت وما صحبى بعزل لدى الوغى  
ولا فرسى مهر ولا ربه غمر  
ولكن إذا حم القضاء على امرى فليس له بر يقيه ولا بحر  
وقال أصبح الحى الفرار أو الردى فقلت لها أمران أحلاهما مر  
ولكننى أمضى لما لا يعينى  
وحسبك من أمرين خيرهما الأسر  
ولا خير فى دفع الردى بمذلة كما ردها يوما بسوائته عمرو  
يمنون أن خلوا ثيابى وإنما على ثياب من دماهم حمر  
ونحن أناس لا توسط عندنا لنا الصدر دون العالمين أو القبر  
تهون علينا فى المعالى نفوسنا ومن يخطب الحسنة لم يغلبها الدهر

(١) التبر الذهب، والصفر النحاس الأصفر

١١ - وقال السرى الرفاء المتوفى سنة ٣٦٢ برثى فتى من بني شيبان كان له صديقا فقتل وصلب<sup>(١)</sup>:

أبدر دجى غائلته إحدى الغوائل	فأصبح مفقودا وليس بأفل
أنته المنايا وهو أعزل حاسر	خفى غرار السيف بادی المقاتل
غلام إذا طابت طاق ثوبه	رأيت عايه شاهدا للحمائل
يمسح بالمسك الذكى مرجلا	يرف على المتنين مثل السلاسل
سواء عليه فى السوانج مرة	ثنى عطفه أم فى رقاق الغلائل
وعز على العلياء أن حيل بينه	وبين ظبا أسيفه والعوامل
وعرى من برديه كالسيف منتضى	فلم يعز من بردى عفاف ونائل
فأحبب به من راكب غير سائر	مقيم ولكن زيه زى راجل
يعنبر أنفاس الرياح بشلوه	فتعقب من أنفاس تلك الشمائل
هو القدر المحتوم، والسيف لم يكن	ليخضب الا من دماء الأفاضل
أحلك من أعلى الهواء محلة	نأت بك عن صنك الثرى والجنادل
وليس بعار ماعراك وإنما	حماك اتساع الصدر ضيق المنازل

١٤ - وقال الصابى المتوفى سنة ٣٨٤ وهو فى مسجن عضد الدولة يعزى نفسه عن حبسه ومصادرة ماله، بنفسه وهمته<sup>(٢)</sup>:

(١) هو أبو الحسن السرى الرفاء بن أحمد بن السرى الكندى، كان يرفو الثياب بالموصل ولكنه ولم بالشعر حتى أجاده ولم يكن يعرف سواء، ولذا كان مطبوعا عذب الالتقاط، وله افتنان فى التشبيهات والأوصاف.

(٢) هو أبو اسحاق الصابى ابرهيم بن هلال، الكاتب المترس على ديوان الانشاء للخلفاء وملوك بويه، والشاعر المطبوع المكثرا فى جميع القنون، وصاحب المنزلة العالية على صابئته فى النفوس



يعيرني بالحس من لو يحله  
 ورب طليق أطلق الذل رقه  
 وإني لقرن الدهر يوما تنوبني  
 ومن مد نحو النجم كما يناله  
 ولا بد للساعي إلى نيل غايه  
 وإني وان أودت بمالي نكبة  
 فما كنت كالقسطار<sup>(١)</sup> يثرى بكيسه  
 ولكن كليث الغاب إن رام ثروة  
 يبيت خيمصا طاويا ثم يغتدى  
 كذلك مثلي نفسه رأس ماله  
 ولعمال آفات يهنأ ربه  
 ومن يكن السلطان فيه خصيمه  
 وماضرنى أن غاض ماملكت يدي  
 إذا كان مالي من طريف وتالد  
 ولي بين أقالمي ولي ومنطقي  
 ١٥ - وقال ابن نباتة السعدي المتوفى سنة ٤٠٥ هـ يتحدث عن قصة ناسبا<sup>(٢)</sup>  
 كيف العزاء وأين بابه والحي قد خفت ركابه

(١) جمع سطوة (٢) شجاع (٣) ناقد الدراهم كالقسطر (٤) جمع مذوب وهو كل ما يذاب فيه

(٥) هو أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد بن أحمد بن نباتة السعدي -  
 القيمي الشاعر المجيد ذوالسبك الحسن والمعنى الجيد في التسمي والممدح والوصاف

بأعز منتقب يم م على محاسنه نقابه  
والبدر في قزع<sup>(١)</sup> يشف م كما تشف به ثبابه  
متأود حلو السما ثل من أساوره حقابه<sup>(٢)</sup>  
زعم الخبز أنه ضربت على ساع<sup>(٣)</sup> قبابه  
فطلبته كالآيم<sup>(٤)</sup> أو كالسيل في الليل انسيابه  
فاذا أحمر المقلتين يشين أنمله خضابه  
يهتز مثل السمري م تدافعت فيه كعابه  
وقف الولائد دونه كالقلب يستره حجابه  
أقبلت أسأله وأء—لم أن حرمانى جوابه  
ويلي على متلون ال أخلاق يعجبه شبابه  
لارسله ترى الي—نا بالسلام ولا كتابه

١٦- وقال الشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ وقد مر على قبر الصابي  
في الجنينة ببغداد من غير القصيدة الطويلة التي رثاها بها حين موته<sup>(٥)</sup>  
أعلم قبر بالجنينة أننا أقننا به نغنى الندى والمعاليا  
حططنا فحيننا مساعيه إنها عظام المساعي لالعظام البواليا

---

(١) سحاب خفيف (٢) وشاح خصره (٣) جبل بالمدينة (٤) الثعبان.  
(٥) هو أبو الحسن محمد بن الطاهر ويلقب بالموسوى نسبة إلى جده موسى  
الكاظم الراجع بنسبه إلى الحسين بن علي، نبغ في الشعر يافعا وأكثر منه مبدعا حتى  
أجمع الأدباء على أنه أشعر قريش لأنه أكثر مجيدا، وهم بين مجيد مقل أو  
مكثر غير مجيد. وكان ذا هيبة وجلال، تولى نقابة الطالبين في حياة أبيه وله  
ديوان شعر كثير الأبواب حافظها ثم هو عالم ذو مؤلفات.

وما لاح ذاك التراب حتى تحلبت  
 زلنا إليه عن ظهور جيانا  
 أقول لركب رائحين تعرجوا  
 ألموا عليه حاقرين فأننا  
 وقفنا فأرخصنا لدموع وربما  
 ألا أيها القبر الذي ضم لحده  
 هل ابن هلال منذ أودى كعهدنا  
 وتلك البنان المورقات من الندى  
 هو الخاضب الأفلام نال بها علا  
 مفيد ضراب باللسان لو انه  
 مرير القوى نال المعالي واثبا  
 خلا بعدك الوادى الذى كنت أنسه  
 ملأت بمحياك البلاد فضائلا

١٧ - وقال التهامى المتوفى سنة ٤١٦ ينسب ويذكر الطيف<sup>(١)</sup>

قالت أنساك نجدا حب مطرف  
 أخذت طرفى وسمعى يوم بينكم  
 وقد أخذت فؤادى قبل فاطمى  
 فان وجدت سوى التوحيد فيه هوى  
 يبيضاء تسحب ليلا حسنه أبدا  
 فى الطول منه وحسن الليل فى القصر

(١) هو أبو الحسن على بن محمد التهامى، كاتب معروف وشاعر محسن ذرب

اللسان مشهور، له ديوان يخلب عليه المبدح والرثاء والنسيب.

يحكى جنى الأفحوان الغض مبسمها  
للم يكن أقحوانا ثغر مبسمها  
أهتز عند تمنى وصلها طربا  
تجنى على وأجنى من مرأشفها  
أهدى لنا طيفها نجدا وساكنها  
فبات يجلو لنا من وجهها قرا  
وراعها حر أنفاسى فقلت لها  
فما نكرنا من الطيف الملم بنا  
فسرت أعر فى ذيل الدجى ولها  
وللمجرة فوق الأفق معترض  
والثريا ركود فوق أرحلنا  
وأدم الليل نحو الغرب منهزم  
فروع السرب لما ابتل أكرعه  
ولو قدرت وثوب الليل منخرق  
بالصبح رقعته منهن بالشعر  
١٨ - وقال مهبّار المتوفى سنة ٤٢٨ هـ مدح أبا القاسم الحسين بن على المغربي  
عند تقلّده الوزارة ويهنّئه بالنّيروز ، وقد جاء لذلك من بابل إلى بغداد  
سنة ٤١٤ هـ<sup>(١)</sup>

(١) هو أبو الحسن مهبّار بن مرزويه الديلمى أحد من أسلم من نبغاء  
المجوس ، وكان إسلامه على يد الشريف الرضى ، وعليه تخرّج فى الشعر فجاء على نحو  
منه فى جزالة القول وطول النفس ورقة الحاشية ، وقد فضل شعراء عصره ، وله ديوان  
ضخم بكثير من فنون الشعر وأخصها المدح فالنسيب فالعنفات

قد رفعت في بابل راية  
 يصيح داعي النصر من تحتها  
 جاء بها الله على فترة  
 لم تألف الأبصار من قبلها  
 فارتبعوا بعد مطال الحيا  
 وزارة قلبها شوقها  
 قت بمعناها وكم جالس  
 وهي التي إن لم تقدر رأسها  
 مزلفة راكب سيسانها<sup>(٢)</sup>  
 راحت على عطفك أثوابها  
 فتحت في مبهم تدبيرها  
 رد بنو يحيى ومهل لها  
 فاضرب عليها بيت ثاوبها  
 وامدد على الدنيا وجهها  
 واطلع على النيروز شمسها إذا  
 يوم من الفرس أتى وافدا  
 فاعرس ونوه منعها واصطنع  
 ولوفة الاعطاف لم تعتسف<sup>(٤)</sup>  
 لهجد من يلق بها يغلب  
 يا خيل محي الحسنات اركبي  
 بآية من يرها يعجب  
 أن تطلع الشمس من المغرب  
 وروضوا بعد الثرى المجذب  
 منك إلى حولها القلب  
 يكفيه منها سمة المنصب  
 بمحصنات الصبر لم تصحب<sup>(١)</sup>  
 راكب ظهر الاسد الأغلب  
 طاهرة المرفع والمسحب  
 تنفس البليغة في الغيب  
 والطاهر يوز بنو مصعب  
 قبلك لم يعتمد ولم يطنب<sup>(٣)</sup>  
 ظلال حلم لك لم يعزب  
 ساق الغروب الشمس لم تغرب  
 فقالت العرب له قرب  
 ترض مضاء الصارم المقضب  
 بالكلم المر ولم تغمب

(١) لم تملس وتذل (٢) ظهرها (٣) لم يحم صمودا ولم يمد طنبا

(٤) الولوفة اللامعة يريد القصيدة وهي مفعول لا مطنع.

## حاءك معناها وألفاظها

في الحسن بالأسهل والأصعب

أفصح ما قيل ولكنها فصاحة تهدي إلى يعرب

١٩ - وقال المعري المتوفى سنة ٤٤٩ خاتمة شعراء العصر الثالث  
يسجل رأيه في النساء<sup>(١)</sup>

ترنم في نهارك مستعينا	بذكر الله في المترنمات
ولا ترجع بإيماء سلازما	على يبيض أشرن مسلمات
أولات الظلم جئن بشر ظلم	وقد واجهننا متظلمات
فوارس فتنة أعلام غي	لقينك بالأساور معلمات
وسام <sup>(٢)</sup> ماقتنعن بحسن أصل	فجئتكم بالخضاب موسمات
رأين الورد في الوجنات خيما	فغادين البنان معنات <sup>(٣)</sup>
وشنفن المسامع قائلات	وكنن القلوب مسلمات <sup>(٤)</sup>
نخور الريق لسن بكل حال	على طلابهن محرمات
ولكن الاوانس باعثات	ركابك في مهالك مقمات
صحبك فاستفدت بهن ولدا	أصابك من أذاذك بالسماط
ومن رزق البنين فغير ناء	بذلك عن نوائب مسلمات
فمن ثكل بهاب ومن عقوق	وأرزاء يجئن مصمات

(١) هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد التنوخي المعري  
الشاعر الحكيم الفيلسوف خاتمة شعراء العصر الثالث ، الغنى كسلفه المتنبي فاتحة  
العصر المذكور عن التعريف . وقد خلف لنا من شعره سقط الزند والذروميات  
(٢) جمع وسيمة وهي الحسنة (٣) مخضوبات كالعلم (٥) جرحنها متحدثات

وإن تعط الأناث فأى بؤس  
يردن بعولة ويردن حليا  
يلدن أأاديا ويكن عارا  
ولا ترمق بعينك وأثحات  
فكم حلت عقود النظم وهنا  
ولا تحمد حسانتك إن توافت  
فعمل مغازل الذسوان أولى  
مهام إن عرفن كتاب لسن  
ويتركن الرشيد بغير لب  
وإن جئن المنجم سائلات  
ليأخذن التلاوة عن مجوز  
فأبعدهن من ربات فكر  
ولا يتأهلن شيخ مقل  
فإن الفقر عيب إن أضيفت  
وواحدة كفتك فلا تجاوز  
وإن أرغمت صاحبة بضر  
وصن في الشرخ نفسك عن غوان  
فقد يسرى الغوى إلى مخاز  
وما حفظ الخريدة مثل بعل

تبيين في وجوه مقسمات  
ويلقن الخطوب ملومات  
إذا أمسين في المتهمات<sup>(١)</sup>  
إلى حمامن مكلمات  
عقودا للرشاد منظمات  
بأيد للسطور مقوسات  
بهن من اليراع مقلعات  
رجعن بما يسوء مسمات  
أتين هديه متعلقات  
فلسن عن الضلال بمنجات<sup>(٢)</sup>  
من اللأى فغرن مهمات  
سواحر يفتدين معزومات  
بمعصرة من المتنعات  
إليه السن جاء بمعظمات  
إلى أخرى تجيء بمؤلمات  
فأجدر أن تروع بمعزومات<sup>(٣)</sup>  
يزرن مع الكواكب معلمات  
بجنح في سحائب مشجات  
تكون به من المتحرمات

يحور ذمارها<sup>(١)</sup> من كل خطب ويمنعها مصائب مقرمات<sup>(٢)</sup>  
 إذا الغاران غرتهما<sup>(٣)</sup> بحـل فدينك بالتورع والصمات<sup>(٤)</sup>  
 فهذا قول مختبر شفيق ونصح للحياة وللهمات  
 ٢٠ - وقال صردر المتوفى سنة ٤٦٥ يستهدى مدادا ويصف الدواء  
 والقلم والقراطيس<sup>(٥)</sup>

اليك أشكو مشيبا لاح بارقه في فرع دهماء تجرى بالأساطير  
 كانت مفارقها مسكا مضمخة فما لها بدلت منه بكافور  
 ومقلة عهدت كحلاء مرهها طول البكاء على بيض الطوامير  
 يا حباذهاى والأقلام واردة فيها وصادرة مسجم المناقير  
 كأنما كرمعت في ناظري رشأ أوفى سويداء قلب غير مسرور  
 تحوى القراطيس منهار وضة أنفا بها مفاخرة الظلماء للنور  
 فكيف لي بخضاب تسترد به من الشبيه لونا غير مهجور  
 لو أن صبغته فاز الشبـاب بها لما رمى الدهر فوديه بتغيير  
 وحاجة النفس إن قلت وإن كثرت إذا سمحت بها مثل الدنانير  
 ٢١ - وقال الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦ يمدح سعد الدولة بن مقلد أحد

(١) يستر حماها ويحفظه (٢) نهـمات (٣) الغاران القم والفرج وغرتهما اسدتهما  
 (٤) الصمات (٥) هو الرئيس أبو منصور علي بن الحسن من فارس كاتب شاعر،  
 لشعره طلاوة وبهجة في جودة سبك وحسن معنى، وكان أبو الحسن يلقب صربر  
 لشحه فلما نبغ هو في الكتابة والشعر لقب صردر . ويغلب على ديوانه المدح  
 والنميت والثناء .



أمراء الشام ويهينته بالبرء من مرض كان قد ناله ويعتذر من تأخره عنه فيه<sup>(١)</sup> : —

ذم الزمان فما وجدت صروفه	إلا ذلولا في القياد وريضا
صفحت نوائبه عن ابن مقلد	كرما فكيف ألومه فيما قضى
ولقد ألم به فأظهر فضله	والنار لا تشتب حتى تحتضى <sup>(٢)</sup>
راض الزمان فأصعبت أخلاقه	وأعاد صبغ شبابه لما نضا
من معشر بذلوا النفوس سماحة	وجموا بيوت المجد أن تتقوصا
صادت بهم ظلم الخطوب مضيئة	والجذب موشى البرود مروضا
لولا مخالطة الصوارم والقنا	منع السماح أكفهم أن تقبضا
قوم إذا استنجدتهم للممة	ملأت عليك جيادهم رحب الغضا
أسيافهم في راهط <sup>(٣)</sup> معروفة	منعت دعائم عزهم أن تدحضا
يامن إذا ما ذاد عن أحسابهم	يوم النضال أصاب لما أنبضا <sup>(٤)</sup>
خفض عليك فكم ظفرت بغاية	وكبا وراءك جاهد ما خفضا
يبنى وبينك ذمة مرعية	حاشا مرأر عهدا أن تنقضا
فأصنح إلى وللحديث شجونه	حتى أثبك ما أمض وأرمضا
ما أخرتني عن جنابك همة	وجدت من الاهواء عنك معوصا
لكنه قدر أناخ ركائي	قسرا وقيد همتي أن تنهضا

(١) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي من شعراء الشام، أجاد المديح والنسيب ولكن غلب عليه الاول، وله ديوان ليس بالكبير،  
 (٢) يلب جمرها بالمحضى وهو الكور أو يقلب بالحضاً وهو العود (٣) مرج معروف بالشام (٤) حرك الوتر للرمى .

وعلمت أنك كالنسيم مخلد أبدا وليس يصح حتى يمرضنا  
فاغفر لخل لو أبيع هواكم بحياته هجر الحياة وأعرضنا  
٢٢ - وقال ابن حيوس المتوفى سنة ٤٧٠ يصف دار تاج الملوك  
محمود بن نصر المرداسي وما فيها من تصاوير<sup>(١)</sup>

لك في العلاء محجة<sup>(٢)</sup> لا يهتدى فيها الملوك وجججة لا تدفع  
وخصصت في زمن الحياة بجنة حسن المصيف بها وطاب المربع  
دار بها اكتست البسيطة زينة وزينها منك الأمام الأروع  
ما زال مبصرها يعود بخاطر يشكو السكال ونظر لا يشبع  
وترى طيور الجو في جنباتها بعض محلقة وبعض وقع  
وسوابقا ليست تفارق أرضها وكأنها تحت الفوارس تمزع<sup>(٣)</sup>  
بالمصليتين صوارما لا تعتدى واللابسين يلامقا<sup>(٤)</sup> لا تنزع  
رهط نضوابيض السيوف وآخر قد جرح قوسا ليس فيها منزع  
وسهامه لا تستطيع فراقها وحباله أبدا لطير مصرع  
وزرافتان أقيمتا كلتاها ترنو إليك بمقلة لا تهجم  
وظعائن تخشى العيون وتتقى نظر المريب فدهرها تتبرقع  
أبدا يقاد بها ويبدى عيسها وخدا حثيثا للنواظر يخدع  
هل طاقها ما طأنته فلم تسر أو راقها هذا الجنب الممرع

(١) هو الأمير أبو القتيان محمد بن سلطان بن حيوس الملقب بصفي الدولة  
أحد شعراء الشام المحسنين وخولهم المبرزين وكان منقطعاً إلى آل مرداس  
الكلابيين أصحاب حلب وله ديوان كبير جله مدح وما جاء من غيره جد قليل  
أو تباع . ٢٢ » طريقة (٣) تعد ومسرعة (٤) دروعا

وابن اللوح قائم وسقامه الـ بادی طليعة ماتجن الأضلع  
يشكو إلى ليلي الغرام إشارة شكوى لعمر ك لم تعنها أدمع  
ومواضع فيها كعرضك وضج ثلجية الألوان بل هي أنصع  
ومن النضار بها سحائب حة لزمت أماكنها فما تنقشع  
سحب جوامد قد أظلمت عارضنا تحيا بصيبه البـ لاد وتمرع  
وبدت بأعلاها رياض حاكها حسن اقتراحك لالغيوث الهمع  
روض على الأفواه يعسر رعيه لـ كن للأبصار فيه مرتع  
فابجح<sup>(١)</sup> فانك أوحده الزمن الذي لم يفترق في أهله ماتجمع

٢٣ - وقال الطغرائي المتوفى سنة ٥١٤ يصف هاجرة وغديرا<sup>(٢)</sup>

وهاجرة سجراء<sup>(٣)</sup> تأكل ظلها ملوحة المعزاء<sup>(٤)</sup> رمضى الجنادب<sup>(٥)</sup>

ترى الشمس فيها وهي ترسل خيطها

لتمتاح<sup>(٦)</sup> ريا من نطاف المذائب<sup>(٧)</sup>

سفعنا<sup>(٨)</sup> بها وجه النهار فراعنا بنقبة مسود المقاديم شاحب<sup>(٩)</sup>

(١) افرح غير مبال (٢) هو مؤيد الدين أبو اسماعيل الحسين بن علي الطغرائي

نسبة إلى الطغرى وهي الطرة التي ترسم في أعلى الكتب بنعوت الملك لأنه كان يرسمها. وقد  
لقب بالاستاذ والمنشئ لجودة إنشائه، ووزر للسلطان مسعود السلجوقي بالموصل.

وكما كان نخر الكتاب كان نابغة في الشعر وله ديوان كبير تصرف فيه في كثير من  
الفنون وخاصة المديح والنسيب والحكمة والوصف، ولا مية المعروفة بلامية العجم  
ذات مقام عظيم (٣) حامية (٤) مسودة لحصا (٥) محروقتها (٦) لتستقي (٧) ن

صافيات الجداول (٨) حرقنا (٩) بلون وجه ليل مسود الأوائل متغير

م ٢٢ - أدب

فلما اعتسفنا<sup>(١)</sup> ظل أخضر فاسق على قم الآكام<sup>(٢)</sup> جون المناكب  
وردنا سحيرا بين يوم وليلة  
وقد علقت بالغرب أيدي الكواكب  
على حين عرت منكب الصبح جذبة

من الشرق واسترخى عنان الغياهب  
غديرا كهرة الغريبة تلتقي بصوحيه أنفاس الرياح الغرائب  
إذا ما نبال القطر تاحت له اتقى بموضونة حصداء من كل جانب  
بمنعرج من ريد عيطاء<sup>(٣)</sup> لم تزل وقائعها يوشفن ظلم السحائب  
تقبل أفلاذ الحيا وتكنها بطامية الأرجاء خضر النصائب  
بعيس كأطراف المداوي<sup>(٤)</sup> نواحل فرقنا بها الظلماء وحف الذوائب<sup>(٥)</sup>  
نشحن به<sup>(٦)</sup> عذبا نقاخا كأنما مشافرها يغمدن بيض القواضب  
دأين جسام الماء زرقا ومثلها سنا الفجر فارتابت عيون الركائب  
فكم قامح<sup>(٧)</sup> عن لجة الماء طامح

إلى الفجر ظن الفجر بعض المشارب  
إلى أن بدا قرن الغزالة مانعا كوجه نظام الملك بين المواقب  
٢٤ - وقال ابن الخياط المتوفى سنة ٥١٧ ينسب من بائيته التي سارت  
بذكرها الركبان<sup>(٨)</sup>

(١) اقتحمنا (٢) مرتفعات الهضاب (٣) من حرف هضبة (٤) الأمشاط  
(٥) غزيرتها (٦) شربنا منه (٧) رافع (٨) هو أبو عبد الله أحمد بن محمد التغلبي  
الدمشقي شاعر مجيد طاف البلاد واستقر بفارس بمدح العظماء وأغلب ديوانه  
مدح ورثاء ونسب .

خذا من صبا نجد أمانا لقلبه      فقد كاد رياها يطير بلبه  
 وإياكما ذاك النسيم فانه      إذا هب كان الوجد أيسر خطبه  
 خليلي لو أحببتما لعلمتما      محل الهوى من مغرم القلب صبه  
 تذكر فذوالذكرى يشوق وذو الهوى      بتوق ومن يعلق به الحب يصبه  
 غرام على يأس الهوى ورجائه      وشوق على بعد المزار وقربه  
 وفي الركب مطوى الضلوع على جوى      متى يدعه داعي الغرام يلبه  
 إذا خطر من جانب الرمل نفحة      تضمن منها داء دون صحبه  
 ومحتجب بين الأسنة معرض      وفي القلب من إعراضه مثل حجه  
 أثار إذا آنست في الحى أنه      حذارا وخوفا أن تكون لجه  
 فيا السقامى من هوى متجنب      بكى عاذلاه رحمة لمحبه  
 أهيى إلى ماء ببرقة عاقل<sup>(١)</sup>      ظمئت على طول الورود بشربه  
 وأستأف حر الرمل شوقا إلى اللوى      وقد أودعتنى السقم قضبان كثبه  
 ولست على وجدى بأول عاشق      أصابت سهام الحب حبة قلبه  
 ٢٤ - وقال الغزى المتوفى سنة ٥٢٤ يمدح شرف الدين أبا الحسن على  
 ابن الحسن البيهقي<sup>(٢)</sup>

أرى الخلق متفقا فى الهوى      ومختلفا فى المنى والممن  
 فراعى حقوق وراعى حقائق      وبانى معال وبانى مدن  
 وإنى لا أكره مدح الورى      ويشغلنى عنه هجو الزمن

(١) احدى برق نجد (٢) هو أبو إسحق ابراهيم بن يحيى الكلبى أقام  
 بخراسان يقول الكثير الممتع فكان يضرب المثل بمجودة شعره . وله ديوان ضخيم  
 غلب عليه المدح والوصف وفيه هجاء ونسيب .

ولكن دعني فليبتها  
غريب وإن كان في داره  
يقوم الرجاء بتعويلنا  
على العلا وظهير الندى  
كلامي سلافة أهل العراق  
ومن كل هزة ذى همّة  
بمسالك رميت التقاط النجوم  
وكنيت امرأاً رخص النفس في  
فخرج على أمل قبل أن  
فأنت المبرز في الحاليتين  
ومن جعل الشمس خريته  
٢٦ - وقال الأرجاني المتوفى سنة ٥٤٤ هـ يهجو أهل زمنه ويصف  
سوءهم<sup>(١)</sup>

ومعشر شرم دان وخيرهم  
أدى إليهم خلو الربع من أنس  
قل لاذى شخصه في القصر محتجب  
يشرى الثناء ولا يعطى به ثمناً  
لحاكم الله من أغصان عارية  
من الندى والجنى والظل والورق

(١) هو القاضي ناصح الدين أبو بكر أحمد بن محمد الأرجاني شاعر مكثار  
في رقة لفظ وجودة رصف وله ديوان على ضخامته يقال إنه لم يجمع عشر شعره،  
وهو متصرف في كثير من الفنون ولا سيما المدح والنسيب والوصف .

إذا مدحناهم لم يوقظوا كرما  
ونستسك إذا ازوروا مسامعهم  
مدائح لا تقاه الشر تحسبها  
أعناقكم ماؤها درى وليس لكم  
وما خلقنا حمامات فنطربكم  
والله لوذا محاماتي وإن لؤموا  
إذا لسارت بما يخزيهم كلم  
إذا شنت على عرض أو أبدها  
تهتز منهن أعطاف الورى طربا  
كالسيف يحمد غير القتييل به  
وإن تركناهم ناموا على حنق  
بكل منظومة كاللؤلؤ النسق  
رقيا العقارب تكسوا وجه الورق  
وأحمد الله أدنى المن فى عنق  
سجعا ونملك أطواقا من الحلق  
على الكريمين من نفسى ومن خلقى  
أربها من حواشى مقول نطق  
أجلين عن قدد منه وعن مزق  
إلا الذين أباتتهم على قلق  
يوم الجلال إذا ما احمر من علق

١٧ - وقال الالبوردى المتوفى سنة ٥٥٧ يفتخر بقومه وأوليته (١)

أنا ابن الأكرمين أبا وأما  
أشد هم إذا اجتلدوا قتالا  
وأرجحهم إذا قدروا حلوما  
وأصلبهم لدى الغمزات عودا  
وإن دعيت نزال مشوا سراعا  
يكبون العشار لمعتفيهم  
ويثنون المغيرة عن هواها  
وهم خير الورى عما وخالا  
وأوثقهم إذا عقدوا حبالا  
وأصدقهم إذا افتخروا مقالا  
إذا الخفرات خلين الحبالا  
إلى الاقران وابتدروا النزالا  
ويروون الأسنة والنصالا  
إذا الوادى بظعن الحى سالا

(١) هو أبو المظفر محمد بن أحمد الالبوردى نسبة إلى أبيورد بخراسان وهو  
صفهاني كان رواية نسابه شاعرا رقيقا قسم أشعاره أقساما منها العراقيات والنجديات  
ولقى شعره خدمات من الأدباء وأغلبه مديح وغر ونسيب .

ويحتقبون أعماراً قصارى  
على أثباج مقربة تمطت  
فجروا السمر راجفة صدورا  
بأيد يستشف الجود فيها  
وهم فتحوا البلاد بيارات  
ولولاهم — ادرت بني  
وقد علم القبائل أن قوى  
وأصرحهم إذا انتسبوا أصولا  
مضوا وأزال ملكهم الليالى

ويعتقلون أرماحا طوالا  
بهم ورحالها تنضو الرحالا  
وقادوا الجرد راعفة نعالا  
تفيد محامدا وتفيد مالا  
كأن على أغرتها نعالا  
ولا أدرى بها العرب الفصالا  
أعزم وأكرمهم فعالا  
وأعظمهم إذا وهبوا سجالا  
وأية دولة أمنت زوالا

٢٨ - وقال عمارة اليمني المتوفى سنة ٥٦٩ يصف دارا لآل رزيك<sup>(١)</sup>

فتعلم دارا شيدتها همة  
جملتها وتجملت مصر بها  
فاقت على الاطلاق كل بنية  
وسقيت من ذوب النضار مقوفها  
لم يسد فيها الروض الا مزهرا  
وبها من الحيوان كل مشهر  
وكان صولتك المخوفة أمنت

يغدو العسير بأمرها متيسرا  
لما علت بك عزة وتكبرا  
وسمت فاستئنمت سوى أم القرى  
حتى لكاد نضارها أن يقطرا  
والنخل والرمال إلا مثمرا  
لبس الوشيج العبقري مشهرا  
أسراها ألا تراعى وتذعرا

(١) هو الفقيه نجم الدين أبو عمارة بن علي الحكيم اليمني العالم الاديب  
الشاعر المجيد ، استوطن مصر ونال حظوة كبيرة لدى الخليفة العاضد الفاطمي  
ووزيره طلائع الدين صالح بن رزيك. ومعظم شعره مدح فيها ولما ملك صلاح  
الدين صلبه فيمن صلب



أنشأت فيهما للعيون بدائعا  
فمن الرخام مسيرا ومسهما  
والعاج بين الآبنوس كأنه  
قد كان منظرها بهيا رائقا  
وكذاك جيد الطي يحسن عاطلا  
ألبستها بيض الستور وجرها  
فمجالس كسيت رقيما أيضا  
لم يبق نوع صامت أو ناطق  
فيها حدائق لم تجدها ديمة  
والطير قد وقعت على أغصانها  
لا تعدم الابصار بين مروجها  
أنست نوافر وحشها بسباعها  
وبها زرافات كأن رقابها  
نوبية المنشأ<sup>(٣)</sup> تريك من المها  
جبلت على الأقباء من أعجابه  
٢٩ - وقال ابن التعاويذي المتوفى سنة ٥٨٣ من مدحة للخليفة الناصر  
يصف غلمانة الأتراك<sup>(٤)</sup>

(١) المسير المخطط بصفرة، والمسهم المخطط بسواد، والمنمنم المنقط ببياض، والمدرم المشبه الدرهم، والمدنر المشبه الدينار (٢) مرقع خصب للوحش لأنها اربعون ميلا لا منزل فيها بين مكة والبصرة (٣) مسهل المنشأ (٤) هو أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن محمد الله الكاتب بديوان المقاطعات ببغداد ولكنه شهر بسبط ابن

القائد الغلب<sup>(١)</sup> السكاة عوا بسا والبيض في أيمانهم تتبسم  
سيان سلمهم وحربهم فما ينفك يقطر من أكفهم الدم  
ترك اذلبسو التراثك<sup>(٢)</sup> أيقنت صم العوالى أنها ستحطم  
يزداد إشراقا ضياء وجوههم والجو بالهبوات أربد أقم  
فهم إذا حسروا ظباء خمية ————— لة

وهم أسود شرى إذا ما استلأموا<sup>(٣)</sup>

ركبوا الدياجى<sup>(٤)</sup> والسروج أهلة وهم بدور والاسنة أنجم  
وكان إيماض السيوف بوارق وعجاج خيلهم سحاب مظلم  
من كل من بجماله نار الهوى ويأسه نار الوغى تنضم  
فى ثنى برده قضيب تقى وفى الد م رع المفاضة منه طود أيهم<sup>(٥)</sup>  
بشر أرق من الزلال وتحتة كالصخر قلب لا يرق فبرحم  
يصمى الخلى<sup>(٦)</sup> بطرفه وبكفه يصمى الكى فجوذ أم ضيغم  
هو تارة للحسن فى أنزابه علم وطورا فى الكتيبة معلم

٣٠ - وقال ابن عنين المتوفى سنة ٦٣٠ يذكر جهاد شرف الدين

عيسى بن أبى بكر الايوبى ، الروم بنغر دمياط وطرده منها<sup>(٧)</sup>

التعاويذى نسبة إلى جده لأمه أبى محمد المبارك ابن المبارك الزاهد المعروف  
بأبن التعاويذى لأنه كفله صغيرا . كان شاعر وفته وله ديوان ضخيم جمعه وبوبه  
بنفسه فى المدح والنسيب والصفات والثناء والهجاء وأكثر هذه الفنون فيه  
المدح (١) الشجمان جمع أغلب وهو الأسد (٢) جمع تريكة وهى البيضة كتركه  
(٣) ليسوا اللألمات وهى الدروع (٤) يعنى الخيل السود كالدياجى  
(٥) أصم صعب المرتقى (٦) يرميه فيقتله (٧) هو شرف الدين أبو العباس

سلاوا صهوات الخيل يوم الوثلى عنا . إذا جهات آياتنا والقنا اللدنا  
غداة لقينا دون دمياط جحفلا من الروم لا يخفى يقينا ولا ظنا  
قد اتفقوا رأيا وعزما وهمة ودينوا وإن كانوا قد اختلفوا لسنا  
تداعوا بأنصار الهليب فأقبلت جوع كأن الموج كان لهم سفنا  
عليهم من الماذى <sup>(١)</sup> كل مفاضة  
دلاص <sup>(٢)</sup> كقرن الشمس قد أحكمت وضنا <sup>(٣)</sup>  
وأطعمهم فينا غرور فأرقلوا إلينا سراعا بالجياذ وأرقلنا  
فما برحت سمر الرماح تنوشهم بأطرافها حتى استجاروا بنا منا  
سقيناهم كأسا نفت عنهم الكرى وكيف ينال الليل من فقد الأنا  
لقد صبروا صبرا جميلا ودافعوا طويلا فما أجدى دفاع ولا أغنى  
رأوا <sup>(٤)</sup> الموت من زرق الاسنة أحمرأ فألقوا بأيديهم إلينا فأحسننا  
منحنا بقيام حياة جديدة فعاشوا بأعناق مقلة منا  
ولو ملكوا لم يأتلوا في دماننا ولو غا ولكننا ملكنا فأسججنا  
وقد جربونا قبلها في وقائع تعلم غمر الموت منابها الطعنا  
فكم من مليك قد شددنا إساره وكم من أسير من شقا الأسر أطلقنا  
وكم يوم حر قد لقينا هجيريه بصبر وقر ما طلمينا له كنا

محمد بن نصر الدين بن نصر بن الحسين بن عنين الانصارى الدمشقى . كان  
أديبا واسع الاطلاع ذا مكانة أوصلته إلى الوزارة بدمشق وكان ربحانة شعراء  
عصره ثم لم يأت بعده من هو مثله ومعظم شعره جاء مدحا وهجاء ونسبنا .

(١) الدروع البيضاء (٢) لينذة مابيهام (٣) نسجا (٤) بضم الهمزة قبل الواو

ضرورة وأصلها الفتح

فان نعيم الملك من شظف الشقا ينال وحلو العيش من مره يحني  
يسير بنا من آل أيوب ماجد أبي عزمه أن يستقل به مغني  
لعمرك ما آيات عيسى خفية هي الشمس الأقصى سناء وللأدنى  
سرى نحو دمياط بكل سميدع نجيب يرى ورد الوغى المورد الأهنا<sup>(١)</sup>  
فأجلى علوج الروم عنها وأفرخت قلوب رجال حالفت بعدها الحزنا  
وطهرها من رجسهم بحسامه همام يرى كسب الثنا المغنم الأسنى  
مآثر مجد خافتها سيوفه لها نبأ يفني الزمان ولا يفنى  
لقد عرفت أسيافنا ورقابهم مواقعها فيهم فان طودوا عدنا  
٣١ - وقال البهاء زهير المتوفى سنة ٦٥٦ « عام زوال الخلافة العباسية  
من بغداد » يصف تليفه على حبيبته وإعراض حبيبته عنه<sup>(٢)</sup>

يعاهدني لاخاني ثم ينكث وأحلف لا كلمته ثم أحنث  
وذلك دأبي لا يزال ودأبه فيامعشر الناس اسمعوا واتحدوا  
أقول له صابري يقول نعم غدا ويكسر جفننا هازلاني ويعبث  
وماض بعض الناس لو كان زارني وكنا خلونا ساعة نتحدث  
أمولاي إني في هواك معذب وحتام أبقى في العذاب وأمكت  
نخذ مرة روحى ترحنى ولم أكن أموت مرارا في النهار وأبعث

(١) محسن الأهنا (٢) هو أبو الفضل بهاء الدين زهير بن محمد بن علي المهلبى  
نشأ بالحجاز قرب مكة ثم رحل إلى مصر قبيل العشرين فعاش بها واتصل  
بالمملك الصالح نجم أيوب فولاه ديوان الانشاء وكان فوق اجادته النشر، شاعرا مكثرا  
جمع شعره بين الطبيعة العربية والرقعة المصرية وديوانه مليء بمقنونات الشعر الذى  
يمثل البيئة المصرية تمثيلا ليس له فيه من نظير .

وإني لهذا الضيم منك لحامل  
أعيزك من هذا الجفاء الذي بدا  
ومنتظر لطفاً من الله يحدث  
خلائفك الحسنى أرق وأدمت  
تردد ظن الناس فينا وأكثروا  
أقاويل منها ما يطيب ويحبت  
وقد كرمت في الحب منى شمائلي  
ويسأل عني من أراد ويبعث

## ثانياً - حياته

لم يزل الشعر وما زال في كل عصر مرآته الصافية التي تنطبع فيها صورته الحقة ، لأنه فيض الشعور ونبع الوجدان ، ولأن رجاله أدق الناس شعوراً وأرقهم وجداناً . ولذا رأيت في الحياة الجاهلية صورة ناطقة لما كان فيها من حس ومعني ، حتى عدّه المؤرخون ديوانها وسجلها . ورأيت في صدر الاسلام قد بقي كما كان فيما بقي ، وحاد عن الخوض فيما ترك ، وتلون فيما تلون على شكاكته وغراره . ثم رأيت في العصر الاموي قد جنح جنوحاً قويا إلى ما اختطه العصر حتى كاد يكون قصراً على ما كان الغرض الذائع فيه . فجاء في العصبية والسياسة تأييداً ومعارضة ، وفي رفع الاولياء ووضع الخصماء مدحاً ومهجواً ، ثم بين ذوى البطالة المبعدين عن ميادين العمل ، غزل إباحة ومتعة من ذوى الجدة المترفين ، ونسيب تصوف وعفة من ذوى العدم المتقشفين . على أنه في هذين العصرين الاسلاميين لم يبتعد كثيراً عما اختطه له العصر الجاهلي لأن الدولة فيهما بقيت عربية خالصة نظارة إلى عروبته وبدوته بقوة حادت بها عن التأثير الكبير بما سواها . أما في العصر العباسي الذي اختط عاصمته في ديار الإهمام واختلط بل امتزج بالفرس أتم امتزاج

واخذ منهم بدل العرب ، الوزراء وسائر الأعيان، حتى تغير بذلك نظام الحياة إلى ما شرحنا آنفاً في الجنس والدين واللغة وشئون الاجتماع ، فلم يك مفر للشعر وهو كما ذكرنا مراعاة العصور أن ينطبع كل ذلك فيه ويظهر أثره به ظهوراً بيننا يخالف ما كان لماضيه في الأغراض والمقاصد، وفي المعاني والأخيلة، ثم في الألفاظ والأساليب، على ما سترى في هذا البيان الذى يتناول على ما يسمح المقام ، تفصيل ما يخص الشعر فيما أجمعنا سابقاً من تأثير اللغة في هذه النواحي الثلاث .

#### ١ - ناحية الأغراض والفنون

لعله من المألوم وقد عرفت الأغراض الثلاثة التى كانت أهم أغراض الشعر فى العصر الأموى أن نبدأ بها الآن فى هذا العصر العباسى، وبعدها نزجى القول إلى ما كان له فيه من سائر الفنون .

١ - العصبية والسياسية - أحييت الدولة الأموية العصبية وكانت أقوى ما تكون بين اليمنية والمصرية منذ تقريب معاوية اليمن وإبعاده قيساً، فكانت الملاحاة بين العنصرين قوية شديدة، وكانت تزداد شدة كلما تقدمت بالدولة الأيام، حتى ورثتها الدولة العباسية بالغة منتهاها، وقد زاد العنصر اليمنى قوة على المضرى أن أم السفاح كانت منه - ولذلك خلفه أبوه قبل أبى جعفر وهو أكبر منه لأنه ابن أم ولد - هذا مع من انضم إلى شعراء اليمن العرب من الموالى الذين كانوا ينتمون إلى قبائله ولواء وهم كثير منهم أبو نواس الحكيم الذى يقول فيهم :

وقد ناخنا عن أحساب قوم      هم ورثوا مكارم ذى نواس  
فإن تك أوقدت للحرب نار      فما غطيت خوف الحرب راسى

سأبلى خير ما أبلى محام إذا ما التبل أجم بالقياس<sup>(١)</sup>  
فما بال النعاج نغت بشتى<sup>(٢)</sup> وفي زمعاتهن دم القراس<sup>(٣)</sup>  
وما حامت عن الأحساب إلا لترفع ذكرها بأبي نواس  
غير أن ظهور الشعوب الأخرى بمعادة هذين العنصرين العربيين معا  
كان من شأنه أن يخضع شوكة هذا الخلاف ويضعف منه ، على أن  
تبقى الصولة لمضر لبقاء الخلافة بعد النبوة فيها كما كانت ، ولذا بقي الفخر  
لها وحدها دون الين حتى على السنة الخلفاء الذين ينبغي أن يكونوا  
آخر المتعصبين كما تلمح ذلك في قول ابن المعتز مقتضرا :

إذا شئت أوقرت البلاد حوافرا وسارت ورائي هاشم ونزار  
وعم السماء النقع حتى كأنه دخان وأطراف الرماح شرار  
وقد استغل العباسيون الشعر في تأييد ملكهم ضد الطامعين فيه من  
آل على كما كان يفعل الأمويون ، فقوبل شعراؤهم المواليون أمثال مروان  
ابن أبي حفصة وعلى بن الجهم وأبان بن عبد الحميد بطبقة من الشعراء  
المعارضين الذين يتعصبون لآل على ، كالسيد الحميري ودعبل الخزاعي  
ومسلم بن الوليد ، وطالت الملازمة بين الطبقتين في شدة واحتدام كما  
تري في هذين المثليين :

قال مروان بخاطب بني على طالبا اليهم تخلية الطريق لبني العباس :

خلوا الطريق لمعشر عاداتهم حطم المناكب يوم كل زحام  
وارضوا بما قسم الاله لكم به ودعوا ورائة كل أصيد حام

(١) جمع قوس (٢) صوتت به (٣) الزمعات هنات زائدات وراء الأظلاف

أنى يكون وليس ذاك بكأن لبنى البنات ورائة الاعمام<sup>(١)</sup>  
وقال الحميرى وكان يفضل عليا على الراشدين كما يفضل أبناءه على العباسيين

(١) شاع استعمال هذا المعنى الذى ألم به مروان تأييدا وتقضا

قال الطاهر بن على العباسى فى تأييده زائدا عليه

لو كان جدكم هناك وجدنا فتنازعا فيه لوقت خصام

كان التراث لجدنا من دونه فخواه بالقرنى وبالإسلام

حق البنات فريضة معلومة والعم أولى من بنى الاعمام

وقال محمد بن يحيى التغلبى فى تقضيه زائدا أيضا

لم لا يكون وإن ذاك لكائن لبنى البنات ورائة الاعمام

للبنت نصف كامل من ماله والعم متروك بغير سهام

ما للطلق وللتراث وإنما صلى الطليق بخافة المصمم

وذكر صاحب الألفانى أن بيت مروان الأخير هذا، كان السبب فى قتله، فقد روى

عن حدثوه عن عطية الأصبجى أنه قال « لومت مروان لما قال هذا البيت

وماهدت الله أن أغتاله فأقتله أى وقت أمكننى ذلك، ومازلت ألاحظه وأبره

وأكتب أشعاره حتى خصصت به فأنس بى جدا، وعرفت ذلك بنو حنفصة

جميعا، فأنسوا بى ولم أزل أطلب له غرة حتى مرض من حمى أصابته فلم أزل أظهر

له الجزع عليه وألازمه وألاحظه حتى خلا لى البيت يوما فوثبت عليه فأخذت

بمقلقه فما فارقتة حتى مات، فخرجت وتركته فخرج اليه أهله بعد ساعة فوجدوه

ميتا وارفعت الصبيحة فحضرت وتباكيت وأظهرت الجزع عليه حتى دفن وما فطن

بما فعلت أحد ولا أهتمنى به »



إذا أنالم أحفظ وصاة محمد      ولا عهده يوم الغدير المؤكدا<sup>(١)</sup>  
فان كن يشرى الضلالة بالهدى      تنزع من بعد التقى وتهود  
ومالى وتيم أوعدى وإنما      أولو نعمتى فى الله من آل أحمد  
تم صلاتى بالصلاة عليهم      وليست صلاتى بعد أن أتشهد  
بكاملة إن لم أصل عليهم      وأدع لهم ربا كريما مجبدا  
بذات لهم ودى ونصحتى ونصرتى      ماى لاهر ماسيت يا صاح أحمد  
وإن امرأ يلجى على صدق ودهم      أحق وأولى فيهم أن يفند  
فان شئت فاختر حاجل الغم ظلة      والا فأمسك كى تصان وتحمدا  
وقد حرك ماجد للموالى فى العصر العباسى من ت قريب ، ما كان مائه  
نفوسهم من حقد على العرب طوال العهد الاموى ، فأخذوا يفاخرونهم  
ويذكرون مثالبهم وأخذ العرب يردون عليهم ما يقولون ، حتى نشأت  
عصبية أعم من السابقتين بين العرب والعجم ، قوى فيها سلطان العجم  
لنفوذ الفرس وكثرة شعراء الموالى . فعان أمر الشعوية وصار لها  
شأن خطير ، وتعصب لها عدد وافر من الشعراء كبشار وديك الجن<sup>(٢)</sup>  
والخرمى<sup>(٣)</sup> وغيرهم ، وقام من ينافح عن العرب ويرد على هؤلاء ، أمثال

---

(١) يعنى غدیر خم بین مكة والمدينة فعنده أخذ رسول الله بيد على بن أبى طالب وقال لمن معه ألتست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالوا بلى يا رسول الله ، قال فن كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وهذا حديث يدفعه غير الشيعة (٢) هو عبد السلام بن رغبان ابن عبد السلام الحمصى .  
(٣) هو أبو يعقوب إسحاق بن حسان مول آل خريم المريين الذين

يزيد المهلبى ولكنهم قليل وهاك مثاين مما كان يقال .  
 دخل أعرابى على مجزأة بن ثور السدوس فتنقص الموالى أ.  
 بشار فقال بشار .

خليلى لا أنام على اقتسار ولا آبى على مولى وجار  
 سأخبر فاخر الاعراب عنى وعنه حين تأذن بالفخار  
 أحين كسيت بعد العرى خزا ونادمت الكرام على العقار  
 تفاخر يا بن راعية وراع بنى الاحرار حسبك من خسار  
 وكنت إذا ظمئت إلى قراح شربت الكلب فى ولغ الاطار<sup>(١)</sup>  
 تروغ<sup>(٢)</sup> بمخطفة كسر الموالى وينسبك المكارم صيد فار  
 وتغمدو للقنافذ تدرىها ولم تعقل بدراج الديار<sup>(٣)</sup>  
 وتتشح الشمال للابسيها وترعى الضأن بالبلد القفار  
 مقامك بيننا دنس علينا فليتك غائب فى حر نار  
 ونغرك بين خنزير وكلب على مثلى من الحدث الكبار  
 ولما قتل الخدم الخليفة المتوكل قال يزيد المهلبى من مرثيته يعيب على

بنى العباس إبعاد العرب وتقريب الموالى  
 لما اعتقدتم أناسا لاخلوم لهم ضنتم وضيئتم من كان يعتق  
 ولو جعلتم على الاحرار نعمتكم حملتكم السادة المذكورة الحش  
 قومهم الجذم والانساب تجمعهم والمجد والدين والارحام والبالا  
 إذا قرش أرادوا شد ملكهم بغير قحطان لم يبرح به أو

(١) خليط من دم ورماد تلتطخ به القدور (٢) تريد (٣) الدراج كرمات طار

أضحى شهيد بنى العباس موعظة لكل ذى عزة في رأسه صيد  
 خليفة لم ينل ماناله أحد ولم يضع مثله روح ولا جسد  
 قد وتر الناس طرا ثم قد صمتوا حتى كأن الذى نيلوا به رشد  
 من الأئمة وهبوا للمجد أنفسهم فما يبالون مانالوا اذا حمدوا ؟  
 وقد ضعف أمر هذه العصبية جميعا بتغلب الأتراك على العرب في  
 العصر الثانى ثم بالتحلل الدولة إلى دويلات في الثالث إلا ما كان من الإشادة  
 بالعلوية في مصر أيام الفاطميين وبالعربية في الشام أيام الحمدانيين على  
 أن هذه الإشادة لم تلبث أن زالت في العصر الرابع الذى تملك فيه  
 الأتراك شرقا والأكراد غربا

٢ - المدح والهجاء : وكما فى الشعر السياسى فى المدح والهجاء  
 على العهد الأموى فأصبح لهما تبعا لا استقلالا له ، لم يلبث أن صار  
 كذلك فى العهد العباسى منذ عصره الأول لميل النفوس بطبعها إلى  
 حب الثناء وغلوها فى هذا الحب واتخاذ الشعراء هذا الميل أحبولة  
 لتصيد المال ثم سخاء ذوى الأمر لهم ببذله سخاء منقطع النظير . ولهذا  
 كثروا قائلو المديح وطالبوه وتعدى الشعراء التكسب بالشعر للعيش  
 والحياة ، إلى التكسب به لاقتناء الثروات الواسعة ومجارات ذوى اليسار  
 والبذخ فى مظاهر الرفاهة والتمتع بنعمى الحياة <sup>(١)</sup> ومن ثم هجروا

(١) ذكر صاحب الأغاني أن سلما الخمار خلف روة مقدارها خمسون  
 ألف دينار وألف ألف وخمسة ألف درهم غير الضياع . وقد خلف مروان  
 أكثر من ذلك ومثلهما فى هذا جمهرة من الشعراء غير مبذريهم الذين كانوا  
 فوقهم كسبا ولكنهم لا يبقون على شيء كأبى نواس

مواطنهم الأولى وأقاموا في بغداد متحضرين يتمتعون فيها بأجل العطايا وأسنى الصلات حتى من الخليفة المنصور على ما كان معروفا به من التشدد في خزن المال . روى أن أبا دلامة لما أنشده قوله

لو كان يبعد فوف الشمس من كرم قوم لقليل أقعدوا يا آل عباس  
ثم ارتقوا في شعاع الشمس كلهم إلى السماء فأنتم أطهر الناس  
وقدموا القائم المنصور رأسكم فالعين والأنف والأذن في الراس  
قال له بأى شيء تحب أن أعينك قال تملأ لي هذه الخريطة دراهم  
فلئت فوسعت أربعة آلاف درهم

ومنذ عهد ابنه المهدي أخذت الأموال تتدفق على الشعراء .

قيل دخل عليه عمرو بن مسلم الخاسر فأنشده  
أليس أحق الناس أن يدرك الغنى مرجى أمير المؤمنين وسائله  
لقد بسط المهدي عدلا ونائلا كأنهما عدل النبي ونائله  
فقال له أما ما ذكرت يا مسلم من الجود فوالله ما تعدل الدنيا عندي خاتمي  
هذا ، وأما العدل فإنه لا يقاس برسول الله صلى الله عليه وسلم أحد فيه ، وإنى  
لا تحراه جهدي . ثم أمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب .  
ودخل عليه بعدها فأنشده

إن الخلافة لم تكن بخلافة حتى استقرت في بني العباس  
شدت مناكب ملوكهم بخلافة كالدهر يخط لينه بشماس  
فأمر له بعشرين ألف درهم وعشرين ثوبا . ثم دخل عليه بعدها فأنشده  
أفنى سؤال السائلين بجوده ملك مواهبه تروح وتفتدى  
هذا الخليفة جوده ونواله نفذ السؤال وجوده لم ينفد

فأمر له بثلاثين ألف درهم وثلاثين ثوبا .  
وقد أعطى ابنه الهادي عشرين ألف درهم لشاعر أجاد ووصف الصمصامة  
سيف عمرو بن معديكرب الزيندى حين حصل عاينه وكان مغرما  
باقتناء السلاح وسيأتى هذا الوصف  
أما الرشيد فقد غطى فى ذلك على ما كان لا يبه وأخيه .  
مدحه مروان بقصيدة يقول فيها

وسات بهارون الثغور فأحكمت به من أمور المسلمين المرائر  
وما انفك معقودا بنصر لواؤه له عسكر عنه تشظى العساكر  
وكل ملوك الروم أعطاه جزية على الرغم قسرا عن يدوهو صاغر  
ترى حوله الا ملاك من آل هاشم كما حفت البدر النجوم الزواهر  
فأعطاه خمسة آلاف دينار وكساه خلعتيه وأمر له بعشرة من رقيق  
الروم وحمله على بردون من خاص مراكبه . ثم كان جوده على الشعراء  
يجاوز كل أمل فى محافل البيعات

وكذلك كان أبنائه الأئمة والمؤمن والمعتصم ولاسيما المؤمن  
على طول مدته فى الخلافة قال للمحمد بن الجهم يوما أنشدنى ثلاثة أبيات  
فى المديح والهجاء والرثاء ولك بكل بيت كورة فأنشده فى المديح  
يجود بالنفس إن صن الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود  
وأنشده فى الهجاء

قبحت مناظرهم فحين خبرتهم حسنت مناظرهم لقبح المخبر  
وأنشده فى الرثاء

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطيب تراب القبر دل على القبر

وعلى مثل هذا كان للشعراء، الواثق والمتوكل ابن المعتصم وبخاصة المتوكل، ومدائح البحتري فيه وعطاياه للبحتري بما ضربت به الأمثال. ومن بعده تغير مجرى التاريخ

وقد اقتدى بالخلفاء في ذلك، الأمراء والوزراء، وأخبار آل برمك في هذا أشهر من أن تذكر أو ينالها تعداد، وكفى أنها كانت من أهم بواعث الحقد عليهم في نفس الرشيد.

بذلك وغيره كثرت المدائح وجادت وكثرت فيها المبالغات كما قرأت بالتماذج في مدحتي مسلم وأبي تمام

هذا وإذ كان من شأن الشاعر المتكسب بشعره، أن يتخذ الهجو عصا في هذا الباب يهيب بها على الماطلين، وينال بأذاها البخلاء والمائعين، لم يك مفر من أن يكثر الهجاء مع المديح، على أن مما أكثره غير ذلك، تهاجد الشعراء وما أنتجه في نفوسهم من عداوة أعادت ذكرى ما كان بين الفرزدق وجريز وحلبتهما بصورة أوسع أفقا وأشد بشاعة ونكرا، ولا يجوز أن نغفل هنا ذكر العصبية الماضية وما خافته من ألوان الهجاء. ثم قد وسعت حرية المأمون الشعراء الهاجين إلى درجة أنه كان

يسمع هجوه بنفسه ويصفح. روى أن دعبلا حين هجاه بقوله:

أيسومني المأمون خطبة عاجز	أو ما رأى بالأمس رأس محمد
يوفي على هام الخلائف مثل ما	توفي الجبال على رؤوس القردة
وبجل في أكذاف كل ممنع	حتى يذل شاهقة لم يصعد
إن الترات مسهد طلابها	فاكفف لعابك عن لعاب الأسود
إني من القوم الذين سيوفهم	قتلت أخاك وشرفتك بمقعد

شادوا بذلك بعد طول خموله واستنقذوك من الحضيض الاوهد  
لم يزد أن قال « قاتل الله دعبلا متى كنت حاملا وفي حجر الخلافة ولدت  
وبدرها غذيت، وفي مهدها ربيت »<sup>(١)</sup> فتزل الشعراء لذلك في عهده -  
كما تنزلوا قبل عهده إرضاء للسياسة والعصبيات - إلى الاقتداع في  
الهجو والبذاءة في الألفاظ، وقد جعلهم يغفلون في ذلك أشد غلو، وضعف  
الوازع الديني وماجرته مثالب المدنية على النفوس من الانغماس في مفاصلها  
والفتنة بها إلى أن عد بعضها من المحاسن وهو من المقايح في الحضيض.  
هذا إلى أن التسابق في التهاجي كان رغبة بين بعض الشعراء وبعض  
دون أن يرتكز في نفوسهم إلى أحقاد أو أسباب سواء

قال بشار يهجو المهدي ويحرض على وزيره يعقوب بن داود :

بنى أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود  
صنعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود

وقال أبو نواس يهجو المفضل بن سيبابة بالبخل

أصبحت أجوع خلق الله كلهم وأفزع الناس من خبز إذا وضعا  
خبز المفضل مكتوب عليه ألا لا بارك الله في ضيف إذا شبعنا  
إني أحذركم من خبز صاحبنا فقد دثرون بحلقى اليوم ما صنعنا  
وقال أبو العتاهية يهجو معن بن زائدة بالجبن :

فصنع ما كنت حليمت به سيفك خلخالاً

«١» روى أن أبا سعد الخزومي دخل على المأمون وألشده شعر دعبيل هذا

ثم قال « أناؤذنى يا أمير المؤمنين أن أجيبك برأسه » فقال له « لا ، هذا رجل  
نفر علينا فانخر أنت عليه فأما قتله بلا حجة فلا » .

فما تصنع بالسيف إذا لم تك قتالا  
 وشاع هجوم بدمامة الخلق كما قال البحتري يذم بكبر الأنف  
 رأيت الخنعمى يقل أنفا يضيق بعرضه البلد الفضاء  
 سما صعدا فقصر كل سام لهيبته وغص به الهواء  
 هو الجبل الذى لولا ذراه إذن وقعت على الأرض السماء  
 وقد ساد الهجاء المديح في العصر الثانى لقلة الأجواد وعدم معرفة  
 ذوى اليسار ببلاغة القول ، فظلموا تهرم الشعراء من هذه الحال والاكثار  
 من هجو الناس والزمن ، ونبغ في هذه الناحية ابن الرومى نبوغا لم يصله  
 سواه كما رأيت في ذمه ابن المديبر أنفا وكما ترى الآن حيث يذم رؤساء  
 زمنه ليلخلهم على مدحه لهم ، فيقول

قل للذين مدحتهم فكأنما مستخوا كلابا غير ذات خلاق  
 ردوا على صحائفها سودتها فيكم بلا حق ولا استحقاق  
 ما كان مثلى مادحا أمثالاكم لولا اتهامى ضامن الأرزاق  
 أسخطت خلاق البرية فيكم فباغتم منى رضا الخلاق  
 أغرقت في نزعى لكم ولربما حرم الرماة الصيد بالأغراق  
 ولما أقبل العصر الثالث تفجرت ينابيع الجود من جديد على أيدي  
 حكام الدويلات وعظماء رجالها ، فتنسأ بقوافطهم والحمدانيون وآل بويه  
 في الاغداق على الشعراء ، وبذلك بلغ المدح الذروة التى ليس فوقها ارتفاع ،  
 ولكن مع بقاء الهجوم مساير له إذ لا غنى عنه في تقرير الثمائم .  
 قال المتنبى يهجو كافورا وقد سمعت كيف كان مدحه لسيف الدولة بن  
 حمدان بالتماذج



أكلما اغتال عبد السوء سيده      أو خانه فله في مصر تمهيد  
صار الخصى إمام الأبقين بها      فالحر مستعبد والعبد معبود  
من علم الأسود الخصى مكرمة      أقومه البيض أم آباؤه السود  
أم أذنه في يد النخاس دامية      أم قدره وهو بالفاسين مردود  
غير أن حال الشعر عادت في العصر الرابع إلى الكساد لتغلب العجمة  
على الحكم فالتفت الشعراء بمدائحهم إلى القديم ومن ذلك نشأ شعر  
التصوف بالغزل في ذات الله ومدح النبي والخلفاء

٣ - الغزل - لقد ابتعد الغزل أول العهد العباسي عما كان له  
في عصر بني أمية ابتعادا كثيرا لم يحدث مثله للفننين السابقين معه ،  
وكان المذشأ الأول لهذا الابتعاد فتن المدنية ومفاسد الحضارة التي  
تعدت الطبقة العليا إلى مادونها من سائر الطبقات فأت بذلك النسب  
العذري ولم يعد يظهر إلا على ألسنة القايل كالعباس بن الأحنف وقد  
رأيت له قصيدة فيه . أما جهرة المتغزلين فقد انساقوا وراء التهمة  
والأباحة إلى حد أباح لهم ما كان غير موجود حتى في الغزل اللاهوي أيام  
بني أمية ، من كشف في الوصف ، وتبذل في القصة ، وفش في اللفاظ ،  
كما يقول بشار في معشوقته فاطمة

عجبت فطمة من نعتي لها      هل يجيد النعت مكفوف البصر  
أذرت الدمع وقالت ويلتي      من ولوع الكف ركاب الخطر  
أمتا بدد هذا نقبي      ووشاحي حله حتى انتثر  
فدعيني معه      يا أمتا  
أقبلت مغضبة تضربها      واعتراها كجنون مستعر

بأبي والله ما أحسنه دمع عين يغسل الكحل قطر  
وقد حملهم الاستهتار باللذة والاستمتاع بالجمال استمتاعهم بالنساء،  
أن يتغزلوا في المذكر كما يتغزلون في الاناث ، وتلك عادة سيئة فذرة  
كانت شائعة بين الفرس وانتقلت إلى العرب بفسدة الموالي ومن لف  
لفهم من ذوى الاباحة والمخنثين ، كأبي فراس وحماد مجرد ومطيع بن  
اياس ويحيى بن زياد وحسين بن الضحاك وأمثالهم ممن كان همهم الاجتماع  
على الشراب مع القيان والغلمان ، يشربون ويمزحون ويصفون الخمر  
ويهزلون لا يردعهم عن دناءات النفوس خلق ، ولا يزعجهم دين ، فكان  
غزلهم دعارة وعهرا ، وقوى ذلك فيهم انحطاط المستوى العام للأخلاق.  
قال أبو نواس العاهر في غلام :

يا بدعة في مثال	يجوز حد الصفات
فالوجه بدر تمام	بعين ظبي فلاة
والقد قد غلام	والغنج غنج فتاة
مذكر حين يبدو	مؤنث خلوات
زها على بصدغ	مزرفن الحلقات <sup>(١)</sup>
من فوق خد أسيل	يضيء في الظلمات

وقال ابن الضحاك الخليلع في غلام يستحم

وابأبي أبيض في صفرة	كأنه تبر على فضه
جرده الحمام عن درة	تلوح فيها عكن بضة
غصن تبدي يتثنى على	مأكمة مثقلة النهضة

«١» زرفن صدغه ، جعله مستديرا كالزرفين بالضم وهو حلقة الباب

كأنما الرمش على خده      طل على تفاحة غضه  
صفاته فائدة كلها      فبعضه يذ كرني بعضه  
وقد أنتج الانحدار في هذه الحمأة القذرة ، وصف محاسن المذكر  
كالعذار<sup>(١)</sup> وشيوع هجو الناس باللوطية والأبنة، مع الاسترسال في هذه  
السبل بصراحة في الوصف والحكاية، صارت سبة للأدب العربي وقذى  
في عيون قارئيه . ثم كان أن عمدة المتغزلون إلى إظهار المتغزل فيه  
بصورة المذكر، وإن كانت الصفات صفات إناث كما يقول أبو نواس  
ياقرا أبصرت في مائتم      يندب شجوا بين أثواب  
بيكي فيندري الدر من نرجس      ويلطم الورد بعناب  
أبرزه المائتم لي كارها      برغم دايك<sup>(٢)</sup> وحجاب  
لاشيك ميتا حل في قبره      وابك قتيلا لك بالباب  
وعلى ذكر الغزل وما وقع فيه من جديد نذكر الجملة التي وجهت إلى ما كان  
من ابتداء القصائد في كل الأغراض ماعدا الرثاء بما كانت تبدأ به إلى هذا  
العصر من تشبيب يتناول الوقوف بالديار والأطلال والتهائم لمفارقة  
أصحابها لها ومسير الابل مفارقة أو محقة للقاء ، مع ما يأتي خلال ذلك كله  
من محاسن المحبوبة وصفاتها على أسلوب الغزائين فنقول: إن أول من قادها  
أبو نواس<sup>(٣)</sup> فقد رفع عقيرته ينمى على الشعراء هذا التشبيب بالتقديم

« ١ » من ذلك قول بعضهم

أيا قرا، من شمس طلعة وجهه      وظل عذاريه، الدجى والاصائل

« ٢ » جمع داية وهى الظئر أى الموضع واستعمل في العاطفة على ولد غيرها

« ٣ » قيل إن أول من تلمه إلى ذلك مطيع بن إلياس وقد اجتمع بقى من

ويطلب إليهم في سخرية لاذعة هجره إلى ما أصبح ملائما من جديد .  
 كأن يجبه من يقف على الطلول فيقول :  
 تبكى على طلل الماضين من أسد لادر درك قل لى من بنو أسد  
 لاجف دمع الذى يبكى على حجر ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد  
 أو يشمت بتفاعيل الرياح والامطار فى الرسم فيقول :  
 دع الرسم الذى دثرا يعانى الريح والمطرا  
 ألم تر ما بنى كسرى وسابور لمن غبرا  
 ثم يطلب أن يكون البديل صفة الحجر فيقول :  
 صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم  
 ويفعل هذا فى قصائده مشركا معه هذا التنديد تارة كطلعه :  
 لا تبك رسما بجانب السند ولا تجدد بالدموع للجرد  
 ولا تعرج على معطلة ولا أأناف خلت ولا وتد  
 ومل إلى مجلس على شرف بالكرخ بين الحديق معتمد  
 ممد صفقت نمارقه فى ظل كرم معرش خضد  
 ثم اصطبغ من أسيرة حجبت عن كل عين بالصون والرصد  
 محجوبة فى مقيل حوبتها تسعين عاما محسوبة العدد  
 أو مكتفيا بالتنبيه تارة كطلعه :  
 دع الربع ما للربع فيك نصيب وما إن سبتنى زينب وكعوب

---

أهل الكوفة ودار الحديث بينهما فى هذا الشأن فقال مطيع  
 لأحسن من بيد يحاربها القطا ومن جبلى طى ووصفكما سلعا  
 تلاحظ عيني عاشقين كلاهما له مقلة فى وجه صاحبه رعى

ولسكن سبتنى البابلية إنها لمنلى فى طول الزمان سلوب  
وكثيرا ماكان يقصد إلى الخرقصدا كان يقول :

دع عنك لوى فان اللوم إغراء ودوانى بالتى كانت هى الداء  
صفراء لا تنزل الأحران ساحتها لومسها حجر مسته سراء<sup>(١)</sup>  
ولما حبسه الخليفة لذلك عاد إلى الأطلال ولكن بهذا الأسلوب  
أعر شعرك الأطلال والمنزل القفرا

فقد طالما أزرى به نعتك الخرا  
دعانى إلى نعت الطلول مسلط تضيق ذراعى أن أردله أمرا  
فسمعا أمير المؤمنين وطاعة وإن كنت قد جشمتني مركبا وعرا  
وقد أثرت هذه الجملة فى شعراء العصر الأول أشد تأثير فاتبعه  
فيها كل ذى هوى للخمر ، وابتدا بالمقصود فى القصيدة من صد عنها ، إلا  
طائفة قليلة بقيت على عرف الأقدمين فى الابتداء ، واستحدث الجميع  
المعنى إلا طائفة أقل منها كانت تنزع أحيانا منزع البدو فى المعنى المراد  
كدعبل إذ يقول من قصيدة مطلعها :

بانت سايى وأمسى حبابها انقبضا وزودوك ولم يرثوا لك الوصبا  
فى بذل المال للثناء :

قالت سلامة ابن المال قلت لها المال ويحك لاقى الحمد فاصطحبا  
هذى سبيلى وهذا فاعلمى نخلق فارضى به أو فكونى بعض من غضبا

«١» نرى أن ثبت هنا البيت الثالث بعد هذين البيتين ، مثلا لما طالما

نهبنا عليه من الفحش فى المعنى والبدء فى اللفظ وهو

من كف ذات حر فى زى ذى ذكر لها محباب لوطى وزفاء

وقد استمرت المبادئ على هذه الأنحاء طوال العصر الثاني بعد الاول، ولما جاء الثالث بقيت عليه تقريبا في العراق وفارس وخراسان وحدث إلى القديم في الجزيرة والشام ومصر مع نزوع القول في جميعها إلى هذا المئزج الجديد. ولما حل العصر الرابع نشأ بجانب هذا الغزل المكشوف غزل عف بعث به أخوه العذري القديم لانتشار الروح الصوفية فيه كما رأيت في قصيدة ابن الخياط .

هذا - ولقد كان للشعر منذ العصر العباسي الاول جولات واسعات في فنون أخرى غير هذه الفنون الثلاثة، جاء بعضها أول ما جاء نتيجة لها، كالنثر الذي دفعته إليه العصبية، والمجون الذي أنشأه الاستمرار، والخرجات التي شغلت المطالع أولا واستغلت بعد بسائر القصيد، وجاء بعضها مستقلة عنها كالثناء والزهد والصفات . فهذه ستة فنون غير الثلاثة السابقة وإليك كلمة عن كل فن منها على سبيل الإجمال

١ - النثر - حالف النثر العصبية منذ العهد الجاهلي إلى آخر العصر الأموي وكان ينزع فيها جميعا عن الحسب والنسب ولكن استمرت منازعه الحسبية العظامية غالبة على النسبية العصامية حتى العصر العباسي الأول الذي قامت فيه الشعوية على قدم وساق فانعكست الآية بسنته المعفية على كل قديم . ثم توارى الأمران تقريبا في العصر الثاني وعادا إلى الظهور كفرنسي رهان في الثالث الذي حظى النثر فيه بعدد وافر من الشعراء نذكر منهم المتنبي وأبافراس والشريف الرضي وأبا العلاء فقد جمعوا في مفاخرهم بين المظهرين وإن كان المتنبي دونهم حاد بعض الحيدة عن الأحساب . ثم جاء العصر الرابع فنضبت فيه الصفات

الشخصية وأصبح الفخر إما بالعظام كما رأيت في مفخرة الايوردى  
بسفيايته أو بانتحال الصفات على غير أساس كما شاهدت فيما سياتى  
لابن سناء الملك . وهذا مثل لمن لم يتقدم له فخر من تلك الشخصيات

قال المتنبي من قصيدة

ما مقامى بأرض نخلة<sup>(١)</sup> إلا كمكان المسيح بين اليهود  
مفرشى صهوة الحصان ولكن م قميصى مسرودة من حديد .  
أنا ترب الندى ورب التواني وصمام العدا وغيظ الحسود  
أنا فى أمة تداركها الله م غريب كالح فى نمود

وقال الرضى من قصيدة

أنا من عاهت قديمه وحديثه علم اليقين وإن جهلت فسائل  
قوى الملوك وخيم نفسى خيمها أفليج بمنل أو آخرى وأوائلى<sup>(٢)</sup>  
نحن الولاة العادلون ولم نزل آثارنا حلى الزمان العاقل  
وإذا الخصوم تجادلوا فى مجدهم ظهرت دلالة مجدانى كامل

وقال أبو العلاء من قصيدة

وكم من طالب أمدى سيلقى دوين مكاني السبع الشدادا  
يؤجج فى شعاع الشمس نارا ويقدح فى تلمبها زنادا  
ويطعن فى علاى وإن شسعى ليأنف أن يكون له بجادا  
فلا وأبيك لا أخشى انتقاصا ولا وأبيك لا أرجو ازديادا

٢ - المجون - كان منشأ المجون وهو من مستحدثات العصر  
باسى كقلنا : الاستهتار الذى استهان بالدين فكانت الزندقة والألحاد،

(١) موضع بمجنوب الشام (٢) أسبق بهم وأظفر

واستهتر بالأخلاق فكانت الرذيلة والفساد، ثم استهزأ بالعرف فكان  
الفحش في المعاني والبذاء في الألفاظ. وشياطينه الأوائل وغارسو  
بذوره هم تلك الطائفة التي ذكرنا في الخروج على القديم

وقد ساعد على انتشار هذه السموم ما غر البعثات العربية من الآراء الفلسفية  
المختلفة، والاباحية الداعية إلى مشاركة الانسان لأخيه الانسان في كل  
شيء، ثم عبادة المادة وعدم المبالاة بزواج الأديان، ذكروا أن مطيع  
بن إلياس مر بيجي بن زياد وحماد بن إسحق وهما يتجادلان فقال لهما فيم  
أتما قالا في قذف الحصنات فقال «أو في الأرض حصنة تقذفانها»  
كما ساعد عليها أيضاً ما كان يعتقد بعض الأمراء والوزراء من مجالس  
الشرب والمنادمة التي يحضرها أمثال هؤلاء فيعمرونها بالتهتك والخلاعة  
ويحاكونها في صورة أشنع منها بمنازل بعضهم كما كانوا يفعلون في منزل  
إسماعيل القراطيسي بالكوفة. ولقد جرت صحبة هؤلاء إلى إفساد كثير  
من أبناء الخلفاء، فالأغاني يذكر أن جعفر بن المنصور أفسده مطيع بن  
إلياس، ومحمداً الأمين أفسده أبو نواس وحسين بن الضحاك. ولم يلبث  
اضطراب الحركة الفكرية وتزاحمها في أذهان الناس بما نقل واستنبط  
من حقائق فلسفية مختلفة في الدين والرياضة والفلك والطب وسائر  
العلوم، أن فصل ذوى المجانة في الدين عن مجان الفضيلة والعرف، فكان  
من الأولين طائفة الزنادقة الملاحدين الذين كان دأبهم التشكيك في  
حقائق الدين بشكل جدي لا مجانة فيه كصالح بن عبد القدوس وأبان  
ابن عبد الحميد وعمارة بن حمزة وغيرهم، وكان من الآخرين مجان الهزل  
الذين دأبهم التضحيك كمن ذكرنا مع أبي نواس. ومن أمثلة مجونهم



بسم الله الرحمن الرحيم

قول دعبيل عن ديك له أخذه صالح ~~أمر~~ لضيوفه .

أمر المؤذن صالح وضيوفه أمر الكي هفاخلال الماقت<sup>(١)</sup>

بعثوا عايه بناتهم وبنينهم ما بين نائفة وآخر سامط

يتنازعون كأنهم قد أوثقوا خاقان أوهزموا كتائب ناعط<sup>(٢)</sup>

نهشوه فانتزعت له أسنانهم وتهشمت أقفاؤهم بالخائط

وقد كان لهذا النوع من المجون شأن كبير في العصر العباسي الثالث

ومن مشهورى رجاله بالعراق أبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد بن

سكرة الهاشمي وأبو عبد الله الحسن بن أحمد بن حجاج، ومنهم بالشام

أبو الرقعق أحمد بن محمد الأنطاكي . فن مجون ابن سكرة قوله في

جارية بخراء تدعى خمرة جعلها محطا لكثير من مجونه

هل لك يا خمرة في تجربة مربحة ما مثل — ما تجره

سيرى إلى البصرة واسترزق ربك بالنكهة في البصرة

يزكوبها النخل وتحمر في غير أوان الحمر البصرة

ومن مجون ابن حجاج قوله لرجل دعاه إلى عرس ثم أخلف

أين نصيبي من الطعام وما طمعت في لعقة من الرقة

أشفقت منى وكان يقنعنى عندك ما ليس يوجب الشفقة

قطعة لحم في وزن خردلة على رغيف كأنه ورقة

ومن مجون أبي الرقعق قوله عن قيادته من قصيدة .

فأطيب العيش كان عندى أيام للفسق قلدوني

«١» بالتسبيل، مكان الصراع ومفعول أمر وهو ~~أمر~~ خاقان لقب

ملك الترك، وناعط هو ربيعة بن مرثد الهمداني صاحب مخالف باسمه

وكننت طبا به بصيرا وأفود الناس في سكون  
فكم غزال أخذت قسرا وكم مليح حوت يميني  
والناس يسمعون نحو داري من كل أرض ويقصدوني

٣ - الخمریات - قلنا إن الخمریات شغلت مطالع القصائد أولا مكان  
التشبيبات القديمة، ثم استقلت بعد بسائر القصيدة، ولذلك تعد من  
الفنون الجديدة في العصر العباسي. نعم إن الخمر نالها في عهد بني أمية  
شيء من أيام يزيد بن معاوية، وأشياء على أيام الوليد بن يزيد، ولكن ذلك  
لم يصل بها إلى أن تكون فنا من فنون الشعر مستقلا حتى جاء أبو  
الهندي عبد المؤمن بن عبد القدوس الرياحي، وكان شاعرا مطبوعا من  
مخضرمي الدولتين، فأشاد بذكرها لأدمانه المعاقرة وشغفه بالشراب  
مع ما كان يرمي به فن الفسق وفساد الدين حتى كاد شعره يكون كله  
فيها وكان في تلك الاشارة كثير الخوض عليها كقوله

قل للسرى أبي قيس أتهجرنا ودارنا أصبحت من داركم صمدا  
أبا الوليد أما والله لو عملت فيك الشمول لما فارقتها أبدا  
ولانسيت حمياها ولذتها ولا عدلت بها مالا ولا ولدا  
ثم جاء أبو نواس فلم يعدل بوصفها شيئا من الفنون، حتى بلغ مقاله  
فيها من القصائد والمقطعات والمطالع بضعة آلاف من الأبيات ولذا عد  
إمام واصفها بالاجماع، واقتدى به في ذلك عدد ممن عاصروه وإن لم  
يساوه. وكذلك كانت الخمریات في العصر الثاني ثم استفحل أمرها  
في الثالث على عهد آل بويه الذين كان أغلب شعرهم فيها حتى لم تبق  
زيادة لمستزيد. وعلى هذا الطغيان كانت في العصر الأخير. وقد رأيت

من ذلك نماذج لأبي نواس ولا بن المعتز وقبلها مثلها لمعز الدولة وأبي العباس بن ركن الدولة ، فلم يبق إلا نموذج تأتى به من العصر الرابع نخذه للطغرائى يصفها في شيبه ويجعلها بديلة الشباب

قد كان لى فى شيبتي مرح      يحدث لى بغتة بلا سبب  
فد تولى الصبا تبين لى      أن الصبا كان موجب الطرب  
حظ تولى فلست أدركه      إلا بعون من ابنة العنب  
فهاها من شيبتي بدلا      أقضى بها بعض ذلك الأرب  
صفراء مثل النضار ألبسها      مزاجها لؤلؤا من الحب  
فأسعد الناس من حوت يده      ماشاء من لؤلؤ ومن ذهب

٤ - الرثاء — ليس الرثاء محتاجا بعصر ما فى وجوده إلى تعليل ، مادامت رضى المنايا دائرات وما دام الدهر نقادا يستتاب النفيس ويفجع بالعزيز . وكل ما نريد أن ننبه عليه الآن ، أن الرثاء فى رقيه وانحطاطه كان سائرا وراء المديح ، وأنه لذلك بلغ فى العهد العباسى من جودة المعانى وحسن التعبير ، ما لم يصل إليه فى سابق أو لاحق من العصور ، وقد رأيت من مرأى العصر الأول قصيدة أبى تمام فى ابن حميد وهى مضرب الامثال فى عظمة المعانى وقوة الأداء ، ورأيت فى الثانى مقطعة ابن الزيات فى رثاء أم ابنه عمر ، وهى فيض من العاطفة الباكية والشعور المحزون ، ثم رأيت فى الثالث — وهو أرقى العصور رثاء لآته أرقاها مدحا — رثاء الرفاء لصديقه المصلوب ، وهو نوع من الرثاء جديد ، ورثاء الرضى للصبا ، ولعله أروع رثاء ، يتبين فيه صدق الاخاء . وإليك فى الرابع نموذج لآبن

سنان الخفاجى فى والدته، وكان الرثاء متطامنا فيه تطامن المديح قال :  
 قبحا ليومك فالنوائب بعده جنل وكل رزية لا تفجع  
 لو كان ينفعني السلو نبذته أسفا عليك فكيف إذ لا ينفع  
 هيهات يجمع شمل صبر نافر قلب بأيدي الحاديات مروع  
 أحنو الضلوع على بواعث غلة ضمن اذكرك أنها لا تنقع  
 عجبا لمن يبقى ذخائر ماله ويظل يحفظهن وهو مضيع  
 لا يغبطن على البقاء مرزأ إن المودع إلفه لمودع  
 ه - الزهد - من النواميس المقررة فى حياة الجماعات، أن نزوع  
 طائفة ما إلى ناحية ذات غلو وإفراط، يقتضى نشوء أخرى مضادة لها  
 فى الاتجاه ، ولذلك لما كان الوازع الدينى على عهد الراشدين وبنى أمية  
 قويا يكاد يشترك فى الخضوع له الناس جميعا دون استهتار أحد بالخروج  
 عليه فى تبجح وتظاهر ، لم نك ترى الزهد والغلو فى الدين باديا للعيان .  
 أمحين غزت الأباحية الشعب العربى على عهد بني العباس للأسباب  
 الكثيرة التى ذكرناها فيما قدمنا ، ونشأت من غزوها طائفة المستهترين ،  
 فلم يك مفر أن توجد طائفة تقاوم تلك ، همها التزهيد فى هذه الحياة  
 بتجسيم مقابحها وتكذيب زخارفها . وعدم الاغترار بما فيها من متاع إن  
 هو لإحطام ، بقدر تغيبها فى الآخرة وما فيها من لذة وخلود . نعم جدت  
 هذه الطائفة ، وعلى أنها كانت إزاء تلك قليلة العدد محدودة الاشخاص ،  
 أمكنها بقوة الدين ومدده القويم ، أن تنتج من المواعظ ونواحي الارشاد  
 ما أنار السبل على أيامهم ، وبقي بعدهم هدى للناس . ثم كان أشخاصها ذوى  
 مكانة فى نفوس الخلفاء وسائر الحكام ، إن لم يكن لدى بعضهم عن

عقيدة وإخلاص، فلا أقل أن يكون استرضاء للعامة بتقريب هؤلاء  
الوعاظ، وقد كان إمامهم في العصر العباسي الأول أبو العتاهية الذي  
سلف من قصصه ووعظه ما فيه الغناء ولقد تفرع عن هذا الوعظ  
بالتزهيد، نوع آخر من الحكمة، هو تأديب النفس بضرب الامثال وقص  
الحكايات، وأول من فعل ذلك أبان بنظمه كيلة ودمنة، وتبعه من  
ذكرنا آنفا حيث الكلام على هذا الكتاب. ثم اتصل الزهاد والمؤيدون  
فلم تخل الأرض من حجيج منهم لله على نوالى العصور. على أن التأديب  
بالتزهيد لم يعدم أن يصدر على لسان كثير من المستهترين فيكون حجة  
عليهم وتقوية للزاهدين. وهذا أبو نواس يقول :

أخى ما بال قلبك ليس ينقى كأنك لاتظن الموت حقاً  
ألا يابن الذين فنوا وبادوا أما والله مبادوا لتبقى  
ومالك فاعلمن فيها مقام اذا استكملت آجالاً ورزقا  
ومالك غير ما قدمت زاد اذا جعلت إلى اللهوات ترقى  
وما أحد بزادك منك أحظى وما أحد بزادك منك أشقى

٦ - الصفات - وعلى قدم الوصف في الشعر العربي منذ العهد الجاهلي  
لم يبلغ فيه ولا في العصرين بعده شيئاً مما بلغ في عصر بني العباس. ذلك  
بأن منابعه الحسية من مظاهر طبيعة وآثار حضارة، والمعنوية من  
مشاعر نفوس ومدركات عقول، كانت محدودة في الأول واقفة عند  
حدود قريبة في الآخرين. أما في العصر العباسي وقد تجلت فيه  
مظاهر الطبيعة وآثار الحضارة، وخطت فيه الوجدانات والعقول  
خطوات لم تكن في حساب، فقد أصبح الشاعر إذا غار في أعماق الفكر

لا ينتهى بقرار، وإذا طار مع الخيال لا يصل إلى سماء، ولذلك بلغوا في  
الناحيةين مبلغا يدهش عقل من لا يحيط بنواحي هذا الانقلاب الشمول.  
وليس يألوا مذكرنا من نماذج، وما استشهدنا به في معظم ماضى  
وبخاصة في ناحية المعانى والأخيلة أن يكون دلائل ناطقة، وآيات بينة  
على صدق ما نقول، فارجع إليه وإنه لقريب. ويكفى أن الوصف قد  
خاق بعض نواح منذ العصر الأول وأنضجها فيه حتى صارت فنا  
مستقلا كما تقدم في الخريات. ولم يقف دون السير في هذا العصر نفسه  
بفن آخر جديد هو وصف الرياض وما تحوى من آيات جمال كما  
رأيت في بعض ما اخترنا، ثم ماكد الزمن يخطو إلى العصر الثانى حتى  
استوى هذا الفن على سوقه يعجب الزارع، وصدر فيه على السنة كثير  
من الشعراء ما يبهز الناظرين، وإليك بعض ما قيل

قال ابن المعتز يصف إقبال الربيع	ض وشكر الرياض للأمطار
ماترى <sup>(١)</sup> نعمة السماء على الأرض	وانفتاق الأشجار بالأنوار
وغناء الطيور كل صباح	وكأننا من قطره في نثار
وقال على بن الجهم يصف الورد	
لم يضحك الورد إلا حين أعجبه	حسن الرياض وصوت الطائر الغرد
بدا فأبدت لنا الدنيا محاسنها	وراحت الراح في أنوارها الجدد
وقالته يد المشتاق تسنده	إلى الترائب <sup>(٢)</sup> والأحشاء والكبد
كأن فيه شفاء من صباه	أومانعا جفن عينيه من السهد

(١) ما هنا مخفف أما (٢) عظام الصدر.

بين النديمين والخلين مصرعه وسيره من يد موصولة بيد  
 ما قابلت طلعة الريحان طلعتة إلا تبينت فيه ذلة الحسد  
 قامت بحجته ربح معطرة تشفى القلوب من الأوصاب والكمد  
 لا عذب الله إلا من يعذبه بسمع بارد أو صاحب نكد  
 وقال ابن الرومي - وكان مولعا بالخلاف - يفضل النرجس على الورد  
 خجلت خدود الورد من تفضيله خجلا توردها عليه شاهد  
 لم يخجل الورد المورد لونه إلا وناحله الفضيلة<sup>(١)</sup> عائد  
 للنرجس الفضل المبين إذا بدا بين الرياض طريفه والتالد  
 فصل القضية أن هذا قائد زهر الربيع وأن هذا طارد  
 شتان بين اثنين هذا موعد بتصرم الدنيا وهذا واعد  
 فاذا احتفظت به فأمتع صاحب بحياته لو أن حيا خالد  
 ينهى النديم عن القبيح باعظه وعلى المدامة والسماع مساعد  
 اطلب بعقلك في الملاح سمييه أبدا فانك لا محالة واجد  
 والورد إن قتشت فرد في اسمه مافي الملاح له سمي واحد<sup>(٢)</sup>  
 هذى النجوم هي التي ربهما بحيا السحاب كما يرني الوالد  
 فانظر إلى الولدين من أدناهما شبيها بوالده فذاك الماجد  
 أين الخدود من العيون نفاسة ورياسة لولا القياس الفاسد  
 وحين أقبل العصر الثالث صارت الزهريات من أوسع فنون  
 الشعر ، فلم تبق زهرة ولا ريحانة ولا أى شيء مما تنبت الرياض على  
 اتساع الرياض إلا أشبعه شعراؤه نعتا ووصفا . استمع إلى القاضى

(١) ناسبها إليه (٢) يظهر أن التسمية كانت شائعة بينهم دون ورد

على بن محمد التنوخي يقول :

ورياض حاكّت لهنّ الثريا      حللا كان غزلها للرعود  
نثر الغيث در دمع عليها      فتحلّت بمثل در العقود  
أقحوان معانق لشقيق      كنفور تعض ورد الخدود  
وعيون من نرجس تترأى      كعيون موصولة التسبيد  
وكان الشقيق حين تبدى      ظلمة الصدغ في خدود الغيد  
وكان الندى عايبا دموع      في عيون مفجوعة بفقيد  
وعلى هذا الافتنان بقيت الزهريات في العصر الرابع، قال الأرجاني  
يصف روضة في مطلع قصيدة غزلية

ماروضة أضحكّت صبيحا مباسمها      دموع قطر عايبها الليل ينسفك  
فالنرجس الغض عين كلها نظر      والأقحوانة ثغر كله ضحك  
وللمشقائق زى وسطها عجب      إذا تمايلن والأرواح تأففك<sup>(١)</sup>  
حمر الثياب تطير الريح شائلة      أذيلاها وهي بالأزوار تمتسك  
إذا الصبا نبهت أحداقها سجرا      حسبت مسكا على الآفاق ينفرك  
أتمّ طيبا وحليا من ترائبها<sup>(٢)</sup>      إذا اعتنقنا وخيل الليل تعترك

ولم يترك الوصف شيئا بعد هذين الفنين من سائر فنونه إلا  
أجاد فيه كما ترشد إلى ذلك بعض النماذج والمستشهد به من الأبيات،  
ومن العسير أن نتعرض للاستقصاء فإن الباب طويل .

١٠ - وأخيرا هذا فن حاشر لا يصح إغفال التنبيه عليه هنا وهو  
ضبط قواعد العلوم والفنون على اختلاف أنواعها بالمزدوجات وغير

(١) تتناوح في تصرفها (٢) أتمّ خبر ما النافية المفتتح بها الشعر



المزدوجات، نعم إن هذا الفن قد ابتدئ الشعر وخط من قدره لأنه أخرجه في معناه من أودية الخيال ومشاعر الوجدان، وبعد به في لفظه عن أناقة التعبير ورشاقة الأسلوب، ولكن ذلك ليس بمخرجه عن أنه من فنون الشعر على أية حال، وإذا قد فاتنا التمثيل له فيما مضى فلنأت منه في كل من العصرين الثالث والرابع بمثال لكثيرته فيهما نظراً لتقدم العلوم.

قال ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ في الحمد من منظومة له في المنطق  
إذا أردت أن تحدد حداً فرتب الجنس القريب جداً  
فانه يحصر كل ذاتي يكون للحدود في الصفات  
ثم اطلب الفصول فهي الحاد من صورة أخذتها أو مادته  
وقال الحريري في أدوات الشرط من ملحمة الأعراب

هذا وإن في الشرط والجزاء تجزم فعلين بلا امتراء  
وأختها أى ومن ومهما وحيثما أيضاً وما وإذما  
وأين منهن وأنى ومتى فاحفظ جميع الأدوات يافى  
٢ - ناحية المعانى والأخيلة

لقد كان نضج العقول واتساع الأفكار بما حدث في العهد العباسى من تدوين العلوم وترجمتها، طاملاً مهما على تفسيح ميادين المعانى وتفجير ينابيعها، وكان وضع القصة المعتمدة على الفرض والتمثيل، ومظهر الحضارة المصحوبة بحاسن الطبيعة وجمالها، منمياً للملكة التصور ومكثراً لأنواع الأخيلة. كما كانت الملاحظة الدائبة بين الجماعات من الجنسية ومذهبية، والخصومة القائمة بين الزهاد والمستمتعين من أقوى البواعث

على نشر المباحثة والمناظرة ، وخلق القدوة على الجدل والفسفسطة في النفوس ، فلم يعد الناس يتقبلون القضايا مجردة من الحجة والدليل . وكل هذا عاد على المعاني والاخليلة بتقديم واضح ورقى كبير أجملنا مظاهره حيث الكلام على ما كان لحياة اللغة في ذلك من نصيب . وهانحن أولاء مفصلوه في الشعر تفصيلا يعتمد أول ما يعتمد في التمثيل له على ما أسلفنا من نماذج .

١ - استنباط الدقيق والجديد من المعاني - جال الشعراء في هذا الميدان جولات بعيدة المدى ، ظهر أثرها متشعب النواحي في كل ما طالجوا من فنون الشعر ، حتى لقد تراحم الكثير منها في القصيدة الواحدة تراحما كان غير معروف ، كما فعل ابن الرومي في قصيدته السابقة التي تصدى فيها لهجاء إبراهيم بن المديبر ، حيث جعل ثناء رواده عليه شركا ليستمحيه غيرهم فيخيب خيبتهم ، وحيث جعل نكوص هجائه عنه لنجاسة لؤمه لا لانه جنة ، وحيث جعل هذا الهجاء لباسا يظنى روحه ويشقيها انتقاما للأبراد التي طالما أشقاها جسده ، وهكذا من سائر المعاني الدقيقة التي طالجها . وكما فعل الرفاء في رثائه صديقه الفتي المصلوب من بنى شيبان ، إذ تصوره بدرا مفقودا مع أنه غير آفل ، وإذ سوى بين ثنى عطفه في غلالة الصلب وسابغة الحرب ، وإذ جعله معرى كالسيف منتضى ، وإذ اعتقد أن القدر أحله الهواء ضنا به عن ضحك الثرى ، إلى آخر ما حالج<sup>(١)</sup> وكما فعل الصابي في قصيدته التي يعزى بها نفسه وهو

---

(١) معظم ما وقع من معان في المصلوبين جاء جديدا ، لأن التمثيل بقتلاه يكن شائعا ، ومن أسير القصائد فيه قصيدة أبي الحسن الانباري في أبي

في السجن، من تفضيل من سجنه عزه على من أطلقه ذله ، ومن جعله  
 هذه النائية أثرا لمنازلته الدهر ، وتلك اليد ضده والسعاية به أثرا لمد يده  
 إلى النجم وسعيه نحو المنجد ، إلى آخر ما تناول وهو كثير . ولغير هؤلاء  
 فيما تقدم من نماذج تناول دقيق للمعاني وإن لم يك في القصيدة بالكثير  
 كالذي رد به التهامي تهمة حببيته إياه أنه نسيها بمجديد ، من أنها أخذت  
 حواسه وعقله ، فكيف يعشق لو أراد ، كالذي ألم به مهيأ في تهنته  
 ابن على المغربي بالنيروز وهو يهنته بالوزارة ، كالذي طأله الغزى في  
 مدحه اليبهقي من خلطه مدحه ببيان أنه يكره مدح الناس ، في شبه تخويف  
 بما قد يحملة عليه المظل من هباء ، ثم كالذي قاله الأرجاني في هجو أهل  
 زمنه وسوء حالهم من عدم إعطائهم إذا مدحوا وحنقهم إذا لم يمدحوا .

طاهر محمد بن بقية وزير عز الدولة بين بويه ، حين قبض عليه عضد الدولة إذ  
 انتصر على ابن عمه المذكور وقتله وصلبه .

علو في الحياة وفي الممات . لحق تلك إحدى المعجزات  
 كأن الناس حولك حين قاموا وفود نذاك أيام الصلات  
 كأنك قائم فيهم خطيبا وكلهم قيام للصلاة  
 مددت يديك نحوهم احتفاء كدها إليهم بالهبات  
 ولما ضاق بطن الأرض عن أن يضم علاك من بعد الوفاة  
 أصاروا الجوق بك واستعاضوا عن الألفاظ ثوب السافيات

ومن جيده أيضا قول عمارة اليمى في حاص قتل وصلب

ومد على صليب الصلب منه يمينا لا تطول إلى شمال  
 ونكس رأسه لعتاب قلب دماه إلى الغواية والضلال

وهذه طائفة ثانية من الممانى الدقيقة التى تظهر عليها الجدة مع دقتها .

قالى إشار ينسب العشق إلى الأذن كالعين

ياقوم أذن لبعض الحى عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا

قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم الأذن كالعين توفى القلب ما كانا

وقال فى إهلاك مائه بعدوى كفه من كف ممدوحه

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يعدى

فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت وأعدانى فأثقلت ما عندى

وقال أبو نواس يشبه نفسه وقد حرم عليه الخليفة الشراب - فكان يمدح

الخمر ولا يشربها - بقعدى الخوارج يحرض على الخروج ولا يحمل السلاح

فكأنى بما أزين منها قعدى يزين التحكـ

كل عن حملة السلاح إلى الحر ب فأوصى المطيق ألا يقـ

وقريب من هذا قول الغزى بعد

أنا فى الحلة الغداة كأتى علوى فى قبضة الحجاج

وقال إسحق بن ابرهيم الموصلى فى فلسفة الهجر

أخاف عليها العين من طول وصلها فأهجرها الشهرين خوفا من الهجر

وما كان هجرانى لها عن ملالة ولا كنى أملت عاقبة الصبر

أفكر فى قلبى بأى عقوبة أعاقبه فيها لترضى فما أدرى

سوى هجرها والهجر فيه دماره فعاقبته فيها من الهجر بالهجر

فكنت كمن خاف الندى أن يبله فعاذ من الميزاب والقطر بالبحر

وقال ابن المعتز جاء علا تحكم الضيف بربعه أنفذ من تحكم آباءه على الأئم

بحكم الضيوف بهذا الربع أنفذ من حكم الخلائف أبائى على الأئم

فكل مافيه مبدول لطارقه ولا زمام له إلا على الحرم  
 وقال أبو فراس في أثر سنان أصاب خده فعز ذلك على حبيبته  
 لما رأت أثر السننات بخده ظلمت تقابله بوجهه عابس  
 خلف السننات به مواقع لثما بثس الخلافة للمحب البائس.  
 حسن الثناء بقيح ماصنع القنا يوم الطعان بصحن خد الفارس  
 وقال ابن الرومي يحال لنفسه عدم تفاضيه عن خطأ صديقه  
 يا أبا القاسم الذي كنت أرجو • لدهري قطعت متن الرجاء  
 أنت عيني وليس من حق عيني غص أجفانها على الأقداء  
 وقال في الحبيبة تقتل بنظرها وإعراضها  
 نظرت فأقصدت الفؤاد بلحظها ثم اثنت عنه فظل يهيم  
 فالموت إن نظرت وإن هي أعرضت وقع السهام ونزعهم أليم  
 وقال أبو تمام يجعل نعمة الطالب تعويذة لعطايا الممدوح كيلا تجن  
 تكاد عطاياه يجن جنونها إذا لم يعوذها بنعمة طالب  
 وقال يذكر فضل الحاسد على المحسود  
 وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود  
 لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود  
 وقال يذكر فضل قبور بني مالك على الثرى  
 بني مالك قد نهت حامل الثرى قبور لـكم مستشرفات المعالم  
 غوامض قيد الكف من متناول وفيها علا لا يرتقى بالسلام  
 وقال يجعل المجد شفيعة في عدم التقاضى  
 وإذا المجد كان عوني على المر • تقاضيته بترك التقاضى

وقال المتنبي يذكر أنه رأى الماضين من فلاسفة وملوك في ابن العميد  
من مبلغ الأعراب أتى بعدها جالست رسطاليس والاسكندرا  
وسمعت بطليموس راوى كتبه متمسكا متبديا متحضرا  
ولقيت كل الفضلين كأنما رد الاله نفوسهم والأعصرا  
نسقوا كما نسق الحساب مقدا وأتى فذلك<sup>(١)</sup> إذ أتى متأخرا  
إلى غير ذلك مما لا يتناوله إحصاء

هذا - ولقد كانت رغبة المحدثين في تدقيق المعاني حاملة لهم على  
استخراج المكنون وتجلية المستور، فجاءت لذلك لائحة ثوب الجدة  
والابتكار، ولعلمهم لهذا كانوا إذا ألموا بتقديم جعلوا لأنفسهم فيه ميزة  
أو يدا بمجديد، وهذه ناحية حافلة بالأمثال المشرفة لكثير منهم في كثير  
من أبواب الأدب ولا سيما باب السرقات . وقد ذكر منها طائفة صالحة  
أبو هلال العسكري في كتابه الصناعاتين، وهذا بعض ما جاء فيه وفي  
غيره كالعمدة لابن رشيق

قال أبو نوانس، وله في هذا الباب باع طويل  
وإذا المطى بنا بلغن محمدا فظهورهن على الرجال حرام  
فكان أوثق وأسخر وأرق من الفرزدق حيث يقول  
متى تأتي الرصافة تستريحى من الأنساع والدبر الدوامى  
وقال في محاسن حبيب بك

بيكى فيزرى الدر من نرجس ويلطم الورد بعناب  
فكان فاضلا الأسود بن يعفر بالزيادة والركة إذ يقول

(١) يريد أنى في النهاية جامعاً لما سبقه من فذلك حسابه إذا أنهاه بقوله فذلك جملة.

يسمى بها ذو توأمين كأنما قنأت أنامله من الفرصاد<sup>(١)</sup>  
 كما كان معبد الطريق لأن يزيد عليه غيره كلواواء الدمشقي في قوله .  
 وأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت وردا وعضت على العناب بالبرد  
 وقال في دقة أخذ

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد  
 فكان بيته أعظم معني وأشد مبالغة من بيت جرير  
 إذا غضبت عليك بنو تميم رأيت الناس كلهم غضابا  
 ومثل هذا في دقة الأخذ قول أبي تمام  
 فتى مات بين الطعن والضرب ميتة تقوم مقام النصر إن فاته النصر  
 فانه جعل الموت في الحرب انتصارا ، كما جعل ابن الوردي اجتهاده عذرا  
 في قوله

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا من المال يطرح نفسه كل مطرح  
 ليبلغ عذرا أو ينال رغبة ومبلغ نفس عذرها مثل منجبح  
 وقال في تمنى الطير غزوة ممدوحه لتأكل من لحم قتلاه  
 تمنى الطير غزوته ثقة باللحم من جزره  
 فكان له فضل الإيجاز مع الإيضاح على النابغة حيث يقول .  
 إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدى بعصائب  
 جوانح قد أيقن أن قبيله اذا ما التقى الجيشان أول غالب  
 وقال في ذلك مسلم

---

(١) الضمير راجع إلى دور المناذرة بعد خلوها منهم وتهدمها ، وقنأت  
 اشتدت حمرتها ، والفرصاد الثوت الأحمر أو صبنج أحمر

قد عود الطير حادات وثقن بها      فمن يتبعنه في كل مرتحل  
وقال فيه أبو تمام

وقد ظلت أعناق أعلامه ضحى      بعقبان طير في الدماء نواهل  
أقامت مع الرايات حتى كأنها      من الجيش إلا أنها لم تقاتل  
ثم جاء المتنبي ففضل الجميع بما زاد فيه اذ يقول

يفدى أتم الطير عمرا سلاحه      نسور الملا أحداثها والتشاعم  
وماضرها خلق بغير مخالب      وقد خلقت أسيفه والقوائم  
وقال أبو تمام في إعراض ممدوحه عن الدنيا للسؤدد

يصد عن الدنيا اذا عن سؤدد      ولو برزت في زى عذراء ناهد  
فكان قوله بزيادته أقوى من قول المعذل بن غيلان .

ولست بنظار إلى جانب الغنى      إذا كانت العلياء في جانب الفقر  
وقال منصور النيرى

فلو كنت كالعنقاء أو كسموها      خللتك إلا أن تصد ترانى  
ففضل النابغة حيث يقول

فانك كالليل الذى هو مدركى      وإن خلت أن المنتأى عنك واسع  
وهذا معنى أكثر فيه المحدثون غير منصور فأجادوا؛ قال سلم الخاسر .

ولو ملكك عنان الريح أصرفها      في كل ناحية ما فأتاك الطلب  
وقال البحتري .

ولو أنهم ركبوا الكواكب لم يكن      ينجيهم من خوف بأسك مهرب  
وقال علي بن جبلة .

وما لأمريء حاولته منك مهرب      ولو رفعته في السماء المطالع



بلى هارب لا يهتدى لمكانه ظلام ولا ضوء من الصبح ساطع  
على أنا لا نعط المتقدمين حقهم في أن لهم من المعاني ما لم يزد فيه  
المتأخرون قلوا أم كثروا كقول جرير

ولا يمنعك من أرب لحام سواء ذو العمامة والخمار  
فقد أخذه المتنبي دون زيادة إذ يقول  
ومن في كفه منهم قناة كن في كفه منهم خضاب  
وكقول عمر بن أبي ربيعة .

لقد دب الهوى لك في فؤادي ديب دم الحياة إلى العروق  
فقد أخذه مسلم كما هو في قوله  
نجرى محبتها في قلب عاشقها جرى السلامة في أعضاء منتكس  
وأخذه أبو نواس كذلك ولكن نقله إلى الخمر بقوله .

فتمشيت في مفاصلهم كتمشى البرء في السقم

٢ - الا كثار من ضرب المثل وحسن التعليل - كن من أهم الدواعي  
إلى طلب الأمثال حاجة العقلية الجديدة إلى شفع القضايا بما يوضح  
معناها ويؤيد دعواها ، وقد ساعد القائلين على ضربها ما انتشر في  
البيئات الجديدة منذ الصدر الأول من ترجمة الأفاضل في الحكم  
والامثال ، ووضع قواعد العلم في مختلف الفنون ، ولذلك نعد منها ما سبق  
أنفا في استخدام مصطلحات العلوم . وأنت اذا رجعت إلى ما أسلفنا  
من نماذج ألميت ذلك كثير الانبثاق في ثناياها لابن الرومي والمتنبي وأبي  
فراس والصابي والخفاجي والأرجاني وابن عنين ، فارجع إلى ما اختير  
لهم تجدها بارزة فيه . وهذه طائفة ثانية .

### قال أبو العتاهية

يارب ذى نسب تكنفه      حب الحياة وغره نشبه  
قد صار مما كان يملكه      صفرا وصار لغيره سلبه  
يا صاحب الدنيا المحب لها      أنت الذى لا ينقضى تبعه  
إن استهانتها بمن صرعت      لبقدر ما تسمو به رتبه  
وإن استوت للنمل أجنحة      حتى يطير فقد دنا عطبه

### وقال أبو تمام

وطول مقام المرء فى الحى مخاق      لذي باجتيه فاغترب تتجدد  
فانى رأيت الشمس زيدت محبة      إلى الناس أن ليست عليهم بمرمد

### وقال

إن ريب الزمان يحسن أن يهـ      لى الرزايا إلى ذوى الأحساب  
فلماذا يجف بعد اهتزاز      قبل روض الوهاد روض الروابي

### وقال

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى      فالسيل حرب للسكان العالى

### وقال

يأيتها الملك النائى برؤيته      وجوده لمراعى جوده كئيب  
ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا      إن السماء ترجى حين تحتجب

### وقال البحتري

دنوت تواضعا وعلوت مجدا      فشأنك انحدار وارتفاع  
كذلك الشمس تبعد أن تسمى      ويدنو الضوء منها والشعاع

### وقال

دان على أيدي العفاة وشاسع      عن كل ند في الندى وضريب  
كالبدر أفرط في العلو وضوءه      للعصبة السارين جد قريب  
وقال

وقد زادها إفراط حسن جوارها      خلائق أصفار من الحسن خيب  
وحسن دراري الكواكب أن ترى      طوالع في داج من الليل غيب  
وقال ابن الروي

وما الحسب الموروث لادر دره      بمحتسب إلا بآخر مكتسب  
إذا العود لم يشمر وإن كان شعبة      من المثمرات اعتده الناس في الخطب  
وقال

لما تؤذن الدنيا به من صروفها      يكون بكاء الطفل ساعة يولد  
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه      بما سوف يلقي من أذاها يهدد  
والأفا يبكيه منها وإنها      لأحسن مما كان فيه وأرغد  
وقال المتنبي

وشبه الشيء منجذب إليه      وأشبهنا بدنيانا الطغام  
ولو لم يعمل إلا ذو محل      تعالى الجيش وأنحط القتام  
وقال قابوس بن وشمكير

ياذا الذي بصروف الدهر عيرنا      هل عاند الدهر إلا من له خطر  
أما ترى البحر تطفو فوقه جيف      وتستقر بأقصى قعره الدرر  
وفي السماء نجوم لا عدد لها      وليس يكسف إلا الشمس والقمر  
وقال ابن المعتز

قالوا اشتكت عينه فقلت لهم      من شدة الفتك نالها الوصب  
م - ٢٥ أدب

حمرتها من دماء من قتلت والدم في النصل شاهد عجب  
وقال ابن نباتة السعدي من وصف فرس أغر محجل  
وأدم يستمد الليل منه وتطلع بين عينيهِ الثريا  
سرى خلف الصباح يطير زهوا ويطوى خلفه الأفلاك طيا  
فلما خاف وشك الفوت منه تشبث بالقوائم والمحيا  
وقال ابن قلاقس الاسكندري

مضى معهم قلبي قاله دره لقد سرني إذ مر مع من يسره  
وأطول من هجر الحبيب وصبوتي ويوم النوى ليلى وهمى وشعره  
وليس دما ماء الجفون وإنما فؤادي بماء الدمع قد ذاب جهره  
وقال ابن شبيل البغدادي

يفني البخيل بجمع المال مدته وللحوادث والأيام ما يدع  
كدودة القز تبنيه ويهدمها وغيرها بالذى تبنيه ينتفع  
٣ - استخدام البراهين العقلية والآراء الفلسفية - لم تكن شاعرية  
الشاعر قبل العصر العباسي تعتمد منه على ثقافة علمية، ولذلك بقي شعره  
فطريا ليس فيه أثر من تثقيف وتعليم. أما في العصر العباسي فقد انحرف  
الشعراء في زمرة العلماء، وأصبح منهم في كل ناحية أعلام، وتأثر شعرهم  
من هذه الناحية تأثرا شديدا، فكان ميدانا لأفكارهم العلمية ومجالا  
لآرائهم الفلسفية، وظهر فيه العقل المثقف بمظهر الغلبة على العقل  
الفطري، وكان المجتمع الجديد بما فيه من حوار وتقاش في الدين وغير  
الدين ممينا لهذه الظاهرة دافعا لها إلى الامام. ولعل أول خطوة في سلوك  
هذه السبيل كانت القدرة على صوغ الحكمة بعد ضرب المثل وإحسان

التعليل على ألسنة كثير من شعراء العصر الاول كبشار وأبي العتاهية،  
وبعدها كان اقتباس بعض المعاني الفلسفية لشيوع العلوم القديمة بين  
المسلمين بعد ترجمتها منذ عهد المنصور إلى عهد المأمون . وقد ظهر هذا  
الاقتباس على ألسنة بعض شعراء العصر الثاني كابن الرومي

ولما جاء العصر الثالث وفاضت فيه العلوم الفلسفية فيضا، اغترف  
الشعراء منها اغترافا ظهر غزيرا على لسان أول شعرائه المتنبى ، ثم زاد  
غزارة وعمقا بعقلية فيلسوفه وآخر شعرائه المعري . ولكن بعد هذا  
المعين في العصر الرابع على الشعراء فعجزوا عن الامتياح ، ومن حاول  
منهم السقيا على طول الرشاء أبعد التفكير ووقع في الخفاء .

وهذى بعض أمثلة لمن ذكرنا من الشعراء

قال بشار في الحكم القريبة من وحى الفطرة

إذا كنت في كل الامور معاتبا      صديقك لم تلق الذي لاتعاتبه  
فمش واحدا أو صل أخاك فانه      مقارف ذنب مرة ومجانبه  
إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى      ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه  
ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها      كفى المرء نبلا أن تعد معايبه  
وقال في فلسفة الخيرة وكان من أصحابها

طبعت على مافى غير خير      هواى ولو خيرت كنت المهذبا  
أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد      وقصر علمى أن أنال المغنبا  
فأصرف عن قصدى وعلمى مقصر      وأمسى وما أعقبت إلا التعجبا  
وقال أبو العتاهية وكانت فلسفته في الزهد والدين - وله في ذلك الأرجوزة

التي قلنا آ نفا إن بها أربعة آلاف مثل - يعظ ويذكر

يعجبنا للناس ، لو فكروا وحاسبوا أنفسهم أبصروا  
 وعبروا الدنيا إلى غيرها فانما الدنيا لهم معبر  
 الاخير مما ليس يخفى هو السمعروف والشر هو المنكر  
 والموعد الموت وما بعده المحشر فذاك الموعد الاكبر  
 لاخبر إلا نخر أهل التقى غدا إذا ضمهم المحشر  
 ليعلمن الناس أن التقى والبر كانا خير ما يذخر  
 عجبت للانسان في نخره وهو غدا في قبره يقبر  
 ما بال من أوله نطفة وجيفة آخره يفخر  
 أصبح لا يملك تقديم ما يرجو ولا تأخير ما يحذر  
 وأصبح الأمر إلى غيره في كل ما يقضى وما يقدر

وقال ابن الرومي في الحيرة بين حب المال والخوف من طلبه

أذاقتني الأسفار ما كره الغنى إلى وأغراني برفض المطالب  
 فأصبحت في الاثراء أزهد زاهد وان كسنت في الاثر أرغب راغب  
 حريصا جبانا أشتهى ثم أنتهى بلحظى جناب الرزق لحظ المراقب  
 ومن راح ذا حرص وجبن فانه فقير أتاه الفقر من كل جانب  
 تنازعني رغب ورهب كلاهما قوى وأعيانى اطلاق المغايب  
 فقدمت رجلا رغبة في رغبة وأخرت رجلا رهبة للمعاطب  
 أخاف على نفسى وأرجو مفازها وأستار غيب الله دون العواقب  
 ألا من يرينى غايتى قبل مذهبي ومن أين والغايات بعد المذاهب  
 وصبرى على الاقتار أيسر محملا على من التفرير بعد التجارب

وقال أيضا وكان شغوفا بمخالفة المؤلف في فلسفته<sup>(١)</sup> بمدح الحق ويحسنه  
وخير سجيّات الرجال مسجية توفيك ما تسدى من القرض بالقرض  
ولا عيب أن تجزى القروض بمثلها بل العيب أن تدان ديننا ولا تقضى  
ولولا الحقود المستكنات لم يكن لينقض وترا آخر الدهر ذو بقض  
وما الحقدا إلا توأم الشكر في الفتى وبعض السجيا ينتهبن إلى بعض  
فحيث ترى حقدا على ذى إساءة فثم ترى شكرا على حسن القرض  
وقال المتنبي - وقد مزج الفلسفة بحياته مزجا - يعبر عن آماله وآلامه  
أود من الأيام مالا توده وأشكو إليها بيننا وهي جنده  
أبى خلق الدنيا حبيبا تديمه فما طلبى منها حبيبا توده  
وأسرع مفعول فعلت تغيرا تكلف شيء فى طباعك ضده  
وأعجب خلق الله من زاد همه فقصر عما تشتهى النفس وجده  
فلا يجد فى الدنيا لمن قل ماله ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده  
وفى الناس من يرضى بميسور عيشه

ومركوبه رجلاه والنوب جلده  
ولا يكن قلبا بين جنبي ماله مدى ينتهى بي فى مراد أحده  
وحكمه أشهر من أن تدون وأكثر أن تحصى  
أما أبو العلاء فقد خلق فيلسوفا وللفلسفة طاش، وحسبه أن خلف

(١) يدل على تأصل هذه الهوىة فى نفسه قوله

فى زخرف القول تزين لباطله والحق قد يعتره سوء تعبير  
يقول هذا مجاج النحل تمدحه وان ذممت فقل قى الزناير  
مدحا وذما وما جاوزت وصفهما حسن البيان يرى الظلماء كالنور

في آرائه الفلسفية ديوانه الضخم « اللزوميات » وحسبك أن تعرف الآن غزارة آرائه الفلسفية وتزاحمها على الموضوع الواحد بالرجوع إلى تائيته التي اخترناها بالنماذج من هذا الديوان عن فلسفته في المرأة . فقد قرر فيها أن النساء ذوات خداع؛ وأنهن فوارس فتنة للرجال وآيات إغراء وأنهن الظالمات وإن ادعين أنهن المظلومات ، ثم ذكر أن الرجل يصحبهن فيخرجن له الأولاد وفيهم النوائب المسقامات وأبان وجه ذلك في الذكور والانات وما يحذر من تستر المرأة وخداعها بالحجاب . ثم انتقل إلى تعليم المرأة الفصاحة والبيان، فجعله في يدها أداة شر وممول فساد، وأبان أن خير ما تتعلمه القراءة والتلاوة على عجوز، وأن خير ما تعمل حمل المغزل لاجل الأقلام، ثم غادر هذا إلى تحذير الشيخ المقل أن يتزوج من المعصر المرفهة، وإلى الرجل مطلقاً أن يجاوز الواحدة إلى ضرة، وإلى الشاب أن يسرف في شبابه للغانيات . ثم ختم آراءه في ذلك بتقريره أن حفظ الخريدة لا يكون إلا بعمل يسد غارها فتفديه بالورع والسكوت . كل هذه النواحي قد عالجها في تلك القصيدة معالجة فليسوف خبير في تحديد معان وبسط آراء، فجاءت عنواناً ظاهراً لمعالجته الفلسفية ودليلاً واضحاً على نضوج عقله وغور فكره، وعليك أن ترجع إليها لترى أن ما ذكرناه عنها أقل مما تقف عليه بقراءتها .

٤ — الأبداع في التصوير والاعراب في الخيال - كانت هذه الناحية أظهر النواحي في شعر العصر العباسي منذ أن بدأ إلى أن زال . ذلك بأنه ورث إذ بدأ حضارة فارسية ضاربة في القدم إلى عهد مسحيق، وفيها من آثار الخيالات الواسعة والتصاوير البارعة، ومن صناعات الأيدي



الصناع ذات المهارة والنقش ، الشيء الكثير ، هذا إلى ما جادت به الطبيعة تلك البلاد من مناظر ذات بهجة وسحر ، فكان شعراء بغداد حيث تلقوا وجدوا منابع الخيال على بعد قرارها أجرى من السلسال وأصفي من الزلال ، ولذلك جروا في ميدانه وطاروا في سمانه إلى مدى بعيداً نتج من التصاوير الهائلة والخيالات المبدعة ما جاء فننه للناظرين ، وصار لمن خلفهم من الشعراء بعد انتشار الآداب في الحواضر والأقطار ، المأخذ ومحل المحاكاة ، في مصر والشام وغيرها من سائر الأقاليم مع الاحتفاظ لكل إقليم بسعة حضارته وطبيعة أرضه إلى حد ما . واليك بعض ما كان لهؤلاء وهؤلاء من آثار نفيسة مشكورة في هذا الباب بعد أن نشير إلى ما برز منه في النماذج قبل .

رأيت فيما رأيت وصف بشار لحبيبتة وكيف أبدع في تشبيهات حاسنها ، ووصف أبي نواس سلاف الشهيد ونحله كيف انسجم فيه التصوير وتسلسل الخيال ، ووصف البحتري خروج المتوكل في عيد فطور للصلاة ، وكيف اشتق من شعائر الدين عن طريق الخيال ما خلع على الموكب جلالاته ليس بعده جلال . ووصف ابن المعتز الحمر وساقبها ومجلسها والخروج لصيد شوائها ، وتخيله في وصف الكأس والبذل والاستمتاع بالشراب ، وفي السلوقية كيف تصيد وفي طواف السقاة ونشوة الشاربين ، ثم في مجلس الشراب أرضه وسمائه وحيطانه واصطخاب العيدان فيه . ووصف السمرى الرفاء لصديقه المصلوب وما تضمن من خيال جديد . ووصف التهامي للثغر والطيف ومظاهر الليل في ثباته أولاً وفي انهزام أدهمه أمام أشقر الفجر ثانياً إلى آخر ما أغرب به من خيال . ووصف صردر

لمداد دواته وقد بدأ يعلوه المشيب وما اندفع إليه من وصف القلم  
والقراطيس . ووصف ابن حيوس وعمارة اليمنى . الأول دار تاج الملوك  
المرداسى بالشام ، والثانى دار آل رزيك بقاهرة العزيز وما جرى إليه وراء  
الخيال فيما طالما من وصف النقوش والتمهيد على اختلاف أنواعها  
وتنوع مرائها . ووصف ابن التعاويذى غلمان الناصر الاثراك وصفا  
عقد فيه بين فتنة الجمال وجرأة الأقدام . إلى غير هذه من مظاهر  
الحضارة المختلفة الألوان . على أنه لا يفوتنا التنبؤ به بتعرض الطغرائى  
لمظهر بدوى دفعه إليه ذكر القديم والحنين إلى ديار الأعراب ، وهو وصفه  
هاجرة بدأ فيها مع صحبه رحلة جاوزتها إلى الليل فاستغرقته إلى السحر  
منه حيث وردوا غديرا اشتبه مأواه على عيسهم بضوء الفجر المنبعث  
عليهم من الشرق ، إلى غير ذلك مما باغ فى تصويره حدا نرى من الظلم  
له التعرض لوصفه دون ذكره ، فلترجع إليه هناك ولنعد نحن إلى ما وعدنا  
به من خيال وتشبيه بعد الإشارة إلى هذه الاوصاف .

قال بشار يشبه فؤاد المضطرب وعين المسهد الخائف

كأن الفؤاد ككرة ترانى حذار البين لو نفع الحذار  
يروعه السرار بكل شيء مخافة أن يكون به السرار<sup>(١)</sup>  
أقول وليأتى تزداد طولا أما لليل بعدهم نهـار  
جفت عيني عن التغميض حتى كأن جفونها عنها قصار  
وقال فى نوع شرابه ومحاسن محبوبته  
أبها الساقيان صبا شرابى واسقيانى من ريق ثغر برود

(١) المسارة مصدر سار يسهه سارا ومسارة

إن دأى الصدى وإن شفى شربة من رضاء بيضاء رود<sup>(١)</sup>  
عندها الصبر عن لفاى وعندى زفرات يأ كان قاب الجليد  
ولها مبسم كغفر الأ قاحى وحديث كالوشى وشى البرود  
نزلت فى السواد من حبة القـلب ونالت زيادة المستزيد  
ثم قالت نلتك بعد ليال والليالى يبلين كل جديد  
لا أبالى من صن عنى بوصل إن قضى الله منك لى يوم جود  
وقال فى تشبيهه العظام بالخيزران وهو جديد

ودعجاء المحاجر<sup>(٢)</sup> من معد كأن حديثها نمر الجنان  
إذا قامت لحاجتها تشتت كأن عظامها من خيزران  
وقال فى معنى بدوى زاده قوة وأسرا.

ويوم كتثور الأ ماء سجرنه وأوقدن فيه الجزل حتى تضرما  
رميت بنفسى فى أجيج سموه وبالعيس حتى بض منخرها دما  
وقال أبو نواس فى نواح من تشبيهات الخمر

فالخمر ياقوته والكأس لؤلؤة من كف لؤلؤة ممشوقة القد  
تسقيك من طرفها خمر او من يدها خمر فالك من مسكرين من بد  
كأسا إذا انحدرت فى حلق شاربها رأيت حمزتها فى العين والحد  
وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلى فى غزو محاسن محبوبته إياه

غزتنى بجيش من محاسن وجهها فعبى لها طرفى ليدفع عن قلبى  
فلما التقى الجديشان أقبل طرفها يريد اغتصاب القلب قسرا على الحرب  
ولما تجارحنا بأسياف لظننا جعلت فؤادى فى يديها على الغصب

(١) متممة لبنة (٢) سوداء العين فى سعة

وناديت من وقع الأُسنة والقنا      على كبدى يا صاح مالى وللحب  
فصرت صريعاً للهوى وسط عسكر      قتيـل عيون الغانيات بلا ذنب  
وقال أبو تمام فى الغيث والسحاب  
سحاب إذا ألقت على خلفه الصبا      يدا قالت الدنيا أتى قاتل الحل  
إذا ما رتدى بالبرق لم يزل الندى      له تبعاً أو يرتدى الروض بالبقل  
إذا انتشرت أعلامه حوله انطوت      بطون الثرى منه وشينكا على حمل  
وقال البحتري من وصف بركة المتوكل  
تنصب فيها وفرد الماء معجلة      كأنليل خارجة من حبل مجرىها  
كأنما الفضة البيضاء مائلة      من السبائك تجرى فى مجارىها  
إذا علتها الصبا أبدت لها حبكاً      مثل الجواشن<sup>(١)</sup> مصقولاً حواشيهما  
فحجب الشمس أحياناً يضحكها      وريق الغيث أحياناً يداكيمها  
إذا النجوم تراءت فى جوانبها      ليلاً حسبت سماء ركبت فيها  
وقال فى لؤلؤ النغر ولؤلؤ الحديد  
ولما التقينا واللوى موعد لنا      تعجب رائى الدر حسنا ولاقطه  
فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها      ومن لؤلؤ عند الحديد تساقطه  
وقال ابن الرومى فى خباز رقاق  
مأنس لأنس خبازاً مررت به      يدحو الرقاقة وشك الملح بالبصر  
ما بين رؤيتها فى كفه كرة      وبين رؤيتها قوراء<sup>(٢)</sup> كالقمر  
إلا بمقدار ما تنداح<sup>(٣)</sup> دائرة      فى صفحة الماء يرمى فيه بالحجر  
وقال فى صانع زلاية

(١) الدروع جمع جوشن (٢) مستديرة مقورة (٣) تنبسط

ومستقر على كرسيه تعب      روحى الفداء له من منصب نصب  
رأيت سحرا يقلى زلايية      فى رقة القشر والتجويف كالقصب  
يلقى العجين لجينا من أنامله      فيستحيل ميايكا من الذهب  
وقال ابن المعتز فى الحجر

وأمطر الكأس ماء من أبارقه      فأثبت الدر فى أرض من الذهب  
وسبح القوم لما أن رأوا عجباً      نوراً من الماء فى نار من العنب  
وقال فى أثر النشوة

وفد شربوا حتى كأن رءوسهم      من الين لم يخلق لمن عظام

وقال فى قيام الساقين على رؤوس النداءى

وكان السقا بين النداءى      ألفات بين السطور قيام

وقال فى سيفه

ولى صارم فيه المنايا كوا من      فما ينتضى إلا لسفك دماء

ترى فوق متنيه الفرند<sup>(١)</sup> كأنه      بقية غيم رق دون سماء

وقال فى فرسه

ولقد وطئت الغيث يحملنى      طرف كلون الصبح حين وقد

وكانه موج يسيل إذا      أطلقته وإذا حبست جمد

وقال السرى الرفاء فى حدائق

وحدايق يسليك وشى برودها      حتى تشبهها سيائب<sup>(٢)</sup> عبقر

يجرى النسيم خلاها فكأنها      غمست فضول رداؤه فى عنبر

باتت قلوب المحل تحفق بينها      بخفوق رايات السحاب المطر

وقال أبو الفرج البغاء فى كانون

(١) ما يظهر على صفحته من موجات (٢) جمع سبيبة وهى الشقة الرقيقة كالخمار

وذى أربع لا يطيق النهوض ولا يألف السير فيمن سرى  
تحمله سبيجاً<sup>(١)</sup> أسوداً فيجعله ذهباً أحمر  
وقال في ناره

إذا رمت بالشرار واضطربت على ذراها مطارف الذهب  
رأيت ياقوتة مشبكة تطير منها قراضة الذهب  
وقال في خمه

كان كالآبنوس غير محلى فغدا وهو مذهب الآبنوس  
لقى النار في ثياب حداد فكسوته مصبغات عروس  
وقال أبو الفضل الميكالى في شرار النار

كان الشرار على نارنا وقد راق منظرها كل عين  
قراضة تبر إذا ماء—لا فاما هوى ففتات اللجين

وقال ابن بابك في غدير تعادل عليه الغصون وتميل

وغــدير ماء أفعمت أطرافه كالدمع لما ضاق عنه مجال  
قرر الرياض إذا الغصون تعدلت وإذا الغصون تهدلت فهلال  
وقال الصابى يصف يد كاتب

وكم من يد بيضاء حازت جمالها يد لك لا تسود إلا من النقس<sup>(٢)</sup>  
إذا رقشت بيض الصحائف خلقتها تطرز بالظلماء أردية الشمس  
وقال أبو العلاء في ليلين مختلفين

وليلين ، حال بالكواكب جوزه وآخر من حل الكواكب طائل  
كأن دجاء الهجر والفجر موعده بوصل وضوء الصبح حب<sup>(٣)</sup> مماطل

---

(١) فخا (٢) الهداد الاسود (٣) بكسر أوله المحبوب

وقال يرد على حبيبته في حوار

هي قالت لما رأته شيب رأسي وأرادت تنكرا وازورارا  
أنا بدر وقد بدا الصبح في رأ سك والصبح يطرد الأقارا  
لست بدرا وإنما أنت شمس لا ترى في الدجى وتبدونها را

وقال ابن سناء الملك

يا عا طل الجيد إلا من محاسنه عطلت فيك الحشا إلامن الحزن  
في سلك جسمي در الده مع منتظم فهل لجية دك في عقد بلا ثمن  
لا تخش مني فاني كالنسيم ضئي وما النسيم بمخشي على الغصن  
هـ - المبالغة والتهويل - لعل أول ما حبيب الى شعراء العصر  
العباسي المبالغة والتهويل ، أن معظمهم كانوا من المولدين الراجعين في  
نسبهم الى أصل فارسي ، وللفرس ولع بالمبالغة والاغراق شديد . وإذا  
كانت هذه الفئة المولدة في العصر العباسي الأول ، ذات شأن لدى الخلفاء  
ووزراء الفرس ورجالاتهم ذوى النفوذ فقد اكتسبوا رفعة جعلتهم  
القدوة أمام غيرهم من سائر الشعراء ، وانساق الجميع الى هذه الظاهرة  
رغبة في التعجب وأكثروا منها في مدائحهم طمعا في ابتزاز المال . على  
أن هناك سببا آخر لشيوع المبالغة والغلو بين طبقات الشعراء بعيدا  
عن تلك الطبيعة الفارسية ، وهذه الرغبة في جذب المال ، هو تفتح أبواب  
المعاني واتساع مناحي التفكير ومسابقة الشعراء بعضهم بعضا في هذا  
الميدان وطمع كل أن يكون المحلى في تلك الحلبة أمام مناضريه ، فان هذا  
الطمع لا بد يحدوه الى الاتيان بجديد قلما تسعفه الحقائق الخالصة فيه  
فينزع عنها الى ضروب المبالغات والتهويل . وإن نظرة إلى ما أسلفنا من

نماذج لتريك هذه الظاهرة بادية للعيان وبخاصة كما ذكرنا فى المديح .  
فهذا مسلم قد رفع يزيد الشيبانى فى شجاعته إلى حيث شابه رسول الله  
ثم جعله عز الخلافة وعدة بنى العباس . وهذا أبو تمام فى رثائه ابن حميد  
الطوسى قد بالغ فى كثير من صفاته حتى جعل موته بين الطعن والضرب  
نصرا وحياة . وزاد عنه البحترى من شعراء العصر الثانى فى مدحه المتوكل  
على الله . وما كاد يحل العصر الثالث حتى صارت المبالغات أساسا  
للقول وارتفع بها شعراؤه إلى ما كان يهتق قبلا من غلو وإغراق ،  
فقد فتح هذا الباب فيه على مصراعيه للشعراء أول شعرائه أبو الطيب  
المتنبى فأتى بما لم يدر بخلد فى المدائح وفى غير المدائح على السواء  
وهاهى تلك المدحة التى اخترنا آنفا من مدائحه فى سيف الدولة  
ابن حمدان قد بدأها بجعله حزب الله وبأنه راع الدهر ثم تحدى الدهر  
أن يحدث خطوبا اذا شك فيما ذكر وعلى هذا النسق جرى الى آخر  
ما قال ، وكذلك كانت مبالغاته وأشد ، فى غير المديح كما سيأتى ، ثم كان  
العصر الاخير أشد طغيانا وأكثر افتنانا فى هذا الباب كما ترى ذلك فى  
قصيدة الأبيوردي التى اخترناها نموذجا للفخر فيما اخترناه

وإليك طائفة أخرى غير ما أشرنا إليه فى النماذج من المبالغات  
قال بشار فى نحافته من أثر الحب

سلبت عظامى لحمها فتركته عوارى فى أجلادها تتكسر  
وأخليت منها مخها فجعلتها أناييب فى أجوافها الريح تصفر  
خذى ييدى ثم ارفعى الثوب فانظرى ضنى جسدى لىكنى أتستر  
وليس الذى يجرى من العين ماؤها وليكنها نفس تذوب فتقطر



وقال المتنبي في ذلك

روح تردد في مثل الخلال<sup>(١)</sup> اذا  
كفى بجسمي نحولا أني رجل  
وقال أبو نواس من مدح الرشيد  
ملك تصور في القلوب مثاله  
فكانه لم يخل منه مكان  
ماتنطوي عنه القلوب بنجوة  
إلا يحدثه بها اللحظان<sup>(٢)</sup>  
حتى الذي في الرحم لم يك صورة  
لقداده من خوفه خفقان  
وقات منصور النيرى من مدحه أيضا

خليفة الله إن الجود أودية  
إذا رفعت إمرأ فالله رافعه  
أحلك الله منها حيث تجتمع  
ومن وضعت من الاقوام متضع  
من لم يكن بأمين الله معتصما  
فليس بالصلوات الخمس ينتفع  
إن أخلف القظر لم تخلف مخايله  
أوضاق أمر ذكرناه فيتسع

وقال ابن الرومي من هجائه ابن يوسف

لو أن قصرك يابن يوسف كله  
وأناك يوسف يستعيرك إبرة  
إبر يضيق بها فناء المنزل  
ليخيط قد قميصه لم تفعل

وقال إبراهيم بن سيار النظام

نوجه طرفي فألم خده  
وصافه كفي فألم كفه  
فصار مكان الوهم من نظري أثر<sup>(٣)</sup>  
فن صفح كفي في أنامله عقر  
ومر بفكري خاطرا فخرحته  
ولم أر خلقا قط يجرحه الفكر

وقال ابن دريد يخاطب الدهر ويعلو عليه

(١) في جسم كمود الخلال نخافة (٢) مصدر كاللحظ (٣) بتسكين الناء

— ٤٠٠ —

مارست من لوهوت الافلاك من جوانب الجو عليه ماشكا  
ولو حى المقدور منه مهجة لرامها أو يستبيح ماحى  
تغدو المنايا طائعات أمره ترضى الذى يرضى وتأتى مأتى  
وقال المتنبي

لو كان علمك بالاله مقسما فى الناس مابعث الاله رسولا  
أو كان لفظك فيهم ما أنزل التـوراة والقرآن والانجيلا  
وقال أبو العلاء يمدح شريفا يسمى محمدا  
لولا انقطاع الوحي بعد محمد قلنا محمد عن أبيه بديل  
هو مثله فى الفضل إلا أنه لم يأت به برسالة جبريل  
وقال ابن سناء الملك من قصيدة طويلة .

سوى يهاب الموت أو يرهب الردى

وغيرى يهوى أن يعيش مخلدا  
ولكننى لا أرهب الدهر إن سطا ولا أحذر الموت الزؤام اذا عدا  
توقد عزمى يترك الماء ججرة وبحيلة حلمى تترك السيف مبردا  
ويأبى إبائى أن يرانى قاعدا وأنى أرى كل البرية مقعدا  
٦ - تمحيص الافكار وترتيب العناصر - أظننى فى غير حاجة أن  
أعلل هذه الظاهرة الآن، لأن أسبابها أوضح من أن ينبه عليها . على أنى  
أجل هذه الأسباب فى أن الشعراء العباسيين أصبحوا ينزعون فى  
الفطرة الشعرية لاعتن تلك الفطرة وحدها كما كان أملا فهم ، بل عنها  
ممزوجة بثقافة تجمع الى مسائل الأدب والعلم والفلسفة وغيرها مما يوسع  
العقل والفكر، فنون حضارة وارفة الظلال تنهى الذوق وترقى الاحساس

بالجمال. ولذلك كانوا يحصون أفكارهم وينظمون عناصر أقوالهم ثم يبرزونها في ثوب ذي جمال خلاب كما سبق ذلك بناحيته ظاهرا في النماذج أتم ظهوره. فقصيدته العباس بن الأحنف قصة غزلية محكمة النسيج قوية الأداء. وقصيدته أبي نواس أجمع وصف يتناول صنع خمر الشهيد منذ خرج النحل يتغذى خللاياها إلى أن غادرت الدنان بعد حطب إلى آفاق السراء. وقصيدته ابن المعتز وصف يحكي العيان في الدعوة إلى الخمر والصيد لها والجلوس عقب ذلك في مجلس شرابها. وقصيدته ابن نباتة حكاية زورة ليلية لجبيب ذات تسلسل وانسجام. وقصيدته ابن حيوس وسمارة اليمنى تناولتا في دقة وإحكام كل مايجول في الخاطر من محاسن القصور. وقصيدته الطغراء أحسن ما يصف به واصل رحلة بدوية في هاجرة نهار وظلام ليل، ترد بعدها الأبل غديرا في منبليج الصباح. وقصيدته ابن عزيق خير تعبير لمايجول في نفس هازم ومهزوم لسكبيهما من الشجاعة حظ ونصيب :

ولقد حملت هذه الظاهرة شعراء العباسيين أن يبرعوا البراعة كلها في ابتداء القصيدة ، وفي الانتقال خلالها من المطلع إلى ما هو الغرض المقصود فيها ، ثم في إنهاؤها ، إلى درجة حملت رجال البلاغة على تدوين هذه المحاسن الثلاثة في البديع باسم حسن الابتداء وحسن الانتقال وحسن الانتهاء ، ومن الأول تفرعت براعة الاستهلال .

فحسن الابتداء ويسمى براعة المطلع أن يتخير الشاعر لمطلع قصيدته المعاني الصحيحة الملائمة ، والألفاظ الرشيدة العذبة ويتحرز مما

يتطير منه من المعاني وما يستكره ويجفى من الالفاظ ، لائن المطلع أول  
ما يقرع السمع فيسترعى الآذان أو تمجه الآذان . فأذا أضاف الى هذا  
الحسن جعل أول بيت من القصيدة مشعرا بالغرض منها في إشارة  
لطيفة فقد ضم الى براعة المطاع براعة أخرى هي براعة الاستهلال  
وضمن بهذين حسن التقبل والاصغاء

فمن محاسن الابتداء قول أبي نواس

لمن دمن تزداد حسن رسوم      على طول ما أقوت وطيب نسيم  
وقرل البحرى

بودى لو يهوى العذول ويعشق      ليعلم أسباب الهوى كيف تعلق  
وقول صريع الغواني

أجدرت ذيل خليع فى الهوى غزل      وشمرت هم العذال فى عذلى  
وقول أبي العلاء

ياساهر البرق أيقظ رافد السمير      لعل بالجزع أعوانا على السهر  
وقول التهامى

حازك البين حين أصبحت بدرا      إن للبدر فى التنقل عذرا  
ومما ضم الى براعة المطلع براعة الاستهلال قول أبي تمام فى الرثاء

كذافليجل الخطب وليفدح الامر      فليس لعين لم يفض ماؤها عذر  
وقول المتنبي فى الشفاء من مرض

المجد عوفى إذا عوفيت والكرم      وزال عنك الى أعدائك السقم  
وقول أبي فراس على وشك رحيل

يا طول شوقى إن كان الرحيل غدا      لا فرق الله فيما بيننا أبدا

وحسن التخلص ويسمى براعة المقطع هو الانتقال مما بني عليه مطلع القصيدة من نسيب أو غيره إلى الغرض الأصيل ، على معبر من قوة الاتصال بين المعنيين في دقة لطف وحسن وثام كقول مسلم في يحيى وابنه جعفر

أجلك هل تدرين كم رب ليلة كأن دجاها من قرونك تنشر  
لهوت بهسا حتى تجلت بغرة كغرة يحيى حين يمدح جعفر  
وكقول البحتري في الفتح بن خاقان

رياض تردت بالنبات مجودة بكل جديد الماء عذب الموارد  
إذا رواحتها مزنة بكرت لها شأبيب مجتاز عليها وقاصد  
كأن يد الفتح بن خاقان أقباب عليها بتلك البارقات الرواعد  
وكقول المتنبي في سيف الدولة

خليلي مالي لا أرى غير شاعر فكم منهم الدعوى ومنى القصائد  
فلا تعجبا إن السيوف كثيرة ولكن سيف الدولة اليوم واحد  
وكقول البها زهير المتوفى سنة ٦٥٦ في صلاح الدين بن العزيز

أهوى التذلل في الغرام وإنما يأنى صلاح الدين أن أتذلا  
مهدت بالغزل الرقيق لمدحه وأردت قبل الفرض أن أتذلا  
وحسن الانتهاء ويسمى براعة الختام أن تختم القصيدة بما يشعر بالانتهاء  
فهو في النهاية نظير براعة الاستهلال في الابتداء وهو آخر ما يعنى السمع .

ويرسم في النفس كقول المتنبي

فلا حطت لك الهيم جاء سرجا ولا ذافت لك الدنيا فراقا

وكقول أبي العلاء

ولا تزال لك الأيام ممتعة بالآل والمال والعلياء والعمر

وكقول الأرجاني

علاكسوار والممالك معظم وجودك طوق والبرية جيد

وكقول الغزى

بقيت بقاء الدهر ماذر شارق وغار جديد المكرمات وأنجدا

وكقول ابن النبيه

دمتم بني أيوب فى نعمة تجوز فى التخليد حد الزمان

والله لازتم ملوك الورى شرقا وغربا وعلى الضمان

وقد كانت عناية الشعراء قبل العصر العباسى بهذه البراعات

قليلة وما كان عليهم فى إغفالها من عاب. أما فى العصر العباسى فقد

عنوا بها أتم عناية ولذلك كان من المآخذ عليهم إغفالها ثم كان من

المآخذ الشديدة أن يأتوا فيها بما يعاب<sup>(١)</sup>

(١) ظهر عيب المولدين أكثر ما ظهر فى المطلع والانتقال دون الانتهاء

فمن سوء المطلع ما كان من إسحق الموصلى اذ دخل على المعتصم وقد

فرغ من بناء قصر فألشده

يادار غيرك البلى ومحاك ياليت شعرى ما الذى أباك

فتطير المعتصم وأمر بهدم القصر

ومن الانتقال المقتضب قول البيهقى

وهوى تجسده الليالى كلما قدمت وترجعه السنون فيرجع

يأبها الملك الذى سقت الورى من راحته غمامة ما تقلع

ومن سوء المطلع وقبح الانتقال ما كان من أبى نواس اذ دخل على الفضل

البرمكى فألشده مبتدئا

### ٣ — ناحية الألفاظ والأساليب

لقد كان نصيب الشعر في العصر العباسي من الدقة في انتقاء الألفاظ السهلة الرشيقة الممثلة للمعنى أتم تمثيل ، ومن التألق في صوغ العبارات المحكمة الرائعة المفهومة للغرض في إحكام وقوة أداء ، أو فر من نصيب النثر . ذلك لأن الشعر مجال الأناقة والظرف ، ولغة الحسن والجمال ومأخذ الغناء والاصوات ، وكل ذلك يستدعى عذوبة تنسجم مع وجدان الشاعر ؛ ويطلب خفة تطير مع خياله ، كما يطلب نغما يتسق وموسيقية الوزن وجرس القافية إلى غير ذلك مما لا وجود له في نفس النثر ولا مطلب له في القول المنثور .

غير أن الشعراء في هذا العصر قد وقع لهم في ناحية الألفاظ

أربع الملى إن الخشوع لبادى عليك وإنى لم أخذك ودادى  
ثم انتقل إلى مدح البرامكة بقوله  
سلام على الدنيا إذا ما فقدتم بنى برمك من راثمين وضادى  
فكان ذلك منه عجباً وهو البارع في البراعات يجمعها في قصائده جمعاً كما فعل  
في قصيدته إذ عزم على الرحلة من بغداد إلى مصر لمدح الخصيب فقد تحدث  
عن زوجته في مبدئها يقول

تقول التي من بيتها خف يحلى عزيز علينا أن نراك تميز  
وتخلص من المدح بقوله مخاطباً لها  
ذرى أكثراً حاسديك برحلة إلى بلد فيه الخصيب أمير  
ثم ختمها بقوله مخاطباً الممدوح  
فإن تولاني منك الجليل فأهله وإلا فاني حاذر وشكور

والاساليب ما لم يكن لزملائهم السالفين ومن ثم وسميهم العلماء باسم المولدين أو المحدثين<sup>(١)</sup> وضنوا عليهم أن يكون كلامهم موطن حجة واستشهاد .

١ — فهم قد تصرفوا في بعض الكلمات العربية تصرفاً يخرجها عن معانيها القديمة إلى معان لم تكن معروفة للعرب ثم كانوا كثيراً ما يشتقون منها بعد هذا الإخراج إلى المعنى الجديد ما هو منه كما فعلوا في كلمة « قصف » وأصل معناها كسر الغصن الصغير فأنهم أطلقوها على اللهو كما قال أبو نواس

لا يصرفنك عن قصف وإصبااء مجموع رأى ولا تشتيت أهواء  
وكما قال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وقد أراد الخروج عن بغداد إلى اليمن لولاية

أيرحل ألف ويقيم ألف وتحيا لوعة ويموت قصف  
على بغداد دار اللهو منى سلام ما سجا للعين طرف<sup>(٢)</sup>  
ثم استعملوا منها على هذا المعنى كل أنواع المشتقات

(١) المولد لغة اسم لكل من نشأ غير خالص العروبة مقرفاً كان أم هجيناً، ولكن المولدين أطلقوا في اصطلاح الأدب على الشعراء الذين نشئوا في العصر العباسي ولو كانوا عرباً خالصاً دون من سبقوهم ولو كانوا غير خالصي العروبة كما أطلق عليهم كذلك اسم المحدثين أي الذين حدثوا بعد الأصليون

(٢) أشار إلى المعنيين في العصر المغولي عفيف الدين التمهاني حيث يقول  
تبسم زهر البان عن طيب نشره وأقبل في حسن يحل عن الوصف  
هملوا إليه بين قصف ولدة فان غصون البان تصلح للقصف



٢ - وهم قد استعملوا كثيرا من الالفاظ المعربة ولعل كثيرا منها كان من تعريبهم أنفسهم، وأمثلة هذا كثيرة جدا . منها لفظ آذريون معرب آذركون أى لون النار لورد أحمر الورق أو أصفره مع سواد الوسط فيهما ، ولذلك يشبه الأحمر منه بكأس عقيق فيه مسك كقول عبد الله بن المعتز

وطاف بها بواق أديب بمنزل كخنجر عيار صناعته الفتك  
وحمل آذريونه فوق أذنه ككأس عقيق في قرارتها مسك  
كما يشبه الأصفر بدهن ذهب فيه غالية ، وهى أخلاط طيب سوداء  
كقوله أيضا

مقيا لروضات لنا من كل نور حاله  
عيون آذريونها والشمس فيه كاليه<sup>(١)</sup>  
مداهن من ذهب فيها بقايا غالية  
والالفاظ المعربة أكثر من أن تحصى - وقد ذكرنا منها طائفة  
كبيرة في التعريب قبل .

٣ - وهم قد نقلوا بعض الالفاظ الاعجمية على حالها من غير  
تعريب نظرفا وتملحا، كلفظة آب سرد بمعنى الماء البارد فى قول العمانى  
لما هو بين غياض الأسد وصار فى كف الهزبرالورد  
آلى يذوق الدهر آب سرد  
وكلفظة يرللكأس الملامى فى قول ابراهيم الموصلى  
اذا ما كنت يومامى شدا<sup>(٢)</sup> فقل للعبيد يسقى القوم يرا

---

(١) أى ناظرة من كلاً بصره فى الشئ رده فيه (٢) كغراب تيلبل فكر

فان السقى مكرمة ومجد ومدفأة إذا ماخفت قرا  
وقد ذاع استعمال كلمتي نيروز معرب نوروز ومهرجان منقولة كما هي،  
على ألسنة جمهرة الشعراء ولا سيما في البيئات الفارسية<sup>(١)</sup>

قال عبدالصمد بن بابك يمدح صاحب بن عباد  
لقد نشر النيروز وشيا على الربا من النور لم تظفر به كف راقم  
كأن ابن عباد سقى المزن نشره بخاد برشاش من الويل ساجم  
وقال أيضا يمدح نضر الدولة بن بويه ويهنته بالمهرجان  
أيا شاهنشاه صل الأمانى بتجديد البشائر والتهانى  
فقد حزت السعود وجاء يحدو سبوت الدهر سبت المهرجان

٤ — ثم هم قد استخدموا كثيرا من ألفاظ العلوم والفنون والصناعات  
ومصطلحاتها . قال أبو الفتح البستي

عزلت ولم أذنب ولم أك جانبا وهذا لأنصاف الوزير خلاف  
حذفت وغيرى مثبت فى مكانه كأتى نون الجمع حين يضاف

(١) كلاهما عيّد من أعياد الفرس . فالنيروز ستة الأيام الأوّل من  
أول شهر سنتهم « أفرودين » وهم يزعمون أنه أول الزمان الذى ابتدأ الفلك فيه  
الدوران ويسمون اليوم السادس منها النيروز الكبير لأن الأكامرة كانوا ينصرفون  
فيه الى مجالس أنصهم مع ظرفاء خواصهم بعد جلوسهم لرد المظالم فى أيامه  
الخمسة الاولى وهو يتفق واليوم المعروف الآن بشم النسيم . والمهرجان يبدأ  
فى منتصف شهرهم السادس « مهرماه » ويوافق آخر الخريف وهو ستة أيام كذلك  
آخرها يسمى المهرجان الكبير . فالنيروز استقبال للربيع والمهرجان استقبال  
للشتاء وهما خير فصول السنة

وقال الصباني في سابور وزير بهاء الدولة وكان قد صرف عن الوزارة  
ثم أعيد إليها

وقد كنت طلقت الوزارة بعدما زلت بها قدم وساء صنيعها  
فغدت بغيرك تستحل ضرورة كما يحل إلى ثراك رجوعها  
فالآن قد عادت وآلت حلفة ألا يبيت سواك وهو ضجيعها

وقال عبد الوهاب بن محمد البغدادي المتوفى بمصر سنة ٤٢٢  
ونائمة قبلتها فتنبهت وقالت تعالوا فاطلبوا اللص بالحد  
فقلت لها إني فديتك غاصب وما حكموا في غاصب بسوى الرد  
وقال ابن الرومي :

مأذر معتزلى موسر منعت كفاه معتزليا معسرا صفدا  
أيزعم القدر المحتوم ثبطه إن قال ذاك فقد حل الذى عقدا  
وقال أبو نصر أحمد بن يوسف المتوفى سنة ٤٥٣

ولى غلام طال فى دقة كخط إقليدس لا عرض له  
وقد تناهى عقله خفة فصار كالنقطة لاجزاء له

وقال أبو الحسن بن أبى الغنائم المتوفى سنة ٥٦٠  
نفس الزمان فللغرام قضية ليست على نهج الحجا تنقاد  
منها بقاء الشوق وهو بزعمهم عرض وتقنى دونه الأجساد

وقال كمال الدين بن النبیه المتوفى سنة ٦٠٨  
وبنى هندسى الشكل يسببك لحظه وخال وخمد بالعدار مطرز  
ومذ خط ييكار الجمال عذاره كقوس علمنا أنما الخال مر كز  
٦ - ولم يتحرز شعراء هذا العصر وقد ابتذلوا الشعر بألفاظ العلوم

ومصطلحاتها ، أن يجعلوا منه لغة تأليفية في كثير من العلوم والفنون من نحو وفقه وتاريخ وطب وغيرها مما ألفوا فيه منظومات يسهل على الناشئين حفظها وتحصيل مسائل العلوم بتعليقها وهذه ظاهرة بدت منذ نظم أبان كلية ودمنة واستمرت تزايد وتنمو حتى بلغت مبلغها في نهاية العصر ، ومن مثلها في تلك النهاية ملحة الأعراب للحريري وقد سبقت الإشارة إليها

٦ - هذا وقد انحدر الشعراء إلى استعمال كثير من ألفاظ السخف والبذاء وعبارات الخلاعة والمجانة كما انضح ذلك آنفا حيث الكلام على الأغراض التي تستدعيه كالمجاء والغزل والمجون .

٧ - على أنهم قد أحسنوا الاحسان كله في استخدام ألفاظ التشبيه والمجاز والكنائية مما رأيت حيث القول على الإبداع في التصوير والأغراب في الخيال من الكلام على المعاني والأخيلة قبل .

٨ - ثم أكثروا من محسنات البديع على اختلاف أنواعها وبخاصة الجناس ، وسنكتفي بالتمثيل له لأنه أظهر المحسنات في اللفظ والاسلوب وأكثرها أنواعا .

فن الجناس المائل وهو المتفق اسمية وفعالية قول ابن الرومي وكان مولعا بالجوارى السود

للسود في السود آثار تركز بها وقعا من البيض يثني أعين البيض<sup>(١)</sup>  
ومن المستوفى وهو المختلف اسمية وفعالية قول البستي

---

(١) المود الأولى جم سوداء للجارية والثانية جمع سوداء القلب ، والبيض الأولى جمع أبيض للسيف والثانية جمع بيضاء للمرأة

فقال لى دعنى ولا تؤذنى إلى متى أجربى بلا أجر  
ومن المركب وهو المتفق لفظا وخطا قول أب الفضل الميكالى  
تفرق الناس فى أرزاقهم فرقا فلابس من ثراء المال أو عار  
كذا المعاش فى الدنيا وساكنها مقسومة بين أدماء وأوطار  
من ظن بالله جورا فى قضيته افترعن مأثم فى الدين أو عار  
ومن المفروق وهو المتفق لفظا لا خطا قول البستى  
كم من أخ قد هدمت أخلاقه فى آخر ما قصد بنى فى أول  
يرى سهاماً إن أسر المقت لى بالكيد لا يقصدن غير المقتل  
ومن المطرف وهو المختلف بزيادة حرف قول البحتري .  
فان صدفت عنا فربت أنفس صواد إلى تلك الوجوه الصوادف  
ومن المذيل وهو المختلف بأكثر من حرف قول بعض العباسيين  
فيالك من حزم وعزم طواهما جديداردى تحت الصفا والصفائح  
ومن المشتق وهو ما يرجع إلى أصل واحد قول أبى تمام  
وأنجدتم من بعد إتهام داركم فيادمع أنجدنى على ساكنى نجد  
ومن المطلق وهو ما لا يرجع إلى أصل واحد قول أبى نواس  
فما السلاف ازدهتنى بل سوافه ولا الشمول دهتنى بل شمائله  
ومن المحرف باختلاف الشكل قول المعرى  
لغيرى زكاة من جمال فان تكن زكاة جمال فاذكري ابن سبيل  
ومن المضارع وهو ما يختلف بحرف مقارب المخرج قول الرضى  
لا يذكر الرمل الا حن مغرب له الى الرمل أوطار وأوطاني  
ومن اللاحق وهو ما لا تقارب في حرفيه قول البحتري

لست عن ثروة بلغت مداها غير أنى امرؤ كفى كفاً  
ومن اللفظى وهو ما اختلف بحرف مقارب الخط قول الأرجان  
وبيض الهند من وحدى هواز باحدى البيض من عليا هوازن  
ومن جناس العكس أى القلب قول ابن نباتة السعدى فى الأمير بهرام  
قيل كل القلوب من رهب الحب تضطرب  
قلت هذا نخرص قلب بهرام مارهب  
ومن جناس التلفيق أى التركيب من كلمتين قول ابن عنين  
خبروها بأنه ما تصدى لسلو عنها ولو مات صدا  
والقول فى الجناس يطول .

٩ - وقد حلال كثير من الشعراء فى هذا العصر أن يودعوا  
أشعارهم تصرفات لفظية تدل على تملكهم زمام الصناعة الى حد كبير .  
ومن أعلامهم فى ذلك، الحريرى الذى تعدى بتلاعبه فى هذا ميدان النثر  
الى الشعر فأتى بالعجب العجيب  
قال من مقطعة عاطلة الأبيات  
أعدد لحسادك حد السلاح وأورد الأمل ورد السماح  
وقال من أخرى حاليتها  
شغفتنى بحفن ظبي غضبيض غنج يقتضى تغبيض جفنى  
وفال من ثالثة إحدى كلماتها مهملة والأخرى معجمة  
اسمح فبت السماح زين ولا تحب آملا تضيف  
وقال من رابعة خطية الجناس  
زينت زينب بقدر يهد وتلاه ويلاه نهى يهد

وقال من خامسة مطرفته  
سم سمسة تحسن آثارها واشكر لمن أعطى ولو سمسمه  
وهكذا مما جاوز فنون البديع المعروفة على كثرتها إلى ما عدا ابتكارا  
واختراعا .

١٠ - ومما ظهر واضح الاثر بالفاظ الشعر وأسايبه في العصر العباسي  
ما اخترع في أوزانه وقوافيه، وهذى كلمة عما جد في كل منها .  
الأوزان - حصر الخليل بن أحمد أوزان الشعر التي نظم عليها  
العرب في خمسة عشر بحرا معروفة، وأجهد تلميذه الاخفش نفسه أن  
يجد غيرها فلم يظفر إلا ببعر واحد سماه المتدارك لأنه تدارك به على الخليل .  
وقد أثبت الاستقراء أن كل ما قيل من الشعر إلى آخر العهد  
الأموي لا يخرج بحال عن هذه البحور . وبالرغم من أن جمهرة الشعراء  
في العصر العباسي وبعده بقوا ينظمون عايتها ، فقد نظم بعض المولدين  
على أوزان غيرها جريا وراء الانغام الموسيقية الجديدة التي نقاتها اليهم  
الحضارات المختلفة ، أو رغبة في عدم التقيد بالقديم وولوا باختراع جديد  
في الاوزان كما اخترعوا في كل شيء للشعر غيرها .

وقد جاء هذا الجديد نوعين

أحدهما الأوزان المأخوذة من البعور بالقلب أو التحريف

فما جاء بالقلب ، المستطيل مقلوب الطويل وأجزاؤه « مفاعيلان

فعولن » أربع مرات مثل :

لقد هاج اشتياقي غرير الطرف أحور

أدير الصدى منه على مسك وعنبر

والممتد مقلوب المديد من غير جزء أى « فاعلن فاعلاتن » أربع  
مرات مثل .

صاد قلبي غزال أحور ذو دلال كلما زدت حبا زاد مني نفورا  
والمتمد مقلوب المجتث من غير جزء أى « فاعلاتن مستفع لن »  
مرتين مثل .

كن لا خلاق التصاني مستمريا ولا أحوال الشباب مستطليا  
وقد يقع القلب في تفاعيل البحر الواحد على صورتين تأخذ كل  
صورة اسما كما حدث في المضارع وأجزاءه « مفاعيلن فاعلاتن مفاعيلن »  
مرتين فقد أخرجت فيه فاعلاتن من غير جزء باسم المنسرد مثل .  
على العقل فعول في كل شأن ودان كل من شئت أن تدانى  
وقدمت باسم المطرد كذلك مثل

ما على مستهم ريع بالصد فاشتكى ثم أبكاني من الوجد  
ومما جاء بالتحريف، المنوافر المأخوذ من محرف الرمل وهو « فاعلاتن » ست  
مرات فانه أبدل بنونها الساكنة كافا متحركة وحذف من تفعيقاتي الضرب  
والعروض السبب فصاروزنه « فاعلاتنك فاعلاتنك فاعلن » مرتين مثل :  
ماوقوفك بالركائب في الطائل ماسؤالك عن حبيبك قد رحل  
ما أصابك يافؤادى بعدهم أين صبرك يافؤادى مافعل  
والثاني ماجاء على أوزان غير أوزان البحور وهو فنون سبعة ،  
ثلاثة لا يجوز فيها اللحن مطلقا وهي الدوييت والسلسلة والموشح ، وثلاثة  
ملحونة دائما وهي الزجل والسكان وكان ثم القوما ، وواحد كالبرزخ بين  
هذه وتلك يكون معربا وملحونا على ألا يجتمع الاعراب واللعن في



دور واحد منه وهو المواليا

فالدويبت أصله فارسي يأتي بيتين بيتين ومعنى دو اثنان وهو يسمى  
الرباعي أيضاً لأن في البيتين أربعة أشطر. وقد اقتبس البغداديون ونظموا  
منه على أوزان أشهرها « فعان متفاعان فعولن فعلمن » مرتين مثل  
إن جئت رباً الحمي ولاحت نجد فاذكر وطني وماجناء البعد  
قد كنت أقاسى العسدي رحلوا ياليتهم حادو وصاد الصدد  
والسلسلة من مخترعات البغداديين ووزنه « فعلمن فعلمن متفعلمن  
فعلمنان » مرتين ومنه

باعتدل القد إن صهرى قد بان والدمع لخافى الغرام أظهر اذ بان  
جددت مشجوني وقد حكمت جفوني بالسهد فيبني وبين نومي شتان  
والموشح نشأ أول مانشأ بالاندلس ومنها انتقل الى المشرق في  
عصر بني بويه وهو ذو أوزان كثيرة منها « فاعلمن فاعلمن مستفعان فاعلمن »  
مرتين وعليه موشحة ابن سناء الملك المصري المتوفى سنة ٦٠٨ ومطالعها  
كللى ياسحب تيجان الربى يالحلى واجعلى سوارك منعطف الجدول  
ومنها « مستفعلمن فاعلمن فعيل » مرتين مثل .

ياجيرة الأبرق اليماني هل الى وصلكم سبيل

والزجل نظم العوام بالعامية على منوال الموشح وليس في هذه الفنون  
أكثر أوزاناً منه على أنه لا ضابط لأوزانه ومثله

الفراق نار والوصال جنه والخلائق بعضهم يعشق

ولهيب الهجر يتوقد والوصال م الملاح يشفق

وقد تقصر أشطاره الثانية عن الأولى مثل

عن محرم شرابنا صمنا ونفطر بالثمار  
حين وجدنا سفر رجل البستان يذهب لـ صفرار  
والسكان وكان نظم اخترعه أهل بغداد واستعملوه في النصيحة والوعظ  
بحكاية ما كان وكان ، ولذلك أخذ هذه التسمية ووزنه واحد مستعملين  
فاعلاتن مستعملين فاعلن وشطره الأول دائماً أطول من الثاني ومنه  
قول بعضهم .

يا قاسى القلب مالك تسمع وما عندك خبر  
ومن حرارة وعظى قد لانت الأحجار  
أفنييت مالك وحالك فى كل مالا ينفعك  
ليتك على ذى الحال تقلع عن الأصرار  
والقوما نظم اخترعه البغداديون أيضا ليغنوا به الناس فى رمضان كى  
يقوموا للسجود ومنه قول بعضهم

يامن جنابه شديد ولطف رأيه شديد  
ما زال برك يزيد على أقل العبيد  
ولا عدمننا نوالك فى صوم فطر وعيد

٧ - أما المواليا فقد نشأ كما يقولون على لسان جارية للبرامكة كانت  
ترثيهم به وتقول يا مواليا وهو كما قلنا دون سائر الفنون المذكورة يأتى  
هاميا ويأتى صحيحا . فن هاميه قول بعضهم

حلف على كجاره أن يقاطعنى وصد غنى وأقسم ما يطاوعنى  
كم ذا يصد وكم يرجع يصدعنى إن كنت أنا المطلق لا يراجعنى  
ومن صحيحه قول آخر :

— ٤١٧ —

يأطعن الخيل والأبطال قد غارت  
والخصب الربيع والأمواء قد غارت  
هو اطل السحب من كفيك قد غارت

والشهب - إذ شاهدت أضواءك قد غارت  
القوافي - التزمت العرب القافية في القصيدة الواحدة كما التزمت فيها  
الوزن فلم يغيروا حرف القافية في قصيدة مهما طالت بل لم يحمدا  
عن نظم راعوها في مجموع الحروف التي تشملها القافية بنهاية البيت -  
وهي من آخر حرف ساكن فيه إلى أول حرف متحرك قبل ساكن  
بينهما مع دخول هذا المتحرك فيها - وقد استمر ذلك مراعى إلى نهاية  
العصر الأموي كما كانت الحال في الأوزان ثم أفادت الشعراء بعده من  
القافية كما أفلتوا من الوزن لأسباب قد تتحد مع بعض السابقة كالرغبة  
في النزوع عن القديم إلى جديد ، وقد تختلف كالفردان - تضيق  
الحرف الواحد في القافية لكل قصيدة إذ صار هذا من نصيب القافية  
وحدها ، كما كان تنويع الوزن للغناء من نصيب الأوزان . على أنهم في هذا  
الخروج عن القافية الواحدة لم يوسعوا المجال كما وسعوه في الأوزان  
فانحصر فيما يأتي : —

١ - المزدوج وهو ما اقتصرت فيه التقفية في كل بيت على عروضه  
وضربه دون ماحولهما في الأبيات ، وأهم ما حمل القوم عليه إطالتهم  
الباسقة في نظم قواعد العلوم والكتب وطوال المواعظ وغيرها وقد  
عرفت ما كان من نظم أبان بن عبد الحميد لكليلة ودمنة ، ووضع الحريري

م - ٢٧ أدب

ملحته في قواعد الاعراب وكلاهما من المزدوج . ولأبي العتاهية مزدوجة  
فيماها ذات الحکم والامثال اشتملت على أربعة آلاف مثل منها قوله :  
لكل مايؤذى وإن قل ألم ما أطول الليل على من لم يتم  
ولبشر بن المعتز مزدوجة في فضل على كرم الله وجهه على الخوارج  
يقول فيها عنهم .

ما كان من أسلافهم أبو الحسن ولا ابن عباس ولا أهل السنن  
غر مصاييح الدجى مناجب أولئك الأعلام لا الأتارب  
وللبصاني مزدوجة كتب بها إلى أبي الفرج البغواء في وصف البغواء  
أولها .

ألفتها فصيحة مليحة ناطقة باللغة الفصيحة

وللبغواء رد عايه بمزدوجة أخرى يقول فيها .  
تميزت في الطير بالبيان عن كل مخلوق سوى الانسان  
ولا بن المعتز مزدوجة في الشراب يقول فيها .  
لى صاحب قد لا منى وزادا في تركى الصبوح ثم عادا  
ولأبي فراس الحمداني مزدوجة في اللهو بالصيد يقول فيها  
مالعمر ما طالبت به الدهور العمر ماتم به السرور  
وللحسن بن وكيع مزدوجة في فصول العام أولها .

ياسائل عن أطيب الدهور وقعت في ذاك على الخبير  
٢ - المشطر وهو أن تتجدد القافية في أشطار القصيدة أربعة أربعة  
أو أكثر فيسمى مربعا أو خمسا وهكذا ، كقول الحسن بن وكيع  
المذكور من مشطر مربع له

رسالة من كلف صميد حيانته في قبضة الصدود  
 بلغه الشوق مدى الجهود مافوق ما يلقاه من مزيد  
 جار عليه حاكم الغرام فدى أن يدرك بالأوهام  
 فلو أتاه طارق الحمام لم يره من شدة السقام

٣ - المسقط وهو أن يؤتى بأقسمة من قافية واحدة بعدها قسم  
 من قافية أخرى ثم يؤتى بمثل تلك الأقسمة عددا ووزنا من قافية  
 أخرى وبعدها قسم من قافية القسم المذكور ووزنه وهكذا من المخالفة  
 في الأقسمة المتعددة والاتحاد في القسم المفرد، ثلاثة كانت الأقسمة كما  
 تقدم التمثيل لذلك صفحة ٤٦ أم أكثر كقول الأثير تميم بن المعز الفاطمي

دم العشاق مطلول ودين الحب ممطول  
 وسيف اللحظ مسلول وميدى الحب معذول

وإن لم يصنع للأسم  
 وأحور ساحر الطرف يفوق جوامع الوصف  
 مليح الدل والظرف جنت الحاظه حتفى

فمن يعدى على الظالم  
 وقد يبتدأ بببيت مصرع غير الأقسمة يأتي عليه القسم الملتزم مثل  
 توهمت من هند معالم أطلال

عفاهن طول الدهر في الزمن الخالي  
 مرابع من هند خلت ومصايف يصيح بمغناها صدى وعواصف  
 وغيرها هوج الرياح العواصف وكل مسف ثم آخر رادف  
 بأسم من نوء السما كين هطال

ومستلثم كشفت بالرمح ذيله أقمت بعضب ذى سفاسق<sup>(١)</sup> ميله  
نجعت به فى ملتقى الخيل خيله تركت عتاق الطير تحجل حوله  
كأن على سر باله نضح جريال<sup>(٢)</sup>

كما قد يبتدأ ببیت غیر مصرع يلتزم مثله قافية وضربا بعد كل قسم  
كقول ابن المعتز

أيها الساقى اليك المشتكى . قد دعوناك وان لم تسمع  
ونديم همته فى غرته وبشرب الراح من راحته كلما استيقظ من سكرته  
جذب الزق إليه وانكا وسقانى أربعا فى أربع  
مالعيني غشيت بالنظر أنكرت بعدك ضوء القمر وإذا ما شئت فاسمع خبري  
غشيت عيناي من طول البكا وبكى بعضى على بعضى معى<sup>(٣)</sup>

(١) طرائق جمع منسقة بفتحيتين أو كسرتين ميم سكون الثانى وفتح الثالث  
(٢) الجريال صيغ أحرقيل هو العصفور، وتعزى هذه الأبيات فى بعض الكتب  
إلى امرئ القيس وهى نسبة غير مسلم بها وغير متفقة مع طبيعة الأشياء  
(٣) بهذا الذى ذكرناه من تغير فى لفظ الشعر وأسلوبه نكون قد تناولنا  
كل ما عددناه من تغير حياة اللغة جملة فى ألفاظها وأساليبها بصفحتى ٤٤ ، ٤٥  
ماعداد الشغف باستعمال ألفاظ القرآن ، والتوسع فى ألقاب التعظيم ، والتغالى  
فى الاطناب والايجاز . لأن هذه الثلاثة كانت أظهر فى النثر منها فى الشعر  
وإن لم يخل بعض الشعر منها . فقد طاللت القصيدة جدا فى العصر العباسى  
الثالث كما انتشرت الأبيات المفردة ، وأكثرت فيه الألقاب على ما رأيت فى  
بعض مامضى ، ثم وجد من الشعراء منذ العصر الأول من اقتبس ألفاظ القرآن  
كأبى العتاهية إذ يقول

المرء آفته هوى الدنيا . والمرء يطنى كلما استغنى

## هذا

ومما تقدم عن الشعر نماذج وقولا في تلك النواحي الثلاث ، يتبين القارئ فضل المولدين عليه وكثرة حسناتهم فيه ، كما لا يعدم أن يجد لهم في كل ناحية بعض السيئات ، كنقل الأعمى على حاله ، واستعمال ألفاظ السخف والبذاء ، وتعمل الصناعة اللفظية ، وغيرها في الألفاظ والأساليب . وكتعمد الفلاسفة إلى درجة الخفاء ، والتصور إلى حد الإغراب ، والغلو في المبالغات إلى قمة الإغراق ، وغيرها في المعاني والاختيلة ، وكعدم التعفف عن الغزل في المذكر ، والانحدار في الخريجات ، والأسفاف في المجون ، وغيرها في المقاصد والأغراض . على أن ذلك لا يبرر لنا التعصب عليهم تعصبا يعمينا عما لشعرهم من حسن وجمال أو يجعلنا ننكره مع معرفتنا بوجوده كما كان يفعل في الحالتين كثير من القدماء<sup>(١)</sup> فإن العقل يقضى بالعدل في الحكم عليهم كالأقدمين سواء وقد أنصفهم ابن قتيبة وابن رشيق في ذلك بعض الانصاف<sup>(٢)</sup>

- 
- (١) من رجال الحالة الأولى أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ فقد كان يأنف أن يروي للشعراء الإسلاميين فضلا عن المحدثين وهو الذي جالسه الأصمعي حياة طويلة فما سمعه يحتاج ببنت اسلحي وكذلك كان الأصمعي ، ولكنه كان يستحسن بعض الشعر الحديث . ومن رجال الحالة الثانية ابن الأعرابي المتوفى سنة ٢٣١ فقد روى عنه أنه عرضت عليه أرجوزة لأبي تمام على أنها لأحد شعراء العرب فنالت منه نهاية الاستحسان حتى قال « هذا هو الديباج الخسرواني » واستكتبها فلما أنهاها قيل له إنها لأبي تمام فلم يخجل أن قال « من أجل هذا أرى عليها أثر الكلفة » وألقى الورقة من يده وقال « خرق خرق يا غلام »
- (٢) كان ابن قتيبة يقدم القديم من ناحية الجزالة وسلامة العبارة ولأنه

## وبعد

فانا واجدون من الحتم ألا ننهي الكلام على الشعر بعد الذي  
أسلفنا عن نهضته من حيث المظاهر والأسباب في تلك النواحي الثلاث  
دون أن نتعرض إجمالاً لثلاث نواح أخرى تتصل بتلك النهضة .  
هي مواطن الشعر وطبقات رجاله ، والعوامل المساعدة لأسباب نهوضه ،  
ثم الغناء ومجالسه ، لاقصالة الوثيق بالشعر والشعراء  
١ - مواطن الشعر وطبقات رجاله

عرفت مما ذكرنا عن طابع كل عصر من العصور العباسية الأربعة  
في حياة اللغة أن بغداد في العصر الأول كانت محط الرجال وكعبة  
الآمال ومظهر العظمة والجلال ، لقوة الخلفاء فيه قوة تجمعهم مناسبات تحقيق  
الآمال ومفزع تفريج الكرب والآلام ، ولذلك تركز فيها كل شيء وقصدها  
ذوو الغايات من كل فن وفي مقدمتهم جمهرة الشعراء قصد توطن  
 وإقامة لازيارة وإياب . ومن هنا كانت كل طبقاتهم من أهلها وإن كانوا  
 في النشأة والنسب متعددي الأوطان . كما عرفت أنها بالرغم مما أصابها  
 في العصر الثاني بقيت مركز الأدب وعش الشعر ولكن في نظام  
 وخضوع . وقد ظهر من الشعراء في العصرين ست طبقات ، أولها

---

مرجع النحوى في الشواهد والنحوى في معاني المفردات والتراكيب ، ويقدم  
 الحديث لعذوبة ألفاظه وحلاوة معانيه وشدة ارتباطه . وكان ابن رشيق على  
 النحو من ذلك فقد جعل مثل القديم والحديث مثل رجلين ابتداءً هذا بناءً  
 فأحكمه وأتقنه ثم أتى الآخر فنهشه وزينه فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حسن  
 والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خشن



طبقة بشار من مخضرمى الدولتين وأشهر رجالها بشار وحجاج وعبد  
ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد وصالح بن عبد القدوس وأبو دلامة  
والسيد الحميرى ومروان بن أبى حفصة ، ومن رجازها رؤبة بن العجاج .  
وثانيتهما طبقة أبى نواس التى نشأت فى صدر الدولة العباسية وأشهر  
رجالها أبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأشجع بن عمرو والسلمى  
ومسلم بن عمرو والخاسر والحسين بن الضحاك والعباس بن الأحنف  
وأبان بن عبد الحميد وكثوم بن عمرو العتبانى وأبو الشيص محمد بن رزى  
ومن رجازها عمارة بن عقيل ، والثالث طبقة أبى تمام التى نشأت فى آخر  
العصر الأول ومعظم رجالها أدراك العصر الثانى وأشهرهم أبو تمام  
ودعبل الخزاعى وديك الجن عبد السلام بن رغبان وعلى بن الجهم .  
والرابعة طبقة البحترى التى ظهرت شاعريتها فى أول العصر الثانى  
وأشهر شعرائها البحترى وابن الرومى وابن الزيات . والخامسة طبقة  
ابن المعتز فى وسط هذا العصر ومن شعرائها عبد الله بن المعتز وأبو  
الحسن على بن محمد البسامى البغدادى . أما السادسة فهى الناشئة فى آخره  
ومن شعرائها أبو القاسم نصر بن أحمد المعروف بالخيزرورى وأبو  
بكر الحسن بن على المعروف بابن العلاف . ومن الشواعر فى الأول عليّة  
بنت المهدي . ومنهن فى الثانى فضل جارية المتوكل على الله العباسى وكان  
منزلها مجتمع الأدياء .

وقد عرفت أيضاً أنها بدأت منذ العصر الثالث تفقد نفوذها وسطوتها  
لتفكك أوصال الدولة بإنشاء الدويلات المزاحمة لها بحواضرها فيما كانت  
به ذات استئثار فأخذ كل شىء يرحل عنها إلى تلك الحواضر حتى لم

يبقى لها إلا نصيب يسير، وكان أن توزع الشعراء على الأقاليم أكثر مما توزع الأدباء والعلماء فصار لشعراء كل إقليم من المزايا والخواص ما لم يكن لغيرهم من سائر الشعراء .

ولذلك بالرجوع إلى ما ذكرنا في التصوير السياسى لهذا العصر تجدهم كانوا منضوين في الممالك الشرقية لامارات غير عربية كآل بويه بالعراق وفارس ، والساسانيين فيما وراء النهر ، والغزنويين بخراسان ، في حين كانت الممالك الغربية عربية كالحمدانيين بالجزيرة والشام ، والفاطميين بمصر ، أما الأخشيديون الاتراك بها فلم تكن مدتهم وهي ثلث قرن ذات تأثير . ومن ثم تحكم بأن الشعر في الممالك الغربية كان خيرا منه في الشرقية، كما تحكم بأنه كان في العراق وفارس خيرا منه فيما وراء النهر وخراسان كما كان في الشام والجزيرة خيرا منه في مصر ، وأنه كان في الوسطين خيرا منه في الطرفين . وعلى هذا يكون الشعراء بالنسبة إلى الأقاليم أربع طبقات وإليك أسماء أشهرهم على هذا التقسيم

فن شعراء الجزيرة والشام أبو الطيب المتنبي فاتحة شعراء هذا العصر وأبو فراس الحمداني وكثير غيره من آل حمدان وأبو محمد جعفر وأبو أحمد عبد الله ابنا ورقاء الشيباني وأبو الفتح كشاجم محمود بن الحسين الرملي والسرى الرفاء وأبو الفرج الواواء وأبو الفرج الببغاء وأبو العباس النامى وأبو طالب الرقى وعبد المحسن الصورى وأبو الرعمق وأبو القاسم الواساني وأبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم الخالديان ثم خاتمتهم صاحب المعرة وأبو العلاء

ومن شعراء مصر أبو محمد الحسن بن على بن وكيع التنيسى وأبو

القاسم أحمد بن محمد اسماعيل بن طباطبا الحسني وأبو القاسم بن أبي  
العفير الأنصاري ومحمد بن عاصم الموقفي وأبو علي الأمير تميم بن  
المعز الفاطمي والتمهي وكان في الشام قبل .

ومن شعراء العراق وفارس الصابي وتاج الدولة بن عضد الدولة  
البويهسي وكثير غيره من آل بويه والوزير المهلب أبو محمد الحسن بن  
محمد وابن دريد والقاضي التنوخي أبو القاسم علي بن محمد وابن لنكك  
أبو الحسن محمد بن محمد وأبو عبد الله الحسين بن علي النخعي وأبو الحسن  
محمد بن عبد الله السلاوي وابن نباتة السعدي والشريف الرضي ومهيار  
وأبو الحسن علي بن زريق وابن مسكرة وابن حجاج

ومن شعراء ماوراء النهر وخراسان أبو الطيب طاهر بن محمد  
الطاهري وأبو الحسن علي بن الحسن اللحام وأبو محمد الحسن بن علي  
المطرائي وأبو طالب عبد السلام بن الحسن المأموني وأبو محمد عبد الله  
ابن عثمان الواثق وأبو محمد عبد الله بن إبراهيم الرقاشي والخوارزمي  
والهمذاني وأبو الفتح البستي وأبو الفضل الميكالي وأبو النصر محمد بن  
عبد الجبار العتبي وأبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل التعلابي،  
وقد كان للتعالي هذا على شعراء هذا العصر الثالث فضل ليس  
لغيره مثله بتدوين أخبارهم في كتابه الخالد « يتيمة الدهر » ذي الأقسام  
الأربعة، فقد جعل القسم الأول وهو أضخمها لشعراء الشام ومحواليها  
من الجزيرة شرقا ومصر غربا وفيه عنى بآل حمدان، وجعل الثاني لشعراء  
أهل العراق وفيه عنى بآل بويه ، وجعل الثالث لشعراء فارس وما إليها  
من جرجان وطبرستان منشأ البويهيين ، وجعل الرابع لشعراء ماوراء

النهر وخراسان موطن السامانيين والغزنين. وعقد في أول القسم  
أثلاول بابا في فضل شعراء الشام على شعراء سائر البلدان كان ممّا  
قال فيه

« لم يزل شعراء عرب الشام وما يقاربها أشعر من شعراء عرب  
العراق وما يجاورها في الجاهلية والاسلام. والسبب في تبرز القوم  
قديما وحديثا على من سواهم في الشعر، قربهم من خطط العربية ولا  
سيما أهل الحجاز، وبعدهم عن بلاد العجم وسلامة ألسنتهم من الفساد  
العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم إياهم.  
ولما جمع شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة  
الحضارة ورزقوا ملوكا وأمراء من آل حمدان وبنى ورقاء هم بقية العرب  
المشغوفون بالأدب والمشهورون بالمجد والكرم والجمع بين آداب السيف  
والقلم وما منهم إلا أديب جواد يحب الشعر ويتقده وينيب على الجيد  
منه فيجزل ويفضل، انبعتت قرائهم في الاجادة فقادوا محاسن الكلام  
بألن زمام وأحسنوا وأبدعوا ما شاءوا » .

ولما حل العصر الرابع وطوحت أحداثه بآل بويه في العراق  
وفارس، ومن قبلهم بالسامانيين فيما وراء النهر وبالحمانيين في الجزيرة  
والشام، اضمحل الأدب والشعر في خراسان إذ لم يبق فيها إلا الغزنيون  
وليسوا للعربية بنصراء، وبقي ضعيفا في فارس والعراق، ثم تنزل عن  
الهامة التي كانت له في الجزيرة والشام ولكنه ارتفع إليها في مصر لبقاء  
الفاطميين. حتى إذا ما زال الغزنيون من الشرق والفاطميون من الغرب  
في نصفه الثاني تقلص نهائيا من القاصية واشتد ضعفه في فارس وصار

وسطا في العراق والجزيرة ثم نزل عن الهامة في مصر حتى كاد يصل  
مستوى الشام ، ولكن ساعد على بقائه ناميا فيهما إذ ذاك الحروب  
الصليبية أيام بني أيوب . وهذه أسماء أشهر الشعراء فيه بكل إقليم  
مرتبة على حسب التنازل في القوة من الغرب الى الشرق

في مصر - ابن زقاق البلقيني وظافر بن القاسم الاسكندر  
وأبو الفتوح نصر الله بن عبد الله المعروف بابن قلافس الأزهرى  
وعمارة البني وهبة الله بن جعفر المعروف بابن سناء الملك المصرى وجمال  
الدين بن النبيه المصرى وابن عتيد وأبو الفضل جعفر بن شمس الخلافة  
وأبو حفص صهر بن الفارض وأبو الحسن جمال الدين بن مطروح  
والامير سيف الدين الياروقى ثم أبو الفضل بهاء الدين زهير المتوفى  
سنة ٦٥٦ .

في الشام - ابن سنان الخفاجى وابن حيوس الغنوى ومهذب  
الدين أبو الحسين أحمد بن منير الطرابلسى وبهاء الدين أبو الحسن بن  
على الساطقى والملك الأشمجد أبو المظفر بهرام شاه الأيوبرى وشهاب  
الدين أبو المحاسن يوسف بن اسماعيل المعروف بالشواء الحلبى وأمين  
الدين عبد المحسن بن حمود التنوخى الحلبى وصدر الدين محمد بن صهر بن  
على بن حمويه الدمشقى ونور الدين محمد بن محمد الاسعردى ثم صدر الدين  
على بن أبى فرج بن الحسن البصرى المتوفى سنة ٦٥٩

في الجزيرة والعراق - الطغرائى ودلال الكتب أبو المعالى سعد  
ابن على الخزرجى وابن التعاوىذى ونجم الدين أبو الغنائم محمد بن على  
المعروف بابن المعلم الواسطى وحسام الدين أبو يحيى عيسى بن سنجر

الحاجرى وأبو الطيب أحمد بن محمد المعروف بابن الحلاوى والصمصرى  
أبو زكريا يحيى بن يوسف البغدادى والأثير علم الدين أيدمر المحيوى  
التركى ثم محيى الدين الوترى البغدادى المتوفى سنة ٦٦٢

فى فارس - صردر وأبو الحسن على بن الحسن الباخريزى ومعين  
الدين أحمد بن عبد الرزاق الطنطرانى وابن الهبارية السابق فى القصص  
ثم ابن الخياط والغزى والارجانى والابوردى السابقون فى النماذج<sup>(١)</sup>

ب - العوامل المساعدة لأسباب نهوضه

نعنى بهذه العوامل المساعدة ، ما جاء مقويا لعوامل النهضة الاولى  
التي شرحناها فى كل من الألفاظ والمعانى والأغراض وهى كثيرة  
فلنكتف هنا بذكر أهمها : -

١ - تذوق الخلفاء ورجال الدولة للأدب - فقد كانوا منذ  
أوليتهم ذوى أذواق أدبية سليمة يعرفون بها الغث والسمين ويميزون  
الحسن والأحسن ، قال الربيع بن زياد - قالت للمنصور يوما إن الشعراء  
ببابلك وهم كثيرون طالت أيامهم ونفدت نفقاتهم فقال اخرج اليهم  
فاقرأ عليهم السلام وقل لهم عني ، من مدحني منكم فلا يصفني بالأسد  
فإنما هو كلب من الكلاب ولا بالحية فإنما هى دويبة من ذئبة تأكل التراب ولا  
بالجبل فإنما هو حجر أصم ولا بالبحر فإنما هو لجب غطامط فن ليس  
فى شعره هذا فليدخل ومن كان فى شعره فليمنصرف ، قال الربيع فانصرفوا  
كلهم إلا ابراهيم بن هرمة فإنه قال أنا له ياربيع فأدخلني فادخلته قال فلما  
مثل بين يديه قال لى المنصور ياربيع قد علمت أنه لا يجيبك أحد غيره

(١) قد اكتفينا فيمن تقدم نحبهم بالاسم المشهور وأكملنا الاسم فى غيرهم .

هات يا بن هرمة فانشده قصيدته التي يقول فيها  
له لحظات عن حفاقي سريره إذا كرها فيها عذاب ونائل  
له طينة بيضاء من آل هاشم إذا اسود من كوم التراب القبائل  
إذا ما أتى شيئا مضى كالذي أتى وإن قال إني فاعل فهو فاعل  
فقال حسبك هاهنا بلغت هذا عين الشعر قد أمرت لك بخمسة  
آلاف درهم. وقد تبعه في ذلك ابنه المهدي وحفيده الهادي والرشيدي  
وتناهى ذلك في الرشيد فكان أعلم بالشعر من الشعراء . قال سعيد بن  
سلم قدم على الرشيد أعرابي فمثل بين يديه فقلت يا أعرابي خذ في  
شرف أمير المؤمنين فاندفع في شعره فقال الرشيد يا أعرابي أسمعك  
مستحسننا وأنكرك متهما فقل لنا بيتين في هذين - وأشار إلى  
الامين والمأمون وكان حفاقيه - فقال يا أمير المؤمنين حملتنى على الوعر  
القردد وأرجعتنى عن السهل الحرد ، روعة الخلقة وبهر الدرجة ونفور  
القوافى على البديهة فأروذنى تتألف لى نوافرها ويسكن روعى قال  
قد فعلت وجعلت اعتذارك بدلا من امتحانك فقال يا أمير المؤمنين  
نفسك الخناق وسهلت ميدان السباق وأنشأ يقول

بنيت لعبد الله ثم محمد ذرا قبة الاسلام فاخضر عودها  
ها طنباها بارك الله فيهما وأنت أمير المؤمنين صمودها  
فقال الرشيد وأنت يا أعرابي بارك الله فيك فسل ولا تكن  
مسألتك دون إحسانك ؛ قال الهنيدة يا أمير المؤمنين - والهنيدة مائة  
من الابل - فأمر له بمائة ناقه وسبع خلع . ودخل عليه سهل بن هارون .  
فوجده يضاحك المأمون فقال اللهم زده من الخيرات وأبسط له في

البركات حتى يكون كل يوم من أيامه موفيا على أمسه مقصرا عن غده فقال الرشيد يأسهل من روى من الشعر أحسنه وأجوده ومن الحديث أصحّه وأبلغه ومن البيان أفصحّه وأوضحّه إذا رام أن يقول لم يعجزه قال سهل يا أمير المؤمنين ما ظننت أحدا تقدمنى الى هذا المعنى فقال الرشيد بل أعشى همدان حيث يقول .

وجدتك أمس خير بنى لؤى وأنت اليوم خير منك أمس وأنت غدا تزيد الخير ضعفا كذاك يزيد سادة عبده شمس وقد كان المأمون كاتبيه الرشيد ، أنشده مرة مروان بن أبى حفصة قوله :-

أضحى إمام الهدى المأمون مشغلا بالدين والناس بالدنيا مشاغلا فلم يطرب له فساء ذلك وذهب الى صمارة بن عقيل يقول له أعلمت أن المأمون لا يبصر الشعر فقال له صمارة ومن ذا يكون أعلم به منه فوالله إنك لترانا ننشده أول البيت فيسبقنا الى آخره قال مروان فانه لم يتحرك لقولى وأنشده البيت السابق فقال صمارة إنك والله ما صنعت شيئا وهل زدت أن جعلته عجوزا فى محرابها وفى يدها مسابحها فمن القائم بأمر الدنيا اذا تشاغل عنها وهو المطوق بها هلا قلت فيه كما قال نهمك جرير فى عبدالعزيز بن مروان .

فلا هو فى الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله فقال مروان الآن علمت أنى أخطأت .

لذلك كان الشعر شفيعا اليهم فى عظام الذنوب ، خرج محمد بن البعيت على المتوكل فأرسل اليه من أتى به أسيرا فأمر بضرب عنقه فأنشد .



أبي الناس إلا أنك اليوم قاتلى إمام الهدى والصفح بالناس أجمل  
وهل أنا إلا جيلة من خطيئة وعفوك من نور النبوة يجبل  
فانك خير السابقين الى العلا ولا شك أن خير الفعالين تفعل  
فقال المتوكل جلسائه إن فيه لأدبا وأمر باطلاقة والعفو عنه .

وقد شايع خلفاء العصر الأول فى ذلك رجال الدولة وأعيانها وقصص  
البرامكة فى هذا أمر يطول ، كان أبان على أيامهم يرتب لهم الشعراء  
فى التقدمة بهم اليهم والى الخلفاء ثم بقى خلفاء العصر الثانى من ذلك شبه  
ما كان لأسلافهم فى الأول ولكن غرض منه وخفض من هميتهم جهل  
الخدم الأتراك المستبدين عاينهم ، بمعانى الشعر وأقدار الشعراء فلم  
يظهر بمظهر أسلافه منهم الا القليل كعبد الله بن المعتز صاحب  
اليد الطولى على الأدب والشعر والفتوح الواسعة فى نواحى البديع والمعاني  
وميادين الخيال ولكن لما جاء العصر الثالث وتعددت الحواضر نافس  
ملوك الدويلات وأمرأؤها وأعيانها بعضهم بعضا فى النهوض بالأدب  
كما عرفت ذلك حيث الكلام على ميزات العصر الثالث فى صدر الكتاب  
عن آل حمدان وآل بويه والفاطميين . فرقى الشعر بهذا النهوض .  
أما العصر الرابع فقد أخذ حكمه يسرون نحو الجهل بالأدب الى الوراء  
فقللت رغبة الشعراء فيه وإن بقى للشعر على أيامه وجود فى مصر  
والشام والجزيرة والعراق وبعض فارس دون خراسان ، على النحو الذى  
ذكرناه فى مواطنه وطبقات رجاله مذ الآن .

٢ - عقدم لمجالس الشعر — لعل أول خليفة إسلامى عقد مجالس  
للأدب طامة وللشعر خاصة بالمعنى الذى نريده الآن ، عبد الملك بن مروان

الخليفة الأموى العظيم وقد دونا عن مجالسه الأدبية فى كتابنا الثانى  
 الشئ الكثير ، وقد جراه فى شبه ذلك أبنائوه من بعده وخاصة هشام .  
 ثم جاء العصر العباسى وخلفائه ميل شديد الى هذه المجالس ولكنه لم يظهر  
 واضحاً أيام أولهم أبى العباس لقصر مدته مع اشتغاله فيها بالسياسة  
 ليل نهار ، ثم ظهر فى عهد أخيه المنصور صاحب الرسالة السابقة إلى  
 الشعراء على لسان حاجبه الربيع بطلب النزوع عن القديم الى الجديد .  
 وقد سبنا الوقت بهذه المجالس لابنه المهدي فعقد منها الكثير ،  
 عقد يوماً مجلساً مروان بن أبى حفصة حشد فيه وجوه بني العباس فلما  
 تنام الناس دعاه فأنشده .

كان أمير المؤمنين حمداً لرأفته بالناس للناس والد  
 على أنه من خالف الحق منهم

. سقته به الموت الخوف الرواصد .

فأشار اليه فأمسك ؛ فقال يا بني العباس هذا شاعركم المنقطع  
 اليكم المعادى فيكم فآتوه مايسره فأعطاه موسى ابنه خمسة آلاف درهم  
 وأعطاه هرون مثلهما وأعطاه سائر البيت كل على قدر حاله فبلغ ما أعطوه  
 أربعين ألف درهم وأعطاه هو ثلاثين ألفاً ثم قال له وسيايتك مني ما يؤديك  
 الى الغنى فقال له مروان قد رأيت من قبولك وبشرتك وسرورك بما  
 سمعت مني ما سآزدا به شعرا وستسمع ويبلغك ، فلا يبلغ ما أعطيتني  
 لشاعر بعدى : قال أجل قال فأذن في زيارتك قال آذنتك فقال لي فيك وفي  
 أهل بيتك عدو فان رأيت ألا تجعل لأحد على سلطانا دونك قال  
 لاسلطان عليك دون أمير المؤمنين . وعقد ابنه موسى الهادى حين

وقع إليه سيف عمرو بن معد يكرب الزبيدي وكان معنيا بجمع السلاح  
مجلسا للشعراء اقترح عليهم فيه وصفه فقال بعضهم :

حاز مصامة الزبيدي من يمين جميع الأنام موسى الأمين  
سيف عمرو وكان فيما سمعنا خيرا ما أغمضت عليه الجفون  
أخضر اللون بين حديه برد من ذعاف يمس فيه المنون  
أوقدت فوقه الصواعق نارا ثم شابت به الذعاف القيون  
فاذا ما سللته بهر الشمس ضياء فلم تكدر تستبين  
ما يبالي من انتضاه لحرب أشمال سطت به أم يمين  
يستطير الألبصار كالقبس المشعل ما تستر فيه العيون  
وكان القرنند والجوهر الجا رى على صفحته ماء معين  
فنهحه عشرين ألف درهم . ولما عقد الرشيد البيعة لابنه الأمين  
أخذ يستمع للشعراء فأنشده سلم

قد وفق الله الخلافة إذ بنى بيت الخلافة للهجان الأزهري  
فهو الخليفة عن أبيه وجده شهدا عليه بمنظر وبمخبر  
قد بايع الثقلان في مهد الهدى لمحمد بن زبيدة ابنة جعفر  
فأنهالت عليه العطايا من الرشيد والسيدة زبيدة حتى ناء ، وكذلك  
فعل حين عقد البيعة من بعده للأمنون . وحتى المعتصم على أميته كان  
يطرب للأدب ويعقد مجالس للشعر ، اجتمع الشعراء ببابه مرة فبعث  
إيهم من يقول لهم ، من كان منكم يحسن أن يقول مثل قول منصور  
القمي في الرشيد - وأنشد الأبيات التي تقدمت في المبالغات -

م ٢٨ أدب

فليدخل فقال محمد بن وهيب الحميري، فينا من يقول خيرا منه ودخل  
فأنشده قصيدته التي منها

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحق والقمر  
فالشمس تحكيه في الاشرار طالعة إذا تقطع عن إدراكها النظر  
والبدر يحكيه في الظلماء منبلجا إذا استنارت لياليه به الغرور  
فهل له وبالع في جائزته . وكانت مجالس ابنه المتوكل للشعراء ومكانة  
البحر في فيها مضرب الأمثال ، ولكن بعده كسدت مجالس الأدب  
وقع الشعراء حتى أحياءها ملولا الدويلات في الشام ومصر والعراق  
كما علمت آنفا . ثم عاودها الكساد في النصف الأول من العصر الرابع  
حتى زالت في نصفه الأخير .

٣ - إجابة المحسنين من الشعراء وقد تقدم الكلام على ذلك مع المدح بما  
فيه الكفاية .

٤ - رقى الغناء ومجالسه ، لما لذلك من صلة وثيقة برقى الشعر وإشهار  
الشعراء كما سترى في الكلام عليه الآن

ج - الغناء ومجالسه

قد عرفت مما ذكرنا في العصر الأموي أن الغناء نهض فيه  
وأنهض معه الشعر ، لحاجة الحياة المترفة إليه في مدن الحجاز . وإذا كان  
الترف منذ العصر العباسي الأول قد بلغ أقصى الغايات فلا بد أن يكون  
الغناء قد بلغ فيه مثل ذلك وأثر في النهوض بالشعر أو ضح تأثير  
واليك البيان

اتخذ المغنون أصواتهم من الشعر فدفعوا بالشعراء إلى نوحي

السهولة والرشاقة في الأساليب، وتطلب الجمال والركة في المعاني، وابتكار الجديد اللائق في الأغراض . وقد كان الغناء بشعر شاعر في حضرة خليفة ووزير أو ملك وأمير يثير في نفسه من المشاعر الكامنة والوجدانات الخافية ما يقوى فيه ملكه الشعر حتى يظفر كل يوم بمزيد . كما كان التسابق في هذا المجال يولد لدى كل منهم الطمع في أن يكون المجلي في هذا السباق وفي ذلك للغناء على الشعر فضل كبير . على أن له عليه فضلا آخر هو إشاعته في الناس لما هو طبيعي في الانسان من حب الغناء والميل إلى استماعه سيمان في ذلك الفرح والحزون لحسن موقعه في القلب ووصوله دون أن تفاهم آخر إلى أعماق النفس ، نعم كان ذلك سببا في أن يلهج الناس بالشعر الذي يغنى فيه ويكثرُوا إنشاده في المجتمعات وفيما بينهم وبين أنفسهم بترديد أبياته استمتاعا بمعانيها أو الترنم بها استعادة لانعامها . ولهذا عقد بين المغنين والشعراء إزاء وثيق ، بل لهذا وجد من المغنين من أجاد الشعر ومن الشعراء من أثقن الغناء وإن كانت مجالس المغنين أحفل جمعا وأكثر عددا من مجالس الشعراء وإليك مجلسا منها للرشيدي

جمع الرشيدي وما بين المغنين المتعصبين للقديم منهم كإبراهيم الموصلي وابنه إسحق ، ونصره الجديد كإسماعيل بن جامع<sup>(١)</sup> ثم أمر إبراهيم أن

---

(١) كان الغناء كله أول العصر العباسي على القديم فلما جاء إبراهيم ابن المهدي لم يتقيد به وقال أنا ملك وابن ملك أغنى كما أشتهى وعلى ما ألتذ ، وانضم اليه جماعة ، منهم إسماعيل المذكور وفليح بن أبي العوراء وبجي المكي وعمرو بن نابه وحسين بن محرز وغيرهم ، وبقي إبراهيم الموصلي على القديم وانضم اليه

يغنى فغنى الصوت

وقفت على ربع ليلة ناقتى فما زلت أبكى عنده وأخطبه  
وأسقيه حتى كاد ممّا أبشه تكلمنى أحجاره وملاعبه  
فكان كل من من فى المجلس يحببه بترديد صوته وطرب الرشيد حتى كان  
يقوم ويقعد ، فأشار مسرور الخادم الى ابن جامع فغنى

كان أحور من غزلان ذى بقر أعارها شبه العينين والجيدا  
أجرى على موعده منها فتخلفنى فأمل ولا توفى المواعيدا  
كأننى حين أمسى لا تكلمنى ذو بغية يبتغى مالىس موجودا  
فاستخف الطرب الرشيدا بما استخفاف ثم غنى إسحق

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر  
فياحبها زدنى جوى كل ليلة ويأسلوة الأيام موعداك الحشر  
وإنى لنعرونى لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر  
هزتك حتى قليل لا يعرف الهوى وزرتك حتى قيل ليس له صبر  
فكاد الرشيد يخرج من ثيابه طربا وقال « والله ما الغناء الذى يلين  
العريكة ويفسح فى الرأس والصدر ويحدث فى النفس طربا إلا غناء  
إسحق » ثم أوما إلى المغنين أن يحلوا صفوفهم وفرق فيهم الجواز بقدر  
أهليتهم من ألف دينار إلى خمسمائة إلى مادون ذلك

هذا وقد اعتنى الخلفاء بالغناء أكثر من عنايتهم بالشعر ، وأكرموا المغنين

---

جباة ، منهم إسحق ابنه وسليم بن سلام وزير بن دهمان ومحمد بن الرف واهجد  
بن يحيى ومحمد بن حمزة وغيرهم . ولم يلبث المجددون أن أتقنوا ما خرجوا فيه  
فكان فى خروجهم فتح مبين للغناء

أكثر مما أكرموا الشعراء واتخذوا منهم الندمان والسبار وأسقطوا  
السكفة عنهم وكانوا يزورونهم في منازلهم ويهبونهم أياما ينقطعون  
فيها إلى لذتهم فلا يطلبونهم مع شغفهم بمجاورتهم ، ثم كان أن أقبل  
بعضهم على الغناء يتعلمه ، كما أقبل كثير من أقربائهم حتى أجاده عدد  
منهم كإبراهيم بن المهدي وأبي عيسى بن الرشيد وعبد الله بن المهدي  
وعبد الله بن الأمين وأبي عيسى بن المتوكل وعبد الله بن المعتز . .  
بل من الخلفاء أنفسهم من اشتهر بالتأحين كالوائق والمنتصر والمعتز  
والمعتمد والمعتضد ، وكل ذلك ذكره صاحب الاغانى وساق على بعضه  
الشواهد . ولعل أشد هؤلاء جميعا ولعا بالغناء أبو عيسى بن المتوكل  
الذى كانت مجالسه فيه تجاوز حدود الوصف وإليك واحدا منها .

جمع مرة بين المشدود وزنين وديس فغنى المشدود

لما استقل بأرداف تجاذبه	واخضر فوق حجاب الدرشاربه
وأشرق الورد في نسرين وجنته	واهتز أعلاه وارتجت حقائبه
كلمته بجفون غير ناطقة	فكان من رده ما قال حاجبه

ثم سكت وغنى زنين

الحب حلو أمرته عواقبه	وصاحب الحب صب القاب ذائبه
أستودع الله من بالطرف ودغى	يوم الفراق ودمع العين ساكبه
ثم انصرفت وداعى الشوق يهتف بى	ارفق بقلبك قد عزت مطالبه

ثم سكت وغنى ديس

بدر من الانس حفته كواكبه	قد لاح صارضه واخضر شاربه
إن يمنح الوعد يوما فهو مخلقه	أو ينطق القول يوما فهو كاذبه

عاطيته كدم الأوداج صافية فقام يشد وقد مالت جوانبه  
ثم عادوا فغنوا بلحن واحد وقافية واحدة ، في كل ثلاثة أصوات  
كما رأيت في هذه ، حتى تم لكل أحد عشر صوتا ، فطلاب أبو عيسى من  
المشدد وحده أن يغنى صوتا يكون ختام المجلس فغنائه إياه فأناهم  
جميعا ولولا أنه قطعهم ما انقطعوا ، وهذا هو الصوت :-

يا لجة الدمع هل للدمع مرجوع أم الكرى من جفون العين ممنوع  
ما حيلتى وفؤادى هائم أبدا بعقرب الصدى من مولاى ملسوع  
لا والذى تلفت نفسى بفرقة فالتاب من حرق الهجران مصدوع  
ما أرق العين إلا حب مبتدع ثوب الجمال على خديه مخلوع  
هذا وقد مال القوم استكمالاً له لمتعة منذ الصدر الأول أن يؤدبوا  
الجواري ويعلموهن الغناء ، فكان من ذلك قينات يجعن إلى جمال الأوثنة  
أدب الشعراء وصنعه المغنين ، واتخذ ذلك أرباب هذا الفن تجارة رابحة  
إذ كانوا يستحضرون الجارية غفلا بنحو مائة دينار فإذا ما ثقفوها  
باعوها بعشرات الآلاف<sup>(١)</sup> وغالى الناس في اقتنائهم حتى كان عند  
الرشيد ثلثمائة من المغنيات ، واليك حكاية عنان جارية الناطقى فى أدها  
رواية بكر بن حماد وفى وصولها إلى الرشيد رواية إبراهيم بن عمر .  
قال بكر - وقد انتهى إليه أدها - خرجت معترضا لها فاراعنى إلا الناطقى  
مولها قد ضرب على عضدى فقال هل لك فيما منى من طعام وشراب  
ومجالسة عنان قلت ما بعد عنان مطلب فضينا حتى أتينا منزله فدخل

(١) روى أن الرشيد اشترى إحدى الجواري بمائة ألف دينار بل روى  
أن الأمين عن أخرى بألف ألف دينار وليس ذلك على تبذيره فى لهو يبعيد.



— ٤٣٩ —

فقال لها هذا بكر شاعر باهلة يريد مجالته تك اليوم فقالت لا والله إني  
كسلانة فحمل عليها بالسوط ثم قال لي ادخل فدخلت ودمعها يتحدر  
كالجمان في خدها فطمعت بها فقلت

هذي عنان أسبلت دمعها كالدر إذ ينسل من خيطه  
ثم قلت أجزى فقالت

فليت من يضر بها ظالما تجف كفاه على سوطه  
فقلت إن لي حاجة فقالت هاتها فمن سببك أودينا، قلت لها بيت وجدته  
على ظهر كتابي لم أقرضه ولم أقدر على إجازته قالت قل فأنشدتها  
فما زال يشكو الحب حتى حسبته تنفس في أحشائه فتكلم  
قال فأطرقت ثم أنشدت

وبيكي فأبكي رحمة لبكائه إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما  
فقلت لها فما عندك في إجازة هذا البيت

بديع حسن بديع صد جعلت خدى له ملاذا  
فأطرقت ثم قالت

فعاثبوه فعنفوه فأوعدوه فكان ماذا

وقال إبراهيم - جلس الرشيد ليلة ومعه سماره فغناه بعض من  
حضر من المغنين بأبيات جرير التي يقول فيها

إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك لا يزال معينا

فطرب طربا شديدا وأعجب بالأبيات وقال لجلسائه هل منكم أحد  
يجيز هذه الأبيات بمثلن وله هذه البدرة - وكانت بين يديه بدرة من  
دنانير - قال فقالوا فلم يصنعوا شيئا فقال خادم على رأسه أنا بها ذلك

يا أمير المؤمنين قال شأتك فاحتمل البدره ثم أسرع الى الناطفي فقال له  
استأذن لي على عنان ، فأذنت له فدخل وأخبرها الخبر فقالت ويحك  
وما الأبيات فأنشدها إياها فقالت اكتب

هيجت بالقول الذي قد قلته داء بقلبي ما يزال كينسا  
قد أينعت ثمراته في طينها وسقين من ماء الهوى فروينا  
كذب الذين تقولوا يا سيدي إن القلوب إذا هوين هويها  
فدفع اليها البدره ورجع بالأبيات إلى هرون فقال له ويحك من قالها  
قال عنان فقال خلعت الخلافة من عنقي إن بانت إلا عندي ، وبعث إلى  
مولاهما فاشتراها منه بثلاثين ألف دينار وباتت بقية الليلة عنده .

بهذا التشجيع وغيره رقيت صناعة الغناء حتى صارت فنا ذا  
مؤلفات<sup>(١)</sup> وزادها رقيا اختصاص كل مغن بالحن أو أكثر يضع فيه  
الكثير من الأصوات<sup>(٢)</sup> كما رقيت بحوار الغناء مع الشعر الذي هو مدد

---

(١) ذكر ابن النديم من مؤلفات الغناء كتبها جلها ضائع الآن منها كتاب  
النغم للخليل ، وأخبار المغنين لإسحق وكتاب آخر له جمع فيه أغانيه ، والآداب  
الرفيعة في الغناء والمناذمات لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر كما ذكر أن لحظة  
البرمكي وحسن بن موسى النصيبي تأليف فيه أيضا . والباقي الآن هو الأغاني  
ولكن أبا الفرج أخلاه من قواعد الغناء إلا ما كان إشارة ورمزا وعلب عليه  
الصبغة الأدبية في أخبار المغنين والشعراء

(٢) كافرود فليح بن أبي العوراء بالزواقيسي وإبراهيم الموصلي  
بالمخوري وإسحق ابنه بلحن التخنيث . على أن إسحق افتن جدا فصنع ألحانا  
لا يقدر عليها شعبان ، وأخرى لا يقدر عليها متكى حتى يقعد وثلاثة لا يجيدها

الاصوات ، صناعات استخدام آلات الطرب من عود ونای وطبل  
وغيرها ، وانبرى الشعراء يصفون هذه الآلات كما يصفون القيان فيأتون  
بأبداع الأوصاف . قال ابن الرومي يصف القيان وفي أيديهم الآلات

وقيان كأنها أمهات طافات على بنينا حوانى

مطفلات وما حملن جنينا مرضعات ولسن ذات لبان

ملقيات أطفالهن ثديا ناهدات كأحسن الرمان

كل طفل يدعى بأسماء شتى بين عود ومزهر وكران<sup>(١)</sup>

أمه دهرها تترجم عنه وهو بادی الغنى عن الترجمان

وكان القيان أردن أن يقابلن ذلك الجميل من الشعراء بجميل مثله فكن  
ينقشن بعض أبيات الشعر في أكفهن بالحناء ، أو يكتبنها على ما يرتدين  
من ملابس ويمسكن من أدوات . نقشت إحداهن بالحناء في كفها

ليس حسن الخطاب زين كفى حسن كفى زين لكل خضاب  
وكتبت أخرى على عصابتها

ألا بالله قولوا يارب جال أشمس في العصابة أم هلال

وحملت وصيفة للأمين مروحة عليها

بی طاب العیش فی الصیـف و بی طاب السرور

ممسکی ینفی اذی الحر م إذا اشتد الحر — رور

الندی والجود فی وجـهه آمین الله نور

ملك أسلمه الشیـخه وأخلاه النظیر

قاعد حتى يقوم . وزاد عنه القارابی بعد ، فقد روى أنه دخل مجلس سيف الدولة  
فضرب لنا أضحكهم وآخر أبكاهم وثالثا أنامهم ثم قام (١) الكران الصننج

— ٤٤٢ —

هذا وقد دام الرقى للغناء بالغاً الأوج العصرين الأول والثانى .  
وناله فى الثالث ما نال الأدب عامة والشعر خاصة فكان فى إقليم خيرا  
منه فى إقليم كما ذكرنا عن الشعر آتفا . ثم انحط فى الرابع فكانت حاله  
أسوأ من حال الشعر لأنه يحتاج فى رقيه إلى مالا يحتاج اليه الشعر  
من أسباب كانت فى هذا العصر والعدم سواء

المباعى يوصى



- ١ -

# فهرس

## تاريخ اللغة العربية في العصر العباسي

« بغير الاندلس والمغرب »

مقدمات	٦٠ - ٣
تصوير عام للحال السياسية في هذا العصر الطويل وتقسيمه	٨ - ٣
أربعة عصور	
٩ - ٢٣ طابع كل عصر وأثره العام في حياة اللغة من حيث الآداب والعلوم	
٢٤ - ٣٤ مائراً على العرب ولغتها من جراء امتزاج الأعجم بها	
٣٥ - ٤٦ غلبة الفرس في هذا التأثير وإلى أى درجة كان في اللغة مداه	
« من ناحية الأغراض والمقاصد ، وناحية المعاني والأخيلة ، وناحية الألفاظ والأساليب »	
٤٧ - ٦٠ انتشار العامية واختلافها باختلاف الأقاليم	

- - -

## الخطابه

١٠٨-٦١

٨٤-٦١ نماذجها « ٢٢ نموذجها »

١٠٨-٨٤ حياتها « دواعيها وأغراضها ومميزاتها »

## الكتابة

٣١٠-١٠٩

١١٠-١٠٩ أنواعها « رسائل ، توقيعات ، قصص ، مقامات ، كتابة

علمية »

١٤٩-١١١ نماذج الرسائل « في العصور الاربعة ٤٧ نموذجها »

١٦٤-١٤٩ نماذج القصص والمقامات « ٤ نماذج »

١٩٧-١٦٥ أساليب الرسائل ومميزاتها وطبقات رجالها في العصور

الاربعة مع التعريف الوافي بامام كل عصر

٢٣٠-١٩٧ دواعيها وأغراضها ومكانة رجالها

٢٤٣-٢٣٠ التوقيعات « نماذجها وحياتها منذ نشأتها إلى انقراضها »

٢٦٣-٢٤٤ القصص وحياتها منقولة وموضوعة مع الموازنة بينها

وبين القصة الآن

٢٧٦-٢٦٤ المقامات وحياتها منذ نشأتها إلى نهاية العصر

- ٥ -

- ٢٧٧ - ٣١٠ تدوين العلوم والكتابة العلمية
- ٢٧٧ - ٢٧٩ تمهيد عام وبيان لأنواع العلوم وأقسامها
- ٢٧٩ - ٢٨٥ العلوم الشرعية . « التفسير والقراءات ، الحديث ،  
الفقه وأصوله . الكلام والمنطق »
- ٢٨٥ - ٢٩٨ العلوم اللسانية « النحو والصرف . متن اللغة . البلاغة .  
الادب والتاريخ »
- ٢٩٨ - ٣٠٣ العلوم الكونية « من طبيعية ورياضية وإلهية  
وسياسية »
- ٣٠٣ - ٣٠٥ الكتابة العلمية أو لغة التأليف في كل من العلوم الإسلامية  
« شرعية ولسانية » والعلوم الكونية
- ٣٠٦ - ٣١٠ مجالس العلم والمناظرة وإنشاء المدارس

— ٤ —

الشعر	٤٤٢—٣١١
نماذج « في العصور الأربعة ٣١ نموذجاً »	٣٤٧—٣١١
تمهيد لحياته من النواحي الثلاث الآتية	٣٤٨—٣٤٧
ناحية الأغراض والفنون « من مناح عشرة »	٣٧٥—٣٤٨
« المعاني والأخيلة » من مناح ستة	٤٠٤—٣٧٥
« الالفاظ والأساليب » من مناح عشرة	٤٢٠—٤٠٥
توجيه النظر إلى ما للمولدين في تلك النواحي من	٤٢٢—٤٢١
حسنات وسيئات	
مواطن الشعر وطبقات رجاله	٤٢٨—٤٢٢
العوامل المساعدة لأسباب نهوضه	٤٣٤—٤٢٨
الغناء ومجالسه وعلاقة ذلك بنهضة الشعر	٤٤٢—٤٣٤
الفهرس	١—٤







دار العلوم

---

من

محاضرات الادب العربي

لطلبة السنة النهائية

---

للدكتور

احمد ضيف

---

حقوق الطبع للمؤلف

١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م

---

مطبعة العلوم بشارع الخليل بجدة لاظ



## أدب العرب في الاندلس

وصف بلاد الاندلس

تقع شبه جزيرة إيبيريا بالجنوب الغربي من قارة أوروبا ، وتحيط بها مياه بحر الروم وبحر الزقاق والمحيط الاطلانطي من جميع جهاتها ما عدا جزءا صغيرا من الشمال الشرقى الذى تمر به جبال الألباب (جبال البرانس) حيث يتصل بالقارة الأوربية . وقد سمي العرب شبه الجزيرة هذا بجزيرة الأندلس . واعلمهم سموها جزيرة لظنهم أن الماء يحيط بها من كل جهاتها، لأنهم عندما عبروا إليها من بلاد المغرب رأوها محاطة بالماء ، أو سموها جزيرة كما سموا بلادهم بجزيرة العرب من باب التغليب ( كما قال بذلك ياقوت الحموى ) وقد سرت هذه التسمية في جميع المؤلفات التاريخية والجغرافية ، وأطلق عليها جميع المؤلفين جزيرة الاندلس والحقيقة أن بلاد الاندلس ليست إلا جزءا من شبه جزيرة « إيبيريا » وهذا الجزء هو القسم الجنوبي الذى يمر به نهر الوادى الكبير وغيره من الأنهر ، فهو إقليم من أقاليم شبه الجزيرة يحده شمالا بنهر الوادى الكبير . ومن الجنوب ببحر الزقاق ، ويتصل من الغرب ببلاد البرتغال ، ومن الشرق بأقليم بلنسية . ولكن العرب عند ما فتحوا هذه البلاد ملكوا شبه جزيرة إيبيريا كله ما عدا الجزء الشمالى المتصل بجبال البرانس وجزءا من القسم الشمالى الغربى أيضا ، وأطلقوا على كل البلاد التى ملكوها اسم الاندلس

وقد اشتملت بلاد الأندلس الإسلامية على جزء كبير من  
 الهضبة العظيمة التي تشغل الجزء الأكبر من شبه جزيرة ايبيريا ، وتمتد  
 من الشمال إلى سلسلة جبال تسمى « كنتبريان » ومن الجنوب إلى  
 جبال « سريا مورينا » وتحترق شبه جزيرة ايبيريا وديان كثيرة يفصل  
 بعضها عن بعض سلاسل جبلية تجعل كل واد مستقلا عن الآخر  
 وتجري في هذه الوديان أنهار كثيرة يصب بعضها في المحيط الاطلنطي  
 كنهر الوادي الكبير ، ووادي من أخصب الوديان هناك ، به كثير من  
 الحدائق الغناء والرياض النضرة « مطر زبالا » زهار تفسدح في جنباته الاطيار  
 فتعمر النواوير ويسمى النوار « وبهذا الوادي مدينة « قرطبة » أشهر  
 مدن الأندلس وقاعدة الدولة الاموية زهاء قرنين ونصف قرن  
 ازدهرت فيها علوم العرب وفنونهم وآدابهم ، واشتهرت بآثارها الفنية  
 ومبانيها العظيمة ، ومدارسها الكثيرة ، ومساجدها الفخمة التي من أشهرها  
 جامع قرطبة العظيم الذي كان من أكبر المدارس الإسلامية ، وجامعات  
 العلوم الدينية والكونية ، ومنه خرج كثير من العلماء والفلاسفة المسلمين  
 وغيرهم . وعلى نهر الوادي الكبير تقع أيضا مدينة « أشبيلية » التي كانت  
 قاعدة بني عباد من ملوك الطوائف ، ومن المدن العظيمة الجميلة ؛  
 قالوا من محاسنها : اعتدال الهواء وحسن المبانى وانها أحسن مدن الدنيا  
 وقال أحد الشعراء في وصف نهرها :

شق النسيم عليه جيب قيصره      فانساب من شطيه يطلب ثاره  
 فتضاحكت ورق الحمام بدوحها      هزأ فضم من الحياء أزاره  
 وكانت هذه المدينة محط الشعراء والأدباء زمن المعتمد بن عباد

أشهر ملوك الطوائف . وعلى فرع من نهر الوادى الكبير هذا تقع مدينة «غرناطة» التى كانت قاعدة بنى الأحمر ، والتى لا يزال ماثلاً بها قصر الحمراء معجزة الفن العربى .

ويقسم شبه الجزيرة نهر تاجه العظيم الذى يصب فى المحيط الاطلنطى أيضا ، وتقع عليه مدينة طليطلة . وواديه من أخصب الوديان وكانت طليطلة قاعدة ملوك القوط قبل دخول العرب هناك ثم صارت قاعدة لبعض ملوك الطوائف . قال المقرئ « وبطليطلة بساتين محدقة وأنهار مخترقة ورياض وجنان ، وفواكه حسان مختلفة الطعوم والألوان ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة وضياع بدیعة وقلاع منیعة . وهى مطلة على نهر تاجه ، وعليه كانت القنطرة التى يعجز الوصفون عن وصفها . وكانت على قوس واحد تكتنفه فرجتان من كل جانب » .

ومن الأنهر التى تصب شرقا فى بحر الروم نهر إبرة وعليه تقع مدينة « سرقسطه » و « طرطوشة » وهو أيضا نهر عظیم ذو واد خصيب وأشجار باسقة . وقد كانت « سرقسطه » من بلاد العرب الصناعیة ومدن العلم الشهيرة نبغ فيها جملة من العلماء المعروفین .

## السكان

لقد سكن بلاد الأندلس أمم كثيرة من قبائل مختلفة وأجناس متعددة ، فى أول الأمر كان بسكن الجهة الشمالية الشرقية بجبال الأبواب « جبال البرنس » وامتدادها جماعة لا يعرف التاريخ مبدأ ظهورهم فى هذه البلاد ، وهم قبائل الأيير . ثم نزل بها من شمال هذه الجبال ومن بلاد الغال . « بلاد فرنسا » قبائل السلت والبسلك والجلالقة

وتفرقوا في شبه الجزيرة بالشمال والشمال الغربي ، واستقر بعضهم في الشواطئ وبعضهم في داخل البلاد ، ثم اختلط بعضهم ببعض وامتزجوا امتزاجا حتى صاروا كأنهم أمة واحدة من جنس واحد . ونزح إلى هذه البلاد من شواطئ افريقية الشمالية الغربية كثير من البربر واستقروا هناك كما نزل بها الفينيقيون من أهل قرطاجنة قبل الميلاد بقرون واستولوا عليها .

ولما امتد ملك الرومان وتوسعوا في الفتوح وحاربوا القرطاجنيين وهزمهم استولوا على هذه البلاد ( ١٣٤ ق . م ) وسموها هسبانيا . ونشر هناك الرومان حضارتهم وعلومهم كما نشر قبلهم بها صناعاتهم وفنونهم أهل قرطاجنة . وبقي ساطان الرومان ممتدا على هذه البلاد إلى أن ضعف أمرهم وأغار عليهم قبائل الفندال من الشمال ، وهم من أصل جرمانى ونزلوا على ضفاف نهر الوادى الكبير وأسسوا دولتهم هناك وسموا الذين نزلوا به « فاندالوس » وعربها العرب بعد ذلك « أندلس » . ثم سطا على هؤلاء القوط ، وهم قبائل من الجرمان أيضا كانوا استوطنوا جنوب بلاد الغال وقد أزالوا ملك الفندال من الأندلس وبقوا أمراء البلاد إلى أن دخلها العرب .

وعند ما دخل العرب بلاد الأندلس كان سكانها خليطا من كل هذه الأمم فكانوا مزيجا من الأسم اللاتينية - بقايا الرومانيين - ومن الجرمانيين النازلين من الشمال ، والبربر النازحين إليهم من أفريقية فامتزج العرب بهم وامتزجوا بالعرب ، وكان لذلك أثر عظيم في الحياة العقلية كما سنبين بعد .

بعضه افعال الدرباء في وصف بلاد الاندلس وسكانها

وصف لسان الدين بن الخطيب بلاد الاندلس بقوله :

« خص الله بلاد الأندلس من الريح ، وغدق السقيا ، ولذاذة  
الاقوات وفراهة الحيوان ، ودرر الفواكه ، وكثرة المياه ، وتبجر العمران  
وجودة اللباس وشرف الآنية ، وكثرة السلاح ، وصحة الابدان ، وابيضاض  
الوان الانسان ، ونبل الازدهان ، وفنون الصنائع ، وشهامة الطبائع ونفوذ  
الادراك وإحكام التمدن والاعمار بما حرمة الكثير من الاقطار »

وذكرها أحمد بن محمد بن موسى الرازي بقوله :

« بلد الأندلس هو آخر الاقليم الرابع إلى المغرب . وهو عند  
الحكماء بلد كريم البقعة ، طيب التربة ، خصب الجناب ، منبجس  
الأنهار الغزار والعيون العذاب ، قليل الهوام ذوات السموم ، معتدل  
الهواء والجو والانسيم رييغته وخريفه ، ومشتاه ومصيفه على قدر من  
الاعتدال ، وسطة من الحال لا يتولد في أحدها فصل يتولد منه فيما  
يتلوه انتقاص ، تتصل فواكه أكثر الأزمنة وتدوم متلاحقه غير  
مفقوده ، وفواكه على الجملة غير معدومة في كل أوان ، وله خواص في كرم  
النبات .... وللأندلس المدن الحصينة والمعافل المنيعه والقلاع الحريزة  
والمصانع الجليلة ولها البر والبحر والسهل والوعر »

ومما ذكره في وصف سكانها قول صاحب فرجة الأنفس .

« وأهل الأندلس عرب في الأنساب والعزة والألفة وعلو الهمة  
وفصاحة الألسن وطيب النفوس وإباء الضيم وقلة احتمال الأذى



والسماحة بما في أيديهم ، والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنية. هنديون في إفراط عنايتهم بالعلوم وحبهم فيها وضبطهم لها وروايتهم. بغداديون في نظافتهم وظرفهم ورقة أخلاقهم ونباهتهم وذكاءهم وحسن نظرهم وجودة قرائحهم ولطافة أذهانهم وحدة أفكارهم ونفوذ خواطرهم . يونانيون في استنباطهم للحياة ، ومعاناتهم لضروب الفراسات واختيارهم لاجناس القواكه وتديبرهم لتركيب الشجر وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر . فهم أحكم الناس بأسباب الفلاحة . وهم أصبر الناس على مطاولة التعب في تجديد الاعمال ومقاساة النصب في تحسين الصنائع ، أحذق الناس بالفروسية وأبصرهم بالطعن والضروب .  
ومن كلام الحجاري في المسهب يصف الأندلس وأهله من العرب بقوله :

« الأندلس عراق المغرب عزة أنساب ورقة أداب واشتغالا بفنون العلوم وافتنانا في المنظوم والمنثور . لم تضق لهم في ذلك ساحة ولا قصرت عنه راحة . وهم أشعر الناس فيما كثره الله تعالى في بلادهم وجعله نصب أعينهم من الأشجار والأنهار والطيور والسكرؤوس ، لا ينازعهم أحد في هذا الشأن . وأما إذا هب نسيم ودار كأس في كف ظبي رخيم ورجع بم وزير وصفق للماء خريز ، أو رقت العشيبة وخلعت السحب أبرادها الفضية والذهبية أو تبسم عن شعاع ثغر نهر ، أو ترقرق بطل جفن زهر ، أو خفق بارق ، أو وصل طيف طارق أو وعد حبيب فزار من الظلماء تحت جناح ، وبات مع من يهواه كالماء والراح ، إلى أن ودع حين أقبل زائر الصباح ، أو أزهريت دوحة السماء

بزُهر كواكبها ، أو قوضت عند فيض نهر الصباح يبيض مضاربها ،  
فأولئك هم الاولون ، الذين لا يجارون ولا يلحقون ، وليسوا بالمتصرين في  
الوصف إذا تقعقت السلاح وسالت خلجان الصورام بين قضبان  
الرماح ، وبنت الحرب من العجاج سماء ، وأطلعت شبه النجوم أسنة  
وأجرت شبه الشفق دماء . وقد أعانتهم على الشعر أنسابهم العربية  
وبقاعهم النضرة وهمهم الأبية » .

## العرب في الأندلس

ظهر الاسلام في العرب فانتشروا في الارض وأوغلوا في الفتح  
واخترق الآفاق ، وانسابوا في البلاد وأنساب عليهم الظفر والغنائم .  
فوجدوا في ذلك مطمعا لهم ، وسعة لدولتهم ، وعونا لدينهم ، وعزاً  
لمجدهم . ففتحوا في نحو ثلاثة قرون ما لم تصل اليه أكبر دولة  
في العالم .

وقد خرج العرب من بلادهم إلى مصر فالتقروا في بلاد البربر  
فالأندلس . فأسسوا هناك دولة واسعة الأرجاء ، كانت من أعظم دول  
أقامها العرب ، وأزخر مدنية جاء بها الاسلام . توغل المسلمون في أفريقية  
سنة ٥٠ هـ من الهجرة في خلافة معاوية بن أبي سفيان ، بقيادة عقبة بن  
نافع الذي أسس مدينة القيروان وانتشروا في بلاد البربر ( شمال  
افريقية ) فأسلم سكانها . وفي سنة ٨٩ عهد الوليد بن عبد الملك الخليفة  
الاموي الى موسى بن نصير بولاية افريقية . فنزل القيروان وأخضع  
قبائل البربر . ثم سار الى طنجة وفتحها . فدانت لسلطانها جميع هذه  
البلاد وأسلم أهلها . وترك موسى بن نصير جنده بقيادة مولاة

طارق بن زياد . ثم تطلع إلى فتح اسبانيا ، لما علم من ضعف أهلها واضطراب حالها . فاستأذن الخليفة في ذلك ، ونزل الشواطئ في سنة ٩١ هـ ، وفي سنة ٩٢ عبر طارق بن زياد البحر مع جنوده ، ونزلوا الجبل المسمى الآن باسمه . وانتشروا في بلاد الاندلس انتشارا عظيما ولما استقرت قدمهم هناك نزع اليها العرب من كل بطن وقبيلة ، من عدنانيين وقحطانيين وغيرهم . فن العدنانيين القرشيون والهاشميون الذين كانت منهم دولة بني حمود . ومنهم الخزوميون الذين منهم أبو بكر الخزومي الشاعر الأعمى المشهور ، والوزير بن زيدون . ومن بينهم الفهريون ، ومنهم يوسف بن عبد الرحمن الفهري الذي غلبه على أمره ، وأخذ منه الملك عبد الرحمن الداخل مؤسس دولة بني أمية بالاندلس . أما القحطانيون أو اليمينيون فكانوا أكثر انتشارا . ومن قبائلهم كهلان ومنها محمد بن هانيء الشاعر المشهور ، ومنهم الازد ومنهم الجهم الغفير بالاندلس <sup>(١)</sup> ورحل إلى الاندلس أيضا كثير من أهل مصر والشام والعراق . كما عبر إليها من مراكش وشمال افريقية جماعة من البربر واختلط كل هؤلاء بسكان البلاد الأصليين ، من قوط وغيرهم بالمصاهرة والمصادقة ، وجمعهم الاسلام فكانوا أمة واحدة ولكن هذه الأمم لم يكد يجتمع أمرها حتى دب فيها ديب التنازع وكانت العصبية العربية في أشد ما تكون . فقام النزاع والخصام بينهم وأيقظوا الفتن القديمة النائمة . ودارت رحى الحرب بين اليمانيين والمضريين ، وتنافسوا في الملك ، حتى أدى ذلك إلى انقسام الامارة فيهم

(١) راجع الباب الثاني من تفح الطيب

وإدانتها بين الجندين سنة لكل دولة<sup>(١)</sup> . وكان خلفاء بني أمية بعد ذلك يستعينون ببعض القبائل على بعض تأييداً لمكهم ، ويميلون إلى اليميين الذين نصرهم في واقعة مرج راهط . فكان انقسام العرب منذ وطئت أقدامهم هذه البلاد : وقد دامت هذه الفتن مدة وجوب الدول الإسلامية في بلاد الاندلس ، حتى قيل : ليست هناك بقعة من أرض الاندلس إلا رويت بدماء المسلمين ؛ ولم يكد يخلو يوم من الأيام التي خفقت فيها راية الاسلام هناك من حرب أو شجار بين المسلمين والمسيحيين واليهود ، أو بين المسلمين انفسهم .

مع هذا فقد كان لدول المسلمين عصور ذهبية ، وأيام زاهرة ، أثمرت فيها قرائنهم وجهودهم . وظهر فيها صفاء عقولهم وميلهم الفطري إلى الرقى ، حتى أصبحوا قواد العالم وأساتذة المعمورة . وربما كان ذلك التنافس في الملك من أسباب رقى تلك البلاد . لأن كل أمير أو خليفة كان يريد أن يورث ماله بذكره بالعلوم والمعارف . ولا سيما ان العباسيين كانت مدينتهم ازهرت في بغداد ، فأرادوا أن يجاروهم في قرطبة ، ويظهروا عليهم فيما كان لهم من حضارة هناك . هذا إلى ما كان عليه العربي من ميله إلى العلم ونشره ، لانه كان يرى في ذلك نشر المدنية على يديه ، وهذه وسيلة من وسائل الفخر والاعجاب اللذين هما من أكبر مظاهر الاخلاق العربية . ولقد كان مثل الأمة العربية مثل النائم المستغرق في نومه ، فاذا امتيقظ كانت يقظته يقظة النشيط المجد .

ولما دخل العرب الاندلس أدخلوا معهم بلاغتهم وبلغتهم التي كانت

(١) راجع تاريخ ابن خلدون جزء ٤ صحيفة ١٢٠

من أكبر مظاهر الفنون لديهم ، فتبعت أول خطوة خطاها أكبر قوادهم فاتح هذه البلاد طارق بن زياد . وأول مظاهر تلك البلاغة العربية الخطبة الحماسية الشهيرة لهذا الفتح العظيم ، التي تدل على رسوخ ملكة البيان في القواد . وخبرتهم بالقيادة ونفوس الجند ؛ وكيفية امتلاكها بالرهبة أحيانا والرغبة تارة ، وبث الامل في نفوسهم باكتساب الغنيمة وانتظار الاجر من الله ، وأن القائد بلسانه كالقائد بسيفه وسنانه قالمها طارق بن زياد وهو قادم على عدو أكثر منهم عددا وعدة ، لأنه دخل الاندلس ومعه اثنا عشر ألف رجل أُرهب بهم سبعين ألفا من الاعداء

وهذه الخطبة هي أول ربح هبت على تلك البلاد معطرة ببلاغة العرب . وأول كلام بليغ عبر عبيره هناك . بل أول تاريخ البلاغة العربية . ولم تكن بلاغها في الاسلوب وحده ، بل في الحماسة والشجاعة اللتين كانتا من طبع العربي ، وهي من نوع الكلام الذي يوحى به حب الجهاد ، والرغبة في نيل الاجر الدنيوي والاخروي معا ، ويذكر الجيوش بمفخرة النصر على العدو ، أو الموت في سبيل الدفاع عن الحوزة ونشر الدين . وفيها من ضروب الاستبسال والترغيب في القتال مالا يكون إلا من قاب حديد وقائد عظيم مجرب

وهذه هي خطبة طارق بن زياد :

أيها الناس . أين المنقر البحر ورائكم . والعدو أمامكم . وليس لكم والله الا الصديق والصبر . واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيق من الايتام في مادبة اللثام وقد أستقبلتم عدوكم بجيشه وأسلحته ؛ وأقواته موفورة . وأنتم لا وزر

لكم إلا سيوفكم ولا أقوات إلا ما تمتلخصونه من أيد عدوكم . وإن امتدت  
بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهب ربحكم وتعوضت القلوب  
من رعبتها منكم الجرأة عليكم . فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة  
من امركم بمناجزة هذا الطاغية . فقد انقت به اليكم مدينته الحصينة . وإن  
انتهاز الفرصة فيه لممكن أن ممحتم لأنفسكم بالموت . وإنى لم أحذركم أمرا  
أنا عنه بنجوة . ولا حمايتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس أبرأ منها بنفسى  
واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالارفة الالذ طويلا . فلا  
ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فاحظكم فيه باوفر من حظى . وقد بلغكم  
ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات فى  
الدر والمرجان . والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات فى قصور الملوك  
ذوى الشيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال  
عربانا . ورضيكم للملك هذه الجزيرة إصهارا واختناانا . ثقة منه بارتياحكم  
للطعان واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان . ليكون حفظه منكم ثواب الله  
على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة وليكون مغنمها خالصا لكم من  
دونه ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولى انجادكم على . ليكون لكم  
ذكرا فى الدارين . وأعلموا أنى أول مجيب الى مادعوتكم اليه . وإنى عند  
ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى .  
فاحملوا معى فان هلك بعد فقد كفيتكم أمره ولم يعوزكم بطل حائل تسندون  
أموركم اليه . وإن هلك قبل وصولى اليه فاخلقونى فى عزيمتى هذه واحملوا  
بأنفسكم عليه واكتفوا بهم من فتح هذه الجزيرة بقتله فانهم بعده يخذلون

وقد كُتِبَ للمسلمين هناك عصور تاريخية وعصور أدبية .  
 أما العصور التاريخية فقد بدأت بعصر الأمراء منذ الفتح الى سنة  
 (١٣٨) . تولى الأمر فيها عشرون أميراً كانت مدتهم ستة وأربعين  
 عاماً (٩٢ - ١٣٨) . وكانت هذه الامارات تابعة للخلفاء في المشرق  
 زمن الأمويين والعباسيين . ولكن هذا العصر كان عصر اضطراب  
 وشجار لا ينقطعان . ولما علم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد  
 الملك الأموي بما هناك من المنافسة بين اليمانيين والمضريين ، وكان قد  
 فر من ظلم أبي جعفر المنصور الذي نكل ببني مروان ، التجأ إلى بلاد  
 البربر وذهب إلى الأندلس مع جماعة من أتباعه ، وأسس هناك دولة  
 بنى أمية سنة ١٣٨ واستتب له الملك سنة ١٤١ هـ واستولى على قرطبة  
 بمساعدة اليمانيين ، فتأسست دولة بنى أمية التي كان عصرها من أزهى  
 عصور العلم والأدب والحضارة بجميع أنواعها . وبقيت هذه الدولة  
 ٢٨١ سنة (الى سنة ٤٢٢ هـ) تولى الملك فيها ١٩ خليفة . وقد بلغت  
 الدولة ذروة مجدها في زمن عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر (٣٠٠ -  
 ٣٥٠) ودامت مع الدولة العباسية بالمشرق . فكان نور المدينة الاسلامية  
 يسطع من المشرق والمغرب معا . فان عبد الرحمن الداخل طاش من عصر  
 أبي جعفر المنصور إلى زمن هرون الرشيد (١٣٨ - ١٧٢) وكان الحكيم  
 ابن هشام معاصراً للمأمون (١٨٠ - ٢٢٦) فكانت الدولتان تتسابقان  
 في ميدان العلوم والحضارة . وكانت قرطبة وبغداد كعتي العلماء ومنبعي  
 العلوم والفنون .

وبعد زوال بنى أمية انقسم الناس أحزاباً وشيعاً . فكانت

هناك ممالك كثيرة مستقلة سمي ملوكها بملوك الطوائف فقام ابن عباد في أشبيلية . وابن الافطس في بطليوس . وذو النون بطليطلة . وابن هود بسرقسطة الخ . وبقيت الحال كذلك كانت البلاد فيها أكثر ما تكون اضطراباً<sup>(١)</sup>

مع هذا فقد كان لملوك الطوائف ميل عظيم للعلوم . فكان ابن الافطس الملقب بالمظفر أحرص الناس على جمع علوم الادب خاصة من النحو واللغة والشعر ونوادير الاخبار وعيون التاريخ . انتخب له مما اجتمع من ذلك كتاب كبير ترجم باسمه (المظفرى) كان يقع في نحو ٥٠ مجلدا . وكان لابنه المتوكل قدم راسخة في صناعة النظم والنثر قالوا : وكانت أيام بني المظفر أعيادا ومواسم ، وكانوا ملجأ لاهل الادب وفيهم قال الوزير الكاتب أبو محمد عبد المجيد بن عبدون قصيدته الشهيرة وكان بنو هود ملوك سرقسطة ومايليهما ، من أهل العلم وأنصاره فقد كان المؤمن بن المقتدر بالله قائما على العلوم الرياضية وله فيها تاليف منها كتاب « الاستكمال والمناظر » ومن أشهر ملوك الطوائف أبو القاسم المعتمد على الله بن عباد كان شاعرا أدبيا وكان لا يستوزر وزيراً إلا أن يكون

(١) قال صاحب المعجب ، وأما حال أهل الاندلس بعد انحلال دعوة بنى أمية فقد تفرقوا فرقا وتغاب في كل جهة منها متغاب ؛ وضبط كل متغاب ماتغاب عليه وتقسوا القاب الخلافة فمنهم من تسمى بالمعتضد ومنهم من تسمى بالمأمون وآخر تسمى بالمستعين والمقتدر والمعتصم والمعتمد وغير ذلك من القاب الخلافة . وفي ذلك يقول أبو علي حسن بن رشيق .

مما يزهدنى في أرض اندلس أسماء مقتدر فيها ومعتضد  
القاب مملكة في غير موضعها كاهر يحف انتفاخا صولة الاسد



أديباً وشاعراً ، ومن وزرائه الكاتب الشهير ابن زيدون . ومنهم الكاتب ابن عمار . وكان المعتمد هذا من أعظم ملوك الطوائف . ولم تذهب دولته إلا بعد أن استعان يوسف بن تاشفين الذي تغلب عليه وأسرّه في إفريقية بعد أن أبلى بلاء حسناً في محاربته ( سنة ٤٨٤ هـ ) ومنذ ذلك الزمن ملك البربر إسبانيا وسموا بالمرابطين ، وأصبحت الأندلس ولاية تابعة لإفريقية . وملك يوسف بن تاشفين بلاد الأندلس وأصبح هو وأبنيه من أكابر الملوك <sup>(١)</sup>

ولم يكدر يستتب لملوكها الأمر حتى ظهر فيهم الجهل والتعصب لمسائل الدين وابتدأت الحالة العقلية تنحط ، وحركة اللغة والعلوم تقف . وفي زمن علي بن يوسف بن تاشفين ظهر التعصب لمذهب الإمام مالك ، حتى قالوا إنه نسي النظر في كتاب الله . وصودرت كتب الكلام ، ومنع الكلام في العقائد ، وأمر بإحراق كتب الغزالي . ثم صمت الفوضى جميع البلاد واضطرب حال المسلمين بعد سنة خمسمائة ، ووكالت لأمور للنساء وعلى أثر ذلك قامت دولة الموحدين التي نشأت بمراكش في أوائل القرن السادس وأراد الموحدون أن يردوا عظمة عصر بني أمية من علوم وفنون وصناعات . واشتهر في زمنهم طائفة من العلماء والشعراء والفلاسفة . فقد كان لأمرائها ميل عظيم للعلم كأبي عقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ( ٥٥٨ — ٥٨٠ ) الذي اشتهر بحبه

---

(١) قالوا وانقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحولته إلى أشبهت حضرته حضرة بنى العباس في صدر دولتهم واجتمع له ولابنه ن أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ، لم يسبق اجتماعه في عصر من العصور

للعلم والاشتغال به وبجمع الكتب . وكان يتناقش مع ابن رشد الفيلسوف الشهير . حتى قال ابن رشد أنه هو الذى حملنى على تلخيص مآخضته من كتب الحكماء ارسططاليس .

ثم ظهر بنو هود فى أوائل القرن السابع الهجرى وغلبهم بنو الأحرار ملوك غرناطة . واضطربت الحال فى هذه المدة بين بنى الأحرار وبنى هود ، كما كانت عند الفتح بين الأمراء . وانتهت الدولة فى أواخر القرن التاسع الهجرى حيث خفت صوت المسلمين هناك . وقد ظهر فى هذه المدة الأخيرة كثير من الأديباء والشعراء ، كلسان الدين بن الخطيب وابن زمرك وغيرهم .

أما عصور الأدب والبلاغة فقد ابتدأت بتأسيس الدولة الأموية ولم يافل نجم هذه الدولة إلا بعد أن أفعمت البلاد بالعلماء والفلاسفة والأدباء ومعاهد العلم ودور الكتب . وكانت الصبغة العربية ظاهرة فى الشعر والنثر لأنها كانت أشبه بما فى بلاد المشرق . فلما كثرت الترف وذاع اللهو والمجون فى أواخر الدولة وفى دولة بنى عامر وفى عصر ملوك الطوائف ظهرت الاباحة فى كل شئ وظهر كل هذا فى أنواع البلاغة من نظم بديع ونثر رشيق ، ومن كلام فى وصف مجالس اللهو والطرب وأغرب الشعراء والكتاب فى هذه الأنواع . وأكثر مشهورهم ظهوروا فى زمن ملوك الطوائف وبعده كما ظهر كثير من العلماء والفلاسفة ، الأديباء .

وما زالت النهضة الادبية سائرة سيراً حثيثاً ، لأن العقول كانت قد نضجت وأخذت فى البحث والاستنباط . وقد زالت الدولة على

السياسية، والحياة العقلية في عز مجدها. وعلماءؤها وأدباؤها لا يزالون في إبان نشاطهم، ونشوة يقظتهم العقلية حتى انتشروا في البلاد، وأفاضوا عليها من فضل علومهم ما كان له أثر نافع عند الأمم التي نزلوا فيها.

وقد كانت آداب العرب تسرى في هذه العصور سريان الحياة في الأجسام منذ وضع العرب أقدامهم في تلك البلاد فالعصر الأول وهو عصر الولاة كان يسوده الروح العربي في العادات والأخلاق من حماسة وشهامة وحب للفتح والجهاد وتمسك بالعصبية العربية. وكانت هذه الأخلاق تتمثل في الخطب والرسائل بين الولاة. ولكن هذا العصر كان عصر فتح واضطراب بين العرب والقوط وغيرهم من سكان البلاد كما قلنا وبين القبائل العربية لما أثارت في نفوسهم الأطماع والأحقاد القديمة التي كانت بينهم. فلم يكن للغة والأدب شيء يذكر في تلك الأيام وأما عصر بني أمية وعصر ملوك الطوائف وهو زهاء أربعة قرون فكان أزهى عصور اللغة العربية في الأندلس.

ففي هذا العصر ارتقت العلوم والفنون والآداب وكثر الشعراء والكتاب كما كثر الوافدون من أهل العلم والأدب من المشرقين، فوجدوا هناك صدراً رحباً، وأخصيت بهم موارد العلم والأدب فعا لجوا الكتابة والشعر في كل ما كان هناك من مظاهر الحضارة في المجالس والمحافل وضروب الاجتماع من جد وهزل؛ وحاجات الدولة ومرافقها السياسية والإدارية؛ فكانت الصبغة العامة للحياة العقلية

والأدبية صبغة عربية دينية . كذلك كانت أساليبهم وصيغة عربية  
بجته أشبه بأساليب الأمويين ومن عاصروهم في بلاد المشرق لأنهم لم  
يشتغلوا هناك بالعلوم الكونية والفلسفية إلا في آخر عصر ملوك  
الطوائف وعصر البرابرة .

على أن كل ما حصل هناك من جديد في الكتابة كان في انتشار  
السجع وتعمد الصنعة مجازاة لأهل المشرق وقد اتسع الخيال في الشعر  
من جراء الحالة الاجتماعية ومظاهر الحضارة كما سنبين ذلك .

وأما عصر المرابطين والبربر فكان عصر ركود في اللغة والأدب  
وعصر تعصب أعشى لبعض مسائل الدين ، وعصر وقوف لفنون اللغة  
وآدابها . وقد دام هذا العصر زهاء قرن ونصف قرن . وكان نذيرا  
بسوء حالة اللغة .

وجاء بعد هذا العصر عصر بني هود وبني الأحمر (٦٣٠-٨٩٧) م  
ولم يبق في اللغة الا بقية رمق لم تقو على ما أدركها من الفناء ولم تحتفظ  
بما كان لها من ذمء ،

### الحياة العقلية في الاندلس

امتزج المسلمون الذين دخلوا الاندلس بسكان البلاد وتصاهروا  
وتحابوا ، ثم دخل كثير من غير العرب في الاسلام ، فظهرت صلة  
أخرى غير صلة الاجتماع في بقعة واحدة ، وهى صلة الدين ، وامتزجت  
كل هذه الأجناس بعضها ببعض امتزاجا تسرب في عقولهم كما تسرب  
في دماهم فكانت لهم نزع عقلية جديدة ونمت مواهبهم الفطرية ،

وساعدهم على ذلك انتجاعهم بلادا واسعة غنية جميلة ، مختلفة المناظر متعددة المناحي ، فكان أثر ذلك كله ان أصبحت لهم مميزات عقلية وصفات لم تكن لغيرهم من العرب الخالص . فاشتغلوا بأنفسهم في نقل العلوم ونشرها ، وزحلوا إلى البلاد في طلبها ، وزحل إليهم كثير من العلماء ، فأخذوا عنهم كما أخذوا عن آثار اليونان والرومان والفرس . ولم يكن للعرب إذ ذاك من يزاحمهم ، لأن معالم الحضارة كانت خفيت والعالم يتطلع إلى من ينقذه من مخالب الموت ويفيض عليه بنور العرفان وكان العرب أبطال تلك الأيام ، فأصبحوا زعماء المدينة . وأرادوا أن ينالوا شرف هذه الزمامة ويملكوا زمام العالم . وقد عرفوا أن ذلك لا يكون إلا إذا ارتقت العقول وتقدمت العلوم ، وان دولة لا تؤسس إلا على العلم ، وان أمة تريد أن تعيش لاثميا إلا بالعلم فأراد عبد الرحمن الداخل أن نكون دولة بني أمية في المغرب أثبت دمامة من دولة بني العباس بالشرق ، وأبقى وأنغم من ملك آبائه في ربوع الشام<sup>(١)</sup> فتمهدت في زمنه وسائل السعادة والمدينة ، وكان يعمل على ترقية العقول ونشر العلوم والفنون والصناعات . كذلك كان عبد الرحمن الثاني المعاصر للمأمون ( من سنة ٢٠٦ إلى ٢٣٨ ) شديد الرغبة في الفنون والأدب والموسيقى ، فعمل على ترقية أذواق أهل الأندلس بنشر الفنون الجميلة . فكان خلفاء بني أمية يجارون دولة بني العباس

(١) فقد رووا عنه

أبني أمية قد جبرنا صدعكم      بالعرب رغما والسعود قبائل  
ما دام من نسل إمام قائم      فالحكم فيكم ثابت متواصل

في حضارتهم وفي كل شيء لديهم . وأرادت قرطبة أن تظهر على بغداد فأدخل عبد الرحمن الثالث في أسبانيا أكثر ما كان عند العباسيين من علوم وفنون . وأنشأ في قرطبة كثيرا من المباني الفخمة . وبلغت أبهة الملك منتهىها في أيامه . وفي عصره كانت المدينة الإسلامية زاهية . فكان العلماء والادباء يفدون من المغرب الى المشرق ، ومن المشرق الى المغرب والطريق من بغداد الى قرطبة لا يغيب عنه ضوء العلم ، ولا تنقطع عنه قدم العلماء ، والعالم يستضيء في ظلمة جهله بأشعة العلوم العربية ، ويهتدى بآثار العرب وجهودهم في نقل الحضارة من اليونان وغيرهم مما كشفوا مخبئاته وفتحوا معيئاته . وقد نمت مواهب العرب في اسبانيا كما ينمي النبات الصالح للحياة في الارض الخصبة الطيبة . وظهر أثر ذلك كله في العلوم والفنون ، كما ظهر في أنواع البلاغة من شعر ونثر ، مما لم يكن عند سواهم ذلك لما كان لهم من النشاط والجد والمثابرة على البحث والتنقيب ، والعمل على فهم مآثر كنه الناس قبلهم من علوم عقاية أو نقلية ، ومن صناعات وفنون . فكان لهم أثر في كل شيء اطلعوا عليه ، فألفوا ودونوا واخترعوا ، مما لا يكاد يحصى ، حتى أن الحركة العقلية لديهم لم يكن لها مثيل في زمنهم . لأنها كانت نتيجة جهود العقول والقرايح عند العرب جميعا .

وقد عنوا عناية عظيمة بجمع الكتب في كل علم وفن . فقد كان في اسبانيا ستون مكتبة عامة ، أنشأها الخلفاء الامويون وغيرهم ، أشهرها مكتبة قرطبة ، وكانت تحتوى على الكتب العقلية والنقلية التي ترجمها وألفها العرب في الزراعة والفلك والرياضة . وفي الطب والكيمياء والموسيقى

وفي أصول الدين ككتب التوحيد والفقه والحديث والتفسير . وفي فنون الأدب كالبلابة والتاريخ والقصص والرحلات والخطب ودواوين الشعراء المختلفة ومعاجم اللغة . كان ذلك كله مجموعا مجمعا منظما في مكتبة الحكيم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦) كل غرفة تحتوى على علم أو فن من الفنون<sup>(١)</sup> . واشتدت رغبة الحكيم في اقتناء الكتب فكانت فهارس المكتبة أربعة وأربعين ، وبلغت الكتب فيها مائتي ألف مجلد . جمعها من إفريقية وفارس وجميع البلدان . وانتقلت رغبة جمع الكتب إلى طبقة العامة حتى صار ذلك أنفاس ما يقتنى . وحرص الناس عليها وعلى نقلها . وكان الحكيم نفسه طالما بالأخبار والأنساب ، محبا للقراءة ، حتى قالوا إنه قلما يوجد كتاب في مكتبته إلا كان له نظر فيه وتعليق عليه ، يكتب عن المؤلف وعن مولده ووفاته ويأتى بفرائب لا توجد إلا عنده . وكان يجمع في داره الخدّاق في صناعة النسخ والضبط والاجادة في التجليد ، ويجود عليهم بالمال . فكانت داره أشبه بمجمع علمي . وكان يبعث في الكتب إلى الاقطار رجالا من التجار ، يعطيهم الأموال لشراؤها ، حتى جلب منها إلى

---

(١) كان الحكيم من أشد أنصار العلم ؛ لأن أباه عبد الرحمن الثالث رباه بأمر الأستاذة ووكّل أمر تعليمه إلى أبي علي القالى . وقد نشر الحكيم على نفقته الخاصة مؤلفات أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد . وجعل في قرطبة أكبر دار لمطالعة الكتب العربية وجعل أخاه عبد العزيز مديرا لها ومحافظا عليها ؛ على حين أن أخاه المنذر كان له الرئاسة على أندية العلوم المختلفة التي تأسست في قرطبة

الاندلس مالم يكن لهم به عهد، مما كان يضاهى ماجمعته ملوك بني العباس في الازمان الطويلة . واستخدم العلماء في كل مايساعد على العلم ونشره ، فكان منهم الوراقون المشهورون المعروفون بالضبط وحسن الخط . وبعث في كتاب الاغانى الى مؤلفه أبى الفرج بألف دينار من الذهب العين، فجاءه بنسخة منه قبل أن يخرج به الى العراق. كذلك كان للخلفاء ميلٌ عظيم إلى أكرام العلماء والاخذ بناصرهم<sup>(١)</sup> فكان المنصور بن أبي عامر على مثل هذه الحال يعمل على ترقية العلوم ونشرها في أنحاء الدولة لدى الرعاية على اختلاف أجناسهم ونزواتهم ، بعد أن كان العلم مقصوراً على الوجوه منهم وكان يزور المدارس ويحضر الدروس ويختلط بالطلبة ، ويمدح المدرسين ويكافئ التلاميذ على جدهم ويجلس في مجالس العلماء للمناقشة والبحث ؛ ويختار من نابغهم القضاء والقراء والخطباء

على مثل هذا كانت عناية العرب بنشر التعليم تفوق كل عناية . فكانوا إذا فتحوا بلداً أو مدينة يبدءون بإنشاء مسجد ومدرسة وكأنيهم يقصدون بذلك أن نشر الدين والعلم معاً لازم لنهذيب الامم؛ وأن تربية النفوس بالدين كترية العقول بالعلوم والمعارف . وعندهم أخذ أهل أوروبا المدارس الجامعة ونظام « الكليات » التي يجتمع فيها كثير من الطلبة على أساتذة يتعلمون العلوم المختلفة . وكان في كل مدينة من مدن اسبانيا مدرسة كبيرة . بل كانت القرى تحتوى على مدارس لتعليم

(١) راجع خبر دخول أبي على القالى في الأندلس والاحتفاء به واشتغال



القرآن والقراءة والكتابة . وأصبح السواد الأعظم من سكان البلاد عارفاً بالقراءة والكتابة ، على حين أن أهل أوروبا كانوا من العامة الذين لا يقرءون ولا يكتبون ، لأن التعليم كان منحصراً لديهم في طائفة القسوس الذين لم يخرج العلم من دائرتهم ، وإن تعداهم فإلى بعض الأمراء والأغنياء . وكانت معاهد التدريس خاصة بالعلماء والفضلاء ، ورؤساؤها من أكبر الرجال المفكرين .

وكان للطب أربع مدارس أهلة بالمدرسين والتلاميذ من جميع المال والاجناس في قرطبة وإشبيلية وطليطلة ومرسية

هذا شيء يسير عن الحركة العلمية والأدبية في الأندلس . منها يمكن الوقوف على مقدار ما كان هناك من الميل إلى العلوم والمعارف ، وما وصلوا إليه في الحضارة والإطلاع وكثير من هؤلاء العلماء كانوا من الأدباء والفقهاء . وقد كانت لهم عناية خاصة بعلوم اللغة والدين ، لأن تربيتهن العقلية كانت مؤسسة على هذين الفرعين . لذلك كان لكثير من علماء العرب المتخصصين في العلوم الرياضية والطبيعية شهرة عظيمة في علوم اللغة والدين . فكان أبو عبيدة مسلم بن أحمد المعروف بابن السمين من أهل قرطبة بصيراً بالحساب والنجوم والنحو واللغة والعروض ومعاني الشعر والفقه والحديث والأخبار والجدل . وكان الحافظ أبو الوليد هشام من أعلم الناس بالهندسة وآراء الحكماء والنحو واللغة ومعاني الشعر والعروض وصناعة الكتابة والفقه والفرائض . فكانت الفنون الشرعية وعلوم اللغة أساساً لتربيتهم العقلية ، حتى لا تكاد تجد عالماً أو فيلسوفاً أو منجماً إلا وله علم بالشعر

والعروض واللغة . لهذا ظهر شيء كثير من آثار تلك التربية العلمية والفلسفية في بلاغتهم من نظم ونثر

أما اللغة العربية وآدابها فقد ذاعت في كل انحاء البلاد وعند الخاصة والعامة وما كتبت منهم ما- كة البيان : قال بعض المؤرخين

« هجر أهل اسبانيا اللاتينية واشتغلوا باللغة العربية وآدابها ، وكانوا لا يكتبون بغيرها ، حتى أن أحد العلماء المشهورين منهم شكوا من ذلك ، وقال : اننا نحب قراءة الشعر والقصص العربية ، وندرس المسائل الدينية والفلسفة الاسلامية باللغة العربية لتعلم لغة رشيقة وعبارة بايغة ولا يكاد يوجد عندنا من يقرأ الكتب المقدسة باللغة اللاتينية . وكل شبابنا الاذكاء لا يعرفون غير لغة العرب وآدابها ، لأنهم يقرءون الكتب العربية ويدرسونها مهمة عظيمة ، ويدعوهم كثرة اطلاعهم على تلك الكتب الى الاعجاب بآداب العرب . فاذ احدتهم عن كتاب من الكتب اللاتينية مضروا منها ، وقالوا أنها لا تستحق عناية قارىء أو مستفيد من أجل ذلك نسى المسيحيون لغتهم ، فلا تكاد تجد في الالف منا واحدا يمكنه أن يكتب رسالة باللاتينية . أما اذا أرادوا أن يكتبوا بالعربية فان كثيرا منهم يكتب بعبارات بايغة ، وأسلوب منمق ، وقد يفوقون العرب أنفسهم في ذلك ، حتى في الشعر وكتابة القوافي . »

كذلك دخلت الالفاظ العربية في اللغة الاسبانية وغيرت شكل لغة البلاد وأكسبتها لهجة جديدة في زمن شارل الاصلي

« وفي أوائل القرن التاسع كانت اللغة العربية هي لغة الوثائق

الرسمية . وفي هذا الوقت ترجم قسيس من أهل اشبيلية التوراة الى اللغة العربية لتلاميذه فوجدَ أحد العلماء هناك على أهل دينه، وأتهمهم بالمساعدة على نشر اللغة العربية والعمل على ترك اللاتينية . وقد دامت هذه الحال زمنا طويلا في قرطبة وطليطلة ، حتى أن القسس لجأهم باللاتينية اضطروا الى ترجمة كتب الكنيسة الى اللغة العربية . وبقي ذلك الى أواخر القرن الحادى عشر ، أى بعد أن استولى ألفونس السادس على طليطلة سنة ١٠٨٥ م

وليس لاحد أن يناقش كلام « كوند » القائل بأن من أدب أهل اسبانيا ما هو مأخوذ من أدب العرب ومتأثر به . ولا شك فى أن الاسبانيين مدينون للعرب بلغتهم وآدابهم ومعرفتهم الفاسفية الخ . وأما اهتمامهم بالفنون كالادب والغناء والموسيقى فقد كان أكثر انتشارا ، لانهم كانوا أحوج اليها فى مساجد اللهو والطرب ، ورياضة النفوس ومجالس الخلفاء والامراء . وهى عليهم أسهل ؛ ولدى ذوقهم أعذب ، ولنفسهم أقرب .

### الفنون والترف وأبهة الملك فى الاندلس

كانت همه العرب فى إبان نهضتهم متجهة الى العلوم ، منصرفة الى الدرس والتأليف والنقل . فظهر منهم طائفة عظيمة من الفلاسفة والاطباء وعلماء النبات والحيوان والكيمياء والطبيعة والفلك والرياضة كما أشرنا الى ذلك . وكان اهتمامهم بالفنون كالموسيقى والغناء والشعر وفن العمارة عظيما أيضا ، حتى فاقوا غيرهم فى بعضها وأخذوا بعضها عن

الامم الاخرى . ولهم فى ذلك آثار جميلة بديعة ، وميولهم الى فن التصوير والنحت كانت من بواعث الامل على تقدمهم فى ذلك لو أن دولتهم امتد زمنها . فقد كان لدولة بنى الاحمر بغرناطة آثار بديعة فى فن العمارة ، بل ظهر قبل ذلك ميول الخلفاء الامويين لفنى النحت والتصوير . فبنى عبد الرحمن الناصر لجاريته الزهراء مدينة سماها باسمها أتقن بناءها وأحكم الصنعة فيها ، وجعلها مستنزا ومسكنا لها ولحاشيته وأرباب دولته ، ونقش صورتها على الباب . وكانوا يجلبون الصور والتماثيل من البلاد الاخرى كالقسطنطينية وغيرها . وقد نصب الناصر على باب الزهراء ثمانية منها ، وقلدوا بعض النقوش التى كانت فى كنائس أسبانيا وصقايه . وروى بعض المؤرخين أن ثلاثة أعمدة فى مسجد قرطبه كانت عليها نقوش وصور فكان على أحدها صورة عصا موسى ، وعلى الثانى صورة أهل الكهف ، وعلى الثالث صورة غراب نوح . أما تصوير الآنيه والاثاث والاشكال الهندسيه فقد برعوا فيها براعة عظيمه ، وصوروا الطيور وأشكال الرجال ، كما فى الحوض الذى أتى به الناصر الى مدينه الزهراء فقد كانت به

نقوش وتماثيل على صورة الانسان نصب عليه اثناعشر تمثالا

ومن آثارهم فى فن العمارة هناك ما لا يزال ناطقا بما كان لهم من البراعة فى بناء المدن والقصور والمساجد . ولهم من الاتقان فى ذلك ما لم يكن لغيرهم فى زمنهم . ومن أشهر آثارهم الفنيه مسجد قرطبه الشهير الذى - فضلا عما يدل عليه من البراعة فى فن العمارة - يدل على ذوقهم الفنى ، وعلى بلوغهم درجه عظيمه فى الترف ومجاراتهم غيرهم

فيما عرفوه من آثار الرومان في المدن العظيمة والقصور الشاهقة  
والكنائس المنمقة

أما مسجد قرطبة فقد أسسه عبد الرحمن الداخل وأتمه ابنه  
هشام . فكان إنشاؤه في أول أيام الدولة الاموية ؛ مما يدل على تيقظ العرب  
ونشاطهم منذ دخولهم تلك البلاد . وقد كان في هذا المسجد الف  
ومائتا عمود كلها من الرخام ، وكان باب المسجد من الذهب وفيه المحراب  
وما يايه قد أجرى فيه الذهب المطعم . وكان باب المقصورة من  
الفضة . وكان بالمقصورة تفاحات من الفضة والذهب ، يحيط كل تفاحة  
ثلاثة أشبار ونصف ، واثنان من هذه التفاحات من الذهب الابريز ،  
وتحت كل تفاحة وفوقها موسنة قد هندست بأبداع صنعة ورمانة  
ذهب . قال المصنف أنها إحدى غرائب الارض : وكان بالجامع المذكور  
في بيت منبره مصحف عثماني الذي خطه بيده ( هكذا يقولون ) وعليه  
حلية ذهب مكللة بالدر والياقوت ؛ وعليه أغشية من الديباج وهو  
على كرسي من العود الطيب بمسامير الذهب وارتفاع المنارة الى مكان  
الآذان ؛ ه ذراعا ؛ ودور الثريا الكبرى تحتوى على الف كائس وأربعة  
وثمانين ؛ كلها موشاة بالذهب . وفي عضادتي المحراب أربعة أعمدة ؛  
اثنان أخضران واثنان لازورديان وبه منبر خشبه العاج والابنوس  
والعود . وصرف عليه عشرة آلاف مثقال وخمسون مثقالا ويقولون  
إنه كان بالجامع حاصل كبير ملائ من آتية الذهب والفضة لاجل وقوده

راجع الكلام على مسجد قرطبة في نفح الطيب جزء ١ صفحة

وقد أخذ أهل أوروبا عن عرب الاندلس كثيرا من الفنون وغيرها . فقد كانوا لا يعرفون شيئا عن علوم اليونان ومدنيتهم . ولا عن اللغة الاغريقية وما ألفت فيها . فلما ترجم العرب كتبهم وشرحوها وأضافوا اليها ما أضافوه ، فتحوا على أهل أوروبا باب المدينة الحاضرة وأطاعوهم على تلك الآثار التي بنوا على أنقاضها حضارتهم . فقرأوا الكتب اليونانية باللغة العربية . ومنذ ذلك عنوا بدراستها وبمعرفة اللغة اليونانية . بل ترجم أهل أوروبا الكتب العلمية اليونانية من العربية الى اللاتينية . ومن أول الكتب التي ترجمت في ذلك كتاب اقايدس في الهندسة سنة ١١٣٦ م

ولم يأخذ أهل أوروبا عن عرب الاندلس العلوم وحدها ، بل أخذوا عنهم أيضا بعض الفنون التي اشتغلوا بها كفن العمارة والموسيقى والشعر<sup>(١)</sup> . أما فن الموسيقى فقد توسع فيه أهل أوروبا بما تركه العرب لهم . قال بعض المؤرخين « إن للعرب اليد الطولى فيما تركوه من فنون الموسيقى التي ساعدت أهل أوروبا على الوصول الى الدرجة التي عليها الآن هذا الفن الجميل . فان مكتبة طليطلة بها آثار عظيمة تدل

---

(١) أخذ العرب كثيرا من فنون العمارة عن دولة الروم الشرقية . كما نقلها الجرمانيون الى بلادهم . فكانت العمارة عند الجرمانيين تشبه ما عند عرب اسبانيا . حتى أن مسجد قرطبة يشبه الكنيسة الجرمانية الكبرى لأن أصلها مأخوذان عن الشكل البوزانتي . وكانت آثار البناء في أوروبا الجنوبية مأخوذة من نماذج عربية حتى قالوا إنه يوجد شيء من ذلك في كنيسة باريس الكبرى :

على ما كان للعرب من التقدم في ذلك . وأن هناك جزءاً من المخطوطات في الموسيقى عليه بعض ملاحظات بخط ألفونس العاشر ، التي كانت كل معلوماته وتربيته العقلية ، مكتسبة من قراءة الكتب العربية . وأن الموسيقى قبل ذلك العصر كانت مقصورة على الكنائس . فساعد العرب على نشر هذا الفن بواسطة الفرنسيين أنفسهم ، الذين كانوا يقيمون في اسبانيا مع العرب ، أو يتعلمون في مدارسهم . وكان الشعر الفرنسي العامي من نوح الشعر العامي الإسباني المأخوذ عن الشعر العربي ، لأن الشعر اليوناني أو الروماني . لأن سكان تلك البلاد لم يكونوا يعرفون بعد شعراء اليونان أو الرومان ، حتى ينسجوا على منوالهم إذ لم يطلعوا على شيء من ذلك قبل القرن الرابع عشر . لذلك كان الشعر عندهم يشبه الشعر العربي من حيث أنه قطع صغيرة ، وأبيات قليلة في المدح أو الذم أو الوصف . وذلك أظهر ما يكون في فرنسا عند شعراء القرن الرابع عشر ، وبعض القرن الخامس عشر . حتى أن أسماء هذه المخطوطات أو الاصوات كانت تشبه أسماء الشعر العربي . قال « ولقد أخذنا صناعة الشعر والقوافي عن العرب ، فإن الأسبانيين أول من أخذ القافية عن الشعر العربي ثم وصلت هذه الصناعة إلى مرسلينا وطولون بواسطة التجار الذين كانوا يجيئون من اسبانيا » .

واقتبس الأوروبيون كثيراً من أعمال العرب في الحروب والصناعة وغيرها مما يطول شرحه . وإنما أردنا أن نثبت ذلك القدر القليل تنويرها بفضل العرب وأثرهم في المدنية الحاضرة .

وقد بلغ عرب اسبانيا درجة عظيمة من الترف وأبهة الملك .

ولعل ذلك مايسمونه الآن « رد فعل » . فقد كانوا في خشونة من العيش ، بعيدين عن كل رفاهية ، فلما فتح أمامهم باب السعادة على مصراعيه ، ورأوا مدينة الأمم الأخرى وملكوا العالم ، أرادوا أن يتناسوا تلك الخشونة البدوية ، فتشبهوا بالدول العظمى . وكان العربي بطبيعته يتأثر بالمظاهر والمشاهد الجميلة لأنها هي التي كونت فكره وادراكه وتصوره ، وأوحى إليه هذه المعاني الشهريه . وقد رأى ذلك كله في البلاد التي فتحها . فأراد أن يكون من أصحاب العظمة والآبهة والترف . فاهتم ببناء القصور الضخمة ، والابنية المشمخرة ، وحياسة الاشياء النفسيه ، ولبس الحلل الفخمة المزركشة ، وامتلاك الاواني الذهبية والاثاث المرصع بالاحجار الكريمة ، وغلبت عليه طبيعة السخاء ، فكان يجود بالهدايا الثمينة ، ويستعين بالأموال .

فقد رووا عن عبد الرحمن الثاني أنه كان له جارية اسمها طروب أغضبها مرة فهجرتها ونزلت مقصورتها . فاشتد قلقه لهجرها وضاق ذرعه من شوقها . وأراد أن يسترضيها فأعياه ذلك فأرسل مع خاصة خصيانه من يكرها على الوصول اليه . فأغلقت بابها في وجوههم وآلت أن لا تخرج اليهم الا طائعة ولو انتهى الامر إلى القتل . فانصرفوا وأعلموا الامير بذلك واستأذنوه في كسر الباب عليها . فنهاهم وأمرهم بسد الباب من خارج بيدر الدراهم . ففعلوا وبنوه عليها بالبدر وأقبل حتى وقف بالباب وكلها على أن لها جميع ماسد به الباب . فأجابت وفتحت الباب فانهاالت البدر في بيتها فأكبت على رجليه تقبلها وحازت المال .



وقد اتخذ عبد الرحمن الناسى القصور والمنتزهات ، وجاب إليها  
الماء من الجبال وأقام الجسور ، وبنيت في أيامه المساجد الكثيرة  
 والمدارس . على ما كان عاينه من الكلف باللهو والميل إلى الجوارى .  
 أعطى جاريته حلياً قيمته مائة ألف دينار فقبل له إن مثل هذا  
 لا ينبغي أن يخرج من خزانة الملك فقال إن لا يسه أنفس منه  
 وكان ملك عبد الرحمن الناصر بالأندلس في غاية الفخامة والضخامة  
 كما يعلم من مقابلة رسل الملوك له ، فقد أمر أن يتلقوا أعظم تائق وأنخمه  
 ورتب الناصر لحجابه رجالاً من الموالى ووجوه الحشم وصاروا  
 إلى قصر منية الحكم ولى العهد ، وكانوا ستة عشر رجلاً لاربعة دول  
 لكل دولة أربعة رجال ، ورحل الناصر من قصر الزهراء إلى قصر  
 قرطبة لوفود الروم عليه فقعده في بهو المجلس الزاهر ، وحضر الوزراء  
 على اختلاف مراتبهم ، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء  
 الوزراء والموالى والأمرء . وقد بسط صحن الدار بعناق البسط  
 وظللت أبواب الدار وحناياها بظلمل الديباج ، ورفيع الستور ، حتى أن  
 رسل ملك الروم عند ما وصلوا ورأوا ذلك دهشوا من بهجة الملك  
 ونفامة السلطان وقدموا كتاب ملكهم صاحب قسطنطينية وفيه  
 وصف هدية عظيمة أرسلت إلى الناصر

وامتدت الثروة والابهة إلى الحجاب والوزراء . فقد أهدى أحمد بن  
 عبد الملك بن شهيد الذى استوزره الناصر هدية لسيده ، وقال فيها ابن  
 خلدون : انها تدل على ضخامة الدولة الاموية واتساع أحوالها . وقالوا  
 إنها عبارة عن خمسمائة ألف منقال من الذهب العين ، وأربعمائة رطل

من التبر ، وخمس وأربعين ألف دينار من سبائك الفضة ، واثنى عشر رطلا من العود الهندى ، ومائة وثمانين رطلا من العود المتخير ، وثلاثين شقة من الحرير المرقوم بالذهب للباس الخلفاء المختلفة الألوان والصناعات وعشرة أفربه ، من غالى جلود الحيوان الخرسانية ، وغير ذلك وكثرت القصور والمساجد وغيرها من الابنية العامة إلى درجة عظيمة فقد كان عدد الدور فى قصر قرطبة أربعمئة دار ونيفا وثلاثين وكان عدد دور الرماية مائة ألف وثلاثه آلاف دار ، وبلغت ديار أهل الدولة ثلثمائة وستة آلاف ، وبلغ عدد المساجد سبعة وثلاثين وثمانمئة وثلاثة آلاف ، وعدد الحمامات سبعمئة

#### الغناء ومجالس الادب

أما مجالس الغناء واللهو فقد غصت بها المحافل ، وشغمت أ كثر أوقات الشعراء وفتقت ألسنتهم بقول الشعر الجميل ، وفتحت عليهم أبوابا من الخيال ، وزاد فى الاقبال عليها ميل الخلفاء والأمراء وأهل النظر والادب والنساء الشواعر ، فقد كان عبد الرحمن الثانى مولعا بالسماع مؤثرا له على جميع لذاته

جاءت صناعة الغناء الى الاندلس من المشرق ، لأنها كانت وهى فى أوج عزها عند العباسيين من الفنون الناضجة ، ومن أ كبر وسائل السرور والتسلى . واستأذ المغنيين فى الاندلس زرياب ( أبو الحسن على بن نافع مولى المهدي العباسى ) ، قدم الى الاندلس بأمر الحكم ابن هشام المتوفى سنة ٢٠٦ هـ . ولما أخبر بوفاة الحكم قبل وصوله إلى الاندلس هم بالرجوع ، فجاءه كتاب من عبد الرحمن بن الحكم

يذكر تطلعه اليه وسروره بقدمه عليه . وكتب الى عماله على البلاد أن يحسنوا اليه ويرافقوه الى قرطبة . وأمر خصيا من أكابر الخصيان أن يتلقاه ، فدخل هو وأهله البلد ليلا ، وأنزله في دار من أحسن الدور ، وحمل اليها جميع ما يحتاج اليه ، وكتب له في كل شهر بمائة دينار راتباً ، وأن يجرى على بنيه الذين حضروا معه عشرون ديناراً كل شهر لكل واحد منهم ، وأن يجرى على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار ، وأن يقطع له من الطعام العام مائة مدين . وأقطعته من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ومن الضياع ما يقوم بأربعين الف دينار . ولما استدعاه الى مجالسه وسماع غنائه ترك كل غناء سواه ، وأحبه حباً جماً ، وقدمه على جميع المغنين وشرفه بالاكل معه ، لما علمه من فضله وأدبه . وكان زرياب مغرماً بفنه ، حتى انه كان يدعى أن الجن كانت تعلمه ، فكان يهب من نومه فيدعو بجاريته ، غزالات وهنيدة فيأخذان عودهما ، يأخذ هو عوده فيطارحهما ليلته ، ويكتب الشعر ؛ ثم يعود حاجلاً الى مضجعه . وزاد زرياب في أوتار العود وترا خامساً اختراها منه ، وزيادة على الصنعة القديمة . وكان يحفظ عشرة آلاف صوت من الاغاني بألحانها . قالوا وهذا العدد من الالحان هو غاية ما ذكره بطليموس واضع هذا الفن . واختص بنوع من الصناعة في تعليم الغناء وضرب العود ؛ صارت منهجاً لمن جاء بعده ؛ وكان عالماً بكثير من العلوم والفنون ، اديبا ظريفاً ، حسن الحديث والسامرة ؛ وكانت له جارية اسمها متعة أدبها وعلمها أحسن أغانيه . وعرفت حمدونة ابنته باتقانها هذه الصناعة .

وأخذ عن زرياب الغناء كثير من الرجال والنساء  
 وكانت محالس اللهو والطرب غاصة بغناء الأشعار والرقص  
 والراقصات ، وفي جميع البلدان أصناف من الملاحى والرواقص المشهورات  
 بحسن الانطباع واللاعب بالسيوف وغيرها ، كما كان من بين المغنين  
 كثير من كبار القوم ، مثل عبد الوهاب بن حسين الحماجب ، « الذى  
 كان وحيد دهره فى الغناء الرائق ، والادب الرائع ، والشعر الرقيق ،  
 واللفظ الانيق . ورقة الطبع ، واصابة النادرة والنشبيه المصيب . ،  
 وكان قد قطع صمره وأفنى دهره فى اللهو والطرب ، وهو أعلم الناس  
 بضرب العود »

كتب بعضهم يستدعى عود غناء فقال :

« انتظم من اخوانك أترك الله عقد شرب يتسابقون فى ودك ،  
 ويعاطون ربحانة شكرك وحمدك ، وما منهم إلا شره المسامع الى رنة  
 حمامة ناد ، لاحمامة بطن واد . والطول لك فى صلتنا بحمام ناطق ،  
 قد استعار من بنان لسانا ، وصار لضمير صاحبه ترجمانا . وهو على  
 الاساءة والاحسان لا ينفك من إيقاع به ، فى غير إيقاع به ، فان هفا  
 عركت اذنه وأدب . وأن تأنى واستوى بعيج بطنه وضرب . لازلت  
 منتظم الجذل ملتئم الامل »

هذا كله يدل على حسن الذوق ، ورقة الطبع ، اذ كلما أعين  
 الانسان فى فنون الجمال دل على رقة ذوقه . ولو أن العرب عرفوا شيئا  
 من بلاغة اليونان والرومان لجاروهم فى فنون التمثيل واختراع القصص  
 ولكنهم قنعوا من ذلك بما كان لهم فى مجالس الأدب والغناء واللهو

والشرب التى تفنن الكتاب والشعراء فى وصفها ،

واشتتات أغاني الأندلسيين على كثير من أغراض الشعراء ؛ فكانت تشمل مدح الامراء ، ووصف القصور والحدائق ، والخيول والفرسان ، ومجالس الشرب فى الولايم . وغير ذلك من الموضوعات الكثيرة المختلفة ، التى نشأت من أحوال الاجتماع هناك ، وأوحى بها الى نفوس الشعراء تلك الحياة الاجتماعية ، وطبيعة البلاد وما بها من رغد فى العيش ، وساعد هذا كله على نمو الشعر العربى .

وقد كانت أغاني العشاق تدل على أثر المرأة فى النفوس والاجتماع . لأنها كانت ذات مكان عظيم ومنزلة رفيعة وأثر ظاهر فى الحركة العقلية ، بل كانت تسابق الرجال ، فتسبقهم أحياناً ، واشتهر عدد عظيم من النساء فى الشعر والادب كما هو معروف . ولم تكن صلة المرأة بالرجل صلة قابلية أو نفسية لا غير ، بل كانت صلة احترام واجلال ، لظهورها فى ميدان الجد والعمل ، واشترائها مع الرجل فى أحوال الاجتماع ، ولا أثرها فى مجالس الأدب وفنونه . وكان ذلك فى أكثر طبقات النساء . فقد كان لعبد الرحمن الناصر جارية حسنة الخط ، راوية للشعر ، حافظة للأخبار ، طالمة بضروب الأدب . وكانت العبادية جارية المعتمد أديبة ظريفة ، كاتبة شاعرة ، ذاكرة لكثير من اللغة . معدودة من علماء اشبيلية . فكانت المرأة هناك أرقى وأجل منها فى أوربا ، وحبها مزوجاً بشئ من الوجد والاجلال معاً . وازدانت مجالس الغناء بالغانيات المطربات من الجوارى وغيرهن ، وكان فيهن من هو أمهر من الرجال فى هذه الصنعة ، وأكثرهن وافد من المشرق . كالمغنية فضل التى اشترت

من المدينة للأمير عبد الرحمن الأول . فقد نشأت في بغداد وتعلمت الغناء وبرعت فيه ، واشتهرت في هذا الفن شهرة عظيمة . وكان يؤثرها عبد الرحمن على غيرها لجودة غنائها وكانت قمر جارية ابراهيم بن حجاج اللخمي صاحب اشبيلية من أهل الفصاحة والبيان والمعرفة بصوغ الالخان ، قالوا وجلبت اليه من بغداد وجمعت أدباً وظرراً ورواية وحفظاً ، مع فهم بارع وجمال رائع . كذلك كانت حالة الغناء من حيث الاهتمام به والاقبال عليه من أعظم مظاهر العقول والأدب .

وكانت مجالس الأدب في الأندلس من أكبر مسارح الافكار ، وأنغم مظاهرها الجمال ، وأجمع أنواع الأدب واللاه والجد والهزل ، ومظهر الحياة العقلية والاجتماعية . والشعراء فرسان هذا الميدان . والكلام وحده آلة التعبير عن ذلك بأساليب مختلفة البايغة . وكان الشعر نشوة الشارب وغناء الراقص ، ومؤدب النفوس وزاجرها ، وسلوة الفقير والغنى ، ومعزة الشريف والسوقي ، وكانوا جميعاً على فهمه أقدر ، وعلى الاقبال عليه أسبق ، وكل اذن واعية عند سماعه خاشعة لروعة بلاغته ، لانه كل مظاهر الحسن والجمال في مجالس الخلفاء والامراء . كذلك كانت روعة تلك المجالس في الشعر وبلاغة الكلام . وكان من أهل الأدب هناك الوزراء والكتّاب ، والعمال وجباة الاموال والمستعملون في أمور الدولة ، والخلفاء أنفسهم ، وكثير من أولادهم ونسأهم ومن يحضر مجالسهم . فبرع أهل الأندلس في فنون الادب والشعر براءة شهد لهم بها جلة الناس وكانت مجالسهم لذينة ومحاضرهم فكهة . والشعراء كثيراً ماتحلمهم هذه المجتمعات وما فيها على الارتجال والابتكار .

« حضر أبو عامر بن شهيد ليلة عند المظفر بن المنصور بن أبي طاهر  
 بقرطبة فقامت تسقيهم وصيفة عجيبة صغيرة الخلق ، ولم تزل تسهر  
 على خدمتهم الى أن هم جند الليل بالانهزام ، وأخذ في تقويض خيام  
 الظلام . وكانت تسمى أسماء ، فعجب الحاضرون من مكابحتها السهر  
 طول ليلتها على صغر سنها . فسأله المظفر وصفها فصنع ارتجالا .  
 أفدى أسماء من نديم ملازم للـكؤوس راتب  
 قد عجبوا في السهاد منها وهي لعمري من العجائب  
 قالوا تجافى الرقاد عنها فقلت لا ترقد الكواكب »  
 ومن البدهة في المجالس أيضاً ورسوخ ملسكة الأبداع في النفوس ،  
 ما قيل عن ابن شهيد هذا ، وذكره ابن بسام . « ان جماعة من أصحاب  
 ابن شهيد قالوا له يا أبا عامر ، انك لآت بالعجائب وجالب بذوائب  
 الغرائب ، ولكنك شديد الاعجاب بما يأتي منك ، هاز لعطفك عند  
 النادرة ، ونحن نريد منك أن تصف لنا مجلسنا هذا ، وكان الذي  
 طلبوه منه زبدة التعنيت ، لان المعنى اذا كان صلفاً ثقيلاً على  
 النفس ، قبيح الصورة عند الحس ، كات الفكرة عنه وان كانت  
 ماضية ، وأساءت القرينة في وصفه وان كانت محسنة . وكان ما في المجلس  
 باب مخلوع معترض على الارض ، ولبد أحمر مبدسوط قد رصت خفافهم  
 عند حاشيته . فقال مسرعا

وفتية كالنجوم حسناً	كلهم شاعرٌ نبيلٌ
منفذ الجانبين ماضٍ	كأنه الصارمُ الصقيـلُ
راموا النصراني عن المعالي	والغرب من دونها كليلٌ

فاشتمد في أثرها فسيحٌ      كل كثير له قليلٌ  
في مجلس زانه التصابي      وطاردت وصفه العقولُ  
كأنما بابه أسيرٌ      قد عرضت دونه لُقولُ  
يرادُ منه المقالُ قسراً      وهو على ذاك لا يقولُ  
تنظر من لبدة لدينا      بحر دم تحتنا يسيلُ  
كأن أخفافنا عاٍيه      مراكبٌ ما لها دليلُ  
ضللت فلم تدر أين تجرى      فهي على شطهٍ ثقيلُ  
فعجب القوم من أمره .

« ودخل الوزير أبو العلاء زهر بن الوزر بن مروان على الامير  
عبد الملك بن زرير في مجلس انس ، وبين يديه ساق يستقى خميرين من  
كأسه ومن لحظه ويدي دُرّين من حبابه ولفظه ، وقد بدأ خط عذاره  
في صفحة خده ، وكل حسنه باجتماع الضد منه مع ضده ، فكانه  
بسحر لحظه أبدى ليلا في شمس ، وجعل يومه في الحسن أحسن  
من أمس ، فسأله ابن رزين أن يصنع فيه فقال بديها

نضاعف وجدى اذا تبدى عذاره      وتم نغان القاب منى اصطباره  
وقد كان ظنى أن سيمحق ليله      بدائع حسن بهام فيها نهاره  
فاظهر ضد ضده إذ وشت له      بعنبره في ضحفة الخلد ناره  
واستزاده فقال بديها .

بحيت آية النهار فأضحى      بدر تم وكان شمس نهار  
كان يعشى العيون نورا إلى أن      شغل الله خده بالعدار  
وكانت مجالس الأدب من بواعث قول الشعر ومجاراة بعض



الأدباء بعضاً في ذلك . قالوا : « إن ابن العريف النحوى دخل على المنصور بن أبي طاهر وعنده صاعد اللغوى البغدادى ، فأنشده وهو بالموضع المعروف بالعامرية :

فالعامة تزهى على جميع البباني  
وأنت فيها كسيف قد حل في غمدان

فقام صاعد وكان مناقضاً له . فقال أسعد الله الحاجب الأجل ،  
ومكن سلطانه ، هذا الشعر الذى قاله فد أعده ، وأنا أقول أحسن منه  
ارتجالاً . فقال له المنصور ، قل ليظهر صدق دعواك ، فجعل يقول من  
غير فكرة طويلة :

يأبها الحاجب المعتلى على كيوان  
ومن به قد تناهى نحر كل يمانى  
العامرية أضحت كجنة الرضوان  
فريدة لفريد ما بين أهل الزمان

إلى أن قال :—

أنظر إلى النهر فيها ينساب كالشعبان  
والطير يخطب شكراً على ذرى الأغصان  
والقضب تلتف سكرًا بيمس القضبان  
والروض يفت زهواً عن ماسم الأفحوان  
والنرجس الغض يرنو بوجنة النعمان  
وراحة الريح تمتا رنفحة الريحان  
قدم مائى الدهر فيها في غبطة وأمان »

هذا أدل في جملته على مكانة الشعر في النفوس ، وأنه شيء من روائع القول وجمال الكون . وهذا من مميزات الشعر العربي ، وهي جمال الشعر الوجداني . لأنه ينقلنا من عالم الحقائق المؤلمة إلى عالم الأحلام والخيال ، حيث يذوق الإنسان السعادة ، وينسى آلام الحياة وكوارثها وذلك هو الغرض من فنون الجمال لأننا إذا كنا في حاجة دائمة إلى الاتصال بالحقائق وإدراكها لفهم الأشياء فأننا كثيرا ما نكون أحوج إلى الابتعاد من ذلك .

« حضر أبو المظرف بن عبد العزيز مع ابن عمار الوزير عند المؤمنين في يوم جادت فيه السماء بطامها ، وأتبعته وبأها بطامها ، وأعقب رعداها برقها ، وأنسكب دراكا ودقها ، والأزهار قد تجلمت من كآمها وتحملت بدر غمامها ، والأشجار قد جلى مداها ، وتوشحت بنداها ، وأكؤس الراح كأنها كواكب تتوقد ، نديرها أنامل تكاد من اللطافة تعقد ، إذا بفتى من فتيان المؤمنين أخرج من مستعجم لا يبين ولا يوضح ، متمر تمر الليث ، مشمر كالبطل الباسل عند الغيث ، وقد أفاض على نفسه درعا ، تضيق بها الأسنة ذرعا ، وهو يريد استشارة المؤمنين في الخروج إلى موضع بعثه ووجهه إليه ، فشكل من صده عنه نهره ، حتى وقف إلى مكان انفراده ، ووقف بأزاء وساده فلما وقعت عين ابن عمار عليه ، أشار بيده إليه وقربه واستدناه ، وضمه إليه كأنه تبناه ، وجد أن يخلع عنه ذلك العذير ، وأن يكون هو الساقى والمدير ، فأمره المؤمنين بخلعه وطاعة أمره وسمعه ، فنضاه عن جسمه وقام يسقى على حكمه ورسمه ، فلما دببت فيه الحميا وسبت

غرامه بهجة ذلك المحيا ، واستنزلته سورة العقار ؛ من مرقب الوقار  
قال :-

وهويته يسقى المدام كأنه	قر يدور بكوكب في مجلس
متأرجح الحركات تندى ريحه	كالغدن هزته الصبي بتنفس
يسقى بكأس في أنامل سوسن	وبدير أخرى في محاجر نرجس
يا حامل السيف الطويل نجاده	ومصرف القوس القصير المحبس
إياك بادرة الوغى من فارس	خشن القناع على عذار أملس
جهم وإن حسر القناع فأتما	كشف الظلام على النهار للمشمس
يطغى وياعب في دلال عذاره	كالمهر بدرج في الاجام الجرس
عنا بكأسك قد كفتنا مقله	حوراء قائمة بسكر المجلس

قلوا اجتمع المعتصم بن صمدح مع ندمائه يوما فبرز لهم وصيفة  
متصرفة في أنواع اللعب والطرب . وكان هناك لاعبا مصريا فارتجل  
أبو عبد الله بن الحداد :-

كذا فلتلح قرا زاهرا	وتجنى الهوى ناظرا ناظرا
وسيبك سيب ندى مغدق	اقام لنا هاليا هامرا
وأن ليومك ذا رونقا	منيرا لآلئ الضحى باهرا
صباح اصطباح باميفاره	لحظنا محيا على سافرا
واللمعت فيه نجوم الكؤوس	فما زال كوكبها زاهرا
واسمعتنا لاعبا فاتنا	وأحضرتنا لاعبا ساحرا
يرفرف فوق رؤوس القيان	فتنظر ما يذهل الناظرا
ويحفظها ذيل سرباله	فتنظر طالعا فائرا

فظاهرها ينتنى باطنا وباطنها ينتنى ظاهرا  
 وثناه ثان لالعبه دقائق تثنى الحجبى حائرا  
 وفي سورة الراح من سحره خواطر دلهت الخاطرا  
 اذا ورد الالحظ أثناءها فما الوهم عن وردها صادرا  
 ومن حسن دهرك ابداعه فما أنفك عارضها ماطرا  
 وسعدك يحتلب المغريات فيجعل غائبها حاضرا  
 بمثل ذلك كانت تنطق ألسنة الشعراء في تلك المجالس فيأتون  
 بالعجيب الرائع . واذا وازنا بين مجالس الادب هذه ومجالس الغناء  
 هناك من حيث أثرهما في الشعر ، اذا لوجدنا ان هذه المجتمعات اكثر  
 أثرا وأكثر توليدا للمعاني في نفوس الشعراء وادعى الى قول الشعر  
 وابتكار الاخيلة لأن منظرا من المناظر أو رأيا من الآراء أو فتاة بجملها  
 أو كأمما بخمرها تحرك النفس وتدعوا الشاعر الى تصوير ما يرى أو  
 يشعر ، فيقول ما ولدته في نفسه تلك المؤثرات ؛ ولاشك أن هذا من  
 دواعي الاكثار في قول الشعر ، بل من دواعي إبداع أنواع جديدة  
 تغنى بها البلاغة ، لان كل ما يقال جديد مبتكر في نظر قائله ، وقديكون  
 كذلك في نفس الحقيقة . لذلك كان أثر مجالس الأدب في الشعر  
 عظيما . وأكثر هذه الاشعار كانت في الاوصاف وهو مما يدخل في  
 باب التصوير للمحسوسات إذا لو كان المصور يصور بريشته وألوانه  
 فإن الشاعر يصور بريشته وبلاغته . ثم أوصافا للأشخاص والنفوس  
 وهو ما يدخل في العشق والاجتماع . ولقد غصت المجالس بهذين النوعين  
 وجرهم وصف الأشخاص الى الدخول في المجون من التمدح بذكر الخمر

— ٤٣ —

والتغنى بها . وقد وصفوا الغلمان وجمال المرأة ورشاقتهما وكل الاوصاف  
التي تجرّك الميول وتُمَلِّأُ العيون والقلوب كما قال بعضهم : —  
ومفهم طأوى الحشا خنت المعاطف والنظر  
ملا العيون بصورة تليت محاسنها صور  
فاذا رنا واذا مشى اذا شدا واذا مفر  
فضح الغزالة والغما مة والحمامة والقمر  
وقد قال آخر : —

وشاديين ألما بي على مقة تنازما الحسن في غايات مستبق  
كأن لمة ذا من نرجس خلقت على بهار وذا مسك على ورق  
وحكما الصب في التفضيل بينهما ولم يخافا عليه رشوة الخدق  
فقام يدلى عليه الرُّم حجتة ميينا بلسان منه مطلق  
هذا شيء يسير من مجالس الأدب وأحوال الاجتماع في الاندلس



## الثقافة في الاندلس وفي بلاد المشرق

اتصل العباسيون بالفرس ومن جاورهم ، وامتد سلطانهم في بلاد المشرق من أقصى الصين والهندوتر كستان وخراسان إلى سواحل البحر المتوسط وجزره . ودخل أهل هذه البلاد في الاسلام واستعان خلفاء بني العباس بالفرس في إزالة دولة بني أمية فأصبح الأمر والنهي لأبناء الأكرسة الذين قبضوا على ناصية الاجتماع وصاروا قادة الفكر ، وآل الأمر والنهي . وكان منهم العلماء والأدباء والوزراء والشعراء والكتاب وجاءوا بتراث آبائهم العقلي والاجتماعي فبذروه في الممالك الإسلامية وفي عقول العرب ومن انتمى إليهم . وساعدوا الخلفاء في نشر ثقافة اليونان بالعمل على نقل كتبهم العلمية والفلسفية . كما عملوا على نقل علوم بعض الأمم الأخرى إلى لغة العرب واجتمع في بغداد العلماء والأدباء من كل أمة وصنف وكل مذهب ونحلة كما هو معروف حتى كانت قاعدة بني العباس مدينة كأنها دولية أو جامعة لجميع الأمم . فانتشرت الثقافة الفارسية واليونانية وصبغت العقول بهذه الصبغة الأجنبية ؛ وكان بجانب هذه الثقافة العلمية ثقافة عربية إسلامية .

قام بنشرها علماء اللغة والدين من العرب والعجم ، وامتزجت هذه بتلك ، فكانت هناك حياة علمية هي مزيج من أدب العرب وعلومهم ودينهم وأحكام شريعتهم ، وأدب الفرس وعلوم اليونان . وتولد من هذه الثقافة مذاهب أدبية واجتماعية وسياسية وفلسفية . حتى سرى ذلك إلى الدين وأصوله فأحدث هذا كله في الحياة العقلية الإسلامية

نرعا من التخبط والاضطراب ، وكانت الصبغة الأجنبية أظهر من  
الصبغة العربية في ذلك كله

أما في الأندلس فكانت الحال على غير ذلك ؛ فقد فتح العرب بلاد  
الأندلس وكانوا هم قواد الجيوش وأمراء البلاد وأصحاب الأمر والنهي .  
وقد أرادوا أن يؤسسوا لهم دولة عربية خالصة من كل شائبة أجنبية  
لينافسوا دولة العرب الفارسية في بغداد ، ومملك بنى العباس الذين دمروا  
ملك بني أمية في ربوع الشام ونكلوا بخلافائهم وأبنائهم أشد تنكيل .  
وكان في نفوس العرب الأندلسيين حفيظة من الأجانب الذين  
أحلوا الروح الفارسي محل الروح العربي في كل مظهر من مظاهر  
الحياة العقلية والاجتماعية

لهذا ؛ أراد حكام الأندلس من العرب وبخاصة بني أمية أن يكون  
ملكهم هناك عربيا خالصا وأن تكون ثقافتهم عربية اسلامية  
فعملوا على تحقيق ذلك ولم يحفلوا بآدى الامر بما كان بالبلاد  
التي فتحوها وملكوها ، من ثقافة لاينية أو غيرها ، ولا بنقل شىء من  
علوم اليونان وفلسفتهم ، وكان الذين يرحلون منهم إلى بلاد المشرق في  
طلب العلم يأخذون عن علماء الدين واللغة لا غير كما كانوا يستقدمون  
من بغداد وغيرها جماعة من أئمة الفقهاء وأهل الأدب « كأبي علي  
القالي » الذى استقدمه عبد الرحمن الناصر لتربية ابنه الحاكم وتعليمه  
ولقد ألف القالي لعبد الرحمن كتابه « الأمل » « وكأبي الفرج الاصبهاني »  
الذى طلب اليه عبد الرحمن نشر كتابه « الاثنى » بالأندلس قبل نشره  
في بغداد ، ووهبه على ذلك مالا عظيما قيل انه مقدار ألف دينار .

« ويحيى بن يحيى الليثي » الذي رحل إلى مكة وأخذ الفقه عن الامام مالك وروى عنه الموطأ

وإذا كان أهل الأندلس يجارون المشاركة في العلوم والمعارف يأخذون عنهم ذلك فقد كانت تلك الحجارة مقصودة على علوم اللغة العربية ، والشريعة الإسلامية بآدى الأمر لهذا بقيت ثقافة أهل الأندلس عربية إسلامية إلى أواخر القرن الخامس الهجرى

فكانت علوم اللغة والشريعة أساساً لثقافتهم كما كانت أساساً للثقافة العالم الإسلامي في كل بلد كان للمسلمين فيه أثر علمي أو عقلي . وكان ذلك أشبه بالثقافة اللاتينية المنتشرة الآن في بلاد فرنسا وإيطاليا وإسبانيا التي سكانها من أصل لاتيني ، بل وفي بلاد روسيا وعند أمم الصقالبة لاحتكاكهم بالفرنسيين وأخذهم عنهم الآداب والفنون كذلك كان العالم الإسلامي متأثراً بعلوم اللغة العربية وعلوم الدين فظهر ذلك في الحياة العقلية القومية للأمم التي دخلت في الإسلام كالفرس والترك وأمم البربر ، وأصبحت عقولهم وأخيلتهم عربية وأساليب التفكير لديهم عربية إسلامية وهذه أمة الفرس لم تظهر سطوتها الأدبية إلا بعد أن أساموا وتأدبوا بلغة العرب وعطروا عقولهم الآرية بعبير التفكير السامي وبالثقافة العربية . فان الشهنامة التي هي أعظم أثر أدبي في لغة الفرس على ما نعلم نظمت في القرن الرابع الهجرى : فقد نظمها أبو منصور محمد بن أحمد الدقيق المتوفى سنة ٣٦٥ من الهجره وأتمها أبو القاسم المنصور الفردوسى المتوفى سنة ٤١١ هـ

فالثقافة العربية الدينية أساس كل التفكير الإسلامى . ولكن عرب



الأندلس على رغم ذلك كانوا أجمع الامم الناهضة تتطلع الى معرفة الحياة العقابية والعامية للأمم الاخرى حتى تجاريهم في ذلك أو تفوقهم إذا كان لابد من هذا ، فرغم تشبعهم بالثقافة العربية الاسلامية الخالصة وتعصبهم لهذه الثقافة ، كان من بينهم جماعة من علماء الطب التابعين وعلماء الرياضة والفلك الذين ذاع أمرهم في جميع الاصقاع وانتشرت مؤلفاتهم في كل بلد ، وكانوا مع ذلك شعراءً وكتابا وعلماء في اللغة والأدب والشريعة . نذكر منهم الحفيد أبو بكر محمد بن أبي مروان بن زهر الطيب « كان حافظا للقرآن ، سمع الحديث ، واشتغل بعلم الأدب والعربية ولم يكن في زمانه أعلم منه بمعرفة اللغة ويوصف بأنه أكمل صناعة الطب والأدب ، وعانى عمل الشعر وأجاد فيه . وله موشحات مشهورة يغنى بها وهي من أجود ما قيل في ذلك ، وكان ملازما للأموال الشرعية .... ولم يكن في زمانه أعلم منه بصناعة الطب » (طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٦٨) وكان أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجه أستاذ ابن رشد « في العلوم الحكيمة علامه وقته وواحد زمانه ... وكان متميزا في العربية والأدب حافظا للقرآن ، وكان مع ذلك بارعا في علوم الموسيقى وله كتاب في هذا الفن ، قالوا عنه « إنه في المغرب بمنزلة أبي نصر الفارابي في المشرق وإليه تنسب الألحان المطربة في الأندلس التي عليها الاعتماد ) نفح الطيب ج ٢ ص ١٣٧ ، طبقات الأطباء ج ٢ ص ٦٨ )

### اشتغال أهل الأندلس بالفلسفة:

أما الفلسفة فقد كانوا أقل عناية بها من أهل المشرق كما قلنا لأنهم كما روى المؤرخون لم يكونوا من أهل الجدل الديني . إذ كان جمهورهم من أهل السنة كما ذكر ابن حزم فقال « أما علم الكلام فإن بلادنا وإن كانت لم تتجاذب فيها الخصوم ولا اختلفت فيها النحل فقل لذلك معرفتهم في هذا الباب فهي على كل حال غير غريبة عنه » ومع هذا فلم تخلو مكاتبتهم من كتب الفلسفة ولا جهل علماءهم دراستها ولا سيما بعد القرن الرابع ، فقد عرفها أهل الأندلس منذ عنى الحكم بن الناصر بجمع الكتب واقتناء النفيس منها . قال ابن أبي أصيبعة في كتابه عيون الأنباء في طبقات الأطباء : « .... فإن هذه الكتب الفلسفية كانت متداولة بالأندلس من زمان الحكم مستجلبها ومستجلب غرائب ما صنف بالشرق ، ونقل من كتب الأوائل وغيرها فنصر الله وجهه ، ( ٢٧ ص ٦٢ )

وقال في ترجمة أبي بكر محمد بن الصائغ ( توفي سنة ٥٣٣ هـ ) وإنما انتهى النظر في هذه العلوم بهذا الخبر وبمالك بن وهب الاشبيلي فانهما كانا متعاصرين غير أن مالكا لم يقيد عنه إلا القليل انذر : واضرب الرجل النظر ظاهراً في هذه العلوم وعن التكلم فيها لما لحقه من المطالبات في دمه لسببها ( ح ٢ ص ٦٣ ) . وكان أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمن الكرماني المهندس الرياضي أول من جلب معه من المشرق رسائل أخوان الصفا « توفي الكرماني بسر قسطة سنة ٥٨١ هـ » وأكثر الأطباء المنجمين في الأندلس كانوا فلاسفة ، ولكن تعصب بعض الأمراء

وعامة العلماء على الفلسفة والفلاسفة ، جعل المشتغلين بهذا العلم يخفون اشتغالهم تجنباً لما عسى أن يالحق بهم من الأذى . حتى لقد كان كبار الفلاسفة ينكرون مؤلفاتهم ، كما قالوا « وأما كتب الفلسفة فإمامها في عصرنا أبو الوليد بن رشد القرطبي وله فيها تصانيف جعدها لما رأى انحراف منصور بن عبد المؤمن من هذا العلم وسجنه بسببها وكذلك ابن حبيب الذي قتله المأمون بن المنصور على هذا العلم بأشبيلية . وهو عام ممقوت بالأندلس لا يستطيع صاحبه اظهاره فلذلك تخفى تصانيفه » . ( نفع الطيب ج ٢ ص ١٣٨ )

وبلغ من كراهة المنصور هذا لعلوم الفلسفة أنه أمر أن تجمع كتب الفلاسفة من المكاتب وأن تحرق « وأنه قصد ألا يترك شيئاً من كتب المنطق والحكمة باقياً في بلاده وأباد كثيراً منها باحراقها بالنار وشدد في ألا يبقى أحد يشتغل بشيء منها وأنه إذا وجد أحد ينظر بهذا العلم ، أو وجد عنده شيء من الكتب المصنفة فيه فإنه يالحقه ضرر عظيم » ( طبقات الأطباء ج ٢ ص ٦٩ )

من هذا يمكن معرفة الفرق بين ميول المسلمين العلمية والعقلية في الأندلس وفي بلاد المشرق وبين نوع التفكير هنا وهناك ، ويمكن التمييز بين الثقافتين وأيهما أقرب إلى حرية الفكر ونضجه . ولا سيما إذا وازنا بين خلفاء بني العباس في بغداد وملوك الأندلس من المسلمين . إذن لعلمنا بأن الاشتغال بالعلوم العربية والدينية في بلاد الأندلس كان وجهة جمهرة العلماء والمثقفين هناك . وأن الاشتغال

بالفلسفة كان من صفات خواص العلماء المفكرين . فلسنا نقول مع القائلين إن دراسة الفلسفة لم تتم لها قائمة في بلاد الأندلس ولم يكن لها رجال قائمون بها ولا مؤلفات تضارع مؤلفات أهل المشرق في ذلك بل كان من فلاسفة المسلمين هناك من يحسب في مقدمة الفلاسفة كأبن الصائغ المعروف بابن باجه الذي كثرت مؤلفاته في هذا العلم وشرح كتاباً لأرسططاليس ككتاب الكون والفساد وكتاب الحيوان والنبات وكتاب السماعي الطبيعي وغيرها من الكتب التي ألفها في ذلك وكأبي الوليد محمد بن رشد فيلسوف الأندلس الذي شرح جوامع كتب أرسططاليس في الطبيعية واللاهيات والمنطق وخلص له كتاب ما بعد الطبيعة وكتاب الأخلاق وكتاب البرهان وشرح كتاب السماء والعالم والنفوس وغير ذلك من كتب أرسططاليس . وجالينوس . ومنهم ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ صاحب « الفصل في المال والنحل وابن طفيل وقد قالوا عنه أنه أعلم زمانه في الفاسفة وهو من أساندة ابن رشد وصاحب القصة المعروفة حتى بن يقظان » توفي سنة ٥٨١ هـ

## التأليف والتدوين

لقد تبين مما سقناه في الكلام عن الحياة العقلية والثقافة في بلاد الأندلس مقدار عناية العرب هناك بنشر العلوم والمعارف والاشتغال بها بما جمعه الحاكم المستنصر في مكتبة قرطبة وما بذل من المال في مساعدة العلماء والأدباء واشتغال الخلفاء والأمراء أنفسهم بالعلم

والأدب . ومن أجل ذلك أيضا كانت قرطبة وغيرها من بلاد الأندلس العظيمة مقصد العلماء والأدباء والوافدين إليها من بلاد المشرق وقد حاك خلفاء بني أمية في الأندلس خلفاء بني العباس في بغداد في العناية بالعلوم والآداب واتبع سنتهم بعدم ملوك الطوائف . فكثرت الوفود على بلاد الأندلس من العلماء كما كثرت رحلة أهل الأندلس إلى بلاد المشرق في طلب العلم فكان لهذا الاتصال أثر عظيم في ترقية الحياة العقلية ببلاد الأندلس . وقد عمل على ذلك العلماء الذين رحلوا من هنا وهناك . فمن رحل من الأندلس إلى المشرق عبد الملك بن حبيب السلمي القرطبي صاحب الكتب الشهيرة وشارح تفسير موطأ مالك ( ولد سنة ١٧٤ وتوفي سنة ٢٣٨ هـ ) . ومنهم الفقيه المحدث يحيى ابن يحيى الليثي الذي قرأ الموطأ على الإمام مالك ولازمه هناك ( توفي يحيى بن يحيى سنة ٢٢٤ هـ )

ومنهم القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الجماعة بقرطبة ومنهم تقي بن مخلد صاحب التصانيف العظيمة في الفقه والحديث الذي روى عن مائتي رجل واتصل بالإمام أحمد بن حنبل . ومنهم الشيخ الأكبر محي الدين بن العربي الذي رحل إلى بلاد المشرق فدخل مصر وأقام بالحجاز ودخل بغداد والموصل وبلاد الروم وتوفي بدمشق سنة ٦٣٨ هـ . ومنهم الطبيب الشهير ضياء الدين أحمد بن البيطار المالقي الذي رحل إلى القاهرة وألف هناك كتابا جمع فيه تصانيف الأدوية وغيرها وسافر إلى بلاد الأغرقة وأقصى بلاد الروم والمغرب وعابن منابت الغابات وألف كتابه بناءً على تجاربه وقالوا عنه انه انتهت إليه

## معرفة تحقيق النبات وصفاته

وممن وفد الى الاندلس أبو علي القالي صاحب النوادر على الاندلس في أيام عبد الرحمن الناصر مرييا لابنه الحكيم وألف كتابه هناك ومنهم صاعد البغدادى اللغوى وفد الى قرطبة أيام المنصور بن أبي طامر . وألف كتابه النصوص فأثابه المنصور عايمه بخمسة آلاف دينار . ومنهم رزياب المغوى رئيس المغنين مولى المهدي العباسى تلميذ اسحق الموصلى الذى زاد فى العود وترا ونشر الغناء المشرقى ببلاد الاندلس .

الأدب واللغة : أما كتب الادب واللغة فن أشهرها كتب أبي علي القالي المتوفى ( ٣٥٦ ) وهى كتاب الامالى وكتاب النوادر . ومن الكتب النادرة كتاب العقد الفريد لآحمد بن عبد ربه ( ٢٤٦ - ٣٢٨ ) وهو من أجمع كتب الادب المعروفة ، وكتاب الذخيرة لابن بسام ، وهو كتاب جامع لذكر أدباء الاندلس وشعائهم ، يقع فى أربعة أقسام . القسم الاول فى أدباء قرطبة وماجاورها ، والثانى فى أدباء الجانب الغربى من الاندلس ، والثالث فى أدباء الجانب الشرقى والرابع فى من طرأ على هذه الجزيرة من الادباء . وهذا الكتاب من أجمع كتب الأدب وأوفاهها لذكر أهل الاندلس وأخبارهم وشعرهم ونثرهم . ومن كتب الادب المعروفة كتاب قلائد العقيان ، ومطمح الأنفس ، للفتيح بن خاقان الاشبيلي المتوفى سنة ( ٣٣٥ ) وهذم الكتاب من أشهر وأجمع ما كتب عن أدباء الاندلس ولولا أنها مسجعة العبارة لكنت من أجل الكتب فى موضوعها ، ومن كتب الأدب المسهب فى فضائل المغرب تأليف عبد الله بن

ابراهيم الحجارى . ومنها سراج الادب لابي عبد الله بن ابي الخصال  
رئيس كتاب الاندلس . صنّفه على منزع كتاب النوادر لابي على القالى  
وكتب الادب التى فيها علماء الاندلس كثيرة لا تكاد تحصى .  
اللغة والنحو : اشتغل أهل الاندلس بعلوم اللغة فصارع كثير  
منهم أهل المشرق فى ذلك ، وبعضهم فافهم فى تأليف المعجمات العظيمة  
كالأمام على بن اسماعيل المعروف بابن سيميه صاحب كتابي الحكم  
والمختص . وقد كان حافظا واعيا لكثير من قضايا اللغة ومفرداتها  
ومسائلها ، وكان ضريرا كأيّيه . «توفى سنة ٤٥٨» ومن علماء اللغة أبو  
بكر الزبيدي الذى اختصر كتاب العين ، وأبو على القالى صاحب  
الامالى وذيله .

وأخذ أهل الاندلس عن المشاركة النحو والرواية ، وكان فيهم  
أئمة انفردوا بالتأليف فى بعض مسائله . فمن العلماء المشهورين فى ذلك  
عمر بن محمد الشلوّيين وكان من أئمة اللغة وحفاظها ، ولد بـشبيلى سنة  
٥٦٢ وتوفى بها سنة ٦٤٥ ، ومنهم ابن مالك صاحب الألفية ، وابن  
خروف وابن عصفور وغيرهم .

أما علوم البلاغة فلم يجاروا فيها علماء أهل المشرق ، ولم يظهروا  
لهم تأليف خاص فى ذلك لأنهم اشتغلوا بالصناعة اللفظية وبخاصة  
علم البديع وأنواعه .

العلوم الشرعية : كان أهل الاندلس يرحلون إلى المشرق يأخذون  
عن أئمتهم ، وكانت عنايتهم بالعلوم الشرعية لا تفوقها عناية . ولذلك  
ظهرت لهم مؤلفات كثيرة فى الحديث والفقه والتفسير وكانوا على

مذهب مالك والاوزاعي ، وفي مدة الحكم بن هشام كانت الأحكام  
سائرة على مذهب مالك ولم يعمل بغيره .

فمن علماء التفسير أبو عبد الرحمن بن بلي بن مخلد القرطبي ، وكان  
من الحفاظ والمحدثين ( ٢٢١ - ٢٧٦ ) وكان من أشهر أئمة الحديث في  
الأندلس روى عن ألف وثلاثمائة راو ، ومنهم القاضي أبو محمد عبد الحق  
بن عطية الغرناطي ( ٤٨١ - ٥٤٢ ) ومن أشهر كتبه . الوجيز في تفسير  
الكتاب العزيز وهو من أجمل كتب التفسير ومنهم القاضي عياض  
إمام الأئمة في الحديث ولد بمدينة سبته سنة ٤٧٦ وولى القضاء بها  
وتوفي بمراكش سنة ٥٤٤ . ومن أشهر كتبه كتاب الشفا لتعريف  
حقوق المصطفى ، وطبقات الحافكين ، ومشاهد الأنوار في غريب  
الحديث . ومن الفقهاء عبد الملك بن حبيب السلمي القرطبي ( ١٧٤ - ٢٣٨ )  
كان فقيه عصره سكن قرطبة وزار مصر ثم عاد إلى الأندلس  
وتوفي بها . وكان من كبار فقهاء مذهب مالك طالما بالتاريخ والأدب  
ألف كتباً كثيرة منها طبقات الفقهاء وطبقات المحدثين وثقة سير موطأ  
مالك . ومن أشهر الفقهاء هناك يحيى بن يحيى الليثي الذي ذهب إلى  
المشرق والتقى بالامام مالك ورجع فنشر مذهبه كما سبق . ومنهم أبو  
الوليد الباجي . وكان الفيلسوف ابن رشد فقيهاً أيضاً ألف في الفقه  
كتاباً أسماه النهاية . وغير هؤلاء كثيرون .

أما علم الأصول ، وعلم الكلام فكان اشتغال أهل الأندلس بهما  
قائلاً ، لتفرغهم إلى العلوم الشرعية الأخرى ، كالفقه ، والحديث ،  
والتفسير وإلى علوم اللغة العربية ، وفنون الأدب ؛ فانهم لم يعنوا



عناية عظيمة بالجدل وعلوم الماسفة ، والمذاهب الدينية التي شاعت في بلاد المشرق بسبب اختلاط المشاركة بالفرس ، وإطلاعهم على علوم اليونان وبعد أهل المغرب عن ذلك

وأما التاريخ : فن المؤرخين أبو مروان حيان بن خلف ( ولد سنة ٣٧٧ وتوفي سنة ٤٦٩ ) وكتابه المسمى بالمتين أو المبين في تاريخ الأندلس في عشر مجلدات

ومما ألف في الجغرافيا كتاب المسالك والممالك لأبي عبد الله البكري ومعجمهما يستعجم من البقاع والاماكن أيضا .  
وللقاضى أبي القاسم صاعد بن أحمد الطليطلى كتاب التعريف بأخبار علماء الأندلس من العرب والعجم .

العلوم الرياضية والطب : وكان اشتغال أهل الأندلس بالرياضيات والطب والفلسفة أقل عناية من غيرها - كما قلنا - ، وظلوا على هذه الحال إلى أواخر القرن الرابع قال المقرئ في نفح الطيب « وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم ؛ فان لهما حظا عظيما عند خواصهم ، ولا يتظاهرون بهما خوف العامة ، فانه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطاقت عليه العامة اسم زنديق ، وقيدت عليه أنفاسه ، فان نزل في شبهة رجفوه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره إلى السلطان أو يقتله السلطان تقريبا لقلوب العامة وكثير ما يأمر بأحراق كتبه إذا وجدت . وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه ، وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك في الباطن »

وهذا موجد لبعض المشتغين بهذه العلوم .

فمن أشهر المنجمين ابراهيم بن ازراحيل الاسرائيلي من رجال القرن الخامس الهجرى . ويؤثر عنه أنه باشر عدة مرات رصدًا لتحقيق نقطتي الرأس والذنب من الارض . ومنهم جابر بن أفلح الاشبيلي الذي اختصر كتاب المجسطى لبطليموس ومن أئمة الفلاسفة أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد . تعلم في قرطبة ودرس بها العلوم الشرعية والطب والفلسفة والرياضة والفلك حتى قالوا عنه أنه أول من تنبه للسفح على وجه الشمس وكتب وألف فيها .

وبعد أن درس في قرطبة ذهب إلى مرا كش واتصل بأبي يعقوب يوسف أحد ملوك الموحدين وصار من أتباعه كما اتصل بالفيلسوف الشهير ابن طفيل ثم رجع إلى الاندلس تولى القضاء بقرطبة واشبهيلة وتوفي سنة ٥٩٥ . وعن ابن رشد أخذ أهل أوروبا كتب الفلسفة اليونانية ودرسوها وقد كانوا يجهلون بها قبله .

وكثير من هؤلاء كانت لهم قدم راسخة في الهندسة والمساحة والجبر وسائر العلوم الرياضية .

ومن فلاسفة الاندلس ابو محمد بن احمد بن سعيد بن حزم ولد بقرطبة سنة ٣٨٤ وتعلم علوم اللغة والدين حتى أصبح من كبار العلماء . وألف في الحديث والأصول والفقه وعنى عناية خاصة بدراسة المذاهب الدينية وعقائد الامم ونحلهم فألف في ذلك ومن أشهر كتبه كتاب «الفصل في الملل والنحل» ذكر فيه مذاهب الفلاسفة وعقائدهم وسرد

مذاهب الطوائف الاسلامية وكان مع ذلك عالما وأديبا وشاعرا وكاتباً  
توفي سنة ٤٤٦

وألف في الفقه والحديث ومراتب العلوم فكان اجمع اهل الاندلس  
قاطبة للعلوم الشرعية

ومن كتبه كتاب اخلاق النفس وكتاب مراتب العلوم  
ومن الفلاسفة ابن باجه السرقسطي المعروف بابن الصائغ توفي  
بمدينة فاس سنة ٥٥٣ وكان طبيباً شهيراً مولعاً بالموسيقى ووضع الاطمان  
وهو من أكابر العلماء في الفلسفة والرياضة والطب والموسيقى. ومنهم  
ابن طفيل الذي كان معاصراً لابن الصائغ. ويقولون إنه أول من قال  
بتدرج الحيوان إلى إنسان، وهو صاحب الرسالة الشهيرة التي سماها  
« حى بن يقظان » ومن تلاميذه أبو الوليد محمد بن رشد المذكور آنفاً  
وقد ألف ابن طفيل في الطب وخلص بعض مؤلفات جالينوس في  
الأمزجة والعلل والحميات.

ومن أطباء الأندلس بنو زهر وهم : أبو العلاء بن زهر وابنه  
أبو مروان عبد الملك، وأبنته أبو بكر. وعبد الملك هذا هو صاحب  
كتاب التيسير، وكتاب الأغذية اللذين كانا لهما شهرة عظيمة في  
المشرق والمغرب

ومن المشتهين بالعلوم النباتية ابن البيطار واحد أهل عصره في  
معرفة النبات، سافر إلى بلاد الأغر يق وأقصى بلاد الروم والمغرب،  
 واجتمع بكثير ممن يعاونون هذا الفن، وكان منابته وتحيته. ومنهم أبو  
القاسم خليف بن عباس الزهراوي المتوفى سنة ٥٠٠ من الهجرة، كان

أشهر أطباء زمانه ، صاحب كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف .  
وهو أول من ألف في فن الولادة ، ورسم في كتابه آلات الجراحة .

## النثر في الأندلس

كان الشعر في أكثر عصور اللغة العربية أشهر من النثر . ولذلك  
كان الشعراء أشهر من الكتاب . لأن البلاغة في الشعر أظهر ، والأخيلة  
فيه أبين ، وقراء العربية كانوا إلى التأثير بهذه الأساليب والصناعة  
أقرب . وكانوا يفهمون من الأساليب ما لا يفهمون من الموضوعات  
ومعانيها وأغراضها .

ومع أن النثر كان أقل من الشعر انتشاراً من حيث الاعتماد عليه في  
الاستدلال على أساليب العرب وصحة لغتهم ، فقد تنوعت مناحيه ،  
وظهرت له مذاهب وطرق ، كذهب ابن المقفع وطريقته ، ومذهب  
الجاحظ وأسلوبه ، وطريقة ابن العميد والحريري ، وغيرهم كلهم معروف  
أما في الأندلس فقد دخل العرب هناك بعصبية لغتهم العربية ، ونفوسهم  
تغلي كالمرجل من جراثيم الفتن والاحقاد التي انشرت ببلاد المشرق ،  
فاشتغلوا بالفتح ومد ساططهم ونشر الدعاية لحكمهم ودينهم ، وقع الفتن  
والتغلب على أعدائهم ، وبث الحماسة في نفوس الجنود والقواد . بل كانت  
هناك فتن ثار عجاجها بين الامراء ، الفاتحين ، بايقتها الاطماع والضغائن  
بين القبائل اليمنية والمضرية مدة حكم الامراء في الاندلس . فكان كل  
هذا مدعاة لاستفزاز النفوس ، لالقاء الخطب الحماسية وكتابة الرسائل  
على نحو ما كانوا يكتبون ويخطبون في بلاد المشرق . فلم يكن للكتابة

الفنية مجال طيَّال عصر الامراء وشطر عظيم من عصر الدولة الاموية فكانت الكتابة متصورةً على الرسائل والخطب السياسية ، وكانت هذه هي أنواع النثر ، لان القوم لم يكونوا قد اشتغلوا بعد بالعلوم ولا بأنواع الآداب الاخرى التى تفسح المجال للكتابة الادبية كالقصص والرسائل المنمقة ، كما كانت الحال منذ أواخر القرن الثانى .

وكان لكل وال أو أمير كاتب يتولى الكتابة ويكتب بأرشاد سيده ، وكانت أساليبهم جزلة رفيقة كما كانت الحال فى بلاد المشرق . قال المقرئ : « وأما الكتابة فهى على ضربين : أعلاها كتب الرسائل ، وله حظ فى القلوب والعيون عند أهل الاندلس ، وأشرف أسمائه : الكاتب ؛ وبهذه التسمية يخصه من يعظمه فى رسالة ... والكاتب الآخر كاتب الزمام ... الخ » ومن كتاب هذا العصر أمية بن يزيد كاتب الأمير يوسف الفهرى الذى كان والياً قبل عبد الرحمن الداخل . وقد كتب أمية لعبد الرحمن أيضاً ، ومنهم أبو عثمان عبد الله كتب لعبد الرحمن الداخل أيضاً ، وكان عبد الرحمن نفسه كاتباً ،

وكان أسلوب الكتابة فى العصر الاول عربياً خالصاً من كل شائبة اعجمية ، لأن الكتاب من أمراء ووزراء كانوا عرباً خالصاً لم تتطرق العجمة إليهم لعدم اختلاطهم بالأعاجم : وعدم تأثيرهم بغير علوم العرب وآدابهم ، فكانت كتاباتهم جزلة سهلة غير متكلفة خالية من ألفاظ التعظيم والتبجيل والملق ، قائمة السجع إلا ما كان عفواً أشبه بما كان فيه تكتب فى عصر بنى أمية ببلاد المشرق .

ومن نماذج الكتابة فى هذا العصر « كتاب يوسف بن عبد الرحمن

الفهرى إلى عبد الرحمن الداخل وهو :

« أما بعد ، فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب ، وتأشب من تأشب  
إليك ، ونزع نحوك من السراق وأهل الختر والغدر ، ونقض الإيمان  
المؤكدة ، النى كذبوا الله فيها وكذبونا ، وبه جل وعلا نستعينه عليهم ،  
ولقد كانوا معنا فى ذرا كنف ، ورفاهية عيش . حتى غمطوا ذلك واستبدلوا  
بالأمن خوفاً ، وجنحوا إلى النقض والله من ورائهم محيط ، فأل كنت  
تريد المال وسعة الجناب فأنا أولى بك ممن لجأت إليه ، أكنفك  
وأصل رحلك ، وأنزلك معى إن أردت أو بحيث تريد ، ثم لك عهد الله  
وذمته على ألا أغدرك ، ولا أمكن منك ابن عمى صاحب أفريقية  
ولا غيره ، »

وكتب بدر مولى عبد الرحمن الداخل إلى سيده ، وقد هجره .  
« أما كان جزائى فى قطع البحر وجوب الفقر ، والافدام على  
تشتيت نظام مملكة وإقامة أخرى غير الهجر الذى أهاننى فى عيون  
أكفائى ، وأشمت بى أعدائى ، وأضعف أمرى ونهى عندهم يلوذنى ،  
وبتر مطامع من كنت يكرمنى ويخذمنى على الطمع والرجاء ، وأظن  
أعداءنا بنى العباس لو حصصت بأيديهم ما بلغوا بى أكثر من هذا . فأنا لله  
وإننا إليه راجعون »

فلما وقف عبد الرحمن على رقعته اشتد غضبه ووقع عليها :

« وقفت على رقعتك المنبئة عن جهلك وسوء خطابك ، ودناءة  
أدبك ، ولئيم معتقدك . والعجب أنك متى أردت أن تبنى لنفسك  
عندنا متاناً ، أثبت بما يهدم كل متات مشيد . بما تمن به ، بما قد أهجر

الاسماع تكراره ، وقد حمت في النفوس إعادته ، مما استخبرنا الله تعالى من أجله على أمرنا باستئصال مالك . وزدنا في هجرتك وإبعادك ، وهضنا جناح إدلالك . فلعل ذلك يجمع منك ، ويردعك حتى نباغ منك ما نريد إن شاء الله تعالى فنحن أولى بتأديبك عن كل أحد ، إذ شرك مكتوب في مثالبنا ، وخيرك معدود في مناقبنا .

وكتب المنذر بن الأمير عبد الرحمن الأوسط إلى أبيه يستعطفه وكان قد نفاه إلى مكان موحش لسوء خلقه وكثرة إصغائه للوشاة :-

« إني قد توحشت في هذا الموضع توحشاً ما عليه من مزيد . وهدمت فيه من آنس إليه ، وأصبحت مسلوب العز ، فقير الأمر والنهي . فان كان ذلك لذنوب كبير ارتكبتها . وعامه مولاي ولم أعلمه ، فاني صابر على تأديبه ، ضارع إليه في عفوهِ وصفحهِ :

وإن أمير المؤمنين وفعله لكدهر لا طار بما فعل الدهر  
ومنذ أوائل القرن الثالث أخذ خافاء بني أمية يفسحون صدورهم للعلماء والأدباء والشعراء مجازاة لخلفاء العباسيين في بغداد ، فكثر الوافدون من بلاد المشرق إلى الأندلس من أهل العلم والأدب ، ووفد كثير من أهل الأندلس إلى المشرق لورود مناهل العلم هناك ، وأيسعت معالم الحضارة في الأندلس وكثرت المدارس والمسكبات كما رأينا . وديت الترف في كل مرافق الحياة . وكثرت مجالس العلم والأدب ومظاهر اللهو والطرب والمجون ، فضيغت العقول بصبغة فنية أدبية بما نقل هناك من علوم وفنون ، وما كان لديهم من جمال

الطبيعه ومظاهر الحضارة . فأحدث هذا كله نوعاً جديداً في التفكير والادراك، وتهذيب المشاعر وسعة الاُخيلة. وتمثل ذلك كله في الكتابة فسالت أقلام الكتاب بمظاهر هذه الحياة، ودخل النثر في طور جديد لأن كل هذا كان عاملاً من عوامل التجديد في شحذ ملكة الكتابة الفنية التي لم تعرف قبل ذلك هناك، إذ بعد أن كان النثر مقصوراً على المراسلات والخطب السياسية لا غير انتقل الى طور جديد

فلم تقتصر الكتابة الدثرية على الدواوين والرسائل، قصيرة كانت أو طويلة . مستبعدة أو مرسلية، في العشق والغرام . أو في الذم واللوم، أو في المدح والاستعطاف وغير ذلك مما ظهر لأول وهلة أنه ليس من الموضوعات الممتعة، والمعاني العامة الاجتماعية، بل شمل كل شيء في الاجتماع هناك، وكان المظهر المادي والمدنية والحياة العقلية والسياسية والعلمية. وكان أثره في الأدب والبلاغة كأثر الشعر، لاشتماله على كثير من أغراض الكتاب . كوصف المباني الفخمة من مساجد وكنائس، وقصور وآثار، وما فيها من صور وتماثيل . وكوصف الأشياء الجميلة التي غنموها أو عملوها بأيديهم. ووصف محافل الأمراء والخلفاء وأبهة الملك. والمجادلات والمخاصمات، ومجالس العلم والأدب وطرق الموضوعات العامة الاجتماعية والفلسفية، بشكل قصصي، كما في رسالة « حى بن يقظان » لابن طفيل . وكتابة الحقائق في أسلوب قصصي خيالي، كما في رسالة الوزير أبي عامر أحمد بن مروان بن شهيد، التي هي من نوع رسالة الغفران، وكأل رسائل الطويلة المملوءة بالمعلومات التاريخية، كرسالة أبي محمد بن حزم الحافظ التي ذكر فيها بعض فضائل أهل الأندلس من



علماء وأدباء وحكماء ومؤرخين ، وسرد فيها آثارهم ومؤلفاتهم . ثم تلك الرسائل الفريدة في بابها التي هي من نوع رسائل ابن زيدون . ثم كتابة الفتح بن خاقان . ولسان الدين بن الخطيب وما يشابهها مما لم يكن مثله كثيرافي بلاد المشرق ، بل بعض هذه الانواع لم تكن معروفة

وكانوا يصفون في كتاباتهم نفوس الكبراء والامراء والقيادات ، وكانوا يكتبون في المناظرات الخيالية ، كالمنظرة بين السيف والقلم لابن برد الاصغر . وكانا نظرة بين بلدان الاندلس لابي بحر صفوان بن ادريس التي كتبها للأمير عبدالرحمن بن السلطان يوسف بن عبدالمؤمن . وكما كتبوا في الدعوات والارشاد والتوسل إلى الرسول : وفي شعائر الحج . وكانت لهم أساليب في الزهد والأسرار الربانية . عرف الكتاب كيف يتعمدون فيها ألفاظ الزهد والتصوف ، « من فلك المعرفة في الملكوت ، ونجوم الحكمة في الجبروت ، ودياة القدس . ولباس التقوى والصراط المستقيم » وغير ذلك من ألفاظ الغيبيات وأساليب ما وراء المادة . وفي جوار ذلك تجدهم برعوا في أساليب اللهو والمجون ، كما بعث بعض الكتاب بآثرجة وكتب معها كتابا يقول فيه :

« قد بعثت إليك من بنات الثمار أجلها ، ومن نتائج البستان أفضلهما ؛ فشربت على وردها رطنين ، وتناولتها بالراحتين ، فبحرمة الكأس التي رضعناها ، إلا مارفعت قدرها ، وجعالت القبول مهرها ، وجعلتها على مجلس المدام ، وحجبتها عن عيون اللئام ، فخالها عجيبة . وصفاتها غريبة ، إن خزنتمها عطرت أثوابك ، وإن أمسكتها أذهبت أوصابك ، إن أعملت فيها غرب السكين ، قرنت لك بين النرجس والياسمين وأرتك الكنب عن

وجه الحبيب . يالها من أترجة غضة ، قد صورت من ذهب وفضة .  
 رقت من العاشق سباه ، ومن المعشوق طعم ثناياه »

ولهم عبارات تحسب من الخيالات الجميلة والسجع المتكلف السائغ  
 للنفس تذوقه؛ مثل قولهم « خرج الوزير أبو بكر بن عمار مع الوزير  
 أبي الوليد بن زيدون ومعهما الوزير ابن خلدون من أشبيلية إلى منظرية  
 لبني عباد بموضع يقال له الفت . تحف به مروج مشرقة الأنوار ، متنسمة  
 الانجساد والأغوار ، متنسمة من ثغور النوار ، في زمان ربيع . سقت  
 الأرض السحب فيه بوسيمها ووبلها ، وحلاتها من زاهر ملبسها وباهر  
 حليها ، وأرداف الربى قد نأزرت بالازار الأخضر من نباتها . وأجباد  
 الجداول قد نظم النوار قلائده حول لباتها . ومجر الزهر تعطر أردية  
 النسائم عند هباتها . وهناك من البهار ما يزهى على مداهن النضار  
 ومن الترجس الريان ما يهزأ بنواعس الاجفان . وقد نوا الانفراد لاهو  
 والطرب ، والتنزه في روضى النبات والأدب ، وبعثوا صاحباهم يسمى  
 خليفة هو قوام لذتهم ونظام مسرتهم ... الخ »

وبرعوا كذلك في فن المقامات . ولأبي حفص عمر بن الشهيد :  
 فصول جيدة في ذلك ، تشبه ما عند الفرنجة الآن ، أو يشبهها ما هو عندهم .  
 وفيها أوصاف خيالية تدل على براعة في انتقاء الألفاظ المعاني ، وأمعان  
 في الصناعات وضروب الخيال ، كقول أبي حفص بن الشهيد :

« وقد صحبتكم مدة . وسبحت الله على رؤوسكم مرارا عدة ، أوقظكم  
 بالاسحار وأوذن بالليل والنهار ، وقد أحسنت لدجاجكم سفادا : وربيت لكم  
 من الفراريج أعدادا ، فالآن حين بلى في خدمتكم تاجي . أنعى إلى دجاجي .

وتنحى الشفرة على أوداجي . وحين أدركنى المشيخ ، يمزق لحى ويطيخ .  
يا للكرام من ذل هذا المقام ، وجعلت دموعه تسفح من دمه . والحزن  
يطبق على فمه . ثم غشى عليه . فاجتمعت الناس إليه ، يضربون وجهه  
بالماء . ويخلصون له فى الدعاء ، ثم أفاق من غشيته . وأنشد :

سلام يقتل شيخ من كل ذنب برى  
محقق متحد موحد منى  
هل نص هذا كتاب أو قال هـ ذا نبى  
لا ذنب لى غير أنى مؤذن بدوى

فرقت له نفس القوم . وأقبلوا على صاحب المنزل باللوم . فقال  
ويحكم ، إن هذا الديك ذو نخذ وصدره قد أصابتنى عليه ضجرة  
ولى فى ذبحه سر ، ولا بد أن تزين به قدر ، وتضرم تحته النيران ، ويشبع  
من لحمه الضيفان . أما تروونه قررة العين والقلوب . سبيكة لجين . وتمثل  
ومن شيمتى مهما تزين منزلى <sup>الشيخ</sup> <sup>معد</sup> <sup>لصيق</sup> أن أقرئه أحسن ما عندى  
لو أن دى خمرأ لأرويته به ولو صليت كبدى شويت له كبدى  
بذلك أوصانى أبى مذ عقلته وقد كان أوصاه بذا قبله جدى  
فقال الديك : لا أكذب . الحق طريق مستبين ، واتباعه مروءة  
ودين . أما أنه على خاق عظيم ، كريم ابن كريم . غير أنه لؤم فى أمرى  
وأفرط وغلط ما شاء أن يغلط . أما علم أن هرما ت الديوك ، ليست من  
مطاعم الملوك ، وأنها بالادوية أشبه منها بالاغذية وأقسم لو اتخذ  
برمة من فؤاد مهجور ، ووضعنى من مثله على تنور ، لأقضى به حاجة  
م هـ - أدب

ولا عدم منى فقرا ومجاجة . فزكى قوله من حوله ، ولم يألوه تعظيما ،  
واتخذوه من ذلك لليوم حكيمًا ، وصرف البدوى من الطافه ، ما أحسن  
منه قرى أضيافه ، وختم توبة بره ، بالرغبة فى بسط عذره وسمعنا منه  
ورحلنا سحرا عنه . . . إلى أن قال

فأصغيت فإذا أنا بصوت ناقوس فى دير قسيس ، وقرية كاهانة  
دار البطاريق : وماعب الكأس والابريق . سائمتها خنازير وحياضها  
المعاصير : ومياهها الأنينة والخمر . وشكلها مثلث مسطوح هندستها  
حوارى نباتها غصون من قدود تهتز فى أوراق من برود . وتثمر رمانا  
من نهود وتفاحا من خدود ، وعقارب من أصداغ . وأفاعى من أسورة  
وعقود ، وفيها مدام من رضاب . وشفاه من كواعب أتراب ، وغيد  
تهوى بقرط ، وارتجاج لكثيب فى مرط ، وجولان النطاق ، وعض  
الخلخال فى ساق ، وخنث فى ألفاظ ، ومواعيد بالحاظ ، وقلوب تكلف  
وتشغف ، ونفوس ، تنشأ . وأخرى تتلف . فلما كثر تحدثنا بحضرة  
الفقيه من هذا التشبيه ، قطبنا له وجوه الاستكراه ، وعضضنا له الشفاه  
فبينما نحن كذلك نكثر لغطا ، ونرى الحلول بالمستحسن غلطا ، إذ  
نظرنا إلى أطراد صفوف من أعطاف حسنة ، وخصور هيفه ، وشموس  
وأقمار ، على أفلاك جيوب وأزوار : لاسيوف إلا من مقل ولا درق إلا  
من عجل . ولا عارض إلا من خلوق ، وأقسم بنعة قدود من الأجز متم  
النية ، وثنيتم الاعنة ، تعريجا علينا إلبنا ، وتحكما فى المال والولد لدينا .  
فكرمت الشفاعة ، وقلنا السمع والطاعة . »

وتجد لهم كلاما مسجعا هو من السهل الممتنع مع رقة فى اللفظ

وجزالة في المعنى ، وطولا لا يمل ، وصراحة في القول ، وحرية في الفكر  
كما في رسالة لابن الحداد :

« لما كان الكتاب أعزك الله جلالة الاقضاء ، وصقال لاصاءه . وعقال  
الادواء ، وسميتني منه بوسام ، ولفحتني منه بسوم . وأمررت حسوا  
في ارتغاء ، وأدجت ذما في ثناء ، والحر يأنف من الضيم . ويشمئز من  
الدم . ولا يقتصر على الاجتزاء ، بغير الجزاء ، ولو ترك القط ليلا لنام  
وفي العتاب حياة بين أقوام . فاصطبر لشرب صبره . وانتدب لتسوغ  
مره . فمن الحكم العدل والقضاء الفصل . أن أذكك بما لذعتني  
وأجرعك ما جرعتني . غير آفك في حال . ولا مباهت بمحال . والتمويه  
ليس خلق الكاذب النبیه . والحر على ما أساء يصبر . وكل مجر في الخلاء  
يسمر . والفضل ان حواه . لا بان زخرف دعواه . وتحقيق البرهان ،  
غير تنميق البيان . والسؤدد في محاسن الخلال والفعال . لا في امكان  
الزمان ، وإقبال السلطان . وقيمة كل امرئ ما يحسن . أمثال أضربها  
عليك واضحة المناهج . ومقدمات أنشأتها معك ، صادقة النتائج وجل  
تشمعل على تفصيل حالينا ، ونبذ تشير إلى ما فيه جرينا . وقد قابلني  
عتابك . واجلابك . بريح تعصف ورعد يقصف ، واستقبلني خطابك  
وأطنابك بوبل يخسف . وسيل ينسف . بلغ الزبي وزاد . وغمر الزبي  
والوهاد ... الخ »

وأحيانا تجدهم وصلوا إلى درجة في النثر لا تفرق بينها وبين الشعر  
إلا في الوزن وقواعد العروض ، كما في رقعة شفاعة كتبها أبو المغيرة  
عبد الوهاب بن حزمي : « إذا شرب روض الشكر من حوض البر ، وأطلع

من الزهر ما ينجبل مسك الغرر . وتنسم عن نسيم ، يشفى حرارة القلوب  
الهيم ، ولم يزل يجرى خلف الطلب ، بيد الادب ، ويسرى في ظلام  
الأشور بسراج المنظوم والمنثور .. الخ « الذخيرة جزء » ا

ومن السجع الجميل والأساليب الممزوجة بالحقيقة والخيال أسلوب  
ابن بسام في الذخيرة وترجمته الأدباء والشعراء . كقوله في ترجمة ابن  
شهيد : « كان أبو عامر شيخ قرطبة وفتاها . ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاها  
ينبوع آياتها ، ومادة حياتها وأسانها ومعنى أسمائها ومسمياتها . نادرة  
الفلك الدوار ، وأعجوبة الليل والنهار . ان هزل فسجع الحمام ، وإن جد  
فزير الاسد الضرغام . نظم كما انشق الدر على النحور ، ونثر كما خلط  
المسك والكافور .. الخ . »

ونجد مع هذه الرقة اللفظية والذوق الأدبي الفني ، أنواعا من  
الرسائل الطويلة المسجوعة سجعا متكلفا مملا ، مملوءة بالعمل ، كثيرة  
الصناعة ، قليلة المعاني . وإمام هذه الصناعة لسان الدين بن الخطيب .  
والفتح بن خاقان طريقته معروفة في كتبه حتى أصبح السجع طابعا  
من طوابع الأدب العربي في الأندلس وتسلل الفقهاء مناهب الخطابة  
والكتابة . فنفعوا الأدب بنفحة جافة جف من أجلها عوده ، حتى  
كسر أو كاد يكسر . وبلغ هذا منتهاه في أيام ابن تاشفين .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن الأندلس لم يخرج من صبغته  
العامة وهي الاعتماد على الخيال والصناعة اللفظية . فإن الكتاب  
حاولوا كما قلنا طرق الموضوعات العامة كالقصص والحكايات الخيالية  
كما في رسالة لابن شهيد على لسان الاوزة ، والمناظرات وغيرها ، وابتكروا

هذه الأساليب في النثر كما ابتكروا أساليب الموشحات في الشعر .  
 أما طول الكلام والاطناب فيه ، فينادي يكون عاما في جميع  
 كتاباتهم . وبعض هذا الطول يعد من الأمور الفنية البحتة ، والافتنان  
 في التصور والخيال ، وبعضه ممل سقيم ، يدل على تمكن الصناعة لا غير  
 في نفوس الكتّاب والعناية بالألفاظ والسجع ، بل يدل على انحطاط  
 ملكة البلاغة ، كما في كثير من كتابات لسان الدين بن الخطيب والفتح  
 ابن خاقان وغيرهم من الكتّاب .

وجملة القول أنه يمكن معرفة حالة النثر بالاندلس ، ودخوله  
 البلاد بخطبة طارق بن زياد ، التي قلنا أنها أول صوت سمع هناك من  
 بلاغة العرب وأول غرس من غرسها . فهذا كان نموذج النثر والخطبة  
 في تلك الايام الى أواسط دولة بني أمية . لأن الوافدين جاءوا من المشرق  
 الى المغرب ، والدولة عربية في بيت بني أمية ، وروح البلاغة العربية  
 البدوية كانت تجول في نفس كل خطيب وكاتب وشاعر فالذين هاجروا  
 الى بلاد الاندلس في الازمنة الأولى كانوا لا يزالون أعزاً في أفكارهم  
 وأخيلتهم وأساليبهم . ولذلك نجد النثر في تلك المدة يشبه كثيراً نثر  
 الامويين في المشرق ، وخطبائهم في الاندلس أشبه بخطبائهم في الشام .  
 وبلاد العرب . ولما كثرت الوافدون على الاندلس من المشرق نقلوا اليها  
 طريقة النثر المسجوع ، والصناعة اللفظية ، والتنميق في الكتابة .  
 وسرى هذا في كل أغراض الكتابة ، حتى في الكتب الفنية والعلمية ،  
 من تاريخية وغيرها . ومن تراجم للعلماء والادباء ، ومن كتب جدية  
 وهزلية ونعود فنقول كان النثر في الاندلس يشتمل على أكثر ما كان

معروفا في بلاد المشرق من الموضوعات أو الأغراض بل قد يمتاز ببعض هذه الأغراض الخيالية كالمحاورات بين الأزهار بعضها بعضها وبين البلدان في تفضيل بعضها على بعض وقد يكون هذا النوع من خواص الأندلسيين أو من مبتكراتهم ، كما جاء ذلك في رسائل أبي حفص بن برد الأصغر . فنجد في نثر الأندلسيين الرسائل السياسية والاجتماعية والقصص الخيالية . التي تحاكي المقامات والمحاورات وغيرها مما جاء في رسائل ابن شهيد .

ومن أشهر كتاب الأندلس أمية بن يزيد كاتب يوسف الفهري . آخر أمراء الأندلس قبل الدولة الأموية وعبد الله بن عثمان كاتب عبد الرحمن الداخل والوزير أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد وزير الناصر وأبو عبد الله محمد بن عبد العزيز كاتب المنصور بن أبي عامر . والوزير أبو حفص أحمد بن برد كاتب المنصور .

ومن أشهر الكتاب زمن ملوك الطوائف الوزير أبو عمر الباجي وأبو محمد بن عبد البر . وأبو الوليد بن زيدون ومن كتب للملوك البربر ، الوزير أبو المطرف بن الدباغ والوزير أبو عبد الله بن أبي الخصال أشهر كتاب الأندلس في وقته وأبو المطرف بن عميره والفتح ابن خاقان ومن أشهر الكتاب لآخر دولة المسلمين هناك لسان الدين ابن الخطيب . وزير وكاتب السلطان أبي الحجاج يوسف أحمد ملوك بني الأحمر وابن زمرك تلميذه .



## الخطابـة

تـحسب الخطابة في الادب العربي من أنواع النثر المعروفة . بل قد تكون في بعض العصور النوع الوحيد الذي عرف من الكلام العربي المنشور الموثوق بصحة روايته ، كما في العصر الجاهلي . وقد يكون أكثرها وأعمها وأعظمها تمثيلاً للغة العرب ونوع التفكير لديهم كما في العصر الاسلامي الأول وعصر بني أمية وزهاء مائة عام من أيام بني العباس . وكل زمن من الأزمنة التي ساد فيها نفوذ العرب والروح العربي والنبرة العربية انتشرت فيها الخطابة ولا سيما أيام الفتح واستثمار روح العصبية في ذلك . لأن العرب أهل فصاحة وبيان . فكانوا يتخذون الستهم عدة وعونا . فكانت الخطابة في مقدمة أنواع الكلام تزاخم الشعر ويزاحمها في الوصول الى قرارة النفس والاستيلاء على العقل . حتى أن الادباء عندما أرادوا أن يقسموا كلام العرب الى منظوم ومنثور جعلوا من أنواع المنشور الخطابة وقدموها على القصص ، بل لم يذكروا القصص في هذا التقسيم . للملازمة الخطابة لهم في فتوحاتهم ومجالسهم ومحافلهم .



فلما دخلوا الاندلس كانوا أحوج ما يكونون الى الخطابة لبث روح الشجاعة والحماسة في روح الجند ، وإيقاظ العصبية العربية والتفاني في سبيل نشر الدين وسعة الملك . كما رأينا ذلك في الخطبة المنسوبة الى طارق بن زياد .

وقد أنتشر هذا الروح الخطابي زمن الفتح مدة الولاة وفي عصر الدولة الاموية لاحتياجهم الى الخطابة في هذه العصور في ميادين الحماسة والمحافل وأستقبال الوفود . وكان من بين الخطباء من الولاة يوسف بن عبدالرحمن الفهرى ، ومن ملوك بنى أمية عبدالرحمن الداخل وعبدالرحمن الثانى . وكان محمد المنصور بن ابى عامر المعافرى (توفى سنة ٣٩٤) من مشهورى الخطباء . ومن أشهر الخطباء قاضى قرطبة منذر بن سعيد البلوطى . (توفى سنة ٣٣٥) كان خطيب عبد الرحمن الناصر ، ومنهم ابو عبد الله بن الفخار قاضى مالهه زمن يوسف بن تاشفين وغير هؤلاء كثير ممن كان بعضهم من الولاة أو القضاة أو الفقهاء أو الادباء .

ولم ينحط أمر الخطابة في بلاد المغرب إلا قبل زمن البرابرة ، حين أخذت العصبية العربية . وانتشرت العجمة على الألسنة . وساءت الصناعة فى الكلام ، ولم يعد هناك حاجة لها ، واقتصر منها على الخطب فى المساجد .

وجملة القول أن الخطابة مرت بأدوار ؛ فكانت أول الأمر ترمى إلى تأييد العصبية وبث الشجاعة فى نفوس الجند ، ولما اتسع ملك بنى أمية هناك ، وذاعت العلوم وانتشرت المناظرأت فى المجالس والمحافل أمام الخلفاء من بنى أمية ، والأمرأ من ملوك الطوائف نشأت أغراض أخرى فى الخطابة . ولما ملك البربر الأندلس انحط شأنها لجهل هؤلاء باللغة وانطفأ شعلة الحماسة العربية فى النفوس ؛ ولم يكن هناك غير خطباء المساجد .

وبعد أن كان أساليبها جزلة سلسلة أصبحت متكافة مسجعة العبارة على أثر انتشار السجع في أساليب الكتابة النثرية الأخرى . وأكثر الخطب المعروفة لا تحسب في شيء من التفكير الصحيح ، ولا من الكلام الجيد ، ولا من الأدب الناضج ، ولا من أساليب الكتابة الفنية .

وليس لدينا ما يدل على عظم أمرها ، ولا على حلولها المحل الذي كانت لها في بلاد المشرق في أي عصر من عصورها هناك : إذ لبس لدينا شيء من كلام الخطباء يدلنا على ما كان لها من منزلة أو شأن رفيع في الأدب العربي ؛ ولم يعرف أحد هناك بأن مكانته في ذلك كانت أشبه بما كان لأبي بكر أو عمر أو علي ، أو معاوية أو الحجاج أو زياد أو أبي العباس السفاح أو المأمون ؛ أو غيرهم من مشهورى المشرقيين ، في أي دولة من دول الإسلام وأكثر من اشتهر من خطباء الأندلس كانوا من الفقهاء لا من الأدباء والفصحاء ؛ وربما كان أشهرهم جميعا منذ بن سعيد البلوطي ، وكلامه يدل على بعده عن تذوق البلاغة ، وأنه ليس من رجال الأدب أو الفصحاء .

وهذا شيء من خطبته في حضرة عبد الرحمن الناصر غند وفود ملك الروم إليه ، وقد ارتج على غيره من الخطباء لهيبة الموقف ؛ فقام سعيد بن المنذر وقال هذه الخطبة وهي من الخطب الطويلة التي تدل على روح ذلك العصر في الخطابة وأسلوبها المتكاف الذي هو أول ما يدل على روح الفقهاء وآرائهم قال .

« أما بعد حمد الله والثناء عليه والتعداد لآلائه والشكر لنعمائه

والصلاة والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه ، فإن لكل حادثة مقاما ولكل مقام مقال وليس بعد الحق إلا الضلال ، وأنى قرقت فى مقام كريم ، بين يدى ملك عظيم ، فاصغوا إلى معشر الأئمة بأسماعكم ، وافقهوا عنى بأفئدتكم ، ان من الحق أن يقال للمحق صدقت وللمبطل كذبت وان الجليل تعالى فى سمائه وتقدس بصفاته واسمائه ، أمر كلمه موسى صلى الله على نبيينا وعليه وعلى جميع أنبيائه أن يذكر قومه بأيام الله جل وعز عندهم ، وتلافيه لكم بخلافه أمير المؤمنين التى لم تشعركم ، وآمنت سربكم ، ورفعت قوتكم بعد أن كنتم قليلا فكثركم ، ومستضعفين فقواكم ومستذلين فنصركم . ولاه الله رعايتكم وأسند إليه إمامتكم أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق ، وأحاطت بكم شعل النفاق حتى صرتم فى مثل حذقة البعير من ضيق الحال ونكد العيش والتقليد ، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء ، وانتقلتم بيمين سياسته إلى تمهيد كنف العافية بعد استيطان البلاء . أنشدكم بالله معاشر الملائم تكن الدماء مسفوكه فقتلها ، والسبيل مخوفة فأمنها ، والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها ؟ ألم تكن البلاد خرابا فعمرها ، وثغور المسلمين مهتزمة فخماها ونصرها ؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته ، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته ، حتى أذهب الله عنكم غيظكم وشفى صدوركم وصرتم يدا على عدوكم بعد أن كان بأسكم بينكم . فانشدكم الله ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقها من عقالها ؟ ألم يتلاف صلاح الامور بنفسه بعد اضطراب أحوالها ولم يكل ذلك إلى القواد والاجناد حتى باشروا بالقوة والمهجة والاولاد ، واعتزل النسوان وهى الاوطان ورفض الدعة وهى

محبوبه وترك الركون إلى الراحة وهى مطلوبة ، بطوية صحيحة وعزيمة صريحة وبصيرة ثابتة نافذة ثاقبه وريح هابة غالبة ونصرة من الله واقعة واجبة وسلطان قاهر وجد ظاهر وسيف منصور تحت عدل مشهور متحملا للنصب مستقلا لما ناله .

ومن خطبة لآبى عبد الله بن الفخار يشكو بعض الخارجين أمام يوسف بن تاشفين .

« إنه لمقام كريم نبدأ فيه بحمد الله على الدنو منه ، وذصلى على خيرة أنبيائه محمد الهادى إلى الصراط المستقيم ، وعلى آله وصحابة نجوم الليل البهيم :

أما بعد فأنا نحمد الله الذى اصطفاك للمؤمنين أميراً ، وجعلك للدين الحنيف نصيراً وظهيراً ، ونفزع إليك مبادئنا فى حماك ، ونبت إليك مالحقنا من الضيم ونحن تحت ظل علاك . ويأبى الله أن يدهم من احتسى بأمر المسلمين . ويصاب بضيم من أدرع بحصنه الحصين بشكوى قت بها بين يديك فى حق أميرك الذى عضده مؤيدة لتسمع منها ما تختبره برأيك وتنقده . وأن قاضيك ابن الوحيد الذى قدمته فى مالقة للأحكام ورضيت بعدله فيمن بها من الخاصة والعوام . لم يزل يدل على حسن اختيار بحسن سيرته . ويرضى الله تعالى ويرضى الناس بظاهره وسريته ماعلمنا عليه من سوء ، ولادريناه موقف خزى ، ولم يزل جارياً على مايرضى الله ويرضيك ويرضينا ، إلى أن تعرض بنو حسون إلى الطعن فى أحكامه ، والهدم من أعلامه ؛ ولم يعلموا أن اهتضام المقدم راجع إلى المقدم بل جمعوا فى لجأهم فعموا وصموا وفعلوا وأمضوا ما به هموا . وإلى

السحاب يرفع الكف من جف عنه مسيل عين ونهر ، فكف يد بني  
حسون عنه .

## الشعر في الاندلس

العرب يميلون إلى جمال القول ويقصدون إلى حسن العبارة والاستيلاء  
على النفوس بسحر الكلام . وكان العربي شاعراً بطبيعته . وكانت الفصاحة  
والبلاغة مظهر الحياة النفسية العربية ودليلاً على جهود العقول وآثارها  
وكما نزل العربي بمكان بذر بذرة الشعر فيه وتعمدها بالنمو ، فلما نزل أرض  
الاندلس غرسها هناك ، فنمت في تلك الأرض الخصبة ، فكانت  
كالزهرة الطيبة العرف لقحت بأصل آخر نضير الطلعة ، فظهر فيها أرج  
الطيب ونضارة اللون . ذلك مثل الشعر العربي في بلاد الاندلس .

جاء الشعر بلاد الاندلس بصيغته الأولى البدوية ، وما لبث أن  
أخذ صبغة جديدة باتساع التصور ، واختلاف المناظر ، والاطلاع على  
كثير من العلوم والآراء ، فشمل كل مظاهر الأفكار ومرافق الحياة .  
ولكن كثيراً ما كان الشعراء يرجعون في أساليبهم وأفكارهم إلى  
الأساليب والأفكار البدوية ، لأن العرب من أشد الأمم عصبية  
وحينئذ إلى وطنهم وعيشتهم الأولى . إذ رغم ما كان في نفوسهم من الاثر  
الذي اكتسبوه من تلك البلاد ، وما حصل لهم من الحياة التي لم يكن  
لهم بها عهد في بلادهم ؛ كانوا لا يزالون يميلون إلى أخيلتهم الأولى ، ولم  
يكن لهم أن يهجروا عاداتهم ، لأن العجب والخيلاء ، اللذين كانا لهما  
السلطان على عقولهم ، جعلهم — حتى في تلك البلاد البعيدة ، وحتى

الصفات العامة  
للشعر

بعد عدة قرون من انتجاعهم اياها — يتغنون بذكر بلادهم ، ويتخذون  
الشعر القديم نموذجاً لهم في الصناعة والخيال .  
والذى يقرأ الشعر الأندلسى يجده أخا للشعر فى بغداد ، بل وفى  
بلاد العرب نفسها من حيث الصفات العامة ، والموضوعات التى كانت  
عند القدماء

على أن شعر الأندلس يمتاز فى جهاته عن الشعر العربى بما فيه  
من المعانى المبتكرة الجميلة ، التى كان يعالجها الشعراء هناك من الوصف  
البديع ، والكلام الرشيق ، والذوق النقي ، والافتنان فى أساليب الخيال  
ولأنه يدل على حياتين ويرسم صورتين من أحوال العربى: فبينما ترى  
الشاعر يصبو الى ذكر بلاده الاولى من حياته البدوية ، تجده يذكر  
الرياض ، والبساتين والازهار ، والانهار ، والمياه الجارية ، وظلال الاشجار  
والنسيم العليل ، والآراء العامة والخاصة ، وأحوال الاجتماع والعادات  
هذا العقل المزدوج من البدو والحضر ظهر فيه جمال الفطرة ونضارة  
الحضارة ، هذا كله فى الشعر . لان الشعر كان مسرح العقول من جد  
وهزل وصور الحياة النفسية والاجتماعية . ولبت منتشرا زهاء ثمانية  
قرون بين الخاصة والعامة من العرب وسكان البلاد الاصليين كلقوط  
وغيرهم . وقال الشعر كثير من الأمراء . وسابق النساء الرجال فى ذلك  
فكن أحيانا يسبقنهم ، وعنى الناس هناك بالشعر عناية عظيمة فكانوا  
ينقشونه على جدران المساكن وأبنية الحكومة واتصل بالحوادث العامة  
الاجتماعية . وكان من وسائل الرقى ، ومن دواعى السلم والحرب ، وفك  
اسر المسجونين ، والعفو عن المجرمين .

ولم تكذب تخلو رسالة نثرية من الشعر ، حتى سمرت عدوى الوزن والقافية الى النثر . وانتشرت طريقة السجع في جميع المكاتبات ، وهي محلاة بأبيات من الشعر ، حتى في المكتب العلمية ، ومكاتبات الحكومة واجازات السفر . وكانت صناعة الشعر لازمة ، وروايته واجبة لمن يريد أن يندمج في حواشي الملوك . فقد كان الادباء يجتمعون في حضرتهم للانشاد والسابقة في ذلك ، كما كانت الحال في حضرة عبد الرحمن الأول ومن جرى على سنته ممن جاء بعده من الملوك والأمراء الذين كانوا يجرون المرنبات والجوائز على الشعراء .

وقد قال « فرنسيسكو فيلامباسا » شاعر الأسبان لهذا العهد :  
« لم يصيب شعب من موهبة الشعر الإلهية بقدر ما أصاب الشعب العربي منها . فكان من ولوعه بالشعر ومن ثقافته التوافق إلى الحرية والبطولة ما وسع شعره بطابع خاص كان شعاره منذ ظهوره . وما انتصار الاسلام الباهر إلا انتصار للشعر العربي أيضا . وسيطر إبان انتصاراتهم على أرقى شعوب الارض وامتزجوا بهم ، فأخذ عنهم المصريون والبرنطيون والرومانيون مناحى جديدة بدأت منذ ذلك الحين تسود خشونة شعرهم القديم ، ولم يتعد هذا التأثير الخلابة في التركيب والتلاعب باللفاظ . وظلت القصائد العربية القديمة سليمة لم يطرأ عليها فساد القلوب ، ولا تصرفت بها الألسن على هوى الرواة . فكانت كالارث الثمين يتناقلها الناس جيلا بعد جيل ، وظل بدو الصحراء رعاة النجوم أو في الشعوب خبرة في تخير الأخيصة ، وأوفرها غنى بالمادة الشعرية ، ولم تهيا للشعر العربي في عامة الاقطار التي اكتسحتها



العرب قربة أصلح من تربة الاندلس ، ولازها في بلد من البلدان  
زهوته في هذا البلد .

قال « وكان قواد العرب أولا ومن بعدهم الخلفاء والامراء مثالا  
للشعب في بث الفكرة الأدبية في الاندلس العربية ، تكاد لا تستثنى  
منهم واحدا لم يخلد اسمه بقصيدة ، غرام أو حماسة منذ أنشأ عبد الرحمن  
الأول تحية الوطنية الممتعة التي خاطب بها النخلة الأولى التي غرسها  
بيده على ضفة النهر الكبير ، إلى أن أنشد أبو عبد الله على ضريح مريم  
موشحته المشجية راصفا قوافيها بالذات قابله المنفطر الدامى . وإن أنس  
لأنس المعتمد آخر ملوك أشبيلية ، وفي رأي أن شعره أجلى مثال  
للشعر العربي ؛ إن لم يكن بجماله ، فبالتشاؤم الذى فيه ، وبالشؤم الذى  
رافق حياة صاحبه ، وكان حلقة من سلسلة الأبطال الذين كانوا هم  
القدر في مختلف أدوار التاريخ .

ونسج الاشراف على منوال سلاطينهم ، فعمت رياض الأدب  
الغنائى ، وأزهرت في ظلال السيوف فتفتشت عدوى الاشتغال بالأدب  
العربي بين أساقفة النصرارى ممن استعربوا في ذلك العهد ، فراحوا  
يقرضون الشعر باغة عربية عالية ، وهو لعمري حدث وحيد من نوعه  
في التاريخ . وفاضت أرض الاندلس الممرعة بلموم الاسلام وآدابه التي  
عمت العالم ، وقامت النفوس التواقفة إلى العرفان في أقاصى البلدان ،  
تبرد شفاهها الظمأى بتشف ينابيع الحب والسلام المتفجرة من الشعر  
العربي في قرطبة وطليطلة أولا ، وأشبيلية وغرناطة آخرها ونظام سلفه  
الثنائي بآبار ومية قصائد عربية لها أوزانها وقوافيها .

وظلت اللغة العربية لغة التقاليد في الحب والعلم والشعر في كل من صقلية وبروفنس وإيطاليا وبيزنطية بل في قلب بلاد ألمانيا. ورافق الشعر جيوش العرب الفاتحين وسفنهم الظافرة ، وواكبت قوافيه قوادهم ، فكانوا يولجونها في الصدور على سنان الحراب ، ناشطين لاذاعتها نشاطهم لاذاعة سور القرآن الكريم . ولم يكن جل أناشيد طبقاته القديمة وكثير من أغاني شعراء الولايات الجوالين غير قصائد عربية لشعراء الاندلس ، أدخل عليها بعض التطور ، وبقيت محتفظة بأثر الروح المشرق . وبالعربية نظم الامبراطور فريديريك الثاني ملك صقلية مقاطيع ممتعة ، وجمع في بلاطه رهطا من علماء الاسلام وشعرائه ليتخذهم ذريعة يبعث بها في ملكه ما كان للأدب العربي من بهاء في دمشق وبغداد وقرطبة وإشبيلية . وهي المدائن الاربع التي كانت في ذلك العهد قبلة أنظار النهضة الأدبية في العالم أجمع ، وقد اتضح للباحثين من المعاصرين أن في شعر داتى الذى هو نثر أمتة بأسرها ، مأخذ صريحة مردودة الى الادب العربى » .

وقد كان لنشاط العرب العقلى وصفاء قرائحهم في قول الشعر ما كان لهم من العلوم والفنون ، بل زاد ذلك في الشعر لما لهم من ميلهم الفطرى اليه والافتنان فيه . فقد وسع كل شئ من أحوالهم الاجتماعية والنفسية . فكانوا يصفون الكبراء والعلماء ، ويدحونهم بعبارات جميلة رقيقة ، أكثرها خال من المبالغات . ويذنبونه شكواهم وآلامهم ، ولهم قصائد في التقرب الى الله ومدح الرسول عليه السلام ، والزهد والتصوف والزناء ، ولهم أشعار رقيقة في المزح والتهكم والمجون :

اغراض الشعر

كما في قصيدة قاضي الجماعة بغرناطة أبي عبد الله بن علي بن الأزرق  
نذكر منها شيئاً على سبيل الفكاهة قال :

عم باتصال الزمن	ولاتبالي
وهو يواسي بالرضا	من سميح أو حسن
أو من عجوز تختطى	والظهر منها منحني
أو من مليح مسعد	موافق في الزمن
مهما تبدى تحده	يبدولك الورد الجنى

\*  
\* \*

أفدى صديقا كان لي	بنفسه	يسعدني
فتارة أنصحته	ونارة	ينصحيني
وتارة ألغنته	وتارة	يلعنني
وربما أصفعه	وربما	يصفعني
أستغفر الله فـ	إذا القول	لا يعجبني
ياليت هذا كله	فيما مضى	لم يكن
أضحكت والله بهذا	حديث من	يسمعني
دهر تولى وانقضى	عني كطيف	الوسن
ياليتني لم أره	وليته لم	يرني
دنست فيه جانبي	وملبسى	بالدرن
وبعت فيه عيشتي	لكن بيخث	الثن
كأنني ولست أد	رى الآن	ماكأنني

-- ٨٢ --

والله ما التشبيه عند شاعر بهين

\*  
\*\*

ومنها

هل أمتطى يوما الى الـ شرق بطون السفن  
وأجتلى مائتته في المنزل المؤمن  
حينئذ أخلع في هذى القوافي رسي

\*  
\*\*

ومنها

هل لا تريد عودة الى قد شوقي  
تغوص فيه أنملى غوص الاكول المحسن  
ولى الى الاسفنج شو ق دائم يطربني  
وللارز الفضل اذ تطبخه باللبن  
والشواء والرقا ق من هيام أنتنى

\*  
\*\*

ومنها

إيه خليلي هذه مطاعم لـكننى  
أعجب من ريقك إذ يسيل فوق الذقن  
هل نلت منها شعبا فذكرها أشبعني  
وإن تكن جوعا يا صاح فكل بالأذن  
فليس عند شاعر سوى كلام الألسن  
يصور الأشياء وهى أبدا لم تكن

فقله يريك ما ليس يرى في الممكن  
فاصمحه وسامحه واقتمعه واطوحشاك وأسكن

\* \*

وقد نظموا التاريخ وحوادثه . وبرعوا في وصف الابنية الفخمة  
ومافيه من الصور والاشكال والزينة ، ووصف القصور والحدائق  
ومجالس الشرب والله مر والغناء والرقص . كقول الشاعر :

يأرب ليل قدهتكت حجابيه يزجاجة وقادة كالكو كعب  
يسعى بها ساق أغن كأنها من خده ورضاب فيه الاشنب  
بدران ، بدر قد أمنت غروبه يسعى بيدر جانح للمغرب  
فاذا نعمت برشف بدر طالع فأنعم بيدر آخر لم يغرب  
حتى ترى زهر النجوم كأنها حول الجرة ررب في مشرب  
والليل منحصر يطير غرائبه والصبح يطرد بياز أشهب

\* \*

ووصفوا التنزه بالليل في ضوء القمر ، والأشجار وغصونها ، والرياح  
وهي تعبت بها وظلمها الظليل ، وأشعة القمر على الجداول ، وصفاء الجو ،  
والفاكهة والأثاث والمساكن ، والقصور والصور . كقول الشاعر :

قصر بدرجة النسيم تحدث فيه الرياض بسرهما المستور  
خفض الخورنق والسدير سموه وثني قصور الروم ذات قصور  
لاث الغمام عمامة مسكية وأقام في روض من الكافور

غنى الربيع به محاسن وصفه      فافتقر عن نور يروق ونور  
فالدوح يسحب حلة من سندس      تزهى بأؤلؤ طامس المنثور  
والنخل كالغيد الحسان تقرطت      بسبائك المنظوم والمنثور  
والرمل في حبيك النسيم كأنما      أبدى غصون سواف المذخور  
والبحر يرعد متنه فكأنه      درع أنش بيمعطف مقرر  
وكأننا والقصر يجمع شملنا      في الأفق بين كواكب وبدور



ومما قاله شعراء الاندلس في هرم مصر « قيل إن جماعة من  
الشعراء خرجوا متزهين إلى الاهرام ليروا عجائب مبانيها . ويتأملوا  
ماسطرها الدهر من العبر فيها ، فاقترح بعض من كان معهم العمل فيها  
فصنع أبو الصمات أمية بن عبد العزيز الاندلسي .

بعيشك هل أبصرت أعجب منظرا      على مارأت عينك من هرمى مصر  
أنافا بأعناق السماء فأشرفا      على الجواشرف السماء أو اللسرى  
وقد وافيا نشراً من الارض عاليا      كأنهما نهديان قاما على صدر  
وصنع أبو منصور ضافر الحداد :

تأمل هيئة الهرمين وأنظر      وبينهما أبو الهول العجيب  
وفيض البحر عندهما دموع      وصوت الريح بينهما نجيب  
وظاهر مسجن يوسف مثل صب      تخلف فهو محزون أنيب  
( نفتح ج ٢ ص ٢١٠ )



ومن مراسلاتهم الظريفة ماروو ان الوزير أبا حامر أصطحب  
يوما والجوسما كي العوارف ، لازوردي المطارف . والروض أنيقة  
لبانه رقيقة هبانه ، والنور مبتل ، والنسيم معتل ومعه قومه ، وقد  
رقمهم يومه والراح تشعشع ، وماء الاماني ينشع ، فكتب إلى ابن عمار  
وهو ضيفه .

ضمان على الأيام أن أبلغ المنى إذا كنت في ودي مسراً ومعلنا  
فاو تسأل الأيام من هو مفرد بواد ابن عمار لقات لها أنا  
فان حالت الأيام بيني وبينه فكيف يطيب العيش أو يحصل المنى

\* \*

فلما وصلت الرقعة اليه تأخر عن الوصول واعتذر بعذر مختل  
المعاني والفصول فقال أحد الحاضرين إنى لأعجب من فعود ابن عمار  
عن هذا المضمار ، مع ميله الى السماع وكلفه بمثل هذا الاجتماع ، فقال  
ذو الرياستين : أن الجواب تعذر فلذا اعتذر لأنه يعانى قوله . ويعلمه  
ويرويه ولا يرتجل ، ويقول في المدة الممتدة فرأى أن الوصول بلا جواب  
أخلال لأدبه وأخلال في الشعر ورتبه . فلما كان من الغد ورد ابن عمار  
وخصه الجواب وهو .

حصرت لى الآمال طيبة الجنى وسوغتنى الأحوال مقبلة الدنى  
والبستني النعمى أغض من الندى وأجمل من وشى الربيع وأحسننا  
وكم ليلة أحظيتنى بحضورها فبت صمير للسناء وللبنى  
أعلل نفسى بالكارم والعسلا وأذنى وكفى بالغناء وبالغنى  
مأقرن بالتمويل ذكرك كلما تعاورت الاسماء غيرك والكنى

لا وسعتني قولا وطولا كلاهما يطوق اعناقا ويخرس إلسنا  
 وشرفتني من قطعة الروض بالتي تنائر فيها الطبع ورداً وسوسنا  
 تروق بجيد الملك عقداً مرصعا وتزهوا على عطفيه رداً مزينا  
 قدم هكذا فارس الدست والوغى لتطمعن طورا بالكلام وبالقنا  
 (نفع ج ١ ص ٣١٣)



ومما جاء في الوصف الجميل قول ابن شهيد يصف روضاً .  
 وروض كساه الطل وشيا مجددا فأضحى مقياً للنفوس ومقعدا  
 إذا صاحفته الريح خات غصونه رواقص في خضر من القطب ميذا  
 إذا ما انسكب الماء طابت خلته وقد كسرت راحة الريح بددا  
 وإن ما كنت عنه حسبت صفاء حساما صتيلا خافي المتن جودا  
 وغنت به ورق الحمام بيننا غناء ينسيك الغريض ومعبدا  
 فلا تجفون الدهر مادام مسعدا ومد إلى ما قد حباك به يدا  
 وخذها مداما من غزال كأنه إذا ماسقى بدر تحمل فرقا  
 (ج ١ ص ٣١٣)



ومن أخياتهم الجميلة أنه كان في دار محمد بن اليسع شاعر الدولة  
 العامرية وردة وكان يهدي وردها كل عام إلى عارض الجيش أحمد بن  
 سعيد فغاب العارض منه فقال :

قال لي الورد وقد لا حظته في روضتيه  
 وهو قد أينع طيباً جمع الحسن لديه



-- ٨٧ --

أين مولاي الذي قد كنت تهديني إليه  
 قالت غاب العام فأثس أن ترى بين يديه  
 فبدا يذبل حتى ظهر الحزن عليه  
 ومن أوصافهم الجميلة قول ابن الزقاق يصف روضا .

ورياض من الشقائق أضحت يتهادى بها نسيم الرياح  
 زرتها والغمام تجلب منها زهرات تريك لون الراح  
 قلت ما ذنبها فقال مجيبا سرقت حمرة الخدود الملاح

\* \*

ووصفوا التماثيل وبرك المياه وأواني الأزهار . كما قال بعضهم في  
 دائرتين من ورد وياسمين :

يا حسنهما دائرة من ياسمين كالخلي  
 فالورد قد قابلها في حلة من خجل  
 كعاشق وحبته تغامزا بالمقل  
 فاحمر ذا من خجل واصفر ذا من وجل

\* \*

ووصفوا الحمامات الرخامية والسباحة والنوافير والحدائق والمياه  
 وتكلموا عن الغلمان والخدم ومجالس الخلفاء والاجتماعات العامة  
 ومجالس اللهو والشرب والرقص . كما قال ابن شهيد :

هاك شيخا قاده السكر لكا قام في رقصته مستهكا  
 لم يطق يرقصها مستنبتا فأنثى يرقصها مستمسكا

حافه عن هزها منفرداً      نفرس أخنى عليه فاتكاً  
 مَنْ وزيرٌ فيهم رقاصه      قام للسكر يناغى ملكاً  
 أنا لو كنتُ كما تعرفنى      قتُ أجلالاً على رأسى لكاً  
 قهقهه الابريق مني ضاحكا      ورأى رَعشه رجلى فبكى



وتكلموا عن آلات الطرب وكل أنواع السرور والفرح ،  
 ووصفوا ميادين الحروب وأهوال القتال والنضال ؛ والشجاعة والجهن  
 والاقدام ، والنصر والخذلان . ووصفوا النفوس وما يجول بها من  
 الميول والاهواء وما يحدث فيها من لذة وألم ؛ والعشق وأثره في النفس  
 كما قال الشاعر :

قُبلة كانت على دَهِش      أذهبت ما بي من العطش  
 ولها في القلب منزلةٌ      لو عدتها النفس لم تَطش  
 طرقتني والدجى لبست      خلعا من جلدة الحبش  
 وكان النجوم حين بدت      درهم في كف مرتعش

وكقول بعضهم :

بتنا كأن حداد الليل شملتنا      حتى بدا الليل في ثوب سحولى  
 كأن ليلتنا والصبح يتبعها      زنجية هربت أمام روى

وكقول الشاعر :

ولما تجلى الليل والبرق لامع      كما سل زنجى حساما من التبر  
 وكقوله : ، في وصف زنجى يسقيهم ،  
 وزنجى أتى بقضيب نور      وقد زفت لنا بنت الكروم

فقال فتى من الفتیان صفه فقلت ، الليل أقبل بالنجوم  
وكقولهم : ، في ملاقة الاحبّة وأوقات الوصل .

وواعدنها والشمس تجنح للندى بزورها شمساً وبدر الدجى يسرى  
بجاءت كما يمشى سنى الصبح في الدجا وطورا كما مر النسيم على النهر  
فعطرت الافاق حولي فأشعرت بمقدمها والعرف يشعر بالزهر  
فتباعت بالتقبيل آثار سعيها كما يتقصى قارىء أحرف السطر

\*  
\* \*

وبرعوا في هذا النوع براعة لا تجارى حتى أتوا بالغرائب من المعاني  
الجزلة التي تنير النفوس ، وتحملها على التعشق ؛ كما قال الشاعر :

غصبوا الصباح فقسموه خدوداً واستنهبوا قضب الاراك قدوداً  
ورأوا حصى اليافوت دون نحورهم فاستبدلوا منه النجوم عقوداً  
واستودعوا حديق المهي أجفانهم فسبوا بهن ضرائغا وأسوداً  
لم يكفهم حمل الأسنة والأطبا حتى استعاروا أعينا ونهوداً  
وتضافروا بصفائهم أيدياً لنا ضوء النهار بليها معقوداً  
صاغوا الثغور من الاقاحى بينها ماء الحياة لو اغتدى موروداً

\*  
\* \*

ولهم خيالات مبتكرة وعبارات طليّة خصوصاً في الوصف ،  
كقول ابن شهيد :

فكان النجوم بالليل جيش دخلت لاكمون في جوف غاب

وكان الصباح قانص طير قبضت كفه برجل غراب  
ومن أبدع كلامهم في الوصف الجميل والشعر الذي لا يجارى في  
طريق الخيال والابتكار ، ورقة العبارة وحسن الاسلوب ، وجزالة  
المعنى ، قول أبي الفضل بن شرف القيرواني .

مَطَلَّ الليلُ بوعد الفلقِ	وتشكى النجم طول الارقِ
ضربت ريح الصبامسك الدجى	فاستفاض الروض طيب العبقِ
والاح الفجر خدًا خَجِلا	جال من رشح الندى في عرقِ
جاوز الليل الى أنجمه	فتساقطن مسقوط الورقِ
واستفاض الصبح فيها فيضة	أيقن النجم لها بالفرقِ
فأنجلى ذاك السنا عن حلك	وانمحي ذاك الدجى عن شفقِ

\*  
\* \*

بأبي بعد الكرى طيف سرى	طارقاعن سكن لم يُطرقِ
زارني والليل ناع سدقة	وهو مطاوب بياق الرمقِ
ودموع الطل تمر بها الصبا	وجفون الروض غرق الحدقِ
فتأتى في أزار ثابت	وتثنى في وشاح قلقِ
وتجلى وجهه عن شعره	فتجلى فلق عن غسقِ
نهب الصبح دجى ليلته	نخبا الخلد ببعض الشفقِ
سلبت عيناه حدى سيفه	وتجلى خده بالرونقِ

ووصفوا الكنائس والأديرة والقسس . كما قالوا عن ابن شهيد  
« أنه بات ليلة بأحدى كنائس قرطبة وقد فرشت بأصغاث آس ،  
وعرشت بسرور واستيناس وقرع النواقيس يهيج سمعه ، وبرق الحميا

يسرج لمعه ، والقس قد برز في عبدة المسيح ، متوشحاً بالزناير أبداع  
توشيح ، قد هجروا الأفراس وطرحوا النعم كل اطراح  
لا يعمدون الى ماء بآنية الا اغترافاً من الغدران بالراح  
وأقام منهم يعملها حمياً ، كأنما يرشف من كلسها شفه لياً ، وهى  
تنفخ له بأطيب عرف ، كلما رشفها أعذب رشف ، ثم ارتجل بعدما ارتحل :

ولرب حان قد شممت بديره      خمر الصبا مزجت بصرف عصيره  
في فتية جعلوا السرور شعارهم      متصاعرين تخشعاً لكبيره  
والقس مما شاء طول مقامنا      يدعو بعود حولنا بزوره  
يهدى لنا بالراح كل مخفر      كالخشف خفّره التماح خفيره  
يتناول الظرفاء فيه وشر بهم      لسلافه والأكل من خنزيره

\* \*

ومن خواص شعر الأندلسيين ذلك الروح الخيالى المجونى ، مع  
حسن الدعاية وخفة الروح وجمال التشبيه مما لا يكاد يوجد له مثيل فى  
شعر غيرهم كقولهم : —

وصهرىج تخال به لجيناً      يذاب وقد يذّهبه الأصيل  
كان الروض يمشقه فنه      على أرجائه ظلّ ظليل  
وتمنحه أكف الشمس عشقا      دنائرا فنه لها قبول  
إذا رفع النسيم القضب عنها      فحينئذ يكون لها سبيل .  
وللنار نج تحت الماء لما      تبدى عكسها جمر بليل  
ولليمون فيه دون سبك      جلاجل زخرقت نصبا تجول

فيا روضا به صقلت جفوني وأرهف متنه الزهر السكيل  
تنثر فيك أسلاك الغوادي وقبّل صفح جدواك القبول  
ولا برحت تجمع فيك شملا من الأكياس والكأس الشمول  
بدور تستنير بها نجوم مع الأصباح ليس لها أقول  
يهمهم نسيم الروض الفأ فن وجد له جسم عليل  
وقد تفننوا في المراسلات وأبدعوا فيها أيما ابداع فقد دعا أبو  
عبد الله بن رشيق القلعي ثم الغرناطي بعض أصحابه إلى أنس فقال: —

سیدی عندی اترج و نارنج و راح  
و جنى آس و زهر و حمانا لا یباح  
لیس الا مطرب یسلى الندامی و الملاح  
و مکن لا تهک قد نأى عنه الفلاح  
لا یرى یطلع فیه دون اکواس صباح  
فیه فتيان لهم فى لذة العیش جماع  
طرحوا الدنيا یسارا فاستراحت واستراحوا  
لا کقوم أوجعتهم لهم فیها نباح

وكان من بين الشعراء الفقهاء والحكماء والمتصوفون والمؤرخون.  
فنظموا حوادث التاريخ والحكم والمواعظ ومسائل الدين والفقه وقواعد  
اللغة، ومسائل النحو والصرف، ولكنهم في كل ذلك لم يخرجوا  
كما قلت عن المذاهب التي كانت معروفة في أصول الشعر وأنواعه، لأنهم  
كانوا يجارون أهل المشرق في كل شيء، ولم يريدوا أن يتخطوا دائرة  
الفكر العربي ولا (تقاليد اللغة العربية) ولا أن يخرجوا على أئمة الشعر

العربي ، ولا أن يبتكروا أو يزيدوا عنهم شيئاً ، سوى ما حصل في الأوزان من الموشحات ؛ لأنهم تعففوا عن الاطلاع على آداب الامم الأخرى مما كان يكون له أثر في ابتكار أنواع جديدة ، بل انصرفوا عن ذلك إلى التوغل في الصناعة اللفظية والمبالغة في الافتنان ، والعناية بالخيال اللفظي ومظاهر البلاغة . لأن الشعر كان في جملته هناك من دواعي النسلى والمجون . وكانت حياة الشعراء حياة أقرب إلى اللهو منها إلى الجد . فكان من يريد منهم أن يكون حكيماً في شعره يحاول محاكاة المتنبي وأمثاله من أهل المشرق ، كما كان يفعل ابن درّاج القسطلي ، وابن هانيء . فكأنوا يقولون عن كل منهما أنه متنبى الأندلس .

وقد بلغوا الذروة في أنواع الوصف وذكر جمال الطبيعة حتى جعلوا الشعر العربي شعراً فنياً جميلاً يرقق الشعور ويهذب النفوس لادراك الجمال ، وجاءوا بالعجب العجيب في ذلك

ولذلك كانت أساليبه رقيقة ، وعباراته متعملة كثير منها من

السهل المتنوع ، ومن السلاسة بمكان عظيم

هذه أمثلة من الشعر الأندلسي تدل على رقة ذوقهم ودقة بيانهم وحسن اختيارهم وسعة خيالهم في كل معنى من المعاني النفسية أو الوجدانية وفي كل شيء منظور أو محسوس ، وفي كل فكر ظاهر أو مأموس وفي كل معنى من المعاني النفسية ، أو الاجتماعية المعروفة لديهم وفي جمال الطبيعة وما توحى به إلى النفس وغير ذلك مما هو مجموع ومعروف من أشعارهم مما لا ينكره أديب أو عالم :

ولكن الذي يخامر الإنسان وهو يقرأ هذا الشعر الجميل ويملاً

نفسه بالأعجاب هذه المسألة .

ترى هل أتى الأندلسيون بشيء في الشعر العربي لم يكن معروفا  
ببلاد المشرق في أدب العرب من نوع جديد طرأ عليه هناك ، أو  
ولدت في نفوسهم مناظر بلادهم وانتقالهم من بلد إلى بلد واختلاطهم  
بشعب جديد وتفكير لم يكن لهم عهد بمعرفته ؟

وهل هناك فرق واضح بين الشعر الأندلسي والشعر في بلاد  
المشرق ؟ .

والجواب أنه إذا تأمل الإنسان شعر الأندلسيين وجده كغيره  
من الشعر العربي في كل مكان وفي كل بقعة من بقاع الأرض حل به  
العرب ونظموا فيها الشعر وحده منبعثا من فطرة سليمة وخيال واسع  
وضور لما وقع عليه نظره وأوحته إليه أفكارهم وآرائهم الشخصية  
معتمدين في ذلك على وجدانهم وما يجول بنفوسهم سالكين مسلك آباءهم  
واجدادهم قاتباع الأنواع التي سبقهم بها الشعراء الأقدمون من الوصف  
والمدح والذم والحماسة ، وغير ذلك من الأنواع التي لا تخلو منها نفس  
الشاعر ولا عواطفه والتي لا تمت إلا قليلا إلى الحياة الاجتماعية العامة  
ووصف النفوس البشرية العاكسة والاجتماع العام ، فشعرهم هو نفس  
الشعر القديم في موضوعاته أو أغراضه وأخيلته مصبوغة بصبغة  
خاصة بهم أو كما يقال الآن بصبغة محلية .

فلم يحدث في شعر الأندلسيين نوع جديد لم يكن في الشعر العربي  
مثل الشعر القصصي أو التمثيلي أو الاجتماعي الذي يصور النفوس العامة



من غير نظر إلى حالة خاصة بالشاعر .

ولكن تلك الصبغة الفنية التي انغمس فيها شعراء الاندلس من وصف بديع وبلاغة نادرة هي التي ميزت الشعر الاندلسي من سواء ، وقد كان أعمادهم على الصناعة اللفظية وجمال القول وتعمقهم في الوصف للطبيعة والمجالس والمحافل أظهر ما يكون حتى أبعدهم ذلك قليلا أو كثيرا عن التعمق في التفكير فلا تكاد تجد بينهم شاعرا مفكرا أو فيلسوفا من أمثال المتنبي وغيره . وان جاء شيء من التفكير في أصل كلامهم فهو عارض إليهم لا مطبوع فيهم

أما الأوزان والموشحات وغيرها من الأوزان التي ابتكروها في الشعر العربي ، والمقطوعات الشعرية جديده أو هزلية أو اجتماعية ، فقد أظهرها منها من البراعة ما لا يقدر عليه إلا نفوس خلقت شعرية بطبيعتها وشاعرة بفطرتها . وقد سرت هذه الأنواع إلى المشرق فأحدثت حركة جديدة في أوزان الشعر العربي .

## الموشحات

بقى الشعر تابعا لطريقة العرب في أغراضه وأوزانه ، إلى أن حدث مادما إلى الابتكار في العلوم والفنون . وكان الشعر من أقرب الأشياء إلى اللسنة ، وأكثرها انتشارا في المجالس ، وأدعى إلى الانتقال من غيره . لكثرة قائله وسامعيه والمتأثرين به ، فتطلعت نفوس الفنيين من شعراء وأدباء إلى الانتقال به من صبغته البدوية إلى شكل حضري وان يزجوا به في مجتمعاتهم حتى يجاروا به القدماء في إلهاماتهم الجميلة ،

وفطرم النقية ، وسذاجتهم الفنية . فلم يفلحوا كثيرا في الخروج به عن أغراضه التي تكلم فيها القدماء ، مما هو أَلصق بالصبغة الوجدانية منه بالصبغة الاجتماعية . ولكنهم زادوا في وجدانياته مما استدعته الحضارة من التوسع في الخمریات والعواطف من عشق وغيره ، ووصف المناظر الجميلة والحدائق النضرة ، وكل ما استلزمته حالتهم من آثار المدنية وال عمران . ذلك من جهة أغراضه . أما من جهة أوزانه وصناعاته ، فقد كانت الحال فيه أسهل . فابتكروا من الاوزان في الشعر والصناعة ما لم يبتكروه في المعاني والأغراض . وتوسعوا في ذلك حتى لقد ينجيل إلى المطلع على الشعر العربي القديم والحديث أن هذا انقلاب عظيم وطورا من الأطوار الحديثة التي تخطاها الشعر وكان ذلك أظهر ما يكون في الاوزان والقوافي ، والقوانين التي وضعوها في رقة الأسلوب وبعض الخيالات التي لم تكن معروفة . حتى أخذ الشعر العربي صبغة حديثة بما أدخل فيه من هذه الأنواع المختلفة في الأوزان، الجارية على غير ما كان معروفا فيه، وخرجوا عن التقيد بنظام القوافي المعروف . قال ابن خلدون في « فصل أشعار العرب وأهل الامصار لهذا العهد » : « ولهم فن آخر كثير التداول في نظمهم ، يجيئون به معصبا على أربعة أجزاء ، يخالف آخرها الثلاثة في رويه ، ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت إلى آخر القصيدة ، تشبيها بالربيع والخمس الذي أحدثه المتأخرون من المولدين ... الخ . »

وقسم بعض المتأخرين الأنواع التي حدثت في الشعر ، إلى الشعر القريض والموشح والديباجة والزجل والمواليات والكانكان والقوما وغيرها .

واشتهر<sup>(١)</sup> من هذه الأنواع في الأندلس ما هو معروف  
« بالموشحات »<sup>(٢)</sup> وأصل الكلمة من الوشاح ، وهو عقد من لؤلؤ  
وجوهر منظومين يخالف بينهما معطوف أحدهما على الآخر ، تتوشح

---

(١) راجع خلاصة الأثر ، في أعيان القرن الحادى عشر ج ١ ص ١٠٨  
(٢) قالوا في مخترع هذه الموشحات انه مقدم بن معافى القريرى ؟ من  
شعراء الأمير عبد الله ابن مجد المروانى ، وأخذ عنه عبد الله احمد ابن عبدربه  
صاحب العقد الفريد . هكذا في مقدمة ابن خلدون . وجاء في الذخيرة في  
الكلام على الأديب أبى بكر عبادة بن ماء السماء المتوفى سنة ٤٢٢ هـ ... سلك  
الى الشعر مسلكا سهلا ، فقالت له غرابته مرحبا وأهلا ، وكانت صنعة التوشيح  
التي نهج أهل الأندلس طريقتها ، ووضعوا حقيقتها . غير مرقومة البرود ، ولا  
منظومة العقود ، فقام عبادة هذا منادها ، وقوم ميلها وسنادها ، فكانها لم  
تسمع بالأندلس إلا منه ، ولا أخذت إلا عنه ، وأول من صنع أوزان هذه الموشحات  
بإفئنا فيما بلغنى محمد بن حمود العمرى الضيرى وكان يضعها على أشطار الأشعار .  
غير أن أكثرها على الأعارض المهمة غير المستعملة ، يأخذ اللفظ العامى والعجمى  
فيسميه المركز ويضع عليها الموشحة دون تغيير فيها ولا أغصان ، وقيل ان ابن  
عبد ربه صاحب العقد أول من سبق الى هذا النوع من الموشحات  
ثم نشأ يوسف بن هرون الرمادى ، فكان أول من أكثر فيها من التضمين  
في المراكز يضمن كل موقف يقف عليه في المركز خاصة . فاستمر على ذلك  
شعراء عصره كمكرم بن سعيد وابن أبى الحسن . ثم نشأ عبادة فحدث  
الصغير ، وذلك انه اعتمد على مواضع الوقف في الأغصان فيضعها ، كما اعتمد  
الرمادى مواضع الوقف في المركز

المرأة به ، والشبه بين الموشحات والوشاح ظاهر في اختلاف الوزن والقافية في الأبيات ، وجمعها في كلام واحد كما سنرى .

وقد دناهم إلى ذلك حب الابتكار والميل إلى الجمال والتغنى بأقوال الشعراء . فزجوا بين الأوزان المختلفة والقوافي المتعددة في قصيدة واحدة . وربما ألفوا بين وزن مخترع ووزن معروف وربما اخترعوا أوزانا مختلفة ونظموا عليها قصيدة واحدة . فيلحنون كلامهم هذا ويغننون به ، لما فيه من خفة الوزن ورقة اللفظ . وقد ذكر ذلك ابن خلدون في مقدمته فقال <sup>(١)</sup> :

”وأما أهل الاندلس فلما كثر الشعر في قطرهم ، وتهذبت مناحيه وفنونه . وبلغ التعميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فناً منه سموه بالموشح ، ينظمونه أسماطاً أسماطاً ، وأغصانا أغصانا ، يكثرزون منها ومن أعاريضها المختلفة ، ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً ، ويلتزمون عدد قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعد إلى آخر القطعة . وأكثر ما ينتهي عندهم إلى سبعة أبيات . ويشتمل كل بيت على أغصان ، عددها بحسب الأغراض والمذاهب . وينسبون فيها ودياً حون كما يفعل في القصائد . ويتجاوزون في ذلك إلى الغاية ، واستظرفه الناس وجملة الخاصة والكافة لسهولة تمارله ، وقرب طريقته . وكان المخترع لها بجزيرة الاندلس مقدم بن معافر القريري القهري <sup>(٢)</sup> من شعراء

(١) اخترنا نقل عبارة ابن خلدون في الموشحات لأنها من أجمع ما قيل

فيها وقد أخذنا هذا عن نفح الطيب عند كلامه على الموشحات

(٢) قد اختلفوا في هذا الاسم ففي مقدمة ابن خلدون القريري ، وفي الذخيرة

الأُمير عبد الله بن محمد المرواني ؛ وأخذ عنه ذلك ابن عبد ربه صاحب  
العقد . ولم يذكر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما فكان  
أول من برع في هذا الشأن بعدها عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح  
صاحب المرية .

العود قد تروم بأبداع تلحين وشقبت المذائب رياض البساتين  
وفي انتهائه حيث يقول :

تخطروا ولا تسلم عساك المأمون مروع الكتائب يحيى بن ذى النون  
ثم جاءت الحلبة التي كانت في مدة الملمشين فظهرت لهم البدائع ،  
وفرسان حلبيتهم الأعمى التطيلي ثم يحيى بن بَقي ، وللتطيلي من الموشحات  
المذهبة قوله :

كيف السبيل الى صبرى وفي المعالم أشجان  
والركب وسط الفلا بالخرّد النواعم قد بانوا

وسبب اختراع الموشحات في الأندلس ما تولد في النفوس من  
رقة وميل إلى الخلاعة والدعابة في الكلام ، وفي نوع التعابير وشعور الناس  
من أدباء وشعراء بضرورة الخروج من الاوزان القديمة المعروفة ،

---

محمد بن محمود أو حمود العمرى وفي فوات الوفيات في ترجمه عبادة ابن ماء السماء  
( ج ١ ص ٢٥٤ ) محمد بن محمود أو بن حمود المقبرى الضرير وهو نافل عن  
الذخيره ، وفي نفح الطيب في الكلام على الموشحات نقلا عن ابن خلدون مقدم  
ابن معافى القبرى . وفي مقدمة ابن خلدون طبع باريس صفحة ٣٩٠ جزء ثالث  
مقدم بن معافى أو معارف والقبرى بدل القبرى أو التبريزى وهو خلط يدل  
على تحريف هذا الاسم

لضيق تلك الأوزان عن احتمال عيب الشعراء بالشعر على حسب أهوائهم  
والعقول اذا مالت الى التغيير مالت الى الابتكار وحب الجديد .  
لذلك سئم الناس طريقة الشعر القديمة المعروفة ، وحاولوا ابتكار شيء  
جديد ، فاخترعوا تلك الاوزان لتساعدهم على ما يريدون من الكلام  
فى محبوبه اللهو والطرب والرقص ، وانشاد الشعر بطريقة خفيه على  
النفوس . فوجدوا ذلك ادعى الى تحريك النفوس فابتدؤا أولا بالاوزان  
العربية الخفيفة المعروفة ، كالرمل والهزج والمقطوعات وغير ذلك ،  
وغيروا فيها القافية . وولدوا من ذلك الموشحات وأباحوا لانفسهم  
التغيير فى الوزن والقافية . فاخترعوا من الاوزان ما لا قاعدة له . ثم  
توسعوا فى هذه الاوزان وتفننوا فيها ، وأودعوا هذا النوع الجديد  
من الشعر ميولهم وأهوائهم . واشتغل بذلك الظرفاء والأدباء فشمل  
هذا الشعر كل أنواع اللهو والتسلى . ثم تمشى فى نفوس جميع الناس  
حتى أصبح نوتا من أنواع الشعر العام . فنظام على أساوبه الحكماء  
والفقهاء عبارات الوعظ والحكم ، ومنهم التقى المشهور والصوفى المعروف  
محيى الدين بن العربى

ثم تخطى هذا النوع من بلاد الأندلس الى بلاد البربر وغيرها  
من بلاد المشرق وكثير من البلاد الاسلامية ، فنبغ شعراء كثيرون  
فى هذا النوع . وانبعث هذا الكلام من نفوس العامة أو من الآراء  
والأفكار التى كانت تدور فى رؤوس كثير من الناس ، فنظمها كبار  
الشعراء . وما زالت العامة تجذب الخاصة اليها ، وتدفعها الى التعبير عن  
أفكارها المنتشرة الدائرة فى نفوسها وعلى ألسنتها ، سواء أكانت من

طريق الكلام أم من طريق الأغاني ، حتى قربت الموشحات من لغة العامة وصارت من كلامهم وأناشيدهم . وكما قربت من العامة بعدت عن اللغة العربية الفصحى وعن الشعر العربي . لذلك كان ظهور نفوس العامة وحالتهم العقلية في الموشحات أكثر وضوحاً منه في الشعر العربي الفصيح

فلا غرو أن نجد في الموشحات خلطاً بين الشعر العربي الصحيح والكلام العامي المأخوذ ، لأن أصلها مأخوذ من الشعر العربي ، لذلك لا تخلو من أثره في الصناعة والأخيلة والأسلوب وقواعد العروض كما تخلل ذلك عبارات عامية ، وأحياناً يتمشى الشاعر على غير قواعد اللغة . فنجد أحياناً غير عربية وعبارات غير معربة فليست الموشحات عربية صرفة ولا عامية بحتة ، بل يمكن أن يقال أنها شعر عربي ، ولكن في غير الأسلوب الشعري العربي الصميم وصناعته المعروفة . وقد كان الموشحات أن تحدث في الشعر نوعاً جديداً لو لم يقصر الشعراء ابتكاراتهم على الديباجة والوزن والقافية . ولكنهم لم يخرجوا عن الموضوعات والمعاني المعروفة قبلهم عند شعراء العرب . فلم يتكلموا في الموضوعات العامة الاجتماعية ، ولم يخرجوا فيها عن التعبير عما يجول بالنفوس من مسائل العشق والغرام وما يشبهها كما قلنا ؛ لأنهم أرادوا أن يتغنوا بذلك . ثم أوغلوا في التعبيرات الشخصية ، وبعض هذه التعبيرات لا يمكن أن تؤدي المعنى المقصود إلا بلهجة خاصة ، فاضطروا إلى استعمال بعض العبارات العامية . ثم توسعوا في ذلك حتى تعددت هذه اللهجات ، وكثير منها لهجات عامية لا يتذوقها كل من يعرف

-- ١٠٢ --

العربية الفصحى . ومن هذا تطرقوا إلى الزجل ذلك الشعر العامى المعروف .

فالמושحات علامة من علامات الانتقال فى الشعر العربى ، لأنها حادث جديد فى الأدب ، ولكننا علامة من علامات انحلال وحدة اللغة العربية وضياعها أيضا ، إذ لو كان لها أن تنتشر انتشارا عاما فى جميع البلدان لأدت إلى انتشار اللغة العامية فى كل قطر ، فتصبح كل أمة ذات شعر خاص ولهجة خاصة ، يصعب فهمها على غيرها من الأمم الأخرى . على أن لذلك ميزة وهى أن العامة تفهم من لغتها الخاصة أكثر مما تفهم من اللغة الفصحى . ولكن هذا يدعو كما قلنا إلى انحلال الوحدة اللغوية





## الوزير ابن زيدون<sup>(١)</sup>

اقتدرت الوزارة في الأندلس بالأدب فكان الوزير كاتباً وشاعراً وكان أشهر الكتاب والشعراء وزراء . وكانت الشهرة بالكتابة والشعر وفنون الأدب وفروع العلوم من وسائل الوصول إلى امتلاك الوزارة فكان للوزراء أثر عظيم في سير البلاغة والأدب وأصبحت منزلة الأدب كما نزلت الوزراء أنفسهم في الدولة . وظهر في الأندلس طائفة من الرجال الذين تربعوا في مناصب الملك ، وتقلبوا في مراكز الدولة وتغلبوا على شئونها . وهم جميعاً من الأدباء والعلماء والكتاب والشعراء وأهل الشورى وأعلام الحياة العقلية .

ومن أشهر هؤلاء الوزراء والأدباء والشعراء المجيدين ، أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي الأندلسي القرطبي أشهر من عرف في حلبة الأدباء ، وأظهرهم ميزة في فنون الكلام وأساليب الشعر والبيان ، لأنه صورة من صور الأدب في الأندلس

(١) ليس لدينا عن ابن زيدون ما يدلنا على شيء من حياته المنزلية أو تربيته الأولى . أو أما يتضح لنا الحكم على نفسه وأصل تربيته العقلية أو حياته الفكرية ، ولم يزد ابن خلكان عن بضعة أسطر نقلها عن كتاب الزخيرة لابن إسحاق . حتى أنهم لم يذكروا عن أبيه أبي بكر بن زيدون شيئاً سوى أنه كان من وجوه الفقهاء بقرطبة . وقال ابن خلكان عن ابن بشكوال في كتابه (الصلة) أنه أثنى عليه ، وكان يكنى أبا بكر وتوفي سنة ٤٠٥ هـ ودفن في قرطبة . وكل ما ذكر من صفاته أنه كان يخضب بالسواد وفي بعض كلام الشعراء الذين رثوه ما يدل على أنه كان من أهل الفضل .

وصحيفة من صحف البلاغة هناك ، وثمرة من ثمار غرس العرب في بلاد المغرب .

ولد ابن زيدون بمدينة قرطبة في سنة ٣٩٤ هـ وتوفي بأشبيلية سنة ٤٦٣ هـ وهو ثالث ثلاثة تسموا بابن زيدون: أحدهم أبو بكر عبد الله ابن أحمد بن غالب والده والثاني أبو بكر ابنه، وكان وزيراً للمعتمد بن عباد ومات مقتولاً في آخر أيامه : وهم من أصل عربي كما أشرنا الى ذلك في كلامنا على القبائل التي نزلت الاندلس من العرب

كان أبوه قاضياً مشهوراً بين قضاة قرطبة ، وعالماً وأديباً . مات سنه ٤٠٥ هـ فكان عمر ابنه اذ ذاك احدى عشرة سنة . وكان أبوهم الوليد منذ حداثة ميالاً الى العلم والتعليم ، فاندفع يطالب لنفسه الكمال العقلي وكانت نشأته في قرطبة ساحة العلوم والآداب ، فانكب على الدرس والبحث وأخذ الأدب عن رجاله المعروفين . وكان له ميل شديد لعلوم العرب وفنون اللغة ، حفظ منها شيئاً كثيراً ، كما وعى كثيراً من أخبار الادباء والشعراء وامثال العرب وحوادثها ومسائل اللغة ، حتى اصبح في مقدمة الشعراء والادباء . واندمج في مجالس الادب ، فصار تلمذاً من أعلامها ودعامة من دعائمها . وكانت قرطبة لا تزال في أوج عزها على الرغم من أفول شمس بنى أمية بها ، وأهلها في رخاء من العيش ، أكثرهم يميل الى العلم والادب ومجالسة الادباء . فامتلائت المحافل والجامع بضروب اللهو والطرب ، وكان لابن زيدون خفة روح ودخابة وميل الى المجون ، فساعده ذلك على ان يسبق غيره وان ينال شهرة واسعة بين أترابه ..

وكان للنساء أثر عظيم في هذه المجالس . فاتجه الناس الى الاندماج فيها واستعذبوا هذا المورد ، وانصرفت همم الأدباء الى التفوق في هذا الميدان ، فكان لذلك أثر عظيم في أخلاق الادباء وصورة البلاغة من نظم وثر : وكانت صناعات كل صبغة جديدة في الجامع الادبية ، تجرؤ الوزراء على الجاهرة بالمجون . وكان ابن زيدن أحد أبطال هؤلاء فغذب إليه الأنظار .

وكان لولادة بنت المستكفي الخليفة الأموي شهرة عظيمة في قرطبة لجمالها وعلمها وأدبها . فوقع ابن زيدون في شركها ووقعت في شركه واشتمل كل منهما على صاحبه ، حتى حسد عليهما وحسدها الناس عليه . وكان من بين هؤلاء الحساد الوزير أبو عامر بن عبدوس وهو كبير الحول والطول ، فتقرب إلى ولادة حتى أمالها إليه ، واغتمصها من صديقها ، وكانت ولادة ملتحمة صداقة ابن زيدون واتهمته بعدم الاخلاص لها ، كما اتهمها بذلك أيضاً ، فهبت عاصفة من الجفاء بينهما شتتت من شملهما ، وحالت بين قلوبهما . لذلك غاب ابن عبدوس ابن زيدون على أمره واستولى على قاب ولادة . ثم حدث ان رجعت إلى ابن زيدون فكتب عن لسانها لابن عبدوس رسالته الشهيرة الهزلية . ثم استأثر بها ثانية ابن عبدوس فكانت هذه الحال سبب اضطراب في حياة ابن زيدون العقلية والسياسية ؛ وهكذا كانت حال الوزراء وأرباب الدولة وعقول الادباء وأصحاب الاقلام والمفكرين . وهذه الحادثة من أكبر الحوادث في حياة ابن زيدون .

عاش ابن زيدون في بيئة كلها اضطراب ودسائس ، وتربى ودرج

في ذلك وتقلد الوزارة فيها ، لأنه اشترك في حوادث الاضطراب التي كانت على أثر زوال دولة بني أمية ، فكان من أشياع ابن جهور أحد ملوك الطوائف ، الذي ادعى لنفسه الملك في قرطبة بعد انحلال الدولة الأموية سنة ٤٢٣ ، وعلت منزلة ابن زيدون هناك فاتخذ ابن جهور وزيراً له فلك أزيمة الامور ، وكان أقرب الناس إلى سيده الذي استعان به كثيراً في المسائل السياسية وتأمين الصلة بينه وبين الأمراء الآخرين لذلكائه ودهائه ، فكانوا يحسدون ابن جهور على الاختصاص به ، وحدثت حوادث أوغرت عليه صدور كثير من منافسيه وحاسديه على فضله ومنزلته ، فحملوا عليه عند ابن جهور حتى أمر بسجنه فسجنه طويلاً . فاستغفر واستعطف بما يلين من أجله الحديد ، فلم يفلح في ارضاء الأمير ، فعزم على اعمال الحيلة والهرب من السجن .

واختفى بقرطبة إلى أن استشفع بأبي الوليد بن جهور عند أبيه أبي الحزم حتى شفع له . وجعله أبو الوليد بعد موت أبيه من المقدمين في دولته . ولكن ابن زيدون لم يأمن على نفسه من بقائه في قرطبة فهاجر إلى إشبيلية سنة ٤٤١ ودخل في حاشية المعتضد بن عباد وصار وزيراً لابنه المعتمد ، وبقي هناك إلى آخر عمره .

هذه حياته وأخلاقه وقد ذكرها في شعره ونثره ، ومنها يرى إن حركات عقله كانت تقفو ذلك خطوة بخطوة . فكانت حياته العقلية نتيجة هذه الحياة . لذلك يمكن أن تقسم آثاره الأدبية إلى أقسام ثلاثة : عشقه لولادة وأثر ذلك في نفسه وما كتبه في هذا . ثم مدحه لابن جهور وابن عباد . ثم أثر السجن في حياته العقلية .

## شعر ابن زيدون

كان لاخلق ابن زيدون والبيئة التي عاش فيها ، وميول الناس إلى اللهو أثر عظيم في شعره . فقد كان للمجون مسحة خاصة في النظم والنثر ، فبرع ابن زيدون في الغزل وكثير من شعره في ذلك كان منبعثاً عن ثوران في نفسه وغليان في ميوله وأهوائه ؛ أذكي ذلك كله حبه لولادة . فان عشقه هذا فتح له باباً واسعاً من الخيال قال فيه ماشاء وشاءت عواطفه أن توحى إليه . كذلك كانت آلامه ومالاقاه في السجن باعثاً من بواعث استنهاض ملكة الشعر فيه . وإلهاماً من الهاماته الفنية .

وشى به أعداؤه وحاسدوه إلى ابن جهور ، وكاد له منافسوه في حب ولادة حتى نالوا منه ، وشفوا غلتهم بحمل ابن جهور على سجنه بعد أن أحله منزلة الوزير يدبر ملكه ، وبعد أن ائتمنه وعرف له رأيه السيد وبراعته في إدارة الأمور وسلمه زمام الدولة . ولم يكن لابن جهور أن يخطيء في نظره لما اشتهر به نفسه من سداد الرأي وصحته . فاذانال ابن زيدون مكانة في نفس ابن جهور فقد كان ذلك عن جدارة واستحقاق ولكن أعداءه تمكنوا من ابن جهور فغضب عليه وأمر بسجنه فأثار هذا السجن من نفس ابن زيدون حاصفة فنية جديدة رقت من خياله الشعري ، آثارها آلامه فأخذ يئن أنينا جميلاً ويفتن في آلامه ووصفها والتعبير عنها مرة شعراً ومرة نثراً . . . والفني يمزج فنه دائماً بكل

ما يرى ويسمع ويشعر . ولقد كانت نفس ابن زيدون من النفوس الدقيقة  
الادراك ، التي اذا أنت تئن أنين الموسيقى ، واذا شكت تشكو شكاة  
القلوب المملوءة شعوراً ، الواسعة التصور والادراك الدقيق الجميل ، الذي  
يجعل الشكوى جميلة والكلام فيها جميلاً .

كتب ابن زيدون من السجن الى صديقه أبي حفص بن برد  
يشكو ويتن من بلواه ، وهو ينهضه الا مل مرة ويقعده اليأس أخرى  
ولا يترك شاردة تمر بخاطرده إلا أهدأ بها نفسه وتسلى بها عن آلامه ،  
يستسلم أحياناً الى القضاء فيشعر في نفسه براحة واطمئنان ، ويقلب  
أمامه صفحات الأيام فلا يعجب من الحوادث التي ألمت به . ويرجع الى  
صديقه فيسليه هو بنفسه ، ويسأله ألا يكف عن مجونه وتسليته ،  
لأن السعادة خلسة . ثم يعود فيذكر أعداءه ونيابهم منه ويبين أن ذلك  
ليس بالعجب لأنه

ان قسا الاله فللماء من الصخر انبجاس

ويرى أنه حسد لمكانته ، ويمزج ذلك بالعبء والحكم والسخرية  
والتهكم من أحوال العالم وحوادث الحياة ، ويرجع أئينه وألمه وحقده  
على الناس ولا سيما حاسديه ، ويضرب المثل كي يسكن من نفسه وهو  
في ذلك كعادته في الشكوى : يهبط مرة إلى الدرك الاسفل من اليأس ،  
ويرتفع أخرى إلى ذروة الرجاء ، وكأنه في شجار مستمر بينه وبين  
نفسه وشعوره كل هذه المعاني في أبيات قليلة بأسلوب جميل رقيق ،  
يكاد يلمح الانسان فيها خاطره المضطرب المتماوج : حيث يقول :

مأعلى ظني باس <sup>١</sup>	يجرح الدهر ويأسو <sup>(١)</sup>
ربما أشرف بالمر	على الآمال، ياس <sup>٢</sup>
ولقد ينجيك إغفا	ل ويرديك احتراس <sup>٣</sup>
والمحاذير سهام <sup>٤</sup>	والمقادير قياس <sup>(٢)</sup>
ولكم أجدى قعود <sup>٥</sup>	ولكم أكدي التماس <sup>(٣)</sup>
وكذا الحكم؛ إذا ما	عز ناس ذل ناس
وبنو الأيام أخيسا	فأسراء <sup>٦</sup> وخاس <sup>٧</sup>
نلبس الدنيا وليكن	متعة ذاك اللباس <sup>٨</sup>
ياأبا حفص وماسا	واك في فهم إياس <sup>٩</sup>
من سنا رأيك لي في	غسق الخطب اقتباس <sup>١٠</sup>
وودادى لك نص	لم يخالفه القياس <sup>١١</sup>
أنا حيران وللأم	ر وضوح والتباس <sup>١٢</sup>
لا يكن عهدك ورداً	ان عهدى لك آس <sup>١٣</sup>
وأدر ذكرى كاسا	ما امتطت كفك كاس <sup>١٤</sup>
فعسى أن يسمح الدهر	ر، وقد طال الشماس <sup>(٧)</sup>
واغتتم صفو الليالى	انما العيش اختلاس <sup>١٥</sup>
ماترى في معشر حا	لوا عن العهد وخاسوا <sup>(٨)</sup>
أذوب <sup>١٦</sup> هامت بلحى	فانتهاش وانتهاش <sup>(٩)</sup>

(١) يداوى ن آسى الجرح داواه (٢) قياس هنا جمع قوس (٣) اكدي  
 بخل أو قل خيره (٤) مختلفون (٥) أشراف (٦) أدنياء (٧) العصيان  
 (٨) غدروا (٩) مثل الانتهاش وهو الأكل بمقدم الاسنان

كلهم يسأل عن حا لي ولالذئب اعتساس<sup>(١)</sup>  
 ان قسا الدهر فللما من الصخر انبجاس<sup>٢</sup>  
 ولئن أمسيت محبوسا فلما غيث احتباس<sup>٣</sup>  
 ويقت المسك في التراب فيوطى ويداس<sup>٤</sup>

\*\*\*

هذه هي نفحات القلوب ، وهذا هو الشعر الذي يستولى على النفس ويلهمها الحكمة والعبرة ، وهذا هو جمال القول . ليس ذلك لانه مطرب مرقص بوزنه وقافيته . بل لانه ساحر بمعانيه وجماله . كل معنى فيه تحتاج اليه النفس في مثل هذه المواقف . ولقد كانت هذه المعاني سائغة للنفس لان الشاعر صادق في قوله ، معبر عن شعوره يرسم صورة من نفسه الحزينة المتألمة . لهذا كان الشعر جميلا

وقد بدأ قصيدة من قصائده في هذا بالفخر بنفسه ، وأمعن في ذلك ، وكأنما كان يبكي حظه ويندبه بهذا الاسلوب الفخري أو كأنما كل معنى من هذه المعاني كانت تهدأ خاطره وتريح نفسه . فلما مدح ابن جهور مدحه في قالب استعطاف ، وتوسط بين المدح الخالص والتعجب الجدى . وقد ظهر بنفس كبيرة وأنف اشم حتى انه مدح نفسه اكثر من ابن جهور ، فكان طائبا اشد منه مادحا ، لأنه كثيرأ ما كان في مثل هذا الموقف لا ينسى الفخر بنفسه ، ولا يريد ان يملى عليها ولو همسا انه في موقف مذلة ، وكأنه كان يتسلى بهذا ، لأنه يرى ان اعداءه لم ينالوا منه إلا لأنه فاقهم بعلمه وفضله . حتى إنه قال متوجها

ولو اننى أستطيع كى ارضى العدا شربت ببيع العلم حظاً من الجهل



فقال :

ألم يأن أن بيبك الغمام على مثلى  
وهلا أقامت أنجم الليل مأتما  
فلو أنصفتني وهي أشكال همتي  
كعمر الليالي إن يكن طال عمرها  
تحلت بأداني وإن مآري  
أخصص لهمي بالقلبي وكأتما  
وأجني على نظمي لكل قلادة  
ولو أني أسطيع كي أرضى العدا  
وإن رجائي في الامام ابن جمهور  
كريم عريق في الكرام وقلم  
يرف على التأمل لآلاء بشره  
ويعني عن المدح باكتفاء بسره<sup>(٤)</sup>  
أبا الحزم إني في عتابك مائل  
حائم شكوى صبحتك هوادلا  
ويطلب ثأري البرق منصلت النصل  
لتندب في الآفاق ماضاع من نبلي  
لألقت بأيدي الذل لما رأيت ذلي  
لقد قرطست بالنبل في مقتل النبيل<sup>(١)</sup>  
لسارحة في عرض أمنية عطل<sup>(٢)</sup>  
يبيت لذي الفهم الزمان على دحل<sup>(٣)</sup>  
مفصلة السمطين بالمنطق الفصل  
شريت ببعض العلم حقا من الجهل  
لمستحكم الاسباب مستحصد الفتل  
يؤري الفرع إلا مستمداً من الاصل  
كحارف لآلاء الحسام على الصقل  
غني المقلة الكحلء عن زينة الكحل  
إلى جانب تأوى إليه العلاس هل  
تنسايك من أفنان أدابي الهدل

\*\*\*

وكل قصائده التي أرسلها يستعطف بها ابن جمهور هي أثر ذلك  
الشقاء الذي لقيه في سجنه ، وصورة من صور البؤس الذي حرك  
شعره وفتق من لسانه ، وأثار في نفسه عواطفه الشعرية المفاتمة

(١) الببل بفتح النون السهم وبضمها اشرف (٢) لا فائدة فيها ، من عطلت  
المرأة إذا خلا جيدها من القلائد (٣) الدحل الحقد (٤) رفعته وعلو شأنه .

المملوءة هما وغما .

ولكن أسلوبه فى الشكوى والاستعطاف واحد فى نظمه ونثره  
وما اشبه قصائده فى ذلك وما فيها من المعانى برسائمه الجدية . وكأنما  
كان فكره مسجينا مثله من شدة تألمه فى السجن . فانه لم يخرج عن  
عادته فى ضرب الامثال والفخر بنفسه ، وإنه افضل إنسان واكرم  
من دب على وجه الارض .

غير ان كلامه مع ذلك عذب المذاق ، رقيق الحاشية ، جذاب  
خلاب ، تظهر عليه سيما الابتكار والصدق فى التعبير ، فانه ليس من  
الخيالات الشعرية العرفه بل به كثير من الحقائق التى كان يربطها عليه  
شعوره كما قال :

ما جال بعدك خطي فى سنا القمر      الا ذكرتك ذكر العين للآثر  
ولا استطلت ذمء<sup>(١)</sup> الليل من اسف      إلا على ليلة همرت مع القصر  
إلى أن قال :

فهمت معنى الهوى من وحي طرفك لى      از الحوار لمفهوم من الحور  
لم يسأل الناس عن حال يشاهدها      محض العيان الذى يغنى عن الخبر  
لم تطو برد شبابي كبرة وأرى      برق المشيب اعتلى فى عارض الشعر  
قبل الثلاثين اذ عهد الصبا كذب<sup>٢</sup>      وللشبيبة غصن غير مهتصر  
يا للرزايا؟ لقد شافيت منهلها      غمرا<sup>٣</sup> فما اشرب المكروه بالغمر<sup>(٤)</sup>  
لا يهنيء الشامت المرتاح خاطره      أنى معنى الامانى ضائع الخطر

(١) الذمء بقية الروح يريد ما بقى من الليل (٢) قريب (٣) الغمر الكثير

(٤) الغمر قدح صغير يريد أنه كثير البلوى

هل الرياح بنجم الارض عاصفة أم الكسوف لغير الشمس والقمر  
ان طال في السجن يداعى فلا عجب قد يودع الجفن حد الصار الذكر<sup>(١)</sup>  
وان يثبط أبا الحزم الرضى قد ر عن كشف ضرى فلا عتب على القدر  
من لم أزل من تأنيه على ثقة ولم أبت من تجنبه على حذر

\*  
\* \*

وكتب الى أحد أصدقائه وهو مختلف بقرطبة بعد فراره من  
السجن فقال

« ... ويلغنى أنك أحد اللأئمين لى ، ومن أمثالهم : ويل للشجى  
من الخلى<sup>(٢)</sup> ، وهان على الاماس مالا لى الدبر<sup>(٣)</sup> . وامت أن العاجز من لا  
يستبد ، فالمرء يعجز لالحالة . ولم أستعجز أن أكون ثالث الاذلين ،  
الغير والوتد ، وتذكرت أن الفرار من الظلم ، والهرب مما لا يطاق ، من  
سنن المرسان ، وقد قال تعالى على لسان موسى : ففرت منكم لما خفتكم  
ففظرت فى مفارقة الوطن ، فقديماً ضائع الفاضل فى وطنه ، وكسد  
العلق<sup>(٤)</sup> فى معدنه كما قال :

أضيع فى معشرى وكم بلد يكون عود الكباء من خطبه  
فاستخرت الله فى انفاذ العزم . وأنا الآن حيث أمنت بعض  
الأمن ، إلا أن الغى لم يرتفع ، ومادة البغى لم تنقطع :

شحننا وما بالدار نأى ولا شحط وشط بمن نهوى المزار وما شطوا  
أحبابنا ألوت بحادث عهدنا حوادث لاعهد عليها ولا شرط

(١) سيف ذكر حاذ (٢) الشجى المشغول (٣) مثل يضرب فى سوء اهتمام

الرجل بشأن أخيه ، والدبر الذى فى ظهره قرحة ، والأملس صحيح الظهر

(٤) العلق النفيس (٥) الكباء العود المتبخر به م — ٨ أدب

لعمركم ان الزمان الذى قضى      بَشَتْ جميع الشمل منا ، اُشْتَطَّ  
وأما الكرى مذلم أزدكم فهاجر      زيارته غب والمائم فرط  
الى أن قال :

هرمت ، ومال الشيب وخط بمفرق      ولكن لشيب الهم في كبدي وخط  
وطاول سوء الحال نفسي فأذكرت      من الروضة الغناء طاولها القحط  
وانى لراج أن تعود كبدي بها      الى الشيمة الزهراء والخلق السيط<sup>(١)</sup>  
وحلم امرئ تعفى الذنوب لعفوه      وتمحى الخطايا مثل ما محى الخط  
فمالك لا تختصني بشفاعة      يلوح على دهرى ليسمها علط<sup>(٢)</sup>

\*  
\* \*

الى آخر مقال فى هذه القصيدة التى هى من أبدع قصائد الشكوى  
وأجمعها لذكر الماضى والحاضر ، والاستغفار والاستعطاف ؛ وهى أيضاً  
أظهر فى لهجتها الجدية من كثير من شعره . ولذلك كانت أجف فى  
أسلوبها ومعانيها ، ليس بها تلك الرقة المعهودة فى كلامه . كل ذلك هاجه  
السجن وماتذوقه من الآلام فرسمه فى شعره . لأنه رجل فني عرف  
كيف يصور ما يشعر به ويعبر عما يجول بخاطره .

ولقد يلاحظ الانسان أن آراء بن زيدون آراء عامة ليست ناشئة  
عن تفكير طويل أو علم واسع . وإنما هو خيالها أكثر منه مفكراً ،  
وشاعراً أكثر منه عالماً : وهذه كل حال شعره ونثره

أما مدحه ورثاؤه فهما فى الدرجة الأخيرة من شعره ، لأنه على

(١) يريد الخلق الكريم ، يقا' رجل سبط اليمين كريمها ، وسبط الجسم  
حسن القد فهى من صفات المدح (٢) الميسم أثر الحسن ، والعلط سواد يزين  
به الوجه .

جمال أسلوبه في ذلك ، وحسن تصرفه في المعاني ، لا يكاد يعثر الانسان فيه على معنى جديد ، ولا يقف على رأى خاص ، بل يكاد يكون كل مجاء من المعاني من قبيل معارضة غيره من الشعراء والاخذ بمعانيهم ؛ ممزوجا ذلك بماله من البراعة والصناعة والافتنان  
ومن أجل قصائده في ذلك كلامه في المعتضد بن عباد وابنه المعتمد<sup>(١)</sup> ومن أرق كلامه في الشكرى ، وأقرب عباراته وصولاً إلى القلوب ، بكاؤه على الماضي ، والتلذذ بذكره ، وما كان فيه من النعيم كقوله :

الهوى في طلوع تلك النجوم	والمنى في هبوب ذاك النسيم
سرنا عيشنا الرقيق الحواشي	لو يدوم السرور للمستديم
وطراً ما انقضى إلى أن تقضى	زمن ما زمامه بالذميم
أيها المؤذنى بظلم الليالى	ليس يومى بواحد من ظلوم

\*\*\*

ولقد كان ينظر الى أيامه الماضية فيحن اليها حنيناً مؤلماً، فاذا قرأت شعره في ذلك رأيت نفسك كأنك واقف على أطلال سعادته البالية فبكى وبكى معه . كما قال :

ألا هل الى الزهراء أوبة نازح	تقصت مبانيسها مدامعه نوحا
مقاصير ملك أشرفت جنباتها	نخلنا العشاء الجون <sup>(٢)</sup> أثناءها صبحا
يمتل قرطيسها لى الوهم جهرة	فقتبها فالكوكب الرحب فالسطحا

(١) راجع قصيدته التي يرثي بها المعتضد ، ويمدح المعتمد ابنه في نصح الطبيب طبع أوربا ج ٢ صفحة ٤١٦ (٢) الجون يطلق على الابيض والاسود ، والغرض منه الاسود

محل ارتياح يُذكر الخلدَ طيبه إذا عزَّ أن يمسى الفتى فيه أو يضحى  
هناك الحمام الورق<sup>(١)</sup> تندى خفافها ظلال عهدت الدهر فيها فتى سمحا  
تعوضت من شدو القيان<sup>(٢)</sup> خلاها صدى فلوأت قدأطار الكرى صبحا  
ومن حملى الكأس المفدى مديرها تقحمُ أهوال حملت لها الرما

## الغزل فى شعر ابن زيدون

يتبين من أحوال الاجتماع فى الاندلس ، وميول النفوس واختلاط  
النساء بالرجال ، واندماج كثير من الادبيات فى مجالس اللهو والطرب ،  
ان المرأة شغلت جزءا عظيما من أوقات الرجال المفكرين ، وملأت  
رؤوسهم ، كما أن مجالس الشرب كان لها سلطان عظيم على نفوسهم .  
فكانت المرأة تحرك العواطف والشعور ، والحر تدير العقول وتملى  
عليها القول ، وتفتح أمامها طرق التصور والخيال . والعقول ثملة بنشوة  
الغرام ، والرؤوس مثقلة بحرارة المدام ، والناس لا يفوتهم الطرب ، ولا  
يريدون أن يتأواروا عنه لعلاقته بنفوسهم ، حتى فى أشد المحن .  
فقد رأينا أن ابن زيدون كتب وهو فى سجنه لصديقه أبى حفص  
ابن برد يقول :

وأدر ذكرى كأساً ما امتطت كفك كأس  
واغتنم صفو الليالى انما العيش اختلاس

وقع ابن زيدون فى شرك ولادة بنت المستكفى بالله وكانت خليعة  
ماجنة بارعة فى الجمال ، أديبة شاعرة ، ذات مكانة رفيعة بين الأدباء

(١) التى فى لونها بياض ممزوج بسواد (٢) الجوارى

« تناضل الشعراء وتساجل الأدباء وتفوق البرطاء ... خرجت على نهاية في الأدب والظرف حضور شاهد ، وحرارة أوايد ، وحسن منظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر . وكان مجلسها بقرطبة منتهى لأحرار مصر ، وفناؤها ملعبا لحياد النظم والنثر ، يعشوا أهل الأدب الى ضوء غرتها ، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها وسهولة حجابها وكثرة متابها ، تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم أنساب وطهارة أثواب ، على أنها أوجدت للقول فيها السبيل بقلة مبالانها ومجاهرتها بلذاتها ... » وقالوا « إنها كانت بالمغرب كعلمية بالمشرق ، إلا أن هذه تزيد بمزية الحسن الفائق . وأما الأدب والشعر والنادوة وخفة الروح فلم تكن تقصر عنها . وكان لها صنعة في الغناء . وكان لها مجلس يغشاها أدباء قرطبة وظرفاؤها ، فيمر فيه من النادر وانشاد الشعر كثير لما اقتضاه عصرها ..... وكانت من الأدب والظرف وتمتع السمع والطرف ، بحيث تختلس القلوب والألباب ، وتعيد الشيب الى أخلاق الشباب » فقال ابن زيدون رضاها ، ووقع من نفسها كما وقعت هي من نفسه ، حتى كتبت اليه تضرب له موعداً ففالت :

ترقب اذا جن الظلام زيارتي      فاني رأيت الليل أكتم للسمر  
وبى منك مالو كان بالشمس لم تلاح      وبالبدور لم يطلع وبالنجم لم يسر  
قال أبو الوليد . « فلما طوى النهار نوره ، ونشر الليل نيره  
أقبلت بقدر كالةضيب ، وردف كالكتيب ، وقد أطبقت نرجس المقل  
على ورد الخجل . فلما الى روض مديح ، وظل سيجسج ، وقد قامت

رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل أنهاره ، ودر الطل منشور ، ورحيق  
الراح مزدور فلما شربنا نارها ، وأدركت منا نارها ، صرح كل منا  
بحبه وشكا ما بقلبه . وأنشدتها .

ودع الصبر محب ودعك      ذائع من سره ما استودعك  
يقرع السن على أن لم يكن      زاد في تلك الخطي إذ شيعك  
يا أخا البدر سناء وسنا      حفظ الله زمانا أطلعك  
أن يطل بعدك ليلى فلکم      بت أشكو قصر الليل معك  
وكتبت اليه بعد ذلك تقول :—

الاهل لنا من بعد هذا التفرق      سبيل فيشكو كل صب بما لقي  
الى إن قالت .

تمر الليالي لا أرى البين ينقضى      ولا الصبر من رِق التشوق معتق  
سقى الله أرضا قد غدت لك منزلا      بكل سكوب ها طل الوبل مغدق

\*  
\*  
\*

لازید الآن أن نتكلم في العشق وأثره في النفس وما يوحيه من  
روائع القول وجمال الفكر حتى عند طامة الناس ، فإن تاريخ الإنسانية حافل  
بمخادته . ولكننا نقول إن العشق في كلام العرب أو شعر الغزل كما  
يسمونه ، ليس من المسائل الهزلية لأن الشعر الذي هو وحي  
النفوس وجمال الإدراك الإنساني ، أكثر ما يكون ظهورا في التعبير  
عن الحب ووصف هذا الضعف الإنساني الذي نسميه عشقا ، فإن  
العشق أدراك أكبر مظاهر الجمال في الحياة ، ومن لم يفتح قلبه يوما  
ما ، لم يدرك أسرار الحياة ، ولم ير غير ظواهرها ، ولم يتسرب الى نفسه



بصيص ضوء من جمال الكون . ان جمال مظاهر الحياة وأسرار النفوس في التألف ، وكثير من آمال الناس في تلك الصلة النفسية . والعشق وما فيه من سعادة وجمال سر كامن في الشعر ، لأنه مصدر الشعر الخيالي الجميل . لذلك كان أجمل الشعر ما يكشف عن سر من أسرار النفوس ، ويفتح القلوب . ويظهر مكنونات الانسان وأخلاقه وآلامه وآماله . أن النساء منبع من منابع الشعر . والشعراء مديتون لهن بأفضل الصفات لديهم ، وهي : وصف شعور الناس . والشاعر الذي يشعر بالحب لا يتكلم عن نفسه فحسب ، وإنما يجمع آلام العشاق وأينهم فيتم ألم ويئن معهم . وليس أعذب من هذه الآلام ولا أحب للنفس من سماع هذا الأنين . إن الشاعر يصوغ بكلماته اهتزازات القلوب ، ورنات مايجول بها من المعاني ؛ ويدفعها إلى النفوس فتصبو إليها ، ويذيعها بين العشاق فيرى كل قلبه وكأنه ينظر في مرآة يرى فيها صورته . وذلك لا يكون إلا في الشعر

فاذا أخطأ العرب في إمعانهم في هذا النوع والاكثر منه ، فقد أخطأوا في جهة واحدة : وهي تكرار المعاني وتقليد بعضهم بعضاً في ذلك ، وظنهم أن كل قلب يحب بشكل واحد ، وإن صلة الحب بمظاهر الجسم قوية متينة ، وأن المعاني محصورة في ذلك .

ولكن ابن زيدون ليس من هؤلاء المقلدين ، بل من الذين كانوا يجولون جولات واسعة في الخيال ، فكان فنياً مبدعاً . أرايت شعراء العرب كيف يطنبون في وصف الأمكنة التي اجتمعوا فيها مع صديقاتهم ؟ وهم يتخذون ذلك وسيلة لأمرين .

الأول : احياء ذكرى تلك الأيام والأمكنة وما فيها ، إذ كل شيء هناك كان يشهد حبهم ويعطف على عشقهم ، وتلك الأماكن جميلة لأنها احتوت عليهم ، والأضواء التي كانت نستطيع عليهم ، والأشجار التي كانت تظللهم ، والكواكب التي كانت تتجسس أخبارهم ، جديرة بأن لا تنسى ، لأنها أثمر من آثار العشق .

الثاني : أن الشاعر الفنى يفر من التكرار ، ويعرف أن معانى العشق والحب سرعان ما تنفذ ، فهو يتحارب على بث شيء من المعانى الأخرى التى لها صلة بذلك ، كي يتسنى له أن يحول فى ميدان أوسع . ليصل إلى التعبير عن مراده ، أو يمنع العقول من أن يدركها الملل . فهو يستعين بذلك كما يستعين المصور الماهر بالألوان لظهور الصورة التى يريد أن يبرزها كذلك كان ابن زيدون من هؤلاء الفنانين أو قريبا منهم . فقد التجأ إلى مدينة الزهراء الجميلة فى أيام الربيع ، يريد أن يسلى نفسه ويخفف عنها من أثر حبه ولادة ، فذكر فى شعر أرسله إليها كل ما كان يحيط به إذ ذاك ، وأبدع أيما إبداع ، وأفنى افتنانا عظيما فى ذلك . فقال :

والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا	إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا
كأنما رق لي فاعتل إشفاقا	وللنسيم اعتلال فى أصائله
كما حلت عن اللبات أطواقا	والروض عن مائه الفضى مبتسم
بننا لها حين نام الدهر سراقا	يوم كأيام لذات لنا انصرفت
جال الندى فيه حتى مال أعناقا	نلهو بما يستميل العين من زهر
بكت لما بى فجال الدمع رقا	كأن أعينه إذ طابت أرق
فازداد منه الضحى فى العين اشراقا	ورد تألق فى ضاحى منابته

سرى ينافحه تيلو فر عبق  
كل يهيج لنا ذكرى تشوقنا  
لو كان وفي المنى في جمعنا بكم  
لا أسكن الله قلبا عن ذكركم  
لو شاء حمل نسيم الريح حين هفا  
كان التجازى بمحض الود من زمن  
فالآن أحمد ما كنا لعهدكم  
ومنان نبتة منه الصبح أحداقا  
إليك لم يعد عنها الصدر إن ضاقا  
لكان من أكرم الأيام أخلاقا  
فلم يطر بجناح الشوق خفا  
واقلم بفتى أضناه ما لاقا  
ميدان أنس جربنا فيه اطلاقا  
سـلـمـوـمـو وبقينا نحن عشاقا

وإذا كان لابن زيدون ميزة في شعره الغزلى فليس ذلك في ابتكار  
المعاني التي لم يسبق إليها ، وإنما هي في طريقة تصويرها بعبارات تملك  
النفوس وتستولى على القلوب ، وكان الإنسان لم يقرأ مثلها ولم يسمع  
بما يشبهها لجودة الافتنان في التعبير والاسلوب كما في قوله :-

إليك من الانام غدا ارتياحى  
وما اعترضت هموم النفس إلا  
فديتك ، ان صبرى عنك صبرى  
ولى أمل ، لو الراشون كفوا  
وأعجب ! كيف يغلبني عدو؟  
ولما أن جلتك لي احتلاسا  
رأيت الشمس تطلع في نقاب  
فلو أستطيع طرت إليك شوقا  
وحسبي أن تطالعنى الأمانى  
فؤادى من أسى بك غير خال  
وأنت من الزمان مدى اقتراحى  
ومن ذكراك رنجائى وراحى  
لدى عطش عن الماء القراح  
لأطلع غرسه ثمر النجاح  
رضاك عليه من أمضى سلاح  
أكف الدهر للحين المتاح  
وغصن البان يرفل في وشاح  
وكيف يطير مقصوص الجناح؟  
بأفقك في مساء أو صباح  
وقاي من هوى لك غير صاح

وان تهدي السلام الى شوقا ولو في بعض أنفاس الرياح  
ولقد يسمع الانسان أنينه في شعره ، ويرى نفسه الحزينة من  
خلال كلامه ، وكأنه يرى تلك الحيرة وذلك القلق النفسى اللذين يملآن  
نفوس العشاق ويمنعان عنهم راحة الحياة ولذاتها . على أنه يامتد لذكر  
محبوبته وتذوق الآلام في سبيلها فيقول :

متى أنبيك مابى	ياراحتى وعذابى
متى ينوب لسانى	فى شرحه عن كتابى
الله يعلم أنى	أصبحت فىك لما بى
فلا يلد منامى	ولا يسوغ شرابى
يا فتنة المتعزى	وحجة المتصانى
الشمس أنت توارت	عن ناظرى بالحجاب
ما البدر شف سناه	على رقيق السحاب
إلا كوجهك لما	أضاء تحت النقاب

ولقد بلغ درجة من التعبير يحمل بها القارىء على الاعتقاد بأنه  
مخلص كل الاخلاص فى حبه ، وأن حبه هذا هو كل أميته . وأنه  
يرى فى سبيل العشق ما لا يراه غيره ، ويهون عليه كل شىء فى سبيل  
ارضاء حبيبه حتى حياته . وهو نفور بهذا كما قال :

أنى تضيع عهدك	أم كيف تخلف وعدهك
وقد رأيتك الامانى	رضى فلم تتعهدك
ياليت شعرى وعندى	ماليس فى الحب عندك
هل طال ليدك بعدى	كطول ليلى بعدك

سَلَّنى حَيَاتى أَهْبِهَا فَلَسْتُ أَمْلِكُ رَدَّكَ  
الدَّهْرَ عَبْدىَ لَمَّا أَصْبَحْتُ فى الحُبِّ عَبْدَكَ

على أننا لا نبرىء ابن زيدون من التصنع أحيانا فيما يقول ، لأنه  
كان كغيره من الشعراء يعبر عن غير شعور ، فان تمكنه من الصناعة  
كان يفتق لسانه بقول الشعر . كما قالوا : إن السلطان أمره أن يعارض  
قطعا كان يغنى بها ، واستحسن ألحانها ، فانشأ أبياتا كأنها صادرة من  
طاشق مقيم ، وضمنها مدح السلطان . فقال :

يقصّر قرْبُك ليلي الطويلا ويشفى وصائلُ قلبي العليلا  
وان عصففت منك ريح الصدود فقدت نسيم الحياة البليلا  
كما أننى أطلت العنار ولم يبد عذرى وجهها جميلا  
وجدت أبا القاسم الظافر الـ مؤيد بالله مولى مقيلا  
لا قلامه فعل أسيافه يظل الصرير يبارى الصليلا

وفى بعض كلامه ، ما يدل على أنه كان يتصيد الألفاظ والمعانى  
التي قيات فى العشق ، فينظمها ويلبسها ثوبا جديدا وكأهـاله ، وقد برع  
براعة عظيمة فى ذلك كما قال :

ياغزالا أصارنى موثقا فى يد المِحن  
إننى مـمـذ هجرتنى لم أذق لذة الوسن  
ليت حظى اشارة منك أو لحظة تبـعن  
شافعى يامعذبى فى الهوى وجهك الحسن  
كنت خلوا من الهوى وأنا اليوم مرتـهن  
كان سرى مكنا وهو الآن قد علن

ليس لي منك مذهب فكما شئت لي فكأن  
وهو في كل كلامه مبدع مجيد متفوق على غيره : خفيف الروح  
عذب الألفاظ سهل الأسلوب

أما نونيته التي أرسل بها إلى ولادة وبها كثيرا من شعوره  
وآرائه المختلفة . فهي على شهرتها وجمالها ككل شعره ولذلك لم نذكرها

### نثر ابن زيدون

اشتهر ابن زيدون برساليته الجيدة والهزلية . أما الأولى فهي التي  
كتبها في سجنه يستعطف بها ابن جهور ، وأما الرسالة الهزلية فكتبها  
على لسان ولادة يتهكم على ابن عبدوس وينال منه لمشاركتة في غرامه  
اشتهر ابن زيدون بهاتين الرسالتين لحوكة أسلوبهما النادر المثال ،  
ولاحتوائهما على كثير من الاسماء التاريخية والامثال العربية ، واقتباس  
أبيات من الشعر معروفة وقعت في صوغ الكلام وكأنها عملت من  
أجله ، أو قيسست على سمته . وليس من السهل معرفة الاقتباس وأمكنته  
ولا من الهين أن يخوض الانسان غمار الادب الواسع ويسهل عاينه  
الاختيار منه ، ويحفظ نفسه من الضلال في نواحيه ، ويميز بين الجيد  
وغيره ، ويختار ما يناسب المقام ، ويكون ذلك مقبولا لدى النفس ثم  
يصوغ ذلك كله في قالب واحد ويضم بعض أجزائه الى بعضها ويخضه  
كما يخض الزبد فلا يتنافر منه جزء مع آخر

إن الكلام على هذا النحو لأصعب من الابتكار في التأليف  
المبتدأ وكما قرأ إلى القارئ الأسلوب وصعب عاينه معرفة تأليفه ، شعر  
بسعة اضلاع الكاتب ، وأعجب به وكبرت في نفسه منزلته . وكما

اسم لم يكن يخطر له ببال ، أو رأى<sup>١</sup> كان بعيداً عن ذهنه ، أو إلى قصة لا يظن أن تذكر في مثل هذا الكلام ، أو عبارة من نفسه حب الاستطلاع ، أو مثل انعط به ، أو ذكر رجل بمجده ، أو نكتة تسربها نفسه ، أو مسألة فنية يرتاح لها ويلتذ بها ، زاد أعجابه بالكاتب وما يكتب ، ورأى أن كل إنسان در على ذلك ، وإن هذه صفة يمتاز بها الكاتب عن سواه . كل نثر ابن زيدون ، وهو من دواعي الإعجاب بأسلوبه في رسائله رف كيف يأتي في كتاباته بالتناسق في المعاني والالفاظ . بل أن يأتي بهذا التناسق في التأليف والجمع وكيف يتمسك كلام برصفه رصفاً جميلاً ، كما أمكنه أن يرسم لنفسه منهجاً جمع فيه لوماته ، واختار منها ما يناسب حاجته وموضوعه ، فكانت أنيقة جميلة ، وكان كالمهندس الماهر الذي يعرف كيف يجمع بين والحجر والمصور الفنان الذي يؤلف بين اللون واللون لقد حاول ابن زيدون في رسالتيه الوصول إلى غرضه ، فلم يدع ما يجسم بها المعنى في نفس القارئ لتنهال عليه المعاني ويكون أوضح ، ورأيه أظهر ، إلا فعلها . فكل ما ذكره من الأمثلة والمعاني المختارة قصد به توضيح ما يريد :

في رسالته الجديدة أراد أن يستعطف ابن جهور ، ويبرئ نفسه به وينكل بأعدائه . فبدأ رسالته بالاستعطاف وهو يستدل أرة ، ويمدح ابن جهور ويظهر إخلاصه له (ويتملق إليه) أخرى عنه فيما وقع منه في حقه ، ثم يبين له شدة ألمه من شمانية أعدائه فقال :

« يا مولاي وسيدى الذى و دادى له ، واعتمادى عليه ، واعتدادى به ، وامتمادى منه ، ومن أبقاه الله ماضى حمد العزم ، وارى زندا الأمل ثابت عهد النعمة . إن سلبتني - أعزك الله - لباس نعمائك ، وعطلتني من حلى ايناسك ، وأظلماتني إلى برود اسعافك ، ونفضت بي كف حياطتك ، وغضضت عني طرف حمايتك ، بعد أن نظر الإلهي إلى تأميلي لك ، وسمع الأصم ثنائى عالمك ، وأحس الجاد باستجمادى إليك ، فلا غرو . قد ينص الماء شاربه ، ويقتل الدواء المستشفي به ، ويؤتى الحذر من مأمنه ، وتكون منية المتمني في أمنيته ، والحين قد يسبق جهد الحر يص .

كل المصائب قد تمر على الفتى ونهون غير شماتة الأعداء  
وأنى لا تجلد ، وأرى للشامتين أنى لريب الدهر لا أتضع .  
فأقول : هل أنا إلا يد أدماس وارها ، وجبين عض به اكيله ، ومشرفى الصقة بالارض صاقلة ، وسمهرى عرضه على النار مثقفه ، وعبد ذهب به سيده مذهب الذى يقول :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم  
ثم أخذ يتعطل بالآمال ، ويضرب في ذلك الأمثال ، ليسلى نفسه ويهدى منها بعبارات شعرية يريد أن يؤثر بها في نفس المرجو ، ويحمده على كل شيء ، كما يحمد الله على السراء والضراء . فقال :

« هذا العتب محمود عواقبه ، وهذه النبوة غمرة ثم تنجلي ، وهذه النكبة سحابة صيف عن قليل تقشع ، ولن يربنى من سيدى إن أبطأ



سنيبة ، أو تأخر غير صنين غناؤه ، فابطأ الدلاء فيضاً أملؤها ، وأثقل  
السحائب مشياً أحفائها ، وأنفع الحيا ماصادف جدبا ، وألد الشراب  
ما أصاب غليلا ، ومع اليوم غد ، ولكل أجل كتاب . له الحمد على  
اهتباله ، ولا عتب عليه في اغتفاله .

فإن يكن الفعل الذي ساء واحدا فأفعاله اللائي سررن ألوف «  
ثم وقف مرقف المذلة . وكأنما يسمع الانسان بكاءه في كلامه ،  
وامتصغر ذنبه في ساحة عفو سيده ، وفي جوار ما ارتكبه غيره من  
الذنوب الكبيرة ، فقال :

« وأعود فأقول : ما هذا الذنب الذي لم يسعه عفوك ؟ والجبل  
الذي لم يأت من ورائه حملك ؟ والتطاول الذي لم يستغفره تطولك ؟  
والتحامل الذي لم يف به احتمالك . ولا أخلو أن أكون بريثا فأين  
العدل ؟ أو مسيئاً فأين الفضل ؟

إلا يكن ذنب فعلك واسع أو كان لي ذنب ففضلك أوسع  
فهبني مسيئاً كالذي قلت طالبا قصاصاً فأين الأخذ يا عز بالفضل  
حنائيك . قد بلغ السيل الزبى ، ونالني ما حسبي به وكفى ، وما أراني  
إلا لو أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت ، وقال لي نوح اركب  
معنا ، فقلت سأوى إلى جبل يعصمني من الماء ، وأمرت ببناء صرح  
لعلني أطلع إلى إله موسى ، وعكفت على العجل ، واعتديت في السبت ،  
وتعاطيت فعقرت ، وشربت من النهر الذي ابتلى به جيوش طالوت .. »

والعجب في ذلك من حضور ذهنه وحدته مما يدل على تيقظه

الشديد . ثم أخذ بعد ذلك يهرىء نفسه ، ويعجب من سيده الذى يصغى إلى أعدائه ، على ما كان له من المنزلة التى لم تدفع عنه ذلك ؛ وأخذ يلوم ابن جمهور لوماً لا يظهر إلا من خلال عباراته ، لشدة تمكنه من تصرف الكلام واحتراسه فيما يقول :

« فكيف؟ ولا ذنب إلا نسيمة أهداها كاشحٌ ، ونبا جاء به فاسق وهم الهنازون المشاءون بنعيم ، والواشون الذين لا يلبثون أن يصدعوا العصا ، والغواة الذين لا يتركون أديماً صحيحاً ...

والله ما غششتك بعد النصيحة ، ولا انحرفت عنك بعد الصاغية اليك ، ولا ناصبت لك بعد التشيع فيك ، ولا أزمعت يأساً منك ، مع ضمان تكفلت به الثقة عنك ، وعهد أخذه حسن الظن عليك . فقيم عبث الجماء بأذمتى ، وطأ العقوق فى مَوَاتى ، وتمكن الضياع من وسائلى ؟ ولم ضافت مذاهبى وأكثت مطالبى ؟ وعلام رضيت من المركب بالتعايق بل من الغنيمة بالاياب ؟ وأتني غلبنى المغلب ، وفجر على العاجز الضعيف . ولطمتنى غير ذات سوار ؟ ومالك لم تمنع منى قبل أن أفترس وتدركي ولما أمزق ، أم كيف لا تتضرر من جوانح الا كفء حسداً الى على الخصوص بك ، وتتقطع أنفاس النظراء منافسة فى الكرامة عليك »

ثم ذكره باخلاصه له ؛ ومدسه إياه وأخذ يرجع الى استعطافه ويملقه فقال :

« وقد زاننى رسم خدمتك ، وزهانى اسم نعمتك ، وأبليت البلاء الجميل فى سباطك ، وقتت المقام المحمود فى بساطك .

ألمست الموالى فيك غر قصائد      هى الأنجم اقتادت مع الليل أنجما  
 ثناء يظن الروض منه منورا      ضحى ويخال الوشى فيه منمنما  
 وهل لبس الصباح الا برداً طبرزه بفضائلك . وتقلدت الجوزاء  
 إلا عقدا فصلته بما ترك ؟ واستملى الربيع الاثناء ملائته فى محاسنك ؟  
 وبث المسك إلا حديثاً أذعته فى محامدك ؟ ما يوم حليلة بسر . وان  
 كنت لم أكسك ساليبا ، ولا حليلتك عطلا ، ولا وسمتك غفلا . بلي  
 وجدت أجراً وجصاً فبنيت ، ومكان القول ذا سعة فقلت . حاشا لك  
 أن أعد من العاملة الناصبة ، وأكون كالدبالة المنصوبة تضىء للناس وهى  
 تحترق ، فلك المثل الاعلى وهو بى وبك أولى . »

ثم جاءته عزة نفسه فانتقل نقلة أخرى ، فبين له أن مثله لا يصبر  
 على الهوان وأنه يستطيع فراقه وهجر بلده إلى مكان آخر ، ويخاطر فى  
 هجرته هذه بما عسى أن يلاقى من الآلام ، مستأنسا بأدبه وفضله فقال  
 « ولعمرك ما جهلت أن صريح الراى أن أتحول اذا بلغتني الشمس  
 ونباني المنزل ، وأصفح عن المطاعم التى تقطع أعناق الرجال ، فلا استوطىء  
 العجز ، ولا أطمئن إلى الغرور . ومن الامثال المضروبة « طامرى أم  
 طامر » . وانى مع المعرفة بأن الجلاسيا ؛ والنقلة مثلة

ومن يغترب عن قومه لم يزل يرى      مصارع مظلوم مجرا ومسحبا  
 وتدفن منه الصالحات وان يسيء      يكن ما أساء النار كفى رأس كبكبا  
 عارف أن الأدب الوطن لا يخشى فراقه ، والخليط لا يتوقع زياله  
 م ٩ -- أدب

والنسيب لا يُخْفَى؛ والجمال لا يُخْفَى. ثم ما قران السعد للكواكب أبهى  
آثرا، ولا أسنى خطرا من اقتران غني النفس به، وانتظامها نسقا معه  
فان الحائز لهما، الضارب بسهم فيهما - وقيل مالم - أينما توجه ورد  
منهل ير؛ وحط في جانب قبول، وضوحك قبل انزال رحله، وأعطى  
حكم الصبي علي، أهله

وقيل له أهلا وسهلا ومرحباً فهذا مييت صالح ومقيل «  
وكانه شعر بأن هذا يدعوا ابن جهم ووريلي أن ينسى استعطافه لما يذان  
في هذا الكلام من عجب ابن زيدون بنفسه. فأخذ ياطف من حديثه  
واسكن من هياجه؛ ويظهر تمسكه بجوار سيده لأنه أفضل شيء لديه  
في الحياة فقال :

« غير أن الودان محبوب . والمنشأ مألوف، والابيب يحن إلى وطنه  
حنين النجيب إلى عطائه . والكريم لا يجفو أرضا فيها فوابله، ولا ينسى  
بلدة فيها مراضعه ، قال الاول

أحب بلاد الله ما بين منعج إلى وسامي أن يصوب سحابها  
بلادها حل الشباب تئامى وأول أرض مس جلدي تراهها

هذا إلى مغالاتي بعقد جوارك ، ومنافستي بلحظة من قربك ،  
واعتقادي أن الطمع في غيرك طبع ، والغنى من سواك عنا ، والبذل  
منك أعور ، والعوض لفاء ، وكل الصيد في جوف الفرا

وإذا نظرت إلى أميري زادني صننا به نظري إلى الأراء»

ثم أخذ يقوى أمله في اجابة طابه ، ويضرب الامثال في ذلك ،  
ويمدح في جوار سيده بقوله :

أعيزك ونفسي من ان اشيم خلباً ، واستمطر جهاما ، وأكرم  
غير مكرم ، واشكو شكوى الجريح إلى العقبان والرخم ، فما أبست  
لك إلا لندر ، وحركت لك الحوار إلا لتحن ، ونهتاك إلا لئام ،  
وسريت لك إلا لأحمد السرى لديك ، وإنك أن منيت عقد أمرى  
تيسر ، ومتى أعذرت في فك أسرى لم يتعذر ، وعامك محيط بأن المعروف  
ثمره النعمة ، والشفاعة زكاء المرءة ، وفضل الجاه يعود صدقه .

وإذا امرؤ أهدي إليك صنيعه من جاهه فكأنها من ماله »

هذا أكثر ما في هذه الرسالة الجدية . وأعظم ما فيها تأليفها الذي  
يرى من خلاله تلك النفس الحائرة المضطربة ، التي تهيج مرة وتسكن  
أخرى ، وتجد أحيانا ثم ترجع وتلين ، وكأنها الكاتب في نزاع مستمر  
بين نفسه وأهوائه ، أو كأنه هو ونفسه قرنان : يضعف كل منهما عند  
ما يخاف قوة صاحبه .

هذه صورة نفس ابن زيدون ، يراها القارىء إذا وقف عن كذب  
ونظر إلى حركات نفسه وهو يكتب أو يفكر في هذه الرسالة . يرى  
نفسه الأبية وهو يفخر بها ويظن أنه من أهل الفضل ، ويرى نفسه  
المتهمكة ، وهو يحسب ويعد الذنوب الكبيرة التي تستحق مثل عقوبته ،  
لا يريد أن يقول هذا ظلم ، ولكن يريد أن يقول هذا حق وخرق في

الرأى . ويرى نفسه الكئيبة التي أخذتها الاكدار فذلت وأخذت  
لستعطف وتستشفع وتتملق . يرى الانسان كل ذلك فى هذه الرسالة .  
ومن هنا جمالها وابداعها . لا ما بها من الاسلوب البليغ أو العبارات  
المختارة لا غير .

أما رسالته الثانية التي كتبها لابن عبدوس عن لسان ولادة .  
فقد دا ، فيها على اطلاع واسع بالأمثال والأخبار ، وعلى باع أوسع فى  
التهجاء . لأنه أفذع فى ذم ابن عبدوس اقذا ، وتهكم به تهكما لا مثيل  
له ، حتى انه ليخيل الى الانسان أنه جمع كل ما يمكن أن يقال فى الذم  
والتهكم وأفرغه على ابن عبدوس واستعمل أسلوبا جميلا خلايا يدل على  
تمكنه من التصرف فى الكلام ، ومعرفة امتلاكه عقول القراء ، لأن  
هذه الرسالة على طولها وكثرة الاقتباس فيها ، الذى يستغرق أربعة  
أخماسها أو أكثر ، وعلى ما فيها من الأمثال المعروفة والايات المشهورة ،  
والاطناب فى ذكر الاسماء التي يكفى منها القليل ، ليس فيها ما يدعو  
إلى الملل ، ولا ما يشعر بالاستهجان والابتذال . على ان بها شيئا كثيرا  
من تلك العيوب ، فقد ذكر أكثر من خمسين اسما لمشهورى الرجال ،  
سردا سريدا ، وكان يكفى عشرها ، وأكثر أيضا من صفات الذم مما  
كاد يكون ثروة ولغوا . ولكنه ستر كل ذلك ببراعته فى الصناعة .  
وليس أدل على جفاء الطبع وغلظه من هذه الرسالة فقد ابتدأها بسفاهة  
نادرة ولكنها سفاهة أدبية فنية فقال :

« اما بعد ايها المصاب بعقله . المورط بجهله . البين سقطه : الفاحش  
غلطه ، العائر فى ذيل اغتراره : الأعمى عن شمس نهاره . الساقط سقوط

الذباب على الشراب . المتهافت تهافت الفراش على الشهاب . فأت  
العجب أكذب ، ومعرفة المرء نفسه أصوب . وإنك راسلتني  
مستهديا من صلتى ما صفرّت منه أيدي أمثالك ، متصديا  
من خلتى لما قرعت دونه أنوف أشكالك . مرسلًا خليلتك مرتادة ،  
مستعملا عشيقتك قوادة . كاذبا نفسك انك ستنزل عنها الى . وتحاف  
بعدها على

ولست بأول ذي همّة دعت له ليس بالنائل  
ولا شك أنها قلّتك اذا لم تضن بك . وملتك اذا لم تعز عليك .  
فانها أعذرت في السفارة لك ، وما قصرت في النيابة عنك ، زاعمة أن  
المروءة لفظ أنت معنا ، والانسانية اسم أنت جسمه وهيولاه ، حتى  
خيلت أن يوسف عليه السلام حاسنك فغضضت منه ، وأن امرأة  
العزیز رأتك فسلت عنه ، وأن قارون أصاب بعض ما كنزت ،  
وكسرى حمل فاشيتك ، وقيصر رعى ماشيتك ... »

وسار على هذا النحو وأكثر من ذكر هذه الأسماء ، ثم أفذع  
في الذم وأخش في صفائه فقال :

« وهبها ، لم تلاحظك بعين كيلة عن عيوبك ، ملؤها حبيدها ، حسن  
فيها من تود ، وكانت انما حلتك بحلاك ، ووسمتك بسيماك ، ولم تعرك  
شهادة ... ولم تكن كاذبة فيما اثنت به عليك ، فالمعبدى تسمع به خير  
من أن تراه . هجين القذال ، أرعن السبال ، طويل العنق والعلاوة ،  
مفرط اللحم والغباوة ، جاف الطبع ، سىء الجابة والسمع ، بغيض الهيئة ،

— ١٣٤ —

سَخِيفُ الذَّهَابِ وَالْجِيئَةُ ، ظَاهِرُ الْوَسْوَاسِ ، مُنْتِنُ الْأَنْفَاسِ ، كَثِيرُ الْعَايِبِ  
مَشْهُورُ الْمُنَالِبِ ، كَلَامُكَ نَمْنَمَةٌ ، وَحَدِيثُكَ نَغْمُ نَغْمَةٍ ، وَبَيَانُكَ فَهْمَةٌ ،  
وَضَحْكُكَ قَهْقَهَةٌ ، وَمَشْيُكَ هَرُولَةٌ ، وَغَنَاكَ مَسْأَلَةٌ ، وَدِينُكَ زَنْدَقَةٌ ،  
وَعِلْمُكَ مَخْرَقَةٌ

مَسَاوِ لَوْ قَسَمْنَا عَلَى الْغَوَايِ لَمَّا أُمِرْنَا إِلَّا بِالْإِطْلَاقِ «  
وَاسْتَمَرَّ عَلَى هَذَا النُّحُوِّ إِلَى آخِرِ الرِّسَالَةِ يَضْرِبُ الْأَمْثَالَ لِلْمُسْتَهْزِءِ  
وَاتَّهَمَ

وَلَقَدْ كَشَفَ ابْنُ زَيْدُونَ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ عَنْ نَفْسٍ حَقِيقَةٍ مَحْبُوبَةٍ  
لِلْإِنْتِقَامِ وَائْتِهَ شَدِيدُ الْحَفِيزَةِ ، وَدَلَّ عَلَى غِلْظَةٍ فِي طَبْعِهِ وَخَشُونَةٍ فِي  
أَخْلَاقِهِ . مَعَ ذَلِكَ . فَهِيَ رِسَالَةٌ تَمْتَّازُ بِأَسْلُوبِهَا ، وَتُنَاسِقُ عِبَارَاتُهَا ، وَلَعَلَّ  
ابْنَ زَيْدُونَ أَخَذَ هَذَا الْأَسْلُوبَ عَنِ الْجَاهِلِ فِي بَعْضِ رِسَائِلِهِ ، كَمَا فِي  
رِسَالَةِ التَّرْبِيعِ وَالتَّدْوِيرِ



## ابن هانىء

(١) حياته ومنشؤه : هو أبو القاسم محمد بن هانىء الأزدي الأندلسي ، من أكبر شعراء الأندلس وأشهرهم . ذاع ذكره في المغرب والمغرب وتقدم على غيره من الشعراء ، وعاش في أرغوا أيام دولة بني أمية في الأندلس ، فقد مات في سنة ٣٦٢ بعد أن عاش ستاً وثلاثين سنة ، فيكون مولده على هذا القول في نحو ١٢٢٦ وهذه الأيام هي أزهى أيام دولة الأمويين ، وأبهى أيام عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم ( مات الناصر سنة ٣٥٠ ومات الحكم سنة ٣٦٦ ) في هذا العصر عاش ابن هانىء وظهر على الشعراء ، ولـكنه لم يكن من بني شعراء الناصر ولا من حاشية ابنه ،

وأصل أبيه هانىء من أفريقية ، وكان هو أيضاً شاعراً مشهوراً وأديباً معروفاً ، فانتقل إلى الأندلس ، فولد له محمد هذا بمدينة أشبيلية وإذا كان أبوه أديباً وشاعراً ، أى صنعتته الأدب يعيش منه ويرحل في طلب السؤال به ، كان ابنه أيضاً من عشاق الشعر ، وكانت أشبيلية إذ ذاك أخصب بلاد الأندلس علماً وأدباً ، فنشأ بها وبرع في الأدب واندمج في صف الشعراء لما كان له من الميل إلى ذلك ، وقد ورث الذوق الأدبي عن أبيه وتربى على حب الشعر ، وعرف منزلة الشعراء وأدرك ما كان لهم من رفعة الشأن ، والافاضة عليهم بالمال والثراء ، وكان ذكياً نديها ميالاً للخفة والدعارة ، وكانت بذرة الترف واللهو نبتت في تلك البلاد فاندفع في هذه البيئة اندفاعاً ، وانصل بصاحب أشبيلية

ونال حظوته وانهمك في الملاحى والملاذ، ولم يكن له رادع نفسى ولادىنى ، ثم جاهر بشىء من الآراء الممقوته هناك فغضب عليه أهل أشبيلية وساءت المقالة فى حق الملك، بسببه واتهم بمذهبه ، فأشار عليه الملك بالغيبة مدة لينسى فيها خبره فخرج من أشبيلية وعمره ستة وعشرون عاما ورحل إلى عدوة المغرب فلقى جوهر القائد (الذى فتح مصر للمعز) أحد ملوك أفريقية ثم اتصل بيهيى بن على بن بحر أحد ملوك طنجة وأخيه جعفر فبالغا فى أكرامه . ثم علم به المعز العبيدى أحد ملوك أفريقية فأجرى عليه كثيرا من العطايا وأكرمه اكراما عظيما وكان محبا للعلم والادب ، وسافر المعز هذا الى مصر فشيعة ابن هانىء ورجع الى المغرب لاختذ عياله ولما وصل الى برقة اصافه شخص هناك وبقي عنده أياما فى هناء وسرور ومجون باغ أشده وقالوا أنه خرج من تلك الديار وهو مسكران فنام فى الطريق فأصبح ميتا ولم يعرف سبب موته وقيل عربدوا عليه وقتلوه . ولما باغ المعز خبر موته أسف أسفا شديدا وقال كنا نريد أن نقاخر به شعراء الشرق فلم يقدر لنا ذلك.

(٢) أدبه وشعره : كان محمد بن هانىء من أصحاب الظرف

والخلاعة ، ذا أدب جهم ، لا يبالي بما يفعل ولا بما يقول ، حتى قالوا عنه إنه كان فى كلامه كثير من الافراط والغلو فى المدح المفضى الى الكفر ، وكان ينتجع أما كن الرزق لدى الخلفاء والامراء كغيره من الشعراء ويمش على متون القوافى ، وكانت حياته ككل حياة الادباء التنقل والرحلة وانشاد الشعر وحفظه ، والاطلاع على الأدب واللغة وشىء من تاريخ الادباء وحياتهم ، ومعرفة أقوال الشعراء ، ووعى أشهر

كلامه وأساليبهم وطرق التصور لديهم ، وموازنة الكلام بعضه ببعض ، والامعان في معرفة الجيد والردىء منه . لان ذلك كان له ولامثاله المرجع الوحيد الذى يستمد منه افكاره ومعلوماته وتصويراته ، التى هى كل شئ لديه

هذه كانت حياته العقلية وحياة امثاله من الادباء الخالص الذين لم يشتغلوا بالعلوم ، ولم يتجهوا الى الاستفادة منها . ولم تكن لابن هانى نزعة ادبية في غير الشعر . فقد اتجه اليه بكل قواه العقلية وحصر جميع ادراكاته فيه . لذلك ظهرت مواهبه في الشعر ، وكان له شأن رفيع بين كبار الشعراء

شعره : أما شعره فهو في جماته من الكلام الجيد . ونريد بالجودة هنا اختيار المعانى الداعية الى التفكير وحمل الذهن على البحث فيها ، ليدركها القارئ إدراكا صحيحاً يتعظ به . أو يستفيد منه شيئاً جديداً في حياته العقلية ، أو يذكره برأى نافع ، أو مسألة صحيحة من مسائل الحياة والاجتماع ، كما هى الحال عند كبار الشعراء المفكرين . فشعر ابن هانى به كثير من ذلك تطمئن إليه النفس وتميل الى آرائه وتصديقها وبه افكار عامة في الحياة . واكثر كلامه مملوء بهذه الآراء والخيالات الحكيمة . ولقد يمجد الانسان روح المتنبي تدب دييبا في كلامه احيانا ، وكأنه لا يحسب من الشعراء الخياليين الذين جاؤا بعده بأنواع الخيال وتفرغوا لذلك ، ولم ياجوا باب الحقائق الانسانية فى شئ ، ولا طرّفوا ابواب الحكمة ، بل اقتصروا على الاوصاف والتشبيهات . على ان ابن هانى رغم طريقتة المعروفة التى نسبت إليه ، كان يظهر عليه

أنه ناقل ومقلد في تلك المعاني التي حدثت في زمن المتنبي ، وفي الاساليب العربية التي كانت قبل ذلك ، فان منهجه في كلامه وإن لوبه لا يدل على غير ذلك . غير أنه بارع في جمع المعاني الغريبة ونظمها . واقف على كثير منها ، مستجمع لطائفة عظيمة من الآراء الحكيمة والأمثال والمواعظ يذكرها لمناسبة ولغير مناسبة وله في كلامه آراء تشبه آراء الناقد البصير في الاجتماع والناس ، ولعل هذا هو الذي حمل على القول بأنه كانت له آراء ممقوته ومموها آراء فلسفية .

وأول شيء يشعر به الانسان عند قراءة شعر ابن هاني أنه شاعر . لا كغيره من الشعراء ، شاعر ممتاز عن سواه ، وكفى بذلك دليلا على ملكة الشعر لديه . إن الصبغة الخاصة التي تدل على أثر الشاعر أو الكاتب أو على شيء من شخصيته في كلامه هي علامة من علامات الافتنان التي من أجلها يحسب من بين الفنيين . وليس الافتنان غير ابراز الجمال وكشف دقائق ما فيه .

وما هو جمال الشعر ؟ أليس هو ذلك الديب الذي يدب في النفوس فيملأها بهجة وارتياحا ويحملها على الإعجاب بالكلام وما فيه ؟ أليس جمال الشعر في تلك الرنات التي تطرب النفس وتحركها كما تحرك رنات المزاهر والأفاني ؟ أليس جمال الشعر في الألفاظ والمعاني وتنسيقها وتناسبها وتقابلها وترتيبها ، ونظمها وجمعها بأسلوب يتحایل به الشاعر على أن ينال من نفس غيره وشعوره ، وأن يتقرب الى قواد وامتلاك عقله ، وأن يحرك لقلوب والعواطف ، ويحكم على العقول ، بالأصغاء إليه والتصديق لما يقول ؟ . هذا هو جمال الشعر ، كما ان ذلك هو سر كل فنون الجمال . وأكثر جمال

الفنون هو في معرفة تصوير الاشياء أو المعاني مع دقة الفنى في ذلك . ولقد يكون الافتنان تقاييداً متقناً لشيء معروف . هذا التقاييد المتقن هو ما يراه الانسان جميلاً . فليس من لوازم الافتنان في الشعر ابتكار المعانى ، بل الاحاطة بها مع دقة ابرازها :

وهذا ما يشعر به القارىء في أكثر شعر ابن هانيء ، يشعر بسعة خياله ، ودقة ادراكه ، وحسن اختياره ، وتانسيق صناعته ، وافتنانه الخاص ، الذى يدل على أن الكلام كلامه ، والاسلوب أسلوبه . يتغزل ابن هانيء كما يتغزل غيره . ولكنه غزل غير غزل غيره ، تشعر عند قراءتك له أنه شاعر ممتاز ، له صفة خاصة وذوق خاص . يغرب في غزله ويتعجب من جمال محبوبته . ويخاطبها ويصفها بما يدعو الى الاحجاب بها ، ويحرك العواطف اليها . وكأنما ذلك كله أثر غرامه الصحيح ، وحببه الصادق ، وربما لم يكن شيء من ذلك ، رأيت كيف يتغزل في قصيدة مدح :

فتكت طرفك أم سيوف أبيض	وكؤوس خمر أم مراشف فيك
أجلاد مرهفة وفتك محاجر	ما أنت راحة ولا أهلوك
يابنت ذى البرد الطويل نجاده	أكذا يجوز الحكم في ناديك
قد كان يدعوني خيالك طارقاً	حتى دعاني بالقنأ داعيك
عينك أم مغناك موعدا وفي	وادي الكرى ألقاك أم واديك
منعوك من سنّة الكرى وسروا	فلو عثر وابطيف طارق ظنوك
ودعوك نشوى ماسقوك مدامة	لما تمايل عطفك اتهموك
حسبوا التكهّل في جفونك حلية	تألّد ما بأكفهم كحلوك

ولوى مقبلك اللثام ومادروا ان قد لثمت به وقبل فوك  
قد يكون تشبيهه العيون بالسيوف معروف ، وقد يكون تشبيهه  
الريق بالحجر ، والاشارة الى أن التكحل غير الكحل معروفا أيضاً ،  
ولكن ما ليس معروفا هو ذلك الأسلوب ، وهي روح الشاعر التي  
لديست هذه المعاني ، وكأنها قيست عليها أو كانت من مبتكراتها ولقد  
يأتى في أثناء كلامه بمعان وتشبيهات بدیعة مع أساوبه المعروف في  
البدء بالغزل .

كان ابن هانيء يعيش من شعره ولذلك كان أكثر شعره وابلغه  
في المدح ؛ فقد مدح المعز لدين الله الفاطمي وغيره من الأمراء بشعر  
يسيل رقة وجمالا . ولما كان غرضه التملق في مدحه وطلب الرزق بذلك  
كان يكيل المدح كيلا ويميل إلى المبالغة حتى يصل بمدحه أوج السكال  
ولم تكن قصائده في المدح مقصوده على تمجيد من يمدحهم وتعظيمهم  
لاغير ، بل كان يدخل في مدحه كثيرا من الأغراض أثناء كلامه ولذلك  
يشتمل شعره على جميع أغراض الشعر وفنون الكلام حتى لقد يرى  
أنه أجاد ضمنا في كل هذه الموضوعات فيحسب وصافا وغزالا ومادحا  
وواعظا وحكيما وجادا وهازلا .

وقد يبالغ في كل معنى من المعاني مبالغة من يريد تجسيم المعنى  
بالاستعانة بالخيال أو المبالغة ولايبالي بما عسى أن يكون في شعره من  
كذب أو هوار لأنه لم يكن يتوخى الحقائق في كلامه فسكان إذا مدح  
رفع شأن ممدوحه وجعله يختص بصفات السكال وحده وكأنه كل شيء  
في الوجود كما قال يمدح المعز :

هو علة الدنيا ومن خلقت له ولعله ما كانت الأشياء  
ليست سماء الله ماترونها لكن أرضا تحتويه سماء  
نزلت ملائكة السماء بنصره وأطعه الاصباح والامساء  
وان أدى ذلك إلى كفر أو إلحاد . ولعله لم يكن يعنى بغير الافتنان  
في اختيار المعاني واظهار البراعة في ذلك وكأنه رجل شاعر لا غير . أو  
فنى ينمق العبارة ولا يبالي بما يؤدي اليه المعنى . ومثله في ذلك مثل  
المثاليين أو المصورين الذين يقصدون من أعمالهم اظهار حقيقة فنية أو  
معنوية فيصورون النساء والرجال عرايا ولا ينظرون إلى ماعسى أن  
تؤدي اليه آثارهم الفنية من فساد في الاخلاق ، أو انعواج في النفس  
فقد مدح ابن هانيء المعز لدين الله بما لم يمدح به انسان ووضعه في  
مقام الألوهية فقال : —

ماشئت لاماشرات الأقدار فأحكمت فانت الواحد القهار  
وكانما أنت النبي محمد وكانما أنصارك الأنصار  
انت الذي كانت تبشرنا به في كتبها الأخبار والأخبار  
هذا امام المتقين ومن به قد دوح الديوان والكفار  
هذا الذي ترجى النجاة بحبه وبه يحط الاصر والاقدار  
هذا الذي تجدى شفاعته غدا حقا وتحمد إن تراه النار  
وأكثر عيوبه في شعره ترجع إلى اختيار مثل هذه المعاني وإلى  
عدم مبالاته بما يقول . ولقد يمدح في تصيد المعنى القليل واللفظ الشريف  
ويرسله في عبارة يبتث في النفس الاحجاب كقوله في مدح المعتز : —  
فاذا بعثت الجيش فهو منية وإذا رأيت الرأي فهو قضاء

-- ١٤٢ --

ويمدح ويقول في موضع آخر

قد طيّب الافواه أطيب ثنائه من أجل ذا تجدد الثغور عذابا  
لبس به الصباح صباحا مسفرا وسقت شمائله السحاب مسحبا  
قد بات صواب المزدى سترق الندى من كفه فرأيت منه عجابا  
أو يمدح فيقول على طريقته في المبالغة الجميلة :-

وما الجود قبلك سابقا بل جود شيء في زمانك حادث  
وفي هذه القصيدة يقول :-

عبثت زمانا بالليالي وصرفها فهاهي بي لو تعلمون عواث  
لئن كان عمق النفس للنفس قائلا فأنى على حثني بكفى باحث  
وان كان عمر المرء مثل سماحه فان أمير التراب للأرض وارث  
وإذا نحن جثناه اقتسمنا نواله كما اقتسمت في الاقربين الموارث  
وان حراما أن نؤمل غـيره كما حرمت في العالمين الخبائث  
تبسمت الايام عنك ضواحا كما ابتسمت حول الرياض الدمائث  
وسد ثغور الملك بعد استلامها

وقد أظلمت تلك الخطوب الكوارث

فما أراد في محبوبه الملك رائد ولا عاث في عرشه الليث عاث  
ولقد يبدأ المدح بالغزل كغيره من شعراء العرب ، ولكنه يمتاز  
برقة المعنى والاسلوب وكأنما ينقض على المعنى انقضا ويخيلته  
اختطافا ويلبسه ثوبا من أسلوبه الجميل كما يتصيد المعاني الشاردة البعيدة  
فلاندرى أيهما تفضل أمعانيه الغزلية الرقيقة التي يخيل اليك أنها مبتكرة،  
أم مدائح البديعة التي تخيل اليك أنه مخلص وصادق فيها وفي كلتا



الحالتين تدفعك إلى الاعجاب والطرب .

أمسحوا عن ناظري كل السهاد وانفضوا عن مضجعي شوك القتاد  
أو خذوا مني ما بقيتموا لا أحب الجسم مسلوب الفؤاد  
هل تجيرون محباً من هوى أو تفكرون اسيراً من صفاد؟  
أسلوا عنكم من هجركم قلما يسلو عن الماء الصواد  
إنما كانت خطوب قيضت فعدتنا عنكم إحدى العواد  
فعلى الايام من بعدكم ما على الظماء من لبس الحداد  
لامزار منكم يدنو سوى أن أرى أعلام هضب أو نجاد  
قد عقلنا العيش في أوطانها وهي انضاء زميل ووخاد  
وحدث عنكم كثرة عن نسيم الريح أو برق الغواد  
لم يزدنا القرب الا هجره فرضينا بالتنائي والبعاد  
وإذا شاء زمان رأينا بريقب أو حسود أو معاد  
ثم تطرق من ذلك الى المدح مع اختياره جميل الصفات وتعدادها:  
حتى أنه ليخيل إلى القارئ أو السامع أن هذا الكلام أفضل ما يمدح  
به انسان أو أنه ليس من وراء ذلك الا طراء فقال :

من امام قائم بالقسط أو منذر منتخب للوحى هاد  
أهل حوض الله تجرى سلسلا بالظهور العذب والصفو البراد  
اسواهم ابتغى يوم الندى أم سواهم ارتجى يوم المعاد  
هم أباحوا كل ممنوع الحمى واذلوا كل جبار العناد  
وإذا ما أبتدأ الناس العلى فأنهم عاديها من قبل عاد  
ولهم كل نجاد مرتدى ولهم كل سليل مستجاد

ولقد يرق في كلامه فيأني بالمرقص والمطرب ، حتى لاتعرف أهو  
شاعر أم ماح أم عاشق أم مبتكر للمعاني أم موحى اليه بها ، كقوله :

قد سررنا على مغانيك تلك	فراينا فيها مشابه منك
حارصتنا المما الخرائد أسرا	بأ بأجراها فلم تسلم عنك
لا يرع للمها بذلك سرب	فلقد أشبهتكم إن لم تكنك
خمين مرجع كخنيدي	وتشك مررد كتشكي
فأنشد تسكب الدموع تسكبي	ثم لاتسفق الدماء كسفكي
لا أرى كابن جعفر بن علي	ماكا لابسا جلالة ملك
تتفادى القلوب منه وجيبا	في مقام على المتوج ضنك
وطويل النجاد فرج منه	جانب السجف عن حياة وهلاك

ولقد يصف فيبدع في الوصف ، وتظهر ميوله المجونية في شعره ،  
فيكون أصدق مايكون ، وأرق انسان ، عذب الالفاظ رشيقا ،  
خفيف الروح مبدا جذابا :

قن في مأتم على العشاق	وليسن الحداد في الأحداق
وبكين الدماء بالغم الرط	بالمقنا وبالخلود الرقاق
ومنحن الفراق رقة شكوا	هن حتى عشقت يوم الفراق
ومع الجيرة الذين غدوا دم	مع طليق ومهجة في وثاق
حاربهم نواب الدهر حتى	آذنو بالفراق قبل التلاق
ودنو للوداع حتى ترى الاجي	اد فرق الاجياد كالأطواق
يوم راهنت في البكاء عيونا	فتقدمت في عنان السباق
أمنع القلب أن يذوب ومن ي	نع جمر الغضى عن الاحراق

رب يوم لنا رقيق حواشي الله - هو حسناً جوال عقد النطاق  
 قد لبسناه وهو من نفحات الله - سك دروع الجيوب درع التراق  
 والأباريق كالظباء العواطي . . . . .  
 مصغيات إلى الغناء مطلا ت عليه كثيرة الاطراق  
 وهي شم الانوف يشمخن كبراً ثم يرعن بالدم المهرق  
 قدمتها السقاء كي يوقروها صمماً عن سماع شاد وساق  
 فهي أما يشكون ثقلاً من الولة وإما يسكين بالاماق  
 ويمزج أسلوبه بشيء من أساليب غيره، كتهليله المتنبي، حيث  
 يبت الحكم، أو شيئاً من التهمك، بينما هو يتكلم في المدح أو في الغزل .  
 ولقد يسبق إلى فكره شيء من المبالغة فيجري به لسانه فكأنه يقول  
 ذلك عن غير قصد . كما في قصيدته السابقة وما الجود .. الخ  
 وكثير من قصائده هي من نوع مزج الغزل بالحماسة والمدح . كما سبق  
 ثم ينتقل من معني إلى آخر . ويميل دائماً إلى الوصف الغزلي . كقوله :  
 قرطهم قد قلده صارماً لو أنصفوه قلده كوكبا  
 صبغوه يوماً بالشقيق وبالرحي ق وبالبفسج والاقاحي مشرباً  
 وكأئما طبعوا له من لحظه سيفاً رقيق الشفرتين مشطبا  
 قدماج حتى كاد يسقط نصفه وأذيل حتى كاد أن يتسربا  
 خالسته نظراً وكان موردا فاحر حتى كاد أن يتاهبا  
 فإذا مدح وصف وذكر صوراً كثيرة من الحوادث التي مرت في

حياة المدوح فبنت مجده ورفعت قدره . وفصائده في ذلك كثيرة :  
وهو في رثائه جيد أيضاً . يأتي بالعظة والعبر . وذلك هو الأسلوب  
الفلسفي المعروف في المشرق . ومن كلامه في ذلك قصيدته التي يقول فيها

وهب الدهر نفيساً فاسترد      ربما جاد بخيل ففسد  
كلما أعطى فوفى حاجة      بيد شيئاً تلقاه بيد  
كاذب جاء بهما زبرجا      بعد ما أومض برق ورعد  
انهاش نشنة من أخزم      قلما ذم بخيل فحمد  
خاب من يرجو زماناً دائماً      تعرف البأساء منه والنكد  
فاذا ما كدر العيش نمي      واذا ما طيب الزاد نقد  
فلقد أذكر من كان مسها      ولقد نبه من كان رقد  
أبداً يعجم منى نبعه      وفناة ليس فيها من أود

أسلوبه ويحسب أسلوبه في جملة من الأساليب الجيدة السهلة، لتكنه  
من التفنن في صناعة الكلام ولتكنه كثيراً ما يتكاف العسنة ويميل  
إلى ترصيع شعره بأنواع البديع فيأتي من طباق أو جناس أو مقابلة  
كما يأتي بالاستعارة الغريبة والكناية البعيدة وغرضه من ذلك أن  
يستعين بصناعاته على إبراز معانيه جميلة حلوة واضحة لأنه قد يأتي  
على المعنى المعروف فيكسبه بأسلوبه الجميل صبيغة جديدة ولقد يدفعه  
ذلك إلى الميل إلى الغرابة والتكليف والعناية بالصنعة والأسلوب أكثر  
من العناية بالمعاني واختيارها ولتكنه في جملة جميل الصنعة كثير  
البحث عن المعاني الدقيقة وعن اختيار الالفاظ الرشيقة

ولقد جرى في أسلوبه على الأسلوب القديم في البدء بالغزل  
والاسترسال فيه وذكر المعاني القديمة المعروفة عند الشعراء ولعل ذلك  
جاء من تمكنه من الشعر القديم وحفظه كثيرا منه ولكنه في جملة  
جميل الصنعة كثير البحث عن المعاني الدقيقة واختيار الألفاظ الرشيدة  
حتى قال عنه أبو العلاء المعري ما أشبهه إلا برحى تطحن قرونا لأجل  
القعقة التي في ألفاظه وقال الضبي صاحب بغية الملمس « وهو كثير  
الشعر محسن مجيد إلا أن قعقة الألفاظ أغلب على شعره » وربما  
كان أسلوبه دليلا على قول من يدعى أن شعراء الاندلس رغم ما كان  
لهم من الامتياز في الفكر والأساليب كانوا يقفون أثر البدو القدماء



## ابن خفاجة الأندلسي

نشأته وميوله الفنية :

هو أبو اسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن خفاجة الأندلسي الشاعر الأديب المشهور ، ولد ببلدة شقر ، ويطلق عليها العرب جزيرة شقر . وكانت ولادته سنة ٤٥٠ وتوفي بها سنة ٥٣٣ : عاش في عصر المرابطين بعد زوال دولة بني أمية والدولة العمارية ، وبعد انتهاء دولة بني عباد ، أي في عصر كان نضج اللغة والأدب بلغ أو كاد يبلغ منتهاه ، وكان الأدباء في لهو ومحون ، وكانت الملاحى والاشتغال بالملذات صرفت إليها العقول ، وجذبت إليها الأفكار ، فهدبت منها قليلا أو كثيرا . وإذا استولى اللهو على النفوس عشقت الجمال ، ومتى عشقت الجمال مالت إلى فهمه ، وما فيه من روعة وإبداع . فاذا كانت النفوس قد تهذبت بالعلوم والفنون المختلفة . أدركت جمال الكون إدراكا عميقا ، وبحنت عن خفاياه بحث اليميلسوف عن الحقائق ، وكان الشاعر فيلسوفا فنيا وشاعرا فيلسوفا ، يظهر الفلسفة في ثوب شعري ، ويظهر الشعر في ثوب فلسفي . أما إذا كان فنيا بطبعه ، ولم يكن له نصيب من العلوم ، فانه يكتفى بالنظر إلى الأشياء وفهم جمالها ، على حسب ما بها من التناسق الظاهر ، والمناظر الباهرة ، وجمال الألوان ، وكل ما توحى الطبيعة إلى النفس من الإعجاب . ولقد يؤثر هذا الشاعر في النفس بجمال قوله كما يؤثر الفيلسوف بحكمه وصدق إدراكه .

وقد وقف ابن خفاجة كل مواهبه لادراك الجمال ، وفهم ظواهره الرائعة

المبتوثة في أنحاء الكون . فهو من الشعراء الذين ربتهم الطبيعة ، وهذب إدراكه جمال الوجود فاتجه بجميع قواه العقلية والخيالية إلى معالجة التعبير عن هذا الجمال ، وانغمس انغماساً في ذلك ، حتى أصبح لا يكاد يدرك غير هذا النوع ، ولا يبحث إلا عن المعاني الجميلة . فقد كان يخرج إلى البراري ليسمع خرير المياه ، ويتمتع بهذه الأصوات والمشاهدات . وكان له ولعمه هذا . وبكل ما يقال فيه فكان يجارى الشعراء يعارضهم في مثل هذه المعاني التي شغلت عقول كثير من الأدباء والشعراء ، وكان الكلام في مناظر الطبيعة إذ ذاك من بدع البلاغة والأدب . فقد قالوا « ركب بعض الأدباء مع أصحاب له في نهر أشبيلية في عشية سال أصيافها على لجين الماء عقباناً ، وطارت زواريقها في سماء النهر عقباناً ، وأبدى نسيمها من الأمواج والدارات سروراً وأعطانا . في زورق يجول جولان الطرف ، ويسود اسوداء الطرف فقال بديها : -

تأمل حالنا ، والجو طلق      محياه ، وقد طفّل المساء  
وقد جالت بنا عذراء حبلى      تجاذب مرطها ريح رُخاء  
بنهر كالسجنجل كوثرى      تعبس ووجها فيه السماء  
واتفق أن وقف أبو اسحاق بن خفاجة على القطعة فاستظرفها واستطابها فقال يعارضها : -

ألا يا حبيدا ضحكك المحيا      بحانتها وقد عبس المساء  
وأدم من جياذ الماء نهر      ينازع جلّه ريح رخاء  
إذابت الكواكب فيه غرق      رأيت الماء تحسده السماء  
فكان شغف ابن خفاجة بمثل هذا الكلام عظيماً ، وكانت له ميول

إلى المجنون ، فاجتمعت هذه الميول النفسية ، إلى حبه لجمال الطبيعة  
وكونت ملكته الشعرية وخیالاته وتصويراته ، حتى لقد كان يملأ  
نفسه المجنون فيمتلئ عليه من المعاني ما يرسم شيئاً من أخلاقه وميوله في  
الحياة . كما قال .

وما الأئس إلا في مجاج زجاجة ولا العيش إلا في صرير سرير  
وإني وإن جئت المشيب لمولع بطرة ذل فوق وجه غدير  
فكانت ميوله وأخلاقه كأخلاق كل الفنين وميولهم ؛ خفة وطيشا .  
ولكنها خفة روح تدعو إلى حبه وحب كلامه . وهذا كله في شعره ونثره ،  
وكأنه لم يكن يرى من الحياة إلا ما يتفق مع أهوائه من بهجة وجمال ،  
حتى إنه وصف الأندلس وقال :

يا أهل أندلس لله دركمو ماء وظل وأنهار وأشجار  
ماجنة الخلد إلا في دياركمو ولوتخيرت هذا كنت اختار  
هذا السرور النفسى كان يغمره ولا يفارقه ، فانه كان يحب بلاده  
لأنها وطنه ، بل لأنها جميلة تشبه ما يحب في حياته من الجمال ،  
إذ يقول .

إن للجنة في الأندلس مجتلى حسن ورياً نفس  
فَسْنَا صبحتها من شذب ودجا ظلمتها من لعس  
فاذا ما هبت الريح صبا هت واشوق إلى الأندلس  
هذه أخلاق ابن خفاجة وميوله النفسية في جماتها ، وأثرها ظاهر  
في حياته العقلية ، وفي رسائله النثرية وقصائده الشعرية .



## شعر ابن خفاجة

رأينا أن ابن خفاجة كان مدفوعاً بطبعه إلى التأمل في المشاهدات ،  
والامعان في النظر إليها ، وتذوق أسرار جمال الطبيعة . والجرى وراء  
ذلك ؛ وكان هذا كل ما يرمى إليه من إدراك الحياة ومعاني الوجود لأن  
مشاهداته وأثرها في نفسه كانت تجذب قوى التفكير لديه ، وترسم  
له طرق الإدراك . وكان من أشد الأشياء أثراً في نفسه واستيلاء على  
عقله جمال الأشياء ومظاهر الطبيعة وتناسق الألوان فلم يمل إلى معرفة  
غير هذه الأشياء الجميلة ، ولم يجذبه من الحياة وضروب مافيه إلا  
الجمال ، فكان دائماً فرحاً مسروراً مبهج النفس لا تتعدى معارفه بسائط  
الأشياء الظاهرة ، فلم تجل نفسه جولات المفكرين في معاني الحياة  
الخفية ، ولا تكاد تجده مضطرب الفكر ولا مترقباً أو ناظر الهول من  
أحوال الحياة وحوادثها المؤلمة ، بل كان هادئاً مطمئناً ، يحمل بين جنبيه  
روح الأطفال ونشوة الشبان ، ميالاً إلى اللهو والمجون .

فكان شعره صورة لنفسه الهادئة وفكره مطمئن ومجائته  
الخلقية ليس فيه ما يدل على تفكير جدي أو حيرة أو شك في شيء  
يدعو إلى النظر أو يشغل الفكر مما يغري بعض المفكرين ويدفع  
بالفنيين إلى الخروج من عالم الخيال إلى عالم التفكير في الناس وأخلاقهم  
وأحوالهم ، والوجود ومافيه من خير وشر ليصل من ذلك في شعره إلى  
ذكر حكمة أو عبرة أو مثل سائر ، أو يدل على كد الفهم أو على صورة  
من صور الإنسانية المفكرة .

ولا تكاد تجد له صورة صحيحة في شعره تدل على نفسه وشعوره الخفى سوى ميله للجمال وحب الطبيعة الجميلة ، فهو كالمصور الذى يستمد كل شيء مما هو أمامه . ولم تكن تلك حاله لأنه لم يكن يشعر أو يفهم غير هذا ، أو أن نفسه خالية مما يعاق بالنفوس عادة ، كالحب والبغض والهم والحزن ، وأهوال الحياة وغيرها ، بل لأنه لم يكن يميل إلى ذلك ، لأن هذا يدعو إلى البؤس وتحمل المموم وكان هو يريد أن يعيش بعيدا عن ذلك ، سابحا في نوع من الاحلام اللذيذة :

كذلك كانت ميوله وكان ذوقه . ولذلك كان شعره مرآة لآخلاقه من وصف جميل ، ومجون لذينة ولدت في نفسه كثيرا من المعانى الشعرية الجميلة ، واندفع إلى تصويرها والتعبير عنها بما فطر عاينه من دقة في الادراك شأن جميع المتفنيين من الشعراء الذين تسربت نفوسهم في خفايا الجمال وأسراره فكان الجمال مثار شعره ومبعث خياله وافتنانه بتتبع روائعه ، فاذا امتلأت به نفسه أخذ في وضعه ورسمه في كلامه البليغ . فكان شعره رشيقا أنيقا لذينا جميل الصورة ، ولكنه كما قلنا بعيد عن صور التفكير الانسانى الصحيح ، وعن التأمل العميق في الحياة وفهم أسرارها النفسية والاجتماعية . لذلك كان جمال شعره في أسلوبه ، وحسن صناعته ، وبلاغة عبارته .

## أنواع شعره والوصف فيه

أما الموضوعات التي عالجها في شعره فهي : الوصف، والمدح، والعتاب، والرثاء والشكوى، والدعابات، وأجمل شعره ما كان في الوصف لأنه كما قلنا و صاف مبدع، ولا تكاد تخلو قصيدة من قصائده في أى غرض من الأغراض من وصف جميل يبنه في كل معنى وفي كل غرض، وقد يتخذ الوصف بما فيه من مجاز أو تشبيه جميل، أو استعارة مسنمحة أو كناية بعيدة أو قريبة وسيلته للوصول إلى كشف المعانى .

وقد يصف فيخيل إليك أنك تنظر في لوحة مصور، أو كأن كل معنى في كلامه « كائن حتى » يتحرك أمامك، كما قال يصف طيفاً ألم به في الليل الطويل، وأخذ خياله يتصور ما يمكن أن يكون في هذا الموقف من وصف ملاقاته لحبيبه، والتمتع به في حضرة . والليل يحيط بهما وهو على وشك الانصراف، وأخذ يشبه محبوبه بأنواع الرياحين وهو تشبيه سهل الإدراك صعب التركيب : وليس هذا الكلام في طاقة كل شاعر، ولا امتلاك البيان بمنزلة هذا في طوع كل فني ؛ تسكلم في الليل ثم في الطيف ووصفه بأرق ما يصف به حبيب حبيبه ؛ وأحسن ما ينال عاشق من عشيقه، وقد دام ذلك إلى طلوع الفجر ، وعيون الليل تتجسس أخبارهم ، وضوء الصبح يرقبهم . فقال :

ورداء ليل بات فيه معانق	طيف ألم لظيية الوعاء
جمعت بين رضا به وشرابه	وشربت من ريق ومن صهباء
ولثمت في ظلماء ليلة وفرة	شفقا هناك لوجنة حمراء

والليل مُشْمَطُ الذوائبِ كِبَرَةً      خَرِفَ يَدْبَ عَلَى عَصَا الْجُوزَاءِ  
 ثُمَّ انْتَهَى وَالسَّكْرَ بِسَحْبِ فَرْعِهِ      وَيَجْرُ مِنْ طَرْبِ فَضُولِ رِداءِ  
 تَنْدَى فِيهِ أَقْحَوَانَةٌ أُجْرِعَ      قَدْ غَاظَتْهَا الشَّمْسُ غِبَ سَمَاءِ  
 وَتَمِيسُ فِي أَثْوَابِهِ رِيحَانَةٌ      كَرِعتْ عَلَى ظَمَأٍ بِجَدُولِ مَاءِ  
 نَفَاحَةٌ الْإِنْسَانِ إِلَّا أَنَّهَُا      حَذَرَ النُّوَى خَنَاقَةُ الْإِفْيَاءِ  
 فَلَوِيتُ مَعْطَفَهَا اعْتَنَاقًا حَسْبَهَا      فِيهِه بِقَطْرِ الدَّمْعِ مِنْ أَنْوَاءِ  
 وَالْفَجْرِ يَنْظُرُ مِنْ وَرَاءِ غِمَامَةٍ      عَنْ مَقْلَةٍ كَحَلَّتْ بِهَا زُرْقَاءِ  
 فَرُغْتُ عَنْ نُورِ الصَّبَاحِ لِنُورَةٍ      أَغْرَى لَهَا بِبِنْفَسِجِ الظُّلَمَاءِ

ولقد يصف الليل والسير فيه وظلمته الحالكة المنبعثة من كل  
 ركن من أركان الفضاء . وما قد توحيه إلى النفس من الخوف  
 والرهبة . وما يلاقيه السارى من حيوان كاسر . وكأنما يظن القارىء  
 نفسه فى جوف الفلاة ومخاطر الليل . كل ذلك بنشبهات جميلة مختارة .  
 كما قال :

ومفازة لانبجس فى ظلماتها      يسرى ، ولا فلك بها دوار  
 تتلهب الشعرى بها وكأنها      فى كف زنجى الدجى دينار  
 ترى به الغيطان فيها والربى      دولا كما يتموج التيمار  
 قد لفنى فيها الظلام وطاف بى      ذئب يلم مسح الدجى زوار  
 طرأق سادات الديار مساور      ختال أبناء السرى غدار  
 يسرى وقد نضج الندى وجه الصبا      فى فروة قد مسحها اقشعرار  
 فعمشوت فى ظلمات لم تقدح بها      إلا لمقلته وبأسى نار  
 ورفلت فى خاتم على من الدجى      عقلت لها من أنجم أزرار

والليل يقصر خطوه ، ولربما  
قد شاب من طرف المجرة مفرق  
وطالت ليالى الركب وهى قصار  
فيها ، ومن خط الهلال عذار  
وكما قل :

وليل كما مد الغراب جناحه  
به من وميض البرق - والليل خمة -  
سريرت به أحبيه ، لاحية السرى  
يقلمب منى العزم إنسان مقلة  
بخرق لقلب البرق خفقة روعة  
سحيق ولاغير الرياح ركائب  
كأنى وأحشاء البلاد تبجني  
أجوب جيوب البید والصبح صارم  
وفى مصطلى الآفاق جمر كواكب

ووصف ناراً هبت عليها الريح فأضرمتها وكأنا يتغازلان . أو  
كأن النار والريح فى موقف طرب يتمايلان من نشوته . أو كأن الريح  
عاشق متم يلم خد اللهب الخجل . أو كأن فى موقد النار ماء عايمه من  
نجوم حبيب . فقال :

ذلك

لاعب تلك الريح ذاك اللهب  
وبات فى مسرى الصبا يتبعه  
ساهرته أحسبه منتشيا  
لو أجاءه منتقد لما درى  
تلم منه الريح خدا خجلا  
فعاد عين الجذ ذات اللعب  
فهولها مضطرم مضطرب  
يهز عطفه هناك الطرب  
ألهب متقد أم ذهب  
حيث الشرار أعين ترتقب

—١٥٦—

في موقد قد رقرق العصبح به ماء عاليه من نجوم حبيب  
منقسم بين رماد أزرق وبين جمر خلقه يلتهب  
كأنما خرت سماء فوقه وانكدت ليلا عليه شهب  
ووصف ساقيا جميلا ، فوصف الجمر أيضا ومجاسه ، وكأما السرور  
يسيل بين ألفاظه . والنعيم والسعادة يتمثلان في كلامه . فقال :  
وأعيد في صدر الكلام لحسنه حلّي ، وفي صدر القصيد نسيب  
من الهيف أما ردفه فمنعم خصيب وأما خصره فجذيب  
يرف بروض الحسن من نور وجهه وقامت له نواره وقضيب  
جلالها ، وقد غنى الحمام عشية عجوزاء عليها لأجباب مشيب  
وجاء بها حمراء ، أما زجاجها فناء وأما ملؤه فلم يهب  
على لجة توتج . أما حبابها فنور ، وأما موجهها فكثيب  
تجافت بها عنا الخواجات برهة وقد ساعدتنا قهوة وحبيب  
وغازلنا جفن هناك كنرجس ومبسم للاقحوان شنيب  
فله ذيل للتصاني سحبه وعيش بأطراف الشباب رطيب  
وكل شيء يراه كان يوقظ خياله ، وينبه من إدراكه ، ويدفعه إلى  
ابتكار المعاني الجميلة : فقد رأى رجلا أسود أحذب يد في خمر فأقال  
في ذلك :-

رب ابن ليل سقانا والشمس تطاع غره  
فظل يسود لونا والكأس تسطع حمرة  
كأنه كيس فخم قد أوقدت فيه حمرة  
والمدمام مدير يشب حمرة خمره

--١٥٧--

تضاحكت عن حباب يقبل الماء ثغره  
 فظلت آخذ يا قوتة وأصرف دره  
 حتى تثنيت غصنا وأصفرت الشمس نقره  
 وارتد للشمس دارف به من السقم فتره  
 يحول للغيم كحل فيه وللقطر عـ بره  
 ولقد يفكر في شعره فيأتى بأفكار جميلة ، وملاحظات جميلة ،  
 ويخرج من معنى إلى آخر . وقد تكون المعانى معروفة وجديدة معا  
 لأنه يبدع ويتذكر في التعبير كقوله :

وليل إذا ما قامت قد باد فانقضى  
 سحبت الدياجى فيه سود ذوائب  
 فزقت جيب الليل عن شخص أطاس  
 رأيت به قطعا من الفجر أغبشا  
 وأرعت طماح الذؤابة باذخ  
 يسد مهيب الريح من كل وجهة  
 وقور على ظهر الفلاة كأنه  
 يلوث عليه الغيم سود عمام  
 أصيخت اليه وهو أخرس صامت  
 وقال ألا كم كنت ملجأ قاتل  
 وكم مر بي من مدلج ومأوب  
 ولاطم من نكب الرياح معاطنى  
 فما كان ألا إن طوتهم يد الردى  
 تكشف عن وعد من الظن كاذب  
 لأعتنق الآمال بيض ترائب  
 تطمع وضاح المضاحك قاطب  
 تأمل عن نجم توفد ثاقب  
 يطاول أعنان السماء بغارب  
 ويزحم ليلا شبهه بالمناكب  
 طوال الليالى مفكر فى العواقب  
 لها من وميض البرق حمردوائب  
 فحدثنى ليل السرى بالعجائب  
 وموطن أواه تبتل تائب  
 وقال بطلى من مطى وراكب  
 وزاحم من خضر البحار غواربى  
 وطارت بهم ريح النوى والنوائب

وكما في قوله في المشيب

أرقت على الصبا لطلوع نجم	أسميه مسامحة مشيبا
كفاني رزء نفس أن بدى	وأعظم منه رزء أن يغيبا
ولولا أن يشق على الغواني	اللافت الفتاة به خضيبا
فلم أعدم هناك به شفيعا	إلى أمل ولم أبرح حبيبا
غريبة شيب فود إن تراخت	حياتي آل أسوده غريبا
شئت بمجتلاها النور حتى	شئت بمجتلى النور القضيبا
وعفت كراهة لأشء شيئا	يكون له شبيها أو نسيبا
وأية شيبه إلا نذير	وهل طرب وقدمت خطيبا

ويذكر المعاني الغريبة المستماعة ، فيشبه أوراق الشجر بالمداري ،  
والنضارة بالضحك ، واهتزاز الغدون في مهب الريح بمغازلة النسيم لها ،  
وأن الريح يلثم خدها الخجل ، وأقسم بالتفات الروض عن زرقة النهر  
واشراق جيد الغصن في حلقة الزعر فيقول :  
أما والتفات الروض عن أزرق النهر

واشراق جيد الغصن في حلقة الزهر

وقد نسمت ريح النعamy فنبهت	عيون الندامى تحت ريحانة الفجر
وخدر فتاة قد طرقت ، وإنما	أبحت به وكر الحمامة للصقر
وقد خلعت البرد عنه وإنما	نشرت به طي الصحيفة عن مطر
لقد جبت دون الحى كل تنوفة	يحوم بها نسر السماء على وكر

ويقول وهو سائر في جوف الليل -

وخضت ظلام الليل يسود فحه ودست عرين الليث ينظر عن جمر



وجئت ديار الحى والليل مطرف  
 أشيم بها برق الحديد ، وربما  
 فلم ألق إلا صعدة فوق لامة  
 ولا شمت إلا غرة فوق أشقر  
 وهو القائل في وصف النهر وهبوب النسيم تلك الايات المشهورة :-  
 لله نهر سال فى بطحاء أشهى وزودا من لمى الحسناء  
 متعطف مثل السوار كأنه والزهر يكتفه بحر سماء  
 قد رق حتى ظن قرصا مفرا من فضة فى بردة خضراء  
 وغدت تحف به الغصون كأنها هذب يحف بمقلة زرقاء  
 ولطالما عاطيت فيه مدامة صفراء تخضب أيدي الندماء  
 والريح تعبب بالغصون رقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء  
 ولقد يجمع كثيرا من الصور والاكوان فى آيات قليلة وهو  
 يبدع فى التصوير أيما أبدع كقوله :-

وصقيل إفرد الشباب بطرفه سقم ، وللعضب الحسام ذباب  
 يمشى الهوينى نحوه ، ولربما أطرته طورا نشوة وشباب  
 شتى المحاسن للوضاء ربطة أبدا عليه وللحياء نقاب  
 وبمعطفيه للشيببة منهل قدشف عنه فى القميص سراب  
 عبر الخليج سباحة فكأنما أهوى فشق به السماء شهاب  
 تطفو لغرته هناك حيازة ويموج من ردف ألف عباب  
 ويمدح فلا تدرى أهو مادح أم واصف أم يريد تصوير المعانى  
 فى عبارة جميلة لا غير لأنه يميل حتى فى المدح الى تشبيه كمال الممدوح

بالاشياء الجميلة وبمشاهداته التي تراها كما قال وهو يمدح :-

لقد ضحكك الصبح بمجتلا ، وراء الليل عن ثغر شبيب  
وظاهرني بمغتربي حسام أنست به ، ونعم أخو الغريب  
أشيم به سنا برق يمان يخفرني إلى المرعى الخصب  
إلى جذلان وضاح الحيا سليم القلب والصدر الرحيب  
إلى يقظان وقاد المعالي مريش السعى بالرأى المصيب  
يساور منه طوراً ليث غاب ويمسح تارة عطفي أديب  
إذا استمطرت منه غمام رحى أو استنصرت في يوم عصيب  
ملأت يديك ، يسراها ييسر ويمناها بمخترط خشيب  
ويصف الثناء بأنه رطب ، وأن الصبح كشف عن ثناياه البيض ،  
وأن ممدوحه وضاح الحيا :- الخ

تشيم بصفته بروق بشر تعيد بشاشة الروض الجديد  
وكان إذا هنا إنسانا اقتبس المعاني واستعارها واختلسها اختلاصاً من  
مظاهر الطبيعة وجمالها كما قال يهنيء قاضيا :-

بشرى كما أسفر وجه الصبح وأستشرف الرائد برقا ألاح  
وارتجز الرعد بمج الندى ريا ويحدو بمطايا الرياح  
فدثر الزهر متون الربى ودرهم القطر بطون البطاح  
هبت رواحا ، وهى نفاحة فطاب ريحا نشر ذاك الرواح  
أفصح غريد بها مطرب نفش من طرس قدأى جناح  
فهل ترى أسمع غصن النقا فhez من عطفيه هز ارتياح  
أم هل سرى ينعمش ميت الربى فبيج ريق الطل ثغر الاقاح

غزتهادى بالقنا هـزة واختال بالجرى المذاكى مراح  
وكان إذا تحدث عن أيامه الماضية فتح صفحات تلك الأيام وأخذ  
يستعمل منها ذكرياته ، ويتغنى بها ، وبأوصافها وبما رآه هناك من جمال  
ونعيم ، كما قال ، فى قصيدة مدح .

وحن هـدى على بانه تصدى خطيبا بها أخطبا  
فاذكرنا ليلة باللسوى وعهدا بعصر الصبا أطرابا  
وماء بوادى الغضا سلسلا ومرتبعا بالحى معشبا  
ليالى عهى بها فتيمة وعهى باحبابنا ربربا  
وما كان أعطر تلك الصبا وأندى معاطف تلك الربا  
وأطيب ذاك الجنى روضة ورشفة ذاك اللى مشربا  
فرك من ساكن كامن تعاطى حديث يحل الحبا  
ويتغزل فيساعده جمال القول على أن يأتى بالمعاني الرقيقة فى  
أسلوب رقيق ، ويمزج بحونه بغرامه فيمتلك بكلامه ويجعلك كأنك  
فى حضرته تتعاطى المدام معه . وتجنى ثمرة غرامه فتقول:

وليل تعاطينا المدام وبيننا حديث كما هب النسيم على الورد  
نعاوده ، والكأس يعبق نفحة وأطيب منه مانعيد وما نبدى  
ونقل أقاح الثغر أوسوسن الطلى ونرجسة الأجنان أووردة الخلد  
إلى أن سرت فى جسمه الكأس والكبرى

وما لا بعطفه ، فال على عضدى  
فأقبلت أستهدى لما بين أضلعى من الحر ما بين الضلوع من البرد  
وعاينته قدسل من وشى برده فعاينت منه السيفسل من الغمد

ليان مجس . واستقامته قامه : وهزة أعطاف ، ورونق إفرند  
أغازل منه الغصن في مغرس النقاء ، وأنهم وجه الشمس في مطلع السعد

## أسلوبه

قد خالف ابن خفاجة جمهرة شعراء العرب في بدء قصائده بالغزل  
والنسيب ، وبدأ أكثرها بالوصف ، واندفع في ذلك اندفاعاً . وكان  
أسلوبه في جملة ما ساهل به كثير من الألفاظ الجزلة أو الغريبة  
والعبارات الخفية ، ولتنبه الصناعة اللفظية وأنواع المجاز والسكناية  
ظهر في كلامه كثير من التكلف حتى لقد يتغلب عليه ذلك فتمتليء  
عباراته بالصناعة الظاهرة كقوله : والصبح يسبح عن جبين نهار .

في قصيدة مدح أولها : —

سمح الخيال على النوى بهزار والصبح يسبح عن جبين نهار  
فرفعت من نارى لضيف طارق يعشوا إليها من خيال طارى  
ركب الدجى ، أحسن بها من مركب

وطوى السرى أحجب به من سارى

وأناخ حيث دموع عيني منهل	يروي ، وحيث حشاى موقد نار
وسقى فأروى غلة من ناهل	أورى بمجانحتىه زند أوار
خلع الهوى ثوبا عليه من الضنى	قد شف عنه فهو كأس عارى
يلوى الضلوع من الولوع لخطرة	من شيم برق أو شميم عرار
والليل قد نضح الندى سرباله	فانهل دمع الطل فوق صدار
لبس الحجر على السواد نخلته	متنزاها قد شد من زنار
ووراء أستار الدجى متملبل	يلقى يمينى تارة ويسار

ما طالعتنه برقة نجدية      إلا اجتاتها نظرة استعبار  
 مترقب رسل الرياح عشيّة      بمساقط الانواء والانوار  
 ومجر ذيل غمامة لبست به      وشى الحباب معاطف الانهار  
 خفقت ظلال الأيك فيه ذوائبا      وارتح ردفا مأنج التيار  
 ولوى القضيبي هناك جيداً تلعا      قد قبلته مباسم النوار  
 باكرته والغيم قطعة عنبر      مشبوبة، والبرق لفحة نار  
 والريح تاطم فيه أرداف الربا      لعبا، وتلثم أوجه الازهار  
 ومنابر الاشجار قد قامت بها      خطباء مفصحة من الاطيّار

وهذا من بدع التشبيه والاستعارة ، ولا تكاد تجد شاعرا  
 يياً آخر أدرك ابن خفاجة في مثل هذه الصناعة المتعملة الجميلة .  
 وأكثر وصفه الليل وسواده ، والصبح وبياضه ، والرياح واليساتين  
 لاشجار وغصونها ، والمياه وجريانها ولونها الفضى . وأشعة الشمس  
 هبية عليها ، والنسيم وسريانه كما قال :-

بامة حدر الصباح فناعها      عن صفحة ندى من الازهار  
 أبطح وضعت ثغور أقاحه      أخلاف كل غمامة مدرار  
 تبحر الارض فيه يدالصبا      درر الندى دراهم النوار  
 دأرتدى غصن النقا وتقلدت      حلى الحباب سواف الانهار  
 لت حيث الماء صفحة ضاحك .      جذل ، وحيث الشط بدء عذار  
 ريح تنفض بكرة لم الربا      والطل ينضح أوجه الاشجار  
 نسيم الاحاظ بين محاسن      من ردف راوية وخصر قرار  
 راكة سجع الهديل بفرعها      والصبح يسفر عن جبين نهار

هزت له أعطافها ولربما خاضت عليه ملاءة الأنوار  
فكان هذا من دواعي إمداده في تنبع أنوار البديع والبيان ، حتى  
صار كما قلنا **كثير التكلف** في معانيه وألفاظه ، ولا تكاد تجد عبارة  
من عباراته إلا استعارة أو مجازاً أو تشبيهاً ، وقد يدعو ذلك أحياناً  
إلى استغلاق المعنى على القارئ ، ولكن شعره في جملة يعتبر معجماً  
لألفاظ مختارة ؛ وعبارات جميلة ، ونشبهات بديعة ، ومعرضاً يجد  
نيسه القارئ أرق أنوار المجاز وكل ما يمكن من ضروب الصنعة  
اللفظية ، ومن انغمسه في الصنعة والتكلف الجميل قوله :-

وأراكة ضربت سماء فوقنا	تندى ، وأفلاك الكؤوس تدار
حفت بدوحتها مجرة جدول	نثرت عليه نجومها الأزهار
فكانها ، وكأن جدول مأها	حسناء شد بخصرها زنار
زف الزجاج بها عروس مدامة	تجلى ، ونوار الغصون نثار
في روضة جنح الدجى ظل بها	وتجسمت نورا بها الأنوار
غناء ينشر وشيه البراز لي	فيها ، ويفتق مسكه العطار
قام الغناء بها ، وقد نضح الندى	وجه الثرى ، واستيقظ النوار
والماء من حلى الحياء مقلد	زرت عليه جيوبها الأشجار

### نثره

لابن خفاجة قطع نثره سلك فيها مسلك الشعر من حيث الوصف  
والخيال ، وصار في أسلوبه علي نحو أسلوب ابن العميد والهمداني من  
حيث اتباع السجع المتكلف ، والقصد إلى ذكر أنواع البيان والبديع

حتى كان نثره أشبه بشعر منثور ، وإن رسائله القائلة التي عثرنا عليها  
هي من قبيل النثر المتكاف

كتب رسالة يصف فيها منزلها وكأنما قامه ريشة مصور ماهر  
تكاد ترى ذلك رأى العين وكأنك تجول في أنحائه ، فترى كل ركن من  
أركانه ، وكل ناحية من نواحيه ، وكل زهرة ووردة ، وكل شجرة  
وغصن وكأنما يلمسك نسيم العليل ، وتجري أمامك الجداول والأنهار .  
ذلك إلى أسلوبه الخاص المسجوع ، وكأنما هو مرسل . وتجد الجملة الطويلة  
المسجوعة ، على حين أنك تجد كل واحدة شطر سبعة أو سبعة كاملة  
قال « ... ذهب في لمة من الإخوان نستبق إلى الراحة ركضا . ونطوى  
التفرج أرضا ، فلا ندفع إلا إلى غدير نير قد استدارت منه في كل قرارة  
سماء . سحائبها غماء ، وأنساب في كل تلعة حباب ، جلد حباب ، فترددنا  
بتلك الأباطح تهادي تهادي أغصانها ، وتضاحك تضاحك أقحوانها ،  
وللنسيم أثناء ذلك المنظر الوسيم ترسل مشى ، على بساط وشى ، فإذا  
مر بغدير نسجه درعا ، واحكمه صنعا ، وإن عثر بجداول شطب منه  
نصلا ، وأخلصه صقلا ، فلا ترى إلا بطاحا ، مملوءة سلاحا ، كأنما  
انهزمت هنالك كتائب فألقت بما لبسته من درع مصقول ، وسيف  
مسلول ، . فاحتلنا قبة خضراء ممدودة أشطان الأغصان ، سندسية  
رواق الأوراق ، ومازلنا نلتحف منها يبرد ظل ظليل ، ونشتمل عليه  
برداء نسيم عليل ، ونجمل النظر في نهر صقيل ، صافي لجبن الماء ،  
كأنه مجرة سماء ، مؤتلق جوهر الحباب ، كأنه من ثغور الأحباب ،  
وقد حضرنا مسمع يجري مع النفوس لطافة ، فهو يعلم غرضها وهواها

ويغنى لها مقترحها ومنهاها ، فصيح لسان النقر ، يشقى من الورق ،  
كأنه كاتب حاسب تمشق بمناءه ، وتعقد يسراه ، يحرك حين يشدو  
ساكنات وتنبعث الطبائع للسكون . »

أما إذا خرج عن هذا النوع الوصفي الخيالي الفنى ، فقد يضيق  
الطريق فى وجهه ، وقد ينقل كلامه ويتكاف فى عباراته . كما فى رسالة  
يعاتب فيها

قالوا ، كانت بين أبى اسحاق وبعض اخوانه مقاطعة فانفق أن  
ولى ذلك الصديق حصنا فخطبه أبو اسحاق برقة منها . « أطال الله  
بقاء سيدى النبىة أوصافه ، النزىة عن الاستثناء ، المرفوعة أمارته  
الكرىمة بالابتداء ، ما انحذفت ياء يرمى للجزم ، واعتلت واو يغزو  
لموضع الضم ، كتبت عن ود قديم هو الحال لم يلحقها انتقال ، وعهد  
كرىم هو الفعل لم يدخله اعتلال ، والله يجعل هاتيك من الأحوال  
الثابتة اللازمة ، ويعصم هذا بعد من الحروف الجازمة . وأنا أستنهض  
طولك إلى تجديد عهدك بمطالعة ألف الوصل ، وتعدية فعل الفصل .  
والى مدولك عن باب ألف القطع إلى باب الوصل والجمع ، حتى تسقط  
لدرج الكلام بيننا هاء السكت ؛ ويدخل الانتقال حال الصمت فلا  
تتخيل - أعزك الله - أن رسم أخائك عندى . . . قد درس عفاء ،  
ولا أن صدرى دارمية أمسى من ودك خلاء . وإنما أنا فعل إذا ثنى ،  
ظهر من ضمير وده ما بطن . وبدا منه ما كمن . وهنيئلا - أعزك الله - إن  
فعل وزارتك حاضر لا يلحق رفعة تغيير ، وإن فعل سيفك ماض مابه  
للعوامل تأثير ، وأنت بمجدك جماع أبواب الظرف ، تأخذ نفسك العلمية



بمطالعة باب الظرف، ودرس حروف العطف ، وتدخل لام التبرئة على ما حدث من عتبك ، وتوجب بعد النفي ما سلف من عتبك . وتدع ألف الألفة أن تكون بعد من حروف اللين . وترفع بالاضافة بيننا وجود التنوين ، وتسوم ساكن الود أن يتحرك . ومعتل الاخاء أن يصح ، وكتابي هذا حرف صلة فلا تحذفه حتى تعود الحال الاولى صفة ، وتصير هذه النكرة معرفة . فأنت أعزك الله مصدر فعل السرور والنبيل ، ومنك اشتقاق اسم السؤدد والفضل ، وإنك وإن تأخر العصر بك كالفاعل وقع مؤخرا ، وعدوك وإن تكبر كالكميت لم يقع إلا مصغرا ، وللأيام علل تبسط وتقبض ، وعوامل ترفع وتخفض ، فلا دخل عروضك قبض ، ولا طاقب رفعك خفض ، ولا زلت مرتبطا بالفضل شرطك وجزاؤك . جاريا على الرفع سرورك الكريم وسناؤك ، حتى تخفض الفعل ، وتبني على الكسر قبل ، إن شاء الله »

راجع نفح الطيب ج ١ ص ٣٥٢



## لسان الدين بن الخطيب

هو من أكبر وجوه العلم والأدب في آخر عصور العرب في الأندلس ، بل هو من أشهر من عرف هناك وهو أبو عبد الله لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد المعروف بابن الخطيب الغرناطي الأندلسي . تنقلت أسرته في كثير من بلاد الأندلس واستقر أبوه في غرناطة . وهناك ولد لسان الدين وعرف واشتهر في بلاد المغرب بابن الخطيب السلماني : نشأ من بيت علم وفضل ، وتربى على حب العلم ، وورث عن أبيه كثيرا من ذلك . وكان معجبا به وبعلمه وأدبه وأخلاقه<sup>(١)</sup>

ولد لسان الدين بمدينة غرناطة سنة ٧١٣ هـ واتصل أبوه بملوك بني الأحمر وكان له شأن عظيم حين كانت غرناطة حافلة بالعلم وأهلها من كل فن فشب لسان الدين بين هؤلاء العلماء ، وانقطع إلى أفاضلهم وأخذ عنهم العلوم والآداب ، وكان من بين مشايخه الفلاسفة والأدباء والأطباء تعلم الطب على أشهر علماء الأندلس وفلاسفتها في هذا العصر ، وبرع فيه وألف فيه كتابا سماه « الأصول لحفظ الصحة في

(١) فقد قال عنه كان رحمه الله تعالى رمز عزم ، ورجل أخاء وأزم ، تروق أنوار خلاله الباهرة . وتضىء مجالس الملوك من صورتيه الباطنة والظاهرة . ذكاء يتوقد ، وطاقة يحمد نورها الفرقد ، وكانت له في الأدب فريضة ، وفي النادرة العذبة منادم عريضة ، تكلمت يوما بين يديه في مسائل من الطب وأنشدته أبياتا من شعري ، فتهلل وابتهج ، وما برح أن ارتجل .

الطب والشعر والكتابة      سماتما في بني النجابة  
من ثلاث مبلغات      مراتبا بعضها الحجابة

الفصول « عده هو نفسه من أحدث طراز في ذلك الفن فقال « العجب حتى مع تأليني لهذا الكتاب الذي لم يؤلف مثله في الطب وعمل ذلك لأقدر على مداواة داء الارق الذي بي » ومهما يكن من المبالغة في كلامه فانه يؤخذ منه أنه كان من علماء هذا الفن . وقد ألف كتباً أخرى في ذلك فكانت معلوماته متوافرة في الفلسفة والطب ، وامتزج بالادباء والفقهاء وأخذ عنهم علوم الدين من تفسير وحديث وفقه ، وتعلم العلوم العربية جميعها فكان عالماً وأديباً

أما حياته السياسية فقد اتصل بأحد ملوك بني الأحمر السلطان أبي الحجاج يوسف فأخذه في حاشيته ، وفي مقدمة كتابه . ثم جعله كاتبه الخاص وسلم اليه الوزارة وأمر الدولة وجعله سفيراً بينه وبين الملوك الآخرين . فكان اشتغاله بالسياسة من الأشياء التي فتحت عليه باب الكتابة في كثير من الموضوعات الاجتماعية والسياسية ، على حسب ما كان يعلمه وما كان معروفاً في ذلك الوقت . ولما مات أبو الحجاج خلفه ابنه محمد بن أبي الحجاج ، فأقره على مكانه وأرسله إلى ملوك افريقية ليستنجد بهم على أعدائه . وكانت الدولة في ذلك الوقت في اضطراب والناس بين مظلوم وظالم ، وخارج على السلطان ومتملق له ؛ وكل ذي نعمة محسود . فحسد لسان الدين كثير من معاصريه وسعوا في الإيقاع به وكان قد خرج على محمد بن أبي الحجاج أخوه وتغلب عليه ؛ فهرب ومعه ابن الخطيب ثم حوضر ، وقبض على لسان الدين ، واستباح السلطان كل أموالهما . ثم شفع لهما سلطان المغرب وأتى بهما إلى فاس وأكرمهما بجال لسان الدين في تلك البلاد ، واثقة بن

إلى أماكن كثيرة واستقل هناك . ولما رجع الملك الى محمد بن أنى الحجاج عاد الى الاندلس وكان استكتب أبو محمد هـذا في غيبة لسان الدين ابن زمرك ، أحد مشهورى الكتاب والعلماء ، ومن أكبر وأشهر تلاميذ لسان الدين ، فتولى ابن زمرك ديوان الكتابة والتف حوله جماعة من الفقهاء والعلماء الذين كانوا يحقدوا على لسان الدين ، لانه ظهر عليهم ومملك الدولة منهم ، فأرادوا أن يتخلصوا منه وبأخذوا الامر بيدهم . فأخذوا في بث الدسائس وإيغار السلطان عليه ، ولكن عند ما رجع لسان الدين الى الاندلس ارتفع شأنه ، وعرفه الناس في غيبته أكثر من معرفتهم له في حضرته . فحقد عليه تلميذه ابن زمرك ثانية وأخذ عليه الفقهاء أشياء ينكرونها وكانت العقول في ذلك الوقت ميالة إلى الانحطاط ، لان البرابرة بثوا أفكارهم السخيفة التي كانوا ينشرونها بمجهلهم ونشروا كراهة العلوم الطبيعية والفلسفية . فاشاع ابن زمرك عن لسان الدين إنه كافر مارق : وأنه جاء في كتبه بكثير من المسائل التي لا يبيحها الدين فراجت هـذه الوشائيات عند السلطان وأثارت غضبه ؛ ولما علم لسان الدين بذلك ، وعرف أنه لا بد أن ينال منه ، عزم على الحرب إلى أفريقية بدعوى أنه ذاهب في أمور تتعلق بالملكة ولكن عندما ذهب إلى أفريقية اتفق ملك المغرب على تسليمه لابن الأحمر ، فسجن في فاس وأفتى الفقهاء بقتله ، ودسوا عليه أحد القواد نخنقه في سجنه ودفن في فاس ثم أخرجت جثته وأحرقت بالنار سنة ٧٧٦ هـ وهكذا انتهت حياة لسان الدين بن الخطيب بعد أن ملأ الجو علماً وفضلاً وذاعت شهرته في المشرق والمغرب حتى كان أشبه بالجاحظ في تأليفه من حيث اطلاعه الواسع وفضله الجم .

## شعر ابن الخطيب

وصف بعض أدباء الاندلس لسان الدين ابن الخطيب فقلل : —

« كان يحسب لسان الدين بن الخطيب من كبار شعراء الاندلس ، بل من اعظمهم جميعا لكثرة شعره واختلاف أغراضه وبراعته في الصناعة التي كانت مقياسا لمقدرة الشعراء ودليلا على تفوقهم في ميدان الشعر والادب ، كما كانت له نفس هذه الميزة في كل نواحي الكتابة وفنون الادب كما سبق .

والمأمل في شعر ابن الخطيب يرى أنه قد جارى جميع الشعراء في كل ما عرف من الموضوعات والاغراض ، وكان في كل شعره كما كان في كل اثره يميل إلى الطول والاطناب . لاشك في أن هذا دليل على سعة الخيال وتوارد المعاني على ذهنه وعلى أثر اطلاعه الواسع وقوة ذاكرته وتعمقه في أدراك تلك المعاني وتمكنه من التصرف في ذلك ، فقد كان رأسه خزانة الفاظ وجمل ، وجعبة صور وعبارات لما قرأه في الكتب وشاهده في الحياة وكان يصوغ كل ذلك في شعره ونثره .

ولقد يتساءل القارئ الاديب هل لابن الخطيب صبغة خاصة في شعره ؟ وهل إذا قرأت له كلاما شعرت بروح يدل على الشاعر ويميزه من سواه ؟ كما تشعر بذلك عند ما تقرأ شعر البحتري فتتملى نفسك بتلك الصبغة الخفية الفنية وجمال القول في حسن العبارة وصوغها ؟ أو كما ترى في شعر المتنبي تلك الحكم الممزوجة بالكبر والغرور وصور العالم وخبايا الانسان ؟ أو كما ترى تلك الصبغة الفنية المستمدة من

جمال الطبيعة وجلالها في شعر ابن خفاجة ؟ أو كما تشاهد أو تلمح في خاطرك تلك النفس المضطربة المتألمة كثيرا المبتهجة أحيانا ، الحساسة التواقفة إلى التمتع بالحياة وإلى أن تكون في مقدمة الادباء والعظماء وغير ذلك مما يمليه عليك شعر ابن زيدون ونثره

لا يفتأ القارئ أن يجيب على هذا السؤال بعد أن يقرأ شعر ابن الخطيب ونثره بأنه مثل كثير من كتاب الاندلس وشعرائها - حاشى لا نتاجه الكثير في كل من فنون الكتابة والشعر - وأن الصبغة التي في شعره ونثره أظهر ما تكون في الصناعة ، وإنك إذا أردت أن تضعه في طبقة من طبقات الادباء وضعته بين الوزراء والقضاة الفقهاء الذين تغلب عليهم الصبغة الدينية أو مسائل الفقه وروح التصوف ، وأنه لا يحسب من كبار الشعراء والكتاب الفنين الذين خلقوا شعراء بطبيعتهم والذين توحى اليهم الطبيعة بجمالها وتلهمهم المعاني الخفية لهذا الوجود فيدركون أسرار النفوس ويرسمونها في كلامهم ويزينون هذا الكلام بما فطروا عليه من جمال أدراك الاشياء

مع هذا فقد تجدد في شعره كل صفات الشعراء التي اقتبسها منهم اقتباسا وحاكم فيها محاكاة من جمال القول وحسن الاسلوب وسعة الخيال . ولكن نفسه كما قلنا ليست نفس شاعر منطبعة على قول الشعر ، وليس روحه روح رجل في يستوحى القول من الهاماته الفنية أو يسبح في عالم الخيال فيرى أسرار النفوس ويكشف خبايا الانسان فينظمها في شعره لان ملكة الشعر ليست هي الغلبة على عقله وأدراكه كما هي الحال لدى كبار الشعراء الذين يقصدون الوصول الى كشف

أسرار الحياة بجمال القول وبلاغته وفنون التعبير ، ويمتازون عن العلماء  
والفلاسفة الذين يعمدون إلى التجارب والبراهين العقلية في إبراز الحقائق  
العلمية والآراء الفلسفية . بل رغم أن ابن الخطيب ميال إلى الصناعة  
والمحسنات اللفظية فإنه عالم مكرراً أعظم منه شاعراً متقننا، على أنه لا تخلو  
ألبته من تذوق الجمال أو من الاتصاف بصفات الشعراء

### صناعته وأسلوبه

يمتاز ابن الخطيب كما قلنا في الشعر بصناعته وميله إلى التألق  
في كلامه وطول بابه في معرفة ضروب الكلام وأنواع التعابير وضروب  
الاطناب وتزاحم المعاني ومحاكاة المشاركة في ذلك وميله إلى المحسنات  
البديعية وتكلفه قليلاً أو كثيراً في ذكر هذه الأنواع والعبث بها، كما قال  
في الجناس :

مالي أهدب نفسي في مطامعها      والنفس تألف تهذيبى وتهذى بي  
إذا استعنت على أمر بتجربة      تأبى المقادير تجريبى وتجربى بي  
ومن ولوعه بالصنعة قوله :-

ومولع بالكتب يبتاعها      بأرخص السوم وأغلاها  
في نصف الاستذكار أعطيته      مختصر العين فارصاه  
ومن مبالغاته وكلامه في حسن التعليل قوله :-

والله ما اعتل الاصيل وانما      تعلم من شجوى فبان اعتلاله  
ومن قوله في الجناس أيضاً :-

دعوتك لاود الذى جنباته      نداعت مبانها وهمت بأن تهى  
وقلت لعمد الوصل والقرب بعدما      تنأى، وهل أسلوحيان وأنت هى

ومن شام من جو الشبيبة بارقا ولم تنه عنه النهى كيف ينتهى  
وكثيرا ما يأتى بعبارات فكاهية وأخرى يعتمد فيها على الصناعة ،  
على أن أسلوبه يختلف باختلاف المعانى والموضوعات فاحيانا تجده فكها  
ماجنا. وأحيانا تجده ورعا تقيا أو حكيما واعظا أو فقيها متكلمًا أو شاعرا  
جاف العبارة كما قال يخاطب السلطان أبا الحجاج :

أمولاي، إن الشعر ديوان حكمة يفيد الغنى والعز والجاه من كانا  
وقد وجد المختار فى الحفل منصتا له ، وحبا كعبا عليه وحسنا  
وفيا رواه الناقلون وأثبتوا بذلك ديوانا صحيحا فديوانا  
بأن أبا بكر خليفته الرضا وفاروقه الأذننى اليه وعثمانا  
وأن علينا قدس الله جمعهم وكرمنا بالقرب منهم وحيانا  
لهم فى ضروب القول إذ هم فحوله خطاب وشعر يستقران قبيانا  
وفاض على أهل القريض نوالهم فروع روض القول سحبا وتهتانا  
وأنت أحق الناس أن تفعل الذى به فعل المختار ديننا وإيماننا  
فما زلت تهدى فى البرية هديه وتقضى بما يرضيه سرا واعلانا  
وإن قيل قدر المرء ما هو محسن فصنعة نظم القول أرفعه شانا  
ومما يدل على سهولة استرساله فى القول الذى يبعد كثيرا عن أن  
يكون شعرا فنيا جميلا قوله .

برئت لله من حولى ومن حيلى إن نام عنى ولى فهو خير ولى  
أصبحت مالى من عطف أو ماله من غيره فى مهمات ولا بدل  
ما كنت أحسب أن أرمى بقاصية للهجر أقطع فيها جانب الأمل



من بعدما خلصت نحوى الشفاعة ما بين العلا والدجا والبيض والاسل  
إن كنت لست باهل لاذى طمعت

اليه نفسى وأهوى نحوه آملى  
فكيف يلغى ولا ترعى وسيلته  
دخيل قبر أمير المسلمين على  
من بعدما اشترت حالى به وسرت  
بها الركائب فى سهل وفى جبل  
والرسل ترى ولا تخفى نتائجها  
عند التأمل من قول ولا عمل  
ولا لليلى من صبح أطالعه  
كان هى قد مد الدجنة لى  
لو أننى بآبن مرزوق عقدت يدى  
وكان محتكما فى خيرة الدول  
لكان كبرى قد افضى إلى فرج  
وكان حزنى قد أوفى على جذل  
أنا الغريق فما خوفى من البلل  
ألمحت بالعتب لم أحذر مواقعه  
ولست أبجد ما خولت من نعم  
ولست أبأس من وعد وعدت به  
وإنما خلق الانسان من عجل  
ومن شعره الجميل الذى جارى فيه الشعراء فى بدء كلامه بالغزل  
والمبالغة فى المدح مما لا يحسب من جمال القول فى شيء يسير قوله :—  
وقف الغرام على ثناك لسانى  
رعيما لما أوليت من احسان  
فكأنما شكرى لما أوليته  
شكر الرياض لعارض النيسان  
أنا شيعه لك حيث كنت، قضية  
لم يختلف فى حكمها نفسان  
ولقد تشاجرت الرماح فكنت فى  
ميدان نهرك فارس الفرسان  
ورويت عز مأثر أسديتها  
لعلاك بين صحائح وحسان  
ولأنت أولى بالتشيع شيمه  
لم تتفق لسواك من انسان  
الشمس أنت قد انفردت وهل يرى  
بين الورى فى مطلع شمسان

جبرت بحبرك كل نفس حرة      وشدا بشكر الله كل لسان  
 وهدت سعودك مسبقا سيرها      وعلت فمر أمامها النحسان  
 فاستقبل السعد المعاود سافرا      عن أى وجه لارضا حسان  
 وابغ المزيّد بشكر ربك ولتثق      بمضاءف الانعام والاحسان  
 فالشكر يقتاد المزيّد ركائبا      تنتاب بابك منه فى ارسان  
 ثم السلام عليك يزرى عرفه      طيبا بعرف العود والبلسان  
 ومن مدحه الجميل أيضا قوله عقب أياه من رحلة فى مراکش  
 يخاطب السلطان صاحب تلمسان :-

افادت وجهتى بذاك مالا      قضى ديني وأصلح بعض حالى  
 ومتعت الخواطر بالذراح      وأترفت النواظر باكتحال  
 وأبت خفيف ظهر والمطايا      بجاهك تشتكى ثقل الرحال  
 وشانى للمعالم غير شان      وحالى بالمكارم جسد حال  
 فبـ : لـاك لـى فـى وعقـدى      وشكر نـداك دينـى وانتـحالى  
 كما قد صح لله انقطاعى      بتأميلي جنابك وارتمالى  
 وما يبق سوى فعل حميل      وحال الدهر لا تبق بحال  
 وكل بداية فالى انتهاء      وكل اقامة فالى ارتحال  
 ومن سام الزمان دوام أمر      فقد وقف الرجاء على الحال

### نثر لا

كان ابن الخطيب يحسب من أكبر الكتاب والمؤلفين كما كان يعد بين  
 معاصريه من أكبر الشعراء. وقال المقرئ فى نفع الطيب: (أما نثره فهو البحر  
 الزخار، بل الدر الذى به الافتخار. وناهيك أن كتبه الآن فى المغرب

قبلة ارباب الانشاء التي إليها يصلون ، وسوق دررهم النفيسة التي يزينون بها صدور طروسهم ويحلون ، ذلك لان تربيته العلمية الادبية وهبته نشاطا عقليا فكان من المؤلفين المشهورين ، وكان كثير الدرس والقراءة ورسائله الادبية ومقطوعاته الشعرية كثيرة جدا حتى قالوا أنه كان يؤلف ويكتب كل هذه الكتب لانه كان يقرأ كثيرا وقد اغترف من كل بحر قطرة وكتب في كثير من الفنون المختلفة ورسائله الادبية كثيرة منها جملة في الجزء الثالث والرابع من نفع الطيب . وكانت الصبغة الادبية أظهر ماتكون في رسائله واغلب عليه من غيرها فانه يمتاز بموضوعاته الادبية أكثر مما يمتاز بغيرها من الموضوعات العلمية الأخرى .

حتى لقد تجده في كتاباته العلمية أو التاريخية أدبيا أكثر منه مؤرخا أو عالما . كما يظهر ذلك في كتابه الاحاطة ، وفيما كتبه في الموضوعات العلمية الأخرى . فان أظهر تلك المميزات في أسلوبه لاني طريقة البحث أو التحقيق ، فاذا رجعت إلى تراجمه للعلماء أو الأدباء رأيت أدبيا أكثر منه محققا . فهو في هذا أشبه بالفتح بن خافان ، ولكنه في كل ذلك واسع الخيال سديد الرأي حاد اللسان . قادر على الاسترسال والاحاطة بالمفردات والجمال . لذلك كان من اكبر مميزاته في الكتابة الاطناب فقد كان مطبوعا على ذلك بطبعه ، يجري وراء ذلك جريانا وهو مثلوج الصدر يعرض عليه فكره وخياله المعاني والالفاظ فلا يكاد يقف قامه إلا بعد ان يملأ من الفكر الصغير صفحات كثيرة وكأن قدر الكتابة عنده ووزن المعاني

لديه في الاكثار لافى الاجادة . أو أن الاجادة لا تفارق الاطناب لديه وربما كان عذره في ذلك أن الكتابة في تلك الايام كانت سائرة على هذا الطراز . وكان بجواب الاطالة يحب السجع فكانت كتابته لا تخلو من خلتين عند بعض الأدباء أو من ملايين عند آخرين : السجع والاطناب وربما كانت الاطالة والسجع من أظهر عيوب أسلوب ابن الخطيب ولا يكاد المعجب به يفضل أحدهما على الآخر أو الناقد له يدرك أيتها أدعى إلى المال وكد الذهن .

وقد تطغى الاطالة على تكلف السجع فيرى القارىء في السجع من مظاهر البلاغة ما لا يجده في الاطناب ، لأن الأطناب أدعى إلى ظهور خلو ذهن الكاتب من المعنى أو الى تكرار المعنى الواحد في عبارات مختلفة . لذلك كثيرا ما يخفى عيب السجع وراء هذا الستار وقد تكون هذه الطريقة دليلا على انحطاط أسلوب الكتابة النثرية . ويكفى هذا الاسلوب مقتا أنه لا يقدر على الاسترسال في قراءته كل انسان وأنه لا يعيش إلا في بطون الكتب ولا يصاح أن يكون نموذجا من نماذج الكتابة البليغة التي يقتدى بها الكاتب .

ولكن ذلك لا يدفعنا الى جحود ما في هذه الرسائل من المعاني والافكار الصحيحة أو الى الشعور بأن الكاتب كان يميل إلى طرق بعض الموضوعات الاجتماعية التي لم يطرقها كثير من الكتاب ، وإلى الاسلوب القصصى الذى يسمونه بالمقامات ورسائله حافلة بالآراء التاريخية والاجتماعية والنسكات الادبية وبعض الامثال المعروفة . وكثيرا ما كان يبدوها بأبيات مط الشعر وقد جرى المشاركة في كل ما كان معروفا

في كتاباتهم من عبارات مسجوعة والفاظ مختارة ، ومن القاب التعظيم والتبجيل للأمرء والسلاطين . ولكنه لم يصل إلى ما وصلوا إليه من الصنعة المتكلفة قصدا في ذكر أنواع البديع والبيان ، بل كان اظهر ما يكون تكلفه في السجع والاطناب كما قلنا ، وقد يكون اسلوب ابن الخطيب ادعى إلى توجيه ذهن القارئ إليه من الموضوعات التي عالج الكتابه فيها ، ومن المعاني التي اختارها ومن الاخيلة التي أعتمد عليها في بث آرائه ، لأن كل ما كتب فيه معروف وكل معنى ذكره مألوف وإنما ميزته الكبرى بعد اسلوبه كثرة انتاجه العقلي والأدبي الذي جاءه من نشاطه وسعة اطلاعه وكثرة قراءته :



فما كتبه معزيا بعض الرؤساء، عن أخيه وقد ابتدأ كتابه بأبيات من الشعر وملاه بالمدح والفاظ التعظيم والافتنان وبأنواع الاخيلة والتعمق في الصنعة .

أيا ثابت كن في الشدائد ثابتا	اعينك ان يلقى حسودك شامتا
عزاؤك عن عبد العزيز هو الذي	يليق بعز منك اعجز ناعتا
فدوحتك الغناء طالت ذوائبا	وسرحتك الشفاء طابت منابتا
لقد هد أركان الوجود مصابه	وانطق منه الشجوة من كان صامتا
فن نفس حر اوثق الحزن كظمها	ومن نفس بالوجد اصبح خافتا
هو الموت للانسان فصل لحده	وكيف ترجى ان تصاحب مائتا
وللصبر اولى ان يكون رجوعنا	إذا لم نكن بالحزن نرجع فائتا
واتصل بي ايها الهمام ، وبدر المجد الذي لا يفارقه التمام ماجنته على	

عليائك الأيام ، وافتضته محن الردى بعد أن طال الخيام ، وما استأثرت به  
الحمام ، فلم يغن الدفاع ولا نفع الدمام من وفاة صنوك الكريم الصفات وهلاك  
وسطى الاسلاك وبدر الاحلاك ومجير الاملاك ، وذهاب السمع الوهاب  
وأنالديغ صل الفراق الذى لا يفيق بألف راق وجريح سهم البين ؛ ومجارى  
العيون الجارية بدمع العين لفقد أنيس سهل على مضض النكبة ونحى  
ليث الخطب عن فريسي بعد صدق الوثبة ؛ وآسنى فى الاغتراب وصحبى  
إلى منقطع التراب ، وكفل أصاغرى خير الكفالة وعامانى من حسن  
العشرة بما سجل عقد الوكالة ، انتزعه الدهر من يدى حيث لأهل ولا  
وطن والافتراب قد ألقى بعطن ، وذات اليد يعلم حالها من يعلم ما ظهر  
وما بطن ، ورأيت من تطارح الاصاغر على علو الغريب النازح عن  
النسيب والقريب ، ما حمانى على أن جعلت البيت له ضريحا ومدفنا  
صريحا ، لا خدع من يرى أنه لم يزل مقيما لديه وأن ظل شفقتة منسحب  
عليه فاعيا مصابى عند ذلك الفرح وأعظم الظما البرح . ونكا القرح  
القرح إذ كان ركنا قد بانته لى يد معرفتك ومتصفا فى البر بنى والرعى  
لصاغيتى بكريم صفتك فوالهفا عليه من حسام وعز سام وإياد حسام  
وشهرة بين بنى حام وسام أى جمال خاق ووجه للقاصد طاق وشيم  
تطمح للعالى بحق وأى عضد لك ياسيدى لايهين إذا سطا ولا يقهر  
إذا خطا يوجب لك على تحليه بالشيبة ما توجبه البنوة من الهيبة  
ويرد ضيفك آمنا من الخيبة ويسد ثغرك عند الغيبة ذهببت إلى الجزع  
فرأيت مصابه أ كبر ودعوت بالصبر فولى وأدبر واستنجدت الدمع  
فغضب ، واستصرخت الرجاء فأنكر ماروى وافتضب وبأى حزن يلنى

عبد العزيز وقد جل فقده أو يطنى لآعجه وقد عظم وقده اللهم لوبكى  
 بندي أياديه أو بغيام غواديه أو بعباب واديه  
 وهي الايام أى شامخ لم تهده أو جديد لم تبلة وإن طالت المدة  
 فرقت بين التيجان والمفارق والحدور والنفارق والطلی والعقود والكأس  
 وابنة العنقود فما التعلل بالفان وإنما هي إغفاء إجفان والتشبث بالحبال  
 وإنما هي ظل زائل والصبر على المصائب ووقوع سهمها الصائب اولى  
 ما اعتمد طلابا ورجع اليه طوما او غلابا فانياسيدي اقيم رسم التعزية  
 وإن بوئت بمضاعف المرزية ولا عتب على القدر في الورد من الأمر  
 والسدر ولولا إن هذا الواقع مما لا يجدى فيه الخلصان ولا يغنى فيه  
 اليراع ولا الخرصان لا بلى جده من اقترضتموه معروفا وكان بالتشيع  
 إلى تلك الهضبة معروفا لكنها سوق لا ينفق فيها إلا سلعة التسليم  
 للحكيم العايم وطى الجوانح على المضض الأليم ولعمري لقد خلدت  
 لهذا الفقيده وان طمس الحمام محاسنه الوضاعة لما كبس منه الساحة صحفا  
 منشره وثغورا بالحمد موشرة يفخر بها نبوه ويستكثر بها مكاسبوا  
 الحمد ومقتنوه وانتم عماد البازة وعلم المفازة وقطب المدار وعامر الدار  
 واسد الاجمة وبطل الكتيبة الملمجمة وكافل البيت والستر على الحى والميت  
 ومثلك لا يهدى إلى نهج لاحب ولا ترشده نار الحباب ولا ينبه على  
 سنن نبى كريم او ضاحب قدرك اعلى وفضلك اجلى وانت مصدر  
 الزمان بلا مدافع وخير معل لاعلام الفضل ورافع وانا وإن اخرت  
 فرض بيعتك لما خصني من المصائب ونالني من الاوصاب ونزل بي من  
 جور الرمان الغصاب ممن يقبل عذره السكرم ويسعه الحرم المحترم والله

سبحانه الكفيل لسيد وحمادى ببقاء يكفل به الابناء وابناء الابناء  
ويعلى لقومه رتب العز سامية البناء حتى لا يوحش مكان فقيد مع وجوده  
ولا يحس بعض زمان مع جوده ويقر عينه فى ولده وولد ولده ويجعل  
أيدي مناوئيه تحت يده والسلام :

ومن كلامه القليل المعنى الكثير اللفظ المملوء بأنواع عبارات  
التبجيل مما قد يعد من الملق قوله وقد بدأه أيضا بأبيات من الشعر  
لأعدم الله دار الملك منك سنى يجلى به الحال كان الظلم والظلم  
وأنشدتك الليالى وهى صادقة المجد عوفى إذ عوفيت والكرم  
من علم أعلى الله تعالى قدرك ان المجد جواد حلاك شياته ، لا بل  
الملك بدر أنت آياته ، لا بل الاسلام جسم أنت حياته ، دعامك بالبقاء  
لمجد يروق بك جبينه وملك تنيره وتزينه ، ولدين تعامل الله تعالى باعزاه  
وتدينه فقد ألت نفوس المؤمنين لآلامك ووجع الاسلام لتوقع  
إسلامك وتأخرت الاعلام لتأخر أطرافك بمصالح الملك وأعلامك ،  
فانما أنامل الدين والدنيا متشبهة بأذيل أيامك ، ورحال الامل مخيمة  
ببزحالك وخيامك فاذا قابلت الاشراف نعم الله تعالى بشكروهم  
الغفلة عن ذلك بنكر فاشكره جل وعلا بملء لسانك وحنانك واجر  
فى ميدان حمده مطلقا من عنانك على ما طوقك من استرقاق حر ،  
وإفاضة أياذ غر واقتناء عسجد من الحمد ودر ، وأتاحة نفع ودفع ضر ،  
وإدالة حلوم من مر ، وكن على ثقة من مدافعة الله تعالى عن حماك  
وعز تبلغ ذوائبه السماك ، ورزق يجره فال منماك ، ودونك مجاس  
الامامة فقد تديره بزمامك ، وحظوة الخلافة فاستحقها بوسائلك القديمة



وذمامك ، ومحاسن الدولة فاجلها على منصة أمامك ، ورسوم مبرفاغرها  
عن اهتمامك ، وذروة المنبر فامض بها طلبة حسامك ، واجز الآمين  
زهر الأيادي البيض من كجأم أكامك ، فيا عز دولة بك يا جملة الكمال  
قد استظهرت وأذلت المعاند وقهرت ، وبأعمال آرائك اشتهرت فراق  
فضائلها وبهرت جزالة كما شق الجو جارح ، ولطافة كما طارح بفن  
التأليف مطارح ، وفكر في الغيب سارح ، ودين لغوامض الحلم  
والعدل سارح ، ومكارم تمت آثار الكرماء ونسخت ، وحلت عقود  
أخبار الأجواد في الأعصار وفسخت ، فلم تدع لفضل الفضل ذكرا ،  
وتركت معروف يحيي بن خالد نكرا . لابل لم يبق لكعب من علوكعب  
وأنست دعوة حاتم بأى مانح وحاتم ، فصارت سبي جوار ومنع جوار  
وعقر ناب عند اقشعرار جناب ، وأين يقع من كبر قدر ترفع عن الكبر  
وجود خصب الأيدي ببناء التبر ، وعز استخدام الأسل الطوال يبراع  
أقل من الشبر ، وحقق الدماء المراقبة باراقة نجميع الخبر وفك العقال ورفع  
النوب الثقال ، وراعى الذرة والمثقال ، وعثر الزمان فأقال ، ووجد لسان  
الصدق فقال . أقسم ببارى النسم وهو أبر القسم . ما فازت بمثلك الدول  
ولا ظفرت بمثلك الملوك الا و آخر والأول ، ولو تقدمت لم يضرب  
إلا بك المثل ؛ ولم يقع إلا على سنتك وكتابك ، والاجماع المنعقد على  
ادابك العمل والملوك لما شام مالكة برق العافية وتدرع بالالطاف  
الخافية ، كتب مبشرا بالهناء ومذيعا ما يجب من الحمد والغناء ومشاركا  
ماله بوجوده من الاعتناء ، فقد بادر ركن الدين بالبناء ، وأبقى الستر  
والمنة على الآباء والأبناء ، فنسأل الله تعالى أن يمتع منك بأثير الملوك

ووسطى السلوك . وسلالة أرباب المقامات والسلوك . ويبقيك وحصنة  
الصحة وافرة وغرة العزة القع ساء سافرة ، وغادة عادة السعادة غير نافرة  
وكتيبة الأمل في مقامك السعيد غائمة ظافرة ، مازحفت للصباح شهب  
المواكب ، وتفتحت بشط نهر ажرة أزهار الكواكب والسلام  
ومن هذا الطراز في الكتابة أيضاً ما كتبته جواباً عن كتاب  
خطيب السلطان الذي استقر بتونس

ولما أن نأت منكم ديار وحال البعد بينكم وبينى  
بعثت لكم سواداً في بياض لا نظركم بشئ مثل عيني  
بم أفاتحك ياسيدى وأجل عددى ، كيف أهدى سلاماً فلا أخطر  
ملاماً أأنتخب لك سلاماً فلا أجد لتبعة التقصير في حقك الكبير  
إيلاماً ، إن قلت تحية كسرى في الثناء وتبع فكامة في مربع العجمة ربع  
ولها المصيف فيه والمربع ، والجهم والمنبع ، فتروى متى شئت وتشيع ،  
وإن قلت إذا العارض خطر ، ومهما همى أو قطر ، سلام الله يامطر ،  
فهو في الشريعة بطر ، وركبه خطر ، ولا يرعى به وطن ولا  
يقضى به وطن ، وإنما العرق الاوشج ، ولا يستوى البان والبنفسج  
والعوذج والعرفج

سلام وتسليم وروح ورحمة عليك وممدود من الظل مسجسج  
وما كان فضلك لينعني الكفر أن أشكره ولا لينسيني الشيطان  
أن أذكره فاتخذ في البحر سبباً ، أو أسلك غير الوفاء مذهبا تأبى ذلك  
والمنة لله تعالى ، طباع لها في مجال الرعى باع وتحقيق وأشباع وسواهم  
من الانصاف ترعى في رياض الاعتراف فلا يطرقها ارتياح ، ولا تخفيها

سباع ، وكيف نوجد تلك الحقوق وهي شمس ظهيرة وأذان عقيرة  
 جهيرة فوق مشدنة شهيرة آدت الأكتاد لها ديون تستغرق الذمم  
 وتسترق حتى الرمم فان قضيت في الحياة فهي الخطة التي نرتضيها ولا  
 تقنع من حامل الدهر المساعد إلا أن ينفذ مراسمها ويمضيها وإن قطع  
 الأجل فالغنى الحميد من خزائنه التي لا تبديد يقضيها وبرضى من يقتضيها  
 وحيا الله تعالى ، أيها العلم السامى الجلال زمنا بمعرفتك المبرة على الآمال بر ،  
 وآتخف وان أساء بفراقك وأحجف وأعري بعدم الحف وأظفر باليتيمة  
 المذخورة للشدايد والمزائن ثم أوحش منها أصونة هذه الخزائن فأب  
 حزين الأمل بخفيه ، وأصبح المغرب غربا يقاب كفيه ، ونستغفر الله  
 تعالى من هذه الغفلات ونستهديه دليلا في مثل هذه القلوات . وأبى ذنب  
 فى الفراق للزمن ، أو لغراب الدمن ، أو للرواحل المدجلة ما بين الشام إلى  
 اليمن وما منها إلا عديم مقهور وفى ذمة القدر مبهور ، عقدوا الحمد لله مشهور  
 وحججه لها على النفس اللوامة ظهور . جعلنا الله تعالى ممن ذكر المسبب فى  
 الاسباب وتذكر ، وما يذكر إلا أولوالآل باب قبل غلق الرهن وسد الباب  
 وكل كتابة لسان الدين أو جلها من هذا الطراز ، فيرجع إليها من  
 يشاء فى كتبه وفى الجزئين (الثالث والرابع) من نفح الطيب

## الادب في بلاد المغرب

سكان بلاد المغرب :

كان العرب يطلقون بلاد المغرب على ثلاثة أقاليم :

١- ( إقليم أفريقية ، وهو المغرب الأدنى . وقاعدته مدينة القيروان وكان يشمل بلاد طرابلس وتونس ) .

٢- ( إقليم المغرب الاوسط وقاعدته تلمسان ) :

٣- ( إقليم المغرب الاقصى وهو القسم الممتد من حدود المغرب الاوسط إلى المحيط الاطلسي . وكان يطلق على هذين القسمين أيضا بر العدو لأنه يعدى منهما إلى الاندلس ) .

وسكان هذه البلاد قبائل كثيرة من أخلاط أمم مختلفة . يقول الباحثون عنها أن أقدمها انحدروا إليها من الصحراء فجاءوها من الجنوب وإن سكان بلاد أفريقية الشمالية هذه كانت متصلة في الأزمان الأولى بسكان شبه جزيرة ايبيريا وسكان شبه جزيرة إيطاليا . وهؤلاء السكان كانوا من أصل واحد . وقال بعض المؤرخين إن سكان شمال أفريقية نزحوا إليها من جهتين : من الجنوب جهة الصحراء ومن قارة أوروبا الجنوبية وهؤلاء هم أصل البرابرة وهم من الجنس الأشمر الأوروبي والجنس الأشمر الصحراوي الذين يمتازون عن الجنس الأسود . وبعد هؤلاء نزل هذه البلاد جماعة من سكان أوروبا ومن شبه جزيرة ايبيريا وهؤلاء من جنس أشقر . ولا يزال أبنائهم يعرفون ويمتازون عن سواهم في بلاد تونس والجزائر ومراكش ، وربما كان أكثر سكان البلاد الآن

من نسلهم ؛ ومن هؤلاء القبائل التي تسكن جبال الأطلس . ومن بين السكان القدماء الذين نزلوا هذه البلاد المغاربة ومن هؤلاء جميعا تولدت أمم البرابرة .

وعندما انتشر المسلمون في شمال أفريقية بقيت هناك بعض القبائل العربية وتولدت وبقي بعضها حافظا لعاداته وأخلاقه وبعضها اختلط بأمم البربر كما حصلت مثل هذه الحال في بلاد اسبانية وقد اتصل بهم البربر وأسلموا على يدهم بعد حروب طويلة فنعوا في نهايتها بدين العرب وأسلموا : وبعض المؤرخين يقول إن سكان هذه البلاد من أمم حامية من أهل أفريقية وآسيا .

وقد أطلق عليهم العرب جميعا كلمة بربر ، وكان هذا اللفظ يطلق على كل القبائل غير العربية . وقيل أصله من كلمة فارفروس اليونانية وهو صوت الالف أطلقه اليونان على كل من لم يتكلم لغتهم ، ثم أطلقه الرومان على كل من ليس يونانيا أو رومانيا : كما أطلق العرب على كل من ليس عربيا كلمة أعجمي لعبجزة عن التعبير بلغتهم :

والبرابرة الأولون كانوا جفاة غلاظا يميلون الى الساب والنهب شديدي المراس شجعانا كسكل سكان البوادي غير ثابتين على مذهب أو عقيدة ميالين الى الفتن واتباع الضلالة حتى ظهرت فيهم كل البدع فلما ظهر الاسلام هناك آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا .

وقد دخل المسلمون بلاد البربر في خلافة عثمان بن عفان حينما أرسل إليها عبد الله بن أبي السرح والى مصر ( سنة ٥٢٦ هـ ) . وصحبه عقبة بن نافع فدخلوا هناك وحاربوا الروم ورجعوا بعد أن صالحوهم

على مال كثير قليل إنه ثلاثمائة قنطار من الذهب ومازال العرب يجيئون ويروحون إلى أن بعث معاوية عقبة بن نافع في عشرة آلاف فارس فدخل عقبة أفريقية وأسلم معه من البربر جماعة ووضع السيف في رقاب أهلها (لأنهم كانوا إذا جاء عسكر المسلمين أسلموا فإذا خرجوا ارتدوا). وبني عقبة مدينة القيروان بالجنوب من قرطاجنة القديمة (سنة ٤٥ - ٥٠) ثم أمتد سلطان العرب بعد ذلك إلى بلاد المغرب الأقصى، وحكم هذه البلاد ولاية من بني أمية ومن بني العباس. ثم نشأت هناك دول مستقلة كدولة الأغالبة الذين كانوا أول أمرهم ولاية لبني العباس (سنة ١٨٤ - ٢٩٦ هـ) وكدولة العبيدين أو العلويين « ٢٩٦ - ٣٦١ هـ » وكدولة الصنهاجين بتونس « سنة ٣١٦ - ٣٤٢ هـ » وكدولة الأدارسة « ١٦٠ - ٣١٣ هـ » وكدولة الموحدين « ٤١٤ - ٦٦١ هـ » وغيرهم من الدول التي قامت بالمغرب الأوسط والأقصى.

وقد تداولها جماعة من ولاية الأندلس والمرابطين والموحدين وغيرهم ممن امتد سلطانهم في تلك البلاد.

أثر العرب في الحياة العربية.

وكان لولاية العرب هناك أثر عظيم في نمو الحياة العقلية ونشر الثقافة العربية من علوم وآداب ولاسيما العلوم الدينية واللغوية. ولكن أعظم أيام العرب هناك كانت مدة حكم بني غالب. حيث ظهر فيهم جماعة من كبار الأدباء والعلماء، وقد امتد أثر العرب على جزر البحر الأبيض المتوسط وكانت جزيرة صقلية من أعظم مراكز

الحضارة الاسلامية لأن موقعها وسط بر الروم أكسبها أهمية عظيمة حتى جعل العرب يتطلعون اليها منذ شقت سفنهم عباب هذا البحر فقد توجهت إليها تلك السفن منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان ورجعت الى دمشق بالغنائم الكثيرة من مال وعروض وأسرى ، ومازال العرب يغيرون على هذه الجزيرة إلى أن أرسل اليها زيادة الله بن الأغلب والى أفريقية من قبل المأمون العباسي . ( ٢٠١ - ٢٢٣ ) اسطول اقويا ( سنة ٢٢٢ ) بقيادة أسد بن الفرات قاضى القيروان ، فانتصر هذا الاسطول على أسطول الروم هناك . ومازال العرب منذ ذاك يغيرون على هذه الجزيرة ويدكون حصونها إلى أن كان عهد إبراهيم ابن أحمد الأغلبى ( ٢٦١ - ٢٨٩ ) الذى نال نحر اتمام فتوح صقلية وأدخلها فى حوزة العرب .

وقد نشر العرب هناك أيضا علومهم ومعارفهم بين سكان هذه الجزيرة الذين كانت تغذت عقولهم قبل ذلك بالثقافة اليونانية واللاتينية فحدث اتصال بين الثقافة الشرقية والغربية وكان ذلك أشبه بماحدث من بعض الوجوه بين الثقافة الفارسية والعربية فى بلاد المشرق ، وامتد أثر الثقافة العربية إلى زمن روجر الثانى ملك صقلية الذى كانت ثقافته عربية إسلامية ، فكان يعين المؤلفين العرب على نشر مؤلفاتهم . ويساعدهم على بث الثقافة العربية فى أنحاء الجزيرة وبين سكانها ، حتى أنهم من أجل ذلك بأنه خارج على المسيحية داخل فى الاسلام ، وله ألف الشريف الادريسي الصقلى كتابه الشهير فى الجغرافيا المسمى ( نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ) وعمل له كرة أرضية صور عليها شكل الارض . وأنشأ روجر إداره ملكه على نظام الادارة العربية فى الاندلس

فصارت اللغة العربية في زمنه هي اللغة الرسمية لسكان هذه البلاد حتى في مكاتباتهم الخاصة .

كان علماء العرب وأدباؤهم وشعراؤهم يرحلون من الأندلس الى بلاد البربر والى جزر البحر و يقيمون هنا وهناك ، كما رحل الشاعر الصقلي ابن حمديس الى الأندلس وبقى في حاشية المعتمد بن عباد . وكما رحل غيره من الشعراء والعلماء والادباء على ما هو معروف

وقد كانت مدينة القيروان من أعظم المدن العلمية ومحط رجال العلماء والادباء ، ومنها امتد سلطان العرب وفتوحاتهم على جزر البحر المتوسط كما رأينا في صقلية ، وكانت أيضا بلاد المغرب الأقصى متصلة ببلاد الأندلس والعلماء يفدون إلى هناك ، وقد رحل جماعة من علماء الأندلس بعد خروج العرب منها الى بلاد البربر ونشروا علومهم ومعارفهم ، فكانت بلاد البربر من القرن الثاني الى القرن التاسع الهجري مسرحا للعلوم والثقافة الاسلامية ، كما كانت ميدان حروب وشجارات بين القبائل العربية والبربرية . وكانت الحياة العلمية في بلاد المغرب تشبه ما كان منها ببلاد

الأندلس لقرب البلدين وشدة الصلة بينهما لأن الرحلة من بلاد الأندلس إلى شواطئ أفريقية كانت سهلة فاختلط هؤلاء بهؤلاء وأخذ المغريون عن الأندلسيين العلوم والمعارف كما أخذ الأندلسيون عن المشاركة . فكان أهل المغرب عيالا على أهل الأندلس في ثقافتهم وتربيتهم العلمية . لهذا لم تعد ثقافة المغاربة بعض ما كان معروفا في الأندلس من علوم الادب والشريعة وكانت فنون الادب سهلة التناول



لأنها تؤخذ بالرواية والحفظ ولا تحتاج لعناء كبير في الفكر ولا في كد الالتهان هذا إلى استعداد العربي الفطري وميلهم إلى حفظ الأشعار والفكاهات والنوادر في التاريخ والأدب ، ورغبتهم في نشر آثار آبائهم . فكانت الصفة العامة في بلاد المغرب صفة أدبية . وكان بجوار هذه الثقافة الادبية ثقافة دينية أساسها علوم الشريعة من فقه وتفسير وحديث مما كانت تهذب أفكارهم وتصل بهم إلى مراتب العلماء والوزراء والقضاة ، حتى ظهر من بينهم جماعة من كبار رجال الدولة ؛ ضربوا بسهم وافر في هذه العلوم .

فكان منهم أسد بن الفرات قاضي القيروان وفاتح جزيرة صقلية وصاحب أبا يوسف

وكان منهم أبو سعيد عبد السلام الملقب بسحنون كان من كبار علماء المالكية رحل إلى مصر ونقل مدونه مالك عن أبي القاسم المصري : ونشر هذا المذهب ببلاد المغرب وتولى قضاء القيروان (توفي سنة ٢٤٠ هـ)

ولم تكن لهم عناية عظيمة بالعلوم الكونية ولا بالمذاهب الفلسفية لانتشار مذهب أهل السنة بينهم . ومحاكاتهم سلاطين المرابطين في التعصب لذلك

أما عنايتهم باللغة فكانت أشبه بعنايتهم بالعلوم الشرعية فظهر منهم جماعة من أئمة اللغة من أشهرهم :

الامام اللغوي محمد بن جعفر القزاز القيرواني الذي كان في خدم العزيز ابن المعز العبیدی صاحب مصر . وقد تقدم إليه أن يؤلف كتاباً .

يذكر فيه سائر الحروف فألف كتابا في نحو الف ورقة وأسماء الجامع في اللغة وهو من أكبر الكتب التي ألهمت في ذلك وله كتاب آخر اسمه التعريض قال ابن رشيق : أن القزاز فصح المتقدمين وقطع السنة المتأخرين ( توفي القزاز بالقيروان سنة ٤١٢ هـ ) .

وقد كان القزاز أستاذا لابن رشيق وابن شرف القيروانى

## اللغة

وبدرة القبائل هناك كثرت اللهجات البربرية وسطت على اللهجة العربية كما سطت العجمة على لغة العرب حتى تعدى ذلك الى الكتابة والشعر ، ولكن أمم المشرق والاندلس كانوا حماة للغة العرب وآدابهم وكان كثير منهم كتابا للأمراء والماوك ولاسيما زمن الدولة العبدية ودولة الأغالبة ، وقد درس كل أثر من آثار العقول هناك حتى آثار الرومان أمام قوة عقول العرب وعلومهم العربية والدينية . وحاول الأديباء والعلماء هناك مجازاة أهل المشرق في الأدب والكتابة وفنون الشعر ومحكاة أهل الأندلس في ذلك . ولكنهم عجزوا وبعض العجز عن مجازاتهم ولم يدركوا شأوهم ، وان جاروهم في بعض ضروب الشعر كالوشح والهجاء والمواليه وزادوا عليهم في الشعر العالى الذى طغى أو كاد يطغى على العربية الفصحى لامتلائه بلهجاتهم العامية .

وجملة القول أن اللغة في عصر بني الأغلب والفاطميين كانت في أوج عزها هناك ، وقد ارتقت العلوم والآداب أيضا بما كان لمدينة القيروان من مكانة في ذلك لأنها كانت مقراً للحركة الأدبية والعلمية فظهر فيها طائفة

من العلماء والأدباء ذاع أمرهم في العالم العربي كأبي اسحاق الحصرى  
 القيرواني صاحب كتاب زهر الآداب (توفي سنة ٤١٣)، وابن شرف  
 القيرواني الشاعر الكاتب (توفي سنة ٤٦٠)، والأديب الذاقدين رشيق  
 القيرواني صاحب كتاب العمدة وقراضة الذهب (توفي سنة ٤٦٣)  
 وابن أبي زيد القيرواني إمام الشريعة في زمانه (توفي سنة ٣٨٦).  
 وكان كثير من علماء هذه البلاد اشتهر في بلاد المشرق بمؤلفاته ورائه  
 وليس كتاب العمدة وقراضة الذهب لابن رشيق أقل شهرة في تاريخ  
 النقد الأدبي من كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، ولا من  
 كتاب الوساطة للقاضي عبد العزيز الجرجاني. ولا من كتاب الموازنة  
 للآمدى. ولا من كتاب المثل المائر لضياء الدين بن الأثير

## الكتابة والخطابة

مهما قيل عن رقي اللغة العربية وأحوالها في بلاد المغرب فانه  
 لا يمكن القول بأنها وصلت إلى ما كانت عليه في بلاد المشرق أوفى بلاد  
 الأندلس لتأصل العجمة في اللسان وتداول الدول على تلك البلاد  
 وعدم استقرار الأمان هناك واشتغال الحكام بالفتح، وقمع الثورات  
 أكثر من اشتغالهم بنشر الثقافة والعلوم ولولا كثرة الوافدين على تلك البلاد  
 من علماء المشرق والأندلس لما وجد العلم والأدب هناك مجالا فسيحا.  
 لهذا لم تصل الكتابة والشعر هنا إلى ما وصلت إليه هناك في  
 بلاد المشرق والأندلس. بل كان أهل المشرق والأندلس هم حماة اللغة  
 والأدب وكثير من كتاب الأمراء والملوك كانوا منهم

أما الكتابة فكانت صناعة من الصناعات التي يشتغل بها العلماء والأمرء ، وكانت جارية في أساليبها على طريقة الأندلسيين من حيث السجع والتعمل في ذلك وتصيد العبارات المملوءة بالاستعارة والمجاز وبعض أنواع البديع

وأما من حيث الموضوعات فكانت مقصورة على الرسائل السياسية والدينية ، ولم نصل رغم ذلك إلى الدرجة التي كانت لها في بلاد المشرق أو الأندلس لامن حيث الأغراض ، ولا من حيث الصناعة ولا من جهة الدروب في الكتابة ، بل كان كثير منها أشبه بكتابة الفقهاء منها بالأدباء ، وكثيرا ما كان الملوك والأمراء يستكتبون رجال الأدب من الأندلس . كأبي محمد بن عبد المجيد بن عبدون زمن المرابطين وهو الذي نشر أسلوب الأندلسيين هناك ، وكأبي عبد الله محمد بن أبي الخصال وغيرهم

(من الكتب الصادرة عن الخلفاء الموحدين ، أتباع المهدي بن تومرت المستمرة بقاياهم الآن بتونس وسائر بلاد أفريقية ، وهي على أسلوبين) كما كتب عن عبد المؤمن : خليفة المهدي إمامهم إلى الشيخ أبي عبد الله محمد بن سعد

« من أمير المؤمنين أيده الله بنصره ، وأمدّه بمعونته ، إلى الشيخ أبي عبد الله محمد بن سعد وفقه الله ، ويسره لما يرضاه ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد فالحمد لله الذي له الاقتدار والاختيار ، ومنه العون لاوليائه والاقدار ، وإليه يرجع الأمر كله فلا يمنع منه الاستبداد والاستئثار ، والصلاة على محمد نبيه الذي ابتعثت بجمعيته الاضواء

والأنوار ، وعمرت بدعوته الأنجاد والأغوار ، وخصم بحججه الكفر والكفار ، وعلى آله وصحبه الذين هم الكرام الأبرار ، والمهاجرون والأنصار والرضا عن الامام المعصوم ، المهدي المعلوم ؛ القائم بأمر الله حين غيرته الأغيار ، وتقدم الامتعاظ له والانتصار . وهذا كتابنا كتب الله لكم نظراً بربكم المنهج ويتقيدكم الابهيج فالابهيج ، وأتاكم الله من نعمه الايمان وعصمه الانقياد له والاذعان ، ماتجدون به اليقين والشايج من حضرة سلطان مراکش حرسها الله تعالى ولا استظهار الا بقوته وحوله ، ولا استكثار إلا من احسانه وطوله

ولما جعل الله هذا الأمر العظيم رحمة خلقه ومطية لرقبه وقرارة لاقامة حقه وحمل حملته الدعاء اليه والدلالة به عليه والترغيب في عظيم ما عنده ونعيم مآلديه وجعل الانذار والاعذار من فصوله المستوعبة وأحكامه المرتبة ، ومنجاته المخلصه من الخطوب المهلكة ، والاهوال المعطية ، رأينا أن نخطبكم بكتابنا هذا أخذنا بأمر الله تعالى لرسوله في المضاء الى سبيله ، والتحريض على اغتنام النجاء وتحصيله وإقامة الحجج في تبليغ القول وتوصيله ، فأجيبوا - رفعكم الله - داعي الله تسعدوا وتمسكوا بأمر المهدي - رضى الله عنه - في اتباع سبيله تهتدوا ؛ واصرفوا عنه العناية إلى النظر في المآل ، والتفكر في نواشئ التغير والزوال ، وتدبروا جرى هذه الامور وتصرف هذه الاحوال ، واعلموا أنه لا عزة إلا باعزاز الله تعالى فهو ذو العزة والجلال ، ولا يغرنكم بالله الغرور ، فالدنيا دار الغرور وسوق المحال ، وليس لكم في قبول النصيحة وابتداء الثوبة الصحيحة ، والعمل بثبوت الايمان في هذه العاجلة الفسيحة

إلا ما يحبونه في ذات الله تعالى من الامنه والدعه والكرامه المتسعة  
 والمكانة المرتفعة والتنعيم بنعيم الراحة المتصلة والنفس . . . فنحن  
 لا نريد لكم ولسائر من نرجو إنايته ، ونستدعى قبوله وإجابته ، إلا  
 الصلاح الاعم والنجاح الاتم وتأملوا - سددكم الله - من كان بتلك  
 الجزيرة - حرسها الله - من أعيانها وزعماء شأنها . هل تخلص منهم إلى  
 ما يوده ، وفاز بما يدخره ويعزه الا من تمسك بهذه العروة الوثقى  
 واستبقى لنفسه من هذا الخير الادوم الابقى وتنعيم بما لقي من هذا  
 النعيم المقيم ويلقى

أما من أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، ورغب بنفسه عن هذا  
 الامر العزيز إلى ماسواه ، فقد علم بضرورتي المشاهدة والاستفاضه  
 سوء وحق عليكم - وفقكم الله ويسركم لما يرضاه - أن تحسبوا الاختيار  
 وتصلوا الاذكار والاعتبار ويتقنوا الابتدار وما حق من انقطع إلى  
 هذا الامر الموصول الواصل وازمع ما يناله من خيره المحوز الحاصل  
 أن يناله منكم في أمر أهل بلديمه حين إعلانكم بكلمه التوحيد وتعلقهم  
 بهذا الامر السعيد ما كان ثم كان منكم في عقب ذلك ما اعتمدتموه في  
 أمر أهل لورقه - وفقهم الله - حين ظهر اختصاصهم وبأن أخلصهم ،  
 وليس لذاك وأمناله عاقبه تحمد فالخير خير ما يقصده والنجاة فيما ينزح  
 عن الشر ويبعد ، وإنا لنرجو أن يكفكم عن ذلك وأشباهه - إن شاء الله  
 تعالى - نظر موفق ومتاع محقق ويجذبكم إلى موالاة هذه الطائفة المباركة  
 جاذب يسعد ، وسائق يرشد ، والله يمن عليكم بما ينجيكم ويمكن لكم في  
 طاعته أسباب تأمياكم وترجيكم بمنه ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وكتب في السادس عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسة»

## الخطابة

أما الخطابة فقد ظهرت في بلاد البر بظهور العرب هناك ورغبتهم في نشر سلطانهم ودينهم ، وكان أكثرها موجهاً الى نشر الدين . ولما تتابعت الدول الإسلامية على تلك البلاد كان لكل دولة زعماء وأنصار كما هو معروف في تاريخ العرب . ولما بذرت بذور الشيعة هناك كان لهم خطباء يدعون لمذهبهم ويؤيدون الفاطميين ، وكان من أشهرهم أيو عبد الله نصير المهدي الفاطمي ، وكان محمد بن تومرت المهدي من أخطب الخطباء وأكثر ما كانت الخطابة شيوعاً في المسائل السياسية والدينية ، ولكن على كل حال لم تصل إلى ما كانت عليه في بلاد المشرق ولا تعتبر من الأنواع الأدبية الفنية في شيء .

وهذا جزء من خطبة المهدي محمد بن تومرت وهو يجود بنفسه .  
« واحذروا الفرقة واختلاف الكلمة وشتات الآراء . وكونوا  
يدا واحدة على عدوكم . فانكم ان فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا الى  
طاعتكم وكثر أتباعكم وأظهر الله الحق على أيديكم . ولا تفعلوا شئكم  
الذل وعمكم الصغار ، واحتقركم العامة فتخطفتم الخاصة : وعليك في  
جميع أموركم مزج الرأفة بالغلظة ، واللين بالعنف واعلموا مع هذا انه  
لا يصلح أمر هذه الأمة الا على الذي صلح عليه أمر أولها ، وقد اخترنا  
عليكم رجلاً منكم ، وجعلنا أميراً عليكم . هذا ، بعد أن بلونا في جميع  
أحواله من ليله ونهاره ، واختبرنا سريره وعلايته ، فرأيناه في ذلك  
كله ثابتاً في دينه ، متبصراً في أمره واني لأرجوا أن لا يخالف الظن فيه

وهذا المشار إليه عبد المؤمن ، فاسمعوا له وأطيعوا مادام سامعاً مطيعاً  
لربه ، فإن بدل أو نكص على عفيبه أو ارتاب في أمره ففي الموحدين  
أعزهم الله بركة وخير كثير . والامر أمر الله يقلده من يشاء من عباده .

## الشعر

كان الشعر في بلاد المغرب أقل منزلة منه في أى بلد آخر من  
البلدان التي فتحتها العرب لسيادة البربر هناك وانتشار لغتهم ، ولأن  
العرب لم يكونوا بالكثرة ولا بالسلطان اللذين كان لهما في بلاد الاندلس  
رغم ما كان لهم من دول رسمت أقدامها في تلك البلاد ، وربما كان عدم  
اخلاص البربر للعرب ولغتهم من الاسباب التي لم تجعل للشعر في بلادهم  
ما كان له في بلاد الاندلس ، لأن جمهور الشعراء والأدباء في زمن الامويين  
ومدة ملوك الطوائف كانوا من العرب الذي سكنوا هناك . أو من  
الوافدين من المشرق ، فكانت العصبية البربرية تسيطر على الحالة  
العقلية هناك . لهذا لا تكاد نجد للشعر العالى مجالا أوسع من بلاد البربر  
وربما يحسب هذا النوع من الشعر الخليط من العربية الفصحى والهجمية  
البربرية من مبتكرات أهل المغرب ، على أنه كان هناك من شعراء العرب  
وكناهم الذين جئوا الى تلك البلاد من بلاد الاندلس وغيرها كثير  
من حاكي شعراء أهل المشرق وأكثرهم كان من أصل عربي .

وقد أخذ الشعر في هذه البلاد كثيرا من الاوزان المختلفة التي  
تشبه أوزان الموشحات ، وكثيرا ما كان الشعراء من المغاربة لا يلتزمون  
الاعراب ويسمون قصائدهم بالاصمعيات ، كما ذكر ابن خلدون ذلك قال :  
« ثم استحدث أهل الامصار بالمغرب فنا آخر من الشعر في أطاريض



مزدوجة كالموشح نظموا فيه بلغتهم الحضرية أيضا وسموه غروض  
البلد . . . كان أول من استحدثه فيهم رجل من أهل الاندلس نزل  
بفاس ، يعرف بابن عمير ، فنظم قطعه على طريقة الموشح ولم يخرج  
فيها عن مذاهب الاعراب مطلعيها :

أبكاني بشاطئ النهر نوح الحمام على العصف في البستان القريب الصباح  
وكف السحر يحوم مداد الظلام وماء الندى يجري بتغر الاقحاح  
فاستحسنه أهل فاس وولعوا به ونظموا على طريقته وتركوا الاعراب  
الذي ليس من شأنهم ، وكثر شيوخه بينهم واستفحل فيه كثير منهم ونوعوه  
أصنافا . . . فن المزدوج ماقاله ابن شجاع من فحولهم وهو من أهل تازا .  
المال زينة الدنيا وعزة النفوس يبهى وجوها ليس هي باهيا  
فما كل من هو كثير القلوس ولوه الكلام ورتبه العاليا  
ومن أدباء الاندلس المعروفين ابن رشيق القيرواني ، وأبو اسحاق  
الحصري القيرواني ، وأبو الحسن الحصري ، وابن شرف وغيرهم ، وأنا  
ذاكرون هنا كلمة عن كل واحد منهم .

## ابن رشيق القيرواني

وهو أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني . ولد بقرية المهديّة  
سنة ٣٩٠ هـ من أب رومي كان من موالى الازد ، توفي ببلدة مازر من مدن  
صقلية سنة ٤٦٣ هـ ، وكانت صنعة أبيه في بلدته المهديّة الصباغة فعلمه  
أبوه صنعته . ثم قرأ الادب ونظم الشعر وأراد التزود من ملاقة  
الادباء والعلماء ، فرحل الى مدينة القيروان وعرف هنا بالادب والشعر  
حتى ذاع أمره واتصل بحاكمها ومدحه ودخل في خدمته ثم انتقل الى

جزيرة صقلية على أثر الاضطراب والحروب التي ثارت في مدينة القبروان وبقي هناك الى أن توفي ببلدة مازر .

عاش ابن رشيق في عصر العلوم والآداب ببلاد البربر وجزائر البحر الابيض المتوسط ، وانصل بالعلماء والادباء حين كان لبني الاغلب حكام أفريقية أثر عظيم في العناية بالعلوم .

وكان معاصراً لكثير من مشهورى علماء المغرب كما أبى سعيد عبد الله ابن شرف القبروانى حتى كان بينهما مهاجاة ومناقضات ومناقشات علمية كتب فيها ابن رشيق عدة رسائل منها رسالة سماها ساجور الكلب ورسالة أخرى نجح الطلب وأخرى تسمى قطع الانفاس وغيرها . ومن معاصريه أبو اسحاق ابراهيم الحصرى القبروانى مؤلف كتاب زهر الآداب المتوفى سنة ٤١٣ هـ بمدينة القبروان .

وهو من أشهر علماء زمانه في فنون الادب وعلوم اللغة ، ثم أقبل بخاصة على ما ذكره المتقدمون من نقد الشعراء وحل كلامهم وتفصيل مذاهبهم وكان يميل بطبعه الى ذلك فكان من النقاد العارفين بضروب البيان وصناعة الشعر ، بل عد من أئمتهم وكتب في ذلك كتباً شهراً (العمدة في صناعة الشعر ونقده) وكتاب آخر لطيف سماه (قراضه الذهب) أما كتاب العمدة فهو كتاب جامع لفنون الشعر وعلوم البلاغة وكل ما يتعلق بصناعة أو نظم الكلام ، جمع فيه كثيراً من أخبار الشعراء وأقوالهم وقد ملأ المؤلف كتابه باستشهاد من كلام الشعراء والكتاب فهو كتاب مجموع من كتب الادب وكلام الادباء والشعراء يدل على اطلاع واسع للمؤلف بإحاطة بكثير من المؤلفات لعلماء الادب

أما قراضة الذهب فليس على هذا النمط إنما هو كتاب نقد ذكر فيه شيئاً مما يختار نقده من شعر الشعراء ، ثم يذكر نوعاً من التحليل بما للكلام من معنى جيد أو ردى أو لفظ مستقيم أو ساقط ويبين ما هو مبتكر أو منقول .

#### شعره

أما شعره فكان من نوع الشعر المعروف في زمانه ببعضه في المدح وبعضه في الحكم ونقد أخلاق الإنسان وبعضه في الفكاهة وهو في جماته سهل الأسلوب به شيء من الصناعات اللفظية التي ذاعت هناك ؛ فقد حاكى غيره في نظم الكلام وفي اقتباس الأساليب والمعاني والعبارات . فمن قوله في النصيحة :

من يصحب الناس مطوياً على دخل لا يصحبوه ، نخلوا كل تدخيل  
لا تستطياوا على ضعفى بقوتكم إن البعوضة قد تعدو على الفيل  
وجانبوا المزح إن الجـد يتبعه ورب موجعة في أثر تقبيل  
ومن قوله في المداعبة والغزل :

ولما بدا لى أنها لا تحبنى وان هواها ليس عني بمنجلى  
تمنيت أن تهوى سوى لعلها تذوق صبايات الهوى فترق لى  
فما كان إلا عن قليل وأشفقت بحب غزال أدعج الطرف أكل  
وعذبها حتى أذاب فؤادها وذوقها طعم الهوى والتذلل  
فقلت لها : هذا بهذا . فأطرقت حياء وقالت : كل عائب ابتلى  
وقال :

أحب أخى وان أعرضت عنه ولعل على مسامحه كلامى

ولى فى وجهه تقطيب راض كما قطبت فى وجه المدام  
ورب تقطب من غير بغض وبغض كامن تحت ابتسام  
ومن قوله فى العتاب .

وقد كنت لا آتى إليك مخاتلا ولكن رأيت المدح فيك فريضة  
فقلت بما لم يخف عنك مكانه ولو غيرك الموسوم عندي بريية  
فلا تتخالك الظنون فأثما فوالله ما طولت باللوم فيكم  
ولا ملت عنكم بالوداد ولا انطوت بلى اربما أكرمت نفسى فلم تهن  
ولم أرض بالحظ الزهيد ولم أكن فباينت لا ان العداوة باينت  
ألود بأكناف الرجاء واتقى شمات العدا إن لم أجد فيك مطمعا

لديك ولا أثنى عليك تصنعا على إذا كان المديح تطوعا  
من القول حتى ضاق مما توسعا لا عطيت منها مدعى القول ما أددى  
مآثم وانرك فى للصنع موضعا لسانا ولا عرضت للذم مسمعا  
حبلى ولا ولى ثناى مودعا وأحللتها عن ان تذلل وتخضعا  
ثفلا على الاخوان كلا مدفعا وقاطعت لا لأن الوفاء تقطعا  
شمات العدا إن لم أجد فيك مطمعا

### ابن شرف القيروانى

هو من مشهورى أدباء المغرب وهو ابو عبد الله محمد بن شرف  
ولد فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وهو من أصل عربى نزل أجداده  
بلاد المغرب مع الفاتحين العرب ، وتربى فى مدينة القيروان ، وكان له ميل  
شديد للعلوم والمعارف والأدب فبرع فى الكتابة ونظم الشعر حتى ذاع  
أمره ودخل فى حاشية المعز بن باديس وصار من كتاب ديوانه واشتهر  
أمره بين الأدباء هناك فكثرت منافسوه وكان من بين هؤلاء ابن رشيق

القيروانى كما سبق . ولما ذهب أمر المعز بن باديس من يده انتقل ابن شرف إلى جزيرة صقلية ثم إلى الأندلس ، وعرف ملوك الطوائف هناك ، فكانت له منزلة رفيعة بينهم وتوفي بأشبيلية سنة ٤٦٠ فعاش ابن شرف في عصر زها فيه العلم والأدب في بلاد المغرب والأندلس ؛ وله شعر رقيق أشبه بشعر بن رشيق وكتابته حسنة منمقة وكان يحسب من النقاد البارعين في الأدب فمن شعره قوله في الشكوى

إني وإن عزني نيل المني لأرى حرص الفتى خلة زيدت على العدم  
تقلدتنى اللىالى وهى مدبرة كأننى صارم فى كف منهزم  
ومن شعره قوله .

غيرى جنى وأنا المعاقب فيكو كأننى سبابه المتقدم

## أبو الحسن الحصرى

ومن الأديباء المشهورين أبو الحسن الحصرى وهو الأديب الشاعر وهو ابن خالة أبي إسحاق الحصرى وقد اشتهر أبو الحسن هذا بأدبه الجلم وكان عالما بعلوم الشريعة والآداب وعلوم القراءات هاجر إلى بلاد الأندلس ، واتصل بالمعتمد بن عباد من ملوك الطوائف ؛ وتوفي بمدينة طنجة سنة ٤٨٨ هـ : وهو صاحب القصيدة الشهيرة التى عارضها جماعة من الشعراء فلم يباغوا شعره فيها وهذه القصيدة هى :

باليل ، الصب متى غدهُ أقيام الساعة موعدهُ  
رقد السمار وأرقه أسف للبين يردده  
فبكاه النجم ورق له مما يراه ويرصده  
كاف بغزال ذى هيف خوف الواشين يشرده

نصبت عيناي له شركا      في النوم فعز تصيده  
 وكفى عجباً انى قنص      لاسرب سباني أغيده  
 صنم للفتنة منتصب      أهواه ولا أتعبده  
 صاح والحمر جنى فيه      سكران لاحظ معربه  
 ينضو في مقلته سيفاً      وكأن نعاماً يغمد  
 فيريق دم العشاق به      والويل لمن يتقلمه  
 كلا ، لا ذنب لمن قتلت      عيناه ولم تقتل يده  
 يامن جعدت عيناه دى      وعلى خديه تورده  
 خذاك قد اعترفا بدى      فعلام جفونك تجرده  
 انى لا عيذك من قتلى      وأظنك لا تتعمده  
 بالله هب المشتاق كرى      فلعل خيالك يسعد  
 ماضرك لو داويت ضنى      صب يديك وتبعده  
 لم يبق هواك له رمقا      فليبك عاينه عوده  
 وغداً يقضى أو بعد غد      هل من نظر يتزوده  
 يا أهل الشوق لنا شرق      بالدمع يفيض مورده

### ابراهيم بن القاسم

ومن الشعراء المجيدين هناك ابراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق  
 القيروانى الذى قال فيه ابن رشيق ونقله ياقوت الحموى فى معجم الأدباء  
 هو شاعر سهل الكلام محكمه لطيف الطبع قويه تلوح الكتابة على  
 ألفاظه ، قليل صنعة الشعر ... ومن شعره جواباً على أبيات كتبها اليه  
 صهار بن جميل وقد انقطع عن مجلس الشراب

قريض كابتسام الرو ض چشمه نسيم صبا  
كعقد من جمان الط ل منظوم وما ثقبها  
ومنتور كنثر الد ر من أسلاكه انسر با  
فأهدى نشر زهرته فتيت المسك منتبها  
إذا أثماره جنيت جنيت العلم والأدبا  
بهزل حين ينشده كأنك منتش طربا  
فحسبك من أخ يرعى لك العهد الذي وجبا  
صديق مثل صفو الما ء بالصبياء قد قطبا  
كثرت مودة منه كأنى أكنز الذهبا  
إذا عد امرؤ حسبا فحسبى ذكره نسبيا  
ألد من الحياة لد ي لكن قلبه قلبا  
فإن عليه ما ألقى وظن تجلدى لعبا  
جفوت الراح عن سبب وكان لجفوتى سببا  
فصرت لوحدتى كلاً على الاخوان مجتبيا  
وذاك لتوبة إمامت إن أقضى به أربا  
فها أنا تائب منها فزرنى تبصر العجبا

وقد قدم مصر سنة ٣٨٨ هـ . بهدية إلى الحاكم بأمر الله . ومما قاله

من قصيدة يشوق فيها اخوانه بمصر

وما أنس من شىء خلا العهد دونه فليس بخال من ضميرى ولا فكرى  
ليال أنسناها على غرة الصبا فطابت لنا إذ وافقت غرة الدهر  
لعمري لئن كانت قصارا أعداها فليست بمعتد سواها من العمر

أخادع دهرى أن يعود بفرصة      فينقذ روح الوصل من راحة الهجر  
وترجع أيام خات بماهد      من اللهو لا تنفك مني على ذكر  
فكم لى بالاهرام أو دير نهية      مصايد غزلان المسكيد والقفر  
إلى الجيزة الدنيا وما قد تضمنت      جزيرتها ذات المواخير والجسر  
وبالمنس فالبيتان للعين منظر      أنيق إلى شاطئ الخليج إلى القصر

### أبو اسحاق الحصرى القيروانى

هو أبو اسحاق ابراهيم بن على بن تميم المعروف بالحصرى القيروانى  
ولا تعرف بالضبط سنة ميلاده ولا السنة التى توفى فيها ، ورجح ابن  
خلكان أنه توفى بمدينة القيروان سنة ٤١٣ هـ وبعضهم يقول انه توفى  
سنة ٤٥٣ هـ . وقد كان من أكبر أدباء بلاد المغرب وشعراهم المعروفين  
ومن أشهر كتبه المعروفة كتابه « زهر الآداب » الذى جمع فيه دروب  
الآداب المعروفة من شعر بليغ مختار ، ونثر بديع وحكم عالية ؛ وكثير مما  
جرى فى المجالس والمحافل الادبيه وقد اشتهر بهذا الكتاب لجمعه لضروب  
الآداب كما قلنا . وهو مؤلف أعظم منه شاعرا أو كاتباً

### ابن حمدى الصقلى

مولده ونشأته

ولد أبو محمد عبد الجبار بن أبى بكر بن محمد بن حمدى الأزدى  
الصقلى سنة ٤٤٧ هـ فى جزيرة صقلية ، وفى سنة ٤٧١ هـ هاجر الى  
أسبانيا وعاش فى أشبيلية وتوفى سنة ٥٢٧ هـ بجزيرة ميورقة . ولم يكد  
يتنسم ريح الشباب حتى وقعت بلاده فى يد النرماندين ، الذين لم تكد



نظماً أقدمهم تلك الجزيرة حتى نكلوا بأهائها كل تنكيل ، وأذاقوهم المذاب الآليم ، وحملوهم على ترك دينهم ، وفتكوا بأعراضهم ، وأذلّوهم وأهانوهم في شرفهم . فشاهد ابن حمديس ذلك ورأى بعينه كيف تسلب الاوطان من أهلها ، وكيف يجروء القوى على سلب حقوق الضعيف ، وينقض عليه كما ينقض اللص ذوالقوة والطول ، على الضعيف السليب من كل قوة وحول

لذلك أثر الهجرة على البقاء بين قوم اغتصبوا بلاده . وكان لهذا أثر عظيم في نفسه وخياله الشعري وأخلاقه ، حتى أصبحت نفسه من النفوس المظلمة ، وصدره من الصدور المنقبضة ، واستولى عليه البؤس بسبب هذه الحوادث :

فهاجر إلى أسبانيا ونزل بأشبيلية ، وعاش في حاشية المعتمد بن عباد وصار في جملة شعرائه ، وتبعه في منفاه . ولم يكن ابن حمديس معروفاً عند قدومه إلى أشبيلية . فقد قال :

« أقمت بأشبيلية لما قدمتها على المعتمد بن عباد مدة لا يلتفت إلى ، ولا يعأبني ، حتى قنطت خيبتني مع فرط تعبي ، وهممت بالنكوص على عقي . فاني لكذلك ليلة من الليالي في منزلي إذ بغلام معه شمعة ومركوب ، فقال لي أجب السلطان . فركبت من فوري ودخلت عليه فأجلسني على مرتبة فنك<sup>(١)</sup> ، وقال لي افتح الطاق التي تليك ، ففتحتها ، وإذا بكور زجاج على بعد والنار تلوح من بابه ، وواقدة تفتحها نارة وتسدها أخرى ، فحين تأملتها . قال لي أجز .

انظرها في الظلام قد نجا . فقلت : كما رنا في الدُّجَّة الاسد

فقال : يفتح عينيه ثم يطبقها . فقلت : فعل امرىء في جفونه رمد  
فقال : فابتزه الدهر نور واحدة . فقلت : وهل نجا من صروفه أحد  
فاستحسن ذلك وأمر لي بجائزة سنوية وألزمي خدمته <sup>(١)</sup> .

أما نفسه فنفس رجل ربه الحوادث ونالت منه الايام . وأذاقته  
مرها قبل حلوها . فتلقت عليه الحياة ولوت من ظهره بعد أن أخرجته  
من وطنه ، وليس له إلا لسانه وخياله . وقد كان لبلادها أثر طيب في نفسه  
ومنزلة رفيعة وسبب جم . فلما اضطر إلى الهجرة والنزول في غير أهله  
تعبت نفسه وأظلمت في وجه الدنيا وكثر حنينه إلى بلده ، وصار  
ذلك من أظهر صفاته النفسية مهما حاول الخروج منه إلى وصف الملذات  
أو التظاهر بالمسرات . ولقد يأمح الانسان هذا في كل شعره حتى في  
الغزل والخمرات والمدح والوصف .

شعره وكان ابن حمديس ميالا إلى ادراك الاشياء والمعاني إدراك من  
يحاول فهم ما يرى ويفكر فقد كان يرغب دائماً في تشبيه المحسوسات  
بالمعقولات ، والمعقولات بالمحسوسات . وهذه طريقه من طرق المحاولة  
في الادراك . وأكثر اهتمامه في تشبيهاته موجه إلى وصف المراتبات  
وإدراكها . ولقد تظهر حركة عقله عند قراءة شعره بسبب انتقاله من  
معنى إلى آخر ، ومحاولة الخروج من طريق واحد إلى طرق متشعبة .  
أما قوته الشعرية التي كون بها هذه الاشياء ووضعها في أسلوب  
خيالي جميل فتابعه لنفسه وعقله ، وأكثر اعتماده في ذلك على ما يكتسبه  
من التأثير بظواهر الاشياء وما فيها من التشابه بالجمال

وعلى الرغم من صبغته الجدية في شعره ، فإن كثرة كلامه في الحزن  
ومجالسه والعشق وآثاره ، تدل على أنه كان يميل إلى شيء من المجون ،  
ولكنه كان أقول من غيره في ذلك ، فإن الانسان لا يكاد يرى لثمة لك  
أثراً في كلامه . ولولا أنه عاش في هذا العصر وفي حاشية المعتمد بن عباد ،  
لقلنا إنه كان بعيداً عن اللهو والمجون . ولعلنا شعره الذي جاء في هذا  
على نوع من الصناعة والخيال ، إذ أننا نجد في كثير من شعره يميل  
إلى الكلام في المواعظ والعبر ، أو إلى بعض الآراء التي تدل على أنه  
كثيراً ما كان يدفعه الفكر إلى خوض المعاني النفسية أو الخواطر  
الفلسفية ، ويمزج هذه الأفكار ويصوغها في أنواع شعره . ويظهر من  
شعره أنه أكثر تأثراً بالمعاني الاجتماعية . ولهذا أيضاً نراه شاعراً مفكراً  
من أصحاب الملاحظات والنظر في الحياة والاجتماع أكثر منه شاعراً  
وصافاً كما هو معروف عنه . ويمكن الاستدلال من هذا على تربيته العقلية  
وحالته الفكرية .

وقد أبدع في هذا الشعر الجدي المملوء بالعبر والحكم كما دل على أنه  
مفكراً أكثر منه خيالياً لاشتغال شعرة على جولات فكرية مملوءة  
باحواله النفسية ، والآلام التي يشعر بها ، وكثيراً ما تظهر هذه الآلام  
آلاماً لجميع الشاكين والمتألمين من الحياة . كما تظهر آلام العاشق الشاعر  
آلاماً لكل العاشقين . لذلك كان ابن حمديس شاعراً نفسياً ناقماً على  
الحياة وما فيها متشائماً :

-- ٢١٠ --

هل أقصر الدهر عن تعنيت ذى أدب ؟

أوقال حسبي من إخمال ذى حسب ؟

لا يلحظ الحر إلا مثلما وقعت      على أخی سيئات عين ذى غضب  
وكيف يصفوانا دهر مشاوبه      بخوضها كل حين جحفل النوب  
إن الزمان بما قاسيت شيبني      ولم أشيبه : هذا والزمان أبي  
ولو خلا الدهر ذوالانباء، من عجب      أكثرت منه ومن أنبائه عجب  
قرأت وحدي على دهرى غرائبه      فما أعاشر قوما غير مقترب  
أحلت عزمي على همى فقطعه      كأن عزمي على صمصامتي الذرب  
ما قربني السير في سهل ولا جبل      إلا كما قرجارى الماء في صلب  
ولم أضق في السرى ذرماً بمعضلة      قد زاحمتني حتى ضاق مضطرب  
وترتقى حر أنفاسى فابعثه      برداً، وإن كان مستبق من اللهب  
وأحر بالحر أن تلقاه ذا جلد      وإن تبطن داء قابل الوصب  
ولقد تنقبض نفسه ، فتحرك خياله حر كة البائس الذى ينظر إلى  
الأيام نظر الخافد ، ويعدد مساوئها ويندب أوقات الشباب ، وكأنه  
واقف على أبواب الموت يودع الحياة ويطلب المغفرة من الله ، ذلك  
وهو فى حالة كآبة ، نفسه متأثرة بهذه الخواطر : كما قال :

وعظت بلمتك الشائبة      وفقد شببيتك الزاهية  
وسبعين عاماً ترى شمسها      بعينك طالعة غاربة  
فويحك اهل عبرت ساعة      ونفسك عن زلة راغبة  
فرغت لصنعك ما لا يقيقك      كأنك عاملة ناصية  
وغرتك دنياك إذ فوضت      إليك أمانيتها الكاذبة

أصاحبة خلتها ؟ انها باحداشها، بثست الصاحبة  
 أما سلبت منك برد الشباب فهل يسترد من السالبة ؟  
 وإن دقائق ساعاتها لعمر ك آكلة شاربة  
 وإن المنية من نحوها عليك باظفارها وائبة  
 ألم ترها بحصاة الردى لكل حميم لها حاصبة ؟  
 كان لنفسك مغنيطسا غدت الذنوب به جاذبة  
 فيا حاضراً أبدا ذنبه ونوبته أبدا غائبة  
 أذب منك قلبا تجارى به سواكب عبرتك الساكبة  
 على كل ذنب مضى فى الصبا وأتعب إثباته كاتبة  
 عسى الله بدراءك العقاب وإلا فقد ذمت العاقبة

ولابن حمد يس صيغة خاصة فى شعره ليست مغروفة كثيرا فى  
 الشعر العربى : وهى محاولة الخروج من الواجديات التى هى أكبر مظاهر  
 الشعر العربى ، إلى الكلام مما يحول بالنفوس ، لا من جهة الخيال وما  
 به من الجمال لا غير ، بل من جهة التفكير أيضاً ، وما يمر بنفس الانسان  
 وما يشعر ويحس من حوادث الحياة وأشكالها ، وما يعتريه من أحيرة  
 وشك ويقين ، وكراهة للوجود أحيانا ، وميل إلى البقاء تارة . ذلك  
 بعرض صور الحوادث المؤلمة التى تزهد فى الدنيا وتنفر الانسان من  
 رؤيتها ، وتلك بوصف أوقات الانس ولحظات السرور من حسن  
 الذكر كوصف مجالس اللهو والطرب والخمر ولذتها ، والجمال وأثره فى  
 النفس ، وغير ذلك من أصنى وجوه الحياة وأجل صورها .  
 فهو فى كل أنواع شعره جاد لا مازح . ولذلك تجد أثر فكره

وحركة عقله في كل كلامه ، وتشعر بنفسه المفكرة إذا قرأت شعره ، كما تشعر بتلك الحيرة التي هي أصل كل تفكير ، وكما تشعر بسعة خياله الشعري . وإذا اجتمعت قوة الفكر وسعة الخيال لانسان كان من أكبر الشعراء ؛ فإذا كانت حاسته النفسية التي هي رقة شعوره قوية أيضاً كان في مقدمة الشعراء . كل ذلك في شعر ابن حمديس . فهو شاعر نفسى في مقدمة شعراء العرب المفكرين وقد بين في شعره ما تنطوى عليه نفسه ؛ ولكن لا بصفته الشخصية الفردية ، بل بصفته انساناً أمثاله كثيرون . وإذا كان كثير التفكير في ظلمات الحياة ووجوهها العابسة ؛ وميالا الى التأمل في ذلك : أكثر من التفكير والنظر في وجوهها النضرة الباسمة ولكن غلبت على شعره صبغة التشاؤم . أكان كذلك لأن نفسه كانت مريضة وأعصابه مضطربة ؟ قد يكون هذا . وربما كانت رقة شعوره نقود عقله وتملك منه إدراكه ، ولقد كان أغترابه عن وطنه ونزوح الأعداء إليه ووقوعه في غير قبضة أهله من الاسباب التي أثرت في نفسه واستولت على عواطفه : فكان يشعر بضيق ويكره الحياة وينصح باللوم على نفسه وينهرها . ولكنه لم يكن في ذلك فيلسوفاً ، بل كان يميل الى أمثال أفكار المتوصفة في لوم النفس والنيل منها . ولقد كانت تملكه هذه العاطفة أحياناً عاطفة الندم أو توبيخ النفس فيرى نفسه ذليلاً حقيراً ، وكأنه يبكي على ذنوبه وهو حزين كئيب . ولكن ما أجمل حزنه الشعري وأرقه في هذا الآتين . حيث يقول :

ياذنوبى ثقلت والله ظهري      بان عذرى فكيف يقبل عذرى  
كلما تبنت ساعة علت أخرى      لضروب من سوء فعلى وهجرى

ثقلت خطوتي وفودي تفرى      غيب الليل فيه من نور فجرى  
رب موت السكون في حركتي      وخبا في رماده حجر حجرى  
وأنا حيث سرت أكل رزقي      غير أن الزمان يأكل عمرى  
كلما مر منه وقت برح      من حياتي وجدت في الربح خسرى  
يارفقا بعبده ومحيطا      علمه باختلاف سرى وجهرى  
هل بقلبي الى صلاح فسادی      منه ، واجبر برأفة منك كسرى  
وأجرني بما جناه لساني      وتناجت به وساوس فكرى  
أو كقوله وهو يفكر في نفسه وحياته وكأنه متصوف، ولكنه  
مع ذلك شاعر جميل القول :

كلت لى الخمسون والخمس      ووقعت في مرض له نكس  
ووجدت بالاضاد من جسدی      غصنا يلين وقامة تقسو  
وتنافرت عني الحسان ، كما      لحظ الهصور جآذر جنس  
وأبيض من فودي من شعري      وحف كأن سواده النفس  
والعمر يذبل في منابته      غرس ويلبس نضرة غرس  
إلى إن قال :

وأقل ما يبقى الجدار اذا      مأنهد تحت بنائه الأس  
يارب ان النار طابئة      ولكل سامعة لها حس  
لا تجمعان جسدی لها حصبا      فيه تحرق مني النفس  
وارفق بعبد لحظه جزع      يوم الحساب ونطقه همس  
وكقوله في الشكوى :  
أسمنى الدهر للرزايا      وغير الحادثات قفشي

وكنـت أمـشى ولست أعـيا      فصـرت أعـيا ولست أمـشى  
كأثـنى إذ كـبرت أنـسر      بطـعـمة فرخـه بعـش  
ومـن دعا بـانـه فـي ذلـه :

نوى على ظـهر الفـراش منـغص      والليـل فـيـه زيـادـة لا تنـقص  
مـن عـاديـات كالذئـاب تـذاء بـت      وسـرت عـلى عـجـل فـما تـتـربص  
جـعلت دى خـمرا تـداوم شـربـها      مسـترخـصـات مـنـه مـالا يـرخص  
فـتـرى البـعوض مـغـنيا بـربـابـة      والبـق تـشـرب والبراعـث تـرقـص  
وكانـت تـثور نـفسـه ثـورا نا      وتغـلى غـليـان المـرجـل فـتنـطق بـالشـعر  
وكأنـه زاهـد فـي صـومـعة • أو ناسـك فـي دـير أو تـقى مـن كـبار التـقاة فيقول :

يبتـك فـيـه مـصرعـك      وفـي الضـريح مـضجـعـك  
غـرتـك دنـياك الـتى      لها سـراب يـخدعـك  
هـمت بـحـب فـارك      وقـلـما تـمتـعـك  
يـضـرك الحـرص بـها      والزهد فـيـها يـنفـعـك  
لا تـأمـن مـنية      إن عـصاها تـقرعـك  
مـغـربـك القـبر الـذى      يـكون مـنـه مـطـلعـك  
إن فـرقتـك تـربة      فاللـه سـوف يـجمـعـك  
ولـلسـحاب مـوقـف      أهـوالـه تـروعـك  
كـم جـرما أشـفقت مـن      لـسـك مـنـه أصـبعـك  
فـكـيف بـالنـار الـتى      مـن كل وـجـه تـلدعـك  
يـراك ذـو العـرش إذـا      ناديتـه ويـسمـعـك  
فـتـق بـه ولا يـكن      لـغـيره تـضرعـك



وقد تجول نفسه جولات في ذكر أيامه الماضية ، فيذكر كل ما يخطر بباله ، ويسطر الماضي كما يسطر الكاتب مذكراته في كتاب ، أو كما يرسم المصور صورة من ماضيه على اختلاف أحواله . وهو يخرج من معنى ليدخل في معنى آخر بين جد وهزل ، ولكن كل ذلك بصيغة الرجل الجاد المفكر ، وكأنما تمر أمام القارئ سلسلة حوادث ، أو صور جميلة يتمتع بها ويتعظ منها . قال في إحدى هذه القصائد :

قضيت في الصبا النفس أوطارها	وأبلغها الشيب إنذارها
نعم وأجيت أقداح الهوى	عليها فقسمت أعشارها
وما غرس الدهر في تربة	غراساً ولم يجن أنمارها
فأفريت في الحرب آلاتها	وأعدد للسلم أوزارها
كمت لها مرح بالفتى	إذا حث باللهو أدوارها
تناولها الكوب من دنها	فتحسبه كأس مضارها
وساقية زورت كفها	على عنق الظبي أزارها
تدير ياقوتة درة	فتغمس في مأها نارها
وفتيان صدق كزهر النجوم	كرام النجائر أحرارها
يديرون راحنفيض الكؤوس	على ظلم الليل أنوارها

ثم أخذ في وصف دير وصاحبه وما عندها من خمر ، وأبدع في وصف الخمر بابتكارات عجيبة ، وخيالات غريبة . ووصف مافيه من ملاح وقيان ترقص وتغني ، وهو يقص ذلك ويحكى حكاية ، وكأنك جالس في ذلك الملهى ترى خطرات الراقصات وتسمع أصوات الغناء ، ولقد تشعر بشدة تمكنه من صناعة الشعر ودقة وصفه وسهولة

أسلوبه . قال .

وراهبة أغلقت دبرها .	فكنا مع الليل زوارها
هدانا إليها شذى قهوة	تذيع لأنفك أسرارها
طرحت بميزانها درهمي	فاجرت من الدن دينارها
تفرس في شمسها طيبها	مجيد الفراسة فاختارها
فتى دارس الخمر حتى درى	عصير الخمر وأعصارها
يعد لما شئت من قهوة	سنيها ويعرف خمارها
وعدنا إلى هالة أطلعت	على قضب البان أثمارها
يرى ملك اللهو فيها الهوم	تنور فيقتل ثوارها
وقد سكنت حركات الأسي	قيان تحرك أوتارها
فهذي تعانق لي عودها	وتلك تقبل مزمارها
وراقصة لقطت رجليها	حساب يد نقرت طارها
وقضب من الشمع مصفرة	تريك من النار زوارها
كأن لها عمداً صفت	وقد وزن العدل أقطارها

ثم غلبه الوجد فذكر وطنه في حزن وألم فقال

ذكرت صقلية والأسي	يهيج للنفس تذكراها
ومنزلة للتصابي حلب	وكان بنو الظرف عمارها
فان كنت أخرجت من جنة	نأني أحدث أخبارها
ولولا ملوحة ماء البكاء	حسبت دموعي أنهارها

وشكى في قصيدة طويلة آلامه فذكر صبره على ذلك ، وذكر

غربته ، وهجر وطنه ، وأن ذلك كان من أكبر محنه . ثم ذكر شكاته

من الناس وهو يضرب الأمثال في أثناء ذلك ، وفيما لاقى من الأهوال  
بانفراده في عزلته حتى عن خيال كان يزوره . ثم أخذ يتسلى بمدح  
نفسه ويتغنى بفضائها الجم وذكر ليااليه الماضية ، وعرج على ذكر وطنه  
ونكبة بلاده باستيلاء الأعداء عليها وأخذ يصف أهل بلده ، وما كان  
لهم من صفات الكمال والشهامة ومنازلة الحرب بأفضل وأجمل ما يصف  
شاعر قومًا يعتز بهم ، ويشرف بالانتماء إليهم . وختم كلامه بالحنين إلى  
وطنه ، والبكاء على أهله . فقال :

تدرعت صبرى جنة للنوائب	فان لم تسالم يازمان فحارب
عجبت حصاة لاتلين لعاجم	ورضت شموسا لا يذل لراكب
كأنك لم تقنع لنفسى بغربة	إذا لم أنقب في بلاد الأغارب
فطمت بها عن كل كأس ولذة	وأنفقت كنز العمر في غير واجب
يبيت رياش العضب في ثني ساعدى	معاوضة من جيد غيداء كاعب
وما ضاجع الهندى إلا مثلما	مضاربه يوم الوغى في الضرائب
فكنت وفدى في الصبا مثل قدره	عهدت إليه أن منه مكاسبى
فان تكلى في المشرقى مآرب	فكم في عصى موسى له مآرب

ثم أخذ يتكلم عما في نفسه من ذكرى الحوادث الماضية ، وخيانة  
الناس والأيام ، وهو يتمثل أثناء الكلام ببعض الحقائق المعروفة للناس  
جميعاً لينبث بها معانيه وبجسمها للقراء . ولم يخرج في مجموع أسلوبه عن  
الأسلوب العربى المعروف من كثرة استعمال المجاز والغموض في بعض  
العبارات ، وذكر الركب والرجل والنوى وركوبه القلاص وهزأها . كقوله :  
أتحسبني أنسى ومازلت ذاكرًا      خيانة دهرى أو خيانة صاحبي

تغذى بأخلاق صغيراً ولم تكن  
ويأربُ نبت تعترية مرارة  
عامت بتجربى أموراً جهتها  
ومن ظن أمواه الخضارم عذبة  
ركبت النوى في رحل كل نجبية  
ولما رأيت الناس يرهب شرهم  
وعجيب تلك العادة التي أبتلى بها الشعراء في مدح أنفسهم مدحا  
يخجل منه القارىء فكيف بالشاعر وهو يضع نفسه فوق كل شيء؟  
هل هذا من الأساليب الشعرية؟ لعله من وسائل التسلية، على ما فيه  
من المبالغة والتغنى بمدح النفس. ولكن مهما يكن من شيء في هذا  
فإنها بدعة عجيبة في الشعر العربى وأسلوب غريب.

و بينما الشاعر يكمّل لنفسه المدح كيلاً، ولا يقنع بشيء منه تراه  
فاجأك بذكر البحر ووصفها ومدحها. وأنتك لتسكاد تعمل من ذلك،  
وإذا هو ينتقل إلى الكلام في وطنه ويذكر بلده ويمدح أهله. فيقول  
ولى في سماء الشرق مطلع كوكب  
متى تسمع الجوزاء في الجو منطقي  
وكم لى به من صنو ود محافظ  
أخى ثقة لادّسه الراح والصبا  
مستقة دع ذكر أحقاب عم. رها  
إذا خاض منها الماء في مضمر الحشا  
ولو أن أرضى حرة لايتها  
جلا من طلوعى بين زهر الكواكب  
نصخ في مقالى لارتجال الغرائب  
لذى العيب من أعدائه غير طائب  
له من يد الأيام غير سوالب  
فقد ملئت منها أنامل حاسب  
بدا الدر منها بين طاب وراسب  
بعزم يعد السير ضربة لازب

ولـكن أرضي كيف لي بفكاكها      من الاسرف في أيدي العلوج الغواص  
إلا في ضمان الله دار ينطوى      ودارت عليهم معصرات الهواطب  
أمنها في خاطري كل ساعة      وأمر لها قطر الدموع السواكب  
أحن حنين النيب للموطن الذي      مغاني غوانية اليه جواذب  
ومن يك أبقى قلبه رسم منزل      تمنى له بالجسم أواية آتب  
هذا خلط في تركيب القصيدة ، ولـكنه خلط معهود عند شعراء  
العرب ، فالقصيدة من هذه الوجهة من الشعر العربي الجميل . على أن  
هذا شاعر عرف كيف يتكلم عن شعور ، وكيف يطبع نفسه حين  
تدفعه إلى الكلام ليصور خفاياها ويبين مكنوناتها .

وله في الوصف براعة معروف ، واستحضار عجيب لصور  
الاشياء والتشبيهات ، ودقة في جمع الاشياء وتنسيقها ، كأنما تراه  
يجمعها وينسقها بيده ، أو كأنه يغوص على المعنى الخفي فيأتي به ويضعه  
في موضعه . ولقد يتكلف أحيانا جمع هذه المعاني ، حتى كأن كل كلمة  
اختطفت من مكانها لتوضع في مكان آخر : ولـكنك تراها كالعقد  
يؤخذ من عنق الحسناء الى عنق الغانية ، فلا يفقد قيمته ولا نضارته  
أو كأنك وأنت تقرأ كلامه ترى بعينك ما يصف وتحس ما يقول :

كما في قوله يصف شمعة :

قناة من الشمع مركزوة	لها حربة طبع من لهب
تحرق بالنار أحشاه	فتدمع مقلتها بالذهب
تمشي لنا نورها في الدجى	كما يتمشى الرضى في الغضب
عجبت لا كلة جسمها	بروح نشاركها في العطب

وكما قال يصف ساقية:

وساقية تسقى الندامى بمـدها كؤوسا من الصهباء طاغية السكر  
يعود فيها كل جام كأنما تضمن روح الشمس في جسد البدر  
إذا قصدت مناديا زجاجة تناولها رفقا بأنمله العشر  
ويرسلها في مائها فيعيد لها إلى راحتي ساق على حكمه تجرى  
ولأنه كان ذا شعور قوى ونظر ثاقب، لا يكاد يشعر بشيء إلا ذكره  
في شعره، ولا تكاد تمتلئ عينه بمنظر إلا وصفه كأنه كان مملوءا بذلك،  
أو كأن هذه كانت كل حياته، لذلك كان يقول في المعنى الطريف،  
كما يقول في المعنى المبتذل. ولكن الابتذال يضيع أملم شعوره بالجمال  
وحسن صناعته.

ولأنه كاد تقف له على غور في الوصف، ولا على أسلوب واحد  
لأنه يميل إلى الاختراع: ويصف الصيد والليل، ويذكر رفاقه، ثم  
يعرج على السرور والكلام في الخمر، ثم يرجع إلى الطبيعة، فيحن إليها  
ويصف طلوع الصبح ثم يصف الخيل وكلاب الصيد وحركاتها ووثباتها  
وكثيرا ما يكون وصفه حقيقيا، أكثر منه خياليا كأنما يرسم ما يرى.  
كما قال:

وليلة حالكه الازار	مدت جناحا كسواد القار
تحبب عنا غرة النهار	عقرت فيها الهمم بالعقار
بجسم ماء فيه روح نار	في مجلس ضم بنى الفخار
كمالة تضحك عن أقار	تراحت بأنجم درارى
من كل نمر في حي الدمار	مهن مال ومعز جار

يُسْقَوْنَ من ساطعة الانوارِ كثيرة الاسماء والاعمارِ  
الى ان قال :

قمنا لننفي عرض الخمارِ عن جوهر الانفس في الصحارى  
بكل طرف سحاب مطار<sup>(١)</sup> موجه الاقبال والادبارِ  
الى ان قال :

فمر بي غيم من الغبار يشكل فيه أحرف الآثارِ  
كأنما يطلبه بثار ماذا يريد الظبي بالفرارِ  
يحذفه يبرمع صغار حذف المولى باليد اليسارِ  
من ابن ريح في قيص نار وهو مع الاجهاد والاضرارِ  
قلو ترانا في انتزاح الدار في روضة كالغداة المعطارِ  
فأكل من صيد أبي العقار وتشرب للصهباء بالكبارِ

ما كنت إلا خالع العذارِ

ويصف مجلس أنس وما يدور فيه ، فتجده ينسى أحيانا نفسه  
المظلمة ، ويكعب على اللهو والمجون وكأنه من أكبر رجاله ، ويذكر  
العبارات التي تدعو إلى الخوض في غماره ، وإلى انتهاز هذه الأوقات  
حتى بعد قوات الشباب الذي يبكي عاياه ، بما لا يكون أرق منه ولا  
أدعى للحسرة وهو يتنفس الصعداء ، ويسلي نفسه بهذا الكلام ،  
ووصف هذه المجالس ، ثم يرجع على نفسه بالعبرة والعظة أو تعود إليه  
نفسه المتشائمة أثناء هذا الهرج والمرج ، فيفريق من ثورة سروره ومجونه  
ويذكر أنه وصاف وصانع من صناع الكلام ، وأنه ليس من أهل هذه

(١) سحاب طوين عظيم ومطار عداء مريع المير

المجالس ، ولا من شراب الخمر ، ويرجع إلى التقوى والندم على الذنوب  
فبقول

بعذارى من سلافاة الخمر	حبذا فتیان صدق عرسوا
فاتقاء السكر عنهم بالسرور	عربد الصحو عليهم بالأسي
يتمشى فيه بالشيب دثور	تمر واربع الصبا من قيل أن
باغت لم تثن منهم صدور	إن للأعمار أعجب إذا إذ
للصبا نار وفي الوجنة نور	كل نافي <sup>(١)</sup> العمر في شرته
ذات عمر كثرت فيها الدهور	يقتنون العيش من قانية
أنجم الكسات في أيدي البدور	أطلع والساق عشاء منهم
في يد الآس عنهن نفور	عد بالاكواب عني إن لي
بنجوم طلع ليست ثغور	عمر الشيب الدجي من لمي
مات من عمرى إلى يوم النشور	لانشور لشبابي بعد ما
إنه في شعري شاهد زور	وخضاب الشيب لأقبله
أذرف الدمع رواحا وبكور	أنا من وجدى بأيام الصبا
لوعة منه إلى ماء الثغور	فكأنى ذو غليل تلتظي
وهى بالشدوعلى الشرب تدور	أصف الراح ولا أشربها
يصطلى نار الوغى حيث تقور	كالذى يأمر بالكر ولا
وذوى اللهومغيبى والحضور	فسواء بين إخوان الصفا
وإن استغفرت فالله غفور	أنا من كسب ذنوبى وجل

وقد اشتهر بوصف القصود كما قال :



كم شاخص فيه يطيل تعجبا  
عجبا لها، تسقى الرياض ينابعا  
خصبت بطائرة على فنن لها  
قُب الطيور الخاشعات بلاغة  
فاذا أتيج لها الكلام تكامت  
وكأن صانعها استبد بصنعة  
أدفت على حوض لها فكانها  
فكانها ظنت حلاوة مأها  
إلى أن قال :

كم مجلس يجري السرور مسابقا  
يجلود ماه على الخدود ملاحه  
فسماؤه في سمسكها علوية  
منه خيول اللهور في ميدان  
فكانه المحراب من غمدان  
وقباه فلكية البنيان

وكقوله :

وإذا نظرت إلى غرائب سقفه  
وعجبت من خطاف عسجده التي  
وضعت به صناعة أقلامها  
وكأنما للشمس فيه ليقة  
وكأنما للأزورد مخ--رم  
وكأنما وشوا عليه ملاة  
ياملاك الأرض الذي أضحي له  
أبصرت روضاً في السماء نصيرا  
حامت لتبني في ذراه وكورا  
فأرتك كل طريدة تصويرا  
مشقوا بها الزويق والتشجير  
بالخط في ورق السماء مطورا  
تركوا مكان وشاحها مقصورا  
ملك السماء على العداة نصيرا

كم من قصور الملوك تقدمت واستوجبت لقصورك التأخيرا  
فعميتها وملكت كل رئاسة منها، ودمرت العدا تدميرا<sup>(١)</sup>  
وقد يتغزل فيخطب حبيبته بما في نفسه من ألم، وما يلاقه في  
سبيلها من شتات الأعداء، وما يتمناه من الصبر في سبيل ذلك. ثم  
يستعطفها بما لها من الدلال أن تكف عن أسر قلبه. وهو يستعطفها  
ويدل في آن واحد. فيقول:

عذبت رقة قلبي	ظلما بقسوة قلبك
وسمت جسمي مقما	وما شفيت بطبك
أسخط كل عدو	رضيته لمحبيك
من لي بصبر جميل	على رياضة صعبك
فيأتشوق بُعدى	إلى تنسم قربك
ووجنة غمستها	في الورد صنعة ربك
لقد جنحت لسامى	كما جنحت لحربك
فبالدلال الذى زاد	في ملاحه عجبك
فكى من الأسر قلبا	عليه طابع حبك
ونعمينى بعتي	فقد شقيت بعثك

ويمدح على الأسلوب المعروف من حيث البدء بالنسيب. وقد  
يطيل في ذلك، وربما لم يكن له ميزة في غير الأسلوب، وربما كان  
مدحه كسغزله، ولكنه مدح جميل على الرغم مما يشعر به القارىء من  
الثرثرة. غير أن المعانى تنهل عليه انهيالا فيعذب الكلام. كما قال:

(١) راجع القصيدة في الديوان المطبوع في رومه ص ٤٨٢

غَيْرَتَهُ غَيْرَ الدَّهْرِ فَشَابَ      وَرَمَنَهُ كُلَّ خُودٍ بِاجْتِنَابِ  
فَعْدَا عِنْدَ الْغَوَانِي سَاقَطَا      كَسَقُوطِ الصَّفْرِ مِنْ عَدِ الْحِسَابِ  
وَتَوَلَّى عَنْهُ شَيْطَانُ الصَّبَا      إِذْ رَمَاهُ الشَّيْبُ رَجْمًا بِشَهَابِ  
وَكَاثُ الشَّعْرِ مِنْهُ مَعْفٍ      يَلْتَقِطِي فِيهِ شَوَاطِئَ ذَوَاتِ الْهَابِ  
أَيُّهَا الْمَغْرَى بِتَأْنِيْدٍ مُشْجٍ      مَلِطَ الْوَجْدَ عَلَيْهِ هَلْ أُنَابِ  
هَامَ لَاهَمْتَ مِنَ الْغَيْدِ بِمَنْ      حَبَّهَا عَذْبٌ ، وَإِنْ كَانَ عَذَابِ  
لَمْتُ لَا لَمْتُ عَمِيْدًا قَلْبِهِ      عَنْ مِمَاعِ اللَّوْمِ فِيهَا ذَوَاتُ الْقَلَابِ  
وَالْهَوَى بَاقٍ مَعَ الْمَرْءِ إِذَا      كَانَ مِنْ عَصْرِ الصَّبَا عَنْهُ ذَهَابِ  
بَابِي مِنْ أَقْبَلْتُ فِي صَوْرَةٍ      لَيْسَ لِلتَّائِبِ عَنْهَا مِنْ مَتَابِ  
كُلَّ حَسَنِ كَامِلٍ فِي خَلْقِهَا      لَيْتَهَا تَنْجُو مِنَ الْعَيْنِ بِعَابِ  
فَالْقَوَامُ الْغَصْنُ ، وَالرَّدْفُ النِّقَا      وَالْإِقَاحُ الثَّغَرُ ، وَالطَّلُ الرِّضَابِ  
ظَبِيَّةٌ فِي الْعَقْدِ إِمَّا التَّفْتَتِ      وَمِهَاقَةٌ حِينَ تَرْنُو فِي التَّنْقَابِ  
وَيَذْكُرُ الْحَجْرَ وَكَأَنَّ النَّاسَ جَمِيعًا سَكَرَى ، وَفِي كُلِّ رَأْسٍ نَشْوَةٌ  
وَحَيْرَةٌ . وَكَأَنَّ الْحَجْرَ حَلَالٌ لِأَحْرَامٍ ، أَوْ كَأَنَّهَا أَكْمَلُ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ ،  
لأنَّه يَصِفُهَا بِأَكْمَلِ الصِّفَاتِ وَأَجْمَعَ سِمَاتِ السِّجَالِ وَاللِّذَاتِ : وَيُخَيِّلُ إِلَى  
لَا نَسَانَ أَنَّهَا لَمْ يَبْقَ كَلِمَةٌ تَمُتُّ إِلَى الْحَجْرِ بِقَرَابَةٍ إِلَّا ذَكَرَهَا ، أَوْ مَعْنَى يَدُبُّ  
فِي النَّفْسِ بِدِيْبِيهَا لِإِقَالِهِ ، وَالْقَارِيءُ يَشْمَلُ بِذِكْرِ الْحَجْرِ كَمَا يَشْمَلُ بِأَسْلُوبِ  
الشَّاعِرِ وَعِذْوَبَتِهِ ، وَكَأَنَّ أَحَدًا لَمْ يَقُلْ مِثْلَهُ فِي ذَلِكَ كَمَا قَالَ .  
يَجْسَمُ لَهُ مِنْ غَيْرِهِ رُوحٌ لَذَّةٌ

سَمِيلٌ ضُرُوعٌ أَرْضَعَتْ حَلَبَ السَّحْبِ

م - ١٥ أدب

إذا قبض الأبريق منه سلافة      تقسمها الشراب حولية بالقعب  
شربنا وللأصباح في الليل غرة      تريد اندماجا بين شرق الى غرب  
على روضة تحيا بحية جدول      يفيء عليه ظل أجنحة القضب  
بازهر يجلو اللهو فيه عرائسا      كراميتها أيدي الكرام من الشرب  
كأن لها في الخمر خمر غلائل      مزردة الأطواق بالاولؤ الرطب  
وكم من كميت اللون تحسب كأسها      لها شفة لعساء ذات لمى عذب  
إذا مزجت لانت لنا وتحولت

باخلاقتها عن قسوة الجامع الصعب  
جرى في عروق النار ماء كأنما      رضى السلم عنها يتقى غضب الحرب  
وإن نال منها ذو الكتابة شربة      تسربت الارواح منه إلى القلب

### أسلوب ابن حمديس

إذا تأمل القارئ ما ذكرناه وما سقناه من شعر ابن حمديس عرف  
أسلوبه الفكري وأسلوبه البياني. أما أسلوبه في التفكير فيظهر من  
هذا الاضطراب الفكري والقلق النفسى ، الذى يدفعه إلى محاولة  
التعبير عما يحول بنفسه من جسد وهزل وجمال الحياة وخيرها  
وشرها .

تنساب عليه المعانى أنسياً وتزاحم عليه فيرصفها رصفاً وكأنه  
كان يخشى عليها ، من أن تفر من ذاكرته فيقيدها قبل شرودها . ومن  
هنا كانت كثرة المعانى المختلفة في القصيدة الواحدة وأطرقه موضوعات  
متضادة كالزهد والتقوى وكوصف الخمر والمجون .

— ٢٢٧ —

وإنما ذل غرضه الاستعانة بالبلاغة على إبراز ما في نفسه أو مشاهداته في الحياة .

أما أسلوبه البياني فيكاد يكون من السهل المحتنع ليس فيه غموض ولا تكلف ، ولا قعقه في الألفاظ ولا محاكاة لغيره . وتكاد تجده في كل كلامه أن المعنى لا يزيد على اللفظ وأن اللفظ لا يزيد على المعنى وإذا جاء فيه شيء من استعاره أو كناية أو تشبيه ، فقد يجيء عنوا أو قصدا ولكن بدون تكلف .



# الآداب العربية بمصر

من سنة ١٢٢٠

حالة اللغة قبل ذلك العصر

أتى على اللغة العربية وآدابها عصور مختلفة اختلفت فيها منزلتها قوة وضعفها ، ورفعة وانحطاطا ، على حسب الحوادث السياسية والاجتماعية : فان التاريخ الاسلامي من أكثر تواريخ العالم اضطرابا ونقايما ؛ والامم الاسلامية أكثر الامم اختلافا في الاحوال الاجتماعية . فقد دخل في الدين الاسلامي أمم مختلفة في عاداتها وأخلاقها . وكثير منها استولت عليها الاطماع وتطلعت نفوسها الى الملك ، فكان من جراء ذلك حروب متوالية ودول متداولة بعضها يعمل على رقي اللغة وبعضها كان يجهلها فلا يساعد على انهاضها . ثم كان لاختلاف هذه الامم أثر في اختلاف اللهجات ، وتسرب الدخيل في العبارات والاساليب : اذ أصبحت اللغة العربية لغة لكل هذه الامم فلم تثبت على حال واحدة ولم تسكن في قطر واحد أو اقليم واحد : ولو أنها كانت ولا تزال لغة الدين ، والمسلمون في جملتهم أشد الناس تمسكا بدينهم لتعددت لهجاتها بتعدد الامم التي أصبحت تتكلم بها

وقد كانت الحالة العقلية في العصر الاسلامي الأول مصدرة بصفة صبغة عربية اسلامية . يتنازع كل منهما الآخر في السلطان والجاه . فبينما كان الروح العربي يسود العالم الاسلامي زمن بني أمية والعصبية العربية

تسود كل شيء وتمثل الروح البدوية القديمة في ثوب اسلامي جديد والنصرة العربية تظهر في كل أثر من آثار الحياة الاجتماعية والسياسية لدى الخلفاء والأمراء في مجتمعاتهم ومراسلاتهم وأحاديثهم وخطبهم وآدابهم شعرا ونثرا كان الروح الديني يستولى على عقول المسلمين ويقود منهم مائة الفكير وتملك كل المظاهر العقلية في العلوم والفنون والعقائد فكانت الحياة الاجتماعية والعقائمية حياة عربية اسلامية إلى نحو آخر دولة بني أمية .

فاما احتك المسلمون بالفرس ودخل هؤلاء الاسلام وتسلموا إلى مراكز الامراء والقواد والزعماء وقادوا العالم الاسلامي . أخذ العرب عنهم حضارتهم كما أخذوا عن غيرهم بمساعدة الفرس فترجموا ونقلوا العلوم العقلية والكونية واطلعوا على آثار اليونان من فلسفة وغيرها أخذت عقولهم تنصبغ بصبغة أخرى غير تلك الصبغة العربية الاسلامية ، وكانت هذه العلوم الحديثة تستولى على روح التفكير لديهم وتنزع منهم بعض جذور ملكاتهم القديمة ، ذلك الى ملحقهم من الدخيل في دماهم وأنسابهم وعقائدهم فظهرت منهم المذاهب الكثيرة في السياسة والاجتماع والعقائد وظهرت فيهم ثقافة جديدة مصبوغة بصبغة علمية أو سياسية بما قرأوه وعرفوه من علوم الطب والرياضة والفلسفة . وكانت هذه الحياة العقلية تخالف كل المخالفة تلك الحياة الاولى التي كان عمادها الدين الاسلامي وعلوم الشريعة والعلوم العربية

وكان أثر هذه الحياة الجديدة في عقول المسلمين ( لافي عقول العرب وحدهم ) ان تغيرت قوة التفكير لديهم وطرقه ونوع الادراك

في كل شيء وبخاصة الحياة الادبية فذهب من الشعر ذلك الروح البدوي  
العربي الصميم وحل محله صبغة أخرى أنبتتها الحضارة الجديدة في نفوس  
المسلمين فكان الشعر العربي شعرا صناعيا منمقا يدل على تذوق الشعراء  
فنون الجمال وضروب البلاغة في القول أكثر من أن يكون شعرهم  
صورة صحيحة للنفوس والحياة الاجتماعية ، كما كانت الحال زمن  
بني مروان

وقد دام هذا العصر زهاء قرنين وكان مركز الثقافة الاسلامية  
مدينة بغداد وما يتبعها من العواصم التي تشعبت من هناك كقرطبة  
والقيروان والقاهرة زمن الفاطميين

فلما انقسمت الدولة الاسلامية الى ذويلات وتغلغل فيها هذا  
الانقسام بسبب أطماع الامراء من الفرس والترك والديلم وغيرهم تشعبت  
الحياة العقلية الى شعب في العراق وفارس وتركستان والشام ومصر  
وبلاد المغرب وكان أكبر مظاهر هذه الحياة العقلية في بلاد المشرق أو  
لدى الدول التي قامت هناك حيث تعددت أوطان اللغة العربية كما يقولون  
ولكن هذا الانقسام كان داعيا إلى نسابق هذه الممالك في أحياء العلوم  
والآداب ولا سيما لدى الدولة السامانية والبويهية . وانتشر في هذا العصر  
نوع من الثقافة الفارسية لها الممزوجة بالروح العربي وكان عصر تقوم في  
اللغة والأدب على ما هو معروف .

وقد دامت هذه الحال الى أن أستولى التتار على الممالك الاسلامية  
وأزالوا الخلافة من بغداد وخرّبوا البلاد وأبادوا مؤلفات العلماء فأثقل  
مركز الثقافة العربية الاسلامية الى مصر وبعض البلدان الأخرى



كلشام والبن والحجاز وافريقية الشمالية ولو أنهم ساروا على هذا النحو من التخريب لمحيته العربية وأنطمت معالم الاسلام ولكنهم اعتنقوا الدين الاسلامي ليسيظروا على العالم العربي وليلسكوا نفوس المسلمين فأنشئوا المساجد والمدارس وأنعموا إذ ذاك على العلماء والمشتغلين بالعلوم ، وساعدوا على نشر العلم فبقيت اللغة العربية حافظة كيائها إلى أن جاء زمن المماليك بمصر فعملوا على تخليد ذكراهم وأنشأوا المدارس والمساجد ورصدوا عليها الأموال كما فعلوا بذلك في ربوع الشام وشجعوا العلماء على التأليف فكان لهم فضل لا ينكر وقد كان ذلك من الاسباب التي ساعدت اللغة العربية على الرقي كما ساعدت العلماء والمؤلفين على نشر العلم والعناية بالتأليف في الفنون المختلفة .

ولقد كانت لهجات الكلام في ذلك الوقت بمصر والشام مزيجاً من العربية الفصحى والعامة ولكن الكتابة كانت باللغة الفصحى ، مع بعض الأساليب التركية وقد ظهر في هذا العصر جماعة من كبار الكتاب كالقاضي الفاضل وغيره .

وكانت الحركة العلمية على أحسن ما تكون في ذلك العصر حيث ظهر كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين النورى المتوفى سنة ٧٣٣ هـ ، وكتاب صبح الأعشى لشهاب الدين القلقشندي وغيرهما من المؤلفات الشهيرة .

وأخذ الشعر يتقدم خطوات باهنة المصرى والشاب الظريف وصفى الدين الحلى وغيرهم واستمرت الحال على ذلك إلى أن جاء العصر العثماني فلم يعن الأتراك باللغة أية عناية .

حتى كاد يقف التيار تقدمها وطفى على العربية كثير من الأساليب  
والألفاظ التركية واللاهجات العامة وأنحطت منزلة الكتابة ووقفت  
حركة التأليف وانطمست معالم الشعر وجهدت قرائح الشعراء إلى أن  
قيد الله لمصر أن يعمل على رقيها ذلك الرجل العظيم محمد على الكبير .

### « مصر والحمة الفرنسية »

لم يكد القرن التاسع عشر يتنسم نسيم الحياة حتى ظهر فيه رجلان  
عظيمان : فقد أنجبت الثورة الفرنسية نابليون بونابارت في أوروبا  
كما جذبت مصر الغنية اليها من سواحل مقدونيا الجنوبية ذلك الجندي  
العظيم (محمد على) الذى مال بث قليلا في وادى النيل حتى ظهرت  
مواهبه وميوله للعمل على ترقية مصر فأشرأبت إليه أعناق المصريين  
لينقذهم من ظلم المالك واستبدادهم ، فصار بنظره الثاقب وفطرته الذمية  
منقذ البلاد ومجدد مجدها .

وكانت الحمة الفرنسية التى قادها (بونابرت) إلى مصر كشفت  
كثيرا عن مخبئات البلاد العلمية والتاريخية ووعنت حجرا لاساس  
بناء العلم العصرى في بلاد الفراعنة : فقد عمل علماء الفرنسيين الذين  
صحبوا بونابرت في ثلاث سنين مالم يعمله غيرهم في قرون ، وغرسوا  
بيدهم في مصر أول بذرة من بذور الحضارة الحديثة من علوم أوروبا  
وفنونها . فسحوا البلاد طولا وعرضا ووضعوا الخرائط الجغرافية  
والجيولوجية ، وأنشأوا معامل الكيمياء وكشفوا عن تاريخ البلاد  
القديم الذى كان مجهولا إلى زمنهم ، وكتبوا عن التاريخ الحديث وآلوه

كتباهم الشهير (وصف مصر) الذى جموا فيه خلاصة جهودهم والذى لا يزال على الرغم من مرور زهاء قرن ونصف قرن مرجع الباحثين والمؤلفين . وأنشأوا أول مطبعة عربية تولى إدارتها أحد علماءهم المستشرقين (مارسل) وقاموا بغير ذلك من الاعمال العظيمة التى كان لها أثر كبير فى نهضة العلم الحديثة فوجدوا فى البلاد حركة علمية وأيقظوا العقول من سباتها . وقد شهد الناس حتى العامة منهم بعض ما كان يجرى فى معامل الكيمياء فتعجبوا غاية العجب ، حتى لقد كان العامة يظنون ذلك ضربا من السحر كما ذكر ذلك الجبرتي فى تاريخه

« بدأ النهضة فى زمن محمد على »

ومنذ ذلك الحين سطع ضوء العلوم وانبعثت أشعة الحضارة على ربوع مصر . وبعد أن خرج الفرنسيون واستولى محمد على المصلح الكبير على مصر - وكان رحمه الله مخلصا فى عمله محبا للبلاد - تأقت نفسه لان يصل بها إلى أرقى منزلة بين الامم المتحضرة ، فأخذ يستعين بالاوربيين من فرنسيين وانجليز وغيرهم ، ولم يكتف بذلك بل أراد أن تكون اليد العاملة فى رقية البلاد هى اليد المصرية فوفد بعثات علمية من الشبان النجباء إلى فرنسا وغيرها ليدرسوا مختلف العلوم ، والفنون ، وخصص كلا منهم لفن أو علم يتعلمه ، كالادارة العسكرية وفنون السياسة وعلوم الطبيعة والكيمياء والنبات والحيوان وصناعة الاسلحة والطب والجراحة والزراعة والمعادن والطبع والحفر واللغات والادب . وجعل لهم من يعلمهم العربية ويمرنهم على أساليبها وأدابها حتى إذا رجعوا تمكنوا من نشر معلوماتهم بلغة البلاد . لذلك كان

لهؤلاء الطلبة بعد رجوعهم الى مصر اليد الطولى فى ترجمة الكتب من الفنون والعلوم المختلفة إلى اللغة العربية؛ فانتسعت المدارس وانتشرت الحضارة الحديثة بانتشار المدارس والتعليم . وأخذت نئق الصبغة القديمة التى كان أكثرها مصبوغا بصبغة دينية علمية . لأن العلم كان محصورا فى الازهر ولم يكن عالم غير أزهرى ولا أديب أو لغوى غير دارس فى ذلك المعهد الدينى ، حتى لقد كاد يكون العلم وقفا على علماء الازهر . فتغاب تيار المدنية الحديثة على ذلك . على أن أول أساطين هذه النهضة كان من علماء الازهر وطلابه ، ويكفى أن يكون فى مقدمتهم العالم العصرى الشيخ رفاعة الطهطاوى الذى سافر إلى فرنسا ورجع عالما من أعلام نهضتنا فى ذلك العصر ؛ بل كان من أشهر الكتاب والمؤلفين والمترجمين ، والشيخ أحمد العطار الذى أرسل ليتعلم علم الهندسة العسكرية .

#### ظهور المطابع العربية

وانشئت المطابع ، وهى من أعظم وسائل النهضة الادبية والعلمية فى مصر وكانت أول مطبعة أنشأها الفرنسيون فى مصر كما تقدم ، وأول ما طبع فيها كتاب التهجى فى اللغة العربية والفارسية سنة ١٧٨٩ ثم كتاب القراءة العربية ثم معجم فرنساوى وعربى واجرومية فى اللغة المصرية العامية ولما رجع مدير هذه المطبعة الى باريس سنة ١٨٠٠ أخذ مطبعته معه ووقفت حركة الطبع حتى أنشأ المغفور له محمد على باشا المطبعة الاهلية سنة ١٨٢٢ وقد قام بالعمل فى هذه المطبعة جماعة من خريجي الجامع الازهر كانوا يطبعون فيها الاعمال الخاصة بمصالح

الحكومة . ثم طبعوا كتابا باللغة العربية لأحد علماء القاهرة ورسالة في الفنون الحربية وكتابا في الصباغة ترجم من ايطاليا ومعجما ايطاليا عربيا . ويقولون أول مطبع بمطبعة بولاق سنة ١٨٢٢ وقد قامت هذه المطبعة بنشر الكتب وطبعها فطبعتم فيها مئات من أهم الكتب العربية في الطب والرياضة والطبيعة والأدب والشعر وعلوم الدين وغيرها ، مما يضيّق المقام عن ذكره ، ومئات من الكتب المترجمة في العلوم الحديثة ، ثم انتشرت على أثر ذلك المطابع في سوريا والقسطنطينية ومصر . فكانت من وسائل نشر العلوم والمعارف .

وكثرت المطابع الأخرى غير الاميرية وأقدمها مطبعة وادي النيل أنشئت سنة ١٢٨٢ هجرية كانت تطبع فيها صحيفة وادي النيل لصاحبها أبي السعود افندي وطبعتم فيها أيضا روضة المدارس وهي من أقدم المجلات المصرية . ولما انتشرت المطابع انتشرت الصحافة معها كما سيأتى . ثم أنشئت مطابع في جميع البلدان التي يقرأ أهلها اللغة العربية وخصوصا في بلاد الهند ، وكان لاهتمام الاوربيين بإنشاء المطابع عندهم شأن عظيم في رقي اللغة ونشر الكتب العربية . على أنهم سبقوا الشرق في ذلك ، ويرجع مبدأ الطباعة هناك الى أوائل القرن السادس عشر حيث فتحت الرهبانية اليسوعية مدرسة للغة العربية والعبرانية في روما وأنشئت مطبعة طبعت فيها بعض الكتب الدينيه . ثم انسمت تلك النهضة في أنحاء أوروبا وكثر المشتغلون باللغات الشرقية حتى امتلأت المكاتب بالمكتب العربي وغيرها ولا سيما مكاتب باريس ولندن ومجريط واكسفورد وليدن

## الصحف العربية

ومن وسائل نشر اللغة العربية ظهور الصحف اليومية أو الجرائد في بلاد المشرق، وأول صحيفه عربية ظهرت في مصر هي الوقائع المصرية سنة ١٨٢٨ ميلادية على عهد محمد علي . كانت في أول أمرها تظهر ثلاث مرات في الاسبوع بالعربية والتركية . ثم ظهرت جرائد أخرى في الاستانة وغيرها باللغات التركية والعبرانية والعربية . وأول جريدة عربية ظهرت في الاستانة كانت تسمى ( مرآة الاحوال ) سنة ١٨٥٤ وأول جريدة ظهرت في سوريا اسمها ( حديقه الاخبار ) أنشأها خايل الخوري ، وصدر أول عدد منها سنة ١٨٥٨ وفي سنة ١٨٦٠ أصدر احمد فارس الشدياق في الاستانة جريدة ( الجوائب ) فبقيت فيها إلى سنة ١٨٨٤ وفي هذا الحين ظهرت في باريس جريدة عربية تسمى ( البرجيس ) لأحد التونسيين ، ثم ظهر في مصر جريدة ( وادي النيل ) سنة ١٨٦٧ وقد كثرت بعد ذلك الصحف اليومية في مصر وأقدم صحيفه ظهرت بعد الوقائع المصرية مجلة شهرية اسمها ( اليعسوب ) صدرت سنة ١٨٦٥ أنشأها محمد علي باشا الحكيم و ابراهيم الدسوقي وهي أول مجلة طبعه ظهرت في اللغة العربية . وفي سنة ١٨٦٩ ظهرت جريدة ( نزهة الافكار ) وكانت أسبوعية أصدرها ابراهيم المويلحي ومحمد عثمان جلال ، ولم يصدر منها غير عددين ثم ألغيت ، وأعظم هذه الجرائد فائدة : مجلة روضه المدارس السالفه إذ كان يحررها جماعه من كبار الابداء كعبد الله باشا فكري واسماعيل باشا الفلكي وعلى باشا مبارك ورفاعه بك وغيرهم

ولا شك أن في انتشار الصحف العربية من أكثر الأشياء  
مساعدة على رقي اللغة العربية وتحرير أساليبها وهناك طائفة من  
الصحف التي أصدرها السوريون الوافدون على مصر ( كالسكوكب  
الشرقي ) لسليم حموى التي صدرت في الاسكندرية سنة ١٨٧٣ وجريدة  
( الاهرام ) الشهيرة لسليم وبشارة تكللا صدرت سنة ١٨٧٦ وجريدة  
( المقطم ) التي لها فضل عظيم في نشر الاساليب العربية الصحيحة  
ثم جريدة ( المؤيد ) المعروفه التي كان يحررها المرحوم الشيخ على  
يوسف بأسلوب عربي متين وغير ذلك من المجلات والصحف الكثيرة  
المنتشرة الآن

#### اشتغال علماء أوروبا بالعلوم الشرقية

كان لاشتغال الاوربيين المستشرقين بالعلوم العربية شأن عظيم  
أيضا في نشر المباحث والكتب التي رقت من شأن اللغة ودعت الى  
العناية بها ، واشتهر منهم جماعة بتأليفهم العربية أشهرهم البارون دي  
ساسى أحد العاملين على طلب اللغات الشرقية ومن استخرجوا خبائرها  
وهو مستشرق فرنسى شهير مات سنة ١٨٣٨ بعد أن درس جميع  
اللغات الشرقية وتعلم العبرانية والسورانية والكلدانية والسامرية  
والعربية والفارسية والتركية ، وكان يجيد أكثر هذه اللغات فساعد  
على نشر كثير من المقالات والمجلات التي تكلمت عن هذه اللغات  
ويقولون إنه نشر أكثر من مئتي مؤلف في علوم الشرق ولغاته . وله  
منتخبات عربية في ثلاث مجلدات ، وناريخ العرب في الجاهلية وطبع كليلمة  
ودمنة ومقامات الحريري مع شروح وافية كما طبع رحلة عبد اللطيف

البغدادى إلى مصر

ومن أشهر هؤلاء المستشرقين «جان جاك عمانويل سيدليو» درس اللغات الشرقية وانقطع إلى درس النجوم فنقل إلى اللغة الفرنسية كتاب الآلات الفلكية المسمى جامع المبادئ والغايات لابن الحسن على المراكبي وكتب عدة مقالات في تاريخ الشرق وعلوم الرياضة وله كتاب شهير في تاريخ المدينة العربية ترجم زمن المغفور له على باشا مبارك وتوفي سنة ١٨٣٣

ومنهم كوسان دى بر سيفال المتوفى سنة ١٨٣٥ اشتهر في اللغة العربية وألف فيها كتباً كثيرة وطبع مقامات الحريري وأمثال لقمان وتاريخ صقلية للنويرى ، وتاريخا كبير يقع في ثلاثة مجلدات للعرب وهؤلاء بعض المستشرقين الفرنسيين ، أما الألمان فقد برزوا على غيرهم في هذا الميدان فمنهم ارنست فردريك روزنمور المتوفى سنة ١٨٣٥ نقل إلى اللغة اللاتينية معلقة زهير وبعض مقامات الحريري وشيئا من أمثال الميداني ، ومنهم الاستاذ هابخت المتوفى سنة ١٧٧٥ درس في باريس على دى ساسي وطبع نخبه من أمثال الميداني وهو أول من سعى في طبع كتاب (الف ليلة وليلة) سنة ١٨٢٥ طبع منه ثمانية أجزاء قبل وفاته وترجم مع بعض العلماء إلى اللغة الألمانية ، وغير هؤلاء كثير من الإنجليز والهولنديين والبلجيكيين الذين نكتفي بالإشارة إليهم

وأسس الاوربيون معاهد لتدريس العلوم الشرقية في بلادهم ومن أشهر تلك المعاهد مدرسة اللغات الشرقية في باريس التي أنشئت سنة ١٧٩٥ وأنشئت الجمعيات الآسيوية والنوادي العلمية في إيطاليا



واسبانيا وأنجلترا وغيرها

وأنشأ الفرنسيون الجمعية الآسيوية الباريسية وكان سلفستر دى ساسى وتلاميذه قاموا بهذا العمل الجليل سنة ١٨٢١ ونشروا فى المجلة الآسيوية كل ما كانوا يكتبونه أو يعثرون عليه من علوم الشرق وآدابه ولغاته وقد عنوا عناية خاصة باللغات السامية وجارى الفرنسيين الانكار فى ذلك فأنشأوا جمعية سموها جمعية بريطانيا العظمى وأرلندا الآسيوية الملكية . وكان ذلك سنة ١٨٢٣ قام بهذه الجمعية العلماء الأثريون ونشروا صحيفة علمية سنة ١٨٢٤ وفى سنة ١٨٣٦ سموها مجلة لندن الآسيوية الملكية

وكذلك نشر الالمانيون والنمساويون صحفا شرقية اشتهر ذكرها بما نشرت من المباحث الهامة فى المسائل الشرقية مثل (معادن الشرق) واشتهر من الالمانيين الاستاذ فامت الذى نشر معجما عربيا لانيشيا ونقل معاقتى لبيد فى سنة ١٨١٤ وعنتره فى سنة ١٨١٦ وعاق عليهما تعليقات مفيدة ونقل قسما كبيرا من مقامات الحريرى الى اللاتينية وغير ذلك

وقد عمت دراسه اللغات الشرقيه كل بلاد أوروبا تقريبا حتى وصلت بلاد روسيا واشتغل بها علماء هناك فى أواخر القرن التاسع عشر واشتهر أخيرا من المستشرقين الانجليز ادوارد لين المتوفى سنة ١٨٧٦ وقد ألف فى اللغة العربيه مؤلفات كثيرة وكتب فى وصف مصر ، ونشر قاموسه العربى الانكليزى وترجم ألف ليلة وكتب عن الآداب الاسلاميه . ومن المستشرقين المعروفين الاستاذ مر جليوث

وهو واسع الاطلاع على اللغة العربية وآدابها وقد قام بنشر بعض الكتب العربية التي منها كتاب معجم الادباء لياقوت الحموى ونشر رسائل أبي العلاء المعرى وهو لا يزال حيا ومنهم الاستاذ براون من أساتذة جامعه كبريدج الآن ويعرف اللغات العربية والفارسية والتركية واشد اهتمامه باللغة الفارسية

### النهضة العلمية في مصر

وكان من أسباب نهضة اللغة العربية في مصر أيضا أن كثرت المدارس فيها على اختلاف درجاتها وأصبح التعاليم باللغة العربية وشاع تعلم اللغات الأجنبية ولا سيما منذ حكم الخديوى اسماعيل ، وكان للجامع الأزهر أثر عظيم في حفظ هذه اللغة لأنه كان منبعاً من منابعها تمتدق منه علوم اللغة وآدابها فقد كان معلموا المدارس في أول الأمر من علماء الأزهر ، إذ كانت تدرس فيه اللغة العربية وجميع علومها على طريقته البعث والتحقيق ، ولولا أن أساليب هذه الدراسة بقيت على ما كانت عليه ولم تتأثر بالأساليب الحديثة لخرج من الأزهر أئمة اللغة وعلمائها . ولكن على الرغم من ذلك فانه كان دليلاً على حياة الحركة العلمية . فقد ظهر فيه جماعة من كبار المؤلفين كلشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، والشيخ حسن المطار والشيخ العروسى والشيخ الباجورى والشيخ عبد الحمادى اليبارى والشيخ حسين المرسفى ، الشيخ محمد عبده وغيرهم . وكان منهم الكتاب والخطباء والقضاة والمحامون ومن أعظم وسائل رقى اللغة العربية في البلاد أساتذة اللغة الذين

تخرجوا في مدرسة دار العلوم التي أسسها المرحوم علي باشا مبارك وكان لها شأن عظيم في ذلك ، فقد ساعدت على نشر اللغة وآدابها بوساطة هؤلاء المدرسين

وكثر الوافدون على مصر من الكتاب والأدباء ومنهم السوريون ذووا النشاط العقلي والميل إلى اللغة العربية ، فأحدثوا بامتزاجهم مع المصريين حركة كتابية عظيمة في المجالات والجرائد والكتب التي ترجموها من قصص وفنون مختلفة ، وكان ذلك من أسباب تدرج الأسلوب العربي إلى طريقة جديدة لبعض الأساليب الأفريقية أترفها

كانت النهضة العلمية عندما بدأ المغفور له محمد علي في العمل على إصلاح البلاد مقصورة على ما كان في بلاد المشرق ولا سيما في مصر من الاشتغال بعلوم اللغة العربية وفنونها وعلوم الدين وأصوله وقد كان ذلك محصورا في الجامع الأزهر والمتخرجين فيه ، حتى أن أشهر المؤرخين والمشتغلين ببعض الفنون الرياضية كانوا من هؤلاء العلماء ، كالشيخ عبد الرحمن الجبرتي صاحب التاريخ المشهور ، والشيخ حسن العطار ( توفي سنة ١٢٥٠ ) الذي كانت له تأليف كثيرة في علوم اللغة والفنون والطب والانشاء والمراسلات ، وكان عارفا بعلم الفلك ويجيد عمل المزاويل الليلية والنهارية . وقد كان الشعراء والكتاب والمؤلفون كلهم من هذه الطائفة . فلما رجع طلبة البعثة العلمية التي أرسلها محمد علي إلى أوروبا وأخذوا في الترجمة والتأليف أخذت

تنتشر العلوم الحديثة كما قلنا ، ولا سيما أنه قد اشتغل مع هؤلاء جملة من العلماء الفرنسيين وغيرهم من الفرنجة ، مثل كAUTOT بك مؤسس مدرسة الطب ، وبروان بك أحد أساتذتها الذين ظهرت لهم مؤلفات ترجمت الى اللغة العربية ، وكان أكثر المتخرجين من المصريين كإبراهيم النبراوى ( المتوفى سنة ١٨٦٢ ) الذى ترجم كتاب الاربطة الجراحية ونبذة فى الفلسفة الطبيعية تأليف كلوت بك ، ونبذة فى أصول الطبيعة والتشريح لكلوت بك أيضا . وكأحمد حسن الرشيدى ( توفى سنة ١٨٦٥ ) الذى ترك عدة مؤلفات فى الطب . وهو من كبار نوابغ هذا الفن ، منها رسالة فى تطعيم الجدري ترجمها من مؤلفات كلوت بك ، وضياء النيرين فى مداواة العينين ، وطالع السعادة والاقبال فى علم الولادة والنساء وأمراض الاطفال . ونزهة الامائل فى علاج تشوهات المفاصل . وترك محمد على باشا القبلى ( توفى سنة ١٨٧٦ ) من المؤلفات روضة النجاح الكبرى فى العمليات الصغرى ، وغاية الفلاح فى فن الجراح . وغرر النجاح فى أعمال الجراح . كما ترك محمد الشافعى ، ومحمد عبد الفتاح ، وحسن بك عبد الله وأحمد ندا كثيرا من المؤلفات فى الطب وعلم الصيدلة . وهذا الأخير كتب فى علم النبات والحيوان ، الآيات اليبينات فى علم النبات . وحسن البراعة فى فن الزراعة ، ترجمة عن الفرنسية ، وحسن الصناعة فى فن الصباغة ، والحجج اليبينات فى علم الحيوانات ، ترجمة عن الفرنسية ونجبة الاذكياء فى علم الكيمياء ، والاقوال المرضية فى علم الطبقات الارضية والازهار البديعة فى علم الطبيعة . وقد ترك محمد باشا الدرى ومحمد بك بدر وحسن باشا محمود وهم من أهل أواخر القرن التاسع عشر مؤلفات

كثيرة ، وكان هناك كثير من العلماء الذين اشتغلوا بالرياضة ونقل كتبها مثل محمد بيومى (توفى سنة ١٨٥١) وابراهيم رمضان الذى كان مدرسا بالمهندسخانة ، ومحمود باشا الفلكى المتوفى سنة ١٨٨٥ وهو أشهر هؤلاء العلماء فى علم الفلك . وقد عمل خريطة للقطر المصرى . وهو أول مصرى فعل ذلك . وألف رسالة فى التقاويم الاسرائيلية الاسلامية ، ورسالة فى التقاويم العربية قبل الاسلام (طبعت سنة ١٢٥٨) ورسائل مختلفة فى الكسوف الكلى ، وفى وصف الاسكندرية القديمة والايضاح عن أعمال الاهرام والتنبؤ عن ارتفاع النيل وضرورة مرصد لمصر ، وعمل مقاييس ومكاييل للبلاد ، ومقابلة ذلك بالاقيسة الفرنسية . وغير هؤلاء كثيرون مما يضيق المقام عن ذكره

هذا يجمع الاسباب التى رقت اللغة العربية فى هذه الايام الاخيرة ولا يزال النشء الجديد من الكتاب والمؤلفين يعمل على نشر أساليب جديدة وموضوعات طريفة فى اللغة ، بما اكتسبه من الاطلاع على اللغات الحديثة . ولا بد أن يكون مستقبل اللغة العربية عظيما خصوصا فى مصر التى أصبحت نبراسا للعالم العربى ومنبعا للعلوم الشرقية .

## حالة التعليم في مصر

بقلم علي باشا مبارك

ومما يستدل به على حالة التعليم في مصر ، وما كان بها من العلوم والفنون قول المرحوم علي باشا مبارك في الخطط التوفيقية من الجزء التاسع صفحة ٤١ في ترجمة حياته قال :

« وفي أواخر سنة ٥٢ نقلونا إلى مدرسة أبي زعبل وجعلوا قصر العيني لمدرسة الطب خاصة كما هو الآن ، فكانت إدارة المدارس في أبي زعبل كما كانت في قصر العيني ، إلا أنه أعطني بالتعليم شيئاً بسبب جعل نظرها للمرحوم إبراهيم بك رأفت وكان أثقل الفنون على وأصعبها في الهندسة والحساب والنحو ، فكانت أراها كالظلام وأري كلام المعلمين فيها ككلام السحرة . وبقيت كذلك مدة إلى أن جمع المرحوم إبراهيم بك رأفت متأخرى التلامذة في آخر السنة الثالثة من انتقالنا إلى مدرسة أبي زعبل وجعلهم فرقة مستقلة ، فكانت أنا منهم بل أخرجهم وجعل نفسه هو المعلم لهذه الفرقة ، ففي أول درس ألقاه علينا أفصح عن الغرض المقصود من الهندسة بمعنى واضح وألفاظ وجيزة ، وبين أهمية الحدود والتعريفات الموضوع في أوائل الفنون ، وأن هذه الحروف التي اصطلموها عليها إنما تستعمل في أسماء الاشكال وأجزائها ، كاستعمال الاسماء للحروف . فكما أن للانسان أن يختار لابنه ماشاء من الاسماء ، كذلك المعبر عن الاشكال له أن يختار لها ماشاء من الحروف . فانفتح من حسن بيانه فقل قلبي ووعيت مايقول وكانت طريقته هي باب

الفتوح على . ولم أقم من أول درس الاعلى فائدة ، وهكذا جميع دروسه بخلاف غيره من المعلمين ، فلم تكن لهم هذه الطريقة ، وكان التزامهم لحالة واحدة هو المانع لى من الفهم ، نختتمت عليه فى أول سنة جميع الهندسة والحساب وصرت أول فرقى . وبقيت فى النحو على الحالة الأولى لعدم تغير المعلم ولا طريقة التعليم السيئة . وكان رأفت بك يضرب بى المثل ويجعل نجاحى على يديه برهاناً على سوء تعليم المعلمين وأن سوء التعليم هو السبب فى تأخير التلامذة .

وفى تلك السنة - وهى سنة خمس وخمسين - فرزوا منا تلامذة لمدرسة الهندس خانة ببولاق ، فاختارونى فيمن اختاروه . فاقمت بها خمس سنين وأخذت جميع دروسها ، وكنت فيها دائماً أول فرقى وقلفتها ، فتلقيت بها الجزء الأول من الجبر على المرحوم طائل أفندى ، وكذا تلقيت عنه علم الميكانيكا والديناميكا وتركيب الآلات ، وتلقيت الجبر العالى عليه وعلى المرحوم محمد بك أبى سن ، وحساب التفاضل وعلم الفلك على المرحوم محمود باشا الفلكى ، وعلم الادروليك على المرحوم دقلا أفندى وعلم الطبوغرافيا على المرحوم ابراهيم أفندى رمضان ، وعلم الكيمياء والطبيعة والمعادن والجيولوجية وحساب الآلات على ابراهيم أفندى رمضان وبعضه على المرحوم سلامة باشا وتلقيت عليه أيضاً خاصة القوسموغرافية .

ولعدم وجود كتب مطبوعة فى هذه الفنون وغيرها إذ ذاك كان التلامذة يكتبون الدروس عن المعلمين فى كراريس كل على قدر اجتهاده فى استيفاء ما يلقى به المعلمون . وكان المعلمون يؤمّنون ببدلون

غاية مجهودهم في التعليم ، فكان يندر أن يستوفى تلميذ في كراسة جميع مايلقى اليه خصوصا الاشكال والرسوم . ولذلك كان الأمر إذا تقادم أو خرجت التلامذة من المدارس يعسر عليهم استحضار ما تعلموه ، فكان يضعون منهم كثير مما تعلموه .

وفي آخر مدة المهندسخانة كانوا يطبعون بمطبعة الحجر بعض كتب ، فاستعانت بها التلامذة وحصل فيها النفع . ثم تكاثرت طبع الكتب شيئا فشيئا إلى الآن فصارت تطبع الفنون بأشكالها ورسومها ، فسهل بذلك تناولها واستحضار ما فيها .

ويعلم من هذا سير التعليم في المدارس العالية وأنه كان باللغة العربية ، وإن جميع المدرسين كانوا من المصريين ، وهذا دليل على مقدار حركة التعليم في ذلك الوقت والعناية بالعلوم والفنون التي كانت يدرس إذ ذاك



## الكتابة والشعر

الكتابة : -

بدأ القرن التاسع عشر وسوق الادب كسدة ، ولم يكن للادب معاهد يدرس فيها ؛ ولكن مصر كانت محط الأديباء الذين التجأوا إليها ، وموطن الأزهري الذي كانت تنبعث منه أشعة العلوم العربية إلى أنحاء العالم الاسلامي ، وكان الناس يرون في اللغة العربية وفنونها مفتاحا لكل العلوم . وأساسا لتربية العقول . وزاد الناس حبا بطلب العلم في هذا المعهد ما حبسه أهل الخير على طلابه فلم ينقطع عنه الوافدون ، ولا سيما أن كثيرا من علمائه وتلاميذه كانوا موضع الاجلال والاكرام من الحكام والأمراء ، وكان منهم القضاة وأهل الشورى للسلطين والأمراء ، كما كان منهم الكتاب والمؤلفون في مختلف العلوم والفنون فكان الافبال على الأزهري من أكبر الوسائل لاهياء اللغة العربية وآدابها . فظهر منه الكتاب والشعراء وأرباب الاقلام الذين تولوا وظائف الكتابة في الدواوين وغيرها

أما كتابة الدواوين زمن المماليك فكانت مزيجا من العربية والتركية وخليطا من الألفاظ العامية والعبارات الفصحى ، واستمر ذلك إلى أيام محمد علي حيث فشلت العامية في المؤلفات والمراسلات ، وانحطت درجة الكتابة بطبيعة حال الدولة التي لم يعن أهلها بذلك ، وتاريخ ابن أياس والجبرتي من أساليب الكتابة التي كانت فاشية في تلك الايام ، فكانت الكتابة في حالة انحطاط كما كانت الحال في جميع

### الافطار العربية :

وكان أكثر أساليب الكتابة البليغة الادبية كالرسائل والمقامات مسجعة جارية على أسلوب الهمداني والحريري ، وانتشر السجع حتى لم يكده يخلو منه كتاب أو تأليف . وحتى تمشى هذا الأسلوب في الكتابة العامة . ولاشك في أن هذا أثر عناية العصر العباسي الاخير بالصناعة اللفظية والمحسنات البديعية ، وشاع هذا الأسلوب في الكتابة الادبية حتى تخطى القرن التاسع عشر . فأدرك رفاة بك الطهطاوى (توفى ١٨٧٣ م) وعبدالله باشا فكرى (توفى ١٨٨٩) وعبدالله مديم (توفى ١٨٩٦) وابراهيم بك المويلحى (توفى ١٩٠٦) والشيخ محمد عبده (توفى ١٩٠٧) والسيد توفيق البكرى وغيرهم من الكتاب الحديثين كفى بك ناصف وأمثاله ، على أن ظلال هذا السجع الممل ابتدأت تنقلص منذ أن رجع طلاب الارسالية التي أرسلها محمد على إلى أوربا في أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر ، فقد تأثروا بأساليب اللغات الأجنبية فأخذوا يترجمون ويؤلفون كما فعل رفاة بك الطهطاوى والعالم أحمد ندا (توفى ١٨٧٧) وابراهيم النبراوى الذى كان رئيس المدرسة الطب (توفى ١٨٦٢) وأحمد حسن الرشيدى الطيب (توفى ١٨٦٥) وغيرهم من العلماء والادباء

وكان من أشهر هؤلاء الكتاب والمؤلفين رفاة بك الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣) الذى كانت له آثار عظيمة في الكتابة والأدب والشعر ، فترجم في مختلف العلوم والفنون كتباً ورسائل ، ويحسب

أسلوبه من نماذج أساليب الكتابة المختلفة في القرن التاسع عشر بمصر  
فان فيها السجع المتكلف المزوج بحسن اختيار الالفاظ وبلاغة العبارة  
( راجع « مقدمة وطنية » لحضرة رفاة بك طبع بولاق ١٢٨٣ هـ )  
و « الكواكب النيرة في ليالى أفراح العزيز المقمرة » طبع بولاق ١٨٢٩ )  
وتجد في مؤلفاته السهل الممتنع الذى يشبه أجود أساليب الصحف  
اليومية عندنا الآن ( راجع كتاب « مناهج الالباب المصرية في  
مباهج الادب المصرية » طبع بولاق ١٢٨٦ هـ ومن الاساليب التى  
تحتسب أحيانا مسجعة وأحيانا مرسله أسلوب الوقائع المصرية منذ  
ظهورها ( ١٨٢٨ ) إلى ما بعد منتصف القرن التاسع عشر ؛ وبقي الادباء  
يحاكون الاساليب القديمة والموضوعات المعروفة كرسائل التعازى  
والتعارف قبل اللقاء والعتاب والشوق إلى زمن قريب

ولكن محاكاة الاساليب الفرنجية وانتشار التعريب جعل  
أسلوب الكتابة العربية ينتقل من طور السجع ومحاكاة القدماء إلى  
سهولة التعبير والأيجاز فى العبارة . ومن أشهر الصحف التى أذاعت  
هذا الأسلوب الجديد فى الترجمة والتأليف مجلة روضة المدارس التى  
انشئت سنة ١٨٧٠ وكان يحروها نخبة من العلماء كسماعيل باشا الفلكى ،  
وبدر بك الحكيم ، وعلى باشا مبارك ، ورفاعة بك وغيرهم . فقد نشر  
فى هذه المجلة كثير من آثار أقلام الكتاب فى موضوعات مختلفة من  
علوم وآداب . والمتأمل فى هذه الاساليب يرى أنه قد حدث فى النثر  
أطوار كان الكتاب يجارون فيها روح العصر العلمية والأدبية فرقت

أساليب النثر وتعددت مناحيه حتى أصبحت تحتوى على كثير من الأساليب التى عرفت فى اللغات الأجنبية . وزاد هذه الأساليب رقة وسهولة انتشار الصحف اليومية والمجلات العلمية ، وأخذت الرسائل شكلا آخر غير ذلك الشكل المسجوع المعروف ، ونزع الكتاب إلى أسلوب آخر غير متكلف . وهجر كتاب الجرائد المقدمات التى كانوا يفتتحون بها موضوعاتهم ، واقتربوا من نفوس الخواص ، ولقد نراهم أحيانا ينزلون بأساليبهم إلى عقول العامة مع صحة العبارة وسلاستها . كذلك تجدد أثر الأساليب الفرنسية وتراكيب اللغات الانجليزية فى الكتب المترجمة أو المكتوبة حديثا بأقلام من تعلموا اللغات الأجنبية أو مالوا إلى محاكاتها . وربما توسعوا فى ذلك حتى لقد يخرحون أحيانا عن الأسلوب العربى المألوف ، ولا يزال هذا الأسلوب الحديث يغمرنا بسيل جارف من الألفاظ الاعجمية والتعابير الافرنجية بما ينشره العربون والمؤلفون وكتاب الصحف على أنه فى جملة سهل قريب من أذهان الطبقة الوسطى من المتعلمين . ولا شك أن هذا كله دليل على أن الكتابة العربية فى مصر سائرة فى طريق اخرى غير الطريقة العربية الصميمة .

وقد حدث فى مصر نوع آخر من النثر ، وهو النوع القصصى المصبوغ بصيغة مصرية كما فى كتاب حديث عيسى بن هشام للمرحوم ابراهيم بك المويلحى . وهذا نوع جديد فى الادب المصرى أكثر أثرا وأدعى إلى الحياة فى آدابنا الحديثة من أى نوع آخر من أنواع النثر ،

وقد انتشرت أخيراً هذه الروح القصصية بين كتابنا المعاصرين لذا يجارون بذلك آداب الأمم الأخرى ، لأن أكثرهم قرأ تلك الآداب وخبرها وتأثر بها ، وما ينشر الآن بيننا منها كثير يبشر بنهضة أدبية عظيمة ، على أن أكثرهم لا يزال في بادئ العناء يحتاج إلى كد طويل وتفكير عميق وتجربة وتفنن في هذا الأسلوب الجديد حتى يقرب من الاتقان والكمال .

هذا ما حدث في النثر الفصيح ، أما ما كان في النثر العامي أو القريب من اللهجة العامية ، فقد انتشر في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر وكان من مبتكريه المرحوم عبدالله نديم بروايتيه ( الوطن ) و ( العرب ) اللتين انتقد فيهما كثيراً من المسائل السياسية والاجتماعية والخلقية ، كما كتب مقالات متعددة من هذا النوع جمعت في كتاب سمي ( سلافة النديم ) كمقالة ( سهرة الانطاع أو عرى تفرنج ) ومقالة ( مجاس وطني ) و ( الفخ المنسوب للحكيم المغصوب ) وهذا يدل على أن هذا النوع من الكتابة العامية ابتدأ ينتشر منذ ذاك ، وهو على الرغم من بعده عن العربية الفصحى قليلاً أو كثيراً يحسب نوعاً من أنواع الأدب المصري الذي انتشر بيننا الآن بما نراه من القصص التمثيلية الهزلية المعروفة عندنا ، فانها تحتوي على كثير من نقد أحوالنا الاجتماعية ، ولا يزال الأدب المصري في أول مرحلة من مراحلها .

## الشعر

كان الشعر في مصر أوائل القرن التاسع عشر وقبله كما كان في جميع الاقطار العربية : محاكاة للقديم وجرياً على أساليب شعراء العصور المتقدمة في الموضوعات التي عرفت إذ ذاك ، من مدح وذم ونسيب ووصف وغير ذلك ، حتى لم نعد نجد من بين شعراء هذا العصر الأخير إلا من يعتمد إلى رصانة الشعر القديم فيقلده ، وإلى أسلوبه المتين فيحاكيه وإلى الأخيلة المعروفة فيقتبس منها . وكادت تكون هذه الأساليب كل أغراض الشعراء من قول الشعر . فلم يخرج الشعر عن كونه صناعة من الصناعات لاشعورا ولا أثرا من آثار الهامات النفوس ، ولا سمة من سمات العصر الذي كان يعيش فيه هؤلاء الشعراء ، وحتى لم يكن هناك وسيلة للتفرقة والتمييز بين شعر مصر وغيرهم من الأقطار العربية الأخرى سوى ما أتصف به المصري في كل زمان من خفة الروح وعذب الفكاهة فكان الشعر في حالة تقهقر فلم يكن للشعراء أساليب خاصة بل كان الشاعر يكفى بالوزن والقافية وأخيلة غيره يضعها في كلام آخر ويلبسها ألفاظاً أخرى لذلك كان أشعر شعراء القرن التاسع عشر وقبله من كان حسن الديباجة ، طلي العبارة ، رقيق الإشارة .

وسار الشعراء عندنا على هذا المنوال بدون أن يكون لهم أي أثر جديد في الشعر المصري . ولا أي صبغة مصرية اجتماعية ، إلى نحو الثالث الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي ، أو إلى ما بعد منتصف

### القرن الثالث عشر الهجرى

ولكن رجلا من رجال النهضة الادبية بمصر فى القرن التاسع عشر كان أول من أدخل فى الشعر المصرى نوعا جديدا نقله من الشعر الفرنسى ، ذلك هو الشيخ رفاعه الطمطاوى ( ١٨٠١ — ١٨٧٣ ) الذى أوفده محمد على باشا الى باريس مع طلبه الأرسالية. على أن الشيخ رفاعه لم يكن شاعرا بما نازا بين شعراء عصره من شيوخ الأزهر ، ولكنه كان شغوفا بالأدب فتعلم الفرنسية وكان أول ما نقله منها الى العربية قصيدة نظمها فى مدح الامير محمد على ، أحد أساتذة اللغة الذين أرسلوا مع البعثة الى فرنسا .

وقال رفاعه بك فى مقدمة وضعها لهذه القصيدة : ( وقد سرحت ناظرى ونزعت خاطرى فى منظومة فرنساوية منسوبة لرئيس من يعلمنا من هذه اللغة القواعد ، ويفيدنا من فصاحتها بفرائد الفوائد ، العارف بأسلوب العرب والفرنساوى والبارع فى فهم المعنيين فهو لفخرها حادى ، الخواجة يوسف أكوب المصرى منشأ تتضمن غزلا وحنينا وتفائرا مقدما لمصر ووزيرها حضرة افندينا الخ ( طبعت هذه القصيد فى مدينة باريس سنة ١٢٤٢ هجرية ) .

وكان الشيخ رفاعه أول من أدخل النشيد الوطنى الى مصر على ما نعلم ، فقد نقل قصيدة المارسييز الفرنسية الى العربية فى شعر تصرف فيه بعض التصرف <sup>(١)</sup> حيث قال .

---

(١) اخترنا هنا مقطوعات من هذا النشيد الوطنى على غير ترتيبه المعروف

— ٢٥٤ —

فهيأ يا بني الاوطان هيا فوقت نخاركم لكم تهيمًا  
أقيموا الراية العظمى سويا وشنوا غارة الهيجا سويا

\*\*\*

عليكم بالسلام أيا أهالى ونظم صفوفكم مثل الآلى  
وخوضوا فى دماء أولى الوبال فهم أعداؤكم فى كل حال  
وجودهم غدا فيكم جلبًا

\*\*\*

فاذا تتبغى منا الجنود وهم جمع وأخلاق عبيد  
كذا أهل الخيانة والوفود كذاك ملوك بغى لم يسودوا  
تعصّبهم لنا لم يجد شيئًا

إلى آخر ماقاله فى هذا النشيد الطويل . ونسج على هذا المنوال قصائد  
أخرى كثيرة مزج ببعضها مدح الامراء وولاية مصر لتكون أناشيد  
وطنية ، ومنها منظومة طبعت بمطبعة بولاق سنة ١٢٧٢ هجرية

\*\*\*

بشرى لمصر سعدا بالعزلاح وسعيدها بالفوز ساعده الفلاح  
أبناء مصر نحن موطننا أصيل  
حسب عريق زانه مجسد أثيل  
ونغارنا فى الكون جل عن المنيل  
لرحابنا تطوى المهامه بالطلاح

بشرى . . . . .

نحن السراة وشأنا حب الوطن



ولشأنا السامى تراحم من قطن  
شأنى حمانا ليس من أهل الفطن  
فهو الدعى وعرضه شرطا مباح

. . . . . بشرى

وطن عزيز لايهان ولا يضام  
وحى تعزز من على عليها حام  
مجد له لازال يحترق الغمام  
عين السها لفخاره ذات التماسح

. . . . . بشرى

يا أهل مصر بر مصر فرض عين  
فى البر نبذل عن رضى نفسا وعين  
وإذا الرقيب رنا لها بلحاظ عين  
ماعدنا فى ففتها إلا الرماح

. . . . . بشرى

ملك قديم ساسه أحفاد نوح  
( مصر ايم ) فيه بطيخته تلوح  
هى بركة القيرىون مصرفها ييوح  
بسرائر التدبير إذ يروى البطاح

فكان الشيخ رفاة من المجددين فى الشعر على هذا النمط . وكان  
يكون لهذا الغرض الجديد فى الشعر أثر لو أن الشعراء نسجوا على  
منواله وساروا فى هذا الطريق الجدى القويم وتركوا المذموم وما يتبعه

من ماق أوردناه . ولكن الحركة الادبية لذلك العصر كانت حركة فردية  
أو مذهبا يعتنقه بعض الأدباء وحده ، بل كان الشاعر أو الكاتب يتأثر  
وحده بأثر خاص ، فينهج منهجا خاصا لا يتبعه فيه أحد وكان الشعراء  
يجلون القديم إجلالا ولا يخرجون عنه ولا عليه لركود افكارهم وجهلهم  
بوجوب التجديد في الأدب . لهذا بقى الشعر على طريقته الأولى

على أن الشيخ رفاعة نفسه تعذر عليه هجر القديم فكان يمدح  
الأمراء بفصائده من صميم الشعر القديم وأساليبه المعروفة .

وكان شعر هذا العصر صناعة لا غير جله سهل في لفظ تغمره  
المحسنات البديعية والعناية بفصاحة اللفظ والاستعارة والمجاز حتى لقد  
اصبح القارئ الأديب لا يجد فيه روعة الشعر الجيد الذي يؤثر في  
النفس ويوقظ فيها الشعور بمجمال القول . بل كان الشاعر ينزل احيانا إلى  
طبقة العامة في عباراته .

ومن شعراء هذا العصر السيد اسماعيل الخشاب المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ  
كان من أدباء عصره المعروفين تعلم في الازهر وقرأ كتب الأدب وله  
ديوان مطبوع بالاسكندرية .

والشيخ حسن العطار المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ وكان كاتبا أدبيا وحالما  
أزهر يا تولى مشيخه الازهر ومن شعره في وصف متزهات الشام  
بوادي دمشق الشام جزبي أخا البسط

وعرج على باب السلام ولا تخط  
ولا تبكي ما يبكي امرؤ القيس حوملا  
ولا منزلا أودى بمنعرج السقط

فان على باب السلام من البها ملابس حسن قد حفظن من العط  
هناك تلقى ما يروقك منظر

وتسلى عن الاخذان والصحب والرهط  
عرائس أشجار إذا الريح هزها تميل سكارى وهى تخطر فى مرط  
كساها الحيا أثواب خفر فدثرت بنور شعاع الشمس والزهر كالقمرط  
ومنهم السيد على الدرويش المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ وكان من الشعراء  
المعروفين والكتاب المشهورين نظم كثيرا من المقطوعات الغنائية  
ومدح عباس الأول حاكم مصر ، وله ديوان مطبوع ومن شعره فى المدح  
سررت بنيل القصد من غير موعد ولاشئ أشهى من سرور مجدد  
سررت بنعماء ، ولكن حزنت من

قصورى بحق الشكر فى فضل سيدي

له الحمد والشكر الذى هو أهله  
فلو كل عضو فيه عدة ألسن  
وهل أنا إلا عبد إحسان عفوكم  
تعودت - لولا لطفكم - غير حادى  
وزدتم نعيمى نعمة أبدية  
وكدرتم ظن الحسود بنعمتى  
وحملتني مالا أطيق وجوبه  
فيا أسعد السعيد للملكه  
قد أشغل الدرويش شكرا مؤرخا  
وقل له حمدى وشكرى ومنشدى  
لأعجزنى شكر الندى المتعدد  
فاضحى لديه مدحك كالتعبيد  
وصعب على الانسان مالم يعود  
وزدتم مقامى رفعة فوق مقصدي  
وأشهى من الانعام تكدير حسدى  
فينطق حالى عن لسان المعقد  
ودولته والموكب المتجند  
مليك سعيد النجم خير محمد

--٢٥٨--

ومنهم محمود صفوت الساعاتى وله مدائح فى شريف مكة الذى  
اتصل به أثناء أدائه فريضة الحج ثم رجع إلى مصر وتوفى سنة ١٢٩٨هـ  
بعد أن التحق بأكثر من وظيفة فى الحكومة ، وكان شعره أقرب إلى  
الدرجة الدنيا أكثر منه إلى الدرجة الوسطى .

ومنهم السيد على أبو النصر المتوفى سنة ١٢٩٨هـ وقد اتصل بالخدوى  
توفيق باشا ومدحه . ومن قصائده فى ذلك يصف سفره إلى الصعيد  
سنة ١٢٨٧ هـ .

زار فى مركب كعقد الآلى فازدهى بالقدوم صفو الليالى  
إلى أن قال :-

فازدهى رونق الصعيد جمالا	وتحلت أرجاؤه بالجلال
وروى النيل عن رواه حديثنا	يشرح الصدر شرحه فى المقال
حيث دقت بالشاطئين طبول	والأهالى تفوق عد الرمال
وتلاقوا بضمير سابقات	فترى الليث فوق ظهر الغزال
وتوالوا فى سيرهم فاضاءات	حلبة البيض بين سمر العوالى
وجميع البلاد أبدت سرورا	ناشرات أعلامها بابتهاال
حل فى منية الخصب فسرت	وتقوى سلطانها بالبحال
زار فى منفوط بيت أمير	زاده رفعة بحسن احتفال
وبأمسيوط لآل حين وافى	عن بلوغ المنى وفيض النوال
وبندر الصعيد مازال يرقى	بدر تشريفه بلطف انتقال
نسأل الله عذمة ونجاحا	وبقاء له وحسن مآل
وثنائى عايه أول فرض	والوفا بالثناء فرض محال

ومنهم أبو السمعود أفندي المتوفى سنة ١٢٩٥ هـ . وعبد الله باشا  
فكرى المشهور الذى أرتقى الى وزارة المعارف زمن الخديوى توفيق  
وكان قبل ذلك كاتباً للخديوى اسماعيل . وله قصائد كثيرة ورسائل  
نثرية مسجعة فى السياسة عن لسان اسماعيل باشا . سجنه توفيق باشا  
أثناء الثورة فاستعطفه بقصائد منها قوله وهو فى السجن .

مليكى ومرلاى العزيز وسيدى      ومن أرتجى آلاء معروفه العمرا  
لئن كانت أقوام على تقونوا      بأمر ، فقد جاءوا بما زوروا انكرا  
فما كان لى فى الشر باع ولا يد

ولا كنت من يبنى مدى عمره الشر  
فعفوا أبا العباس ، لازلت قادرا

على الأمر ، إن العفو من قادر أخرى  
وحسبى ما قدم من ضنك أشهر      تجرعت فيها الصبر أطعمه مرأ  
يعادل منها الشهر فى الطول حقبة      ويعدل فيها اليوم فى طوله شهرا  
أيجمل فى دين المروءة أنى      أكابد فى أيامك البؤس والعسرا  
وكان عبد الله باشا فكرى من علماء زمانه وأدبائهم ، ألف فى المطالعة  
وفى قواعد اللغة عدة كتب تدرس فى المدارس .

ومنهم الشيخ على اللبثى المتوفى سنة ١٣١٣ وكان من أشهر أدباء  
زمانه وأعلمهم بالأدب والشعر ، اتصل بالخديوى توفيق ومدحه  
ومن كلامه فى مدح السلطان عبدالعزيز بمناسبة عيد جلوسه سنة ١٢٩٠  
دع ذكر كسرى ، وقصر إن أردت ثنا

عن قيصر الروم حيث النفع معقود

واشرح مآثر من سارت بسيرته  
مولى الملوك الذى من يمن دولته  
عبد العزيز الذى آثاره حمت  
أجاد نظم أمور الملك فى نسق  
وشاد فوق العلا اركانه فغدا  
فلا تقسه بأسلاف له كرمتم  
ففخرهم عقد در ، وهو واسطة  
وممنهم عبدالله نديم الخطيب الثورى الاسكندى والكاتب القصصى  
وإمام الزجالين فى هذا العصر توفى سنة ١٢١٤ ومن شعره فى الفخر

إذا ما المجد نادانا أجبنا  
فانا فى عداد الناس قوم  
إذا طاش الزمان بنا حامنا  
وإن شئنا نثرنا القول درا  
وإن شئنا سلبنا كل لب  
وقال يصف قطارا بخاريا

نظر الحكيم صفاته فتحيرا  
دوما يحن إلى ديار أصوله  
ويظل يبكى ، والدموع تزيد  
المقا. حال السير افعى تلتوى  
أو سبغ غاب قد أحس بصائد  
أو أنها شهب هوت من أفقها  
شكلا كطود بالبخار مسيرا  
بجد يد قلب باللهيب تسعرا  
وجعا ، فيجرى فى الفضاء تسترا  
أو فارس الهيجا أثار العثيرا  
فى غابة فعدا عليه وزجرا  
أو قبة المنطاد تنبذ بالعرا

وله في نظم قصة رائعة

رب عبد رمته أيام سوء  
أنهكت كثرة الصيام قواه  
جس منه الطبيب نبضا ضعيفا  
قال : ماذا تشكو ؟ فقال مجيبا  
ثم اداه الاجتهاد بأن قا  
هات قرصا منضجا ثم ضعه  
فأثاه المولى البخيل بقرص  
أسرع العبد أكله بانتقام  
ثم قال الطبيب هذا غريب  
وغدا يسمع البخيل سببا  
قال ليت المنية أنشبت رو  
أودهاك الدهر الخثون بماسا  
هيك تخشى يوما من الدهر فقرا  
إنما الفقر والغنى بقضاء  
منشأ البخل واليأس ، وهو ضلال  
فتوكل على المهيمن تغنم  
وكل هؤلاء الشعراء أو جلهم كانوا في الطبقة الوسطى إن لم  
يكونوا في الطبقة الدنيا من بين فطاحل شعراء اللغة العربية في  
أزمانها المختلفة

وبقي الشعر على هذا المنوال إلى أن ظهر في حلبة الشعر والإدب رب

السيف والقلم محمود سامى باشا البارودى فنهض بالشعر نهضة ردت اليه مجده وأعادته له دولته وأحيا تراث فحول شعراء العصر العباسى، وحمل لواء الشعر الرصين البليغ ديباجة ومعنى، وأيقظ فى عالم الادب ملكات الشعر الخامده وصرف الادباء عن تلك الركائز الشعرية والصناعة الممقوتة التقليدية إلى الديباجة الحسنة والمعانى الجزلة ومحاكاة فحول الشعراء، وكان شعره المثل الاعلى فى ذلك. فتبعه الشعراء بعده وساروا على نهجه، فكان من إمام الداعين الى اعتناق مذهب الفحول من الشعراء السابقين. بخاراه فى طريقته حفى بك ناصف (توفى سنة ١٩١٩) الكاتب الشاعر البليغ واسماعيل باشا صبرى الشاعر المطبوع صاحب الاغانى والاناشيد البليغة والقصائد البديعة الذى (مصر) الشعر ونظم قصائده فى آثار مصر منها قصيدته التى عنوها بقوله « فرعون وقومه » وقال فى مطلعها

لا القوم قومى ولا الاعوان أعوانى	إذا دنى يوم تحصيل العلا وانى
ولست ان لم تؤيدنى فراغنة	منكم بفرعون على العرش والشان
لا تقربوا النيل ان لم تعملوا عملا	فأؤه العذب لم يخلق للكسلان
ردوا الحجر كذا دون مورده	أو فاطلبوا غيره ريا لظمان
وابنوك بنت الأجيال قبلكمو	لا تركوا بعدكم نفرا لانسان
أمرتكم فاطيعوا أمر ربكم	لايثن مستمعا عن طاعة ثانى
فالملك أمر وطاعات تسابقه	جنبنا جنب إلى غايات إحسان
لا تركوا مستحيلا فى استحالاته	حتى يميظ لكم عن وجه امكان

ومنها



أهرامهم تلك هي الفن متخذ - ذا  
 قد مردهر عليها وهي ساخرة  
 لم يأخذ الليل منها والنهار سوى  
 كأنها - والعوادي في جوانبها  
 جاءت إليها وفود الأرض قاطبة  
 فصعرت كل موجود ضخامتها  
 وعاد منكرو فضل القوم معترفا  
 تلك الهياكل في الامصار شاهدة  
 وإن فرعون في حول ومقدرة  
 إذا أقام عليها شاهدا حجير  
 كأنما هي والاقوام خاشعة  
 تستقبل العين في إثنائها صور  
 لو أنها أعطيت صوتا لكان له  
 من الصخور بروجاً فوق كبوان  
 بما يضعضع من صرح وإيوان  
 ما يأخذ النمل من أركان شهلاز  
 صرعى - بناء شياطين لشيطان  
 تسعى اشتياقا إلى ماخذ الفاني  
 وغض بنيانها من كل بنيان  
 يثنى على القوم في سر وإعلان  
 بأنهم أهل سبق أهل إمعان  
 وقوم فرعون في الاقدام كفآن  
 في هيكل قامت الأخرى ببرهان  
 أمامها صحف من عالم ثاني  
 فصيحة الرمز دارت حول جدران  
 صدى يروع صم الانس والجنان

وقال في الحياة وأخلاق الناس :-

فاض ماء الحياء من كل وجه  
 وتعشى العقوق في الناس حتى  
 أوجه مثلما نثرت على الاجدا  
 وشفاه يعكن أهلا ولو أدي  
 عمر الله هل إسلام - وداد  
 عميت عن طريقها أم تعامت  
 غرها سعادها ومن عادة السع  
 فغدا كالح الجوانب قفرا  
 كان رد السلام بحسب برا  
 ث وردا إن هن أبدين بشرا  
 ن مافي الحشا لما قلن خيرا  
 ذاك أم حاول المسلم أمرا  
 أمم في مفاوز الجهل حيرى  
 يدوانى يوما ويخزل دهر را

فتجنب على الشعوب وشنت	غارة في البلاد من بعد أخرى
نسيت في الصعود يوم التدي	والتدي بصاعد الجد مغرى
تعب الفليسوف في الناس عصرا	وتوالى السراير الدين عصرا
والورى طارد إزاء طريد	وعقاب يمسى يطارد صفرا
وجيوش يفل من بعضها البعض	وهضب كبرى تناطح صفرى
حاذرى يا ذئاب صولة أسد	منك أقوى نابا وأنفد ظفرا
لا تنامى يا أسد إن ذئابا	لم تم من روابض الفيل أضرى
عبر كلها الليالى ولكن	أين من يفتح الكتاب ويقرا
أنت نعم النذير يا نجم (هالى)	ززل السهل والرواسى ذعرا
ظن قوم فيك الظنون وقالوا	آية أرسلت الى الأرض كبرى
إن يكن فى يمينك الموت فاقد	ه شواظا على الخلائق طرا
هل تلقيت من لدن نازل البيا	غى وحامى الضعيف بأنجم سرا
أحيط بكل شىء ومرد	كل حى وتارك السهل وعرا
أعدا تستوى الانوف فلا ينظر	قوم قوما على الأرض شذرا
أعسدا كلنا تراب ولا ما	لك خلاف التراب برا وبحرا
أعدا يصبح الصراع عناقا	فى الهوى ويصبح العبد حرا
إن يكن كل ما يقولون فاصدع	بالذى قد أمرت حييت عشرا

ثم ظهر معجزة الزمان وحيد نسجه أحمد شوقي بك نخر الشعر  
والشعراء وأمام الأئدب والادباء بما ابتكر فى الشعر ، رسم مصر  
والاجتماع المصرى وأشاد بتاريخ مصر والشرق والاسلام . وخلف  
البارودى وبزه ، وأراد أن يجاريه فى عظامته حافظ ابراهيم فى موضوعاته

فجرى شوطا بعيدا فى هذا الميدان ولكن لم يلحق بألفه .  
ثم تطور الشعر تطورا وكثرا فى مصر هواته من الشبان الذين  
درسوا آداب الأمم الأخرى فأدخلت فيه أساليب جديدة فى أنواع  
التفكير وتصوير المعانى ورصف العبارات والخروج على الأساليب القديمة  
ولانزال صناعة الشعر تتقاذفها الأهواء وحب الخروج من القديم الى  
خير أو إلى شر إلى أن يستقر الأمر على مذهب جديد أو قديم .

### الصبغة المصرية

ويجدر بنا هنا أن نلاحظ أن الصبغة المصرية قد ظهرت فى الشعر  
منذ أن ظهر شعر البارودى فى عالم الأدب لأنه رسم فى شعره صورا  
من الحياة النفسية المصرية وتأثر بحوادث مصر السياسية والاجتماعية ،  
فأثارت فى نفسه التعبير عما يجول بها ، فرسم من تلك الحياة صورا فى  
شعر عربى فصيح ، جارى فيه أيضا بعض القدماء فى أساليبهم من حيث  
اختيار الألفاظ والعبارات والتشبيهات . وجاراه فى أسلوبه ونوعه  
بعد ذلك اسماعيل باشا صبرى ، وحدث فى الأيام الأخيرة - أى أوائل  
القرن العشرين - أن تأثر الشعر بالحوادث السياسية والاجتماعية فتسابق  
شعراؤنا فى هذا الميدان ، وأعظمهم قدرا . وأجلهم ذكرا فى ذلك من  
شعراء هذا العصر ، المرحوم أحمد شوقى بك ، والشاعر المطبوع المرحوم  
حافظ إبراهيم بك ، فإن هؤلاء كثيرا من القصائد والمقطوعات التى  
تجسب من الشعر المصرى الصميم حيث يرى القارى فيه صورة للحياة  
المصرية ونفوس أهلى مصر ، وكل هذا من الشعر العربى الفصيح

وقد تأثر الشعر الفصيح والنثر البليغ أيضا بالاجتماع المصرى والحياة المصرية فكان من أصدق صور الاجتماع وأحوال الناس فى بلدنا كما فى مقطوعات للبارودى ، ولإسماعيل باشا صبرى فى أغانيه التى وضعها شئ من ذلك ، وكان للحوادث الأخيرة التى حدثت فى مصر منذ أوائل القرن القرن الرابع عشر الهجرى أى سنة ١٨٩٠ ميلادية أثر عظيم فى نفوس شعرائنا المعاصرين لنا ، حتى ظهر كثير من هذه الحوادث أو التلميح اليها فى شعرهم . وأظهرهم فى هذا الشاعر ان الشهير ان أحمد بك شوقى ومحمد حافظ إبراهيم بك صاحب القصائد المعروفة فى أحوال مصر الأخيرة وسياسة البلاد والحوادث الوطنية ، على أنه قد سبقهما بشئ من هذا النوع المرحوم رفاعة بك الطهطاوى فى أناشيده كما أشرنا إلى ذلك . فشعر هؤلاء حادث من الحوادث ذات الأثر الشهير فى الأدب العربى ولا سيما فى الشعر العربى ، لأن هذا ما يسمى حقا ( تطورا ) وانتقالا من نظام القصائد المعروف الذى كان متبعها فى الشعر العربى ، وفى جميع البلاد التى تتكلم بلغة العرب ، ولا شك فى أن منشأ هذا الانتقال انتشار ما يسمونه بالروح الوطنية ومحاكاة الأئمة الأوربية فى ذلك ، بالاطلاع على ما كتبوا ونشروا من شعرهم وآدابهم . ولا يسعنا المقام الآن لتفصيل هذا الكلام ولكننا نقول مجملين القول إجمالا : أن هذه الروح التى انتشرت فى مصر أخيرا عند شعرائنا روح جديدة فى الشعر العربى لا بد أن تسير بالأدب إلى نوع مصرى يمثل الروح المصرية والحياة المصرية

وقد حدث فى مصر مثل ما حدث فى غيرها من البلدان التى يتكلم

أهائها العربية ؛ فكان فيها أدبان - أدب عربي صحيح وأدب مصري أكثره ملحون . ولقد قيض الله لهذا البلد بعض الأذباء الذين ساعدوا على نشر هذا الأدب المصري بالتعبير عن آراء العامة وتصوير الاجتماع المصري في أزجال شعرية أو أحاديث نثرية . فنقلوا لما تلك النفوس وما كانت عليه في هذا الكلام الذي صنعوه ووضعوه في قالب فني لا يقل بهجة ولا جمالا عن ذلك الشعر العربي البليغ . هذه الأزجال العامية وهذه الأحاديث التي تمثل لهجة السواد الأعظم من المصريين ونوع آخر من الشعر القصص لكبار الشعراء المصريين وهو مانسميه « بالأدب المصري » وهو الذي سنتكلم عليه الآن وننشر نماذج منه ولكن قبل أن نصف ذلك الأدب المصري يلزمنا أن نقول كلمة عن العصر الذي نشأ فيه ، وعن أخلاق المصريين في جملتها لانه مرآة لهن الذين العالمين ، ونقتصر في هذا على القرن التاسع عشر .

أما الحالة الاجتماعية منذ استولى المغفور له ( محمد علي ) على مصر في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي فكانت متأثرة بأحوال سياسية بعضها كان عالقاً بالنفوس من عصر المماليك ، ذلك العصر الاستبدادي الذي ولد في الشعب المصري الخضوع للحاكم خوفاً من بطشه . والتهكم عليه وعلى أعوانه في السر لا في العلانية ، والاستسلام إلى القضاء ، والاستهانة بأهوال الحياة ، وتحمل الظلم على أنه قضاء من الله ، والتسلي عن الآلام بالتهكم والسخرية من الحياة والناس وأحوالهم ، والرضا بما ينال الإنسان في عيشه ، حتى أصبحت هذه الصفات كأنها عامة في المصريين ، وكانت أكثر ظهوراً في سكان القاهرة الذين كانوا متصلين

بالحكام أو على كتب من أعمالهم . وبعض أحوال المصريين الاجتماعية نشأت من تبسط الحكام في الحياة والمساعدة على إباحة السرور للناس بالتمتع ونشر أعلام السرور ، والافاضة على العامة بالأموال من جراء ذلك ، باقامة الاحتفالات والأفراح كما كانت الحال في عصر (الخدوي اسماعيل) فقد اختص بعض الأدباء والشعراء والمغنين كالشيخ علي الليثي وعبد الجولي وغيرهما ، حتى سرى في البلد روح فني أدبي ، وعلى أثر ذلك السرور انتشر في النفوس الميل إلى التهكم ( والتنكيت ) والنقد الحلو والفكاهة العذبة . فوافق ذلك أخلاق المصري في مجاتها وهي — كما قلنا — الاستسلام إلى القضاء وتحمل أعباء الحياة بكل خضوع وارتياح ، والنظر الى الدنيا نظر الفيلسوف أو المتوكل على الله . ومقابلة المصائب مقابلة الصبور المستهزئ بها . والمصري بطبعه صبور يكميه في يوم ما يسد رمقه ويشغل أشق الأعمال غير متألم ولا جزع فاذا ناء بالاثقال قال ( الحمد لله على الصحة والعافية ) ومع ذلك فهو ممتلئ نشوة وسرورا ، خفيف الروح يميل إلى ( التنكيت والتبكيك ) فكه المجلس يمزج الهزل بالجد في حديثه . حلو المعاشرة كثير الضحك بعيد أحيانا عن النظر في المسائل الجدية كثير التسامح لين الجانب . حتى لقد يقابل كلمة السوء تصيبه من عدو يريد أن ينكل به ، أو صديق خبيث يريد أن يهزأ به بقهقهة ( وبنكتة بلدية ) أو بفكاهة ظريفة . ولقد يكتفي بالتهكم والسخرية لظهار ألمه ، ويبتلع الكلمة المرة التي يغص بها غيره وتحدث في نفسه غثيانا . وربما حمله الحياء أحيانا على أن يبقى على غره — وإن أساء — لأنه صفوح عن الإساءات .

ليس من أصحاب الآثرة . به كثير من السذاجة الفطرية التي قد تغلب على قوة عقله وحضور ذهنه ولباقة لسانه ، طيب القلب ، كريم النفس ، ضعيف الارادة ؛ ومن هنا تجده كثير التسامح .

وجملة القول ، أن أعظم ما يوصف به عقل المصرى هى ملكة النقد والتهكم وخفة الروح ، وحسن الفكاهة ، وحدة الذكاء وحضور الذهن كل هذا ، وغيره كثير ، ظهر فى الأدب المصرى الحديث . فان الحوادث السياسية والاجتماعية فى تلك الأيام حركت نفوس الادباء من كتاب وشعراء إلى نقد الاجتماع والنظر فى الحياة المصرية ووضعها فنشأ عن ذلك الأدب المصرى الحديث الذى ظهرت فيه هذه الأخلاق التى رسمناها أمام القارئ . وكانت هذه الآداب بلهجة قريبة من لهجة العامة لتمثيل عقولهم وأفكارهم وما كان يجرى بينهم من الأحاديث والآراء . وأكثر ذلك نسيج فى نوع من الشعر المعروف بالزجل وانتشر هذا منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى آخره على لسان الشيخ حسن الآلاتى ، وعبدالله نديم والشيخ محمد النجار وغيرهم .

بل ظهر نوع من الأدب الحديث الذى لم يكن معروفا فى الآداب العربية قبل هذا العصر ، على أنه أقرب شئ إلى تصوير الحياة الاجتماعية تصويراً صحيحاً ، وهو تلك القصص التمثيلية المصرية بلهجة قريبة جداً من لهجة العامة ، وأول من ابتكر هذا النوع عبدالله نديم بروايته (الوطن والعرب) وغيره ممن سنتكلم عنهم ، وظهرت أناشيد مصرية وطنية كما فى قصائد المرحوم الشيخ رفاعة الطهطاوى وقصص أخرى منظومة أو مننورة للمرحوم محمد عثمان جلال وغيرهم .

وعلى الجملة فأن لأدباء القرن التاسع عشر في مصر الفخر في أن  
يرسموا الأخلاق المصرية في آدابهم ، وأن يزيدوا في الاداب العربية آدبا  
مصرية حديثة

وليس الأدب المصرى كله من الشعر أو النثر العامى ، بل تأثر الشعر  
الفصيح والنثر البليغ أيضا بالاجتماع المصرى والحياة المصرية . فكان  
من أصدق صور الاجتماع وأحوال الناس في بلدنا كما في مقطوعات  
للبارودى ، ولإسماعيل باشا صبرى في أغانيه التي وضعها شىء من ذلك .  
وكان للحوادث الأخيرة التي حدثت في مصر منذ أوائل القرن الرابع  
عشر الهجرى أى سنة ١٨٩٠ ميلادية أثر عظيم في نفوس شعرائنا  
المعاصرين لنا ؛ حتى ظهر كثير من هذه الحوادث أو التلميح إليها  
في شعرهم . وأظهرهم في هذا الشاعران الشهيران أحمد بك شوقي حامل  
لواء شعرائنا الآن ، ومحمد حافظ إبراهيم بك صاحب القصائد المعروفة  
في أحوال مصر الأخيرة وسياسة البلاد والحوادث الوطنية ؛ على أنه  
قد سبقهما بشيء من هذا النوع المرحوم رفاعة بك الطهطاوى في  
أناشيده كما أشرنا إلى ذلك . فشعر هؤلاء حادث من الحوادث ذات  
الآثر الشهير في الأدب العربى ولا سيما في الشعر العربى ، لأن هذا  
ما يسمى حقا (تطورا) وانتقالا من نظام القصائد المعروف الذى كان  
متبعما في الشعر العربى ، وفي جميع البلاد التي يتكلم أهلها بلغة العرب . ولا  
شك في أن منشأ هذا الانتقال انتشار ما يسمونه بالروح الوطنية ومحاجة  
الأمم الأوربية في ذلك ، بالاطلاع على ما كتبوا ونشروا من شعرهم  
وآدابهم ولا يسعنا المقام الآن لتفصيل هذا الكلام ، ولكننا نقول



مجملين القول إجمالاً : أن هذه الروح التي انتشرت في مصر أخيراً عند شعرائنا روح جديدة في الشعر العربي لا بد أن تسير بالأدب إلى نوع مصرى يمثل الروح المصرية ، والحياة المصرية .

وحدث في النثر مثل ذلك أو أكثر بما ينشر من الروايات والقصص الاجتماعية والتمثيلية ، ولكن من أسف لم يعن بجمعها وتدوينها والاطلاع عليها مثل ما عنينا بالشعر ، وذلك لعدم شهرة كتابها ، ولأن كثيراً منها مكتوب بصيغة لا يعتمد عليها قراء العربية الصحيحة . غير أن شيئاً من ذلك لا يدعونا الآن إلى الخط من قدرها وعدم العناية بها وعلى أنها في رأينا من أصدق صور حياتنا المصرية .

لأن هذا الشعر العامى ، أو الزجل المصرى الذى نشأ أيضاً على أثر الحوادث السياسية والاجتماعية فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر أظهر فى تمثيل الحياة الاجتماعية لقربه من اللغة العامية التى يتكلم بها جمهور الشعب المصرى . ولقد كان عبد الله نديم ( ١٨٤٤ - ١٨٩٦ ) حامل لوائه ، وأعجوبة زمانه فى ذلك ، وكان بطبعه ميالاً لنقد الأحوال الاجتماعية والسياسية ، قادراً على الاسترسال فى الكلام حلواً الفكاهة يميل إلى التنكيت والتبكيك فبرع فى هذا النوع من الشعر العامى وملاؤه بنقد الاجتماع ووصف الرذائل الفاشية ، وكان ينشر ذلك فى جريدتى ( التنكيت والتبكيك ، والاستاذ ) وسرت هذه الروح الأدبية العامية فى مصر ، وجرى عليها أكثر الأدباء حتى كانوا يتراسلون بالزجل ، ولم يكديخلو مجلس من مجالسهم بدون أن يتراسلوا بأبيات منه ، أو يتناشدوا ببعض عباراته أو يتناشدوا مرتجلين الكلام

—٢٢٢—

ارتجالاً ، وكل هذا ممزوج بفكاهة أو شكوى يبعثها شعور وطني ،  
وكان هذا أيضاً على أسلوب الأغاني العامية ، وقد انتشر هذا النوع  
إلى ما بعد أوائل القرن العشرين ، وكان لمحمد عثمان بك جلال ( توفي  
١٨٩٨ ) شيء من هذا ، وكثير من طلبة العلم والشعراء طرّقوا هذا  
الباب ، ومنهم من أصبح معروفًا بين الزجالين كالشيخ محمد النجار ، وإمام  
العبد الشاعر المعروف ، وغيرهما ممن أشتهر ذكره :

فمن نوع هذه الأزجال قول الشيخ محمد النجار ( توفي في أوائل  
القرن العشرين ) وهذا زجل وضعه لينقذ فيه شبان العصر وسماء  
« زجل في الموضه » وهو من نماذج هذه الأزجال التي كانت منتشرة  
في نقد الأحوال الاجتماعية والذائل التي انتشرت بين ظهرانيها .

المطلع

ياموضه يا جيل الوز يا حنية من غير بؤ

دور

ياموضه جيلك معروض فات السنة والمفروض

يبقى صغار لسه ومفروض ويروح آل يسكر ويمز

دور

الجامع يوم الجمعة فاضى والخماره جامعه

والغيبه في شهره وسمعه تدبج في الرقة وتحز

دور

والموضه راكبه فيتون والمعاشق فيها مفتون

والمغازب عقله مجنون من كدته يفتن ويوز

- ٢٧٣ -

دور

الموضنه بطربوش وزكته والملاح بالتوب البفتة  
قولوا له الستة بستة دى اللبده من عرفه تنز

دور

ماعليش فلاح مش موده على قده ساكن فى أوده  
وأنت ياموضنه فى روضه والاجرة بتحاق وتحز

دور

تقليدك للغير ياخيه جاب رجلك بعدن فى الخيه  
وغرقت فى شبرين من ميه ووقعت فى دين بيعز

\*\*\*

وفى هذا الزمن الذى اتجه فيه الشعراء إلى نقد الاجتماع بهذه الالهجة  
العامية كانت اللغة العربية الفصحى ظاهرة بجلالها وجمالها ناشرة ألوية  
فصاحتها وبلاغتها مالمكة أعنة هؤلاء الشعراء أنفسهم ، فلم يكن منهم  
إلا من كان شاعرا فصيحاً يحسب من أبلغ شعراء العصر . وهكذا  
سار الشعر الفصيح إلى جانب الشعر العالى حتى تغلب عليه وسبقه  
وأطفا جذوته وثار من جديد فى نفوس شعرائنا الحداثيين ، وأخذ الشعر  
المصرى الاسلوب العربى الفصيح مع دلالاته على حياتنا المصرية . وسرى  
قريبا إمعان شعرائنا فى ذلك حتى يصبح الشعر المصرى نوعا من الشعر  
العربى ، يضم الى تقسيم الشعراء المعروف ، ويزيد فى بلاغة العرب  
نوعا جديدا .

م - ١٨ أدب

## محمود سامى البارودى

نسبه وأشأته

هو محمود سامى البارودى بن حسن حسنى البارودى (أمير الموفعية ومدير (برر) و (دقوله) زمن محمد على باشا) بن عبدالله بك الجركسى وينتهى نسبه إلى نوروز الاتابكى المالكى الأشرفى أخى برسمباى قرا المحمدى والبارودى كما جاء فى شرح ديوانه نسبة إلى اتياى البارود المعروفة كان بها جده الأمير مراد البارودى .

وكانت ولادة محمود سامى بالقاهرة بقصر باب الخلق فى شهر رجب سنة ١٢٥٥ هـ من الهجرة وقد توفى والده سنة ١٢٦٢ هـ وعمره سبع سنين تربي وتعلم محمود سامى تربية أبناء الاشراف والسراة فى ذلك الزمن وتلقى العلم على أستاذة بمنزله وتعلم اللغة العربية على شيوخ الازهر وكان فى نفسه منذ صغر ميل إلى علوم البلاغة وقراءة الشعر ومعالجة الكتابة وحفظ أشعار العرب والعناية بأسرار اللغة حتى وقف على دقائقها ونمت فى نفسه ملكة الشعر وحب الاطلاع على كلام فحول الشعراء فأخذ فى نظم الشعر ومجازاة هؤلاء الشعراء فى قصائدهم الشهيرة ووقف جهوده العقلية على التأدب بكلام العرب . ويظهر أن ذلك كان كل مالىه من ثقافة لأنه لم يكن ممن يقرؤن كثيرا كما ذكر ذلك الشيخ حسين المرصنى فى الوسيلة الأدبية . قال .... هذا الامير الجليل ذو الشرف الاصيل والطبع البالغ نقاؤه والذهن المتناهى ذكاؤه محمود سامى باشا البارودى ؛ لم يقرأ كتابا فى فن من فنون العربية غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد من طبعه ميلا إلى قراءة الشعر وعمله . فكان يستمع بعض

من له دراية وهو يقرأ بعض الدواوين أو يقرأ بحضرته حتى تصور في  
برهة يسيرة هيات التراكيب العربية ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات  
والحفوضات حسب ما تقتضيه المعاني والتعليقات المختلفة . فصار  
يقرأ ولا يكاد ياحن . وسمعتة مرة يسكن ياء المنقوص والفعل المعتل بها  
المنصوبين . فقلت له في ذلك . فقال هو كذا في قول فلان وأنشد شعرا  
لبعض العرب . فقلت تلك ضرورة . وقال علماء العربية أنها غير شاذة  
ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ  
الكثير منها دون كلفة واستثبت جميع معانيها ناقدا شريفا وخسيسها  
واقفا على صوابها وخطئها مدركا ما كان ينبغي وفق مقام الكلام وما  
لا ينبغي ، ثم جاء من صنعه الشعر اللائق بشعر الأمراء كأبي فراس  
والشريف الرضي والطغرائي الخ ..

هذا كل مآلعه البارودي وقد روى ذلك شارح ديوانه أحد  
شيوخ الأزهر الذي لازمه في آخر حياته وكان كاتب سره . والشيخ  
حسين المرصني وكان معاصرا له وأحد أصدقائه المعجبين به . ومن هذا  
نرى أن ثقافة البارودي كانت ثقافة شعرية لا غير وكل معلوماته كانت  
لا تتعدى حفظ أشعار العرب ومعرفة أسرار بلاغتها : مع ذلك فقد  
بلغ شأوا المتقدمين وبذلك كثيرا منهم  
البيئة وأثرها :

ولكن البارودي تعلم كثيرا من البيئة التي عاش فيها وقرأ في  
صحف الحياة مالمس في الكتب وأملت عليه الحوادث مالا تمليه عقول  
الرجال ، وكان ذكي الفؤاد بطبعه فتعلم كثيرا مما شاهدته وسمعه ورآه ..

مع هذا فكان البارودى ميالا إلى معرفة اللغات وإلى آداب الأمم الأخرى كما أشار إلى ذلك الشيخ حسين المرصفي فيما سبق إذ قال: «ثم استقل بقراءة دوواين مشاهير العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير منهم بدون كلفة» وكان أقرب اللغات إليه وأحبها بعد العربية اللغة التركية لغة آبائه وأجداده فسافر إلى القسطنطينية وانتظم في سلك الموظفين هناك وتعلم اللغة التركية وأتقنها حتى صار كاتباً وشاعراً فيها. ويقولون أن له في ذلك شعراً وثراً يعد من الكلام البليغ. وتعلم مع ذلك اللغة الفارسية وحذقها أيضاً ونظم فيها قصائد بليغة.

وقد بقي البارودى في الامتانة إلى سنة ١٢٧٩ من الهجرة ثم رجع إلى مصر مع الخديوى اسماعيل وبعد ذلك انتظم في خدمة الجيش فأُسندت إليه رتبة بكباشى وقيادة فرقة الفرسان (السوارى) ثم سافر إلى فرنسا مع بعض زملائه الضباط لمشاهدة عرض التدريب العسكرى الذى كان يقام هناك كل سنة ومساءً من باريس إلى لندن للاطلاع على نظام الجيش الانجليزى وعدد القتال هناك وأماحيته ثم رجع إلى مصر وقد عرف نظم الجيش في فرنسا وانجلترا.

ارتقاؤه المناصب:

ومازال يرتقى إلى المناصب العسكرية حتى نال رتبة «أميرالاي» وقيادة الحرس الخاص وعندما خرجت جزيرة أقریطش (كريت) على الدولة العثمانية أرسل على رأس جيش لمحاربة هؤلاء الخارجيين، ويقولون انه أظهر هناك من ضروب الحيل والمقاتلة ما بهر الأعداء، وأنال جيشه النصر والظفر. وفي هذه المواقع قال قصيدته الشهيرة:

أخذ الكري بمعاقد الأجناف وهفا السرى بأعنة الفرسان  
والليل منشور الذوائب ضارب فوق المتالع والربا بجران  
لا تستبين العين في ظلمائه إلا اشتعال أسنة المران  
إلى أن قال :

والخيل وافقة على أرسائها لطراد يوم كربة ورهان  
وضعو السلاح إلى الصبح وأقبلوا يتكلمون بالسب النيران  
حتى إذا ما أصبح أسفر وارتمت عيناي بين ربا وبين مجاني  
فاذا الجبال أسنة وإذا الوها دأعنة والماء أحمر قان  
وبعد أن رجع من هذه الحرب دخل في حاشية الخديوى اسماعيل  
حارسا (ياورا) ولما صار توفيق باشا وارثا للحكم في مصر عين البارودى  
رئيس الحرس (الياوران) ثم كاتب السر الخاص للخديوى اسماعيل .  
وقد أرسل بعد ذلك مرات لمساعدة الدولة العثمانية في حروبها مع  
لهرساك والبلقان والجبل الأسود . كما أرسل سنة ١٢٩٤ من الهجرة  
مساعدة جيش السلطان في حربه مع الروس . وكان في كل هذه الحروب  
مثال الشجاعة وشدة البأس وسداد الرأى وحسن التدبير والقائد البطل الجعد  
قد حاز أرقى القاب الشرف العسكرية . ثم عين بعد ذلك مديرا للشرقية  
م حاكم لمدينة القاهرة (رئيس ضبطية القاهرة) فأقام في أثناء ذلك العدل  
ضبطا الامور وأصلح مفاصل الاخلاق من ظلم ورشوة ، وكانت في ذلك  
وقت مراحل الحق قد تغلى في طبقات الناس ونيران الشرور تندلع اندلاعا  
ولما خرج الخديوى اسماعيل من مصر سنة ١٢٩٦ هجرية . وأصبح  
رفيق باشا حاكم وادى النيل قلد البارودى وزارة الاوقاف . فأقام أودها

ونظم أعمالها وفي سنة ١٢٩٧ من الهجرة . عين وزير الجهادية (الحرية) على أثر الاضطراب الذى حدث فى الجيش ثم أعزل مركزه هذا ثم رجع يتقلب فى مناصب الوزارة حتى عين رئيسا للنظار (الوزارة) سنة ١٢٩٩ وبقى بها إلى أن كثرت الدسائس فهجر تلك المناصب ولزم بيته إلى أن قامت الثورة العراقية فالتجأوا اليه للاستعانة به وقد نصح بغير ما رأى عرابى وأشياعه فى محاربة الانجليز ولكنه رأى من الواجب عليه مساعدة أمته ووطنه فاشترك مع القائمين بالثورة . ثم كانت الكارثة الكبرى فى هزيمة المصريين فقال فى ذلك .

نصحت قومي وقلت الحرب مفعجة	وربما تاح أمر غير مظنون
وكان أولى بقومي لو أطاعوني	ونخطف الظن فى بعض الاحايين
وحتى إذا لم يعد فى الامر منزعة	وأصبح الشر أمرا غير مكنون
أجبت إذ هتفوا باسمي ومن شيمي	صدق الولاء وتحقيق الاطمانين

نفية :

ثم أسر بعد ذلك وأرسل الى ميلان بالهند وبقى هناك سبعة عشر عاما فقد فى آخرها بصره وزوجه وأولاده وكثيرا من أصدقائه وقد كان لهذا للنفي أثر عظيم فى حياته ألهمه آيات بينات فى شعره وعبراً وحكما فى كلامه . وفى آخر الأمر عفى عنه الخديوى عباس الثانى فرجع الى مصر من منفاه سنة ١٣١٨ هجرية . ومازال كعبة الادباء إلى أن توفى سنة ١٣٢٨ .



## شعر البارودي

لا نكاد نجد عصرًا من عصور الأدب انحطت فيه ملكة الشعر مثل العصر الذي أدركه البارودي في صباه . فقد كان الشعر صناعة ومحاكاة للقدماء . بل كان صناعة ضعيفة ومحاكاة ناقصة ومصورة مشوهة لمن تقدم من الشعراء . وكانت هذه حال الشعر منذ العصر التركي وقبله أى منذ القرن الثامن الهجرى حيث سادت الصناعة اللفظية المتكلفة وصار الشعر تقليدا واختلاقا وكذبا في ضروب الغزل وتملقا في المدح وسرقة واغتصابا في جميع الأغراض والمعاني . وصار الشعراء يعثرون بالألفاظ ولا يبالون بما يقولون وأنحط الشعر عند كثير منهم إلى أن أصبح ضربا من الوزن لا غير ليس فيه روح الشعر الصحيح ولا جمال الافتنان اللذان هما عماد بلاغة القول لدى الشعراء . وقد كان أقطاب شعراء العصر الذى عاش فيه البارودي أمثال السيد اسماعيل الخشاب (توفى سنة ١٣٢٠) والشيخ حسن العطار (توفى سنة ١٢٥٠) والسيد الدرويش (توفى سنة ١٢٧٠) ومحمد صفوت الساعاتى (توفى ١٢٩٩) وغيرهم ممن لا يحسب شعرهم من الشعر الجيد فى شيء كما جاء فى قصيدة للسيد صالح مجدى بك (توفى سنة ١٢٨٩) يمدح بها حسين باشا نغرى ناظر الاشغال والمعارف والاقواف حيث قال

لجنابك العالى ثلاث مصالح	نظمت بسمطى عسجد ولجين
وأضاء منك جبينها برياسه	أعمالها منشورة العامين
ونمت بها بركت أوقاف روت	مصرنا وقد فاضت على الحرمين
وبحزمك الاشغال زاد نجاحها	ونجازها فى السهل والجبلين

وبديع نظم كامل في كامل من مخلص بالقلب والشفقتين  
من مخلص لك في الثناء بدولة أصبحت فيها حائز الشرفين  
وقد يكون من جيد الشعر إذ ذاك قول عبدالله باشا فكري  
يشكر الخديوي توفيق على العفو عنه أثر الحوادث العرايية  
حيث قال

مليكي ومولاي العزيز وسيدى ومن ارتجى آلاء معروفه العمرا  
فقد جاءوا بناد أزوروا  
فما كان لي في الشر باع ولا يد ولا كنت من يبغي مدى عمره الشعر  
فعفوا أبا العباس لازلت قادرا على الأمر أن العفو من قادر أخرى  
هكذا كانت جمهرة الشعراء في هذا العصر وهكذا كان جل  
الشعر على هذا النحو من الضعف

فما ظهر البارودي في حلبة الشعراء بعث روح الشعر العباسي  
من مرقده وأحيا لنا روعة شعرا أبي نواس، والبحترى، ومسلم بن الوليد  
والشريف الرضى، والمتنبي، وأبي العلاء المعرى وأمثال هؤلاء الفحول  
بحاكتهم والسير على سننهم وجاء بالجزالة والرصانة في المعنى والاسلوب  
وأسكت شعراء عصره وكانت روحه روح شاعر مفطور على فهم  
الشعر الفنى البليغ وأدراك فنونه فاقتبس من فحول الشعراء خير معانيهم  
وأجملها وأعاد لنا العصر العباسي بصناعاته الجميلة وبلاغته الرائعة إذ كان  
يفهم الشعر لا كما يفهم غيره من شعراء عصره بأنه نظم وصناعة بل  
قال في مقدمة ديوانه :

« وبعد فإن الشعر لمعة خيالية يتألق وميضها في سماوة الفكر

فتمنبعت أشعتها إلى صحيفة القلب فيفيض بلألؤها نورا يتصل خيطه  
بأسلة اللسان فينفث بالوان من الحكمة ينباج بها الحالك ويهتدى بدليلها  
السالك وخير الكلام ما اتلفت ألفاظه وأتلفت معانيه وكان قريب  
المأخذ بعيد المرئى ، سليما من وصمة التكلف بريئا من عشوة التعسف  
غنيا عن مراجعة الفكرة فهذه صفة الشعر الجيد »

هكذا كان البارودى يفهم الشعر . فلم يقل الشعر محاكاة لا غير  
أو من باب التسلية أو اظهار للبراعة أو رغبة فى الحصول على عطاء أو  
شهرة وإنما كانت تتملىء نفسه بالمعاني والأغراض وتتملىء عمايه الحوادث  
فينظمها كما قال هو عن نفسه :

« لقد كنت فى ريعان الفتوة واندفاع القريحة بتيار القوة ألهج  
به لهج الحمام بهديله وآنس به أنس العديل بعديله . لا نذرنا إلى وجه  
أنتويه ولا تطلعا الى غم أحتويه . وإنما هى أغراض حركتى وإباء  
جميع بى وغرام سال على قلبى فلم أتمالك أن أهبت فحركت به جرسى  
أو هتفت فسريت به عن نفس

تكلمت كالماضين قبلى بما جرت به عادة الانسان أن يتكلم  
فلا يعتمدنى بالاساءة فافل فلا بد لابن الأيكة أن يترنما »  
فكان شعره صادقا منبعثا من قرارة نفسه ومن عواطفه وإحساسه  
وصورة لما يجول برأسه من أثر مارآه وشاهده ووقع له فى مشئون حياته  
المختلفة . فليس هو شاعرا خياليا ولا هو ممن يصورون مظاهر الطبيعة  
وجمالها إظهارا لبراعته وافتنانه ولا من الشعراء الذين يستمدون الشعر  
وأخيلته من أحلامهم اللذيذة وأهوائهم النفسية وميوههم الفنية لا غير

أما البواعث التي بعثته على قول الشعر والصفات العامة لشعره ونواحيه فهي كثيرة منها تربيته تربية أبناء الأشراف (أو البيئته الارستقراطية) التي عاش فيها فقد أثرت هذه التربية في نفسه حتى جعلته يشعر بالعمزة والكرامة أكثر من كل شيء . فكان نبيلاً في كلامه كما كان نبيلاً في أصله وخلقه وصار يتغنى بهذه النبالة في شعره في غير ماموضع ويذكر أنفثته من الناس واستغناءه عنهم في شيء من الكبر والعظمة وكرامة النفس مما لا يعرف عند كثير من الشعراء فيقول

خلقت عيوفاً لا أرى لابن حرة      على يدا أغضى لها حين يغضب  
أو يقول :

وإن امرؤ لولا العوائق أذعنت	لسلطانه البدو المغيرة والحضر
من النفر الغر الذين سيوفهم	لها في حواشي كل داجية فجر
إذا استل منهم سيد غرب سيفه	تفرعت الأفلاك والتفت الدهر
لهم عمود مرفوعة ومعاقل	وألوية حمراء وأفنية خضر
ونار لها في كل شرق ومغرب	لمدرع الظلماء السنة حمراء
تمد يدا نحو السماء خضيبية	تصالحها الشعري ويلثمها الغفر
وخيل يعم الخافقين صهيلها	نزاع معقود بأعرافها النصر
معوذة قطع الفيافي كأنها	خدا رية فتخاء ليس لها وكر
أقاموا زماناً ثم بدد شمامهم	ملول من الأيام شيمته الغدر
فلم يبق منهم غير آثار نعمة	تضوع بريها الأحداث والذكر
وقد تنطق الآثار وهي صوامت	ويثني برياه على الوابل الزهر
لعمرك ما حي وإن طال سيرة	يعد طليقاً والمنون له أسر

والقد تحمله كرامته على أن يثب وثبة الأسد في وجه من يغضب  
منه ولا يبالي بماذا عسى أن يكون من قطيعة ولا غضب . وتعلم نفسه  
إلى السماك فيهبج ويتور ويجاهر بالعداء ولا يقبل ودا بعد غدرو ويتهدد  
ويتوعد ويستهمين بنده وكأنما ترى الحماة تقذف بالموت في كلامه  
وكانك تسمع في شعره زئير الأسد أو تراه أمامك سالا سيفه متحفزا  
للوثوب ، أو كأنك تسمع صوته ، وترى حركاته ، ولكن كل ذلك  
في عفة لسان ، ونبالة نفس ، وفي أدب العظام إذ يقول :-

أتخفر ذمتي وتروم عطفي	لقد منتك نفسك بالكذاب
فما بعد القطيعة من تلاق	ولا بعد الخديعة من عتاب
وكيف يصبح بعد الغدر ود	وتسام نية بعد ارتياب
رويدك إنني صعب أبي	على الأقران مرهوب الجناح
أجاهر بالعداء ولا أبالي	وأنطق بالصواب ولا أحابي
فما زندي لدى العوصاء كاب	ولا سيفي غداة الحرب ناب
يهاب القرن بادرتي فيمضي	وما جردت سيفي من قراب
فان رمت السلامة فاجتنبني	عدوا فالسلامة في اجتنابي
فقد عادت أعظم منك قدرا	وما ضاقت على بدني ثيابي
فان تنزع فأنت طابق عفوى	وان تطمع فسوف ترى عقابي

ويظهر أن هذه النبالة النفسية وكرم المحتد كثيرا ما كانا يستوليان  
على عقله وشعوره فيتغنى بهما . ولعله كان يريد بذلك أن يدفع عن  
نفسه معلق بها من شرور الأيام أو ما أصابه من جراء حياته السياسية  
ومن مميزات نخره أنك إذا قرأته أعجبك منه روح الشاعر ورأيت أن

شعره ليس من باب العظمة والكبرياء ولا العجب بالنفس وانما هو تنفس  
 وأنين ونقمة على الحوادث والآثام وتبرأ من الدنيا وإشعار بالهمة  
 والكرامة أو هو صورة من نفس الشاعر الكبيرة المتألمة الفخورة  
 بالفضائل لهذا تحب أن تقرأ شعره وتشعر بميل إلى الشاعر نفسه  
 لأنك ترى فيه مع ذلك نفساً طروبة عظيمة طيبة كريمة نبيلة  
 استمع إليه يقول :

فأقبل وصاتى واستمع حكى	فليس من أغوى كهن أرشدا
إنى وان كنت أخوا صبوة	ومسمع يطربنى منشددا
فقد أزور الليث في غابه	وأهبط الأرض عليها الندى
وأصدع الخضم وما خلتنى	أصدع الا البطل الا صميدا
« بلهزم » ليست له صعدة	لكنه يعضى إذا سدددا
أو « صارم » يقرى نياط الكلى	ولم يزل في جفنه ثمغمددا
ماضى العزارين ولاكنه	لا يعرف الصيقل والمبرددا
أو « مشقّص » ان فوق نصله	إلى امرئ غير يد أقصددا
أو « طائر » فى وكره جاثم	يشوق إن هينم أو غرددا
لم بعد كنا لم يزل ساكنا	فيه وبابا دونه مؤصددا
قد لان إلا أنه ان قسا	يوم نضال صددع الجلمددا
معتقل لكن مطلق	يجول فى مسكنه سرمددا
يحكم بالذوق على ما يرى	ويعرف الا صلح والافسددا
له صحاب قد أحاطت به	تنقل عنه نبرات الصدى

فهو بها مجتمع شمله      ان أصدر القول بها أوردنا  
 مشتبهات الرصف في جودة      تبارك الله الذى جودا  
 يبيت منها وهو ذو مرة      فى رصف من أولو نضدا  
 ذاك « لسانى وهو حسبي إذا      ما أبوق الحاسد أو أرعدا  
 أثر النفي فى شعره :

وقد كان للحوادث التى حدثت بمصر ونفى من أجلها البارودى  
 أثر عظيم فى نفسه كما كان لتربيته تربية النبلاء ذلك الأثر الذى رأيناه  
 ودفعه الى الفخر باخلاقه النفسية وآدابه العالية فان خروجه من بلاده  
 فتح أمامه باباً للشكوى مما أصابه من عنت وظلم دفعه إلى الحنين إلى  
 وطنه وألمه كثيراً من المعانى والاخيلة الشعرية فكانت قصائده فى  
 هذا الباب من أجزل المعانى وأبلغ ما تكون بلاغة وأبرع ما يكون افتنان  
 فقد تجده يذكر أيامه الماضية ويصور حاله وما كان فيه من عزلة  
 وكرامة ورفعة شأن وجاه عظيم ، ويبسط أمامك تلك المجالس والمحافل  
 التى كان فيها العلم المفرد ، وتجد مع هذه الصور التاريخية الاجتماعية  
 صوراً متعددة لنفسه الكبيرة العزيزة بماضيها الذليلة فى حاضرها .  
 وبينما تجده يحلق فى قمة مجده وعلاه : يزهو بما رآه ويفخر بماضيه يجده  
 متأنراً بما نزل به من الحوادث . ولكنك لا تجده أبداً يصور نفسه فى  
 ذلة أو حقارة بل يتحدث فقط عما نزل به ظلماً وعدواناً وهو يستسلم  
 للآلام ويعجب من الأقدار فيكشف عن نفس بائسة يائسة حتى يظن  
 لأول وهلة أنها فقدت عزتها أو تنامت كرامتها فقضت لما وقع بها  
 ولكن قوة نخره بنفسه وشيئه تذهب بهذا الظن وتضمحل

أمامها الحوادث التي نزلت به حتى كأنها لم تكن وكأنه فارس واقع في  
ميدان القتال يحارب الاقدار ويريد أن يتغلب عليها . وهذه أنة من  
حنينه وشكواه في ذلك

ياحبذا جرعة من ماء محية وضجعة فوق برد الرمل بالقاع  
ونسمة كشميم الخلد قد حملت ريا الأزهير من ميث واضراع  
ياهل أراني بذاك الحى مجتمعا بأهل ودى من قومي وأشياعى  
وهل أسوق جوادى للطراد إلى صيد الجأذرى خضراء ممراع  
منازل كنت منها فى بلهينة ممتعا بين غلمانى وأنباعى  
إذا أشرت لهم فى حاجة بدعوا قضاءها قبل أن يرتد الماعى  
يخشى البليغ لسانى قبل بادرى ويرعد الحيش باسمى قبل ايقاعى  
ولقد تجده يصور لك هذه الذكريات وماكان بها من لهو ومجون  
وسرور مما يدل على امتلاء نفسه وبذكرياته من صور الماضى من بؤس  
ونعيم وكأنه كان يتسلى بذلك عما هو فيه من أهوال وابتئاس وحنين  
على أيامه الماضية .

فتجده يسعد أحيانا بتلك الذكريات التي مرت به ومر بها وتلك  
الأيام التي عاش في بحبوحتها وتمتع بلذاتها وذاق حلوها وثمل بنشوتها  
وأوقاتها وكأنها نعيم مقيم أو سعادة أبدية .

فيعرض عليك مجالس الشرب وصور الشاربين وهم كاللكواكب  
سنا وسنا يتسابقون إلى المدام .

فى أباريق كالطيور اشراأت حذر الفتك من صياح البزاة  
وبينهم المقى المطرب الساحر بصوته ونغماته التي تنسى الانسان



آلام الحياة وتملؤه فرحاً وسروراً . وهو يرى أن هذه الأوقات هي  
لذة العيش وملاك السعادة .

وأحياناً تسمح خلال تغنيه لسعادته الماضية نبرات آلامه ورنات  
بؤسه وندمه على مضي هذه الأيام وفنائها وانغماسه الآن في البؤس وهو  
تتناوبه ذكريات الماضي وشقاؤه الحاضر وتاحب به الأيام لعب النكباء  
بالعود فيقول :

أدر الكأس يانديم وهات	وأسقنيها على جبين الغداة
شاق سمعى الغنا فى رونق الفج	وسيجع الطيور فى العذبات
أى شىء أشهى إلى النفس من كا	س مدار على بساط نبات
هو يوم تعطرت طرفاه	بشمال مسكية النفحات
باسم الزهر عاطر النشمر هام	قطر وإنى الصبا عليل المهابة
مسرح للعيون يمتد فيه	نفس الريح بين ماض وآت

ويدنما هو يمرح فى تلك الذكريات الماضية ينبعث فى نفسه حنين  
إلى مصر والنيل صادراً من قلب مكوم ونفس ملأته الحسرة ولكنه  
حنين يدل على حبه الصادق لبلاده مما فى نفسه من تلك الصور الجميلة  
تى تمر بذاكراته فى سلسله صوره صوره ويزيدها جمالا بخيالها الجميل ويتغنى  
سها أغاني جميلة مشجية ويدكر أن الرجوع إلى وطنه أعظم أمنية له  
فيقول :

وتدرج معى إلى روضة المنى	ل ذات النخيل والثمرات
هى مرعى الهوى ومغنى التصانى	ومراح المنى ومسرى الحياة
لقتها النفوس فهى إليها	من أليم الأشواق بالحسرات

تبعث اللهو والسرور وتمحو بين زدمان كالسكواكب حسنا يتساقون بالسكؤوس مداما في أباريق كالطيورا شرأبت حانيات على السكؤوس من الرأ لا نرى العين بينهم غير صب ومغن إذا شدا خلت أن الأ ملك السمع والفؤاد بلحن يبعث الصوت مرسلًا فاذا ما غرد يبطل الحديث وينسى تلك والله لذة العيش لاسو وقد يبكي في شعره على أيامه الماضية وهو في منفاه فيقول :

أبيت حزينا في سرنديب ساهرا أطول الليالي والخليلون هجدا أحاول مالا أستطيع طلابه كذا النفس تهوى غير ما تملك اليها إذا خطرت من نحو حلوان نسمة نزت بين قلبي شعلة تتوقد وهيأت مابعد الشبيبة موسم يطيب ولا بعد (الجزيرة) معبد شباب واخوان رزئت ودادهم وكل امرئ في الدهر يشقى ويسعد وما كنت أخشى أن أعيش بغربة يعلنني فيها خويدم أسود وشعره في منفاه كثير يدل على ثوران نفسه وفورتها التي بعثت فيه قول الشعر وكانت من أسباب افتنانه وسعة خياله والكلام على شعره بقية







